بسم الله الرحمن الرحيم

وزارة التعليم العالي

جامعة أم القرى

كلية الدعوة وأصول الدين

نموذج رقم (٨)

إجازة أطروحة علمية في صيغتها النهائية بعد إجراء التعديلات

الاسم (رباعي) : سعيد إبراهيم مرعي خليفة كلية : الدعوة وأصول الدين قسم : العقيدة

الأطروحة مقدمة لنيل درجة : الدكتوراه في تخصص : العقيدة

عنوان الأطروحة : ((جلال الدين السيوطي وآراؤه الاعتقادية عرض ونقد على ضوء عقيدة أهل السنة والجماعة))

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد :

فبناءً على توصية اللجنة المكونة لمناقشة الأطروحة المذكورة أعلاه _ والتي تمت مناقشتها بتاريخ ٢٦/٦/١٤٢١هـ _ بقبولها بعد إجراء التعديلات المطلوبة ، وحيث قد تم عمل اللازم ؛ فإن اللجنة توصي بإجازتها في صيغتها النهائية المرفقة للدرجة العلمية المذكورة أعلاه ...

والله الموفق ...

أعضاء اللجنة

المشرف	المناقش الداخلي	المناقش الخارجي
الاسم : د/ محمود محمد مزروعة	الاسم : د/ عبد العزيز عبد اللطيف المرشدي	الاسم : د/ سعود بن عبد العزيز الخلف
التوقيع :	التوقيع :	التوقيع : ......

يعتمد

رئيس قسم العقيدة

الاسم : د/ عبد الله بن محمد القرني

التوقيع :

• يوضع هذا النموذج أمام الصفحة المقابلة لصفحة عنوان الأطروحة في كل نسخة من الرسالة .



المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى
كلية الدعوة وأصول الدين
الدراسات العليا
قسم العقيدة

جلال الدين السيوطي وآراؤه الاعتقادية

عرض ونقد

على ضوء عقيدة أهل السنة والجماعة

بحث مقدم لنيل درجة الدكتوراه

إعداد الطالب

سعيد إبراهيم مرعي خليفة

إشراف الأستاذ الدكتور

محمود محمد مزروعة

الجزء الأول

١٤٢٠هـ — ٢٠٠٠م

ملخص الرسالة

تتضمن هذه الرسالة مقدمة وستة أبواب وخاتمة .

في المقدمة بيان سبب اختيار الموضوع ، ومنهجه ، وخطته .

الباب الأول : السيوطي وعصره ، في أربعة فصول ، أولها عصره من الناحية السياسية والدينية والعلمية ، وثانيها : نشأته وحياته وفي الثالث : شيوخه وتلاميذه وفي الرابع : مؤلفاته وآثاره .

والباب الثاني : منهج السيوطي في البحث و الاستدلال ، وهو ثلاثة فصول : الأول : منهجه في الاستدلال لمسائل العقيدة ، والثاني :موقفه من التأويل ، والثالث : نقده المنطق وعلم الكلام .

والباب الثالث : آراؤه العقدية ، وهو أربعة فصول : الأول : رأيه في معرفة الله عزوجل ، والثاني : توحيد الربوبية ، والثالث : توحيد الألوهية ، والرابع : توحيد الأسماء والصفات ،

والباب الرابع : عن النبوات وهي ستة فصول : الأول : مفهوم النبوة والرسالة ، والثاني : عن المسائل المتعلقة بالأنبياء والرسل عليهم السلام ، الثالث : الوحي وطرقه ، والرابع : طرق اثبات النبوة ، والخامس : صفات الرسل عليهم السلام ، والسادس : نبوة سيدنا محمد ﷺ وخصائصه .

الباب الخامس : اليوم الآخر ومقدماته .

وهو ثلاثة فصول : الأول : بعض أشراط الساعة ، والثاني :الحياة البرزخية ، والثالث : يوم القيامة ـــ البعث والشفاعة والحساب والصراط والميزان والجنة والنار ورؤية الله تعالى يوم القيامة .

والباب السادس : موقفه من البدع والتصوف وفيه فصلان.

الأول : موقفه من البدع ، والثاني : موقفه من التصوف .

ثم الخاتمة ومن أهم نتائجها :

١ ـــ السيوطي مكثر من التصنيف ،ولهذا الإكثار أسباب كثيرة معقولة ذكرتها .

٢ ـــ شهد المترجمون للسيوطي بالإمامة في العلم وهذا دليل صحة ادعائه بلوغ مرتبة الاجتهاد

٣ ـــ ومع بلوغ السيوطي هذه المنزلة والمكانة فإنه ليس بمعصوم من الخطأ والزلل كبقية البشر ، ودون الأنبياء والمرسلين ـــ عليهم السلام ـــ .

٤ ـــ أحسن السيوطي في نقد المنطق وعلم الكلام ، والدعوة للتمسك بالسنة والتحذير من البدع ،وأحسن في توحيد الألوهية والربوبية وأحسن كلامه عن النبوات وكذلك الكلام عن اليوم الآخر ، وترجيحه نبوة سيدنا الخضر ـــ عليه السلام ـــ .

٥ ـــ ولكنه ـــ رحمه الله ـــ جانب الصواب عند كلامه عن توحيد الأسماء والصفات ، وعن طريقته في التأويل ، وعن الأبدال والأوتاد والأقطاب والنجباء ، وأخطأ في قوله بتطور الولي بمعنى أن الولي يظهر ويرى بالعيان في أكثر من مكان واحد وفي لحظة أو في وقت واحد بعينه ، كما أنه لم يوفق في ترجيحه حياة الخضر عليه السلام .

الطالب	المشرف	عميد كلية الدعوة
سعيد إبراهيم مرعي خليفة	أ.د/ محمود محمد مزروعة	د/ عبدالله بن عمر الدميجي

شكر وتقدير ودعاء

الحمد لله المبتدي بالنعم ، بارئ النسم ، ورازق الأمم ، الذي علمنا ما لم نكن نعلم ، وكان فضله علينا عظيماً .

والصلاة والسلام على الرسول العلم ، محمد سيد العُرْبِ والعجم ، وعلى آله وأصحابه منارات الظُلَم ، وعلى أزواجه وأتباعه إلى يوم أن يحشر الناس على قدم . وبعد :

فإنني أشكر لهذه البلاد المباركة حسن استضافتي ، وإكرامها وفادتي ، حيث عوضني الله تعالى فيها – عن غربتي أحباباً وإخواناً ، ورزقني فيها على الخير والعلم أبراراً وأعواناً .

أشكرها حكومة راشدة ، وشعباً وفياً كريماً مؤمناً ، داعياً للجميع بالتوفيق والعافية والسداد ، والأجر الجزيل ، وأخص بالشكر منهم جامعة أم القرى الموقرة ، والقائمين عليها ، وخصوصاً كلية الدعوة وأصول الدين ، عميداً ، ووكيلاً ، وأعضاء هيئة تدريس ، وجميع المنسوبين إليها ، وكذا مكتبات الجامعة ومراكزها والقوامين عليها .

وإني إذ أشكر هؤلاء جميعاً لأتوجه بالشكر الخالص ، إلى استاذي وشيخي الأستاذ الدكتور/ محمود أحمد خفاجي / المشرف الأول الذي عايش معي هذه الرسالة حينما كانت مجرد فكرة ساذجة ثم تبلورت موضوعاً جاداً ، أشرف عليه فترة من الزمن مباركة ، أفدت منه خلالها الكثير والجميل ، فجزاه الله عني خير الجزاء وحفظه ومتعه بموفور الصحة والعافية كما أتوجه بشكري وتقديري وإجلالي إلى أستاذي وشيخي فضيلة الشيخ الأستاذ الدكتور/ محمود محمد مزروعة / الذي تولى الإشراف على هذا البحث من بعد أخيه وحبيبه الأسبق ، فتعهدني ،

وتعهد بحثي صغيراً وتولاه بالعناية والرعاية أستاذاً ومشرفاً وموجـــهاً ، وأباً حانياً ، ولم يضن عليّ بوقت أو بجهد أو بمال ، حتى نما هذا البحث وازدهى ، وتم واستوى على ســـوقه ، فلــه منـــي الشــكر الجزيـــل ، والإعتراف بالجميل ، والدعاء الخالص بدوام الســـداد والتوفيـــق ، وأن يغمره ربه – جل وعلا – بموفور الصحة والعافيـــة وأن يلبســـه تـــاج السعادة في الدنيا والآخرة ، فجزاه الله عني خيراً مـــن عـــالم عـــامل ، يشجعني عند الكسل ، ويثبتني عند الوجل ، ويحفزني لبلوغ الأمل .

كما يمتد شكري إلى جميع إخواني وزملائي ، وجيراني ، وإلى كل من قدم لي جهداً ، أو بذل لي دعوة ، أو أعانني بعرية كتـــاب أو دلنـــي على مقال ، أو قدم لي دعماً مادياً أو معنوياً ، فللجميع شكري وتقديري ، وأسأل الله تعالى أن يتقبل مني لهم خالص دعائي .

الباحث

المقدمة

إن الحمد لله ، نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلامضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله أرسله بالحق بشيراً ونذيراً بين يدي الساعة ، من يطع الله ورسوله فقد رشد ،ومن يعص الله ورسوله فقد غوى ، وإنه لايضر إلا نفسه ولايضر الله شيئاً ، نسأل الله أن يجعلنا ممن يطيعه ويطيع رسوله ويتبع رضوانه ويجتنب سخطه ، فإنما نحن به وله .

وبعـد فهـذه مقدمة أبين فيها أسباب اختيار هذا الموضوع واستعرض فيها خطة بحثه ، وأوضح المنهج الذي سرت عليه فيه .

أ ـ أسباب اختيار الموضوع :

لقد قيض الله تعالى لهذا الدين علماء أفذاذاً ، قاموا بخدمته ونشر علومه وأحكامه ، ودعوا إلى مبادئه وأصوله ،وكان لكـل مـنهم مـنهجه فـي الدعوة إلى الله ومجادلة الخصوم ، وتثبيت عقائد الإسلام ، والدفاع عنها ضد الأفكار الغربية ، والمناهج المريبة .

كان جلال الدين السيوطي واحداً من هؤلاء الأعلام ، ولقد حظى السيوطي بدراسات عديدة من قبل كثير من الباحثين ، فمـنهم مـن درس جهـوده العـلمية من جهة تفسير القرآن الكريم وعلومه ،ومنهم من قام بإبراز أعماله كمحدث حافظ لأحـاديث المصـطفى محمد ﷺ ومنهم من جد واجتهد في بيان براعته اللغوية وأعماله الأدبية. وغيره من حاول توضيح ملكته الفقهية والأصولية .

غيـر أنـني لـم أجد بين هؤلاء ـ على حد علمي القاصر ـ من عمد إلى آرائه العقدية فتناولها بالتوضيح والبيان ،وترسـخ فـي نفسي أن علماً كالإمام جلال الدين أبي الفضل عبد الرحمن السيوطي لابد وأن يكون له مساهمة أكيدة في جانب البحوث العقدية والكلامية .

لذلـك آثـرت أن أدنو ـ على وجل ـ من هذا الباب فأطرقه ، لأقف على حقيقة ماتركه من آراء وجهود في مجال الاعتقاد .

كما أن دراسة الآراء الاعتقادية لأحد الأئمة البارزين ، من أعظم الوسائل لأن ينال الباحث فيها قسطاً كبيراً من الفائدة العلمية التي تضاف إلى مداركه فتزيدها وتنميها نظراً لما تتيحه هذه الدراسات من الاطلاع الواسع على اكثر قضايا العقيدة ومسـائلها كمـا انها تلزمه ببيان عقيدة السلف أهل السنة ، وآرائهم مما يحفزه على البحث عن الأدلة ومناقشتها والموازنة بينها ، وبيان الحق ورد الباطل ، ووزن ذلك كله بميزان الكتاب والسنة .

ولذلـك وقع اختياري على هذا الموضوع ، وتوجهت النية إلى الكتابة فيه ، رغبة في تسليط شيء من الضوء لإنارة جـانب من جوانب السيوطي التي قد تخفى على كثير من طلاب العلم ، فعقدت العزم ، وشددت الحزم مستعيناً بالله ـ جل وعلا ـ ، ثم خضت بسفينتي الضعيفة ذلك البحر الخضم ، وأول مافعلته حينئذ اختيار الاسم لهذا المولود الجديد ، فسميته " جلال الدين السيوطي وآراؤه الإعتقادية ، عرض ونقد على ضوء عقيدة أهل السنة والجماعة " .

ب ـ أما منهجي الذي سرت عليه خلال البحث :

١ـ أبدأ كل مسألة بالتعريف بها في اللغة والاصطلاح حتى يكتمل لدى القارىء تصورها ومعرفتها .

٢ـ ثم أورد كلام السيوطي في نفس المسألة مع أدلته .

٣ـ أورد أقوال العلماء الأخرى في المسألة إن وجد ، كل قول بدليله .

٤ـ أورد كلام علماء أهل السنة وما استدلوا به من أدلة ثم أناقش أدلة المخالفين لأهل السنة .

٥ـ أوضح وجه التوافق أو الاختلاف بين رأي السيوطي وبين عقيدة أهل السنة

٦ـ الاعتماد على مؤلفات السيوطي المقطوع بنسبتها إليه في عرض أقواله وآرائه .

٧ـ عرض عقيدة أهل السنة من خلال المصادر الأصلية .

٨ـ الاستشهاد في الاستدلال على الرأي الصحيح بالآيات القرآنية وأحاديث الصحيحين أو أحدهما ، مع عزوها إلى أماكنها وأرقامها .

٩ـ الـرجوع إلى كتب السنة الأخرى إن لم أجد بغيتي في الصحيحين أو في أحدهما مع بيان درجة الحديث وأقوال الأئمة فيه ٠

١٠ـ حـاولت قـدر طاقتي أن أشرح المصطلحات التي يبعد فهمها على القارئ ، وأبين معانيها ، وكذلك المفردات الغريبة من قواميس اللغة ٠

١١ـ التعريف بالفرق التي وردت خلال البحث ، وكذلك المذاهب والطوائف المختلفة ٠

١٢ـ ترجمت للأعلام الذين ذكروا في البحث ، إلا مالم يسعفني الوقت او المصادر في ترجمتهم ٠

١٣ـ وضعت فهارس الرسالة المطلوبة ٠

خطة البحث :

وجاءت خطة البحث في مقدمة وستة أبواب ، وخاتمة ٠

ـ أمـا المقدمـة فجعلتها متضمنة أسباب اختيار الموضوع ، وخطة البحث ومنهجي العلمي الذي سرت عليه أثناء البحث ٠

الباب الاول : السيوطي عصره وحياته ٠

وفيه ثلاثة فصول :

الفصل الأول : عصر السيوطي : وفي ثلاثة مباحث :

المبحث الأول : الحالة السياسية ٠

المبحث الثاني : الحالة الدينية ٠

المبحث الثالث : الحالة العلمية ٠

الفصل الثاني : نشأته وحياته : وفيه خمسة مباحث :

المبحث الأول :اسمه ونسبه ٠

المبحث الثاني : ولادته ونشأته وحياته ٠

المبحث الثالث : طلبه العلم ورحلاته ٠

المبحث الرابع : مكانته العلمية ٠

المبحث الخامس : السيوطي بين أنصاره وخصومه ٠

الفصل الثالث : شيوخه وتلاميذه : وفيه مبحثان :

المبحث الأول : شيوخه ٠

المبحث الثاني : تلاميذه ٠

الفصل الرابع : مؤلفاته وآثاره : وفيه مبحثان :

المبحث الأول : بيان الأقوال في عدد مصنفاته وأسباب كثرتها

المبحث الثاني : بيان أشهر مصنفاته في مختلف الفنون ٠

الباب الثاني : منهج السيوطي في البحث والاستدلال : *فيه ثلاثة فصول :*

الفصل الأول : منهجه في الاستدلال لمسائل العقيدة ٠

وفيه ثلاثة مباحث :

المبحث الأول : سمات منهج السيوطي

المبحث الثاني : منزلة العقل عند السيوطي

المبحث الثالث: القياس وأهميته

الفصل الثاني : موقفه من التأويل : فيه ستة مباحث :

المبحث الأول : في بيان المحكم والمتشابه

المبحث الثاني : هل المتشابه ممايمكن الاطلاع عليه؟

المبحث الثالث:هل تعتبرآيات الصفات من المتشابه؟

المبحث الرابع : معنى التأويل ٠

المبحث الخامس : التأويل عند السيوطي ٠

المبحث السادس:اتهام السيوطي الإمام احمد بالتأويل والرد عليه ٠

الفصل الثالث : موقفه من المنطق وعلم الكلام :فيه مبحثان :

المبحث الأول : موقف السيوطي من المنطق ٠

المبحث الثاني : موقف السيوطي من علم الكلام٠

الباب الثالث :آراء السيوطي العقدية : ***فيه ثلاثة فصول :***

الفصل الأول : معرفة الله عزوجل وفيه ثلاثة مباحث :

المبحث الأول : هل معرفة الله عزوجل فطرية أم نظرية؟

المبحث الثاني : أول واجب على المكلف ٠

المبحث الثالث : إيمان المقلد ٠

الفصل الثاني : توحيد الربوبية ٠

الفصل الثالث: توحيد الألوهية : وفيه ثلاثة مباحث :

المبحث الأول : تعريف توحيد الألوهية ٠

المبحث الثاني : أساليب القرآن في تقرير توحيد الألوهية

المبحث الثالث : ماذكره السيوطي من نواقض التوحيد أو نواقصه ٠

الفصل الرابع : توحيد الأسماء والصفات : وفيه مبحثان :

المبحث الأول : تعريف توحيد الأسماء والصفات

المبحث الثاني : منهج السيوطي في توحيد الأسماء والصفات ٠

الباب الرابع : النبوات ٠ ***وفيه ستة فصول :***

الفصل الأول : مفهوم النبوة والرسالة والعلاقة بينهما ٠ وفيه ثلاثة مباحث :

المبحث الأول : النبوة والنبي في اللغة ٠

المبحث الثاني : الرسالة والرسول في اللغة ٠

المبحث الثالث : النبي والرسول في الاصطلاح ٠

الفصل الثاني : الأنبياء والرسل ٠ وفيه أربعة مباحث :

المبحث الأول : وجوب الإيمان بهم جميعاً ٠

المبحث الثاني : لب دعوتهم ٠

المبحث الثالث : عددهم ٠

المبحث الرابع : المفاضلة بينهم ٠

الفصل الثالث : الوحي وطرقه ٠ وفيه مبحثان :

المبحث الأول : الوحي ٠

المبحث الثاني : طرقه ٠

الفصل الرابع : طرق إثبات النبوة ٠ وفيه مبحثان :

المبحث الأول : أهل السنة يثبتون النبوة بطرق كثيرة ٠

المبحث الثاني : طرق إثبات النبوة عند السيوطي ٠

الفصل الخامس : صفات الرسل عليهم السلام ٠ وفيه أربعة مباحث :

المبحث الأول : أنهم بشر ٠

المبحث الثاني : أنهم رجال ٠

المبحث الثالث : أنهم صادقون ٠

المبحث الرابع : أنهم معصومون ٠

الفصل السادس : نبوة نبينا محمد ﷺ وخصائصه ٠ وفيه مبحثان :

المبحث الأول : نبوة نبينا محمد ﷺ ٠

المبحث الثاني : خصائص نبينا محمد ﷺ ٠

الباب الخامس : اليوم الآخر ومقدماته *وفيه ثلاثة فصول :*

الفصل الأول : مقدمات اليوم الآخر ٠ وفيه مبحثان :

المبحث الأول : العلامات الصغرى ٠

المبحث الثاني : العلامات الكبرى ٠

الفصل الثاني : الحياة البرزخية ٠ وفيه مبحثان :

المبحث الأول : معنى الحياة البرزخية ٠

المبحث الثاني :الكلام على مستقر الأرواح ومايتعلق بها

الفصل الثالث : يوم القيامة ٠ وفيه ثمانية مباحث :

المبحث الأول : البعث ٠

المبحث الثاني : الشفاعة ٠

المبحث الثالث : الحساب ٠

المبحث الرابع : الميزان ٠

المبحث الخامس : الصراط ٠

المبحث السادس : الجنة والنار ٠

المبحث السابع : رؤية الله تعالى في الآخرة ٠

المبحث الثامن : هل يرى النساء ربهن تعالى في الجنة ٠

الباب السادس : موقفه من البدع والتصوف ٠ *وفيه فصلان :*

الفصل الأول : موقفه من البدع ٠ وفيه ثلاثة مباحث :

المبحث الأول : تعريف البدعة ٠

المبحث الثاني : الفرق بين السنة والبدعة ٠

المبحث الثالث : أقسام البدع عند السيوطي ٠

الفصل الثاني : موقفه من التصوف ٠ وفيه سبعة مباحث :

المبحث الأول : تعريف التصوف ٠

المبحث الثاني : نشأة التصوف ٠

المبحث الثالث : التصوف عند السيوطي ٠

المبحث الرابع : آداب الصوفي ٠

المبحث الخامس : الأبدال والأوتاد ٠

المبحث السادس : الخضر عليه السلام ٠

المبحث السابع : تطور الولي ٠

وأخيراً : الخاتمة التي سجلت فيها أهم نتائج البحث ٠

وبعد : فهذا جهدي القاصر ، الذي لايحق لي أن أدعى له الكمال ــ قطعاً ــ وحسبي أنني قد بذلت جهدي ،واستفرغت وسعي ، وأضنيت نفسي ، ولكن تقاصرت همتي ، وضعف عزمي ، وعجزت قواي عن بلوغ ماكان ينبغي ٠

وإنني لابرأ إلى الله ــ عزت قدرته ــ من كل رأي ، ومن كل قول وفكر ، ومن كل مذهب وفهم خالف الحق المنزل في كتاب الله تبارك وتعالى أوسنة رسوله ﷺ الصحيحة ، على مراد الله ــ عزوجل ــ وعلى مراد رسوله ﷺ ــ وعلى فهم سلف هذه الأمة الصالحين ،من الصحابة والتابعين ومن تبعهم بإحسان من أئمة أهل السنة والجماعة ٠

وصلى الله تعالى وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ٠



الباب الأول

{ السيوطي عصره وحياته }

١- الفصل الأول : عصره .
٢- الفصل الثاني : نشأته وحياته .
٣- الفصل الثالث : شيوخه وتلاميذه .
٤- الفصل الرابع : مؤلفاته وآثاره .

الفصل الأول

عصر السيوطي

تمهيد :

إذا نظرنا إلى العصر في حقبة تاريخية محددة ، وجدناها عبارة عن مجموعة من العناصر المتفاعلة ، التي يؤثر كــل عنصر في الآخر ويتأثر به تأثُراً واضحاً وهكذا كان عصر السيوطي ، كبقية الأعصار على امتداد الزمن ، فجلال الدين السيوطي باعتباره واحداً من أفراد عصره كان واحداً من نتاج ذلك العصر ، وشجرة باسقة نمت فيه ، وهو باعتباره واحداً من العلماء المعدودين الكبار ، فقد ترك بصماته الواضحة هو الآخر على صفحة عصره الذي عاش فيه .

ولا تكــتمل المعرفة التامة بعالم من العلماء إلا بمعرفة عصره من جوانبه المختلفة ، وسوف نركز ــ إن شاء الله ــ على عصر السيوطي من نواح ثلاث :

١- الناحية السياسية .

٢- الناحية الدينية .

٣- الناحية العلمية .

المبحث الأول : الحالة السياسية

لم يشتغل السيوطي بالسياسة ، وإن كان قد تقلد بعض الوظائف إلا أنها كلها لا تعدو كونها وظائف علمية دينية لا صلة لها بسياسة الدولة .

وقد عاصر السيوطي ثلاثة عشر سلطاناً من السلاطين الجراكسة (أو الشراكسة)[1] وهم كلهم من المماليك الذين حكموا مصر في تلك الفترة[2] .

---

(١) قــال بعضهم : انهم من جنس الترك ــ انظر سمط النجوم العوالي بأنباء الأوائل والتوالي ــ عبدالملك بن حسين بن عبدالملك العصاص المكي (١٠٤٩هــ = ١١١١هــ) المطبعة السلفية (جــ٤/٣٠) .

وقال بعضهم " بل هم جنس آخر لا صلة له بالجنس التركي المغولي التوراني لا باللغة ولا بالنسب ــ انظر نفس المصدر والصفحة

(٢) وهم على الترتيب الآتي :

١- الملك الظاهر سيف الدين جقمق العلائي (٨٤٢هــ = ١٤٣٨م) إلى (٨٥٧هــ= ١٤٥٣م) .

٢- الملك المنصور أبو السعادات فخر الدين عثمان بن جقمق وكانت مدة ولايته أربعين يوماً من عام (٨٥٧هــ = ١٤٥٣م) .

٣- الملك الأشرف سيف الدين أبو النصر أينال الاشقر العلائي وكانت ولايته من (٨٥٧هــ = ١٤٥٣م) إلى (٨٦٥هــ = ١٤٦١م) نحو من ثمان سنين .

٤- المــلك المؤيــد أحمــد بن الملك الأشرف أينال العلائي ، وكانت ولايته نحواً من خمسة أشهر تبدأ من ١٤ من جمادي الأولى عام (٨٦٥هــ = ١٤٦١م) إلى ١١ من رمضان من نفس السنة .

٥- الملك العادل سيف الدين خشقدم الناصري ، وكانت ولايته نحواً من ست سنين وخمسة أشهر (٨٦٥هــ ١٤٦١م) إلى (٨٧٢هــ = ١٤٦م)

٦- الملك الظاهر أبو النصر بلباي المؤيد ، وكانت مدة ولايته شهرين إلا أربعة أيام من عام (٨٧٢هــ = ١٤٦٧م) .

٧- الملك الظاهر أبو سعيد تمر بغا الظاهري (٨٧٢هــ= ١٤٦٧م) إلى (٨٧٣هــ= ١٤٦٨م).

٨- السلطان الأشرف قايتباي ، وكان أشرفهم وأفضلهم وأحمدهم سيرة ، من (٨٧٣ هــ = ١٤٦٨م) إلى (٩٠١هــ = ١٤٩٦م) .

٩- الملك الناصر أبو السعادات محمد ابن السلطان الأشرف قايتباي ، وكان يغلب عليه الجنون والسفه من (٩٠١هــ = ١٤٩٦م) إلى (٩٠٤هــ = ١٤٩٨م) .

وكانت السمة البارزة في تولي هؤلاء الملوك زمام الحكم هي سمة الغلبة والقهر ، فكان أحدهم يتولى سلطان المملكة فإذا غُضب عليه وثب عليه آخر ، فقهره قتلاً أو سجناً ، وانتزع منه الملك ثم يؤول الملك لمن بعده بنفس الطريقة والكيفية التي آل بها إلى من قبله .

ومن الطبيعي أن يصطبغ الحكم في هذه الدول بالصبغة القهرية العنيفة المتعسفة[١] ، لأنها دول عسكرية تملكت بالقوة والقهر بطريقة ما يشبه الانقلابات العسكرية في العصر الحاضر ، فإذا أضيف إلى هذا أن هؤلاء الملوك والسلاطين كانوا من المماليك الذين اشتروا بالمال كعبيد وخدم زاد الأمر في نفوسهم حدة وقسوة وبطشاً في أساليب الحكم والإدارة ، مع ما يحيط بذلك من عقدة الرق[٢] .

" ولعله بسبب أن المماليك كان ينقصهم نبل الأصل ، فإنهم حرصوا منذ قيام دولتهم على إسباغ الشرعية على حكمهم ، عن طريق نقل الخلافة إلى مصر ، وقد ساعدتهم الظروف على ذلك ، حينما قتل المغول بقيادة هولاكو ، المستعصم آخر خليفة عباسي في بغداد[٣] ، فلجأ إلى مصر عم له هو المستنصر بالله ومن ثم أسرع بيبرس بإعلان خلافته في عام (٦٥٩هـ = ١٢٦١م) وذلك قبل مولد السيوطي بنحو ١٩٠ سنة حيث بقيت الخلافة العباسية في مصر إلى وقت مجئ العثمانيين ، واستيلائهم على مصر وغيرها من البلاد العربية الاسلامية ولكن نظام الخلافة العباسي هذا ، نشأ ضعيفاً في مصر فكان الخليفة بمثابة أمير في حاشية السلطان[٤] ، يقول المقريزي[٥] : " حسبه أن يقال له أمير المؤمنين ، فكان عملهم الأول والأخير اسباغ الشرعية على حكم السلاطين والأمراء التابعين لهم ، أو حتى ملوك الإسلام من أصدقاء

١٠- الملك الظاهر قانصوه ، خال الملك الناصر محمد بن قايتباي ، وكانت مدة ولايته نحواً من ستة أوسبعة أشهر (٩٠٤هـ = ١٤٩٨م) إلى (٩٠٥هـ = ١٥٠٠م) .

١١- الملك الأشرف جان بلاط ، خلع بعد ستة أشهر من ولايته (٩٠٥هـ = ١٥٠٠م) إلى (٩٠٦هـ = ١٥٠١م) .

١٢- الملك العادل طومان باي ، وما استكمل يوماً واحداً ، بل هجم عليه العسكر وقتلوه (٩٠٦هـ = ١٥٠١م) .

١٣- الملك الأشرف قانصوه الغوري وكانت ولايته من (٩٠٦هـ=١٥٠١م) وحتى (٩٢٢هـ=١٥١٦م) وكان ذا دهاء ورأى استخدمهما حتى تمكن من الملك ثم شاع في آخر أيامه الظلم والفساد فقتل في مرج دابق أثناء حربه مع السلطان سليم الأول العثماني . =

= انظر في كل ما تقدم : " سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي " تأليف عبدالملك ابن حسين بن عبدالملك العصاص المكي (٥٧-٣٩/٤) وكذلك : " النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة " (٢٥٦/١٥) وما بعدها من أحداث عام (٨٤٢هـ إلى آخر الجزء . ت:د. إبراهيم علي طرخان ، مراجعة د.مصطفى زيادة ، ط الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر (١٣٩١هـ=١٩٧١م) .

(١) انظر د/ عبدالمنعم ماجد : عصر السيوطي ص/٢٤ - بحث ضمن البحوث التي القيت في الندوة التي أقامها المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب (١٩٧٦/١٠/٦م) الهيئة المصرية العامة للكتاب .

(٢) انظر : نفس المصدر .

(٣) كان سقوط بغداد في أيدي المغول (التتار) على يد هولاكوخان في عام ٦٥٦هـ ، انظر ابن كثير : البداية والنهاية حوادث سنة ٦٥٦هـ = وابن الأثير : الكامل ، وانظر : سعيد ابراهيم مرعي خليفة : النبوة عند ابن تيمية ورده على المخالفين جـ١٢/١ رسالة ماجستير بجامعة أم القرى عام (١٤١٠هـ = ١٩٩٠م) . كلية أصول الدين .

(٤) د/ عبد المنعم ماجد : عصر السيوطي ص/٢٤ .

(٥) هو : أحمد بن علي بن عبدالقادر ، أبو العباس الحسيني العبيدي ، تقي الدين المقريزي مؤرخ الديار المصرية ، أصله من بعلبك ، ونسبته إلى حارة المقارزة (من حارات بعلبك في أيامه) ولد بالقاهرة عام (٧٦٦هـ= ١٣٦٥م) ونشأ بها وتوفي بها عام (٨٤٥هـ=١٤٤١م) وولي فيها الحسبة والخطابة والامامة مرات ، عرض عليه قضاء دمشق فأبى ، من تآليفه : " المواعظ و الاعتبار بذكر الخطط والآثار " ط ويعرف بخطط المقريزي ، و " السلوك بمعرفة دول الملوك " خ ، و " تاريخ الاقباط " ط وغيرها انظر : البدر الطالع ٧٩/١ - التبر المسبوك /٢١ ، وخطط مبارك ٦٩/٩ ، والضوء اللامع والاعلام ١٧٧/١ .

دولـــتهم "[١] ويتضح من هذا أن الخليفة العباسي في مصر كـــان يعتبر رأس التنظيم السياسي في الدولة ، ولكن فقط لإضـــفاء الصفة الشرعية على الملوك والسلاطين ، بمعنى أنه ليس له أمر ولا نهي ولا مشاركة فعالة في أمور الإدارة أما الملوك المتغلبة فهم أصحاب الكلمة والأمر والنهيّ .

وإنـــنا لنرى ــ فيما ينقله السيوطي ــ أن الخليفة كان إذا بويع بالخلافة وتقلد أمورها ، فإنه يخطب خطبة يفوض فيهـــا السلطان أو الملك تفويضاً كاملاً في إدارة البلاد ، وتسيير دفة الحكم ، ولا يبقى له سوى ذكر اسمه في خطب الجمع والأعياد .

ومـــن أمثلة ذلك أنه لما أقيم قلاوون الصالحي ، فوض إليه الخليفة ، و لقبه بالملك المنصور[٢] وكان مما جاء في التفويض من الخليفة للصالحي أنه :

" يفـــوض له مـــا فوض الله إليه من أمر الخلق ، ليقوم عنه بفرض الجهاد والعمل بالحق وأن يوليه ولاية شرعية تصح بها الأحكام وتنضبط أمور الإسلام "[٣] .

ومـــن أمثـــلة ذلـــك أيضاً ما كتبه الخليفة أبو الربيع سليمان العباسي في تفويض الملك المظفر ركن الدين بيبرس الجاشـــنكير المنصـــوري حيث يقول : " وإني رضيت لكم بعبد الله تعالى الملك المظفر ركن الدين بيبرس نائباً عني لملك الديـــار المصرية والبلاد الشامية ، واقمته مقام نفسي... فمن أطاعه فقد أطاعني ، ومن عصاه فقد عصاني ، ومن عصاني فقد عصى أبا القاسم ابن عمي ــ صلى الله عليه وسلم ــ "[٤] .

وكان بعضهم يخاطب السلطان بقوله : " فوضت إليك جميع أمر المسلمين ، وقلدتك ما تقلدته من أمور الدين "[٥] .

وإذا كان أغلب ملوك المماليك قد تولوا السلطان بالغلبة والقهر فإن آخرهم وهو السلطان قانصوه الغوري[٦] ، قد تـــولى الســـلطنة عن طريق الاختيار من قبل رجال العلم في مصر الذين كانوا بمثابة الزعماء للمصريين فقد كان الغوري محـــباً لهم ، ولذا اجتمعت كلمتهم على اختياره ملكاً عليهم[٧] . ولعل السبب في هذا الاختيار هو ما لمسوه في الغوري من جديته وتواضعه في بداية عهده ، فقد كانت له " آثار جميلة في طريق الحاج من عقبة أيلة ، ومآثر بمكة المشرفة وغيرها ، وكـــان يتنزل مع الأمراء من غير تشديد عليهم ولا إظهار عظمة وأمر ونهي ، وذلك في ابتداء أمره إلى أن تمكن من قوته وبأسه "[٨] .

---

(١) انظر : د/ عبد المنعم ماجد : عصر السيوطي (ص٢٤) .

(٢) حسن المحاضرة ١٠٦/٢ .

(٣) نفس المصدر ١٠٨/٢ .

(٤) حسن المحاضرة ١١٣/٢ ، وانظر : ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة (٢٦٣/٨) .

(٥) صبح الأعشى ٢٨٠/٣ للقلقشندي .

(٦) سبقت الإشارة إليه قبل قليل .

(٧) انظر : د. عبدالمنعم ماجد : عصر السيوطي ص/٢٥ .

(٨) عبدالملك بن حسين بن عبدالملك العصاص المكي : سمط النجوم العوالي في أبناء الأوائل التوالي ٥٠/٤ .

ثم بعد ذلك لما استتب له الأمر ، واجتمعت في يده مقاليد الحكم ، اتخذ لنفسه مماليك جدداً كأعوان وحاشية ، " صاروا يظلمون الناس ، ويعاملون الخلق عسفاً وغشماً ، وهو يغضي عنهم ويتغافل ، فأظهروا الفساد ، وأهلكوا العباد وأكثروا الفساد وطغوا في البلاد ، وصار يصادر الناس ويأخذ أموالهم بالقهر والبأس ، وكثرت العوانية[١] من أيامه لكثرة ما يصغي إليهم ، وصاروا إذا شاهدوا أحداً توسع في دنياه ، وأظهر التجمل في ملبسه و مثواه ، وشوا به إلى السلطان ، فيرسل إليه بطلب الفرض ، ويصفى أمواله ، ويسلمه إلى الصوباشي[٢] ليأخذ ماله ويهلك أهله وعياله ، وجمع من هذا الباب أموالاً عظيمة ، وخزائن واسعة ذهبت في آخر الأمر سدى وتفرقت بيد العدى ، وتمزقت بدداً ، وأما الميراث فبطل في أيامه ، وصار إذا مات أحد يأخذ ماله جميعه ، للسلطنة ، ويترك أولاده فقراء... وكثر ظلمه في آخر أيامه ، فاستجاب الله فيه دعاء المظلومين ، وقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمدلله رب العالمين "[٣] وكانت نهاية " الغوري " في موقعة " مرج دابق "[٤] على يد السلطان " سليم الأول العثماني "[٥] بين الظهر والعصر يوم الأحد خامس عشر رجب سنة (٩٢٢هـ = ١٥١٦م)[٦] .

وفي هذه الآونة نرى " جماعة العربان " الذين كانوا يقيمون في مصر ، وكانوا قد قدموا من قبائلهم في أيام الفتوح وبعدها ، وأصبح لهم سطوة وشوكة ، و لشيوخهم شهرة السلاطين ، وكانوا يرون أنفسهم أحق بحكم مصر من طبقة الرقيق (المماليك) لذلك كثيراً ما وقع التصادم بينهم وبين المماليك ، وكان في قلب المماليك الشئ الكثير ضدهم[٧] .

كما نرى كذلك فئة العلماء الذين كانت لهم مكانة عليا ، ومنزلة عظيمة في نفوس الناس بعامة ، والسلاطين بخاصة . وسنتناولها بالتفصيل ــ إن شاء الله عند كلامنا عن الحالة الدينية .

ويتلخص التنظيم السياسي في مصر في عصر جلال الدين السيوطي كما يلي :

<u>أولاً :</u> الخليفة العباسي ، يبايعه السلطان والعلماء والقضاة ثم يفوض الأمور العامة إلى السلطان ــ كما قدمنا ــ وليس له من الأمر شئ سوى أنه يؤتى به في المواقف الرسمية لتنمية الحاشية ويدعى له قبل السلطان على المنابر ، إلا في مصلى السلطان ، خاصة في مصلاه بقلعة الجبل ، والسلطان يستبد بما عدا هذا من أمور الدولة .

<u>ثانياً :</u> السلطان المملوكي ، فالسلطنة ــ هي الطبقة الثانية ــ من طبقات الولايات ، وكان يتولاها الشخص بإحدى طرق ثلاث :

---

(١) يعني العيون والجواسيس .

(٢) لعله خازن الأموال أو المسئول عن جمع الضرائب .

(٣) عبدالملك بن حسين : سمط النجوم العوالي ٥١/٤ .

(٤) موضع قرب " حلب " ببلاد الشام .

(٥) هو : السلطان سليم ابن السلطان با يزيد ابن السلطان محمد خان الفاتح " فاتح القسطنطينية " ابن السلطان مراد الثاني ابن السلطان محمد ابن يلدرم : من سلاطين آل عثمان ، مولده سنة (٨٧٢هـ = ١٤٦٧م) وهو أول من ملك مصر من آل عثمان سنة (٩٢٢هـ = ١٥١٦م) و كانت مدته ثمان سنين وأياماً ، وتوفي سنة (٩٢٦هـ = ١٥٢٠م) تولى مصر منها أربعة سنوات ، وتولى بعده ابنه السلطان سليمان . انظر : سمط النجوم العوالي ٧٠/٤-٧٣ .

(٦) انظر : سمط النجوم العوالي ٥٢/٤ .

(٧) انظر : د. عبدالمنعم ماجد : عصر السيوطي (ص/٢٥) ، وسمط النجوم العوالي (ص/٥٣)

ــ **أحدها** : العهد من الخليفة .

ــ **ثانيها** : العهد من السلطان الذي قبله[١] .

ــ **ثالــثها** : وكان هو الغالب أن يتولاها عن طريق القهر والتغلب ، بقتل من سبقه أو عزله أو نفيه ، وكان السلطان يجمع بيــن لقب الملك ، ولقب السلطان وهو ما ذكره صاحب النجوم الزاهرة في تأريخه لهؤلاء السلاطين ، فإن الباحث يجد أنه كثيراً ما يجمع بين الملك والسلطان عند الحديث عنهم[٢] .

ثالثاً : الأمراء ، وهم طبقات :

ــ **الطبقة الأولى** : أمراء المئين ، مقدموا الألوف ، وعدة كل منهم مائة فارس ، وكل منهم مقدم على ألف فارس ممن دون الأمراء ، وهذه الطبقة أعلى مراتب الأمراء ، ومنهم يكون أكابر أرباب الوظائف[٣] ، ويظل الأمير يلقب بلقب الأمير حتى يعتلي منصب الولاية العامة على البلاد ، فيلقب بلقبي السلطان والملك[٤] .

.الطبقة الثانية : أمراء الطبلخاناة ، وعدة كل منهم في الغالب أربعون فارساً ، وقد يزيد بعضهم على ذلك إلى سبعين فارساً وقد تصل إلى ثمانين ولا يقلون عن الأربعين[٥] .

.الطبقة الثالثة : أمــراء العشرات ، وعدة كل منهم عشرة فوارس ومنهم من يكون له عشرون فارساً ، ولا يعد إلا في أمراء العشرات ، وهذه الطبقة لا ضابط لعددها ، ومن هذه الطبقة يكون صغار الولاة ونحوهم من أرباب الوظائف[٦] .

.الطبقة الرابعة : أمــراء الخمسات ، وهم أقل من القليل خصوصاً بالديار المصرية ، وهم أكابر الأجناد ، وأكثرهم من أولاد الأمراء رعاية لسلفهم .

رابعاً : جماعات العربان ، الذين كانوا يتهددون المماليك بين آونة وأخرى ، ويرون أنفسهم أشرف من المماليك .

خامســاً : طبقة العلماء والقضاة والأئمة الذين كانوا بمثابة الزعماء الدينيين لعامة الناس ، وعن طريقهم تتم مبايعة الخليفة وفي بعض الأحيان مبايعة السلطان وتنصيبه هذه هي حالة التنظيم السياسي في مصر باختصار في هذه الفترة .

وإن ممــا يلحظه الباحث في هذه الفترة أن الحالة السياسية في مصر لم تكن مستقرة بل كانت مليئة بالاضطرابات والقلق وتولية سلطان وعزل آخر ، بل قتله ، أو سجنه ، وفي بعض الأحيان سجن الخليفة نفسه أو نفيه ، وكان الأمير الذي يقهر ويغلب ويتسلطن هو الذي يحظى بالشرعية من الخليفة ، وهكذا .

---

(١) القلقشندي : صبح الاعشى ٢٥٢/٩ .

(٢) ابــن تغــري بــردي : الــنجوم الزاهــرة جـــ٦ صــفحات (٣٠٣،٢٢٧،١٦٠،١٢٠،٣٠، ٣١٩،٣٦١،٣٦٤) جـــ٧ / صــفحات (٢٩٢،٢٥٩،٩٤،٧٢،٤١،٣) جـــ٨ / (٨٥،٥٥،٤١،٣، ١١٥، ٢٣٢) ففــي كــل هــذه الصــفحات يسمى صاحب الولاية العامة ، السلطان والملك...

(٣) القلقشندي : صبح الاعشى ١٤/٤ .

(٤) نفسه .

(٥) نفسه ١٥/٤ .

(٦) نفسه .

المبحث الثاني : الحالة الدينية

تعتبر مصر من أكثر الأقاليم الاسلامية تأثراً بالعاطفة الدينية حيث روح التدين تسيطر على نفوس أفرادها ، ويشتد إلــتزامهم بما يرون في اعتقادهم أنه من الدين ، لذلك فإنه ليس من الغرابة أن يظهر كثير من العلماء المبرزين في عصر جــلال الديــن الســيوطي ، وكذلــك ليس من الغرابة أن تكثر دور العلم ومكاتب القرآن وحفظته ، وأن يزداد عدد القراء والمعــلمين ، وأن تســري روح التدين بين أفراد المجتمع على اختلاف طبقاته بدءاً من الملوك والسلاطين ، وحتى العامة والسوقة .

أما عن السلاطين فقد ظهروا بمظهر حماة الإسلام الذائدين عن حياضه ، والقاهرين لأعدائه .

فقد أسرعوا ــ كما قدمنا في الحالة السياسية ــ إلى إقامة الخلافة وتنصيب الخليفة في القاهرة بدلاً من بغداد وهذا مطــلب شــرعي ديني هام في حياة الأمة الإسلامية ، إذ كيف يعيش المسلمون وهم أعظم الأمم بغير خليفة ينهض بأعباء الأمــة نيابــة عــن الرســول ــ صلى الله عليه وسلم ــ بعد وفاته[1] يتكلم السيوطي عن حالة المسلمين عندما قتل الخليفة المستعصــم العباسي ببغداد على يد التتر ، فيصفها بعبارة تبعث في نفس المسلم الحزن والحسرة فيقول : " ولما أخذ التتار بغــداد ، وقــتل الخليفة ، وجرى ما جرى ، أقامت الدنيا بلا خليفة ثلاث سنين ونصف سنة ، وذلك من يوم الأربعاء رابع عشر صفر سنة ست وخمسين (٦٥٦هــ) وهو يوم قتل الخليفة المستعصم ــ رحمه الله ــ إلى أثناء سنة تسع وخمسين[2] (يعــني ٦٥٩هــــ) " وهكذا بغير خليفة ثلاث سنوات ونصف حتى أذن الله تعالى بقيام الخلافة مرة أخرى ظلت الأمة في القاهــرة وهــذا الشــعور نابع عن عاطفة دينية إسلامية ومما لا شك فيه أنه كان شعوراً عاماً لدى أفراد الأمة لذا كان من الضروري أن يسارع السلاطين إلى إقامة الخلافة في القاهرة وذلك لأسباب منها :

١- إضفاء الصفة الشرعية الإسلامية على حكمهم .

٢- تلبية وتنفيذ هذا المطلب الديني الإسلامي لأن اهماله يعتبر نقصاً كبيراً في الأمة .

٣- الظهور بمظهر الحكام الدينيين الذين يذودون عن الإسلام ويحمون المسلمين من غارات أعاديهم .

٤- كسب ود المسلمين المحكومين وحبهم لهم وهذا مطلب أساسي لكل حاكم ، فكل سلطان يريد من شعبه ورعيته أن تنقاد له بالحب والاحترام أكثر مما تنقاد له بالخوف والرهبة .

ثــم لــم يقتصر السلاطين على هذا ، بل كانوا على جانب كبير من احترام العلم والعلماء وطاعتهم في كثير من الأمور والنزول عند فتاواهم ، وعدم اهمال آرائهم وتوجيهاتهم .

---

(١) القلقشندي : صبح الاعشى ٢٥٤/٣ .

(٢) حسن المحاضرة ٥٢/٢ .

ثـم اهــتمامهم كذلــك ببـنـاء المدارس الدينية وتجهيـزها بما تحتاجه من مدرسين وكتب ومرافق يدل عــلى حاسة دينية قوية لديهم فهم في الجملة كانوا حريصنين علىأن يظهروا في زي القائمين على مصالح الرعية ، وحكم الناس بالعدل ، فأنصفوا المظلوم ، وخلصوا الحقوق إلى حد ما[١].

وإذا أردنا أن نورد بعض الأمثلة على ذلك فإننا نجد الظاهر بيبرس قد تمكن من قلوب الرعية بإحسانه إليهم وبذله وســخائه[٢] قــال صــاحب النجوم الزاهرة : " وأما صدقاته فكان يتصدق في كل سنة بعشرة آلاف أردب قمح في الفقراء والمســاكين وأربــاب الزوايا ، وكان يرتب لأيتام الأجناد ما يقوم بهم على كثرتهم ، ووقف وقفاً على تكفين أموات الغرباء بالقاهرة ومصر ، ووقفاً ليشترى به خبز ويفرق في فقراء المسلمين "[٣] .

إذن فلا يبعد أن يلتف الناس حوله ، ويكادون يجمعون على محبته لعدله وإحسانه .

غيــر أنــه على الرغم مما كان يتمتع به من نفوذ الكلمة وقوة الشكيمة وحب الناس له ، فإن العلماء كانوا يقفون أمامــه وقفة دينية تمليها عليهم أمانتهم الاسلامية إذا وجدوا ثمة انحراف أو عدول عن الجادة . فقد أفتاه جماعة في أمر بما يوافق هواه ، فهب الشيخ الامام محيي الدين النووي في وجهه قائلاً : " أفتوك بالباطل "[٤] .

ولما خرج إلى قتال التتار بالشام أخذ فتاوي العلماء بأنه يجوز له أخذ مال من الرعية ليستنصر به على قتال العدو ، فكــتب له فقهــاء الشام بذلك " فقال : هل بقي أحد ؟ فقيل : نعم ، بقي الشيخ محيي الدين النووي فطلبه فحضر ، فقال : اكتب خطك مع الفقهاء ، فامتنع ، فقال : ما سبب امتناعك ؟ فقال : أنا أعرف أنك كنت في الرق للأمير بندقدار ، وليس لك مــال ، ثــم من الله عليك وجعلك ملكاً ، وسمعت أن عندك ألف مملوك ، كل مملوك له حياصة من ذهب ، وعندك مائتا جاريــة لكــل جارية حق من الحلي ، فإذا أنفقت ذلك كله ، وبقيت مماليكك بالبنود الصوف ، بدلاً عن الحوائص ، وبقيت الجواري بثيابهن دون الحلي أفتيتك بأخذ المال من الرعية ، فغضب الظاهر من كلامه وقال : أخرج من بلدي يعني دمشق ، فقــال : السمع والطاعة ، وخرج إلى نوى ، فقال الفقهاء : إن هذا من كبار علمائنا وصلحائنا ، وممن يقتدى به ، فأعده إلى دمشــق ، فرســم برجوعه ، فامتنع الشيخ وقال لا أدخلها والظاهر بها ، فمات الظاهر بعد شهر "[٥] وللشيخ جلال الدين السيوطي موقف مشابه مع السلطان قايتباي عندما صعد إليه بالطيلسان ، ولم يستحسن السلطان ذلك منه ، وتمسك السيوطي بموقفــه ، وكادت الأمور تسير سيراً حسناً ، لولا أن ابن الكركي[٦] خصم السيوطي أو غر صدر السلطان وزين له البطش بالسيوطي ، مما جعل السيوطي يحجم بعد هذه الحادثة عن الصعود إلى السلطان ، وألف رسالة سماها " ما رواه الاساطين

---

(١) النجوم الزاهرة ١٦٨/٧ .

(٢) انظر : د. عبدالعظيم عبدالسلام شرف الدين : ابن قيم الجوزية ـــ عصر ومنهجه وآراؤه (ص/٢٦) مكتبة الكليات الازهرية ط٢/١٣٨٧هـ = ١٩٦٧م – القاهرة .

(٣) النجوم الزاهرة ١٨٠/٧ .

(٤) حسن المحاضرة (٩٥/٢) .

(٥) حسن المحاضرة ١٠٥/٢ ، وانظر : النجوم الزاهرة (٤٢/٨) .

(٦) ستأتي ترجمته إن شاء الله وخصومته مع السيوطي في الفصل الثاني .

فـي عـدم المجئ إلى السلاطين "[١] وقد ألف رسالة في لـبس الطيلسـان قـبل هذه سماها " طي اللسان عن ذم الطيلسـان "[٢] وأيضاً له رسالة سماها : " الأحاديث الحسان في فضل الطيلسان "[٣] فإذا ما تجاوزنا طبقة السلاطين إلى عامـة المجـتمع وجدنا السيوطي يصور جانباً منه فيصفه بالفساد والزور والابتداع كما في مقامته اللؤلؤية فيقول : " ...وإن تشـوفتم إلى سماع الأعذار ، وتشوقتم إلى جماع الأمر الذي هو سبب لقولي حذار حذار ، فألقوا السمع لما أقول ، وتدبـروا ما أورده من الشواهد والنقول ، أليس هذا زمان الصبر ، الصابر فيه كالقابض على الجمر ، رأينا فيه ما أنذر به الرسول ، وصحت به الأحاديث والنقول ، من آيات وعلامات ما كانت تقع فيما مضى منامات ، ويود كل لبيب لو أنه عند المـني مات ، وما من آية منها إلا وقد أمر النبي ــ صلى الله عليه وسلم بأن يلزم العالم عندها خاصة نفسه ، ويجلس في بيته ، ويسكت ويدع أمر العوام ، من ذلك الشح المطاع ، ودنيا مؤثرة ، وهوى له ذو أتباع ، واعجاب كل ذي رأي برأيه ، وذلـك عيـن الابتداع ، قد مرجت الأمانات والعهود ، وكثر القائلون بالزور والشهود ، وجم الاختلاف ، وقل الائتلاف ، وكذب الصادق ، وصدق الكاذب المائق ، وخون الأمين ، وأئتمن الخائن ومَنْ يَمين ، ونطق الرويبضة وتلك هي الطامة ، وتكلم الرجل التافه في أمر العامة ، وتعلم المتعلم لغير العمل ، وكان التفقه للدنيا وليس له في الآخرة أمل ، وأهين الكبير ، وقـدم عـليه الصـغير ، ورفعت الأشرار ووضعت الأخيار ، ... واتخذت البدعة سنة فلا يغيرها حتى عمر ، وصار الموت أحب إلى العلماء من الذهب الأحمر ، واستعلى الجهال على العلماء ، وقهر السفهاء الحلماء ، وولى الدين غير أهله ، وظهر الفحش من كل جاهل على قدر جهله... فلنجلس في البيوت ، ولنلزم السكوت ، ولنتق الله في خاصة أنفسنا ولندع عامـة الأمـور إلى أن نحل بر مسنا ، وكم من عالم قبلي قد قبل هذه الوصية ، إذ رأى ما ليس له به قِبَل ، وترك الافتاء والاقـراء وأقـبل على خاصة نفسه والعمل ، وقد اقتديت بهم ونعم القدوة ، وتأسيت بالحديث الذي هو لكل مؤمن أسوة ، طالمـا قطعت نهاري في التدريس والافتا ، واستغرقت أوقاتي في نفع الناس وقتاً وقتاً ، ولم أسلم مع ذلك ممن يولني أذىً ومقتاً[٤] ، ويرميني كذباً وبُهتاً "[٥] .

<u>* ظهـور التصوف في المجتمع :</u> عرفت البيئة المصرية التصوف منذ عصر مبكر في الإسلام ، ولكنه لم ينتشر بصورة كـبيرة ، ويـأخذ مساراً واضحاً إلا في عصر المماليك ، وكان من الأسباب التي ساعدت على ازدهار التصوف ، وظهور بصماته على المجتمع المصري ما يلي :

<u>أولاً :</u> حب الشعب المصري لآل البيت وما بثته الدولة الفاطمية بشأنهم .

---

(١) مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ١٣٢٢،١٣٢٣،١٣٢٤،١٦٥١،١٥٦م وذكره في كشف الظنون ١٥٧٤ ، وفي هدية العارفين ٥٤٢/١ ، وانظر : دليل مخطوطات السيوطي ص/٨٥ .

(٢) كشف الظنون ١١١٩ ، حسن المحاضرة ٣٤٣/١ ، هدية العارفين ، وهي مخطوطة بدار الكتب المصرية ــ القاهرة ــ ٢٢٥٣٥ب ، وخطوطات جامعة الكويت ٣٩٩٧ ، وطبع بالهند مرتين ولم أقف على المطبوع ، وانظر دليل مخطوطات السيوطي ص/٢٧٣ .

(٣) انظـر : كشـف الظـنون ١٤ ، هديـة العـارفين ٥٣٥/١ ، جامعة الرياض فيلم ٣ ، مكتبة عارف حكمت بالمدينة المنورة ٤ مجاميع ، دليل مخطوطات السيوطي ص/٤٧ .

(٤) مقتاً : المقت : أشد الغضب .

(٥) المقامة اللؤلؤية : مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ٢١١٧٤ب ، وحققها د.الشكعة في كتابه " جلال الدين السيوطي " ص/٦٧ .

ثانياً : ظروف الفترة والبيئة التي أصابت المسلمين بصفة عامة كسقوط بغداد ، وحروب التتر ، وحروب الصليبيين ، والكوارث والمصائب والطواعين التي أصابت المصريين بصفة خاصة ، جعلت الكثير من الناس مهيأ لقبول التصوف الذي يخاطب الوجدان من السذج أملاً في المغفرة والنجاة من العذاب الدنيوي والأخروي ، وغالباً ما يكون هؤلاء من المنحرفين العصاة والزناه وشاربي الخمر ، فإذا ما أفاقوا وسمعوا صيحات المذكرين والوعاظ ، تركوا حياة السكر والعربدة والفجور ، وانحازوا إلى الخلوة وكثرة الذكر وكثرة الاستغفار ، وتجويع النفس طمعاً في المغفرة والرحمة ، فينخرطون في مسالك الصوفية ويبالغون في تعذيب نفوسهم .

ثالثاً : مكابدة الكثيرين لصعوبة الحياة الاجتماعية القاسية ، ومعاناتهم من شدة الأحوال الاقتصادية ، وانحصارهم في بوتقة الفقر ، وشظف العيش ، وتوارد الأزمات والأوبئة وكثرة الراحلين خلالها من الموتى ، كل ذلك جعل الكثيرين من هؤلاء تتوجه انظارهم إلى التصوف والانقطاع للعبادة التماساً لفضل الله بأن يعوضهم عند ذلك فوزا بالنعيم المقيم في الآخرة ، حيث افتقدوا ذلك في حياتهم الأولى في الدنيا .

لهذه الأسباب وغيرها ظهر التصوف ، وانتشرت المتصوفة ، انقسمت بعد ذلك إلى فرق وطرق عديدة ، لكل شيخ فرقة وطائفة ، وله معها طريقة ومنهج ، ولكل طريقة أورادها وأذكارها الخاصة بها ، كما أن لكل طريقة شعارها ، فالأحمدية مثلاً ، نسبة إلى أحمد البدوي[١] وشعارها اللون الأحمر[٢] .

ولقد كان للصوفية آداب وتقاليد مرعية ، وضعوها من عند أنفسهم غير متقيدين بالسنة النبوية الشريفة ، وعلى أية حال فقد كانت الصوفية بصفة عامة تحظى بكثير من الاحترام والاجلال في أعين الناس وذلك لأنهم يتحركون باسم الدين ، ويتخذون من حب النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ وآله شعاراً ودثاراً[٣] لكن السيوطي حينما تولى مشيخة البيبرسية ووجد ما آل إليه حال الصوفية من الانحراف والفساد والابتداع قطع عنهم بعض العطايا التي رأى أنه لاحق لهم فيها ، فثاروا عليه وكادوا يقتلونه ثم حملوه بأثوابه ورموه في الفسقية ، وشكوه إلى الأمير طومان باي الذي كان مبغضاً له[٤] . فكان ذلك سبباً في عزله .

وبسبب كثرة الصوفية وطغيان تأثيرهم فقد تأثر السيوطي بهذا الوسط الصوفي تأثراً بالغاً ، فقد وجدناه يتبنى آراء صوفية محضة لا يعضدها دليل شرعي لا من الكتاب ولا من السنة ، ولا أحياناً من العقل ، يروي في الاستدلال عليها – أعني تلك الآراء الصوفية – حكايات عن المتصوفة هي إلى الخرافات أقرب منها إلى الحقائق[٥] ، ويعظم كلاً من الشيخين

---

(١) انظر : ترجمته عند السيوطي في حسن المحاضرة (٥٢١/١) .

(٢) انظر : د. طاهر حمودة : السيوطي عصره وحياته وآثاره ص/٥٠ .

(٣) انظر : د. طاهر سليمان حمودة : السيوطي عصره وحياته وآثاره ص/٥١ .

(٤) ابن اياس : بدائع الزهور ٣٣٩/٢ ــ حوادث شعبان عام ٩٠٣هـ .

(٥) انظر مثلاً : كلامه عن تطور الولي في " الحاوي للفتاوي " (٢١٧/١) .والرد عليه في الفصل الأخير من هذا البحث .

الاكفـــرين ابن عربي[١] وابن الفارض[٢] ، ويدافع عنهما ويناضـــل[٣] . ولسوف نتعرض لنقد ذلك إن شاء الله في فصل التصوف وهو آخر فصل في هذا البحث .

هذه لمحة موجزة عن عصر جلال الدين السيوطي ولعلنا نكون قد رسمنا له صورة تخدمنا عند الكلام على نشأته وحياته وثقافته وذلك في الفصل القادم .

المبحث الثالث : الحالة العلمية

يصف الباحثون عصر السيوطي من الناحية العلمية ، بأنه يمتاز بالخصوبة والغزارة والازدهار في مختلف العلوم وشتى الفنون[٤] ، وذلك باعتبار أن عصر المماليك في مصر امتداد للعصور الإسلامية السابقة عليه ، كما كان الحال في بغـداد قـبل سـقوطها على أيدي التتار عام (٦٥٦هـ) فلما سقطت بغداد ، ودمرت العراق والشام ورثت القاهرة عصـر الازدهـار ، فمـع انتقال الخلافة وقيامها بالقاهرة عام (٦٥٩هـ) ، انتقلت الحضارة ، وأصبحت القاهرة مأوى العلماء والفقهاء ، ومنزل أرباب الفكر والأدب[٥] .

صـحيح أن أصول المماليك غير عربية إلا أنه بسبب إقامتهم في أرض العروبة ، التي جُلبوا إليها فنشأوا وتربوا فيهـا ، اعتـبروا أنفسـهم عـرباً ، بل حماة للعرب ضد أعدائهم ، حتى إن كانت من ألقاب بعض سلاطينهم " سيد ملوك العرب"[٦] .

ويظهـر أن الممـاليك كانوا يفخرون بأنهم حكام العرب وقتذاك ، كما أن اعتناقهم للإسلام ، وتوفيرهم للخلفاء ، جعلهم يتجهون إلى تعلم اللغة العربية ، باعتبارها لغة الإسلام والقرآن ، وتشجيع العلم ومدارسه وتوقير العلماء والقضاة .

ثـم إن كثيراً من كبار المماليك ــ كما يلاحظ ذلك المؤرخون ــ قد أتقنوا اللغة العربية تحدثاً وكتابةً ، حتى أصبح أكـثرهم فصيح اللسان بها ، وله مسائل في الفقه يُرجَع إليه فيها ، ويؤيد ذلك أن قانصوه الغوري ، كان يملك ناصية اللغة العربية وكان شديد الولع بالآداب والعلوم ، وله فيها خوض ونظر ، كما كان يفهم في الشعر[٧] .

---

(١) محمد بن علي بن محمد بن عربي ، أبو بكر ، الحاتمي ، الطائي ، فيلسوف ، متصوف ، قدوة القائلين بوحدة الوجود ، ولد في مرسيه بالأندلس (٥٦٠ هـ) ، وتوفي بدمشق (٦٣٨ هـ) انظر ميزان الاعتدال (١٠٨/٣) ، الأعلام (٦ / ٢٨١) .

(٢) عمر بن علي بن مرشد بن علي ، الحموي الأصل ، المصري المولد والدار والوفاة ، ولد (٥٧٦هـ) وت (٦٣٢هـ) في شعره فلسفة تتصل بمايسمى وحدة الوجود . انظر : وفيات الأعيان (٣٨٣/١) ميزان الاعتدال (٢٦٦/٢) شذرات الذهب (١٤٩/٥) الأعلام (٥٦/٥) .

(٣) انظر : شرح مقامات السيوطي (٩٠١/٢) مقامة تسمى " قمع المعارض في نصرة ابن الفارض " .

(٤) انظـر فـي ذلـك : د. عبدالمنعم ماجد . " عصر السيوطي ص/٢٩ " . وانظر كذلك : مقدمة تحقيق كتاب " تأويل الأحاديث الموهمة للتشبيه " لمحققه / البسيوني مصطفى ابراهيم الكومي ص/٢١ ، ومحمد الصباغ في مقدمته لتحقيق كتاب : " تحذير الخواص " ص/٢٦ .

(٥) انظر : د. طاهر حمودة : جلال الدين السيوطي عصره وحياته وآثاره ص/٢١ ــ المكتب الإسلامي ط١٤١٠/١هـ ١٩٨٩م ــ بيروت .

(٦) انظر : ابن اياس ١٢٩/٣ ،

وانظر : د. عبدالمنعم ماجد : نظم المماليك ٦١/٢-٦٢ .

(٧) ابن اياس : ٩٠/٢ .

وكـــان أيضـــاً مغرماً بقراءة السير والتواريخ ، فاشـــتهرت له مجالس عرفت بمجالس الغوري[١] عبارة عن مناظرات جرت بين العلماء في حضرته[٢] .

لقـــد كانت مصر وقتئذ ـــ كما قدمنا ـــ مهبط العلماء ، ومحط رحال طلبة العلم ورواد المعرفة ، ولعلنا نلاحظ أن من الأسباب التي ساعدت على ازدهار الثقافة الإسلامية في تلك الآونة ما يلي :

١- الاســـترخاء الحربي ، فلم يكن سلاطين الجراكسة قد أعلنوا عداءهم المكشوف ضد العثمانيين ، كما أن علاقتهم كانت سليمة مع جميع المماليك الأخرى[٣] .

٢- كون مصر عاصمة لأهم بلاد الإسلام في ذلك الحين ، فهي حاملة لمشعل الثقافة الإسلامية ، بعد أفول مراكزها الكثيرة في الشرق ، ولاسيما بغداد[٤] .

٣- وجـــود الجامع الأزهر في مصر ، وكثرة الأوقاف التي وقفها أصحابها على طلبة العلم ، فكان منهم من يخص طلاب الحنفية ، ومنهم من يخصص طلاب الشافعية ، وغيرهم يوقف على المالكية أو الحنابلة ، كما كان لكل مذهب قضاته وأئمته ، مما جعل المدارس تبلغ المئات في مصر والشام[٥] .

٤- حب الملوك والسلاطين للعلم والعلماء ـــ كما قدمنا ـــ جعلهم يشجعون العلماء دائماً على البحث والتصنيف والمناظرات ، بـــل كان البعض من الملوك يطلبون أن تؤلف لهم الكتب[٦] التي ظلت معظمها إلى الآن مراجع مهمة من دواوين الإسلام العلمية .

ولهـــذه الأســـباب أصبحت الثقافات والعلوم منتشرة مزدهرة ، لا يبذل في نيلها الجهود الشخصية فحسب ، وإنما أصـــبحت العلوم تُنال بالدرجة الأولى بناء على الدراسة المنهجية في أروقة المدارس ، وعلى أيدي مشايخ وعلماء أكفاء ، يصلون الليل بالنهار خدمة للعلم ، ونشراً لفضائل الدين وتعاليمه .

وقد بدا اهتمام السلاطين بالعلم ومدارسه ، والعلماء ودروسهم ومصنفاتهم ، منذ وقت مبكر قبل ميلاد السيوطي ، فقـــد كـــان " صـــلاح الدين الأيوبي "[٧] ت (٥٨٩هـــ) شديد الكلف بعلوم الدين ، وكان يحضر مع ولديه دروس الحافظ

---

(١) السابق ٥٩/٣ .

(٢) عصر السيوطي ـــ ماجد ص/٣٠ .

(٣) انظر : المصدر السابق نفسه ، وانظر : تحذير الخواص ، مقدمة المحقق محمد الصباغ ص/٢٦ .

(٤) انظر : د. عبدالمنعم ماجد : عصر السيوطي ص/٣٠ ، وانظر : محمد الصباغ ، في مقدمة تحقيقه " لتحذير الخواص " ص/٢٦ .

(٥) انظر : محمد الصباغ : " تحذير الخواص " ص/٢٦ .

(٦) انظر : السابق نفسه .

و انظر أيضاً : د. عبداللطيف حمزة : الحركة الفكرية في مصر ص/١٤٩ .

(٧) هـــو : المـــلك الناصر ، صلاح الدين الأيوبي ، يوسف بن أيوب بن شاذي بن مروان ، كردي الأصل ، اشتهر بالفروسية ، والشجاعة ، والاقدام كـــبقية قومه ، غلب لقبه " صلاح الدين " على اسمه يوسف ، أبوه : " نجم الدين أيوب الملك الصالح ، ولد " صلاح الدين " في قلعة تكريت على الحـــدود العراقية الفارسية التركية عام (٥٣٢هـــ) وقدم إلى مصر مع عمه " شيركوه " وهو قائد أعلى للقوات ، فلما توفي " أسد الدين شـــيركوه " نصب صلاح الدين ملكاً على مصر والشام ، فقضى على بدع الشيعة التي أسسها الفاطميون في مصر ، وقاد الجيوش ضد الصليبيين فهزمهم في " حطين " الشهيرة عام (٥٨٣هـــ) بعد توحيده لمصر والشام توفي عام (٥٨٩هـــ) وقد بلغ من العمر سبعة وخمسين عاماً .

انظر : وفيات الاعيان جـــ٣٧٦/٢ ، طبقات السبكي جـــ٣٢٥/٤ ، النجوم الزاهرة ٣/٦ ، شذرات الذهب ٢٩٨/٤ ، محمد علي قطب : صلاح الدين الأيوبي ـــ المكتب الإسلامي .

السِّلفي[١] بالاسكندرية كما سمع من غيره ، وحضر كثيراً من مجالس العلماء المشاهير[٢] ، وبنى كثيراً من المدارس والخوانق[٣] .

فبنى بالقرافة الصغرى المدرسة المجاورة للإمام الشافعي ، وتسمى المدرسة الصلاحية .

وبنى مدرسة مجاورة للمسجد الحسيني بالقاهرة ، وجعل دار سعيد السعداء خادم الخلفاء المصريين خانقاه[٤] ، وجعل دار عباس الوزير العبيدي ، مدرسة للحنفية ، وهي المعروفة في عصر السيوطي بالسيوفية ، وبنى المدرسة المعروفة بزين التجار للشافعية ، وهي المعروفة في عصر السيوطي بالشريفية ، وبنى مدرسة أخرى للمالكية وهي المعروفة في عصر السيوطي بالقمحية[٥] .

وقد استمر بنو أيوب على هذه السنة الحسنة ، وحين خلف المماليك بني أيوب في حكم مصر ، واصلوا ما كان الأيوبيون قد ساروا عليه ، فقد تحمسوا مثلهم لإنشاء المساجد ، والمدارس ووقفوا عليها الأوقاف السخية التي ينفق عليها منها .

لذلك كان من الطبيعي أن تزداد المدارس ، ويكثر عددها جداً حتى قال ابن بطوطة عن عدد المدارس في مصر في القرن الثامن ــ وهو القرن السابق للقرن الذي عاش فيه السيوطي ــ قال إنها : " لا يحيط أحد بحصرها لكثرتها "[٦] .

لقد كانت هذه المدارس بمثابة الجامعات العظيمة التي تعتبر منارات علمية تنشر العلم وتخرج العلماء والفقهاء والدعاة ، والمؤرخين والقراء ، وكان يلحق بتلك المدارس مكاتب صغيرة تعني بتعليم الصبيان مبادئ القراءة والكتابة ، وتحفيظهم القرآن وبعض المتون في النحو والصرف والفقه والفرائض وغيرها ، فكانت هذه المكاتب بمثابة التعليم الأول الابتدائي الذي يمهد للإلتحاق بالمدارس الكبيرة التي يتولى التدريس فيها الأئمة الكبار والقضاة والفقهاء .

وكان يراعى في تصميم بناء المدارس أربعة أمور هي :

١- أن تكون مستوعبة للمذاهب الأربعة ، فيكون لكل مذهب فيها جانب ونصيب ، يترأسه أحد الشيوخ ، فيقال عن أحدهم مثلاً تولى مشيخة الحنفية في مدرسة كذا وكذا ، أو تولى مشيخة الشافعية ، وهكذا كان المذهب في المدرسة بمثابة قسم من أقسام المعاهد العلمية يشرف عليه رئيس القسم وشيخه[٧] .

---

(١) هكذا ضبطها محمد أبو الفضل ابراهيم محقق كتاب حسن المحاضرة (١٩/٢) ،والحافظ السلفي هو أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم ، السِلفي الحافظ أبو طاهر صدر الدين الأصبهاني الشافعي (ت ٥٧٦هـ) انظر: هدية العارفين (٨٧/٥) .

(٢) انظر : حسن المحاضرة ١٩/٢ ، د. عبداللطيف حمزة : الحركة الفكرية في مصر ص/١٤٩ .

(٣) انظر : حسن المحاضرة ١٨/٢ .

(٤) الخانقاه جمعها خوانق ، وكذلك الرباطات والزوايا : معاهد دينية اسلامية للرجال والنساء انشئت لإيواء المنقطعين للعلم والزهاد والعباد ، ولفظ الرباط والزاوية عربيان ، أما الخانقاه ففارسية ومعناها البيت ، وهي محدثة في الإسلام في حدود الأربعمائة ، وجعلت لتخلي الصوفية فيها للعبادة ــ هامش ص/٢٥٦ ج٢ من حسن المحاضرة .

(٥) حسن المحاضرة جـ٢/٢٥٦ .

(٦) رحلة ابن بطوطة ٢٠/١ .

(٧) انظر : ابن دقماق : الانتصار ٩٦/٤ عند الكلام عن المدرسة البيبرسية .

٢- أن يبنى في كل مدرسة ــ في وسطها أو جانب منها ــ مسجد يكون له عدد من المؤذنين ، وكان يؤم المصلين به أحد القائمين على التدريس[١] .

٣- أن يلحق بها مساكن لطلبة العلم ، يقيمون فيها ، وتجرى عليهم نفقات الاعاشة من الأوقاف التي توقف عليهم .

٤- كما كانت تعتبر خزانة الكتب والمصاحف من الأمور الأساسية في تصميم المدرسة ، فتلحق بها ، ويوفر بها ما يستطاع توفيره من الكتب والمصنفات[٢] .

وقد كانت هناك في ذاك الوقت عادة جرى عليها العرف ، وهي أنه عندما يتم الفراغ من بناء المدرسة وما يتبعها ، يقام احتفال كبير بافتتاحها يحضره الأمراء والفقهاء والقضاة والأعيان ويجلسون للأكل على سماط كبير يزخر بألوان الأطعمة ، ثم يخلع السلطان على كل من أسهم في بناء المدرسة ، ثم يعين لها موظفيها من المدرسين والمؤذنين والقراء وغيرهم[٣] .

أما من جهة الطلاب ، " فكان الواحد منهم يحضر دروس أحد المدرسين حتى يأخذ منه كفايته ، ثم ينقل إلى الآخر حتى كان الواحد منهم يصل عدد الشيوخ الذين يأخذ عنهم إلى بضع مئات "[٤] .

فإذا أتم الطالب دراسته وتأهل للفتيا والتدريس أجاز له شيخه ذلك ، وكتب له إجازة يذكر فيها اسم الطالب وشيخه ومذهبه وتاريخ الإجازة[٥] .

وأما من جهة المناهج العلمية التي تدرس في تلك المدارس ، فإنها لم تكن مناهج محددة بحيث يلتزم بتدريسها الشيوخ ، بل ثمة كتب في الفقه أو الحديث أو النحو أو غير ذلك يدرسها الشيوخ حسب اختياراتهم ، ويسمعها من شاء سواء كان من الطلاب أو من عامة الناس ، إلا أن من أراد الحصول على إجازة ، فإنه يلزمه الحضور والمواظبة على السماع المستمر[٦] .

وبسبب هذا الاهتمام البالغ بالمدارس ودور العلم ، وتهيئتها للطلاب ، وتشجيع الملوك والسلاطين للنشاط العلمي والثقافي ، نشطت حركة التأليف وازدهرت ، وانتجت آلافاً مؤلفة من الكتب في شتى أنواع المعرفة .

ولقد كان للتأليف في عصر السيوطي سمتان بارزتان هما : الموسوعات العلمية ، وكثرة المتون والشروح .

أولاً : الموسوعات العلمية :

---

(١) نفسه .

(٢) انظر : ابن اياس : بدائع الزهور ٢٠٤/١ عند كلامه عن افتتاح مدرسة السلطان حسن .

(٣) ألحقت بإحدى المدارس مكتبة بها مائة ألف مجلد ــ الخطط ١٩٧/٤ س ٩ .

(٤) د. طاهر سليمان حمودة : جلال الدين السيوطي عصره وحياته وآثاره ص/٥٨ المكتب الاسلامي ط١/ ١٤١٠هـ = ١٩٨٩م .

(٥) انظر : عبدالوهاب حمودة : صفحات من تاريخ مصر ص/٤٤ .

(٦) انظر : د. طاهر سليمان حمودة : جلال الدين السيوطي عصره وحياته وآثاره ص/٥٩ .

اتسم عصر السيوطي بوضع الموسوعات العلمية التي تجمع أشتاتاً من علوم مختلفة ، ويتطرق فيها المصنف إلى كثير من الميادين حسب المناسبات[١] . وهي في الجملة تفي بجمع المعلومات المختلفة ، والحقائق المتفرقة التي يبدو أن بينها رباطاً ولكنه رباط واهٍ ، ويغلب عليها الاستطراد والتسلسل من موضوع إلى موضوع[٢] .

وقد يروق لبعض الباحثين أن يتهموا أصحاب الموسوعات بالكلل الفكري ، وأن أعمالهم آلية ، خالية من الجهد العقلي ، وليس الأمر كما زعموا ، فإن هذه الموسوعات تدل دلالة واضحة على سعة علم واضعيها ، ومقدار اطلاعهم الواسع ، وحفظهم الدقيق ، وصبرهم الشديد على تدوين كل دقيقة تتصل بموسوعاتهم ، والربط بين الجزئيات ، وتبويبها وتنسيقها[٣] .

ولقد كان من أعظم الفوائد لهذه الموسوعات أنها حفظت كثيراً من العلوم من الضياع ، ولقد عمد العلماء إلى هذه الطريقة نظراً لما كانوا يشعرون به من خسارة فادحة ألمت بالمسلمين عقب سقوط بغداد في أيدي التتر وضياع الكنز الثمين الذي كان مدوناً في مكتبات بغداد أيام نهضتها العظيمة .

وإذا أردنا أن نورد بعض الأمثلة على هذه الموسوعات العلمية فإننا نجد من أشهرها :

١- " لسان العرب " : وهو أكبر موسوعة في اللغة[٤] بين أيدينا اليوم ، وهو مصدر أساسي من مصادرها ولا نكاد نجد باحثاً من الباحثين إلا ويرجع لهذه الموسوعة الضخمة ، ولا أكون مبالغاً إذا قلت بأن جميع الباحثين عن المعاني اللغوية عيال على " لسان العرب " واضعه هو الإمام العلامة أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور المصري[٥] (ت ٧١١هـ) إنه جهد عظيم مدهش ينظر إليه أهل العلم بعين الاكبار والاجلال نظراً لما يخزنه من العلوم المختلفة ، قال صاحب الاعلام : " أشهر كتبه لسان العرب ط[٦] ، عشرون مجلداً ، جمع فيه أمهات كتب اللغة فكان يغني عنها جميعاً "[٧]

" ومن الغريب أن ابن منظور على الرغم من كونه صاحب أكبر موسوعة لغوية عربية فإنه كان صاحب رغبة معاكسة إذ توفر على بعض الكتب المطولة مثل : الحيوان للجاحظ[٨] ، وتاريخ دمشق لابن عساكر[١] ، والذخيرة لابن بسام[٢] فاختصرها جميعاً " .

---

(١) انظر : د. طاهر سليمان حمودة : جلال الدين السيوطي عصره وحياته وآثاره ص/٧٥ ، د. مصطفى الشكعة : جلال الدين السيوطي مسيرته العلمية ص/٤٥ .

(٢) انظر : د. طاهر سليمان حمودة : جلال الدين السيوطي ــ عصره ص/٧٥ .

(٣) انظر المصدر السابق .

(٤) انظر : د. الشكعة : جلال الدين السيوطي ــ مسيرته ص/٤٥ .

(٥) انظر ترجمته كاملة في : الدرر الكامنة في حرف الميم ٢٦٢/٤ ، والسيوطي في بغية الوعاة ١٠٦ ، والفهرس التمهيدي ٤٢٥ ، فوات الوفيات ٢٦٥/٢ ، روضات الجنات ط٢ ص/٧١٢ ، وآداب اللغة ٤٠٣/٣ وانظر الاعلام جـ١٠٨/٧ .

(٦) " ط " تعني مطبوع .

(٧) خير الدين الزركلي : الأعلام ١٠٨/٧ .

(٨) هو : عمرو بن بحر بن محبوب الكناني بالولاء ، الليثي ، أبو عثمان الشهير بالجاحظ ، كبير أئمة الأدب ، ورئيس الفرقة الجاحظية من المعتزلة ، مولده (١٦٣هـ = ٧٨٠م) بالبصرة ، ووفاته بها (٢٥٥هـ = ٨٦٩م) كان مشوه الخلقة ، مات و الكتاب على صدره ، قتلته مجلدات من الكتب وقعت عليه . من تصانيفه : الحيوان ، البيان والتبين ، سحر البيان ، البخلاء ، وغيرها كثير ، انظر : وفيات الاعيان ٣٨٨/١ ، أمراء البيان ٣١١ - ٤٨٧ ، آداب اللغة ١٦٧/٢ ، لسان الميزان ٣٥٥/٤ ، دائرة المعارف الاسلامية ٢٣٥/٦ .

٢- " نهاية الأرب في معرفة العرب " : لأحمد بن عبدالوهاب النويري المصري[٣] (ت ٧٣٣هـ) ، ويقع في ثلاثين مجلداً كبيراً . قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ : " جمع تاريخاً في ثلاثين مجلداً كان ينسخه ويبيعه ، وهو غير نهاية الأرب"[٤] .

٣- وكان من العلماء الموسوعيين أيضاً : العلامة محب الدين الفيروز آبادي[٥] (ت ٨١٦هـ) ، وأشهر مصنفاته " القاموس المحيط " ، وهو كتاب موسوعي نفيس ، وله مصنفات أخرى مثل : " الوجيز في لطائف الكتاب العزيز " و " الاصعاد إلى رتبة الاجتهاد " وغيرها .

٤- أبو العباس القلقشندي[٦] (ت ٨٢١هـ) وموسوعته العربية في الأدب والتاريخ والسياسة والآثار هي المعروفة بـ " صبح الأعشى في صناعة الانشاء " تقع في أربعة عشر مجلداً وعليه تتلمذ كل صاحب نباهة في الكتابة والأدب[٧] .

٥- شهاب الدين ابن حجر العسقلاني[٨] (ت٨٥٢هـ) ، وأشهر مؤلفاته " تهذيب التهذيب " وهو اثنا عشر مجلداً ، و" لسان الميزان " و" الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة " وهو خمسة مجلدات ، و" الإصابة في تمييز الصحابة " وهو أربعة مجلدات ، وله المصنف الحديثي الفقهي العظيم المسمى بـ " فتح الباري بشرح صحيح البخاري " وغيرها من المصنفات القيمة . وكانت وفاة ابن حجر عام (٨٥٢هـ) أي بعد ميلاد السيوطي بحوالي ثلاث سنوات ، وكان واحداً من شيوخ أبيه كما أنه سيأتي في فصل نشأته أن والده أحضره إلى مجلس ابن حجر وعمره ثلاث سنوات .

---

(١) هو : علي بن الحسن بن هبة الله : أبو القاسم ، ثقة الدين ابن عساكر الدمشقي ، المؤرخ الحافظ الرحالة ، محدث الديار الشامية ورفيق السمعاني صاحب الانساب في رحلاته ، مولده بدمشق (٤٩٩هـ = ١١٠٥م) ووفاته بها (٥٧١هـ = ١١٧٦م) له تاريخ دمشق الكبير ، تبيين كذب المفترى فيما نسب إلى أبي الحسن الاشعري ، وغيرها ، انظر : ابن خلكان وفيات الاعيان ٣٣٥/١ ، مفتاح السعادة ٢١٦/١ ، البداية والنهاية ٢٩٤/١٢ ، طبقات الشافعية ٢٧٣/٤ ، دائرة المعارف الاسلامية ٢٣٧/١ ، الاعلام ٢٧٤/٤ .

(٢) هو : علي بن بسام الشنتريني الاندلسي ، أبو الحسن ، أديب من الكتاب الوزراء ، اشتهر بكتابه " الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة " طبع منه ثلاثة مجلدات انظر : المغرب في حلي المغرب طبعة المعارف ٤١٧/١ . والاعلام ٢٦٦/٤ .

(٣) هو : أحمد بن عبدالوهاب بن محمد بن عبدالدايم القرشي التيمي البكري ، شهاب الدين النويري عالم بحاث غزير الاطلاع نسبته إلى نويرة (من قرى بني سويف بمصر) ومولده ومنشأه بقوص ، ولد عام (٦٧٧هـ = ١٢٧٨م) له هذه الموسوعة العظيمة ونهاية الأرب ، وهو دائرة معارف ، انظر : الدرر الكامنة ١٩٧/١ ، النجوم الزاهرة ٢٩٩/٩ ، البداية والنهاية ١٦٤/١٤ ، الاعلام ١٦٥/١ .

(٤) البداية والنهاية ١٦٤/١٤ .

(٥) هو : محمد بن يعقوب بن محمد بن إبراهيم بن عمر ، أبو طاهر ، مجد الدين الشيرازي ، الفيروز آبادي ، من أئمة اللغة والأدب ولد بكارزين (٧٢٩هـ = ١٣٢٩م) شيراز ، وانتقل إلى العراق ، وجال في مصر والشام ، ودخل بلاد الروم والهند ، وكان مرجع عصره في اللغة والحديث والتفسير ، توفي في زبيد (٨١٧هـ = ١٤١٥م) . انظر : البدر الطالع ٢٨٠/٢ ، الضوء اللامع ٧٩/١٠ ، بغية الوعاه ١١٧ ، كشف الظنون ١٦٥٧ ، الاعلام ١٤٦/٧ .

(٦) هو : أحمد بن علي بن أحمد الفزاري القلقشندي ثم القاهري ، المؤرخ الاديب الباحث ولد في قلقشنده (من قرى القليوبية ، بقرب القاهرة (٧٥٦ هـ = ١٣٥٥م) وله غير ما ذكرنا في الأصل : " قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان " انظر : الضوء اللامع ٨/٢ آداب اللغة ١٣٣/٣ ، الاعلام ١٧٧/١ .

(٧) د. الشكعة : السيوطي ـ مسيرته العلمية ص/٤٨ .

(٨) هو : أحمد بن علي بن محمد الكناني العسقلاني ، أبو الفضل شهاب الدين ، ابن حجر ، من أئمة العلم والتاريخ ، ولد بالقاهرة عام (٧٧٣هـ = ١٣٧٢م) وتوفي بها عام (٨٥٢هـ = ١٤٤٩م) ولع بالأدب والشعر ثم أقبل على الحديث ، انتشرت مصنفاته في حياته وتهادتها الملوك وكتبها الأكابر ، انظر : الضوء اللامع ٣٦/٢ ، البدر الطالع ٨٧/١ ، خطط مبارك ٣٧/٦ ، الدرر الكامنة ٤/خاتمته للناشر ، الاعلام ١٧٨/١ .

٦- وكـــان معاصـــراً لابن حجر العسقلاني عالم آخر يضاهيه هو العلامة بدر الدين العيني[١] (ت ٨٥٥هـــ) الـــذي تـــرك لنا تركة قيمة على غرار تركة ابن حجر في شرح صحيح البخاري سماها العيني " عمدة القاري في شرح صحيح البخاري " أحد عشر مجلداً ضخماً ، كما خلف غيرها من المصنفات القيمة .

٧- ثم نجد مع ذلك العلامة أبو المحاسن ابن تغري بردي[٢] (ت ٨٧٤هـــ) وأهم موسوعاته " النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة " وهو اثنا عشر مجلداً ، وغيرها .

٨- ولا ننسى العلامة شمس الدين السخاوي[٣] (ت ٩٠٢هـــ) كان السخاوي مؤلفاً موسوعياً أيضاً له في ذلك باع طويل ، فقد صنف نحواً من مائتي مصنف ، غير أن أشهر تصانيفه هو : " الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع " .

وهكـــذا كانت هذه المصنفات الموسوعية سمة من سمات ذلك العصر الذي عاش ونشأ فيه السيوطي فلا غرابة أن يكون واحداً من هؤلاء المشاهير الموسوعيين .

ثانياً : كثرة المتون والشروح :

يلحظ الباحث هذه الظاهرة واضحة في العصر الذي نشأ وعاش فيه السيوطي ، فنظراً لنشاط الحركة العلمية في تلك الآونة وتفاعلها الكبير فيما بين العلماء والأمراء والطلاب ، احتاج الشيوخ إلى تيسير المعرفة على طلابهم ، فوضعوا المتون التي تجمع مسائل الموضوعات في قليل من اللفظ حتى يتسنى لطالب العلم أن يستوعبها بأيسر طريقة وبأقل جهد وفي أقصر مدة ممكنة .

" وقـــد غلا بعضهم في الايجاز وفي ضغط العبارة في هذه المتون حتى بلغت حد الرموز ، فاستغلق بذلك فهمها على الطلاب واحتاجت إلى شروح فوضعت لها كتب شارحة ثم وضعت كتب أخرى أكثر تفصيلاً تشرح الكتب الشارحة ، ومن ثم تعددت الشروح التي تتناول المتن الواحد ما بين شرح مطول ، وآخر يميل إلى الإيجاز كما نظمت كثير من العلوم في منظومات تعليمية احتاجت أيضاً إلى وضع الشروح لها "[٤] .

---

(١) هو : محمود بن أحمد بن موسى بن أحمد ، أبو محمد ، بدر الدين العيني الحنفي ، مؤرخ علامة ، من كبار المحدثين أصله من حلب ومولده في عينـــتاب وإليها نسبته ، (٧٦٢هـــ = ١٣٦١م) أقام في حلب ودمشق و مصر والقدس ثم توفى بالقاهرة عام (٨٥٥هـــ= ١٤٥١م) له غير ما ذكرنا بالأصل : البناية في شرح الهداية ، رمز الحقائق في الفقه والمقاصد النحوية ، وغيرها انظر : التبر المسبوك ٣٧٥ ، الضوء اللامع ١٠ /١٣١- ١٣٥ ، خطط مبارك ٦/١٠، شذرات الذهب ٧/٢٨٦ ، الاعلام ٧/١٦٣ .

(٢) هـــو : يوسف بن تغري بردي بن عبدالله الظاهري الحنفي أبو المحاسن ، جمال الدين ، مؤرخ بحاثة ، من أهل القاهرة مولداً عام (٨١٣هـــ = ١٤١٠م) ووفـــاةً عام (٨٧٤هـــ = ١٤٧٠م) كان أبوه من مماليك الظاهر برقوق ، ومن أمراء جيشه المقدمين ، نشأ يوسف في حجر قاضي القضـــاة جـــلال الديـــن البلقيني وتأدب وتفقه وأولع بالتاريخ ، وصنف كتباً نفيسة منها : " النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة " والمنهل الصافي ، وغيرها انظر : النجوم الزاهرة ١/٩-٢٨ ، الضوء اللامع ١/٣٠٥ شذرات الذهب ٧/٣١٧ ، ابن اياس ٢/١١٨ - الاعلام ٨/٢٢٣ .

(٣) ستأتي ترجمته مفصلة في فصل نشأته وحياته ، وسنذكر ــ إن شاء الله ــ فيه خصومته مع السيوطي .

(٤) د. طاهر سليمان حمودة : جلال الدين السيوطي ــ عصره وحياته ص/٧٧ .

وبهذه الطريقة وجدنا امتلاء العصر بالمتون والشروح ، والاختصارات ثم التعليقات والحواشي ، والمنظومات والأراجيز الملغزة ثم حلها وبسطها ثم التذييل عليها... وهكذا ، حتى يتبادر إلى الذهن أن هذه المؤلفات قد وضعت كلها أو معظمها للتمرين العقلي لإثبات المقدرة على التأليف وزيادة عدة المصنفات وتعدادها .

وإذا كنا نعتبر أن هذه الطريقة التي اتبعها العلماء الذين عاشوا في عصر السيوطي وهو واحد منهم ـ إن كنا نعتبر أنها أضاعت جهداً كبيراً من جهودهم ، واستنزفت ثمرة عقولهم في نظم المنظومات والشروحات والاختصارات ، والاهتمام بالنواحي الشكلية ، وانتقاء العبارات والألفاظ إلا أننا نجد من الصعب علينا أن نجزم بأن ذلك قد قضى قضاءً تاماً على الاهتمام بالقيمة العلمية للمؤلفات ، أو أنه ألغى التجديد والابتكار ، بل وجدنا فيها شيئاً لا يستهان به من التجديد في التصنيف والتبويب ، وأنه عمل تمليه عقلية علمية واعية ومنظمة ، لها صفاتها التي تميزها عن غيرها ، وتتجه بها وجهة فريدة من نوعها . كما كان لهؤلاء العلماء شخصية وقوة في بحوثهم تشعر بعمق الفهم وكمال الادراك وحسن التوجيه والتعليل .

الفصل الثاني

نشأته وحياته

المبحث الأول

اسمه ، ونسبه ، ولقبه ، وكنيته :

اسمه ونسبه :

عبدالرحمن ، بن الكمال أبي بكر ، بن محمد ، ابن سابق الدين ، بن الفخر عثمان ، بن ناظر الدين محمد ، ابن سيف الدين خضر ، بن نجم الدين أبي الفلاح أيوب ، ابن ناصر الدين محمد ، بن الشيخ همام الدين الخضيري[١] .

<u>كنيته :</u> أبو الفضل[٢] .

<u>لقبه :</u> جلال الدين .

<u>نسبته :</u> السيوطي[٣] ، إلى أسيوط . بصعيد مصر .

المبحث الثاني : ولادته ، ونشأته ، وحياته :

ولد جلال الدين السيوطي ، مساء يوم الأحد بعد المغرب ، مستهل رجب سنة تسع وأربعين وثمانمائة (٨٤٩هـ = اكتوبر ١٤٤٥م) ، ويذكر ابن إياس[٤] أن ولادة السيوطي كانت في جمادي الآخرة ، وليس هناك فرق كبير بين التاريخين ، إذ قد لا يتعدى الفارق بضعة أيام بين أواخر جمادي الآخرة ومستهل رجب ، والظاهر أن الصواب هو ما حكاه السيوطي عن نفسه[٥] ، وفي ولادته طرفة فقد ذكر العيدروس[٦] أن والده احتاج كتاباً من كتب العلم فأرسل زوجته وهي والدة السيوطي لتحضره له من بين الكتب ، فجاءها المخاض بين كتب العلم فوضعته ، ولذلك أطلق عليه : " ابن الكتب "[٧] .

---

(١) السيوطي : حسن المحاضرة جـ١/٣٣٦ ت : محمد أبو الفضل ابراهيم ط١/١٩٦٧م ١٣٨٧هـ ــ عيسى الحلبي وشركاه والخضيري : نسبة إلى ((الخضيرية)) محلة ببغداد .

(٢) ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب في أعيان من ذهب جـ١/٥١– دار الآفاق الجديدة ــ بيروت ــ بدون تاريخ .

(٣) حسن المحاضرة جـ١/٣٣٥ ، ابن العماد : الشذرات جـ٨/٥١ ، السخاوي : الضوء اللامع في أعيان من بعد القرن السابع .

(٤) هو : محمد بن أحمد بن إياس الحنفي ، ابو البركات ، مؤرخ وبحاث مصري ، من المماليك ، كان أبوه أحمد متصلاً بالأمراء ورجال الدولة ، وجده الأمير " إياس الفخري الظاهري " من مماليك الظاهر برقوق ، وكان محمد من تلاميذ السيوطي ولد عام (٨٥٢هـ = ١٤٤٨م) له " بدائع الزهور في وقائع الدهور " مطبوع وبه ترجمة السيوطي ، و " تاريخ مصر " وغيرها ، انظر بدائع الزهور ٤٧/٤ ، آداب اللغة ٢٩٨/٣ والاعلام ٥/٦ .

(٥) ابن إياس : بدائع الزهور ٢٥٦/١ .

(٦) النور السافر من أخبار القرن العاشر ص/٥٤ .

(٧) محي الدين عبدالقادر العيدروس : النور السافر عن أخبار القرن العاشر ص/٥٤ .

أما نشأته :

فكــانت فــي بيت علم وأدب ، كان والده من المشتغلين بالعلوم الإسلامية ، حتى تولى قضاء أسيوط موطنه ، ثم انتقل بعد ذلك إلى القاهرة .

ولقد اهتم به والده فأحضره إلى مجلس الحافظ ابن حجر العسقلاني[١] وهو في الثالثة من عمره ، لكن المنية وافت والــده ، وكان عمر السيوطي حينئذ خمس سنوات وسبعة أشهر ، فاصبح بذلك يتيماً ، مما كان لذلك أثر بالغ من أن تكون نشــأته نشأة جادة[٢] ، بعيدة عن عبث الصبيان ولهوهم ، سيما وقد اسندت وصايته إلى جماعة من أهل العلم ، منهم كمال الديــن ابن الهمام[٣] ، فقرره في وظيفة " الشيخونية "[٤] ، وكان قد وصل في القراءة إلى سورة التحريم ، فهيأ الله له بذلك من أسباب النجاح في الحياة ، ما جعله آية في العلم والحفظ ، نبغ فيه وأعزم به ، وحباه الله تعالى بمزيد من النبوغ المبكر في وسط علمي مهيأ للدراسة والتحصيل .

حياته :

وأما عن حياة السيوطي فالكلام عنها يطول بطولها وبركتها ، وحركتها العلمية ، فهي حياة حافلة بالعلم والعمل ، والتدريس والافتاء ، والتأليف والتأييد والمعارضة ، والأخذ والرد ، والدعوة إلى الله ، لقد حبب إليه العلم فملأ عليه أقطار نفســه فقــام به وقعد ، وتكلم به وجادل ، حتى قال عن نفسه : " إني رجل حبب إليّ العلم ، والنظر فيه ، دقيقة وجليلة ، والغــوص عــلى حقائقه ، والتطلع إلى دقائقه ، والفحص عن أصوله ، وجبلت على ذلك ، فليس فيّ منبت شعرة إلا وهي ممحونة[٥] بذلك ، وقد أوذيت على ذلك أذىً كثيراً ، من الجاهلين والقاصرين ، وذلك سنة الله في العلماء السالفين "[٦] .

---

(١) هــو : أحمــد بن علي بن محمد الكناني العسقلاني ، أبو الفضل شهاب الدين ابن حجر ، من أئمة العلم والتاريخ أصله من عسقلان بفلسطين ، ومولده (٧٣٣هـ) ووفاته (٨٥٢هـ) بالقاهرة ، حافظ الإسلام في عصره ، وأمير المؤمنين في الحديث ، كان فصيح اللسان راوية للشعر ، عارفــاً بأيام العرب والمتقدمين وأخبار المتأخرين صبح الوجه ولي قضاء مصر عدة مرات ثم اعتزل له مصنفات عديدة وشهيرة " انظر : التبر المسبوك /٢٣٠ ، والضوء اللامع ٣٦/٢ ، والبدر الطالع ٨٧/١ ، خطط مبارك ٣٧/٦ ، و بدائع الزهور ٣٢/٢ ، والاعلام ١٧٨،١٧٩/١ – وانظر ترجمته لنفسه في " دفع الأصر عن قضاء مصر " ١: ٨٥ .

(٢) هذا ليس على اطلاقه ، فقد يضيع اليتيم بسبب اليتم ، وكذلك الفقر ، لولا مايهيئه الله تعالى لبعض عباده من أسباب الحفظ الرعاية ،وكذلك ليس كل من نشأ في كنف والديه يسلم من الضياع فقد يضيع أيضاً بسبب إهمال الوالدين أو جهلهما ، أو تدليلهما الزائد للولد ، فإذا صاحب ذلك يسار وغنى زادت أسباب الفساد كما قال القائل :

إن الشباب والفراغ والجدة مفسدة للمرء أي مفسدة .

(٣) هــو محمد بن عبدالواحد بن عبدالحميد بن مسعود ، السيواسي ، ثم الاسكندري ، كمال الدين المعروف بابن الهمام ، إمام من علماء الحنفية ، أصــله مــن سيواس ، ولد بالاسكندرية (٧٩٠هـ = ١٣٨٨م) ونبغ في القاهرة ، وتوفي بها (٨٦١هـ ١٤٥٧م) وكان السيوطي آنذاك في الــثانية عشرة من عمره وكان وصياً عليه انظر : الضوء اللامع ١٢٧/٨-١٣٢ – شذرات الذهب ٢٨٩/٧ ، بغية الوعاة ١٦٧/١ – الاعلام ٦/ ٢٥٥ ، حسن المحاضرة ٤٧٤/١

(٤) نســبة إلى الأمير شيخو ، وهي مدرسة أنشأها الأمير سيف الدين شيخو العمري سنة ٧٥٧هـ = وهي المعروفة الآن بجامع شيخون بحي القلعة ــ انظر : الذيل على رفع الإصر للسخاوي ص/٤٩٢ . وانظر أيضاً حسن المحاضرة جـ٢/٢٦٦ .

(٥) أي ممتحنة مجربة ومختبرة بذلك .

(٦) الســيوطي : تعريف الفئة بأجوبة الأسئلة المائة ــ ضمن الحاوي للفتاوي جـ٢/٣٠٠ عنى بنشره جماعة من طلاب العلم سنة ١٣٥٢هـ ــ ط دار الكتب العلمية ١٤٠٨هـ = ١٩٨٨م بيروت – لبنان .

نعـم إن حـب السيوطي للعلم ، وتفرغه له ، واغراقه فيه أمر معروف ومشهود له به ، مسلم له فيه ، وكلامه السابق يعكس صورة معاناته من الأذى والصراع الذي عاشه فترة من حياته بينه وبين منافسيه من علماء عصره ، وهو حقيقة أيضاً لا تنكر . وسيأتي لذلك مزيد بيان تحت عنوان: " السيوطي بين أنصاره وخصومه " .

المبحث الثالث : طلبه العلم ورحلاته :

لقد بدأ السيوطي في طلب العلم في مرحلة مبكرة من عمره ، وذلك بتوجيه من والده ومن وصاهم به ، ولذلك أتم حفـظ القرآن الكريم وعمره ثمان سنوات ، واستطاع في باكورة حياته أن يحفظ بعض متون كتب العلم ، مثل كتاب " التنبيه "[١] وكـتاب " الحـاوي "[٢] و " كـتاب الـتهذيب "[٣] و كتاب " روضة الطالبين "[٤] و " عمدة المتقين "[٥] وكلها في فروع الشافعية .

ثـم شرع في الاشتغال الجاد بتحصيل العلم إبتداءً من ربيع الأول سنة اربع وستين وثمانمائة (٨٦٤هـ) ، فقرأ عـلى الشمس السيرامي[٦] صحيح مسلم إلا قليلاً منه ، ومنهاج النووي[٧] ومنهاج الوصول للبيضاوي في أصول الفقه[٨] ، والشـفاء[٩] وألفيـة ابن مالك[١٠] فما أتمها إلا وقد بدأ في التصنيف ، وكان أول شئ صنفه " شرح الاستعاذة والبسملة " يقـول السيوطي " ووقفت عليه شيخنا شيخ الإسلام علم الدين البلقيني[١١] ، فكتب عليه تقريظاً ، ولا زمته في الفقه إلى أن مـات ، فلازمت ولده ، فقرأت عليه من أول " التدريب لوالده ، إلى الوكالة ، وسمعت عليه من أول " الحاوي الصغير " إلى العـدد ، ومن أول " المنهاج " إلى الزكاة ، ومن أول " التنبيه " إلى بقريب من باب الزكاة ، وقطعة من " الروضة " مـن باب القضاء ، وقطعة من تكملة " شرح المنهاج " للزركشي[١٢] ومن إحياء الموات إلى الوصايا أو نحوها ، وأجازني بالـتدريس والإفـتاء من سنة ست وسبعين[١٣] (٨٧٦هـ) ويبين من هذا أن أول جلوس السيوطي للتدريس والافتاء كان

---

(١) التنبيه في فروع الشافعية ــ لأبي اسحاق ابراهيم بن علي الفقيه الشيرازي الشافعي (ت ٤٧٦هـ) كشف الظنون جـ١/٤٨٩ .

(٢) الحاوي الصغير من الفروع ــ لنجم الدين عبدالغفار بن عبدالكريم القزوين الشافعي (ت ٦٦٥هـ) كشف الظنون ٦٢٥/١ .

(٣) التهذيب في الفروع ــ للإمام محي السنة حسين بن مسعود البغوي الشافعي (ت ٥١٦هـ) ــ كشف الظنون ٥١٧/١ .

(٤) " روضة الطالبين وعمدة المتقين " للإمام محيي الدين ابي زكريا يحيي بن شرف النووي الشافعي (ت ٦٧٦هـ) كشف الظنون ٩٢٩/١ .

(٥) " عمدة المتقين " في فروع الشافعية ــ لتقي الدين المقدسي .

(٦) هو : محمد بن موسى بن محمود بن قريش بن عبدالله السيرامي الحنفي ، الشيخ شمس الدين ، الإمام بالشيخونية ، ولد تقريباً (٨٠٠هـ) وسمع على المغوي والزركشي ، والسراج قارئ الهداية وغيرهم ، مات سنة احدى وتسعين وثمانمائة (٨٩١هـ) .
انظر : المنجم في المعجم للسيوطي ــ ت ابراهيم باجسن عبدالمجيد ص/٢٢١ .

(٧) " منهاج الطالبين " للإمام محيي الدين أبي زكريا يحيي بن شرف النووي .

(٨) " منهاج الوصول إلى علم الأصول " للقاضي أبي سعيد ، أو أبي الخير ، ناصر الدين عبدالله بن عمر بن محمد بن علي الشيرازي البيضاوي ــ (ت ٦٨٥هـ) انظر الاعلام جـ١١٠/٤ .

(٩) " الشفا بتعريف حقوق المصطفى " ــ للقاضي أبي الفضل عياض بن موسى بن عياض اليحصبي (ت ٥٤٤هـ) مطبوع .

(١٠) " الألفية " في النحو ــ مؤلفها محمد بن عبدالله بن مالك الطائي الجيّاني أبو عبدالله ، جمال الدين (ت ٦٧٢هـ) بدمشق .

(١١) ستأتي ترجمته ، ــ إن شاء الله ــ في فصل : شيوخه وتلاميذه ، الفصل الثالث .

(١٢) اسم الكتاب : " الديباج في توضيح المنهاج " في الفقه ، مؤلفه : محمد بن بهادُر بن عبدالله الزركشي ، أبو عبدالله ، بدر الدين ، كان عالماً بفقه الشافعية والأصول ، تركي الأصل ، مصري المولد والوفاة (٧٤٥هـ = ٧٩٤هـ) .

(١٣) حسن المحاضرة جـ٣٣٧/١ ، والمنجم في المعجم ص/١٠ .

وسنه سبع وعشرون سنة .ولازم تقي الدين أحمد بن محمد الشمني[١] اربع سنين ، بدءاً من مطلع سنة (٨٦٨ هـ) فأخذ عنه الحديث واللغة وعلم المعاني ، وهو أعظم شيوخه في اللغة ، وكان كل منهما معجباً بالآخر ، وقد شهد الشيخ لتلميذه بالتقدم والتفوق ، وكتب له تقريظاً على " شرح ألفية ابن مالك " وعلى كتاب " جمع الجوامع " .

وقرأ على الشيخ محيي الدين الكافيجي مدة أربع عشرة سنة[٢] وهي أطول مدة لازم فيها شيخاً معيناً ، وأخذ عنه التفسير ، والأصول والنحو وسائر علوم العربية ، وكتب له بذلك إجازة عظيمة . ويحدثنا السيوطي عن الجدول الذي نظمه لتلقي دروسه وعلمه فيقول : " كنت أذهب من الفجر إلى دروس البلقيني ، فأحضر مجلسه إلى قرب الظهر ، ثم أرجع إلى الشُمُني فأحضر مجلسه إلى قرب العصر ، هكذا ثلاثة ايام في الجمعة " : السبت والاثنين والخميس ، وكنت أحضر الأحد والثلاثاء عند الشيخ سيف الدين الحنفي بكرة ، ومن بعد الظهر في هذين اليومين ويوم الأربعاء عند الشيخ محيي الدين الكافيجي "[٣] .

رحلاته :

جرت عادة العلماء على أن الواحد منهم تكون له رحلة في طلب العلم ، يطوف بها بعض البلدان ، بحثاً عن كنز علمي ، أو تحصيلاً لرواية حديث ، أو تفجيراً لمنبع معرفة ، أو ثقافة جديدة تضاف إلى رصيد العلم والمعرفة ، هكذا جرت عادتهم على الرغم من تنائي الديار ، ووعثاء السفر ، ومخاطر الطريق ، وقد سار السيوطي على هذا المنهج السالف لعلماء الأمة . فرحل رحلات عدة في خارج الديار المصرية وداخلها .

ففي سنة ٨٦٩هـ توجه إلى بلاد الشام والحجاز للحج ، فحج وجاور سنة كاملة ، والتقى بالعلماء ، فأخذ عنهم ، وأخذوا عنه ، وفي الشام ذهب إلى حلب وأجاز له جماعة من العلماء منهم : ابن مقبل ، والتقى في الحجاز بعالم مكة وقتئذ الرضى محمد بن حسين ، والحافظ محمد بن محمد الهاشمي العلوي ، وقرأ على أحمد بن اسماعيل ابن أبي بكر بن عمر الأبشيطي[٤] . كما رحل السيوطي إلى اليمن والهند والمغرب وبلاد التكرور[٥] (منطقة تشاد) .

كما كانت له رحلات داخلية في وطنه فسافر إلى " الفيوم " و " دمياط " و " المحلة " وغيرها وكتب عن جماعة من أهل العلم ، وقرأ عليهم ، من هؤلاء : جعفر بن إبراهيم في سنهور ، وعلى عز الدين عبدالعزيز بن عبدالواحد التكروي الشافعي في " منية سمنود " .

المبحث الرابع : مكانته العلمية :

لقد استطاع السيوطي بما آتاه الله تعالى وحباه من جد واجتهاد ، وشغف بالعلم أن يبلغ درجة رفيعة فيه ، لقد جمعت لديه نفائس المراجع ، والمصنفات التي تركها له والده في مكتبة زاخرة ، فتلقى ثقافته من موارد متنوعة ، تردد

---

(١) تأتي ترجمته في فصل شيوخه وتلاميذه الفصل الثالث ـ إن شاء الله ـ .

(٢) حسن المحاضرة جـ١/٣٣٨ . وستأتي ترجمته ـ إن شاء الله ـ في فصل شيوخه وتلاميذه ، الفصل الثالث .

(٣) سعدي أبو حبيب : حياة جلال الدين السيوطي مع العلم من المهد إلى اللحد ص/٢٨ ، دار المناهل ، ط١/١٩٩٣ - ١٤١٣هـ = دمشق .

(٤) ستأتي ترجمته ـ إن شاء الله ـ في فصل شيوخه وتلاميذه - الفصل الثالث .

(٥) حسن المحاضرة جـ١/٣٣٨ .

على المكتبة المحمودية التي كانت آنذاك أضخم مكتبة في القاهـرة . تضم نوادر المؤلفات وأفضلها وأهمها ، هذا التنوع والتعدد في روافد العلم الذي كان يتلقاه السيوطي ، وتردده على المكتبات الكبرى ، واطلاعه على نوادر مصنفاتها ، جعـل أقـرانه و شـيوخه يشهدون له بالسبق والتقدم ويقرون بما له من فضل ومكانة علمية رفيعة ، سبقهم إلى بيان تلك المكانـة والمنزلة السيوطي نفسه فشهد لنفسه بذلك ، لقد تيقن أنه قد بلغ منزلة عالية بين أهل العلم ، فأقر لنفسه بذلك وهو يقول : " رزقت التبحر في سبعة علوم : التفسير ، والحديث ، والفقه ، والنحو ، والمعاني ، والبيان ، والبديع... "[١] ولما كان السيوطي يتحدث بحاسة العالم العادل في حكمه ، لم يشأ أن يبالغ في تمجيد نفسه ومدحها واعطائها أكثر مما تستحق ، ولذلـك نجـده يعترف أنه في علوم أخرى غير هذه السبعة ، لم تصل منزلته فيها إلى ما وصلت إليه في العلوم السبعة فيقـول: " ...ودون هـذه العـلوم الـتي اطلعت عليها في المعرفة ، أصول الفقه والجدل ، والصرف ، ودونها الانشاء والترسل ، والفرائض ، ودونها القراءات ، ولم آخذها عن شيخ ، ودونها الطب "[٢] .

ويقرالسيوطي بأن علم الحساب هو أعسر شئ عليه ، وأبعده عن ذهنه ، وأنه إذا نظر في مسألة فإنه يجد في حلها صعوبة كبيرة ، أو كأنما يحاول جبلاً يحمله[٣] .

كمـا يخـبرنا السيوطي بأنه قد بلغ مرتبة الاجتهاد ، وأنه كملت لديه أدواته وحصل علومه فيقول : " وقد كملت عـندي الآن آلات الاجتهاد بحمد الله تعالى ، أقول ذلك تحدثاً بنعمة الله تعالى لا فخراً... ولو شئت أن اكتب في كل مسألة مصـنفاً بأقوالها وأدلتها النقلية والقياسية ، ومداركها ونقوضها وأجوبتها ، والموازنة بين اختلاف المذاهب فيها لقدرت على ذلك من فضل الله ، لا بحولي ولا بقوتي "[٤] .

ولهـذه المكانـة من تحصيل العلم وحفظ مسائله ودلائله قل أن تجد فنا من فنون العلم إلا وله فيه كتاب ضخم أو رسالة أو جزء ، جمعاً وتبويباً وترتيباً وتفصيلاً .

كما أننا نلحظ أنه بدأ بالتدريس وباشر التأليف في سن مبكرة سنة (٨٦٦هـ) وعمره حينئذ سبع عشرة سنة .

يقول السيوطي : " وشرعت في التصنيف في سنة ست وستين ، وبلغت مؤلفاتي إلى الآن ثلاثمائة كتاب سوى ما غسلته ورجعت عنه "[٥] .

وإذا كـنا بصـدد الحديـث عن مكانة السيوطي العلمية ومنزلته بين العلماء ، فإن هذا يجعلنا نتطرق إلى ما كان يحـظى به السيوطي من ألقاب التكريم والثناء التي كان يلقبه به أقرانه وتلاميذه ومن اطلع على مؤلفاته ومصنفاته ، ولعله من الأوفق أن نبدأ ذلك بثناء السيوطي على نفسه فقد قال فيما سبق ونقلنا قبل قليل : " وقد كملت عندي الآن آلات الاجتهاد ـ بحمد الله تعالى ـ أقول ذلك تحدثاً بنعمة الله تعالى لا فخراً... "[٦] .

---

(١) حسن المحاضرة جـ١/٣٣٨ .
(٢) نفس المصدر .
(٣) نفس المصدر ١/٣٣٩ .
(٤) نفس المصدر ١/٣٣٩ ، وانظر : تدريب الراوي ص١٢/أ .
(٥) حسن المحاضرة ١/٣٣٨ .
(٦) حسن المحاضرة ١/٣٣٩ .

ويقـول : " ...وليـس على وجه الأرض من مشرقها إلى مغربها أعلم بالحديث والعربية مني "[١] .

ويقـول : " ورزقت التبحر في سبعة علوم " وعددها . ثم قال : " والذي اعتقده أن الذي وصلت إليه من هذه العلوم السبعة لم يصل إليه ، ولا وقف عليه أحد من اشياخي فضلاً عمن دونهم... "[٢] .

ويتضح من كلام السيوطي عن نفسه أنه قد أصيب بشئ ليس قليلاً من الميل إلى الاعتداد بالنفس . وذلك بسبب ما حصـله من علوم ، وأنه بذلك قد تخطى ما كان يتسم به سلفنا من العلماء من تواضع جم مهما بلغوا من العلم ، ولعل الذي دفع السيوطي إلى ذلك بعض ما اتسمت به تلك الحقبة من مشاحنات وصراعات بين العلماء ، كل يحدث عن نفسه ، ويفاخر بما عنده ، وهذا الذي يسوغ ما نقل إلينا مما وقع للسيوطي من أذى من معاصريه في كثير من الأحيان .

وقـد ذهـب السيوطي إلى أنه تمنى لنفسه أن يكون هو المبعوث لتجديد الدين على رأس المائة التاسعة فقال : " وعسى أن يكون المبعوث على رأس المائة التاسعة من أهل مصر "[٣] . وهو يقصد بذلك نفسه[٤] وقال أيضاً مؤيداً ذلك : " ...جولـوا في الناس جولة ، فإنه ثم من ينفخ أشداقه ويدعي مناظرتي ، وينكر عليّ دعواي الاجتهاد ، والتفرد بالعلم على رأس هـذه المائـة ، ويزعم أنه يعارضني ، ويستجيش على من لو اجتمع هو وهم في صعيد واحد ، ونفخت عليهم نفخة صـاروا هباءً منثوراً ، فدار السائل المذكور على الناس ، وأتى كل ذاكر وناس ، وقصد أهل النجدة والباس ، فلم يجد من يزيل عنه الالتباس ، ومضى على ذلك بقية العام ، والسؤال بكر لم يفض أحد ختامها ، بل ولا جسر جاسر أن يحسر لثامها ، وكل من طرق سمعه هذا السؤال لم يجد له باباً يطرقه غير بابي ، وسلم الناس ، أنه لا كاشف له بعد لساني سوى واحد وهو كتابي ، فتسدني القاصدون في كشفه... "[٥] .

وهكـذا كـان السـيوطي مقتـنعاً بإمامته في العلم ، مثنياً على نفسه بما يراه أنها أهلٌ له ، من الإمامة والتجديد وللسيوطي في هذا الصدد أنصار وخصوم ، فأنصاره يحيطونه بهالات المدح والثناء ، وخصومه يعارضونه بعبارات القدح والازدراء ، لذا رأينا أن نقترب من هؤلاء وأولئك فنسلط عليهم شيئاً من الضوء ، لنتبين المحق من المبطل .

المبحث الخامس : السيوطي بين أنصاره وخصومه :

ظهر في عصر السيوطي وفي مجتمعه خاصـة ، فريقان متقابلان أحدهما يؤيده ويناصره ويصحح فتاويه وآراءه ، والفريق الآخر يناوئه ويطعن عليه ولا يراه أهلاً للإجتهاد والتجديد .

وكان من أنصار السيوطي أمين الدين الأقصرائي[٦] وفخر الدين الديمي[١] .

(١) عبدالوهاب عبداللطيف محقق كتاب تدريب الراوي ، نقلا عن رسالة " الرد على من أخلد إلى الأرض " للسيوطي وهذا الكلام من التزكية التى لاتجوز وقصة موسى -- عليه السلام -- مع الخضر -- عليه السلام -- معلومة .

(٢) حسن المحاضرة ٣٣٩/١ .

(٣) نفس المصدر ٣٢٩/١

(٤) تحذير الخواص من أكاذيب القصاص . للسيوطي ــ مقدمة المحقق محمد الصباغ ص/٣٠.

(٥) الكشف عن مجاوزة هذه الأمة الألف ضمن الحاوي للفتاوي للسيوطي جـ٨٦/٢ . وانظر تحذير الخواص ــ مقدمة المحقق محمد الصباغ ٣١ .

(٦) هـو شـيخ الإسـلام أمين الدين أبو زكريا يحيي بن محمد بن إبراهيم الأقصرائي ، فاضل من الحنفية ، تركي الأصل ، من بلدة " أقصرا " (آق سـراي) مولـده بالقاهـرة (٧٩٧هـ=١٣٩٧م) ووفاتـه بها (٨٨٠هـ = ١٤٧٥م) والغريب أنه كان من تلاميذ السخاوي ولكنه كان من

وشـمس الديـن القـادري[٢] (ت ٩٠٣هـ) وغيـرهم ، فضـلاً عن شيوخه الذين شهدوا له بالتقدم وأثـنوا عليهً وكتبوا له التقاريظ على بعض مؤلفاته ورسائله ، كالشيخ الإمام العلامة تقي الدين الشبلي الحنفي الذي كتب له تقريظاً على شرح ألفية ابن مالك وعلى جمع الجوامع في العربية ، وشهد له غير مرة بالتقدم في العلوم بلسانه وبنانه ، ورجع إلى قوله في بعض الأحاديث[٣] .

وكذلـك من العلماء الذين اثنوا عليه علم الدين البلقيني[٤] فقد كتب له تقريظاً على شرح الاستعاذة والبسملة ، مما شجعه على الاستمرار في الكتابة والتأليف .

ونـرى كذلك شيخه تقي الدين الشمني يكتب له تقريظاً على شرح الالفية وجمع الجوامع في العربية[٥] ، كما كتب لـه الشبلي والمنصوري من قبل ، ورأى التقريظ الذي كتبه عليه الشهاب المنصوري فأعجبه ، فكتبه بخطه في " تذكرته " يقول السيوطي : " وتلك منقبة لي وللمنصوري معاً "[٦] .

ومن هؤلاء المؤيدين للسيوطي والمثنين عليه سراج الدين العُبَادي[٧] .

ومـن المعجبين بالسيوطي المنافحين عنه تلميذه الداودي[٨] كتب له ترجمة ضخمة جمع فيها كثيراً من مناقبه التي يحمد عليها ويثني عليه بها .

وكان ابن طولون[٩] كذلك من تلاميذه المحبين له ، وكان يتباهى عندما يتحدث عنه فيقول " شيخنا "[١٠] ويقول عنه : " كـان بارعـاً فـي الحديث وغيره من العلوم ، بلغت عدة مصنفاته نحو الستمائة ، وكان في درجة المجتهدين في العلم والعمل "[١١] .

المناصرين للسيوطي ضد السخاوي ــ الضوء اللامع ٢٤٠/١٠ ، حسن المحاضرة ٤٧٨/١ ونظم العقيان للسيوطي ص/١٧٧ ، ١٧٨ ، الاعلام ١٦٨/٨ ، المنجم في المعجم ٢٣٨ .

(١) هو عثمان بن محمد بن عثمان بن ناصر ، أبو عمرو ، فخر الدين الديمي ، مصري من حفاظ الحديث ولد في طَنَبَا من أعمال سخا (٨٢١هـ) ونشـأ فـي ديمـة قرب طَنَبَا وتعلم في الأزهر فكان يحفظ عشرين ألف حديث ، سماه السيوطي بالحافظ ، الضوء اللامع ١٤٠/٥ ، والكواكب السائرة ٢٥٩/١ ، النور السافر ٤٩ ، الاعلام ٢١٤/٤ .

(٢) هو : محمد بن أبي بكر بن عمر بن عمران بن نجيب الانصاري السعدي الدنجاوي القادري شاعر العصر قال عنه السيوطي : إنه الآن شاعر الدنيا على الاطلاق " ، وهو أي القادري اثنى على السيوطي ولقبه بالإمام المجتهد عالم العصر العامل في قصيدة طويلة يمدحه فيها ، انظر حسن المحاضرة جـ٥٧٤/١ - ٥٧٧ .

(٣) حسن المحاضرة ٣٣٧/١ .

(٤) ستأتي ترجمته ــ إن شاء الله في فصل شيوخه وتلاميذه ، الفصل الثالث .

(٥) المنجم في المعجم ٨٧ .

(٦) نفس المصدر .

(٧) هو : عمر بن حسين بن حسن بن أحمد العبادي الشافعي ، ولد سنة (٨١٠هـ) وتوفي (٨٨٥هـ) . انظر : المنجم في المعجم ص/١٥٧

(٨) هـو : محمد بن علي بن أحمد الداودي ، شمس الدين ، المالكي وقيل الشافعي (ت٩٤٥هـ) وستأتي ترجمته ــ إن شاء الله ــ مفصلة في الفصل الثالث .

(٩) هـو : محمـد بن علي بن محمد ، شمس الدين ، أبو عبدالله ، الشهير بابن طولون الدمشقي الصالحي ، الحنفي ، (ت ٩٥٣هـ) وستأتي ترجمته مفصلة ــ إن شاء الله ــ في فصل تلاميذه .

(١٠) انظر الفلك المشحون في ترجمة ابن طولون ص/٣٥،٣٨ .

(١١) مفاكهـة الخـلان فـي حـوادث الزمان (تاريخ مصر والشام) جـ٣٠٢/١ ط١٣٨١هـ = ١٩٦٢م ــ عيسى الحلبي وشركاه ــ ت/ محمد مصطفى .

ومـــن الذيـــن أثنوا عليه في كتبهم وترجموا له ودافعـــوا عـــنه ضـــد مناوئيه ابن العماد الحنبلي[١] (ت ١٠٨٩هـــ) في كتابه العظيم " شذرات الذهب " ، والإمام الشوكاني[٢] (ت ١٢٥٠هـــ) وغيرها .

وصـــف ابن العماد السيوطي فقال عنه : " المسند ، المحقق ، المدقق ، صاحب المؤلفات الفائقة النافعة "[٣] وقال أيضاً : " واستقصى الداودي مؤلفاته الحافلة الكثيرة الكاملة الجامعة النافعة ، المتقنة المحررة ، المعتمدة المعتبرة ، فنافت على خمسمائة مؤلف ، وشهرتها تغني عن ذكرها وقد اشتهر أكثر مصنفاته في حياته في أقطار الأرض شرقاً وغرباً "[٤] .

ويقول أيضاً : " ...ولو لم يكن له من الكرامات إلا كثرة المؤلفات مع تحريرها وتدقيقها لكفى ذلك شاهداً "[٥] هذا الكـــم الكـــبير من العلماء من أقران السيوطي وشيوخه وتلاميذه ومن جاء من بعده في صفه يثنون عليه ويؤيدون آراءه ، ويعـــترفون له بفضـــله وعلمه ، مع هذا كله لم يسلم السيوطي من الخصومات والقدح من بعض أقرانه ــ كما قلنا ــ قال الشـــوكاني : " تصانيفه في كل فن من الفنون مقبولة قد سارت في الأقطار سير النهار ، ولكنه لم يسلم من حاسد لفضله ، وجاحد لمناقبه "[٦] .

وتنحصر خصومة السيوطي في ثلاثة من علماء عصره هم السخاوي[٧] ، والقسطلاني[٨] ، وابن الكركي[٩] .

أما شمس الدين السخاوي ، فقد كان يكبر السيوطي بنحو ثماني عشرة سنة ، وبلغ من العلم مرتبة عالية ، يشهد له بذلـــك مؤلفاتـــه المطبوعة والمخطوطة ، ولقد اجتهد السيوطي في طلب العلم وتحصيله ، حتى صار نداً للسخاوي ، وتبوأ منزلة مثل منزلته ، وقد اعترف السخاوي نفسه بذلك وأثنى على السيوطي في بعض مؤلفاته ، يقول " محمد الصباغ "

---

(١) هـــو : عـــبدالحي بـــن أحمد بن محمد بن العماد العكري الحنبلي ، أبو الفلاح ، مؤرخ فقيه ، عالم بالأدب ، ولد في صالحية دمشق ، وأقام في القاهـــرة مـــدة طويـــلة ومات بمكة حاجاً سنة (١٠٨٩هـــ) من مؤلفاته شذرات الذهب في أخبار من ذهب " وشرح متن المنتهى " في فقه الحنابلة ــ انظر السحب الوابلة مخطوط ــ وخلاصة الاثر ٣٤٠/٢ .

(٢) هـــو : محمد بن علي بن محمد بن عبدالله الشوكاني ، فقيه مجتهد من كبار علماء اليمن من أهل صنعاء ، ولد بهجرة شوكان (من بلاد خولان بـــاليمن) سنة (١١٧٣هـــ = ١٧٦٠م) نشأ بصنعاء وتوفي بها سنة (١٢٥٠هـــ=١٣٨٤م) وكان يرى تحريم التقليد له ١١٤ مؤلفاً منها " نيل الأوطـــار شـــرح منتقى الأخبار " و " البدر الطالع من بعد القرن السابع " وغيرها . انظر : البدر الطالع ٢١٤/٢-٢٢٥ و أبجد العلوم ٨٧٧ ، معجم المطبوعات ١١٦٠ ، ونيل الوطر ٣/١ ثم ٢٩٧/٢ .

(٣) شذرات الذهب ٥١/٨ .

(٤) نفس المصدر ٥٣/٨ .

(٥) نفس المصدر ٥٤/٨ .

(٦) الشوكاني : البدر الطالع ٣٣٣/١ .

(٧) هـــو : محمد بن عبدالرحمن بن أبي بكر بن عثمان بن محمد السخاوي ، نسبته إلى بلدة " سخا " المجاورة لمدينة ــ كفر الشيخ ، بشمال دلتا النيل ، ولد بالقاهرة عام (٨٣١هـــ) وهو بذلك يكبر السيوطي بنحو ثماني عشرة سنة ، انظر : الضوء اللامع ٢/٨ إلى ٣٢ ، الكواكب السائرة ٥٣/١ شذرات الذهب ١٥/٨ ، النور السافر ١٦ ، وابن إياس ٣٢١/٢ ، الإعلام ١٩٤/٦/ .

(٨) هو : أحمد بن محمد بن أبي بكر بن عبدالملك القسطلاني ، المصري الشافعي ، أبو العباس شهاب الدين ، من علماء الحديث ولد بالقاهرة عام (٨٥١هـــ = ١٤٤٨م) وتوفي بها عام (٩٢٣هـــ = ١٥١٧م) وكان تلميذاً للسخاوي . انظر : " البدر الطالع ١٠٢/١ ، الضوء اللامع ١٠٣/٢ ، النور السافر ١١٣ ، والكواكب السائرة ١٢٦/١ . الاعلام ٢٣٢/١ .

(٩) هو : إبراهيم بن عبدالرحمن بن إسماعيل الكركي ، أبو الوفاء ، برهان الدين ، قاض من فقهاء الحنفية ، أصله من الكرك (في شرق الأردن) وإليهـــا نسبته ، ولد بالقاهرة عام (٨٣٥هـــ = ١٤٣٢م) وتوفي بها غريقاً في بركة الفيل عام (٩٢٢هـــ = ١٥١٦م) ، انظر : النور السافر ١٠٨ ، شذرات الذهب ١٠٢/٨ ، الكواكب السائرة ١١٢/١ ، الضوء اللامع ٦٠/١ ، الإعلام ٤٦/١ .

فـي مقدمـته لتحقيق كتاب " تحذير الخواص " : (كان السـيوطي تـلميذاً مـن تلامـذة السخاوي ، ولم يتنكر السـخاوي له إلا بعد أن صار من أقرانه في العلم ، فوقع بينهما ما وقع من الخلاف ، أما قبل ذلك فقد كان السخاوي حسن الرأي فيه وإليك ثناءه عليه في كتابه " التبر المسبوك في ذيل السلوك " في ترجمة والد السيوطي قال : " وهو والد الفاضل جلال الدين عبدالرحمن أحد من أكثر التردد علي ومدحني نظماً ونثراً نفع الله به "[١] .

ويبدو أن الخلاف بينهما بدأ كخلاف في الرأي في بعض المسائل العلمية تمسك فيها كل واحد برأيه ، ويبدو كذلك أن الأمـر لـم يقف عند هذا الحد من الخلاف بل تطور إلى أن رد كل واحد رأي الآخر وأبطله ، مما أثار حفيظة الإمام السـخاوي ضد السيوطي الذي كان يصغره يوماً من الأيام سناً ومكانة ، ثم إن السيوطي كذلك رأى نفسه أنه قد بلغ ما بلغه السـخاوي ولا يستبعد أيضاً أنه كان يرى في نفسه تقدماً في العلم على السخاوي وغيره ، وقد تقدم ما نقلناه عن السيوطي في اعتداده بنفسه وأنه كان لا يرى على وجه الأرض من مشرقها إلى مغربها أعلم بالعربية والحديث منه[٢] .

وهـذا الكـلام من السيوطي قد يحط من منزلة السخاوي سيما وهو الكبير سناً ، ولم يكن يتوقع من السيوطي هذه الإسـتطالة ، ثم لم يكتف السيوطي بذلك بل ادعى الإجتهاد ، وأنه مجدد الدين على رأس المائة التاسعة مما جعل السخاوي يشتد حنقاً عليه فيلج في الخصومة ويتهمه بالأباطيل ، حيث قال :

" أخذ من كتب المحمودية وغيرها كثيراً من التصانيف المتقدمة التي لا عهد لكثير من العصريين بها ، فغير فيها يسيراً وقدم وأخر ، ونسبها لنفسه وهوّل في مقدماتها "[٣] واتهمه بالهوس حين ترجم لتلميذه عبدالجبار أحمد الأخطابي فقال : " تردد لجلال الدين السيوطي ، وهو ساكن جامد جاور بمكة... ولا يخلو من هوسٍ كشيخه "[٤] .

ووصـفه بصفات ذميمة كالكذب وسوء العشرة ، ذكر ذلك في ترجمة تلميذه عبدالقادر بن حسين بن علي فقال : " واختص بجلال الدين السيوطي ، وبالغ في المناضلة عنه ، والتنويه به ، وقصر نفسه عليه ، ثم تنافرا وتشاققا لسوء عشرة ذلك وظهور مقدمات كذبه "[٥] .

ووصـفه كذلك بالحمق عندما ترجم لعلي بن محمد الأشموني فقال : " ...وراج أمره هناك ، ورجح على الجلال السيوطي مع اشتراكهما في الحمق غير أن ذلك أرجح "[٦] ووصمه بأنه حسود ومسكين حين ترجم لأبي النجا بن خلف بن محمـد : قال : " ...وتزايد الاقبال عليه بحيث حسده الجلال السيوطي لإقبال أهل خطبته بجامع طولون عليه ، ولم يلتفت

---

(١) انظر : تحذير الخواص من أكاذيب القصاص ـ مقدمة المحقق ص/٣٦ ، والعبارة التي نقلها المحقق من " التبر المسبوك " للسخاوي ص/٣٥٧ .

(٢) انظـر : عـبدالوهاب عبدالـلطيف في مقدمة تحقيقه لكتاب " تدريب الراوي " ونقل هذا عن رسالة السيوطي المسماة " الرد على من أخلد إلى الأرض وجهل أن الإجتهاد في كل عصر فرض " .

(٣) الضوء اللامع ٣٦/٤ .

(٤) نفس المصدر .

(٥) نفس المصدر ٢٦٦/٤ .

(٦) نفسه ٥/٦ .

الناس إليه ، بل أشبعوه كلاماً ، وملاماً ، وحملوا صاحب الترجمة على عقد المجلس بالبيبرسية محل جلوس هذا المسكين"[١] .

ولا شك أن هذا يعتبر غلواً من السخاوي في الحملة على السيوطي ، وهو غلو وشطط في غير موضعه ، لأن السيوطي لو سلمنا ــ جدلاً ــ بأنه قد أخطأ في بعض الآراء أو الإجتهادات فإن هذا الخطأ كان لا يستوجب هذه الحملة الشرسة من السخاوي ، لأنه ــ كما قيل ــ " لكل جواد كبوة " ، وإن كان السيوطي قد كبا كبوة أو كبوات ــ في نظر السخاوي ــ فإنه كان من الأفضل والأوفق أن تقابل بالنقاش العلمي الهادئ البعيد عن التجريح والخوض في الأعراض وتضخيم الزلات .

وإذا كان السيوطي قد نيل منه ، فلا غرابة أن ينتصب للدفاع عن عرضه ، وأن ينشط لرد اتهامات باطلة قد تلوث السُّمعة ، وتنشر الشُّنعة . فمن ناحية السطو على كتب السابقين ، فإن السيوطي لم يفعل ذلك ولم ينسب لنفسه عملاً لم يعمله أو مصنفاً لم يكتبه ، بل كان ينسب كل نقل إلى قائله ، ويرد كل معلومة استفادها إلى مصدرها ، والأدلة على ذلك كثيرة منها :

١- ما ذكره في كتابه " الاتقان في علوم القرآن " أنه كتب عن شيخه محيي الدين الكافيجي كتاباً في علوم القرآن ولكنه لم يكن كتاباً وافياً شافياً فاستفاد منه في تأليف كتابه " الاتقان "[٢] وذكر كذلك عن شيخه علم الدين البلقيني أنه أطلعه على كتاب لأخيه جلال الدين البلقيني سماه " مواقع العلوم من مواقع النجوم " أيضاً في علوم القرآن .

ويذكر أن كتاب القاضي جلال الدين البلقيني هذا كلامه مختصر يحتاج إلى تحرير وتتمات ، وزوائد مهمات ، قال : " فصنفت في ذلك كتاباً سميته " التحبير في علوم التفسير "[٣] ضمنته ما ذكره البلقيني من الأنواع مع زيادة مثلها ، وأضفت إليه فوائد سمحت القريحة بنقلها "[٤] .

ويقول السيوطي أيضاً : " فبينا أنا أجيل في ذلك فكري أقدم رجلاً وأؤخر أخرى إذ بلغني أن الشيخ الإمام بدر الدين محمد بن عبدالله الزركشي أحد متأخري أصحابنا الشافعيين الف كتاباً في ذلك حافلاً يسمى " البرهان في علوم القرآن " فتطلبته حتى وقفت عليه... ولما وقفت على هذا الكتاب أزددت به سروراً ، وحمدت الله كثيراً ، وقوى العزم على إبراز ما أضمرته ، وشددت الحزم في إنشاء التصنيف الذي قصدته ، فوضعت هذا الكتاب ، العلي الشأن ، الجلي البرهان... وسميته بالاتقان في علوم القرآن "[٥] .

وفي مقدمة هذا الكتاب " الاتقان " يذكر المراجع التي استفاد منها بحثه ، وعول عليها في استقاء معلوماته فيقول : " وهذه أسماء الكتب التي نظرتها على هذا الكتاب ، ولخصته منها فمن الكتب النقلية تفسير ابن جرير " وعددها فبلغت نحو

---

(١) نفسه ١١/١٤٤ .

(٢) انظر : الاتقان جـ١/٣ . وبهامشه إعجاز القرآن للباقلاني .

(٣) مجلد متوسط الحجم رأيته مطبوعاً بالمكتبة المركزية بجامعة أم القرى .

(٤) الاتقان جـ١/٣ . بهامشه إعجاز القرآن للباقلاني .

(٥) نفس المصدر ١/٥ .

عشرين كتاباً[١] ، ثم ذكر كتب جوامع الحديث والمسانيد وقال بأنها لا تحصى[٢] ، ثم ذكر كتب القراءات فبلغت تسعة عشر كتاباً ، ثم ذكر كتب اللغات والغريب والعربية والاعراب فبلغت ثلاثة وعشرين كتاباً ، وذكر كتب الأحكام وتعلقاتها فبلغت ستة عشر كتاباً ، ومن الكتب المتعلقة بالإعجاز وفنون البلاغة ثمانية وثلاثين كتاباً ، ومن الكتب فيما سوى ذلك من الأنواع أربعة عشر كتاباً ، ومن كتب الرسم ثلاثة كتب ، ومن الكتب الجامعة سبعة كتب ، ومن تفاسير غير المحدثين اثنين وعشرين كتاباً ، فهذه نحو اثنين وستين ومائة كتاب سوى ما لم يذكره من كتب جوامع الحديث والمسانيد .

٢- ومن النماذج التي تدل على أن السيوطي كان لا ينقل شيئاً من كتب غيره إلا عزاه إليه ، ما ذكره في كتاب " حسن المحاضرة " ، قال : " وقد طالعت على هذا الكتاب كتباً شتى "[٣] وعددها فبلغت ثلاثين كتاباً[٤] .

٣- وفي كتاب " صون المنطق والكلام عن فن المنطق والكلام " يقول : " ...فتطلبت كتاب ابن تيمية ، حتى وقفت عليه فرأيته سماه (نصيحة أهل الإيمان في الرد على منطق اليونان)[٥] وأحسن فيه القول ، ما شاء من نقض قواعده قاعدة قاعدة ، وبيان فساد أصولها فلخصته في تأليف لطيف سميته " جهد القريحة في تجريد النصيحة "[٦] فهو بذلك لم ينسب أصل الكتاب إلى نفسه بل عزاه إلى ابن تيمية مؤلفه ، وصرح بأنه لخصه ، وهذا لا يعيبه .

٤- وفي آخر القسم الأول من تفسير الجلالين الذي وضعه السيوطي على غرار تفسير جلال الدين المحلي : " إن غالب ما وضعته هنا مقتبس من وضعه "[٧] أي من وضع جلال الدين المحلي .

٥- وفي " معترك الاقران في اعجاز القرآن " يصرح بالنقل عن كثير من الكتب والمؤلفات المعروفة فينقل عن ابن جنى في " الخاطريات " ، وعن أبي حيان التوحيدي[٨] ، وعن تفسير ابن عطية[٩] ، وعن الرماني في " اعجاز القرآن"[١٠] ، وعن الخفاجي في " سر الفصاحة "[١١] وعن ابن قتيبة[١٢] ، وعن ابن الصائغ والفراء[١٣] ، وعن عبدالرزاق في " تفسيره "[١٤] ، وعن الشافعي في الرسالة[١٥] ، وعن أبي عبيد القاسم بن سلام[١] ، وعن ابن أبي الأصبع[٢] ، وعن ابن

---

(١) نفس المصدر .

(٢) نفس المصدر .

(٣) انظر ٣٠٤/١ .

(٤) حسن المحاضرة جـ١/٥٧٨،٥١٥،٥٠٤،٣٠٤،٢٤،٢٣،١١،١٠،٥، جـ٢/٥٠،٣٣،٢٢،٢١،١٧، ٤٢٩، ٣٥٠،٢٣٠،١٣٥،١٣٠،١٢٩ .

(٥) عند حاجي خليفة (نصيحة ذوي الايمان) بدلاً من نصيحة أهل الايمان انظر كشف الظنون ١٩٥٧/٢ وهدية العارفين ٥٣٨/٥ .

(٦) لم يرد ذكر هذا الكتاب في " حسن المحاضرة " ولكن حاجي خليفة ذكره فقال : " نصيحة ذوي الايمان في الرد على منطق اليونان " لابن تيمية ، اختصره السيوطي ، وسماه " جهد القريحة في تجريد النصيحة " انظر : كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون جـ١٩٥٧/٢ ، وهدية العارفين جـ٥٣٨/٥ .

(٧) تفسير الجلالين ٣٥١/١ .

(٨) انظر : ١٠/١ .

(٩) انظر : جـ٢٣/١ ، جـ٣/٤٩٧،٤٢٨،٣٣٥،٣٢٨،٢٩٩ .

(١٠) انظر : ٢٥/١ .

(١١) نفسه .

(١٢) انظر : ٢٩/١ ، ٤/٢ .

(١٣) نفسه .

(١٤) انظر : ٧٣/١ .

(١٥) انظر : ١٤٨/١ .

القيم في " التبيان "[٣] ، وعن أبي الحسن الماوردي[٤] ، وعن الراغب الأصبهاني[٥] ، وعن الكرماني في " العجائب "[٦] ، وعن السخاوي في " جمال القراء "[٧] ، وعن ابن حجر في " شرح البخاري "[٨] ، وعن البخاري في " صحيحه "[٩] ، وعن القرافي في " فروقه "[١٠] ، وعن ابن فارس في " كتاب الأفراد "[١١] وهكذا دأبه في مقدمات كتبه يذكر مراجعه على سبيل الإجمال ، ثم في اثناء الكتاب يذكر عن كل مرجع ما نقله منه في حينه ، والأمثلة على ذلك كثيرة سوى ما ذكرناه منها سابقاً وما ذكرنا هنا فيه غنية فهل بعد ذلك يبقى قول لقائل بأنه كان يسرق ولا يعزو ؟ .

أما اتهام السخاوي للسيوطي بالهوس ، وبالكذب وبالحمق ، فهذا ما لا يرضى به عاقل فضلاً عن عالم يُقتدى به ، وهو عند الناس ملء السمع والبصر . غير أن المتتبع لأكثر تراجم السخاوي في " التبر المسبوك " وفي " الضوء اللامع " يجد أن عادته وصم الناس بالنقص والعيب ، ووصفهم بألقاب سيئة شنيعة ، وهي في ذات الوقت لا تؤدي غرضاً ، ولا تخدم هدفاً علمياً يفيد القارئ .

وهذا هو ما لاحظه الإمام الشوكاني وسجله عليه في " البدر الطالع " حيث قال عن السخاوي : " قال السخاوي في " الضوء اللامع " ترجمة مظلمة ، غالبها ثلب فظيع ، وسب شنيع ، وانتقاص وغمط لمناقبه (يعني السيوطي) ــ تصريحاً وتلويحاً ــ ولا جرم فذلك دأبه "[١٢] أي دأب السخاوي " في جميع الفضلاء من أقرانه ، وقد تنافس هو وصاحب الترجمة لرسالة سماها (الكاوي لدماغ السخاوي) فليعرف المطلع على ترجمة هذا الفاضل (يقصد السيوطي) في الضوء اللامع أنها صدرت من خصم غير مقبول عليه "[١٣] وهذا من الشوكاني حكم في غاية العدل والإنصاف إذ أنه قد برأ جميع العلماء الذين نالهم قلم السخاوي ، وهكذا تكون أخلاق العلماء .

بيد أن السيوطي قد سبق الشوكاني في الدفاع عن نفسه ضد السخاوي وغيره ، وكان دفاعه عن نفسه يحمل في ثناياه حرارة المظلوم الذي يدفع عن عرضه سهاماً ظالمه ، واتهاماً هو منه براء ، لقد سلم له المنصفون بالأمانة العلمية ، ونزاهة يده مما نسب إليه ، فما أخذ نصاً أو استقى رأياً إلا رده إلى مصدره ، أو استند فيه إلى الأدلة الشرعية من الكتاب والسنة والإجماع ، وغيرها من دلائل الشريعة ، أو إلى أقوال من سبقه من العلماء ، صحيح قد يروي السيوطي بعض

---

(١) انظر : ١/١٥٠ .
(٢) انظر : ١/٢٠٨،٢٨١
(٣) انظر : ١/٣٤٤،٣٤٦ .
(٤) انظر : ١/٣٥١ .
(٥) انظر : ١/١٩ ، ٣٥٣ ، ٢/٥٣٠ ، ٦٣٦ .
(٦) انظر : ٢/١٧٩ .
(٧) انظر : ٢/٢٥٧ ، ٣/٢٠٠ .
(٨) انظر : ٢/٢٥٨ .
(٩) انظر : ٢/٥٧٨ .
(١٠) انظر ٣/٢١٨ .
(١١) انظر : ٣/٤٥٢ .
(١٢) البدر الطالع ١/٣٣٣ .
(١٣) نفسه .

الأحـــاديث الضــــعيفة في المسألة ولكنه كان جارياً على مـــنوال المحدثين أو الرواة الذين يجمعون كل الروايات الـــواردة فـــي المسألة الواحدة من صحيح وضعيف مما قد يظهر للناظر فيها أنها تجمع المتناقضات ، فمن أسند فقد برئ ، وعـــلى المحققين أن يقبلوا ما يستحق القبول ، وأن يردوا ما واجبه الرد ، وطريقة العلماء معلومة في الجمع بين الروايات لـــلخروج مـــنها بفتوى أو حكم واحد حول المسألة المتنازع فيها ، فهي إما أن تصحح بعض الروايات وتضعف الأخرى ، فـــالحكم إذن للصحيح ، وإما أن تضعف جميعها فتسقط ، وإما أن تصح جميعها فيجمع بينها ويوفق في الأخذ بها بعد النظر فـــي الناســخ والمنســوخ منها ، وفيما استقر عليه العمل بين العلماء وهم بذلك على طريق سالكة ماداموا يطبقون في ذلك قواعد العلوم المتبعة ، كعلم الحديث وعلم الرجال من الجرح والتعديل ، والسيوطي بذلك ليس بدعاً من العلماء ، إذ قد سبقه من هو أفضل قدراً وجلالاً ، وجمعوا في كتبهم ومسانيدهم من الأحاديث ما يقبل التضعيف أو يكون موضوعاً ولم يقطعوا ، أو يشـــترطوا عـــلى أنفســـهم أنهم لا يثبتون إلا ما كان صحيحاً ، وهذا سائغ ومقبول لدى أهل العلم بالرواية ، ما دام أن المصنف قد أسند ما يرويه أو رده إلى من يرويه بسنده ، ثم بعد ذلك لأهل التخصص والتحقيق رأيهم وكلمتهم في الترجيح . ومهمـــا يكـــن فقد انتصر السيوطي لنفسه وما كان متجنياً ولا متحاملاً ، بل امتثالاً لقول الله تعالى : (والذين إذا أصابهم الـــبغي هم ينتصرون)[١] وقوله تعالى : (ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل)[٢] إلا أن السيوطي يجد فيمـــا ابتـــلى به من الإعتداء والتجني نعمة من الله عليه ، أسوة بأنبياء الله وأوليائه وما لحقهم من أذى أقوامهم يقول دفاعاً عـــن نفسه : " ولقد تعبت قديماً في جمع مؤلف في الخصال الموجبة للضلال ، بذلت فيه جهدي ، وتتبعته من كتب الحديث الحاضرة عندى ، فجمعت منها جملة ، بحيث انتهت إلى سبعين خصلة ، فزعم (أي السخاوي) أنه وصلها إلى الثمانين فـــي كتاب ألفه ، وتأليف رصفه ، ثم ادعى أني أغرت على كتابه ، وأخذت ما فيه من المتشابه ، والله يعلم ويشهد أنه مبطل فيمـــا ادعـــاه عليّ ، وكاذب فيما نسبه من الاغارة إليّ وأني لم أقف على كتابه هذا إلى الآن ، ولا نظرته عيني في سر ولا إعـــلان ، وقد علم الله ، والناس من عادتي في التأليف أني لا أنقل حرفاً من كتاب أحد إلا مقروناً بعزوه إلى قائله ، ونسبته إلى ناقله... "[٢] ولكن مع هذا كان يوجد من هؤلاء المتحاملين على السيوطي من يعرف له قدره ، ويعلم له منزلة فاستيقظ ضميره ، وذهب إليه معتذراً ، آسفاً يترضاه ، ويطيب خاطره ، ومن هؤلاء الشيخ القسطلاني[٣] فإن خصومته للسيوطي لم تـــدم طويلاً فتنبه من قريب وعدل عن الخصومة وأراد أن يسترضي العالم الكبير الذي كان قد لزم بيته ، وعزف عن لقاء الناس ، فتوجه حافياً إلى مسكن الشيخ في جزيرة الروضة ، قاطعاً المسافة الطويلة بين القاهرة وجزيرة المقياس وهو على هـــذه الحال ، ودق على السيوطي بابه ، فقال للطارق : من أنت ؟ فقال : أنا القسطلاني جئت إليك حافياً ليطيب خاطرك ،

---

(١) سورة الشورى الآية /٣٩

(٢) سورة الشورى الآية /٤١ .

(٣) مقامـــة الكاوي للإمام السخاوي / مخطوطة رقم ١٥١٠ أدب دار الكتب المصرية ، وانظر ما نقلناه سابقاً عن مقدمات كتبه وذكره المراجع التي نقل عنها بصراحة .

(٤) هـــو : أحمـــد بن محمد بن أبي بكر بن عبدالملك القسطلاني المصري الشافعي ، أبو العباس ، شهاب الدين : من علماء الحديث ، ولد وتوفي بالقاهرة ، ولد عام (٨٥١هـــ = ١٤٤٨م) وتوفي عام (٩٢٣هـــ = ١٥١٧م) . انظر : البدر الطالع جـــ١/١٠٢ ، الضوء اللامع جـــ٢/١٠٣ ، النور السافر ١١٣ ، والكواكب السائرة جـــ١/١٢٦

ولكـن السـيوطي الـذي كان انقطع عن الناس جميعاً ، وتفـرغ للكتابة والتأليف لم يفتح له الباب ، واكتفى بالرد عـليه قائلاً : قد طاب "[١] ولكننا نأخذ على السيوطي ذلك الانقطاع عن الناس ، وترك الفتيا والتدريس ، وإن كان ذلك من فـروض الكفايات ، إلا أن الاستمرار في الفتيا والدعوة والتدريس ، كان الأليق بحاله ومكانته ، وما كان هذا الاستمرار إلا زيـادة له فـي الأجر والثواب ، ورفع الدرجات عند الله ، ولكن كل انسان مهما بلغت مكانته وعلمه فإنه يؤخذ من كلامه وفعله ويرد إلا المعصوم محمد ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ .

ولعلنا نقول : إن خصومة القسطلاني للسيوطي لم تكن نابعة من صميم نفسه ، واستقلال رأيه " وإنما كانت تأثراً بشـيخه السخاوي ، لقد كان القسطلاني تلميذاً للسخاوي والمرء يتأثر في فترة تلقي العلم بأستاذه ، فإذا شب عن الطوق ، اتخـذ لنفسه طريقاً أقرب إلى الاستقلال ، وهذا ما فعله القسطلاني حين ذهب إلى دار السيوطي في جزيرة الروضة ماشياً على قدميه حافياً لكي يسترضيه ويطلب عفوه ، وتلك أخلاق العلماء "[٢] .

أمـا ابن الكركي[٣] فقد كانت خصومته للسيوطي بسبب الغيرة والمنافسة بين الندين أو بين أصحاب الفن الواحد ، ويـدل لذلـك ان ابـن الكركي كان يتهم السيوطي بأمور تافهة ، لا تكون في العادة مسوغاً للنقد أو التجريح ، فهو يعيب السـيوطي بكونه ولد فقيراً ، ونشأ فقيراً ، أو بكونه مترفعاً عن الناس ، وأنه كان بليداً لعدم معرفته الحساب وغير ذلك من الدعاوي التي لا تليق أن تصدر من عالم في آخر ند له أو مثيل له[٤] .

ولأجل هذا لم ينس السيوطي أن يخصه بأكثر من رسالة ، يرد عن نفسه أذاه ، ويسفه فيه دعواه .

قال السيوطي في " طرز العمامة في التفرقة بين المقامة والقمامة " : " وأما ازدراؤك لي بالفقر ، فإنه عند الله من المكرمات وقد قالت العلماء : المال لا يتفاخر به ذوو المروءات "[٥] .

وأمـا مـا ادعاه ابن الكركي أنه أحسن إلى السيوطي وسعى لزيادة راتبه ، فإن هذا من قبيل المنّ الذي كان من الواجـب أن يترفع عن عالم كابن الكركي ، ولكن السيوطي يرد عليه قائلاً : (وأما قضية التوسعة ، فما أنعم علي بها إلا مولانـا السـلطان ، أعلى الله ببقائه كلمة الإيمان ، ومازال له الفضل عليّ والإمتنان ، وكان المتكلم لي فيها معه القاضي قطـب الديـن الخضيري رحمه الله ومنّ عليه بالغفران ، ووضعها القاضي تاج الدين بن الجيعان في الديوان "[٦] ومن هنا يظهر مدى سقوط الدعاوي التي ادعاها ابن الكركي ضد السيوطي .

وبعد هذا الجدل الطويل بين جماعة من العلماء الواجب فيهم أن يكونوا قدوة حسنة للأمة نتساءل هذا التساؤل الذي سـجله د/ مصطفى الشكعة في كتابه عن السيوطي قال : " فيم كانت هذه الخصومات ؟ وهل كانت ذات أثر وفائدة ؟ أغلب

---

(١) د. مصـطفى الشكعة ، جلال الدين السيوطي ، مسيرته العلمية ومباحثه اللغوية ص/٨٣ ، ط الحلبي (١٤٠١هـ = ١٩٨١م) . وهذا التصرف من السيوطي يؤخذ عليه لأنه تصرف لا يليق بحال العلماء .

(٢) نفس المصدر ص/٩٦ .

(٣) مضت ترجمته .

(٤) انظر : د. مصطفى الشكعة : جلال الدين السيوطي (ص١٠٠) .

(٥) مقدمة الشيخ عبدالوهاب عبداللطيف لتدريب الراوي ص/١٩،٢٠ .

(٦) نفس المصدر السابق والصفحة .

الظـــن أنها لم تكن كذلك ، وإلا لما ذهب في نهايتها عالم فاضـــل كالقســطلاني ليطلب العفو من السيوطي ، ولما كــتب الســيوطي مـــا كتبه في حق السخاوي ولما خطت أقلام السخاوي في حق السيوطي ، ما كان ينبغي أن تتعفف عن تســطيره تلك الأقلام ، ولكن الحقيقة كامنة في أنهم إذا كانوا أمام الناس علماء أبراراً ، فهم في حقيقتهم بشر ، والبشر غير معصومين ، ومن ثم فإنهم يخطئون ويصيبون "[١] .

(١) جلال الدين السيوطي سيرته العلمية ومباحثه اللغوية ص/١٠١ .

الفصل الثالث

شـيوخه وتلاميذه

المبحث الأول : شيوخه

تلقى السيوطي العلم على يد عدد كبير من العلماء ذكر في " حسن المحاضرة " أنهم نحو مائة وخمسين شيخاً[١] ، وفي المنجم الذي وضعه معجماً لشيوخه وترجم لهم فيه بلغ عددهم خمسة وتسعين ومائة[٢] . وله مصنفات أخرى في معاجم شيوخه منها : " حاطب ليل وجارف سيل " و " معجم صغير " يسمى " المنتقى " ومعجم في مروياته يسمى " زاد المسير في الفهرست الصغير " ومن أشهر شيوخه :

١- علم الدين البلقيني[٣] وعليه أخذ السيوطي الفقه ، ولازمه ملازمة تامة[٤] وإلى مذهب الشافعي ينتمي كل من السيوطي وشيخه البلقيني ، وهو الذي أجازه التدريس والافتاء ، سنة (٨٦٧هـ) ، وكان له فضل على السيوطي في مجال التأليف ، فعندما كتب السيوطي شرح الاستعاذة والبسملة سنة (٨٦٦هـ) كتب عليه الشيخ علم الدين تقريظاً[٥] ، شجعه فيه على الاستمرار في الكتابة والتأليف .

ولما توفى العلم البلقيني لزم السيوطي الشيخ شرف الدين المناوي[٦] . وكان السيوطي يمدح شيخه البلقيني ويضفي عليه ألقاب التعظيم والثناء فيقول عنه : " شيخ مشايخ الإسلام ، قاضي القضاة ، خلاصة الانام ، حامل لواء المذهب المطلبي... "[٧] .

٢- ومن شيوخه / جلال الدين المحلي[٨] (ت ٨٦٤هـ) وهو أشهر الاسماء التي اقترنت باسم السيوطي ، فأطلق عليهما اسم " الجلالين " وذلك بسبب التفسير الذي يحمل اسميهما معاً ، وهو المسمى " بتفسير الجلالين " وتفسير الجلال المحلي من أول سورة الكهف إلى آخر القرآن الكريم ، وتفسير الجلال السيوطي من أول الفاتحة إلى آخر سورة الإسراء[٩] ، وقد نسج

---

(١) حسن المحاضرة ص/٣٣٩ .

(٢) المنجم في المعجم (معجم شيوخ السيوطي) تأليف السيوطي ــ ت إبراهيم باجس عبدالمجيد ــ دار ابن حزم ط١/١٤١٥هـ = ١٩١٥م بيروت لبنان .

(٣) هو : صالح بن سراج الدين عمر بن رسلان البلقيني الشافعي ، علم الدين ، وهو من أسرة عرفت بالعلم ، كان حجة في الفقه والنحو والأصول والتفسير والحديث ، ولي منصب قاضي القضاة ، وعزل عنه ست مرات ، انظر : حسن المحاضرة ٣٣٧،٤٤٤/١ ، د/ عدنان محمد سلمان : السيوطي النحوي ص/٧٤ .

(٤) د/ عدنان محمد سليمان : السيوطي النحوي ص/٧٤ .

(٥) انظر : حسن المحاضرة ٣٣٧،٤٤٤/١ .

(٦) ستأتي ترجمته قريباً ــ إن شاء الله ــ .

(٧) السيوطي : الاتقان في علوم القرآن ٣/١ ، وبهامشه إعجاز القرآن للباقلاني ــ المكتبة الثقافية ــ بيروت ، لبنان ــ بدون تاريخ .

(٨) هو : محمد بن إبراهيم بن أحمد ، ولد بالقاهرة سنة (٧٩١هـ) ، انظر : حسن المحاضرة ٤٤٣،٤٤٤/١ ، المنجم في المعجم ص/١٧٧ .

(٩) انظر : المنجم في المعجم ص/١٧٧ ، حسن المحاضرة ٢٥٢/١ .

السيوطي على منوال شيخه في تفسيره ، حضر السيوطي مجـالس جلال الدين المحلي سنة كاملة ، كان يحضرها في كل أسبوع مرتين[١] .

٣- ومن شيوخه / تقي الدين الشُمُني[٢] (ت ٨٧٢هـ) ، أخذ السيوطي عنه قطعة كبيرة من " المطول " للشيخ سعد الدين ، ومـن " التوضيح " لابن هشام[٣] ، وقرأ عليه من الحديث عدة أجزاء ، وكتب له تقريظاً على " شرح الألفية " ، و " جمع الجوامع "[٤] .

وصفه السيوطي في حسن المحاضرة فقال " قدوة عين الزمان ، وأسنانها ، وواحد عصره في العلوم بحيث خضعت له رجالها وفرسانها ، وشجرة المعارف التي طاب أصلها فزكت فروعها وأغصانها... "[٥] .

٤- ومـن شـيوخه / محيي الدين الكافيجي[٦] (ت ٨٧٩هـ) وقد لازمه السيوطي أربع عشرة سنة وهي أطول مدة لازم فيهـا السـيوطي شـيخاً من شيوخه ، وظل ينهل من معين علمه طوال هذه المدة وبجانب ذلك كان يرتبط الكافيجي بوالد السـيوطي برابطة صداقة تامة[٧] ، كما كان جلال الدين السيوطي يعتبر الكافيجي في مقام والده ، قال في البغية[٨] : " وما كنت أعد الشيخ (أي الكافيجي) إلا والداً لي بعد والدي ، لكثرة ما له عليّ من الشفقة والإفادة " ولهذه المكانة الرفيعة عند السـيوطي نجـده يلقب استاذه بقوله : " استاذ الوجود "[٩] ويلقبه بقوله : " استاذ الاستاذين "[١٠] ويقول عنه : " انسان عين الناظرين " " خلاصة الوجود " " علامة الزمان " فخر العصر والأوان[١١] وكان يعظمه كثيراً[١٢] ومن هذا الثناء يظهر أن السيوطي كان شديد الإعجاب بشيخه الكافيجي ، ولقد كتب له اجازة عظيمة قال عنه السيوطي : " ما جئته مرة إلا وسمعت مـنه مـن التحقيقات والعجائب ما لم اسمعه قبل ذلك ، قال لي يوماً : اعرب (زيد قائم) فقلت : صرنا في مقام الصغار

---

(١) انظـر : ابن العماد : الشذرات ٥٢/٨ ، الكواكب السائرة ٢٢٦/١ ، د/عدنان محمد سليمان : السيوطي النحوي ص/٧٣ ، وشذرات الذهب ٧/ ٣٠٣ ، الضوء اللامع ٣٩/٧ ، الاعلام ٣٣٣/٢ .

(٢) هـو : أحمـد بن محمد الشُمُني ، الاسكندري ، القسنطيني ، الحنفي ، تقي الدين ، أبو العباس ، ولد بالاسكندرية (٨٠١هـ) ، " انظر : حسن المحاضرة ٤٧٤/١ ، شذرات الذهب ٣١٣/٧ ، البدر الطالع ١١٩/١ والضوء اللامع ١٧٤/٢ ، والاعلام ٢٣٠/١ .

(٣) هو : أحمد بن عبدالرحمن بن عبدالله بن يوسف ، شهاب الدين الانصاري ، المعروف بابن هشام النحوي ، ولد (٧٨٨هـ = ١٣٨٦م) من أهل القاهرة وسكن دمشق وتوفي بها عام (٨٣٥هـ = ١٤٣٢م) كتب " حواشي على توضيح الألفية " انظر : الضوء اللامع ٣٢٩/١ ، والإعلام ١/ ١٤٧ .

(٤) انظر : حسن المحاضرة ٤٧٤/١ ، بغية الدعاة ٣٧٥/١ ترجمة رقم ٧٣٩ ، والمنجم من المعجم ص/٨٢ ، زاد المسير في الفهرست الصغير ص/٤٨ ، تاريخ مصر لابن اياس ٩٩/٢ .

(٥) حسن المحاضرة ٤٧٤/١ .

(٦) هـو : محمـد بـن سـليمان بن سعد بن مسعود ، محيي الدين ، أبو عبدالله الكافيجي ، الحنفي ولد قبل عام (٨٠٠هـ) تقريباً كما في حسن المحاضـرة جـ٥٤٩/١ ، وفي المنجم أنه ولد عام (٧٨٨هـ) رومي الأصل واشتهر بمصر ، انظر : الشقائق النعمانية بهامش ابن خلكان ١/ ٦٨ ، والضـوء اللامـع ٢٥٩/٧ ، مفـتاح السـعادة ٤٥٤/١ ، بغيـة الوعاة ١١٧/١ ، وابن اياس ١٥٢/٢ ، وشذرات الذهب ٣٢٦/٧ وحسن المحاضرة ٥٤٩/١ ، الإعلام ١٥١/٦ .

(٧) بغية الوعاة ١١٧/١ ترجمة رقم ١٩٨ .

(٨) جـ١١٧/١-١١٩ .

(٩) حسن المحاضرة ٣٣٨/١ .

(١٠) بغية الوعاة ١١٧/١-١١٩ ، المنجم في المعجم ص/١٨٣ .

(١١) نفس المصدرين السابقين . وانظر البدر الطالع ١٧١/٢ ، وتاريخ مصر لابن اياس ١٥١/٢ .

(١٢) المنجم في المعجم ١٨٣ ، حسن المحاضرة ٣٣٨/١ ، ٥٤٩ .

نُسأل عن هذا ، فقال لي : في (زيد قائم) مائة وثلاثة عشر بحثاً ، فقلت لا أقوم من هذا المجلس حتى استفيدها ، فأخرج لي تذكرته فكتبتها منها "[١] .

وقد نقل السيوطي هذه المسألة في كتابه " الاشباه والنظائر " تحت عنوان : " فائدة من مولدات شيخنا العلامة الكافيجي "[٢] والبحث في هذه المسألة أقرب إلى الفلسفة والمنطق منه إلى النحو ، وسبب ذلك تعمق الكافيجي في العلوم العقلية[٣] .

٥- ومن شيوخه أيضاً / شهاب الدين الابشيطي[٤] (ت ٨٨٨هـ) اجتمع به السيوطي لما حج وجاور وأخذ عنه سماعاً وكتابة[٥] .

٦- ومنهم / شرف الدين المناوي[٦] (ت ٨٧١هـ) ، لزمه السيوطي بعد وفاة علم الدين البلقيني ، ويعتبر المُناوي استاذه الثاني بعد علم الدين البلقيني[٧] فقرأ عليه قطعة من " المنهاج " وسمعه عليه كاملاً ، وسمع عليه الكثير من " شرح البهجة " للعراقي ، ومن تفسير البيضاوي وغيرها .

٧- ومنهم / برهان الدين البقاعي[٨] (ت ٨٥٥هـ) الذي قرأ السيوطي عليه " صحيح مسلم " ، و " الشفا " و " ألفية ابن مالك " و " التسهيل " و " التوضيح " .

٨- ومنهم : سيف الدين الحنفي[٩](ت ٨٨١هـ) ، فقد أخذ عنه السيوطي دروساً عديدة في الكشاف ، والتوضيح وتلخيص المفتاح[١٠] ، وكان السيوطي يلقبه بـ " عالم الدنيا " وبـ " الحبر " قال السيوطي وهو آخر شيوخي موتاً ، لم يتأخر بعده أحد ممن أخذت عنه العلم ، إلا رجل قرأت عليه ورقات من المنهاج "[١١] وللسيوطي قصيدة يرثيه فيها بعد موته[١٢] .

---

(١) حسن المحاضرة ٣٣٨/١ .

(٢) انظر البحث في كتاب : الاشباه والنظائر للسيوطي في النحو ٢٣١/٤ ، ط٢ دائرة المعارف العثمانية بحيدر أباد الدكن عام ١٣٥٩هـ .

(٣) د/ عدنان محمد سليمان : السيوطي النحوي ص/٧٧ .

(٤) هو : العلامة أحمد بن إسماعيل بن أبي بكر بن عمر الإبشيطي (بكسر الهمزة) شهاب الدين ، فقيه شافعي فرضي عارف بالحديث ، ولد بابشيط من قرى المحلة بمصر عام (٨٠٢هـ = ١٤٠٠م) وتوفي بالمدينة المنورة عام (٨٨٨هـ = ١٤٧٨م) له من الكتب : " ناسخ القرآن ومنسوخه " و " شرح الرجبية " و " شرح قواعد ابن هشام " انظر : حسن المحاضرة ٥٣٠/١ ، الذيل على رفع الاصر للسخاوي هامش المحقق ص/٧٦ ، البدر الطالع ٣٧/١ ، الضوء اللامع ٢٣٥/١ ، ١٨٢/١١ ، شذرات الذهب لابن العماد ٣٣٦/٧ ، الاعلام ٩٧/١ .

(٥) حسن المحاضرة ٥٣٠/١ .

(٦) هو : يحيى بن محمد بن محمد بن محمد بن أحمد ، الحدادي ، المناوي من فقهاء الشافعية ، أصله من منية بني خصيب بصعيد مصر ونسبته إليها ولد عام (٧٩٨هـ = ١٣٩٦م) ونشأ في القاهرة ، توفي عام (٨٧١هـ = ١٤٦٧م) انظر : حسن المحاضرة ٤٤٥/١ شذرات الذهب ٧/ ٣٦٢ ، الضوء اللامع ٢٥٤/١٠ ، الاعلام ١٦٧/٨ ، والذيل على رفع الاصر للسخاوي ص/٤٤ .

(٧) انظر : د/ عدنان محمد سليمان : السيوطي النحوي ص/٧٥ .

(٨) هو : إبراهيم بن عمر بن حسن الرُباط ـ بضم الراء وتخفيف الباء ـ ابن علي بن أبي بكر ، أبو الحسن ، برهان الدين البقاعي ، مؤرخ أديب أصله من البقاع بسورية ، سكن دمشق ورحل إلى بيت المقدس ، والقاهرة ، ولد عام (٨٠٩هـ = ١٤٠٦م) ، انظر : نظم العقيان ٢٤ ، البدر الطالع ١٩/١ ، الضوء اللامع ١٠١/١-١١١ ، آداب اللغة ١٦٨/٣ ، المكتبة الازهرية ٢٧٩/١ ، شذرات الذهب ٣٣٩/٧ ، الاعلام ٥٦/١ .

(٩) هو : محمد بن محمد بن عمر بن قطلوبغا البكتمري ، الحنفي ، سيف الدين ، عالم بفقه الحنفية ، مصري ، تركي الأصل ، ولد عام (٨٠٣هـ) وتوفي عام (٨٨١هـ) انظر : الضوء اللامع ١٧٣/٩-١٧٥ ، بغية الوعاة ٩٩ ، وابن اياس ١٦٨/٢ ، حسن المحاضرة ٤٧٨/١ .

(١٠) حسن المحاضرة ٣٣٨/١ .

(١١) نفسه ٤٧٨/١ .

(١٢) شذرات الذهب ٣٣٢/٧ ، حسن المحاضرة ٤٧٨/١ .

وشـيوخ السيوطي كثيرون ، وقد اقتصرنا في هذه العجالة على أهم شيوخه البارزين الذين يحتلون في نفسه مكانة خاصة .

المبحث الثاني : تلاميذه :

أخذ عن السيوطي جمع كبير من الأئمة الذين تتلمذوا على يديه ، ونهلوا من معينه ومن أشهر تلاميذه :

١- شمس الدين الداوودي[١] ، فهو أكثر تلاميذه اتصالاً به ، وكان شديد الاعجاب بشيخه السيوطي ، وقد قام بنسخ كثير من مؤلفـات شـيخه بخطـه ومـن الخزانة التيمورية مجموع برقم (٢٠٢ مجاميع) فيه عشر رسائل للسيوطي معظمها بخط الداوودي ، كتب ترجمة مفصلة لشيخه السيوطي ، وهو واحد من ضمن مؤلفاته التي ذكرناها في الحاشية .

٢- ومن تلاميذه / ابن طولون[٢] (ت ٩٥٣هـ) فقد أخذ عن السيوطي إجازة مكاتبة في جماعة المصريين ، وآخرين من أهـل الحجـاز ، وكان ابن طولون يصرح بتتلمذه على السيوطي فيقول عنه " شيخنا " ولكنه لم يفصح عما أخذه عنه من العلوم[٣] .

٣- ومـن تلاميـذه / ابـن اياس[٤](ت ٩٣٠هـ) ، وقد عده أكثر الباحثين المعاصرين من جملة تلاميذه ، لأنه كان يذكر السيوطي بقوله : " شيخنا " ذكر ذلك في عدة حوادث تاريخية[٥] .

٤- ومـن تلاميـذه / عبدالقادر الشاذلي المؤذن[٦] (ت ٩٣٥هـ ، وقد أخذ عن السيوطي كثيراً من العلوم ، ولازمه فترة طويلة ، وكتب له ترجمة سماها : " بهجة العابدين بترجمة الحافظ جلال الدين "[٧] وقد لخصها الشعراني في ذيل طبقاته[٨]

٥- ومـن تلاميـذه شمس الدين العلقمي[١] (ت ٩٦١هـ) ترجم له الشهاب الخفاجي[٢] في " ريحانة الألبا " فقال عنه : " شيخ الحديث في القديم والحديث ، لم تزل سحب إفادته في رياض الفضل ذوارف ، حتى صار وهو العلم المفرد من أعرف

---

(١) هو : محمد بن علي بن أحمد ، شمس الدين ، الداوودي ، المالكي ، شيخ أهل الحديث في عصره ، مصري من تلاميذ السيوطي ، غير معروف تـاريخ ولادتـه ــ كمـا في الاعلام٦/٢٩١ ــ ووفاته بالقاهرة عام (٩٤٥هـ = ١٥٣٨م) ، له : ترجمة لشيخه السيوطي ، في مجلد ضخم ، " طبقات المفسرين " ، " ذيل طبقات الشافعية للسبكي " انظر : شذرات الذهب ٨/٢٦٤ ، والكواكب السائرة ٢/٧١ .

(٢) هو : محمد بن علي بن محمد ، شمس الدين أبو عبدالله الشهير بابن طولون ، الدمشقي ، الصالحي ، الحنفي ، ولد عام (٨٨٠هـ = ١٤٧٢م) ولم يتزوج ، (ت ٩٥٣هـ) . انظر : الكواكب السائرة ٢/٥٢ ، شذرات الذهب ٨/٢٩٨ ، آداب اللغة ٣/٢٩٢ الاعلام ٦/٢٩١ .

(٣) انظـر : محمد مصطفى زيادة ، المؤرخون في مصر في القرن الخامس عشرة الميلادي ص/٧٨ ، د/ عدنان محمد سليمان : السيوطي النحوي ص/١١٢ .

(٤) هو : محمد بن أحمد بن إياس الحنفي ، أبو البركات ، مؤرخ بحاث مصري ، من المماليك ، ولد عام (٨٥٢هـ = ١٤٤٨م) ، انظر : بدائع الزهور ٤/٤٧ وفيه ترجمته لنفسه ، آداب اللغة ٣/٢٩٨ ، الإعلام ٦/٥ .

(٥) نشر مكتبة الأدب ، وطبع مطبعة التوكل بمصر ، سنة ١٣٦٦هـ = ١٩٤٧م .

انظـر : محمود رزق سليم : عصر سلاطين المماليك جـ٢/٣٥٩ ، محمد مصطفى زيادة : المؤرخون في مصر في القرن الخامس عشر الميلادي ص/٤٨-٤٩ ، مطبعة لجنة التأليف والنشر / القاهرة سنة ١٩٤٩م .

(٦) هـو : عبدالقادر بـن محمد بـن أحمد الشـاذلي ، الشـافعي ، المـؤذن ، توفـي نحـو سـنة (٩٣٥هـ) ، انظر : هدية العارفين ١/٥٩٨ ، السنا الباهر بتكميل النور السافر في أخبار القرن العاشر ، لجمال الدين محمد بن أبي بكر الشبلي اليمني ص/٧٧٧ ، مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ١٥٨٦ تاريخ .

(٧) انظر : ذيل طبقات الشعراني ق٣ .

(٨) نفسه .

المعــارف ، قــد تحلى بخدمة الجلال السيوطي كمالا ، ورقى ســماء المعــالي فزاد جمالاً "[٣] . وهذا هو الذي يثبت تلمذة شمس الدين العلقمي على يدي جلال الدين السيوطي .

وتلاميذه أيضاً كثيرون ككثرة شيوخه ، وقد اقتصرنا على أشهرهم هنا وهناك .

---

(١) هو : محمد بن عبدالرحمن بن علي بن أبي بكر العلقمي ، شمس الدين ، فقيه شافعي ، عارف بالحديث ، انظر : كشف الظنون ٥٦٠ ، ١٨١٦ ، مخطوطات الرياض عن المدينة القسم الأول ٣٣ .

(٢) هو : أحمد بن محمد بن عمر ، شهاب الدين الخفاجي ، المصري ، قاضي القضاة وصاحب التصانيف في الأدب واللغة ، نسبته إلى قبيلة خفاجة ، ولــد ونشأ بمصر ، توفي ــ رحمه الله ــ عام (١٠٦٩هــ = ١٦٥٩م) ، انظر : خلاصة الأثر ٣٣١/١ ، الفهرس التمهيدي ٣٨٣ ، وآداب الـــــــــلغة ٢٨٦/٣ ، الاعـــــــــــلام ٢٣٨/١ ، وكــــــــــتب عــــــــــن نفســــــــــه فــــــــــي الريحانه ٣٦١ .

(٣) شــهاب الديــن أحمد بن عمر الخفاجي : ريحانة الالبا وزهرة الحياة الدنيا ٧٧/٢ ، ٧٨ ، تحقيق عبدالفتاح محمد الحلو ــ مطبعة الحلبي القاهرة ١٩٦٧م .

الفصل الرابع

مؤلفـــــاته وآثـــــــاره

المبحث الأول

بيان الأقوال في عدد مصنفاته وأسباب كثرتها

قدمنا أن جلال الدين السيوطي يعتبر من أغزر الكتاب إنتاجاً علمياً في العصر المملوكي ، وإنه مع غزارة انتاجه ، فهو إنتاج متنوع في شتى صنوف المعرفة .

إذ يـتميز إنـتاجه بأمرين : الغزارة ، والتنوع ، وكما كانت آثاره متنوعة بين شتى العلوم فهي متنوعة أيضاً من حيـث كـبر المصـنفات وصـغرها ، فكـان منها المطولات ، ومنها ما هو متوسط ، ومنها الرسائل والمقامات ، ومنها مختصرات لكتب الذين سبقوه من العلماء .

ومما يذكر فيشكر للسيوطي أن هذا الكم الهائل من الآثار العلمية قد حفظت كثيراً من العلوم التي فقدها المسلمون في الحروب والإضطرابات والنكبات الهمجية التي كان يتعرض لها المجتمع الإسلامي .

لذا فقد اسهمت جهوده العلمية ــ بلاشك ــ في حفظ العلم للخلف ، وتيسير سبل المعرفة عن السلف .

والباحثون متفقون على أن مؤلفات السيوطي قد بلغت المئين ، ولكنهم اختلفوا في تحديد عدد هذه المئين على أقوال :

الأول : أنها ثلاثمائة .

ذكر ذلك السيوطي نفسه في " حسن المحاضرة "[(١)] الذي ألفه بين سنتي (٩٠١-٩٠٤هـ)[(٢)] .

الثاني : أنها تزيد على الأربعمائة .

ذكرها السيوطي في : " التحدث بنعمة الله " حين سرد مؤلفاته فبلغ مجموعها واحداً وأربعين وأربعمائة كتاب[(٣)] . وذكـر الشعراني نحو هذا العدد أو يزيد في ذيل طبقاته[(٤)] ، والشبلي اليمني في " السنا الباهرة "[(٥)] ، والأسدي في " طبقات الشافعية "[(٦)] وحاجي خليفة في كشف الظنون مثبوتة في ثنايا الكتاب .

الثالث : أنها خمسمائة .

ذكر ذلك السيوطي في " التنبئة بمن يبعثه الله على رأس كل مائة "[(٧)] .

---

(١) انظـر : (٣٣٨/١) قـال السـيوطي : " وبلغت مؤلفاتي إلى الآن ثلاثمائة كتاب سوى ما غسلته ورجعت عنه " وقوله " إلى الآن " يقصد تاريخ تأليف الكتاب .

(٢) ذلك لأن آخر سلاطين المماليك الذي ترجم له ونص علىوفاته هو الملك الأشرف قايتباي المحمودي (ت٩٠١هـ) ثم ذكر من خلفه من بعده وهو ولده محمد الملقب بالملك الناصر ولم يذكر وفاته (حسن المحاضرة ١٢٢/٢) .

(٣) التحدث بالنعمة (ص١٠٥-١٣٦) وهذا الكتاب ألفه سنة (٨٩٠هـ) .

(٤) انظر : ذيل طبقات الشعراني – مخطوط (ق٥) .

(٥) انظر : (ص٨١-٩٢) .

(٦) طبقات الشافعية – مخطوط (ق١٣٥) .

(٧) انظر : (ص٤٥) .

الرابع : أنها تزيد على خمسمائة .

جاء ذلك على لسان السيوطي فيما ذكره الكتاني أنه ظفر بمصر بكراسة من تأليف السيوطي عدد فيها تآليفه سنة (٩٠٤هـ) أي قبل وفاته بسبع سنين فبلغت خمسمائة وثمان وثلاثين مؤلفاً مرتبة حسب الفنون العلمية[١] .

وللسيوطي فهرس مؤلفاته من وضعه ، يحتوي على خمسمائة وأربعة كتب ، طبع هذا الفهرس في آخر الجزء السادس من كتاب كشف الظنون المطبوع بأوربا[٢] .

ونقل ابن العماد الحنبلي عن الداودي تلميذ السيوطي أنه استقصى مؤلفات شيخه فزادت على خمسمائة [٣] .

وأثبت له " فلوجل " [٤] واحداً وستين كتاباً وخمسمائة كتاب[٥] .

الخامس : أنها ستمائة أو ما يقرب منها .

ذكره ابن إياس في بدائعه[٦] ، وابن طولون في " مفاكهة الخلان "[٧] ، واسماعيل البغدادي في هدية العارفين[٨] ، وجميل العظم[٩] في " عقود الجوهر "[١٠] .

السادس : أنها سبعمائة أو تزيد .

تتبعها الباحث عدنان محمد سلمان في كتابه " السيوطي النحوي "[١١] .

السابع : أنها بين تسعمائة وألف .

ذكر ذلك أحمد الشرقاوي في كتابه " مكتبة جلال الدين السيوطي " وكذلك أحمد الخازندار مع الشيباني في كتابهما : " دليل مخطوطات السيوطي وأماكن وجودها "[١٢] هذا ما وقفت عليه من الأقوال في بيان عدد مؤلفات السيوطي ، وأرى أرجحها القولين : الرابع والخامس ، أي أنها بين الخمسمائة والستمائة مصنف وذلك لأمور منها :

١- أن هذا هو آخر ما توصلنا إليه عن طريق السيوطي وتلاميذه وهم الأدرى بذلك .

٢- أن العدد الأقل من ذلك إنما ذكره السيوطي في ما ألفه قبل سنة (٩٠٤هـ) بخلاف هذا الذي رجحته فإنه كتبه فيما بعد سنة (٩٠٤هـ) وعن ثلاثة من أخص تلاميذه .

---

(١) فهرس الفهارس (٣٥٩/٢) ، ومقدمة ألفية السيوطي – دار البصائر ، دمشق .

(٢) كشف الظنون – طبعة أوربا (٦/٦٦٥-٦٧٩) ومن هذا الفهرس نسخة في دار الكتب المصرية ضمن مجموع تحت رقم (٣٢) مجاميع ، ذكر ذلك مؤلف كتاب " السيوطي النحوي " (ص١٣٨) .

(٣) انظر : شذرات الذهب (٥٣/٨،٥٢) .

(٤) مستشرق ألماني ت (١٨٧٠م) واسمه الكامل : جوستاف ليبرشت فلوجل ، انظر : الأعلام (١١٨/٢) .

(٥) انظر : مقدمة نظم العقيان في أعيان الأعيان للسيوطي ، ت : فيليب حتى ، صفحة (ح) .

(٦) انظر : بدائع الزهور (٥٨٣/٤) (٦٣/٣) .

(٧) مفاكهة الخلان (٣٠٢/١) .

(٨) (٥٣٤/١-٥٤٤) .

(٩) جميل بن مصطفى بن محمد باشا العظم أديب دمشقي من أعضاء المجمع العلمي العربي ت (١٩٣٣م) له اعتناء بالتاريخ من كتبه عقود الجوهر ، انظر الاعلام (١٣٨/٢) .

(١٠) انظر (ص١٩٤-٢١٦) .

(١١) انظر : (ص١٤٠) .

(١٢) آخر رقم مسجل في كتابهما واحد وثمانون وتسعمائة مؤلف .

٣- أن العدد الزائد عن هذا القدر لم يثبت عن السيوطي ولا عن أحد تلاميذه ، ولا ممن أرخواله من القرون التي بعد القرن العاشر ، وإنما ذكره بعض المعاصرين .

وبتتبع كتابي " مكتبة جلال الدين السيوطي " و " دليل مخطوطات السيوطي " وجد عدد كبير من الكتب التي نسبت إليه إنما هي بين مكرر ومنحول عليه ، وإذا أسقطنا هذا المكرر والمنحول ، بقى لنا العدد قريباً مما رجحناه . ومن الغريب أن يشكك بعض الباحثين في مقدرة السيوطي على تأليف هذا العدد الكبير من المصنفات ، وكان مما قوى عندهم هذا الشك أمران :

١- ما ردده بعض خصومه كالسخاوي من أنه أخذ كتباً من المحمودية فقدم فيها وأخر ونسبها لنفسه(١) ، وقد رددت على هذا الزعم الذي زعمه السخاوي - عفا الله عنه - فيما تقدم عند الكلام على خصومته معه ، كما ذكرت دفاع الشوكاني عنه

٢- ما اشتهر أن بعض الكتب للسيوطي ، ثم تبين أنها منحوله وهذا قد يقع لكثير من العلماء ، من أنه قد ينسب إليه بعض المصنفات وهي ليست كذلك ، وليس ذلك مما ينفرد به السيوطي وحده ، كما أن القدرة على التصنيف من المواهب الإلهية التي يمن الله بها على بعض عباده ، وقد عرف في التاريخ عدد كبير من العلماء ممن نافت مصنفاته عن هذا العدد كابن الجوزي وابن تيمية وغيرهما ، خصوصاً وأن السيوطي قد هيئت له أسباب ساعدته على التأليف منها :

١- توفيق الله تعالى له ، فقد حدثنا تلميذه الداودي أنه رأى شيخه " وقد كتب في يوم واحد ثلاثة كراريس ، تأليفاً وتحريراً ، وكان مع ذلك يملي الحديث ويجيب عن المتعارض منه بأجوبة حسنة "(٢) .

٢- ابتداؤه التأليف في سن متقدمة من عمره ، مما جعل مدة التأليف أطول إذ ظل يشتغل بالكتابة والتصنيف من سنة (٨٦٦هـ) وحتى وفاته عام (٩١١هـ) وهي مدة خمساً وأربعين سنة ، وهذا وقت طويل نسبياً يجعل صاحبه الدؤوب على التأليف ينتج هذا الكم الهائل من المصنفات .

٣- عدم التشاغل بمنصب أو وظيفة(٣) ، مما جعله متفرغاً تماماً للتأليف خصوصاً بعد أن اعتزل التدريس والفتيا وانقطع عن الناس منذ بلغ الأربعين من عمره ، وإن إحدى وعشرين سنة خلوة في حياة شخص كالسيوطي لكافية لأن تغمر الأرض بالمئات من الكتب .

٤- اطلاعه الواسع الذي مكنه أن يكتب العديد من حافظته دون الرجوع إلى الكتب ، يؤيد ذلك ما قاله عن نفسه حين قال : " وكنت استحضر غرائب المنقولات ، ودقائق الفنون الخفية معزوة إلى قائلها من الكتب المشهورة والغريبة "(٤) ، وقال : " ولو شئت أن أكتب في كل مسألة مصنفاً بأقوالها وأدلتها النقلية والقياسية ومداركها ونقوضها وأجوبتها ، والموازنة بين اختلاف المذاهب فيها لقدرت على ذلك من فضل الله "(٥) .

٥- يضاف إلى ذلك ما أنعم الله تعالى عليه بنفائس كتب الإسلام التي ورثها عن والده الكمال ، مع ما اطلع عليه من كتب

---

(١) الضوء اللامع (٦٦/٤) وقد بينت بطلان هذه التهمة كما ذكرت .

(٢) شذرات الذهب (٥٣/٨) .

(٣) تقلد السيوطي بعض الوظائف المتعلقة بالعلم والتعليم ولم يمكث فيها طويلاً .

(٤) التحدث بالنعمة (ص١٨٤) وكان هذا سنة (٨٦٩هـ) وعمره يوميذ (٢٠) سنة .

(٥) حسن المحاضرة (٣٣٩/١) .

المحمودية[١] التي كانت في أمانته فترة من الزمن ووضع لها فهرساً سماه : " بذل المجهود في خزانة محمود "[٢] .

٦- اشتغاله بالإفتاء والتدريس اللذان كانا يساعدانه عادة على التأليف تحقيقاً لمسألة أو إجابة لفتوى[٣] .

٧- كثرة تلاميذه وطلابه الذين يكتبون عنه كل ما يمليه أو يلقيه في محاضراته ودروسه ، أو يفتي به ، ثم يعرضون عليه ما يكتبونه فيجيزه أو يأمر بتبيضه ، وهذا من شأنه أن يحفظ كل كلام تكلم به مما له تعلق بالعلوم والفنون المختلفة مما كان له الأثر البالغ في كثرة مصنفاته وسرعة انتشارها .

٨- حـــدة طبعه ، وسرعة غضبه وعدم صبره على تطاول خصومه وأقرانه ، فكانت كل غضبة تكلفه مصنفاً يرد به على مخالفيه ، ومعارضيه وهذا من شأنه أيضاً أن يساهم في كثرة كتبه ورسائله .

٩- شـــعوره بالقدرة على الاجتهاد ، وهذا دفعه إلى أن يؤلف في كل فن[٤] ، ليثبت تمكنه فيه ، ولهذا نجده قد صنف في أغلب معارف عصره إلا الحساب والمنطق [٥] .

أما الأول : فلأنه لا يتلاءم مع طبعه ، فيجده عسيراً عليه .

وأما الثاني : فلأنه حرام ، وسيأتي معنا موقفه من المنطق في الباب الثاني إن شاء الله تعالى .

والآن يمكننا أن نذكر أهم مصنفات التركة العلمية التي خلفها السيوطي للأمة من بعده .

---

(١) هي المكتبة التابعة للمدرسة المحمودية التي تنسب إلى محمود بن علي الاستادار الذي أنشأها سنة (٧٩٧هـ) قال المقريزي : وبهذه الخزانة كتب الاسلام من كل فن ، (تدريب الراوي ١٤،١٣) .

(٢) نشر بتحقيق فؤاد السيد بمجلة معهد المخطوطات المجلد الرابع ط/مايو/١٩٥٨م .

(٣) انظـر : الـتحدث بالنعمة (ص١٢١) فقد سرد نحو ثمانين مؤلفاً كلها في واقعات الفتاوى ، وكذلك أغلب ما يحويه الحاوي من أسماء مصنفات وعناوين رسائل هي في حقيقتها فتاوى ، فيجعل لكل فتوى عنواناً كعنوان المصنف أو الكتاب .

(٤) انظر : مكتبة الجلال السيوطي للشرقاوي .

(٥) إلا ما ألفه في الرد على المنطق وهدمه .

المبحث الثاني

بيان أشهر مصنفاته في مختلف الفنون

أولاً : العقيدة والتصوف والمنطق :

١- " علم التوحيد "[١] .

٢- " خلق الأعمال "[٢] .

٣- مفتاح الجنة في الاحتجاج بالسنة[٣] .

٤- تنزيه الاعتقاد عن الحلول والاتحاد[٤] .

٥- تعريف الايمان وركنه ، وشرطه[٥] .

٦- تحفة الجلساء برؤية الله - تعالى - للنساء[٦] .

٧- الدر المنظم في بيان الاسم الأعظم[٧] .

٨- صون المنطق والكلام عن فن المنطق والكلام[٨] .

٩- القول المشرق في تحريم الاشتغال بالمنطق[٩] .

١٠- فصل الكلام في ذم الكلام[١٠] .

١١- إلقام الحجر لمن زكى ساب أبي بكر وعمر[١] .

---

(١) مخطوطة ، بمكتبة المسجد الأحمدي ، بطنطا - مصر ، رقم خاص (٦٣) عام (٦٦٩) ، كتب في بدايتها : علم التوحيد من دراية الجلال السيوطي - تناول فيها معظم أبواب الاعتقاد باختصار على طريقة الأشاعرة .
لديَّ منها نسخة مصورة عن المخطوطة الأحمدية ، دليل مخطوطات السيوطي (ص١٦٠) .

(٢) مخطوطة ، بمكتبة المسجد الأحمدي ، بطنطا - مصر ، رقم خاص (٢٧٧) ، عام (٢٤٥٨) . ولديَّ منها نسخة مصورة . دليل مخطوطات السيوطي (ص١٥٨) .

(٣) حسن المحاضرة (٣٤٠/١) ، وقد صنفه السيوطي ضمن مؤلفاته في الحديث ، وهو مطبوع ضمن مجموعة الرسائل المنيرية (١٣٤٧هـ) ، المجلد الثاني ، دار إحياء التراث العربي - بيروت حسن المحاضرة (٣٤١/١) كشف الظنون (١٧٦٠) ، وهدية العارفين (٥٤٣/١) ، وطبع أيضاً بدار المطبعة السلفية بالقاهرة سنة (١٣٩٤هـ) ت . قصى محب الدين الخطيب ، وطبع بسوريا - مكتبة دار السلام - حلب سنة (١٣٩٩ هـ) - وطبع بالكويت - مكتبة ابن تيمية سنة (١٤٠٢هـ) تحقيق بدر البدر .

(٤) كشف الظنون (٤٩٤) ، هدية العارفين (٥٣٧/١) ، فهرس الخزانة التيمورية (٢٦/٤) رقم (٤٠١) مجاميع ، دار الكتب المصرية (٣٢) مجاميع ، شيستربيتي (٥١١٢) وطبع ضمن الحاوي (١٢٩/٢) .

(٥) طبع ضمن الحاوي (١٩٧/٢) ، (٣٣٠) .

(٦) كشف الظنون (٣٦٤) ، عقود الجوهر ، هدية العارفين (٥٣٧/١) ، جامعة كمبردج (١٣٤٧) طبع ضمن الحاوي (١٩٨/٢) .

(٧) كشف الظنون (٣٧٤) هدية العارفين (٥٣٨/١) برلين (٢٢٤١) فهرس التيمورية (٤١/٤) مجاميع (٤٠٠) طبع بمطبعة الارشاد القاهرة .

(٨) مطبوع بتحقيق د/علي سامي النشار ، وهو يحتوي على عدة كتب : أولها المذكور من تأليف السيوطي ، وثانيها : تلخيص كتبا ذم الكلام وأهله - للهروي ، وثالثها : كتاب : جهد القريحة في تجريد النصيحة ، وهو تلخيص السيوطي لكتاب ابن تيمية في نقض المنطق ، المسمى : " نصيحة أهل الإيمان في الرد على منطق اليونان " .

(٩) كشف الظنون (١٣٦٥) ، حسن المحاضرة (٣٤٢/١) ، هدية العارفين (٥٤١/١) برلين (٤٥/٥٢٢٧) طبع ضمن الحاوي للفتاوي (٢٥٥/١) .

(١٠) كشف الظنون (١٢٦١) ، عقود الجوهر ، حسن المحاضرة (٣٤٢/١) ، وأشار د.علي سامي النشار إلى أن هذا المصنف هو جزء من كتاب صون المنطق ، وهو الجزء الذي أورد فيه نصوص الأئمة في تحريم علم الكلام ، انظر صون المنطق (ص٣) حاشية (٤) .

١٢- الكوكب الساطع في شرح نظم جمع الجوامع[٢] .

١٣- شرح الكوكب الوقاد في الاعتقاد[٣]

١٤- تأييد الحقيقة العلية وتشييد الطريقة الشاذلية[٤] .

١٥- الخبر الدال على وجود القطب والأوتاد والنجباء والأبدال[٥] .

١٦- تنوير الحلك في إمكان رؤية النبي والملك[٦] .

١٧- العرف الوردي في أخبار المهدي[٧] .

١٨- الدر الحسان في البعث ونعيم الجنان[٨] .

١٩- الدرة الفاخرة في علوم الدنيا والآخرة[٩] .

٢٠- رفع الصوت بذبح الموت[١٠] .

٢١- طلوع الثريا بإظهار ما كان خفياً[١١] .

٢٢- الحبل الوثيق في نصرة الصديق[١٢] .

٢٣- حسن المقصد في عمل المولد[١] .

---

(١) حسن المحاضرة (١/٣٤٣) ، كشف الظنون (١٥٨) ، هدية العارفين (١/٥٥٣٥) برلين (٤٩٥٧) مكتبة البلدية بالاسكندرية – مصر (٢٢٧٩/ ٢٣) والكتاب لم أقف عليه وربما لا يزال مخطوطاً .

(٢) كشف الظنون (١٥٢٣) ، هدية العارفين ، (١/٥٤٢) حسن المحاضرة (١/٣٤٣) ، مكتبة سوهاج – مصر (١٢٣) أصول ، برلين (١٤/٤٤٠٨) جامعة الرياض نشرة مخطوطات السيوطي رقم (١٢٧) ص (٣٥) ، طبع : البسفور سنة (١٣٣٢هـ) والكتاب موضوعه في أصول الفقه ، وبآخره جزء كبير في العقيدة والسلوك ، قام بتحقيق الكتاب الطالب حسان فلمبان ، جامعة أم القرى .

(٣) كشف الظنون (١٥٢٣) ، حسن المحاضرة (١/٣٤٢) ، دار الكتب المصرية (١١٨١،٩٥م) مجاميع وهو منظومة لعلم الدين علي بن عبدالصمد السخاوي ت (٦٤٣هـ) ولم أر الكتاب مطبوعاً ، انظر : (دليل مخطوطات السيوطي (ص١٥٩)) .

(٤) حسن المحاضرة (١/٣٤٤) ، كشف الظنون (٣٣٦) ، هدية العارفين (١/٥٣٦) برلين (٣٠٣٢) عارف حكمت بالمدينة المنورة (١٢) تصوف ، دار الكتب المصرية (٣٠١٤) طبع : المطبعة الاسلامية بالقاهرة – مصر – سنة (١٩٣٤م) ، دليل مخطوطات السيوطي (١٥٥) .

(٥) كشف الظنون (٥٢١) حسن المحاضرة (١/٣٤٣) ، هدية العارفين (١/٥٣٨) برلين (٤/٣٣٨١) دار الكتب المصرية (٣٦٢) مجاميع ، مخطوطات جامعة الكويت (٣٣٦٢،٣٩٢٧) وطبع ضمن الحاوي (٢/٢٤١) .

(٦) كشف الظنون (٥٠١) ، حسن المحاضرة (١/٣٤٢) بروكلمان – الذيل (٢/١٩٢) هدية العارفين (١/٥٣٦) طبع ضمن الحاوي (٢/٢٥٥) .

(٧) كشف الظنون (١١٣٢) ، هدية العارفين (١/٥٤٠) ، دار الكتب المصرية (٣٢) مجاميع ، طبع : ضمن الحاوي (٢/٥٧) ، دليل مخطوطات السيوطي (ص٢٢٧) .

(٨) عقود الجوهر ، هدية العارفين (١/٥٣٩) ، دار الكتب المصرية (١٥٥٠) ، طبع حجر في مصر سنة (١٢٧٦هـ) – مطبعة شرف بالقاهرة سنة (١٣٠٤هـ) .

(٩) كشف الظنون (٧٤٦) ، حسن المحاضرة (١/٣٤٢) ، مخطوطات البحرين بطنطا (٣٠) خاص ، (١٣٥٢) عام ، دليل مخطوطات السيوطي (ص٦٩) .

(١٠) هدية العارفين (١/٥٣٩) ، عقود الجوهر ، حسن المحاضرة (١/٣٤٢) ، برلين (٢٦٨٥) ، (١٥٩٤) ، دار الكتب المصرية (٢٦٢) مجاميع ، (١٢٣) مجاميع ، الظاهرية (٥٨٩٦) شيستربيتي (٥١١٢) ، مخطوطات جامعة الكويت (٣٦٠٩) ، طبع ضمن الحاوي (٢/٩٥) ، دليل مخطوطات السيوطي (ص١٨٠) .

(١١) هي رسالة في بيان فتنة الموتى في قبورهم ، كشف الظنون (١١١٥) ، هدية العارفين (١/٥٤٠) برلين (٢٦٧١) ، دار الكتب المصرية (١٤٣٩) شيستربيتي (٥١١٢) ، – – مخطوطات جامعة الكويت (٣٦٠٩) ، طبع ضمن الحاوي (٢/١٧٨) ، دليل مخطوطات السيوطي (ص١٨١) .

(١٢) كشف الظنون (٦٢٩) هدية العارفين (١/٥٣٨) لم أره مطبوعاً ، فلعله لم يزل مخطوطاً ، دليل مخطوطات السيوطي (ص١١٠) .

٢٤- تزيين الأرائك في إرسال نبينا إلى الملائك[٢] .

٢٥- الوجه النضر في ترجيح نبوة الخضر[٣] .

٢٦- الاعلام بحكم عيسى - عليه السلام -[٤] .

٢٧- البرهان في علامات مهدي آخر الزمان[٥] .

٢٨- الأقوال والبحث في أحوال البعث[٦]

٢٩- البدور السافرة عن أمور الآخرة[٧] .

٣٠- بشرى الكتيب بلقاء الحبيب[٨] .

٣١- التثبيت عند التبييت[٩] .

٣٢- الحصر والإشاعة لأشراط الساعة[١٠] .

٣٣- منظومة في سؤال القبر[١١]..

٣٤- المنجلي في تطور الولي[١٢] .

ثانياً : التفسير وعلوم القرآن الكريم والقراءات :

٣٥- الدر المنثور في التفسير بالمأثور[١٣] .

---

(١) كشف الظنون (٦٦٧) ، هدية العارفين (٥٣٨/١) ، الظاهرية مجموع (١٤٧) عام (٣٨٨٠) مخطوطات جامعة الكويت (٧٤٦) مجموع (٢) برلين (٩٥٤٤) دار الكتب المصرية (٢٤٢٣) طبع ضمن الحاوي (١٨٩/١) ، دليل مخطوطات السيوطي (ص١٥٠) .

(٢) مطبوع ضمن الحاوي (١٣٩/٢).

(٣) كشف الظنون (٢٠٠١) ، عقود الجوهر ، برلين (٩/٢٥٥٨) ، هدية العارفين (٥٤٤/١) ، لم أقف عليه مطبوعاً . دليل مخطوطات السيوطي (ص ١٤٩) .

(٤) كشف الظنون (١٢٧) ، هدية العارفين (٥٣٥/١) مخطوطات الموصل - العراق (٣١) مجموع (٢٢/٤ج٣) ، المكتبة الغربية بالجامع الكبير بصنعاء - اليمن (١٨٧) مجموع ، مكتبة صوفيا الوطنية - بلغاريا (١٦١٨) مجموع ، مكتبة سعد أفندي في استانبول - تركيا (٢٦٠) مجموع ، دار الكتب المصرية (٢٨١٩) ، (٢٤٦٧) ، (٢٤٦٨) شيستربيتي (٥١١٢) ، (٥٥٠٠) ، مخطوطات جامعة الكويت (٣٦٠٩) ، (٣٩٩٧) دليل مخطوطات السيوطي (ص٢٢٠) ، ولم أره مطبوعاً .

(٥) هدية العارفين (٥٣٦/١) ، ولم أقف عليه مطبوعاً ، دليل مخطوطات السيوطي(ص٢٢).

(٦) الخزانة التيمورية ، كتب سنة (١١٦٧هـ) ، ولم أقف عليه مطبوعاً ، وله كتاب البعث - دار الكتب المصرية (٤١٦) مجاميع ، طبع ضمن الحاي (٩٤/٢) . دليل مخطوطات السيوطي (ص١٨٢) ، (١٧٦) .

(٧) كشف الظنون (٢٣١) ، حسن المحاضرة (٣٤٠/١) ، بروكلمان (١٤٦/٢) ، هدية العارفين (٥٣٦/١) فهرس مخطوطات اليمنية - حضرموت (٣٤٠) دار الكتب المصرية (٨٧٩) ، (٣١٥) ، طبع بمطبعة كرويد - لاهور - باكستان سنة (١٣٣٧هـ) ، الهند (سنة ١٣١١هـ) المورد مجلد (٧) عدد (٢) (١٣٩٨هـ) دليل مخطوطات السيوطي (ص١٧٦) .

(٨) طبع على هامش " شرح الصدور بشرح حال الموتى في القبور " بالمطبعة الميمنية سنة (١٣٠٩هـ) ، دليل مخطوطات السيوطي (ص١٧٨) .

(٩) طبع بالمطبعة الحسينية بالقاهرة - مصر ، وفي فاس - المغرب سنة (١٣٢٧هـ) ، دليل مخطوطات السيوطي (ص١٧٨) ، (١٧٩) .

(١٠) كشف الظنون (٦٦٨) ، حسن المحاضرة (٣٤٣/١) ، عقود الجوهر ، هدية العارفين (٥٣٨/١) ، وتوجد رسالة بعنوان : " رسالة في أمر الساعة " بدار الكتب المصرية (١٤٠٦) . دليل مخطوطات السيوطي (ص١٧٩) .

(١١) طبع بجاوة - اندونيسيا سنة (١٣١٨هـ) ومنها نسخة موجودة بدار الكتب المصرية برقم (٥١٨) مجاميع ، دليل مخطوطات السيوطي (ص١٧٩) .

(١٢) طبع ضمن الحاوي (٢١٧/١) .

(١٣) مطبوع ومشهور ومتداول ، وقد تفرد السيوطي بهذا الكتاب تفرداً فذاً حيث جمع فيه كل الآحايث والآثار التي لها صلة بتفسير القرآن الكريم دون أن يخلط بها غيرها من كلامه أو كلام المفسرين ، وبهذا يكون هذا الكتاب وحده المستحق لأن يسمى " التفسير بالمأثور " .

٣٦- تفسير الجلالين[١] .

٣٧- معترك الأقران في إعجاز القرآن[٢] .

٣٨- التحبير لعلم التفسير[٣] .

٣٩- ترجمان القرآن[٤] .

٤٠- الإكليل في استنباط التنزيل[٥] .

٤١- مفحمات الأقران في مبهمات القرآن[٦] .

٤٢- حاشية على تفسير البيضاوي[٧] .

٤٣- الأزهار الفائحة على الفاتحة[٨] .

٤٤- مجمع البحرين ومطلع البدرين[٩] .

٤٥- شرح الاستعاذة والبسملة[١٠] .

٤٦- لباب النقول في أسباب النزول[١١] .

٤٧- الاتقان في علوم القرآن[١٢] .

٤٨- تناسق الدرر في تناسب السور[١٣] .

٤٩- الألفية في القراءات العشر[١٤] .

---

(١) مطبوع ومشهور ومتداول ، فسر شيخه جلال الدين المحلي سورة الفاتحة ، والنصف الثاني من أول سورة الكهف إلى آخر سورة الناس ، وفسر السيوطي من أول سورة البقرة إلى آخر سورة الإسراء ، كما ذكر هو نفسه في آخرها ، انظر الجلالين (ص٣٥٠) .

(٢) مطبوع في ثلاثة مجلدات كبار ، دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان ط١/١٤٠٨هـ- ١٩٨٨م

(٣) كشف الظنون (٣٥٤) ، إيضاح المكنون (٢٣٠/١) ، حسن المحاضرة (٣٣٩/١) ، هدية العارفين (٥٣٦/١) ، مكتبة عارف حكمت بالمدينة المنورة (١٩٦) تفسير ، شيستربيتي (٤٦٥٥) ، (٥١١٢) ، مخطوطات جامعة الكويت (٣١٥٢) ، (٣٦٠٩) ، دليل مخطوطات السيوطي (ص ٣١) .

(٤) طبع بمصر سنة (١٣١٤هـ) ، وقيل : اختصره في " الدر المنثور " دليل مخطوطات السيوطي (ص٣٢) .

(٥) حققة الطالب عامر العرابي - بجامعة أم القرى (١٤١٦هـ-١٤١٧هـ) ، وطبع بدلهي عام (١٢٩٦هـ) .

(٦) مطبوع بتحقيق : إياد خالد الطباع - مؤسسة الرسالة ، ط٢/١٤٠٩هـ-١٩٨٨م .

(٧) حسن المحاضرة (٣٣٩/١) برلين (٨٣٤) ، دليل مخطوطات السيوطي (ص٣٥) .

(٨) كشف الظنون (٤٥٦) .

(٩) كشف الظنون (١٥٩٩) ، حسن المحاضرة (٣٣٩/١) .

(١٠) عنوانها : " رياض الطالبين في شرح الاستعاذة والبسملة " هدية العارفين (٥٣٩/١) ، برلين (٢٢٥٨) ، دار الكتب المصرية (٤٧٤) مجاميع ، حسن المحاضرة (٣٣٩/١) ، لم أقف عليها مطبوعة .

(١١) مطبوع ، ومشهور ، ومتداول طبع بحاشية تفسير الجلاين ، وبحاشية كلمات القرآن تفسير وبيان للشيخ حسنين محمد مخلوف مفتي الديار المصرية ، وطبع مستقلاً البابي الحلبي بمصر سنة (١٩٥١م،١٩٥٤٤م) وطبعات أخرى .

(١٢) مطبوع ، ومشهور ومتداول ، البابي الحلبي - بمصر سنة (١٩٥١) ، مطبعة عبدالرزاق سنة (١٣٠٦هـ) ، الميمنية سنة (١٣١٧هـ) سركيس (ص١٠٧٣) .

(١٣) مطبوع بعنوان : " أسرار ترتيب القرآن " دراسة وتحقيق عبدالقادر أحمد عطا ، دار الاعتصام - القاهرة - بدون تاريخ وهي طبعة حديثة .

(١٤) حسن المحاضرة (٣٣٩/١) ، ولم أقف عليها مطبوعة .

ثالثاً : الحديث النبوي الشريف وعلومه وما يتعلق به :

أخبر السيوطي عن نفسه أنه يحفظ مائتي ألف حديث ، قال : " ولو وجدت أكثر لحفظته "[١] مما يدل على تضلعه من الأحاديث النبوية ، وكلفه بها ، وجمعها والتصنيف في علومها ، وله في ذلك مصنفات ضخمة نذكر منها :

٥٠- التوشيح على الجامع الصحيح[٢] .

٥١- الديباج على صحيح مسلم بن الحجاج[٣] .

٥٢- أحاديث التسبيح الواردة في الحديث الصحيح[٤] .

٥٣- جمع الجوامع ، أو الجامع الكبير[٥] .

٥٤- الجامع الصغير في أحاديث البشير النذير[٦] .

٥٥- مرقاة الصعود إلى سنن أبي داود[٧] .

٥٦- قوت المغتذي على جامع الترمذي[٨] .

٥٧- زهر الربى على المجتبى في شرح سنن النسائي[٩] .

٥٨- عقود الزبر جد على مسند الإمام أحمد[١٠] .

٥٩- تنوير الحوالك في شرح موطأ مالك[١١] .

٦٠- اللآلئ المصنوعة في الأحاديث الموضوعة[١٢] .

٦١- مصباح الزجاجة على سنن ابن ماجة[١] .

---

(١) ابن العماد : شذرات الذهب (٥٣/٨) .

(٢) حسن المحاضرة (٣٤٠/١) وهو شرح على صحيح البخاري ، ذكره صاحب كشف الظنون باسم : " التوشيح على مشكلات الجامع الصحيح " (٥٤٧) ، هدية العارفين (٥٣٧/١)- = برلين (٣٥/١٢٢٥) ، المكتبة الوطنية باستانبول - فيض الله (٣٢٠) ، مكتبة حسن حني عبدالوهاب بتونس (١٨٢٠٩) ، دليل مخطوطات السيوطي (ص٦١) ولم أره مطبوعاً .

(٣) ذكر بعضهم أنه مطبوع ، ولم أقف عليه ، ذكره في كشف الظنون (٧٦٢) ، حسن المحاضرة (٣٤٠/١) ، دار الكتب المصرية (٢١٩) ، مخطوطات الأوقاف العراقية (٧٠١) عبدالله الجبوري (٢٣٣/١) ، المكتبة الوطنية باستانبول - فيض الله (٣٢١) ، دليل مخطوطات السيوطي (ص٧٠) .

(٤) شيستربيتي (٥٤٩١) ، مخطوطات جامعة الكويت (٣٩٨٨) ، دليل مخطوطات السيوطي (ص٤٧) .

(٥) مطبوع ، دار النصر للطباعة - مصر سنة (١٩٨١م) ، مجمع البحوث الإسلامية القاهرة ١٩٧١-١٩٧٥م .

(٦) مشهور ومطبوع ومتداول ، مرسيليا ، بولاق سنة (١٣٨٦هـ) والخيرية سنة (١٣٢٣هـ) وباكستان سنة (١٣٩٤هـ) ، بيروت سنة (١٩٦٩م) ت. محمد ناصر الدين الألباني - دار إحياء الكتب العربية - ت مصطفى محمد عمارة سنة (١٩٥٤م) .

(٧) مطبوع ، المطبعة الوهبية سنة (١٢٩٨هـ) .

(٨) كشف الظنون (١٣٦١) ، هدية العارفين (٥٤١/١) ، جامعة الرياض (٣٩٧) ، عارف حكمت بالمدينة المنورة (١٥٧) حديث ، دليل مخطوطات السيوطي (ص٨٠-٨١) وقيل : إنه مطبوع ولم أقف عليه .

(٩) مطبوع ، البابي الحلبي - بالقاهرة (١٩٦٤م) ، الميمنية سنة (١٢٩٩هـ) ، وعندي طبعة دار الكتب العلمية مع حاشة الإمام السندي .

(١٠) كشف الظنون (١١٥٦) ، هدية العارفين (٥٤٠/١) ، دار الكتب المصرية (١٢٥٤ب) ، (٩٢)، دار الكتب القطرية (١٠٤٦) ، (١٠٤٧) ، دليل مخطوطات السيوطي (ص٧٧) .

(١١) مطبوع ، البابي الحلبي بالقاهرة سنة (١٣٠٣هـ) ، المكتبة الثقافية / لبنان سنة (١٩٧٣م) دار احياء الكتب العربية - مصر سنة (١٣٤٣هـ) ، دار الكتب العلمية - بيروت .

(١٢) وهو تلخيص كتاب الموضوعات لابن الجوزي ، مطبوع ، المطبعة التجارية الكبرى بالقاهرة سنة (١٣١٧هـ) ، الهند (سنة ١٣٠٣هـ) .

٦٢- الدرر المنتثرة في الأحاديث المشتهرة[٢] .

٦٣- تخريج أحاديث شرح العقائد النسفية[٣] .

٦٤- تخريج أحاديث شرح المواقف في علم الكلام[٤] .

٦٥- تدريب الراوي شرح تقريب النواوي[٥] .

٦٦- الخصائص الكبرى[٦] .

٦٧- لقط المرجان في أحكام الجان[٧] .

٦٨- شرح الصدور بشرح حال الموتى والقبور[٨] .

٦٩- نتيجة الفكر في الجهر بالذكر[٩] .

٧٠- زهر الخمائل على الشمائل[١٠] .

٧١- مناهل الصفافي تخريج أحاديث الشفا[١١] .

٧٢- نشر العبير في تخريج أحاديث الشرح الكبير[١٢] .

٧٣- كشف الصلصلة عن وصف الزلزلة[١٣] .

٧٤- مطلع البدرين فيمن يؤتي أجره مرتين[١] .

---

(١) طبع بها حسن ابن ماجة بالمطبعة الوهبية سنة (١٢٩٩هـ) .

(٢) طبع بمطبعة الحلبي - بمصر سنة (١٩٣٧م) ضمن حاشية كتبا الفتاوي الحديثية لابن حجر بالمطبعة الميمنية سنة (١٣٠٧هـ) ، وطبع مستقلا ، ولا أذكر أين طبع . وذكره في هدية العارفين بعنوان : " اللآلئ المنتثرة في الأحاديث المشتهرة " (٥٤٢/١) ، دليل مخطوطات السيوطي (ص ٨٤) .

(٣) كشف الظنون (١١٤٩) ، حسن المحاضرة (٣٤٢/١) ، الظاهرية (١١٢٥) حديث مكتبة الرباط - مصورات مكتبة الشيخ صبحي السامرائي رقم (٢٩) ، دليل مخطوطات السيوطي (ص٥٧) .

(٤) مطبوع ، دار المعرفة - بيروت - لبنان - ، ط١٤٠٦/١هـ-١٩٨٦م ، تحقيق : د.يوسف عبدالرحمن المرعشلي .

(٥) مطبوع ، ومشهور ومتداول ، ت.عبدالوهاب عبداللطيف ، دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان - ط١٣٩٩/٢هـ-١٩٧٩م .

(٦) ويسمى : " كفاية الطالب اللبيب في خصائص الحبيب " مطبوع أكثر من طبعة أفضلها ما قام بتحقيقها د.محمد خليل هراس - دار الكتب الحديثة - مصر - بدون تاريخ .

(٧) مطبوع ، بتحقيق : خالد عبدالفتاح شبل ، مكتبة التراث الاسلامي - القاهرة بدون تاريخ ، وهو تلخيص لكتاب : " آكام المرجان في أحكام الجان " للشيخ الإمام القاضي بدر الدين الشبلي (ت٧٦٩هـ) وله طبعة أخرى بتحقيق : مصطفى عبدالقادر عطا ، دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان ، ط١٤٠٦/١هـ-١٩٨٦م .

(٨) مطبوع ، دار الكتب العلمية - بيروت ، ط١٤١١/١هـ-١٩٩٠م ، قدم له وفهرسه زهير شفيق الكبي ، وطبعة أخرى بتحقيق وتعليق يوسف علي بديوي ، دار ابن كثير - دار التراث المدينة المنورة ط١٩٩٢/٢م-١٤١٣هـ ، وهذه أفضل من سابقتها .

(٩) مطبوع ، ضمن الحاوي (٣٨٩/١) ، وأفرد في طبعة مستقلة بتحقيق : يوسف بديوي ، وعلي الكردي - دار الكتاب العربي - بيروت ١٤١٠ هـ-١٩٩٠م .

(١٠) وهو تلخيص " لكتاب الشمائل المحمدية " للترمذي ، ولم أعثر عليه مطبوعاً ، كشف الظنون (٩٥٩) ، هدية العارفين (٥٣٩/١) ، مخطوطات جامعة الكويت (٣٩٨٨) ، برلين (١٤/٩٦٤٧) شيستربيتي (٥٤٩١) دليل مخطوطات السيوطي (ص١٤٦) .

(١١) طبع بمصر مع الشفا سنة (١٢٧٦هـ) ، دليل مخطوطات السيوطي (ص٨٩) .

(١٢) حسن المحاضرة (٣٤١/١) ، هدية العارفين (٥٤٣/١) ، برلين (٥٠/١٣٨٣) ، (١٢/٤٤٧١) ، وذكر أنه طبع ولم أقف عليه . دليل مخطوطات السيوطي (ص٩٢) .

(١٣) مطبوع ، بتحقيق د.محمد كمال الدين عز الدين ، عالم الكتب ، بيروت ، ط١٤٠٧/١هـ-١٩٨٧م .

٧٥- بشرى الكئيب بلقاء الحبيب[٢] .

٧٦- نزهة المتأمل ومرشد المتأهل[٣] .

٧٧- وصول الأماني أصول التهاني[٤] .

٧٨- المَدْرج إلى المُدرَج[٥] .

رابعاً : الفقه وأصوله :

مـن ينظر إلى مؤلفات السيوطي التي دوناها سابقاً في الحديث وعلومه ، يظن أن الرجل قد أفنى سنين عمره كله فـي دراسة الحديث وحفظه والتصنيف فيه ولم يتعرض لأي فن آخر ، إلا أننا نجد أن السيوطي المتكلم صاحب المصنفات فـي العقيـدة ، والمفسر صاحب التفاسير الجليلة ، والمحدث الحافظ الذي شهد له بالإمامة في الحديث نجده أيضاً إماماً في الفقه وأصوله ، وهذه أشهر مؤلفاته الفقهية والأصولية :

٧٩- الأشباه والنظائر في قواعد وفروع فقه الشافعية[٦] .

٨٠- الرد على من أخلد إلى الأرض وجهل أن الاجتهاد في كل عصر فرض[٧] .

٨١- جزيل المواهب في اختلاف المذاهب[٨] .

٨٢- تشغيف الاسماع بمسائل الاجماع[٩] .

٨٣- مختصر الأحكام السلطانية[١٠] .

٨٤- مطالب أولى النهي في شرح غاية المنتهى[١١] .

٨٥- نزول الرحمة بالتحدث بالنعمة[١٢] .

٨٦- الحاوي للفتاوي[١٣] .

---

(١) رأيـته فـي طبعتين : الأولى بتحقيق : سليم بن عيد الهلالي ، دار الهجرة للنشر والتوزيع - الدمام - السعودية ط١/١٤١٠هـ-١٩٨٩م ، والثانية بتحقيق : مجدي فتحي السيد ، دار الصحابة للتراث بطنطا ط١/١٤١١هـ-١٩٩١م .

(٢) تلخيص لكتاب " شرح الصدور " في أحوال البرزخ ، طبع بتحقيق مجدي السيد إبراهيم ، مكتبة الساعي - بالرياض - السعودية - بدون تاريخ

(٣) في آداب الخطبة والزواج ، طبع بتحقيق : محمود نصار ، مكتبة التراث الاسلامي - القاهرة - بدون تاريخ .

(٤) طبع ضمن الحاوي (٧٩/١) .

(٥) طبع بالدار السلفية بالكويت سنة (١٩٧٩م) .

(٦) مطـبوع ، بمطبعة البابي الحلبي - القاهرة سنة (١٩٥٩م) ، حيدر آباد سنة (١٣١٦هـ) مكة سنة (١٣٣١هـ) ، مطبعة المكتبة التجارية بمصر سنة (١٣٥٩هـ) .

(٧) طبع بالجزائر سنة (١٣٢٥هـ) .

(٨) كشـف الظنون (٥٩٠) ، حسن المحاضرة (٣٤٣/١) ، هدية العارفين (٥٣٨/١) ، برلين (٢٨٩) المكتبة المحمودية (٦٥) مجاميع ، دار الكتب المصرية (٣٠) أصول ، (٣٥) مجاميع (٤١٦) مجاميع ، دليل مخطوطات السيوطي (ص١٠٨) .

(٩) كشف الظنون (٤٢١) هدية العارفين (٥٤٢/١) ، كشف الظنون (١٩) .

(١٠) حسن المحاضرة (٣٤٠/١) ، هدية العارفين (٥٤٢/١) ، كشف الظنون (١٩) .

(١١) طبع : المكتب الاسلامي - دمشق سنة (١٩٦١) .

(١٢) طبع بالهند ، بدون تاريخ .

(١٣) مطبوع ومشهور ومتداول - دار الكتب العلمية - بيروت سنة (١٩٧٥م) ، (١٤٠٨هـ-١٩٨٨م) ، المنيرية سنة (١٣٥٣هـ) .

٨٧- إفادة الخبر بنصه في زيادة العمر ونقصه[١] .

٨٨- التعريف بآداب التأليف[٢] .

٨٩- الرحمة في الطب والحكمة[٣] .

٩٠- آداب الفتيا[٤] .

٩١- فتح المغالق من أنت طالق[٥] .

٩٢- الجامع في الفرائض[٦] .

٩٣- الروض الأريض في طهر المحيض[٧] .

٩٤- بلغة المحتاج في مناسب الحاج[٨] .

وغيرها .

خامساً : اللغة وعلومها :

علماء اللغة وباحثوها يعتبرون السيوطي واحداً من المبرزين في علوم العربية ، فرض شخصيته على الدراسات اللغوية بجدارة ، وذلك لأن العلوم اللغوية هي أداة الفهم الصحيح للقرآن الكريم ، والحديث النبوي الشريف ، كما أنها الوسيلة الوحيدة في حفظ الشريعة وأصول الدين - بعد حفظ الله تعالى - ، ومن هنا كانت انجازات السيوطي في اللغة العربية وعلومها قمة في موضوعها وبابها وأما أهم مؤلفاته في اللغة العربية فنذكر منها :

٩٥- المزهر في علوم اللغة[٩] .

٩٦- الأشباه والنظائر في النحو[١٠] .

٩٧- البهجة المرضية في شرح الألفية[١١] .

٩٨- التذييل والتذنيب على نهاية الغريب[١٢] .

٩٩- الأخبار المروية في سبب وضع العربية[١٣] .

---

(١) طبع بالهند ، ولم أقف عليه ، دليل مخطوطات السيوطي (ص٢٦١-٢٦٢) .

(٢) طبع بالقاهرة سنة (١٩٧٠م) ت.د. عبدالصبور مرزوق .

(٣) وفي نسبته إليه شك ، طبع بمصر البابي الحلبي سنة (١٩٣٨م) ، دار الكتب العربية الكبرى سنة (١٣٢٩هـ) - بالقاهرة .

(٤) حسن المحاضرة (٣٤٣/١) ، ولم أقف عليه .

(٥) نفسه .

(٦) كشف الظنون (٥٧٧) ، حسن المحاضرة (٣٤٢/١) ، هدية العارفين (٥٣٨/١) برلين (٣٨/٤٧٦٠) ، دليل مخطوطات السيوطي (ص١٠٨) .

(٧) كشف الظنون (٩١٦) حسن المحاضرة (٣٤٢/١) ، هدية العارفين (٥٣٩/١) ، دليل مخطوطات السيوطي (ص١٣٦) .

(٨) هدية العارفين (٥٣٦/١) ، كشف الظنون (٣٧٥) ، حسن المحاضرة (٣٤٢/١) .

(٩) مطبوع ومشهور ومتداول ، دار إحياء الكتب العربية سنة (١٣٨٢هـ) ت. محمد أحمد جاد المولى ، مطبعة السعادة ، مطبعة صبيح بالقاهرة .

(١٠) مطبوع ، مطبعة دائرة المعارف العثمانية سنة (١٣٥٩هـ) حيدر آباد - الدكن ، وسنة (١٣١٠هـ) ، سنة (١٣١٦هـ) ، سنة (١٣١٧هـ) ، مكتبة الكليات الأزهرية - القاهرة - سنة (١٩٧٥م) تحقيق : عبدالرؤوف سعد .

(١١) مطبوع ، مطبعة المدارس بمصر سنة (١٢٩١هـ) المطبعة الخيرية (١٣١٠) الهند (١٢٧٤) هـ .

(١٢) إيضاح المكنون (٢٧٨/١) هدية العارفين (٥٣٧/١) ، دليل مخطوطات السيوطي (١٩١)

(١٣) طبع ضمن مجموعة التحفة البهية والطرفة الشهية ، بمطبعة الجوائب سنة (١٣٠٢هـ) .

١٠٠- عقود الجمان في المعاني والبيان[١] .

١٠١- شرح عقود الجمان في المعاني والبيان[٢] .

١٠٢- شرح شواهد المغني[٣] .

١٠٣- فجر الثمد في إعراب أكمل الحمد[٤] .

١٠٤- جمع الجوامع في النحو[٥] .

١٠٥- الدر النثير في تلخيص نهاية ابن الأثير[٦] .

١٠٦- السيف الصقيل في حواشي ابن عقيل[٧] .

١٠٧- الاقتراح في أصول النحو وجدله[٨] .

١٠٨- ألوية النصر في خصيصي بالقصر[٩] .

١٠٩- مقامات السيوطي[١٠] .

وغيرها .

سادساً : التراجم والسير والتاريخ والطبقات :

للسيوطي باع طويل في علم التاريخ والتراجم لشيوخه وأقرانه ، وعلماء عصره ، وممن تقدمهم ، ويمكننا القول بأن علم التاريخ قد ازدهر كثيراً في عصر السيوطي ، وعلى يده ، ويد السخاوي وأمثالهما ، وله في ذلك عدد من الكتب الهامة ، نذكر منها :

١١٠- حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة[١١] .

١١١- تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين[١٢] .

١١٢- بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة[١] .

---

(١) طبع ، بولاق سنة (١٢٩٣هـ) .

(٢) طبع ، بمطبعة شرف بالقاهرة سنة (١٣٠٢هـ) ، وبولاق (١٢٩٣هـ) ، البابي الحلبي سنة (١٩٣٩م) ، مطبعة التقدم العلمية سنة (١٣٢١هـ) .

(٣) طبع ، مكتبة الحياة - بيروت لجنة التراث العربي - دمشق فارس سنة (١٢٧١هـ) ، المطبعة البهية بالقاهرة سنة (١٣٢٢هـ) .

(٤) طبع ، ضمن الحاوي للفتاوي (٢٧٩/٢) .

(٥) طبع ، مصر مطبعة السعادة سنة (١٣٢٧هـ) مجمع البحوث الإسلامية القاهرة (سنة ١٩٨١م) ، دار المعارف بيروت سنة (١٩٧٣م) - أتم شواهده وذيله أحمد بن الأمين الشنقيطي ، وسماه الدرر " اللوامع على همع الهوامع شرح الجوامع " .

(٦) طبع ، المطبعة الخيرية بمصر سنة (١٣٢٣هـ) .

(٧) كشف الظنون (١٥٢) ، (١٠١٧)، حسن المحاضرة (٣٤٤/١) ، هدية العارفين (٥٣٩/١) .

(٨) طبع ، حيدر أباد ، مطبعة دائرة المعارف النظامية سنة (١٣١٠هـ) دلهي بالهند (١٣١٣هـ) بيروت - لبنان .

(٩) طبع ، ضمن الحاوي (٢٨٠/٢) .

(١٠) طبع ، في مجلدين ضخمين بشرح وتحقيق : سمير محمود الدروبي ، مؤسسة الرسالة ط١/ ١٤٠٩هـ-١٩٨٩م .

(١١) مطبوع ومشهور ومتداول ، دار إحياء الكتب العربية بالقاهرة سنة (١٩٦٧م) ومطبعة دار الوطن بالقاهرة سنة (١٢٩٩هـ) وطبع حجر بمصر سنة (١٨٦٠م) المطبعة الشرقية بالقاهرة سنة (١٣٢٧هـ) مطبعة السعادة سنة (١٣٢٤هـ) .

(١٢) مطبوع مشهور ومتداول ، دار الفكر سنة (١٣٩٤هـ) ، لاهور سنة (١٨٧٠م) كلكتا (١٨٥٦م) مطبعة المنيرة بالقاهرة سنة (١٣٥١هـ) ، دار الكتب العلمية ط١٤٠٨/١هـ-١٩٨٨م .

١١٣- طبقات المفسرين[٢] .

١١٤- طبقات الحفاظ[٣] .

١١٥- ذيل طبقات الحفاظ[٤] .

١١٦- طبقات الأصوليين[٥] .

١١٧- طبقات الأولياء[٦] .

١١٨- طبقات الشعراء[٧] .

١١٩- طبقات البيانيين[٨] .

١٢٠- نظم العقيان في أعيان الأعيان[٩] .

١٢١- الشماريخ في علم التاريخ[١٠] .

١٢٢- ريح النسرين فيمن عاش من الصحابة مائة وعشرين[١١] .

وغيرها .

ومع اهتمام السيوطي بالعقيدة ، والتفسير ، والفقه واللغة والتاريخ فإنه لم يغفل جانب الأدب ، ما بين شعر ونثر ، فكثيراً ما كانت تأتي مقدمات كتبه ومصنفاته كمقطوعات أدبية رفيعة المستوى ، ومع ذلك فله في هذا الجانب مصنفات عديدة منفردة في بابها ، ذكرها أصحاب التراجم ولكن أغلبها مخطوط لم ير طريقه إلى النشر .

لقد انتشرت مؤلفات السيوطي في سائر أنحاء العالم الاسلامي ، وأقبل الطلاب والدارسون على دراستها ، واشتهرت مؤلفاته في الحجاز واليمن والشام والهند والتكرور وبعض كتبه مفقود ، والبعض الآخر لايزال مخطوطاً ، وكثير من مؤلفاته طبع ونشر في معظم البلدان الاسلامية ، وقد سدت مصنفات السيوطي فراغاً كبيراً في المكتبة العربية والاسلامية ، خصوصاً في العصر الذي أعقب وفاته ، وفي أغلب الجامعات الاسلامية الآن يتناول طلاب الدراسات الدينية واللغوية والأدبية مؤلفات السيوطي بالدراسة والبحث ، لما لها من أهمية وأصالة علمية .

---

(١) مطبوع مشهور ، مطبعة السعادة سنة (١٣٢٦هـ) ، عيسى البابي الحلبي سنة (١٩٦٤م) ت. محمد أبو الفضل إبراهيم .

(٢) لم يتم ، طبع ، مرسنج - ليدن سنة (١٨٣٩م) ، مطبعة الحضارة العربية - مصر سنة (١٩٧٦م) ، طهران سنة (١٩٦٠م) طبعة مصورة .

(٣) طبع ، مكتبة وهبة بالقاهرة سنة (١٣٩٣هـ) ت.علي محمد عمر ، وكوتناج بفرنسا (١٨٣٣م) .

(٤) طبع ، مطبعة التوفيق - دمشق (١٣٤٧هـ) .

(٥) لم أقف عله مطبوعاً ، كشف الظنون (١٠٩٦) ، حسن المحاضرة (٣٤٤/١) .هدية العارفين (٥٤٠/١) .

(٦) لم يطبع ، كشف الظنون (١٠٩٦) .

(٧) كشف الظنون (١١٠٢) ، حسن المحاضرة (٣٤٤/١) ، هدية العارفين (٥٤٠/١) وأغلب ظني أنه لم يطبع .

(٨) مخطوط ، كشف الظنون (١٠٩٦) ، هدية العارفين (٥٤٠/١) ، برلين (٢٩/١٠٠٦٣) .

(٩) مطبوع ، بتحقيق : فيليب حتى ، سنة (١٩٢٧م) المطبعة السورية الأمريكية في نيويورك - لصاحبها سلوم مكرزل - نشر دار الباز - مكة المكرمة ، والمكتبة العلمية بيروت - لبنان

(١٠) مطبوع ، ليدن سنة (١٨٩٤م) ، العراق سنة (١٩٧١م) ، الكويت سنة (١٩٧٩م) تحقيق محمد الشيباني . طبعة الدار السلفية .

(١١) لم أقف عليه مطبوعاً ، كشف الظنون (٩٣٩) ، هدية العارفين (٥٣٩/١) الظاهرية (١١٤٥) حديث ، دار الكتب المصرية (٥٢١) مجاميع ، (٥٣٠) مجاميع ، شيستربيتي (٥١١٢) ، (٥٤٩١) ، مخطوطات جامعة الكويت (٣٦٠٩) ، (٣٩٨٨) .

وفاته :

إنهـــا نهاية كل حيّ ، أصيب السيوطي في آخر عمره بمرض شديد ، وهو ورم في ذراعه الأيسر ، توفي على إثره ، وكانت وفاته – رحمه الله – في سحر ليلة الجمعة (١) ، تاسع عشر جمادى الأولى ، سنة إحدى عشر وتسعمائة (٢) ، فـــي منزلـــه بروضـــة المقياس ، وقد استكمل من العمر إحدى وستين سنة ، وعشرة أشهر ، وثمانية عشر يوماً ، وحضر جنازته خلق عظيم ، ودفن في قبر والده (٣) ، في حوش قوصون ، خارج باب القرافة (٤) ، المعروف اليوم عند العامة بـــ : بوابة السيدة عائشة . رحم الله السيوطي وغفر له .

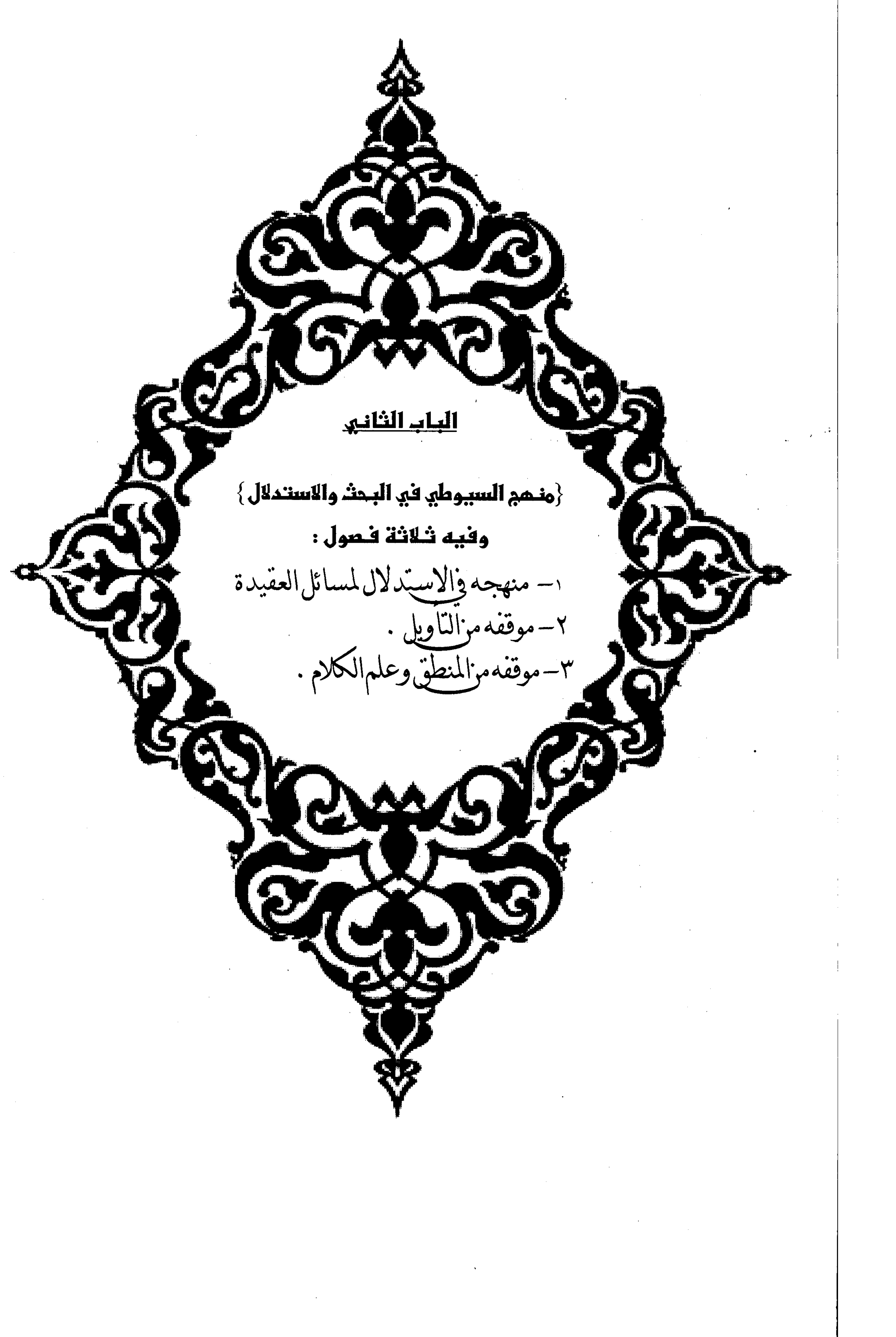
---

(١) ذيل طبقات للشعراني (ق٢٢) ، والكواكب السائرة (٢٣١/١) .

(٢) تاريخ مصر : لابن إياس (٧٩/٦٣،٤/٣) .

(٣) السيوطي النحوي : د/ السلمان (ص١١٦) .

(٤) شذرات الذهب (٥٥/٨) .



الباب الثاني

{منهج السيوطي في البحث والاستدلال}

وفيه ثلاثة فصول :

١- منهجه في الاستدلال لمسائل العقيدة
٢- موقفه من التأويل .
٣- موقفه من المنطق وعلم الكلام .

الفصل الأول

منهجه في الاستدلال لمسائل العقيدة

المبحث الأول

سمات منهج السيوطي في تقرير العقيدة

بعد جولة في مصنفات السيوطي قد اتضحت لنا ملامح منهجه والتي تمثلت في السمات الآتية :

أولاً : القرآن الكريم معجزة الإسلام الخالدة :

يقرر السيوطي أن القرآن معجزة[١] خالدة ، ودليل باق مدى الدهر على صدق نبوة نبينا محمد ﷺ بينما كانت معجزات الامم الغابرة معجزات حسية ،وقد فنيت هذه المعجزات بفنائهم [٢] ، فهو الكتاب الذي أنزله الله ــ تعالى ــ على رسوله ــ ﷺ ــ تبياناً لكل شيء ، لاتفنى جدته ،ولايذهب رواؤه ، ينطق بالحق ، ويبين عن الصدق ، تحدى أفصح الفصحاء ، وأبلغ البلغاء ، فعجزوا عن الاتيان بمثله [٣] أوجب الله على العباد اتباعه ، وجعله أساس الدين .

ومــع إقــرار السيوطي بذلك ويقينه بماقال ، فإنه قد تعامل مع نصوص القرآن الكريم بما يخالف ذلك ، فقد أتى في تفســيره " الجلالين " على جميع صفات[٤] الله جل وعلا ــ فأولها تأويلاً خلفياً ، وهو التأويل الذي هو في حقيقته تعطيل ،

ومن أمثلة ذلك :

١ــ أنــه أول الاســتواء بالاســتيلاء [٥] وســيأتي الــرد عــليه إن شــاء الله تعــالى فــي فصــل توحيد الأسماء والصفات .

٢ــ أول الرحمة فقال : ﴿ الرحمن الرحيم ﴾ [٦] أي :" ذي الرحمة وهي إرادة الخير لأهله " [٧]

٣ــ وعند قوله تعالى : ﴿ الله يستهزيء بهم ﴾ [٨] . قال : يجازيهم باستهزائهم [٩].

٤ــ وعند قوله تعالى : ﴿ كل شيء هالك إلا وجهة ﴾ [١٠] قال : " إلا إياه " [١١] .

٥ــ وعند قوله تعالى : ﴿ ويبقى وجه ربك ﴾ [١٢] قال : " ذاته " [١٣].

٦ــ وقال عند قوله تعالى : ﴿ هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله ... ﴾ [١٤] قال : "أمره"[١٥] .

٧ــ وعند قوله تعالى : ﴿ ويحذركم الله نفسه ﴾ [١٦] قال : " أن يغضب عليكم "[١]

---

[١] الأولى أن تســمى (آيــة) بدل معجزة ، فقد قال النبي ﷺ : " مامن نبي إلا أعطى من الآيات مامثله آمن عليه البشر " ص البخاري ، ح رقم (٧٢٧٤) ، ص مسلم ح رقم (١٥٢) .

[٢] انظر السيوطي : معترك الأقران (١/٣) .

[٣] انظر السابق نفسه .

[٤] عدا الصفات السبع التي يثبتها الأشاعرة .

[٥] انظر : الكوكب الساطع ــ مخ ــ لوحة رقم (٤٢١) ، رسالة في علم التوحيد ــ مخ ــ (ص٤ ، ٥).

[٦] سورة الفاتحة ، الآية (٢) .

[٧] الجلالين (ص٢) .

[٨] سورة البقرة ، بعض الآية (١٥) .

[٩] الجلالين (ص٢) .

[١٠] سورة القصص ، بعض الآية (٨٨) .

[١١] الجلالين (ص ٤٧٩) .

[١٢] سورة الرحمن ، بعض الآية (٢٧) .

[١٣] الجلالين (ص٦٥٣) .

[١٤] سورة البقرة ، بعض الآية (٢١٠) .

[١٥] الجلالين (ص٣٨) .

[١٦] سورة آل عمران ، بعض الآية (٢٨) .

٨ـ وعند قوله تعالى : ﴿ ٠٠ فإن تولوا فإن الله لايحب الكافرين ﴾ [٢] قال :" لايحبهم بمعنى أنه يعاقبهم "[٣] .

٩ـ وعند قوله تعالى : ﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ٠٠٠﴾ [٤] قال : " بمعنى أنه يثيبكم "[٥]

١٠ـ **وعند قوله تعالى** : ﴿ يخافون ربهم من فوقكم ٠٠٠ ﴾ [٦] قال :" يخافون أي الملائكة حال من ضمير يستكبرون ، ربهم من فوقهم حال من (هم)، أي عالياً عليهم بالقهر " [٧] .

١١ـ وعند قوله تعالى : ﴿ وقالت اليهود يد الله مغلولة ﴾ [٨] قال : " مقبوضة عن إدرار الرزق علينا ، كناية عن البخل ، تعالى الله عن ذلك "[٩]

١٢ـ وعند قوله تعالى : ﴿ بل يداه مبسوطتان ﴾ [١٠] قال : " مبالغ في الوصف بالجود ، وثنى اليد لإفادة الكثرة ؛ إذ غاية مايبذله السخي من ماله أن يعطي بيديه " [١١]

١٣ـ وعند قوله تعالى : ﴿ قال ياإبليس مامنعك إن تسجد لما خلقت بيدي ٠٠٠﴾[١٢] . " أي توليت خلقه ، وهذا تشريف لآدم فإن كل مخلوق تولى الله خلقه "[١٣] .

وكذلك أوّل صفة العين[١٤] ، والقبضة [١٥]، وهكذا ٠٠٠ وهذا تأويل مذموم لم يقله النبي ﷺ ولا أصحابه ﷺ ولا أحد من الأئمة المتبعين لهم ٠

ثانياً : السنة النبوية الشريفة :

هي الوحي الثاني الذي يضاهي القرآن الكريم في الحجية والاستدلال ، إذ هي مفسرة لنصوصه ، مبينة لمعانيه ، بتخصيص عامه ، وتقييد مطلقة ، وتعيين مبهمة ولذلك كان اتباعها واجباً كالكتاب بنص الكتب ، قال تعالى : ﴿ وماآتاكم الرسول فخذوه ومانهاكم عنه فانتهوا ٠٠٠ ﴾ [١٦] . ومن هنا كانت عناية السيوطي بالسنة النبوية ، واهتمامه البالغ بعلومها فقد شرح بعض كتب السنة ، كصحيح البخاري الذي سماه : بـ " التوشيح على الجامع الصحيح "[١٧] ، وشرح

---

[١] الجلالين (ص٦٢) ٠
[٢] سورة آل عمران ، بعض الآية (٣٢) ٠
[٣] الجلالين (ص٦٢) ٠
[٤] سورة آل عمران ، بعض الآية (٣٢) ٠
[٥] الجلالين (ص٦٣) ٠
[٦] سورة النحل ، بعض الآية (٣١) ٠
[٧] الجلالين (ص٣٢٤) ٠
[٨] سورة المائدة ، بعض الآية (٦٤) ٠
[٩] الجلالين (ص١٣٨) ٠
[١٠] سورة المائدة ، بعض الآية (٦٤) ٠
[١١] الجلالين (١٣٨) ٠
[١٢] سورة ص ، بعض الآية (٧٥) ٠
[١٣] الجلالين (ص٥٥٦) ٠
[١٤] نفس المصدر ، (ص٢٦٧) ، (ص٣٧٧) ، (ص٤١٣) ٠
[١٥] انظر : نفس المصدر السابق (ص ٥٦٦) ٠
[١٦] سورة الحشر ، بعض الآية (٧)
[١٧] انظر : حسن المحاضرة (٣٤٠/١) ، ومقدمة تنوير الحوالك (٢/١) ٠

على صحيح الإمام مسلم الذي سماه " الديباج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج "[١]، وشرح سنن النسائي "[٢] ، وشرح موطأ الإمام مالك "[٣] .

ومـع ذلك أيضاً فقد أول صفات الله الواردة في الأحاديث النبوية ، وصنف كتاباً جمع فيه ، أحاديث الصفات النبوية ، وقام بتأويلها وسماه : " تأويل الأحاديث الموهمة للتشبيه" [٤] .

*فـأول النزول [٥] والاستواء [٦] كما أوله في التفسير ـ وأوّل قوله ﷺ :" يمشي هرولة " [٧] وقوله " يضحك الله إلى رجلين ٠٠٠ " الحديث[٨] وقوله :" إن الله يرضى ٠٠٠ " [٩] وغيرها من الأحاديث ٠

وهكـذا السيوطي يعظم القرآن ويؤوله ، ويعظم السنة ويؤول أحاديث الصفات بما يتفق والعقيدة الأشعرية ذلك لأنه جعل التأويل هو الركن الأساسي في معرفة التوحيد ، حينما قال : " والتأويل مندرج في التوحيد اندراج المقدمة في البرهان "[١٠] والـتأويل كمـا هو معلوم منهج محدث لم يكن ينتهجه السلف الكرام ، بل كانوا يحذرون منه أشد التحذير ويعتبرونه بدعة نكـراء أدت ببعض أصحاب المذاهب المخالفة لأهل السنة إلى نفي صفات الله جل وعلا بل ذهب بعضهم إلى نفي الأسماء والصـفات[١١] وقد اعترف السيوطي نفسه ، بأن التأويل ليس منهجاً سلفياً ، فقال : " غير أن في السلف من أقرها على ما وردت وأمر بالكف عن التأويل حذاراً عن القلب من الزيغ وعلى اللسان من الطغيان "[١٢] وهذا اعتراف بأن التأويل ذريعة قويـة للزيغ والطغيان فلأجل ذلك حذر منه السلف الكرام . وسيأتي لبيان ذلك مزيد تفصيل في الفصل القادم – إن شاء الله – ولا يفوتـنا هـنا أن نؤكـد على أن انتهاج التأويل غير سديد ، وأنه ابتعاد عن منهج الكتاب والسنة وجنوح نحو العقل وطـرح لنصـوص الوحي . ومن المعلوم يقيناً " أن طريقة سلف الأمة وأئمتها : إثبات ما أثبته الله تعالى من الصفات من غيـر تكييـف ولا تمـثيل ، ومن غير تحريف ولا تعطيل ، وكذلك ينفون عن الله تعالى ما نفاه عن نفسه مع ما أثبته من الصـفات من غير إلحاد لا في أسمائه ولا في آياته ، فإن الله ذم الذين يلحدون في أسمائه وآياته "[١٣] كما أننا سوف نرى ذلك النهج الأشعري واضحاً عند السيوطي كذلك في فصل معرفة الله تعالى ، حيث تعرض السيوطي لمبحث أول الواجبات عـلى المكلف ، وجمع أقوال المتكلمين فيها وهذا يدل على أن السيوطي يرى أن معرفة الله تعالى نظرية وليست فطرية ، خاصة وأنه لم يتعرض لفطرية المعرفة التي يعتمدها أهل السنة والجماعة خلافاً للمتكلمين ، كما سيتضح ذلك لنا – إن شاء الله – في محله من البحث .

---

[١] انظر : نفس المصدرين السابقين ٠

[٢] مطبوع في أربعة مجلدات ، مع حاشية الإمام السندي ٠ دار الكتب العلمية ـ بيروت ٠

[٣] مطبوع في مجلد ، دار الكتب العلمية

[٤] مطبوع ،ط أولى ١٣٩٩هـ ـ ١٩٧٩م ضبط وتحقيق البسيوني مصطفي إبراهيم الكومي ـ دار الشروق ـ جده ٠

[٥] تأويل الأحاديث الموهمة للتشبيه (ص ١١٥) ٠

[٦] السابق نفسه (١١٤) ٠

[٧] السابق نفسه (ص١١٦) والحديث في صحيح البخاري (١٢٠/٩) ومسلم (٤٦٦/٢)

[٨] السابق نفسه (ص١١٨) والحديث في صحيح مسلم (١٥١/٢) ٠

[٩] صحيح مسلم (٦١/٢) ، وانظر : الأحاديث الموهمة للتشبيه (ص١٢١) ٠

[١٠] تأويل الأحاديث الموهمة للتشبيه (ص١٠٦) .

[١١] انظر : ابن تيمية : التدمرية (ص٣٦) والتحفة المهدية (ص٨٩) .

[١٢] تأويل الأحاديث الموهمة للتشبيه (ص١٠٦) .

[١٣] ابن تيمية : التدمرية (ص٧) .

ثـم يختفي ذلك المنهج الأشعري في آراء السيوطي عندما ينقد الفلسفة وعلم المنطق والكلام ، ليظهر مرة أخرى بصـورة أكـثر وضـوحاً فـي الفصل الرابع من الباب الثالث وهو فصل توحيد الأسماء والصفات ، وهو الفصل العملي التطـبيقي لمـنهج الـتأويل النظري الذي وضحناه كمذهب للسيوطي في الفصل الثاني من الباب الثاني ، أما فصل توحيد الأسماء والصفات فلسوف أبين فيه – إن شاء الله تعالى – جناية السيوطي في تأويله لصفات الله عز وجل ، ولسوف نرى أيضـاً أنـه لم يمل من محاولة الاستقصاء للصفات الخبرية حتى أولها جميعاً أو كاد ، وكذلك لبعض الصفات الذاتية التي توهـم فيها تشبيه الباري عز وجل وليس الأمر كما توهم ، كصفة اليد والقدم ونحوهما ، ولسوف أوضح بمشيئة الله تعالى بطـلان ما ذهب إليه من تأويل وإثبات المنهج الحق الصحيح الذي يعتصم بالكتاب والسنة ، وهو منهج السلف والأئمة من أهل السنة .

ثالـثاً : موقفـه من حركة الترجمة : تعرض السيوطي لحركة ترجمة التراث اليوناني التي بدت بواكيرها في الأمة أواخر الدولة الأموية ، والتي استفحل أمرها في عهد الدولة العباسية وخاصة أيام المأمون ، ولم يكن غرض السيوطي من تعرضه لموضـوع الترجمة في الفكر الإسلامي هو مجرد التأريخ لها ، بل كان جل همه منصباً على التعريض بها ، وتوجيه سهام الـنقد إليها سواء من ناحية إفسادها للعقول أم قضائها على أصول الإسلام ، وكذلك عدم الاتفاق بين طبيعة وخصائص كل من اللغة العربية واللغة اليونانية ، ولهذا نجد السيوطي يشيد بالحكم الأموي ويهاجم الخلافة العباسية من هذا المنطلق فيقول : " رحـم الله بني أمية لم يكن فيهم قط خليفة ابتدع في الإسلام بدعة ، وكان أكثر عمالهم وأصحاب ولايتهم العرب ، فلما زالـت الخلافة عنهم ودارت إلى بني العباس ، قامت دولتهم بالفرس ، وكانت الرياسة فيهم وفي قلوب أكثر الرؤساء منهم الكفر والبغض للعرب ودولة الإسلام ، فأحدثوا في الإسلام الحوادث التي تؤذن بهلاك الإسلام ، ولولا أن الله تبارك وتعالى وعـد نـبيه – صـلى الله عليه وسلم – أن ملته وأهلها هم الظاهرون إلى يوم القيامة لأبطلوا الإسلام ، ولكنهم قد ثلموه ، وعـوروا أركانـه ، والله منجز وعده إن شاء الله ، فأول الحوادث التي أحدثوها إخراج الكتب اليونانية إلى أرض الإسلام فترجمت بالعربية وشاعت في أيدي المسلمين "[١] فهذا من ناحية .

ومن ناحية أخرى : فإن هذه الترجمة اتخذت طريقين لا يخلو أحدها من الخلل لوجود خلاف في خواص التراكيب والنسب الإسنادية

١ – الطـريقة الأولى : طـريقة يوحـنا بن البطريق[٢] وابن ناعمة[٣] الحمصي وغيرهما ، وهي أن ينظر إلى كل كلمة مفـردة من الكلمات اليونانية وما تدل عليه من المعنى فيأتي بكلمة مفردة من الكلمات العربية ترادفها في الدلالة على ذلك المعنى ، ثم ينتقل إلى الأخرى كذلك حتى يأتي على جملة ما يريد تعريبه ، وهذه طريقة رديئة لوجهين :

أ- أحدهما : أنه لا يوجد في الكلمات العربية كلمات تقابل جميع الكلمات اليونانية ، ولهذا وقع في خلال هذا التعريب كثير من الألفاظ اليونانية على حالها

---

(١) السيوطي : صون المنطق (ص٦-٧) .

(٢) ويقال له : يحيى ، ويدعى الترجمان عاصر المأمون وترجم له نحو (٢٠٠هـــ) أخبار الحكماء للقفطي (٢٤٨) الاعلام (٨/ ٢١٠) .

(٣) اسمه عبدالمسيح من التراجمة المشهورين في العصر العباسي ت (٢٢٠هـ–٨٣٥م) .

ب- والثاني : أن خواص التركيب والنسب الاسنادية لا تطابق نظيرها من لغة أخرى دائماً ، وأيضاً يقع الخلل من جهة استعمال المجازات وهي كثير في جميع اللغات .

٢- أما الطريقة الثانية : فهي طريقة حنين بن اسحاق[١] والجوهري[٢] وغيرهما ، وهي أن يأتي إلى الجملة فيحصل معناها في ذهنه ثم يعبر عنها من اللغة الأخرى بجملة تطابقها سواء ساوت الألفاظ أم خالفتها ، ويؤكد السيوطي أن هذه الطريقة أجود من سابقتها ، ولهذا لم تحتج كتب حنين بن اسحاق إلى تهذيب إلا في العلوم الرياضية لأنه لم يكن قيماً بها بخلاف كتب الطب والمنطق والطبيعي والإلهي فإن ما عربه بها لم يحتج إلى اصلاح[٣] وأياً ما كانت نوع الترجمة التي ذكرها السيوطي فقد كان كلاهما شراً وبلاءً على أمة الإسلام حيث تسببت في تفرقها وتخربها وأبعدت الكثر من المسلمين ع منهج الحق والصواب .

رابعاً : موقفه من المنطق الصوري : وجهت إلى الجلال السيوطي تهمة جهله بالمنطق ، ومن ثم فلا يحق له ادعاء وصوله إلى رتبة الاجتهاد لأنه - كما كان يُعتقد في عصره أن من شروط الاجتهاد معرفة فن المنطق[٤] وهنا يؤكد السيوطي أنه يعرف أصول المنطق وقواعده ، وما بنيت عليه ، وما يتولد منها معرفة ما وصل إليها شيوخ المناطقة في عصره إلا شيخه العلامة محي الدين الكافيجي فقط[٥] . وأنه لم يشتغل بالمنطق إلا لإعتقاده بحرمته التي نص عليها الأئمة من قبله كالشافعي وابن الصلاح والنووي وابن تيمية وغيرهم ، ولذلك لم يشتغل به بل اشتغل بهدمه وذمه ، ومن ثم وضع السيوطي كتاباً في تحريم الاشتغال بالمنطق منذ عام (٨٦٨هـ) سماه " القول المشرق في تحريم الاشتغال بالمنطق "[٦] .

ويؤكد السيوطي انه علم مبتدع وضعه ارسطا طاليس الذي قرر فيه أن في كل نوع حصة من جنسه ، وأن الإنسان يشاركه الكلب وغيره من الحيوانات في الحيوانية كما يؤكد السيوطي - متفقاً في ذلك مع غيره من أئمة السلف - أن أول من خلط المنطق بأصول المسلمين هو أبو حامد الغزالي ، وقد تكلم فيه- أي الغزالي - علماء المسلمين بما يطول ذكره ، ولم يكن أحد من نظار المسلمين قبل الغزالي يلتفتون إلى طريقة المنطقيين بل الأشعرية والمعتزلة والكرامية والشيعة وسائر طوائف المسلمين كانوا يعيبونها ويثبتون فسادها .

وكذلك الصحابة - رضي الله عنهم - والتابعون واتباعهم لم يرد عنهم فيه التصريح بشئ لكونه لم يكن موجوداً في زمنهم ، وإنما حدث في أواخر القرن الثاني ، وكان الإمام الشافعي - رحمه الله - حياً إذ ذاك فتكلم فيه حيث قال : ما جهل الناس ولا اختلفوا إلا لتركهم لسان العرب وميلهم إلى لسان ارسطا طاليس "[٧] ويفهم من كلام الشافعي - على حد

---

(١) أبو زيد ، حنين بن اسحاق ت (٢٦٠هـ-٨٧٣م) ، وقيل (٢٦٤هـ-٨٧٧م) وهو رأس مدرسة الترجمة المشهورة ، ولبرجستر آسر بحث طريف عنه وعن مدرسته .

(٢) العباس بن سعيد الجوهري ، فلكي منجم عالم بالأرصاد وآلاتها ، وكان في صحبة المأمون وهو مولاه ، وكان من أكابر المهندسين والحساب (أدب الجاحظ ص٧٤ تعليق رقم (٢)) .

(٣) انظر : صون المنطق (٩-١٠) .

(٤) أول من نادى بهذا - فيما يرجح - أبو حامد الغزالي - مقدمة المستصفى في أصول الفقه (١/١٠) .

(٥) انظر : صون المنطق (ص٢) . وقد مضت ترجمته في فصل شيوخه .

(٦) انظر : السابق نفسه ، حسن المحاضرة (١/٣٤٠) . وهو مطبوع ضمن الحاوي للفتاوى (٢/٢٥٥) .

(٧) صون المنطق (ص١٤-١٦) .

قول السيوطي – أن من أراد تخريج القرآن والسنة والشريعة على مقتضى قواعد المنطق لم يصب غرض الشرع ألبته ، فإن كان في الفروع نُسب إلى الخطأ ، وإن كان في الأصول نسب إلى البدعة ، وهذا أعظم دليل على تحريم فن المنطق لأنه كان سبباً في الإحداث والابتداع ومخالفة السنة ومخالفة غرض الشارع[١] . وسيأتي إن شاء الله مزيد من التفصيل في هذا عند بيان موقف السيوطي من المنطق وعلم الكلام في الفصل الثالث من هذا الباب .

المبحث الثاني منزلة العقل عند السيوطي :

تستخدم كلمة " عَقَلَ " ومشتقاتها في اللغة العربية بمعان متعددة أصلها واحد وهو : حُبْسَة في الشئ أو ما يقارب الحُبسة أو الإمساك أو الاستمساك[٢] . وهو ملكة معنوية وليست شيئاً حسياً ، بها يتميز الانسان عن غيره من سائر المخلوقات ، هذه المملكة تمنع صاحبها عما لا يليق فعله وتزجره عنه ، تكشف لصاحبها عواقب الأمور فبها جماع الأمر والرأي ، وتدعوه للتثبت في أموره .

وقد عنى علماء الشريعة عند حديثهم عن التكليف ومقاصد الشريعة ومكارمها بالحديث عن العقل وأنواعه وأسمائه ، ومن هنا كان اهتمام السيوطي بالحديث عن العقل .

لكن أول ما يبدأ السيوطي تأكيده فيما ينقله من كلام أهل السنة أن الله تعالى أسس دينه وبناه على الإتباع وقبوله بالعقل . فمن الدين معقول وغير معقول[٣] ، والاتباع في جميعه واجب[٤] ، ويقرر فيما ينقله أيضاً عن بعض أهل السنة : أن الله تعالى لا يعرف بالعقل ، ولا يعرف أيضاً مع عدم العقل[٥] ، ومعنى هذا أن الله تعالى هو الذي يعرف العبد ذاته ، فيعرف الله تعالى بالله لا بغيره فالمعرفة الصحيحة التامة إنما تكون بالوحي .أما المعرفة بمجرد العقل فلاتكون معرفة تامة .

ونظير هذا أن الولد لا يكون مع فقد الوطء ، ولا يكون بالوطء بل يكون بإنشاء الله تعالى ، وخلقه ، وكذلك لا يكون الزرع إلا في أرض وببذر وماء ، ولا يكون بذلك بل يكون بقدرة الله تعالى وإنباته ومشيئته جل وعلا . فالله جل وعلا هو المعرف ذاته لعباده ، إلا أنه إنما يفهم العبد تلك المعرفة ويتلقاها بعقله إذ العقل مناط التكليف وهو سبب الإدراك والتمييز والله تعالى يعطي العبد المعرفة بهدايته وتوفيقه إلا أنه لا يحصل ذلك للعبد مع فقد العقل . وإنما أعطيناه لإقامة

---

(١) نفسه .

(٢) انظر : الجوهري : الصحاح (١٧٦٩/٥) ، معجم مقاييس اللغة (٦٩/٤-٧٤) ، لسان العرب (٤٥٨/١١-٤٦٦) ، الجرجاني : التعريفات (ص١٩٦-١٩٨) ، الكليات للكفوى (٢١٦/٣- ٢٢٠) .

(٣) قوله : " معقول وغير معقول " يعني بالمعقول : أي المفهوم المعنى والمغزي ، والذي يمكن معرفة الحكمة من شرعيته ، ومثاله قول النبي – صلى الله عليه وسلم – لا يبولن أحدكم في الماء الدائم الذي لا يجري ثم يغتسل فيه " ، البخاري رقم (٢٣٩) والحكمة من ذلك مفهومة وهي أن البول في الماء الدائم ينجسه سيما إذا كان قليلاً ولا فرق في حصول النجاسة للماء بين أن يبول فيه مباشرة وبين أن يبول في إناء ثم يصبه فيه ، فالعلة واحدة في الحالتين وهي مفهومة ومعقولة ، أما الأشياء غير المعقولة المعنى كجعل صلاة الصبح ركعتين ، والظهر أربعاً ، والمغرب ثلاثاً ، فهو أمر لا تفهم الحكمة من شرعيته ، ومثله الطواف حول الكعبة ، وجعل الطواف سبعاً ، وكذلك السعي ، ورمي الجمار كلها من هذا الباب وهو الذي يعبر عنه الفقهاء بقولهم هو أمر تعبدي بمعنى يجب الخضوع له وامتثاله من المؤمن وإن لم يدرك المعنى منه ، ولذلك قال السيوطي : " والاتباع في جميعه واجب " صون المنطق (ص١٧٩) .

(٤) انظر : صون المنطق (ص١٧٩) .

(٥) انظر : نفسه (ص١٨٠) ، نقله عن أبي المظفر السمعاني .

العـبودية لا لإدراك الـربوبية ، فمن شَغَل ما أعطى لإقامة العبودية بإدراك الربوبية فاتته العبودية ولم يدرك الربوبية[١] . ومعـنى هذا أن العقل هو آلة التمييز بين القبيح والحسن ، والسنة والبدعة ، والرياء والإخلاص ، فهو وسيلة الاجتهاد في معـرفة وفهم معاني نصوص الوحي (الكتاب والسنة) وتطبيق أحكامه ، ولولاه أي : العقل لم يكن تكليف ولا توجه أمر ولا نهـي ، فـإذا استعمله على قدره ، ولم يجاوز به حده أداه ذلك إلى العبادة الخالصة ، والثبات على السنة ولذلك قيل : العقـل مدبر يدبر لصاحبه أمر دنياه وعقباه ، فأول تدبيره الإشارة إلى المدبر الصانع جل وعلا ، ثم إلى معرفة النفس ، ثم يشـير إلى صـاحبه بالخضوع والطاعة لله والتسليم لأمره والموافقة له . فالعاقل إذاً من عقل عن الله تعالى أمره ونهيه ، والعـاقل يحـتاج كل وقت إلى توفيق من الله تعالى تفضلاً منه جل وعلا ، ولو لم يكن كذلك لكان العقلاء مستغنين عن الله تعـالى بـالعقل فيـرتفع عنهم الخوف والرجاء ، ويصيرون آمنين من الخذلان وهذا تجاوز عن درجة العبودية وتعد عنها ومحـال من الأمر . إذ ليس من الحكمة أن ينزل الله تعالى أحداً غير منزلته ، فإذا أغنى عبيده عن نفسه ، فقد أنزلهم غير منزلـتهم ، ولو كان هذا هكذا لاستوى الخلق والخالق في معنى من معاني الربوبية ، والله تعالى ليس كمثله شئ في جميع المعاني[٢] .

ولعـل فـي تقريـر السيوطي لمنزلة العقل عنده ، رداً على المعتزلة الذين رفعوا العقل إلى منزلة غير صحيحة فقدموه على الشرع ، وقد وصمهم أهل السنة لذلك بالابتداع ، وجعلوا فصل ما بينهم وبين المبتدعة هو مسألة العقل [٣] ، إذ أسسوا دينهم على المعقول ، وجعلوا الاتباع والمأثور تبعاً للمعقول أما أهل السنة فأصل الدين عندهم الاتباع والعقول تبع ، ولو كان أساس الدين على المعقول لاستغنى الخلق عن الوحي وعن الأنبياء – صلوات الله وسلامه عليهم – ، ولبطل معنى الأمر والنهي .

ومن هنا يتضح لنا ما تبناه السيوطي ناقلاً ومؤكداً من أن العقل له حدود مرسومة لا ينبغي أن يتخطاها أو يتعداها " فديـن المسـلمين مبني على اتباع كتاب الله وسنة رسوله وما اتفقت عليه الأمة ، فهذه الثلاثة هي أصول معصومة ، وما تـنازعت فيه الأمة ردوه إلى الله والرسول "[٤] فدور العقل أن يتلقى عن الرسالة الوحي ، ووظفيته أن يفهم ما يتلقاه عن الرسـول – صـلى الله عليه وسلم – ومهمة الرسول أن يبلغ ويبين ويستنقذ الفطرة الإنسانية مما يرين عليها من الركام ، وينـبه العقل الإنساني إلى تدبر دلائل الهدى وموجبات الإيمان في الأنفس والآفاق ، وليس دور العقل أن يكون حاكماً على الديـن ومقـرراته من حيث الصحة والبطلان ، والقبول أو الرفض بعد أن يتأكد من صحة صدورها عن الله تعالى أو عن رسوله – صلى الله عليه وسلم – وبعد أن يفهم المقصود بها : أي المدلولات اللغوية والاصطلاحية للنص[٥] .

المبحث الثالث : الأدلة العقلية

---

(١) انظر : صون المنطق (ص١٨٠) .

(٢) أنظر : نفسه (ص١٨١) .

(٣) تجدر الإشارة إلى أنه ليس فصل ما بين أهل السنة والمبتدعة العقل فقط : فتقديم العقل على النقل بالنسبة للمتكلمين ، وتقديم الكشف والذوق والأهواء بالنسبة للصوفية ، وتقديم الغلو في آل البيت بالنسبة للرافضة ، والغلو في مرتكب الكبيرة بالنسبة للخوارج .

(٤) ابن تيمية : درء تعارض العقل والنقل (٢٧٢/١) .

(٥) انظر : سيد قطب : في ظلال القرآن (٨٠٦/٢-٨٠٧) .

يؤكد السيوطي أن الأصوليين قد اعتنوا بما في القرآن من الأدلة العقلية ، مثل قوله تعالى : (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا...)[١] وقوله تعالى : (أم خلقوا من غير شئ أم هم الخالقون . أم خلقوا السموات والأرض بل لا يوقنون)[٢] إلى غيـر ذلـك مـن الآيات الكثيرة ، فاستنبطوا منه أدلة على وحدانية الله تعالى ووجوده ، وأوليته ، وبقائه ، وقدرته ، وعلمه ، وتـنزيهه عما لا يليق به ، وسموا هذا العلم بأصول الدين[٣] ، وأما الجدل فقد حوت آياته من البراهين والمقدمات والنتائج والقـول بالموجب والمعارضة ، وغير ذلك شيئاً كثيراً ، ومناظرة إبراهيم – عليه السلام – نمرود ومحاجته قومه أصل في ذلك عظيم[٤] .

كمـا يقرر السيوطي أنه ما من برهان أو دلالة أو تقسيم أو تحديد يبنى من كليات المعلومات العقلية والسمعية إلا وكتاب الله قد نطق به ، لكن أورده على عادة العرب دون تفاصيل وتفريعات طرق المتكلمين ، وذلك لأمرين :

<u>أحدهما :</u> بسبب ما قاله الله تعالى : (وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم...)[٥] .

<u>الـثاني :</u> أن المائل إلى دقيق المحاجة هو العاجز عن إقامة الحجة بالجليل من الكلام ، فإن من استطاع أن يفهم بالأوضح الـذي يفهمه الأكثرون لم ينحط إلى الأغمض الذي لا يعرفه إلا الأقلون ، ولم يكن ملغزاً ، فأخرج تعالى خطابه للعقول في محاجة خلقه في أجلى صورة ليفهم العامة من جليلها ما يقنعهم ويلزمهم الحجة ، وتفهم الخواص من أثنائها ما يربى على ما أدركه فهم الخطباء[٦] .

وكـثيراً مـا يوجـد في كتاب الله تعالى من القضايا القياسية التي تحتوي على مقدمات صادقة يستنتج منها نتائج صحيحة .

فقد ذكر أهل العلم – على سبيل المثال لا الحصر – أن من أول سورة الحج إلى قوله تعالى : (وأن الله يبعث من في القبور)[٧] أربع نتائج تستنتج من ثمان مقدمات . وتطبيق ذلك على النحو التالي :

١- قولـه تعالى : (ذلك بأن الله هو الحق...)[٨] لأنه قد ثبت عندنا بالخبر المتواتر أنه تعالى أخبر بزلزلة الساعة معظماً لها ، وذلك مقطوع بصحته ، لأنه خبر أخبر به من ثبت صدقه عمن ثبتت قدرته جل وعلا ، منقول إلينا بالتواتر ، فهو حق ولا يخبر بالحق عما سيكون إلا الحق ، فالله هو الولي وهو الحق[٩] .

---

(١) سورة الأنبياء ، بعض الآية (٢٢) .
(٢) سورة الطور الآيتان (٣٥،٣٦) .
(٣) انظر : معترك الأقران (١/١٥) .
(٤) انظر : نفسه (١/١٧-١٨) .
(٥) سورة إبراهيم – عليه السلام – ، بعض الآية (٤٠) .
(٦) انظر : السيوطي : معترك الأقران (١/٣٤٦) .
(٧) سورة الحج ، بعض الآية (٧) .
(٨) سورة الحج ، بعض الآية (٦) .
(٩) انظر : معترك الأقران (٣٤٦-٣٤٧) .

٢- أخبر الله تعالى أنه يحي الموتي ، لأنه تعالى أخبر عن أهوال الساعة بما أخبر ، وحصول فائدة هذا الخبر موقوفة على إحيــاء الموتى ليشاهدوا تلك الأهوال التي يعلمها الله من أجلهم وقد ثبت أنه تعالى قادر على كل شئ ، ومن الأشياء إحياء الموتى ، فهو تعالى يحي الموتى .

٣- وأخــبر تعالى أنه على كل شئ قدير ، لأنه أخبر أنه من يتبع الشيطان ، ومن يجادل في الله بغير علم يذقه من عذاب السعير ، ولا يقدر على ذلك إلا من هو على كل شئ قدير ، فهو على كل شئ قدير .

٤- وأخبر تعالى أن الساعة آتية لا ريب فيها ، لأنه أخبر بالخبر الصادق أنه خلق الإنسان من تراب إلى قوله : (...لكيلا يعــلم مــن بعد علم شيئاً...)[1] وضرب لذلك مثلاً بالأرض الهامدة التي ينزل عليها الماء ، فتهتز وتربو ، وتنبت من كل زوج بهيج ، ومن خلق الإنسان على ما أخبر به ، فأوجده بالخلق ثم أعدمه بالموت ، ثم يعيده بالبعث ، وأوجد الأرض بعد العدم فأحياها بالخلق ، ثم أماتها بالمحل ، ثم أحياها بالخصب ، وصدق خبره في هذا كله بدلالة الواقع المشاهد على المتوقع الغــائب حتى انقلب الخبر عياناً ، هذا يسمى عند الأصوليين قياس الغائب على الشاهد . وقد صدق بذلك خبره في الإتيان بالساعة ولا يأتي بالساعة إلا من يبعث من في القبور ، لأنها عبارة عن مدة تقوم فيها الأموات للمجازاة ، فهي آتية لا ريب فيها ، وهو سبحانه يبعث من في القبور[2] .

ولا يقــف الأمــر عند هذا الحد ، بل هناك ضروب من الأقيسة ذكرت في القرآن الكريم يستدل منها على أمور كــثيرة مــنها المعاد الجسماني ، ليتأكد بها أن القرآن الكريم معجزة عقلية كما قال السيوطي ، وهذه الأقيسة التي تدل على صدق وصحة المعاد الجسماني هي على النحو التالي :

أولاً : قيــاس الإعــادة عــلى الابتداء ، ودليله قوله تعالى : (...كما بدأكم تعودون)[3] قال ابن ابي نجيح عن مجاهد : " يحييكــم بعد موتكم "[4] وقال الحسن البصري : " كما بدأكم في الدنيا كذلك تعودون يوم القيامة أحياء)[5] وقال قتادة : " بدأ فخلقهم ولم يكونوا شيئاً ، ثم ذهبوا ، ثم يعيدهم "[6] وقال عبدالرحمن ابن زيد بن أسلم : " كما بدأكم أولاً كذلك يعيدكم آخراً "[7] واختار هذا القول في معنى الآية ابن جرير - رحمه الله - وأيده بما رواه من حديث سفيان الثوري وشعبة بن الحجاج كلاهما عن المغيرة بن النعمان عن سعيد بن جبير عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال : قام فينا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بموعظة فقال : " يا أيها الناس إنكم تحشرون إلى الله حفاة عراة غرلا[8] ، كما بدأنا أول خلق نعيده وعداً

---

(١) سورة الحج ، بعض الآية (٥) .
(٢) معترك الأقران (١/٣٤٦-٣٤٧) .
(٣) سورة الأعراف ، بعض الآية (٢٩) .
(٤) ابن جرير : جامع البيان (٨/١٥٨) وابن كثير (٣/٣٩٨) .
(٥) ابن جرير : جامع البيان (٨/١٥٧) ، وابن كثير : تفسير القرآن العظيم (٣/٣٩٩) .
(٦) نفس المصدرين السابقين .
(٧) جامع البيان (٨/١٥٨) ، وتفسير القرآن العظيم (٣/٣٩٩) .
(٨) جمع أغرل وهو الذي لم يختن .

علينا إنا كنا فاعلين "[١] وفي قوله تعالى : (كما بدأنا أول خلق نعيده...)[٢] أي نعيد أول الخلق كما بدأناه تشبيهاً للإعادة بالابتداء[٣] ، فالله سبحانه وتعالى يعدم الأجسام بالكلية ثم إنه يوجدها بعينها مرة أخرى ، وهذه الآية دلالة عليه لأنه سبحانه شبه الإعادة بالابتداء ، ولما كان الابتداء ليس عبارة عن تركيب الأجزاء المتفرقة بل عن الوجود بعد العدم وجب أن يكون الحال في الإعادة كذلك[٤] .

__ثانياً :__ قياس الإعادة على خلق السموات والأرض ويسمى قياس الأولى ، وذلك في مثل قوله تعالى : (أوليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم)[٥] فالآية الكريمة تنبيه على قدرة الله تعالى العظيمة في خلق السموات السبع بما فيها من الكواكب السيارة والثوابت ، والأرضين السبع وما فيها من جبال ورمال ، وبحار وقفار ، وما بين ذلك ، مرشدة إلى الاستدلال على إعادة الأجساد بخلق هذه الأشياء العظيمة كما قال جل وعلا : (لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون)[٦] ، وقوله تعالى : (أو ليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم...)[٢] أي مثل البشر ، فيعيدهم كما بدأهم[٧] .

__ثالثاً :__ قياس الإعادة على احياء الأرض بعد موتها بالمطر والنبات "[٨] قال تعالى : (...وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت ، وانبتت من كل زوج بهيج)[٩] يقول ابن كثير : " هذا دليل آخر على قدرته تعالى على إحياء الموتى ، كما يحي الأرض الميتة الهامدة وهي القحلة التي لا نبت فيها ولا شئ ... فإذا أنزل الله عليها المطر (اهتزت) أي تحركت بالنبات وحييت بعد موتها "[١٠] .

__رابعاً :__ قياس الاعادة على إخراج النار من الشجر الأخضر قال تعالى : (وضرب لنا مثلاً ونسى خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم . الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون)[١١] .

---

(١) متفق عليه – رواه البخاري في " صحيحه " كتاب الأنبياء (٦٠) باب (٨) رقم (٣٣٤٩)، الفتح (٣٨٦/٦) ، باب (٤٨) رقم (٣٤٤٧) الفتح (٤٧٨/٦) ، ورواه البخاري أيضاً في "صحيحه " كتاب التفسير (٦٥) تفسير سورة المائدة (٥) باب (١٤) رقم (٤٦٢٥) ، الفتح (٢٨٦/٨) .
ورواه مسلم في " صحيحه " كتاب الجنة (٥١) باب (١٤) رقم {٥٦-(٢٨٥٩)} ، ورقم {٥٨-(...)} . صحيح مسلم (٢١٩٤/٤) ، ورواه الترمذي – كتاب القيامة (٣) ، والنسائي – كتاب الجنائز (١١٨-١١٩) ، ابن ماجة – كتاب الزهد (٣٣) والدارمي – كتاب الرقاق (٨٠،٨٣) وأحمد في " المسند " (٣٩٨/٨،٢٥٣،٢٣٥،٢٢٣،٢٢٠) ، (٩٠/٦،٥٣) .

(٢) سورة الأنبياء – عليهم السلام – بعض الآية (١٠٤) .

(٣) انظر : الرازي : التفسير الكبير (٢٢٨/٢٢) .

(٤) انظر : نفسه (٢٢٩/٢٢) .

(٥) سورة يس ، الآية (٨١) .

(٦) سورة غافر ، الآية (٥٧) .

(٧) انظر : ابن جرير (٣٢/٢٣) وابن كثير (٥٨٢/٦) ، معترك الأقران (٣٤٨/١) .

(٨) معترك الأقران (٣٤٨/١) .

(٩) سورة الحج بعض الآية (٥) .

(١٠) تفسير القرآن العظيم (٣٩٣/٥) .

(١١) سورة يس الآية (٧٨) .

فذكـــر سبحانه الاستدلال برد النشأة الأخرى إلى الأولى والجمع بينهما بعلة الحدوث[١] ، ثم زاد في الحجاج بقوله تعـــالى : (الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً) وهذه في غاية البيان في رد الشئ إلى نظيره والجمع بينهما من حيث تبديل الأعراض عليها[٢] .

خامســاً : فـــي قولـــه تعالى : (واقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت بلى وعداً عليه حقاً ولكن أكثر الناس لا يعـــلمون . ليـــبين لهـــم الذي يختلفون فيه وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين)[٣] وتقرير هاتين الآيتين هو أن اختلاف المختلفين في الحق لا يوجب انقلاب الحق في نفسه ، وإنما تختلف الطرق الموصلة إليه ، والحق في نفسه واحد ، فلما ثبت أن هاهـــنا حقيقـــة موجـــودة لا محالـــة ، وكان لا سبيل لنا في حياتنا إلى الوقوف عليها وقوفاً يوجب الائتلاف ويرفع عنا الاخـــتلاف ، إذ كـــان الاخـــتلاف مركوزاً في فطرنا ، وكان لا يمكن ارتفاعه وزواله إلا بارتفاع هذه الجبلة ، ونقلها إلى صـــورة غيرها، صح ضرورة أن لنا حياة أخرى غير هذه الحياة ، فيها يرتفع الخلاف والعناد ، وهذه هي الحالة التي وعد الله تعـــالى بالمصير إليها[٤] ، فقال جل وعلا : (ونزعنا ما في صدورهم من غل إخواناً على سرر متقابلين)[٥] فقد صار الخلاف الموجود كما ترى أوضح دليل على كون البعث الذي ينكره المنكرون[٦] .

وهناك أنواع أخرى من الأقيسة العقلية ، وهي طرق شرعية أيضاً وردت في الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ، قد تكون من المصطلح عليه في علم البحث والمناظرة . ذكر السيوطي منها ما يلي :

١- **مجاراة الخصم :** والغرض من مجاراة الخصم هو تبكيته وإلزامه عن طريق التسليم ببعض مقدماته وأقواله ، ثم إيراد أقوال أخرى ثبت صحتها وهي على خلاف ما يقوله الخصم فيعثر[٧] .

أورد الســـيوطي عليه مثالاً فذكر قوله تعالى : (...قالوا إن أنتم إلا بشر مثلنا تريدون أن تصدونا عما كان يعبد ءاباؤنـــا فأتونا بسلطان مبين . قالت لهم رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم ولكن الله يمن على من يشاء من عباده...)[٨] فقوله تعالى : (...إن نحن إلا بشر مثلكم...) فيه اعتراف الرسل بكونهم مقصورين على البشرية ، فكأنهم سلموا انتفاء الرسالة عـــنهم ، وليس مراداً ، بل هو من مجاراة الخصم ليعثر ، فكأنهم قالوا : ما ادعيتم من كوننا بشراً حق لا ننكره ، ولكن هذا لا ينافي أن يمن الله علينا بالرسالة[٩] .

---

(١) انظر : معترك الأقران (٣٤٨/١) .
(٢) نفسه .
(٣) سورة النحل الأيتان (٣٨،٣٩) .
(٤) انظر : معترك الأقران (٣٤٨/١) .
(٥) سورة الحجر الآية (٤٧) .
(٦) انظر : معترك الأقران (٣٤٨/١) .
(٧) انظر : معترك الأقران (٣٤٩/١) .
(٨) سورة سيدنا إبراهيم – عليه السلام – بعض الآية (١٠) وبعض الآية (١١) .
(٩) انظر : معترك الأقران (٣٤٩/١) .

وقد استخدم جلال الدين السيوطي هذا النوع من الجدل في ميدان الفقه أكثر من غيره من الفنون ، وحاول به أن ينصر رأيه ومذهبه الفقهي في بعض مسائل الصلاة والوضوء والصيام ، ويناقش فيها أصحاب المذاهب الفقهية المخالفة لمذهبه فيقول تحت عنوان " منصب ميدان جدلي " :

" المجادلون في هذا الزمان كثير خصوصاً في هذه المسألة - أي مسألة قراءة البسملة في الصلاة - وأكثرهم ليس لهم معرفة بطرق الاستدلال ، فالكلام معهم ضائع ، غير أني أنظر الذي يجادل وأكلمه بطريق يقرب من ذهنه ، فإنه اكثر ما عنده أن يقول : الذي ثبت في صحيح مسلم يدل على خلاف ما تقول ، فإن كان المجادل من أهل مذهبنا شافعي المذهب أقول له قد ثبت في صحيح مسلم أنه - صلى الله عليه وسلم - لم يقرأ في الصلاة (بسم الله الرحمن الرحيم)[١] وأنت لا تصحح الصلاة بدون البسملة وثبت في الصحيح أنه - صلى الله عليه وسلم - قال : " إنما جعل الإمام ليؤتم به فلا تختلفوا عليه فإذا ركع فاركعوا ، وإذا رفع فارفعوا ، وإذا قال : سمع الله لمن حمده فقولوا : ربنا لك الحمد ، وإذا صلى جالساً فصلوا جلوساً "[٢] وفي رواية : " ...وإن صلى قاعداً فصلوا قعوداً "[٣] وأنت إذا قال : سمع الله لمن حمده ، تقول : سمع الله لمن حمده مثله ، وإذا صلى جالساً بعذر ، وأنت قادر تصلي خلفه قائماً لا جالساً ، وثبت في الصحيحين في حديث التيمم : إنما يكفيك أن تقول بيدك هكذا ثم ضرب بيده ضربة واحدة ومسح الشمال على اليمين وظاهر كفيه ووجهه ، وأنت (أي المتمذهب بالمذهب الشافعي) لا تكتفي في التيمم بضربة واحدة ولا بالمسح إلى الكوعين ، فكيف خالفت الأحاديث التي ثبتت في الصحيحين أو أحدهما ؟ فلا بد إن كان عنده رائحة من العلم أن يقول : قامت أدلة أخرى معارضة لهذه فقدمت عليها ، فأقول له : وهذا مثله لا يحتج عليه إلا بهذه الطريقة فإنها ملزمة له ولأمثاله "[٤] وقد استخدم السيوطي هذه الطريقة في الجدال الفقهي مع بعض المنتسبين إلى المذاهب الفقهية الأربعة الشافعي ، والمالكي والحنفي ، والحنبلي ، وغيرهم وصولاً بهم إلى ما يراه حقاً وصواباً .

<u>٢- السبر والتقسيم :</u> وهذا النوع من القياس من الأنواع المصطلح عليها في علم الجدل ، وذكر السيوطي له مثالاً من القرآن الكريم وهو قوله تعالى : (ثمانية أزواج من الضأن اثنين ومن المعز اثنين قل ءالذكرين حرم أم الأنثيين أما اشتملت عليه أرحام الأنثيين نبئوني بعلم إن كنتم صادقين . ومن الابل اثنين ومن البقر اثنين قل ءالذكرين حرم أم الأنثيين أما اشتملت عليه أرحام الأنثيين أم كنتم شهداء إذ وصاكم الله بهذا فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً ليضل الناس بغير علم ، إن الله لا يهدي القوم الظالمين)[٥] فإن الكفار لما حرموا ذكور الأنعام تارة ، وإناثها تارة أخرى رد الله تعالى عليهم ذلك

---

(١) صحيح مسلم (١/٢٩٩) كتاب الصلاة (٤) باب (١٣) رقم (٥٢) ونصبه : عن أنس - رضي الله عنه - قال : " صليت خلف النبي - صلى الله عليه وسلم - وأبي بكر وعمر وعثمان ، فكانوا يستفتحون بالحمد لله رب العلمين لا يذكرون بسم الله الرحمن الرحيم في أول قراءة ولا في آخرها " ورواه النسائي - في " سننه " كتاب الافتتاح (٢٠) وأحمد (٣/٢٨٩،٢٨٦،٢٧٨،٢٧٣،٢٥٥،٢٢٣،٢٠٥،٢٠٣) .

(٢) صحيح مسلم (١/٣٠٩) كتاب الصلاة (٤) باب (١٩) رقم {٨٤-(٤١٣)} . ورواه البخاري في " صحيحه " كتاب المرضى (٧٥) باب (١٢) رقم (٥٦٥٨) الفتح (١٠/١٢٠) ، وفي كتاب الأذان (١٠) باب (٥١) رقم (٦٨٨) فتح (٢/١٧٣) ، رقم (٧٢٢) ، رقم (٧٣٤) .

(٣) السابق نفسه .

(٤) السيوطي مسالك الحنفا (ص٦١-٦٣) .

(٥) سورة الأنعام ، الآيتان (١٤٣،١٤٤) .

بطريق السبر والتقسيم ، وهو حصر الشئ في أمرين أو أكثر ، فإذا صح أحدهما بطل الآخر ، ومعنى الآيتين الكريمتين أن الله تعـالى يقول : إن الخلق لله عز وجل خلق من كل زوج مما ذكره الله تعالى ذكراً وأنثى ، فمم جاء تحريم ما ذكرتم ؟ ومـا علـته ؟ لا يخلو إما أن يكون من جهة الذكورة أو الأنوثة ، أو اشتمال الرحم الشامل لهما ، أو لا يدري له علة وهو التعبدي ، بأن أُخذ ذلك عن الله تعالى ، والأخذ عن الله إما بوحي أو إرسال رسول أو سماع كلامه ومشاهدة تلقي ذلك عنه وهو في معنى قوله تعالى : (...أم كنتم شهداء إذ وصاكم الله بهذا...)[١] فهذه وجوه التحريم لا تخرج عن وجه منها

الأول : يلزم عليه أن تكون جميع الذكور حراماً .

الثاني : يلزم عليه أن تكون جميع الإناث حراماً .

الـثالث : يـلزم عليه تحريم الصنفين معاً ، فبطل ما فعلوه من تحريم بعض في حالة ، وبعض آخر في حالة أخرى ، لأن العـلة عـلى ما ذكر تقتضي اطلاق التحريم ، والأخذ عن الله بلا واسطة باطل ولم يدعوه ، وبواسطة رسول كذلك لأنه لم يـأت إليهـم رسول قبل النبي محمد – صلى الله عليه وسلم – وإذا بطل جميع ذلك ثبت المدَّعَى ، وهو أن ما قالوه افتراء على الله تعالى وضلال[٢] .

٣- دليل التمانع : والغرض من هذا التمانع هو الاستدلال على أن صانع العالم وخالقه واحد لا شريك له ويقرر السيوطي هـذا الدليـل بقوله : " لأنه لو كان للعالم صانعان لكان لا يجري تدبيرهما على نظام ، ولا يتسق على إحكام ولكان العجز يلحقهما أو أحدهما ، وذلك لأنه لو أراد أحدهما إحياء جسم ، وأراد الآخر إماتته :

- فإما أن تنفذ إرادتهما فيتناقض ، لاستحالة تجزئ الفعل إن فرض الاتفاق أو لامتناع اجتماع الضدين إن فرض الاختلاف .

- وإما أن لا تنفذ إرادتهما فيؤدي إلى عجزهما .

- أولا تـنفذ إرادة أحدهما فيؤدي إلى عجزه والإله لا يكون عاجزاً "[٣] وهذا الدليل لا ريب أنه دليل صحيح ، وبرهان تام على إثبات امتناع صدور العالم عن اثنين[٤] ، ومن قال بعدم صحته فلا شك أنه قد أخطأ وجانب الصواب[٥] .

إلا أن السيوطي ينتزع هذا الدليل من قوله تعالى : (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا...)[٦] وهذا الاستدلال غير صحيح والآية الكريمة لا تدل عليه ، لأن الله تعالى قال : (لو كان فيهما آلهة...) ولم يقل : لو كان فيهما صانعان أو أكثر

---

(١) سورة الأنعام الآية (١٤٣) .

(٢) معترك الأقران (٣٤٩/١) ، وانظر : الرازي : التفسير الكبير (٢٢٧/١٣) .

(٣) معـترك الأقـران (٣٤٨،٣٤٩/١) وانظـر : الرازي : التفسير الكبير (١٤٩/٢٢-١٥٤) ، اللمح الأشعري (ص٨) والإنصاف للباقلاني (ص٣٠) ، والتمهيد له أيضاً (ص٤٦) ، الجويني : الارشاد (ص٥٣) ، الشهرستاني (نهاية الاقدام (٩١) .

(٤) انظر : ابن تيمية : درء تعارض العقل والنقل (٣٥٤،٣٥٥/٩) .

(٥) كابن رشد في " مناهج الأدلة " (ص١٥٧-١٥٨) ت.د.محمود قاسم .

(٦) سورة الأنبياء ، بعض الآية (٢٢) .

، و " آلهــة " جمع " إله " والإله هو المعبود والتأله التعبد ... ولا يكون إلهاً حتى يكون معبوداً ، وحتى يكون لعابده خالقاً ورازقاً ومدبراً وعليه مقتدراً ، فمن لم يكن كذلك فليس بإله ، وإن عُبد ظلماً ، بل هو مخلوق ومتعبد[١] .

وألِــهَ إلهــة : عَبَد عبادة ، والمتألِه المتعبِّد ، وبذلك سمى الإله ، وكان ابن عباس – رضي الله عنهما – يقرأ : (ويــذرك وإلاهتك)[٢] أي عبادتك[٣] . فالإله : الله تعالى ، وسمى بذلك لأنه معبود ، ويقال تأله الرجل ، إذا تعبد[٤] . وفي معــنى الآيــة الكريمة يقول ابن كثير : " ينكر تعالى على من اتخذ من دونه آلهة فقال : بل (اتخذوا آلهة من الأرض هم ينشــرون)[٥] أي : أهــم يحيون الموتى وينشرونهم من الأرض ؟ أي : لا يقدرون على شئ من ذلك فكيف جعلوها لله نداً وعــبدوها معه ؟ ثم أخبر تعالى أنه لو كان في الوجود آلهة غيره لفسدت السموات والأرض فقال : (لو كان فيهما آلهة) أي : فــي السماء والأرض (لفسدتا) كقوله تعالى : (ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذاً لذهب كل إله بما خلق ولعــلا بعضــهم على بعض سبحان الله عما يصفون)[٦] وقال هاهنا : (فسبحان الله رب العرش عما يصفون) أي : عما يقولون أن له ولداً أو شريكاً ، سبحانه وتعالى وتقدس وتنزه عن الذي يفترون ويأفكون علواً كبيراً "[٧] .

فهــذا هــو معــنى الآية ، ولكن السيوطي قرر ما درج عليه المتكلمون أو أغلبهم من أن الآية تقرر دليل التمانع لاعــتقادهم أن الإله هو القادر على الاختراع[٨] ، وقد صرح السيوطي بذلك فقال : " الإلهية : القدرة على اختراع الأعيان "[٩] وهذا ظاهر الخطأ كما قد قدمنا من معنى الإله ، والتأله هو الإلهية آنفاً من مصادر اللغة .

فالإله عند المتكلمين هو بمعنى الرب ، والآية على فهمهم يدل على انتفاء ربين فقط وذلك بتقدير امتناع الفعل من ربيــن على ما تقدم ذكره . فالآية تكون عندهم دلت على نفي الشرك في الربوبية فقط وهو مطلوب دليل التمانع بينما الآية قــد " دلت على ما هو أكمل وأعظم من هذا وأن اثبات ربين للعالم لم يذهب إليه أحد من بني آدم ... ولكن الاشراك الذي وقع في العالم إنما وقع في الإلهية بعبادة غير الله تعالى واتخاذ الوسائط ودعائها والتقرب إليها ... فأما اثبات خالقين للعالم متماثــلين فــلم يذهب إليه أحد من الآدميين ، وقد قال تعالى : (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله)[١٠] والرسل دعو الخلق إلى توحيد الإلهية ، وذلك متضمن لتوحيد الربوبية كما قال كل منهم لقومه : (اعبدوا الله ما لكم من إله غيــره...)[١١] وإلا فمجرد توحيد الربوبية قد كان المشركون يقرون به ، وذلك وحده لا ينفع ، وهؤلاء الذين يريدون تقرير

---

(١) انظر : الأزهري : تهذيب اللغة (٤٢٢،٤٢٣،٤٢٤/٦) .

(٢) سورة الأعراف ، بعض الآية (١٢٧) .

(٣) انظر : ابن فارس : مجمل اللغة (١٠١/١) ط١ مؤسسة الرسالة .

(٤) انظر : ابن فارس : معجم مقاييس اللغة (١٢٧/١) ، وانظر : اشتقاق اسماء الله ، لأبي القاسم الزجاجي ت.د.المبارك (ص٢٣) ، تفسير أسماء الله الحسنى لأبي اسحاق الزجاج (ص٢٥،٢٦) ت. أحمد الدقاق .

(٥) سورة الأنبياء الآية (٢١) .

(٦) سورة المؤمنون الآية (٩١) .

(٧) تفسير القرآن العظيم (٣٣٠/٥) .

(٨) انظر : شرح الطحاوية (ص٧٨،٧٩) ، التوحيد لأبي منصور الماتريدي (ص٢٠،٢١) .

(٩) الكنز المدفون والفلك المشحون (ص٩٣) .

(١٠) سورة لقمان الآية (٢٥) .

(١١) سورة الاعراف ، بعض الآية (٥٩) .

الـــربوبية ... يظنون أن هذا هو غاية التوحيد ... وهذا من أعظم ما وقع فيه هؤلاء ... من الجهل بالتوحيد الذي بعث الله بـــه الرســـل وأنـــزل به الكتب "[1] فأدلتهم " وإن كانت صحيحة فلم تنازع في هذا التوحيد أمة من الأمم ، وليست الطرق المذكورة في القرآن هي طرقهم ، كما أنه ليس مقصود القرآن هو مجرد ما عرفوه من التوحيد "[2] وعلى هذا فالفرق كبير بين مطلوب الآية ، ومطلوب دليل التمانع ، فمطلوب الآية الكريمة : هو إثبات توحيد الإلهية بفساد العالم لو وجد من يستحق العــبادة مـــع الله أحـــد غير الله تعالى . بينما مطلوب دليل التمانع : هو إثبات توحيد الربوبية بفساد العالم لو وجد خالق آخر لـــلعالم[3] ، فالفرق بين المطلوبين فرق شاسع ، فكيف يصح القول بأن مطلوب الآية هو مطلوب دليل التمانع ؟ وهذا مأخذ على السيوطي .

٤- <u>التســـليم :</u> وهـــذا أيضاً من الأنواع المصطلح عليها في علم الجدل كما يقول السيوطي ، وقد يسمى التسليم الجدلي ، وعـــرفه الســـيوطي بقولـــه : " وهو أن يفرض المحال ، إما منفياً أو مشروطاً بحرف الامتناع ، ليكون المذكور ممتنع الوقـــوع لامتـــناع وقوع شرطه ، ثم يسلّم وقوع ذلك تسليماً جدلياً ، ويدل على عدم فائدة ذلك على تقدير وقوعه "[4] ويأتي الســـيوطي بمـــثال على ذلك وهو قوله تعالى : (ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذاً لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون)[5] والمعنى كما يقرره السيوطي : أنه ليس مع الله من إله ، ولو سُلِّم أن مع الله إلهاً لزم من ذلك التسليم ذهاب كل إله من الاثنين بما خلق ، وعلو بعضهم على بعض فلا يتم في العالم أمر ، ولا ينفذ حكم ولا تنتظم أحواله ، والواقع خلاف ذلك ، ففرض إلهين فصاعداً محال ، لما يلزم عليه من المحال[6] .

وممـــا يجـــدر ذكره أن العلامة ابن كثير يعتبر معنى الآية دليلاً على التمانع الذي ذكره السيوطي تحت آية سورة الأنـــبياء الـــتي ذكرنا أنها الآية لا تدل عليه ، بيد أن الدلالة هنا في هذه الآية أظهر من دلالة آية سورة الأنبياء ، يقول ابن كـــثير - رحمه الله - في ذلك : " ينزه تعالى نفسه عن أن يكون له ولد أو شريك في الملك ، فقال : (ما اتخذ الله من ولد ومـــا كان معه من إله إذاً لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض...)[7] أي : لو قدر تعدد الآلهة لانفرد كل منهم بمـــا خـــلق ، فمـــا كـــان ينتظم الوجود ، والمشاهد أن الوجود منتظم منسق ، كل من العالم العلوي والسفلي مرتبط بعضه بـــبعض فـــي غايـــة الكمال (ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت)[8] ثم لكان كل منهم يطلب قهر الآخر وخلافه فيعلو بعضهم على بعض ، والمتكلمون ذكروا هذا المعنى وعبروا عنه بدليل التمانع ، وهو أنه لو فرض صانعان فصاعداً ، فأراد واحـــد تحـــريك جســـم ، وأراد الآخر سكونه ، فإن لم يحصل مراد واحد منهما كانا عاجزين ، والواجب لا يكون عاجزاً ،

---

(١) ابن تيمية : درء تعارض العقل والنقل (٣٧٨/٩،٣٧٧،٣٤٨،٣٤٥،٣٤٤) .
(٢) السابق نفسه .
(٣) انظر : شرح الطحاوية (ص٧٦-٧٩) .
(٤) معترك الأقران (٣٥٠/١) .
(٥) سورة المؤمنون الآية (٩١) .
(٦) انظر : معترك الأقران (٣٥٠/١) .
(٧) سورة المؤمنون ، بعض الآية (٩١) .
(٨) سورة الملك ، بعض الآية (٣) .

ويمتـــنع اجتماع مراديهما للتضاد ، وما جاء هذا المحال إلا من فرض التعدد ، فيكون محالاً ، فأما إن حصل مراد أحدهما دون الآخر ، كان الغالب هو الواجب ، والآخر المغلوب ممكناً ، لأنه لا يليق بصفة الواجب أن يكون مقهوراً "[١] وذكر ابن جرير معنى الآية الكريمة نحو الذي ذكره ابن كثير ، ولكنه لم يذكر لفظ التمانع حيث قال : " إذاً لاعتزل كل إله منهم (بما خــلق) من شئ فانفرد به ، ولتغالبوا فلعلا بعضهم على بعض وغلب القوي منهم الضعيف لأن القوي لا يرضى أن يعلُوَه ضعيف ، والضعيف لا يصلح أن يكون إلهاً فسبحان الله ما أبلغها من حجة وأوجزها لمن عقل وتدبر "[٢] .

٥- القول بالموجب : وحقيقــته رد كلام الخصم من فحوى كلامه ، وهو قسمان :

أحدهمــا : أن تقــع صـــفة في كلام الغير كناية عن شئ أثبت له حكم ، فيثبتها ولكن لغير ذلك الشئ[٣] ، ومثاله الذي ذكره السـيوطي قوــله تعــالى : (يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المــنافقين لا يعــلمون)[٤] فالأعــز وقعــت في كلام المنافقين كناية عن فريق المؤمنين ، وأثبت المنافقون لفريقهم إخراج المؤمنين من المدينة ، فأثبت الله تعالى في الرد عليهم صفة العزة لغير فريقهم ، وهو الله ورسوله والمؤمنون ، وكأنه قيل : صحيح ذلك ليخرجن الأعز منها الأذل لكن المنافقين هم الأذل المخرَج ، والله ورسوله والمؤمنون هم الأعز المخرِج[٥] .

والثاني : حمل لفظ واقع في كلام الغير على خلاف مراده مما يحتمله بذكر متعلقه ، يقول السيوطي : " ولم أر من أورد له مــثالاً مــن القرآن ، وقد ظفرت بأية منه وهي قوله تعالى : (ومنهم الذين يؤذون النبي ويقولون هو أذن قل أذن خير لكم يؤمــن بالله ويؤمن للمؤمنين ورحمة للذين آمنوا منكم والذين يؤذون رسول الله لهم عذاب أليم)[٦] "[٧] . فلقد ذكر الله تعالى كلام المنافقين في رسوله – صلى الله عليه وسلم – وهم يؤذونه ويعيبونه فيخبرون عنه بأنه أذن سماعة لكل ما يقال لها ، فيصدقه ويقبله ، لكن الله تعالى دافع عن رسوله – صلى الله عليه وسلم – فقال : إنما هو أذن خير لا أذن شر (يؤمن بالله) يصدق بالله وحده لا شريك له ، (ويؤمن للمؤمنين) يقول : ويصدق المؤمنين لا الكافرين ولا المنافقين وهذا تكذيب من الله تعــالى للمــنافقين الذين قالوا : محمد أذن ، فقال الله تعالى : إنما محمد – صلى الله عليه وسلم – مستمع خير يصدق بالله وبمــا جاءه من عنده ويصدق المؤمنين لا أهل النفاق والكفر بالله وهو رحمة للذين آمنوا منكم ، جعله الله تعالى رحمة لمن اتــبعه واهتدى بهداه وصدق بما جاء به من عند ربه لأن الله تعالى استنقذهم به من الضلالة ، وأورثهم باتباعه جناته . أما الذين يؤذون رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بمثل هذا القول بالهجر والباطل فلهم عذاب من الله موجع لهم في نار جهنم[٨] .

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٥/٤٨٤) .
(٢) جامع البيان (١٨/٤٩) .
(٣) معترك الأقران (١/٣٥٠) .
(٤) سورة المنافقون الآية (٨) .
(٥) أنظر : معترك الأقران (١/٣٥٠) .
(٦) سورة التوبة الآية (٦١) .
(٧) معترك الأقران (١/٣٥٠) .
(٨) انظر : ابن جرير : جامع البيان (١٠/١٦٨-١٦٩) . وابن كثير : تفسير القرآن العظيم (٤/١١٠) .

٦- الانتقال : والمقصود به أن ينتقل المستدل إلى استدلال غير الذي كان آخذاً فيه ، لكون الخصم لم يفهم وجه الدلالة من الأول[١] ، ومـثل له السيوطي بقوله تعالى : (ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه أن آتاه الله الملك إذ قال إبراهيم ربي الـذي يحـي ويميت قال أنا أحيي وأميت ، قال إبراهيم فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذي كفـر والله لا يهدي القوم الظالمين)[٢] فإن إبراهيم – عليه السلام لما قال في مناظرته الجبار (ربي الذي يحيي ويميت) فقـال الجبار أنا أحيي وأميت ، ثم دعا بمن وجب عليه القتل فأعتقه ، ومن لا يجب عليه القتل فقتله ، فعلم الخليل – عليه السـلام – أنـه لم يفهم معنى الإحياء والإماتة لبلاهته وبلادة ذهنه ، أو أنه علم وغالط بهذا الفعل ، فانتقل الخليل – عليه السـلام – إلى اسـتدلال لا يجد له الجبار وجهاً يتخلص به منه فقال – عليه السلام – (فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فـأت بهـا من المغرب) فانقطع الجبار وبهت ، ولم يمكنه أن يقول : أنا الآتي بها من المشرق لأن من هو أكبر منه سناً يكذبـه[٣] . فـإن مـن هو أسن منه يقول له : فمن كان يأتي بالشمس من المشرق قبل أن تولد ؟ وقد يقال : إن خليل الله إبـراهيم – عـليه السـلام – انتقل إلى الدليل الثاني وهو الإتيان بالشمس من المغرب لكونه أوضح من الأول مع أن هذا الانـتقال قـد اعترض عليه العلامة ابن كثير – رحمه الله – ورجح أن اعتراض الجبار على دليل الخليل إبراهيم – عليه السـلام – كان جحوداً وعناداً وليس لكون الدليل غامضاً ، يقول ابن كثير : " ...فقال إبراهيم : (ربي الذي يحي ويميت) أي : الدليـل عـلى وجوده حدوث هذه الأشياء المشاهدة بعد عدمها ، وعدمها بعد وجودها ، وهذا دليل على وجود الفاعل المختار ضرورة ، لأنها لم تحدث بنفسها ، فلا بد لها من موجد أوجدها وهو الرب الذي أدعو إلى عبادته وحده لا شريك له ، فعـند ذلك قال المحاج – وهو النمرود – (أنا أحيي وأميت) قاله قتادة ومحمد بن اسحاق والسدي ، وغير واحد وذلك أنه أتي بالرجلين قد استحقا القتل فأمر بقتل أحدهما فقتل وأمر بالعفو عن الآخر فلا يقتل فذلك معنى الإحياء والإماتة[٤] .

والظاهـر – والله أعـلم – أنـه ما أراد هذا لأنه ليس جواباً لما قال إبراهيم ولا في معناه لأنه غير مانع لوجود الصـانع ، وإنما أراد أن يدعي لنفسه هذا المقام عناداً ومكابرة ، ويوهم أنه الفاعل لذلك ، وأنه هو الذي يحيي ويميت ... ولهـذا قـال له إبراهيم لما أدعى هذه المكابرة (فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب) أي إذا كنت كما تدعـي مـن أنك تحيي وتميت فالذي يحي ويميت هو الذي يتصرف في الوجود في خلق ذواته وتسخير كواكبه وحركاته ، فهذه الشمس تبدو كل يوم من المشرق فإن كنت إلهاً كما ادعيت تحيي وتميت فأت بها من المغرب فلما علم عجزه وانقطاعه ، وأنـه لا يقـدر على المكابرة في هذا المقام بهت ، أي أخرس فلا يتكلم ، وقامت عليه الحجة قال الله تعالى : (والله لا يهـدي القوم الظالمين) أي لا يلهمهم حجة ولا برهاناً ، بل حجتهم داحضة عند ربهم وعليهم غضب ولهم عذاب شديد "[٥]

ثم يقول ابن كثير : " وهذا التنزيل على هذا المعنى أحسن مما ذكره كثير من المنطقيين أن عدول إبراهيم عن المقام الأول

---

(١) انظر : معترك الأقران (٣٥١/١) .

(٢) سورة البقرة الآية (٢٥٨) .

(٣) انظر : معترك الأقران (٣٥٠/١) .

(٤) يعني : أن المحاج المعاند أراد أن يغالط فأوهم أن هذا هو معنى الإحياء والإماتة .

(٥) تفسير القرآن العظيم (٤٦٣/١) .

إلى المقام الثاني انتقال من دليل إلى أوضح منه ، ومنهم قد يطلق عبارة رديّة[١] ، وليس كما قالوه ، بل المقام الأول يكون كالمقدمـــة للـــثاني ويبين بطلان ما ادعاه نمروذ في الأول والثاني "[٢] هذه هي أنواع الأقيسة التي ذكرها السيوطي ضمن منهجه العلمي بجانبيه :

أولهمــــا : بجانـــبه الســـلبي المتمثل في هدمه المنطق الأرسطي والذي بين فيه أنه علم لا ينتفع به البليد ولا يحتاجه الذكي ووضح بجلاء أنه مقدمة الفلسفة وأساسها التي جرت على الأمة كثيراً من مبادئ الفساد والالحاد .

والثاني : جانبه الإيجابي المشتمل على أنوع متعددة من الأقيسة العقلية المنتزعة من كتاب الله تعالى وسنة رسوله – صلى الله عليه وسلم – والتي تدور في فلك الشرع ومحيط الدين ، بعيداً عن سفسطة الفلاسفة ، وغلو المتكلمين .

---

(١) أي : رديئة .

(٢) تفسير القرآن العظيم (٤٦٣/١) .

الفصل الثاني

موقفه من التأويل

المبحث الأول :

في بيان المحكم والمتشابه

قبل الكلام عن التأويل وبيان رأي السيوطي فيه ، يجدر بنا أن نتكلم عن قضية المحكم والمتشابه ، لتعلقها الوثيق بموضوع التأويل ، فلقد كانت هي المدخل الأساسي ، والذريعة الكبرى لتأويل نصوص الكتاب العزيز ، والسنة النبوية الشريفة ، ثم أصبح هذا التأويل بدوره قضية عظمى أسهمت بنصيب وافر في توسيع دائرة الخلاف بين مختلف الفرق والطوائف الإسلامية ، وسارت به قدماً إلى أبعد نتائجه خطورة ، ولم يكن وراء ذلك من دافع وغاية سوى انتصار كل فريق لمذهبه ، وتعصبه لرأيه ، ودفعه لخصمه عن الاحتجاج بالآية والحديث بدعوى أنهما من قبيل المتشابه الذي يجب — في زعم البعض — أن يصرف عن ظاهره بالتأويل .

فالإحكام والتشابه في الأساس وصفان يتعلقان بآيات القرآن الكريم ، لأنه تضمن آيات كريمة تصفه بأنه كله محكم ، وتضمن آيات أخرى وصفته بأنه كله متشابه وتضمن كذلك نوعاً ثالثاً من الآيات تصفه بأن بعضه محكم ، وبعضه متشابه[1] .

قال الله تعالى : (آلر كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير)[2] . وقال تعالى : (وما أرسلنا من قبلك من رسول و لا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته فينسخ الله ما يلقى الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم)[3] فقد أخبر الله عز وجل أن هذا الكتاب العزيز قد أُحكمت آياته ، وأنه تعالى هو الذي أحكمها وهو العليم الحكيم جل وعلا . كما وصفه تعالى بأنه الذكر الحكيم فقال سبحان وتعالى : (ذلك نتلوه عليك من الآيات والذكر الحكيم)[4] ووصفه أيضاً بأنه الكتاب الحكيم فقال جل شأنه : (آلر ، تلك آيات الكتاب الحكيم)[5] ووصفه أيضاً بأنه القرآن الحكيم فقال عز وتقدس : (يس {١} والقرآن الحكيم {٢})[6] فهذا إحكام يعم القرآن الكريم كله بجميع آياته[7] كما هو واضح وظاهر لا اشكال فيه .

---

(١) انظر : ابن تيمية : التدمرية (ص١٠٢) ، محمد الأمين الشنقيطي : مذكرة أصول الفقه (ص٦٣) ، محمد السيد الجليند ، الإمام ابن تيمية و موقفه من قضية التأويل (ص٥٢) .
(٢) سورة هود — عليه السلام — الآية (١) .
(٣) سورة الحج ، الآية (٥٢) .
(٤) سورة آل عمران ، بعض الآية (٥٨) .
(٥) سورة يونس — عليه السلام ، الآية (١) .
(٦) سورة يس ، الآيتان (١، ٢) .
(٧) انظر : ابن تيمية : التدمرية (ص١٠٢) .

أما وصفه كله بأنه متشابه فقد ورد في قوله تعالى : (الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم...)[١] وقوله تعالى : (كتاباً) هو القرآن الكريم[٢] ، ففي هذه الآية الكريمة دليل على أن القرآن الكريم كله متشابه ، فالتشابه هنا يعمه[٣] ، قال مجاهد : " يعني القرآن كله متشابه مثاني[٤] "[٥] .

و أما الآية التي تقسم القرآن الكريم إلى قسمين ، فتجعل بعضه محكماً ، والبعض الآخر متشابهاً فهي قوله تعالى : (هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات...)[٦] أي أن بعض آياته محكمات ، وبعضها متشابهات[٧] ، فقد دلت الآية على أن المتشابه قسيم المحكم ، لأن أسلوبها هو الجمع مع التقسيم[٨] ، وقد فرق الله تعالى ما جمع في معنى الكتاب بأن قال : (منه آيات محكمات) (وأخر متشابهات) فأراد أن يضيف إلى كل منهما ما شاء منهما من الحكم ، فقال أولاً : (فأما الذين في قلوبهم زيغ) ثم قال : (والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا) فأضاف الزيغ لمن يتبع المتشابه ، وأضاف الرضى والتسليم للراسخين في العلم[٩] .

كما أن الآية الكريمة دلت على أن اتباع هذا المتشابه زيغ وضلال وميل عن الحق ، قال تعالى : (...فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله...)[١٠] وإذا كانت الآية قد دلت بمنطوقها على أن اتباع هذا النوع من المتشابه هو ميل عن الحق وانحراف عنه ، فهي تتضمن إذاً تحذيراً للمؤمنين من هذا الاتباع الباطل الذي يبتغي به أصحابه الفتنة ، كما يبتغون تأويله ، أي تفسيره بما يوافق أهواءهم[١١] ، فهم إنما يأخذون منه بالمتشابه الذي يمكنهم أن يحرفوه إلى مقاصدهم الفاسدة وينزلوه عليها[١٢] .

يدل على ذلك التحذير ما ورد عن النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ أنه تلا هذه الآية ثم قال : " فإذا رأيت الذين يتبعون ما تشابه منه ، فأولئك الذين سمى الله ، فاحذروهم "[١٣] قال ابن حجر : " إن الآية دلت على ذم متبعي المتشابه لوصفهم بالزيغ وابتغاء الفتنة وصرح بوفق ذلك حديث الباب "[١] يقصد هذا الحديث المتقدم .

---

(١) سورة الزمر ، بعض الآية (٢٣) .
(٢) انظر : ابن كثير : تفسير القرآن العظيم (٨٤/٧) .
(٣) انظر : ابن تيمية : التدمرية (ص١٠٢) ، والشنقيطي : مذكرة أصول الفقه (ص٦٣) .
(٤) قال الضحاك : " مثاني : ترديد القول ليفهموه عن ربهم عز وجل " ابن كثير : تفسير القرآن العظيم (٨٤/٧) وقال ابن جرير : " تُثَنىُّ فيه الأنباء والأخبار ، والقضاء والأحكام والحج " جامع البيان (٢١٠/٢٣) .
(٥) ابن كثير تفسير القرآن العظيم (٨٤/٧) ، وانظر ابن جرير : جامع البيان (٢١٠/٢٣) .
(٦) سورة آل عمران ، بعض الآية (٧) .
(٧) انظر : ابن تيمية : التدمرية (ص١٠٢) ، ابن كثير تفسير القرآن العظيم (٤/٢) ، الشنقيطي : مذكرة أصول الفقه (ص٦٣) ، الجليند : الإمام ابن تيمية وموقفه من قضية التأويل (ص٥)
(٨) انظر : ابن حجر : فتح الباري (٢١١/٨) .
(٩) انظر : نفس المرجع السابق .
(١٠) سورة آل عمران ، بعض الآية (٧) .
(١١) انظر : ابن جرير : جامع البيان (١٧٦/٣) ، ابن كثير : تفسير القرآن العظيم (٥/٢) ، الشيخ حسين محمد مخلوف : كلمات القرآن تفسير وبيان (ص٤٣) ، بهامش المصحف ، تفسير القرآن : لأبي المظفر السمعاني (٢٩٥/١) .
(١٢) انظر : ابن كثير : تفسير القرآن العظيم (٥/٢) .
(١٣) متفق عليه :
- رواه البخاري في " صحيحه " كتاب التفسير (٦٥) باب (١) ح رقم (٤٥٤٧) انظر فتح الباري (٢٠٩/٨) .

وقـد يظهر للناظر في هذه الآيات ـ لأول وهلة ـ أن هناك تعارضاً بينها وبين الآيات السابقة ، والحقيقة أنه لا تعـارض بينها ألبتة ، لأن معنى كون القرآن الكريم كله محكماً هو اتصاف جميعه بالإحكام الذي هو الاتقان ، فجميعه في غايـة الإتقان في ألفاظه ومعانيه ، أحكامه عدل ، وأخباره صدق ، وهو في غاية الفصاحة والإعجاز ، والسلامة من جميع العيوب .

" والحكـم : هو الفصل بين الشيئين ، والحاكم يفصل بين الخصمين والحكمة فصل بين المشتبهات علماً وعملاً إذا مُيز بين الحـق والـباطل ، والصـدق والكذب ، والنافع والضار ، وذلك يتضمن فعل النافع وترك الضار ، فيقال : حكمت السفيه وأحكمته إذا أخذت على يده ، وحكمت الدابة وأحكمتها إذا جعلت لها حَكَمة وهو ما أحاط بالحنك من اللجام ، وإحكام الشئ اتقانـه ، فإحكام الكلام اتقانه ، بتمييز الصدق من الكذب في أخباره ، وتمييز الرشد من الغي في أوامره "[٢] فالقرآن الكريم كله محكم بمعنى الاتقان في مبناه ، وفي معناه ، فهو الكتاب الحكيم ، والذكر الحكيم ، والقرآن الحكيم ، وهو الفرقان الذي يفرق ويميـز بيـن الحق والباطل قال تعالى : (بل نقذف بالحق على الباطل فيدفغه فإذا هو زاهق...)[٣] فهو كتاب قد أُحكمت آياته من الدَّخَل والخلل والباطل ، بإصلاحه واتقانه[٤] ، بعجيب النظم وبديع المعاني[٥] ، فهو كامل صورة ومعنى[٦] ، فهذا معنى كون القرآن الكريم محكماً كله .

أما معنى كونه متشابهاً : أن آياته يشبه بعضها بعضاً في الإعجاز والصدق والعدل والسلامة من جميع العيوب[٧] ، كما أن هذا التشابه الذي يعم القرآن ، هو ضد الاختلاف المنفي عنه[٨] في قوله تعالى : (أفلا يتدبرون القرآن ، ولو كان مـن عـند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً)[٩] وهو الاختلاف المذكور أيضاً[١٠] في قوله تعالى : (إنكم لفي قول مختـلف ، يؤفـك عـنه مـن أفك)[١١] فالتشابه هنا هو تماثل الكلام وتناسبه بحيث يصدق بعضه بعضاً ، لا اختلاف فيه ولاتضـاد ، ويـدل بعضـه على بعض[١٢] ، فإذا أمر بأمر لم يأمر بنقيضه في موضع آخر ، بل يأمر به أو بنظيره ، أو

ـ ورواه مسلم في " صحيحه كتاب العلم (٤٧) باب (١) ح رقم {١-(٢٦٦٥)} صحيح مسلم (٢٠٥٣/٤) ، وأبو داود في " سننه " (٤/ ١٩٨) ح رقم (٤٥٩٨) .

ـ والدارمي في " سننه " المقدمة ، باب (١٩) ح رقم (١٤٧) سنن الدارمي (٥١/١) ، أحمد في " المسند " (٤٨/٦) .

وابن جرير : جامع البيان (١٧٨/٣-١٨٠) .

(١) فتح الباري (٢١٠/٨) .

(٢) ابن تيمية : التدمرية (ص١٠٢) ، وانظر : الاكليل في المتشابه والتأويل (ص٧) .

(٣) سورة الأنبياء ـ عليهم السلام ـ بعض الآية (١٨) .

(٤) انظر : ابن جرير جامع البيان (١٨٠/١١) ، (١٩٠/١٧) .

(٥) انظر : تفسير الجلالين (ص٢٦٢) بحاشية المصحف الشريف .

(٦) انظر : ابن كثير : تفسير القرآن العظم (٢٣٧/٤) .

(٧) انظر : الشنقيطي : مذكرة أصول الفقه (ص٦٣) .

(٨) انظر : ابن تيمية : التدمرية (ص١٠٤) .

(٩) سورة النساء ، الآية (٨٢) .

(١٠) انظر : التدمرية (١٠٤) .

(١١) سورة الذاريات ، الآيتان (٨،٩) .

(١٢) انظر : ابن جرير : جامع البيان (٢١٠/٢٣) .

بمــلزوماته ، وإذا نهى عن شئ لم يأمر به في موضع آخر ، بل ينهي عنه ، أو عن نظيره ، أو عن لوازمه ، إذا لم يكن هــناك نسخ ، وكذلك إذا أخبر بثبوت شئ لم يخبر بنقيضه بل يخبر بثبوته ، أو بثبوت ملزوماته ، وإذا أخبر بنفي شئ ، لم يثبته ، بل ينفيه ، أو ينفي لوازمه ، بخلاف القول المختلف الذي ينقض بعضه بعضاً ، فيثبت الشئ تارة وينفيه تارة أخرى ، أو يأمــر بــه مــرة ، ويــنهي عنه في وقت واحد ، أو يفرق بين المتماثلين فيمدح أحدهما ويذم الآخر من نفس الوجه ، فالأقوال المختلفة هي الأقوال المتضادة ، والأقوال المتشابهة هي المتوافقة[١] .

وهــذا التشــابه كذلــك يكون في المعاني وإن اختلفت الألفاظ ، فإذا كانت المعاني يوافق بعضها بعضاً ، ويعضد بعضــها بعضاً ، ويناسب بعضها بعضاً ، ويدل بعضها على بعض ، ويقتضي بعضها بعضاً كان الكلام متشابهاً ، وهذا هو شأن القرآن الكريم ، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، بخلاف الكلام المتناقض الذي يضاد بعضه بعضاً ، ويــدل بعضه على خلاف ما يدل عليه بعضه الآخر ، أو يثبت ما ينفيه ، أو يأمر بما ينهى عنه ، وهذا منزه عنه القرآن ، منفي عنه بالضرورة ، لأنه كلام الله تعالى العليم الحكيم الخبير . وهذا التشابه العام لا ينافي الإحكام العام بل هو مصدق له ، فإن الكلام المتقن يصدق بعضه بعضاً ولا يتناقض ولا يختلف[٢] .

أمــا التشــابه الذي ورد في قوله تعالى : (...وأخر متشابهات...)[٣] فهو تشابه خاص ، وهو غير التشابه العام الــذي ذكــرته ، وهذا التشابه الخاص ، يقابل الإحكام الخاص الذي ورد في قوله تعالى : (...منه آيات محكمات...)[٤] فالأقسام إذاً أربعة :

١- الإحكام العام : وقد بينته ــ وهو يشمل آيات القرآن الكريم كلها ويعمها ، كما يعم الاحكام الخاص ، والتشابه الخاص .

٢- التشــابه العــام : وقــد بينته أيضاً ــ وهو يشمل آيات القرآن الكريم كلها ويعمها ، وهو كذلك يعم الاحكام الخاص ، والتشابه الخاص .

٣- الإحكام الخاص : وهو المذكور في قوله تعالى : (...منه آيات محكمات...)[٥] أي بينات واضحات الدلالة لا إلتباس فيها على أحد من الناس[٦] ، أحكمن بالبيان والتفصيل ، وأثبتت حججهن وأدلتهن على ما جعلن أدلة عليه من حرام وجلال ، ووعــد ووعيــد ، وثواب وعقاب ، وأمر وزجر ، وخبر ومثل ، وعظة وعبر[٧] ، فهي آيات قطعيات الدلالة أوقف الله تعالى الخلق على معناها فلا يشتبه على أحد[٨] ، يعرف المراد منها لظهوره ووضوحه فلا خفاء فيه[٩] .

وسيأتي مزيد من الأقوال في بيان معنى هذا المحكم عند بيان رأي السيوطي فقد جمع فيه أقوالاً شتى .

---

(١) انظر : التدمرية (ص١٠٤) .
(٢) انظر : السابق نفسه (١٠٤-١٠٥) .
(٣) سورة آل عمران ، بعض الآية (٧) .
(٤) سورة آل عمران ، بعض الآية (٧) .
(٥) سورة آل عمران ، بعض الآية (٧) .
(٦) انظر : ابن كثير : تفسير القرآن العظيم (٤/٢) ، تفسير الجلالين (ص٥٨) ، بهامش مصحف الشريف .
(٧) انظر : ابن جرير : جامع البيان (١٧٠/٣) .
(٨) انظر : أبو المظفر السمعاني : تفسير القرآن (٢٩٤/١) .
(٩) انظر : ابن حجر : فتح الباري (٢١٠،٢١١/٨) .

٤- التشــابه الخاص : وهو المذكور في قوله تعالى : (...وأخر متشابهات...)[١] وهو في بعض آيات القرآن ، قال ابن كثير : " ومنه آيات أخر فيها اشتباه في الدلالة على كثير من الناس أو بعضهم ، فمن رد ما اشتبه عليه إلى الواضح منه ، وحكـم محكمه على متشابهه عنده فقد اهتدى ، ومن عكس انعكس "[٢] فهي آيات تحتمل دلالتها موافقة المحكم ، وقد تحتمل شـيئاً آخر من حيث اللفظ والتركيب لا من حيث المراد[٣] ، فدلالتها احتمالية لا قطعية كالآيات المحكمات لأنها تحتمل من الـتأويل أوجهـاً متعددة[٤] فيلتبس المعنى المراد على بعض الناس[٥] مما يجعلهم يحملونه على معان باطلة تؤدي بهم إلى الزيغ والضلال ، قال السمعاني : " إن الذين في قلوبهم زيغ يغلون في طلب التأويل للمتشابه ، فيقعون على التأويل المظلم ، فذلك ابتغاء الفتنة لأن من غلا في الدين ، وطلب تأويل ما لا يعلمه إلا الله ، يقع في الفتنة ، ويكون مفتوناً ، وخير الدين : الـنمط الأوسط الذي ليس فيه غلو ولا تقصير "[٦] ويظهر من كلام السمعاني أن المتشابه هنا هو الذي استأثر الله تعالى بعـلمه فلا سبيل لأحد من الخلق إلى معرفته والوقوف على حقيقته ، وهو أحد الأقوال التي ستأتي عند بيان رأي السيوطي في المحكم والمتشابه .

والمقصـــود هنا هو أن التشابه هو إلتباس المعنى واحتماليته وعدم ظهوره ، أو هو " مشابهة الشئ لغيره من وجه مع مخالفته له من وجه آخر ، بحيث يشتبه على بعض الناس أنه هو أو هو مثله ، وليس كذلك ، والإحكام هو الفصل بينهما بحيث لا يشتبه أحدهما بالآخر ، وهذا التشابه إنما يكون لقدر مشترك بين الشيئين مع وجود الفاصل بينهما ثم من الناس من لا يهتدي للفصل بينهما ، فيكون مشتبهاً عليه ، ومنهم من يهتدي إلى ذلك ، فالتشابه الذي لا تمييز معه قد يكون من الأمور النسبية الإضافية بحيث يشتبه على بعض الناس دون بعض ، ومثل هذا يعرف منه أهل العلم ما يزيل عنهم هذا الاشتباه "[٧] .

هـذا النوع من المتشابه هو الذي وقع فيه النزاع والاختلاف بين العلماء ، وهو مبني على الاختلاف في معنى " الــواو " فــي قولــه تعالى : (... والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا...)[٨] هل هي استئنافية ، و " الراسخون " مبتدأ خبره جملة " يقولون آمنا به " ؟ أم أنها عاطفة ، ويكون " الراسخون " معطوفاً على لفظ الجلالة في قوله تعالى : (...وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا...)[٩] .

وبناءً على هذا الخلاف نشأ التنازع في مسائل تفرعت عليه وهي :

١- تحديد المراد بالآيات المتشابهات ومعناها .

---

(١) سورة آل عمران ، بعض الآية (٧) .

(٢) تفسير القرآن العظيم (٤/٢) .

(٣) انظر : نفس المرجع .

(٤) انظر : ابن جرير : جامع البيان (١٧٣/٣) .

(٥) انظر : السمعاني : تفسير القرآن (٢٩٤/١) .

(٦) تفسير القرآن (٢٩٥/١) .

(٧) التدمرية (ص١٠٥-١٠٦) .

(٨) سورة آل عمران ، بعض الآية (٧) .

(٩) سورة آل عمران ، بعض الآية (٧) .

٢- هل هذا المتشابه مما استأثر الله تعالى بعلمه فلا يستطيع أحد الاطلاع عليه ، وأن من طلب ذلك فقد رام المستحيل ؟

٣- هل آيات صفات الباري جل وعلا تعد من قبيل المتشابهات أم لا ؟ وإذا كانت من المتشابهات فما موقف العلماء منها ؟

هذا ما سيبينه البحث ــ بعون الله تعالى ــ في الصفحات القادمة عند توضيح رأي السيوطي في هذه المسائل .

رأي السيوطي :

تعــرض الســيوطي للكلام عن المحكم والمتشابه وتعريف كل منهما ، فكان له في هذا رايه الذي يقول فيه : " المحكم : الذي لا يتطرق النقص إليه والاختلاف "[١] .

ولمــا كــان المحكم والمتشابه مما يتعلق بوصف القرآن الكريم ــ كما سبق ــ قال السيوطي : " المراد بإحكامه إتقانه وعدم تطرق النقص والاختلاف إليه ، وبتشابهه كونه يشبه بعضه بعضاً في الحق والصدق والإعجاز "[٢] .

ــ فكونــه محكمــاً يعني أنه متقن بليغ في مبناه وأسلوبه ، ويتجلى هذا الإتقان في القرآن الكريم من حيث أنه بديع النظم ، عجيــب الــتأليف ، متناه في البلاغة إلى الحد الذي يعلم عجز الخلق عنه[٣] ، إذا تأمله ذو البصيرة تبين له أنه خارج عن أصناف كلامهم وأساليب خطابهم .

قــال الســيوطي : " (كتاب أُحكمت آياته) بعجيب النظم وبديع المعاني (ثم فصلت) بينت بالأحكام والقصص والمواعــظ "[٤] ، فهو الكتاب المحكم الذي لا تعتريه ركاكة ولا نقص ولا تناقص ، لا اعوجاج فيه ولا انحراف ولا لبس ، بل هو بيان ووضوح وبرهان[٥] .

ــ وأمــا كونــه لا يتطرق إليه النقص والاختلاف فلأنه كلام الله تعالى ، وهو وحيه الذي أوحاه إلى نبيه ــ صلى الله عليه وســلم ــ فأظهر الله له به دينه ، وخرق العادة في أسلوب كلامه وبلاغته وحلاوته ، حتى التذ سامعوه بسماعه ألذ من أهل اللهو بلهوهم[٦] ، وأبقى ذلك فيه على صفحات الدهر ليراها ذووا البصائر كما قال ــ صلى الله عليه وسلم ــ " ما من الأنــبياء نبي إلا أُعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر ، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إليَّ ، فأرجو أن أكون أكــثرهم تابعاً يوم القيامة "[٧] وما كان وحياً من الله فلا يمكن أن يتطرق إليه نقص ولا خلل ، كما أنه لا يشبه كلام البشر ، ولا يدانيه كلام بشر ، لكن البليغ إذا قرع سمعَه القرآن فصل بينه وبين ما عداه من النظم ولهذا قال تعالى : (وإنه لكتاب

---

(١) السيوطي : معترك الاقران في اعجاز القرآن (١٠٣/١) .
(٢) السيوطي : الاتقان في علوم القرآن (١٠٣/١) . وكذلك معترك الاقران (١٠٣/١) .
(٣) انظر : القاضي أبو بكر الباقلاني : اعجاز القرآن (ص٥١) المطبوع بهامش الاتقان في علوم القرآن للسيوطي .
(٤) تفسير الجلالين (ص٢٦٢) .
(٥) انظر : ابن كثير : تفسير القرآن العظيم (٨٧/٧) عند تفسير قوله تعالى : (قرآناً عربياً غير ذي عوج لعلهم يتقون) سورة الزمر الآية (٢٨) .
(٦) انظر : السيوطي : معترك الاقران في اعجاز القرآن (٤/١) .
(٧) متفق عليه : رواه البخاري في "صحيحه " كتاب فضائل القرآن (٦٦) باب (١) ح رقم (٤٩٨١) فتح الباري (٣/٩) ، ورواه ايضاً في كتاب الاعتصام بالسنة (٩٦) باب (١) ح رقم (٧٢٧٤) فتح الباري (٢٤٧/١٣) .
ــ رواه مسلم في " صحيحه " (١٣٤/١) كتاب الإيمان (١) باب (٧٠) ح رقم (٢٣٩) .
ــ ورواه أحمد في " المسند " (٣٤١،٤٥١/٢) عن أبي هريرة ــ رضي الله عنه ــ .

عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد)[١] تنبيهاً على أن تأليفه ليس على هيئة نظم يتعاطاه البشر فيمكن أن يغير فيه بالزيادة أو النقصان ، كحال الكتب السابقة الأخرى[٢] ، وفي تفسير السيوطي الموسوم بـ " الجلالين " يقول في معنى المتشابهات : " (وأخر متشابهات) لا تفهم معانيها كأوائل السور "[٣] .

والمقصود بأوائل السور ، الحروف المقطعة مثل آلم ، وآلر ، والمر ، وكهيعص ، ونحوها من فواتح السور كالحواميم وغيرها .

وبذلك يكون السيوطي قد ذكر للمحكم معنيين ، وللمتشابه معنيين .

ـ **فالمعنى الأول للمحكم عنده هو :** الواضح الدلالة ، بمعنى أنه يدل على الحكم أو المعنى دلالة قطعية يعرف المراد منه لظهوره ووضوحه .

ـ **المعنى الثاني للمحكم :** هو الذي لا يتطرق إليه النقص والاختلاف ، فهو تام لا نقص فيه ، ومؤتلف لا اختلاف فيه ولا تناقص ولا اضطراب ، ولا تعارض ولا تضاد ، لأنه تنزيل من حكيم حميد ، فلو كان من عند غير الله تعالى لوجد فيه ذلك التضاد والاضطراب ولكن سالم من الاختلاف والاضطراب فهو من عند الله ـ تعالى العزيز الحكيم[٤] .

ـ **وأما المعنى الأول للمتشابه عند السيوطي :** فهو الذي يشبه بعضه بعضاً في الحق والصدق والإعجاز .

ـ **والمعنى الثاني :** أنه هو الحروف المقطعة في أوائل السور ، وهي حروف لا يعرف معناها ـ كما قال السيوطي ـ ولا يستطاع إدراك ما تدل عليه .

ويبدو من كلام السيوطي في تعريفه للمحكم والمتشابه أنه تناول تعريف كل من نوعي الاحكام وهما : العام ، والخاص وكذلك في المتشابه العام والخاص أيضاً ، فقوله في المحكم : هو الذي لا يتطرق إليه النقص والاختلاف ، هو الإحكام العام ، وهذا الإحكام يتناول جميع آيات القرآن الكريم ، كما قد سبق بيانه .

وقوله : أو هو الواضح الدلالة ، وأن الآيات المحكمات هي الواضحات الدلالة ، فهذا هو الإحكام الخاص الذي يقابل التشابه الخاص ، وهو يخص بعض آي القرآن العظيم دون البعض الآخر .

وكذلك قوله في المتشابه ، أنه هو الذي يشبه بعضه بعضاً في الحق والصدق والاعجاز ، هذا هو التشابه العام في القرآن كله ، فالقرآن كله حق وكله صدق ، وهو معجز كله ، وهذا التشابه كما تقدم هو ضد الاختلاف المذكور في قوله تعالى : (أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً)[٥] .

وتعريفه للمتشابه مرة أخرى بأنه الحروف المقطعة في أوائل السور فهذا هو التشابه الخاص ، وهو أحد الآراء التي قيلت في معنى المتشابه التي سينقلها السيوطي أو أنقلها عنه ، ولذلك كان يفسر هذه الحروف دائماً بقوله : " الله أعلم

---

(١) سورة فصلت ، الآيتان (٤٢،٤١) .
(٢) انظر : السيوطي : معترك الاقران (٦/١) .
(٣) تفسير الجلالين (ص٥٨) .
(٤) انظر : ابن كثير (٣٢٠/٢) .
(٥) سورة النساء ، الآية (٨٢) .

بمراده من ذلك "[١] وهذا مما يؤيد قولي بأن هذا هو رأي السيوطي في معنى المتشابه ، ويؤيد قولي أيضاً ما صرح به في " الاتقان " حيث قال : " ومن المتشابه أوائل السور ، والمختار فيها أنها من الأسرار التي لا يعلمها إلا الله تعالى "[٢] .

وقد ذهب بعض العلماء في تفسير المحكم والمتشابه إلى مثل هذا المعنى الذي قال به السيوطي ، وهناك للعلماء أقوال أخرى ، حكى السيوطي نفسه بعضها في معترك الاقران[٣] ، ولا مانع من إيراد أهمها على سبيل الايجاز ، ليكون المعنى أكثر وضوحاً وأجلى ظهوراً . فمما قيل :

ـ **القول الأول :** إن المحكم هو ما عرف تأويله ، وفهم معناه وتفسيره ، والمتشابه ما لم يكن لأحد إلى علمه سبيل[٤] ، وهو قول جابر بن عبدالله ، والشعبي ، وسفيان الثوري ، وغيرهم[٥] ، وهذا القول هو ما أخذ به السيوطي ، فما فهم معناه وتفسيره هو الواضح الدلالة المبين الذي لا غموض فيه ولا اشكال ، كما أنه لا نقص فيه ولا اختلاف .

وما لم يعلم أحد تفسيره ولا المراد بمعناه فهو الذي اختص الله تعالى بعلمه كمعاني الحروف المقطعة كما تقدم ، ولا يمنع أن يدخل في ذلك تحديد وقت قيام الساعة ، ووقت خروج الدجال وظهور الدابة ، ونحو ذلك مما لم يطلع أحد على علمه[٦] ، على أن جعله وقت خروج الدجال من المتشابه لا وجه له ، لأن الدجال وخروجه وأخباره لم ترد في القرآن الكريم ، إنما وردت أخباره ، وأوصافه ، وما يكون من فتنة للناس في آخر الزمان ، كل ذلك ورد في السنة النبوية الشريفة[٧] ، وليس في القرآن الكريم شئ من ذلك ، فوضعه لوقت خروج الدجال من ضمن متشابه القرآن ليس بصحيح ، لأن الكلام هنا على معنى متشابه القرآن ، فيشمل ما ذكر من وقت قيام الساعة ، والحروف المقطعة في أوائل السور وهذا مما استأثر الله تعالى بعلمه كما قال ولم يطلع على ذلك أحد من خلقه ، وشاهده قول النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ لجبريل عندما سأله عن الساعة ، فأجابه النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ بقوله : " ما المسئول عنها بأعلم من السائل "[٨] ، ولكن قد يقال : إن الذين جعلوا آيات صفات الله ــ جل وعلا ــ من قبيل المتشابه ، فأولوا أو فوضوا ، قد جعلوا أحاديث

---

(١) تفسير الجلالين (ص٣) أول سورة البقرة ، (ص٥٨) أول سورة آل عمران ، (١٧٨) أول سورة الاعراف ، (ص٢٤٥) أول سورة يونس ــ عليه السلام ــ ، (ص٢٦٢) أول سورة هود ــ عليه السلام ــ ، (ص٢٧٩) أول سورة يوسف ــ عليه السلام ــ ، (ص٢٩٥) أول سورة الرعد، (ص ٣٠٣) أول سورة إبراهيم ، (ص٣١١) أول سورة الحجر .

(٢) (٨/٢) .

(٣) انظر : معترك الاقران (١٠٣/١-١٠٥) ، ، الاتقان (٢/٢) .

(٤) انظر : ابن جرير : جامع البيان (١٧٤،١٧٥/٣) ، الفخر الرازي : التفسير الكبير (١٨٤/٧) والشوكاني : فتح القدير (٣١٤/١) ، والسيوطي : الاتقان (٢/٢) ، ومعترك الاقران (١٠٣/١) .

(٥)انظر : ابن جرير : جامع البيان (١٧٤،١٧٥/٣) ، الفخر الرازي : التفسير الكبير (١٨٤/٧) والشوكاني : فتح القدير (٣١٤/١) ، والسيوطي : الاتقان (٢/٢) ، ومعترك الاقران (١٠٣/١) .

(٦)انظر : الاتقان (٢/٢) ومعترك الاقران (١٠٣/١) ، وابن حجر : فتح الباري (٢١٠/٨) .

(٧) انظر : يوسف بن عبدالله بن يوسف الوابل : اشراط الساعة (ص٢٧٥) ، شرح العقيدة الطحاوية (٥٦٤-٥٦٦) ولوامع الأنوار (٨٦/٢-٩٤) ، صحيح البخاري ، كتاب الفتن (٩٢)- = باب (٢٦) الفتح (٨٩/١٣) ، صحيح مسلم (٢٢٤٧/٤) كتاب الفتن (٥٢) باب (٢٠) وبقية كتب السنن والمسانيد .

(٨) جزء من حديث طويل وهو مشهور بين أهل العلم بحديث جبريل ــ عليه السلام ــ وهو متفق عليه :

ــ رواه البخاري في " صحيحه " كتاب الإيمان (٢) باب (٣٧) ح رقم (٥٠) الفتح (١١٤/١) ورواه كلك في كتاب التفسير (٦٥) سورة لقمان (٣١) باب (٢) ح رقم (٤٧٧٧) الفتح (٥١٣/٨) .

ــ ورواه مسلم في " صحيحه " (٣٦/١) كتاب الإيمان (١) باب (١) ح رقم {١-(٨)} وكذلك أحاديث رقم (٢،٣،٤،٥،٦،٧) .

الصفات أيضاً من قبيل النصوص المتشابهة ، فأولوها أو فوضوها على غرار ما صنعوا بآيات القرآن الكريم و هو ما فعله السيوطي نفسه حين قال :

فوض أحاديث الصفات ، ولا تشبه أو تعطل[1] وسيأتي ردنا على هذا القول إن شاء الله قريباً .

أقـول لمـا زعموا أن آيات الصفات من المتشابهات وضموا إليها كذلك أحاديث الصفات فجعلوا الجميع في باب واحـد وهـو بـاب المتشابهات ، وكذلك فعلوا عندما قالوا بأن الحروف المقطعة في أوائل السور هي من المتشابه الذي استأثر الله بعلمه ، ضموا إليها أحاديث الدجال وجعلوا وقت خروجه من المتشابه لأنه مما استأثر الله تعالى بعلمه ، إذاً كل ما استأثر الله بعلمه وليس لأحد من سبيل في الاطلاع عليه ، أو الوصول إلى علمه فهو من المتشابه على هذا القول ، وهذا ممـا جعلهم يقولون إن وقت خروج الدجال من المتشابه ، ولكن يبقى الاعتراض قائماً ، لأن وصف المتشابه إنما ورد في آيات القرآن الكريم ، ولم توصف الأحاديث بذلك .

<u>القـول الـثاني :</u> قيـل : إن المحكم ما لا يحتمل إلا وجهاً واحداً ، والمتشابه ما يحتمل وجوهاً ، فإذا ردت إلى وجه واحد وأبطل الباقي صار المتشابه محكماً[2] . وعزاه السيوطي للماوردي[3] .

ـ <u>القـول الثالث :</u> المحكم الناسخ ، والمتشابه المنسوخ[4] ، وهذا قول ابن مسعود ، وقتادة ، وروى أيضاً عن ابن عباس ، والربيع بن أنس ، والضحاك[5] بن مزاحم[6] .

ـ <u>القـول الـرابع :</u> المحكـم : الذي ليس فيه تصريف ولا تحريف عما وضع له ، والمتشابه : ما فيه تصريف وتحريف وتأويل ، وأثر هذا عن مجاهد[7] وغيره...

قال ابن عطية : " وهذا أحسن الأقوال "[8]

ـ <u>القـول الخامس :</u> قيل : المحكم : ما كان قائماً بنفسه لا يحتاج إلى أن يرجع فيه إلى غيره نحو قوله تعالى : (ولم يكن له كفواً أحد)[9] وقوله تعالى : (وإني لغفار لمن تاب)[10] والمتشابهات : ما يرجع فيه إلى غيره[11] نحو قوله تعالى : (

---

(١) انظر : ابن العماد : شذرات الذهب (٥٤/٨) في ترجمة السيوطي .
(٢) انظـر : ابـن جرير : جامع البيان (١٧٤/٣وما بعدها) ، والقرطبي : الجامع لأحكام القرآن (٨/٤-٩) ، السيوطي : معترك الاقران (١٠٣/١) ، الاتقان (٢/٢) ، والشوكاني : فتح القدير (٣١٤/١) .
(٣) انظر : معترك الاقران (١٠٣/١) .
(٤) انظـر : السيوطي : الاتقان (٢/٢-٣) ، ابن جرير : جامع البيان (١٧٤/٣) والقرطبي : الجامع لأحكام القرآن (٩/٤) ، الشوكاني : فتح القدير (٣١٤/١) .
(٥) الضـحاك بن مزاحم البلخي الخراساني ، أبو القاسم ، مفسر ، كان يؤدب الأطفال ، قيل كان في مدرسته ثلاثة آلاف صبي ، له كتاب في التفسير ، توفى بخراسان عام (١٠٥هـ - ٧٢٣هـ) . انظر : ميزان الاعتدال (٤٧١/١) ، العبر للذهبي (١٢٤/١) ، الاعلام (٢١٥/٣) .
(٦) انظر : ابن جرير : جامع البيان (١٧٤/٣) ، السيوطي : الاتقان (٢/٢-٣) ، القرطبي : الجامع لأحكام القرآن (٩/٤) ، والشوكاني : فتح القدير (٣١٤/١) ، الرازي : التفسير الكبير (١٨٤/٧) .
(٧) انظر : ابن جرير : جامع البيان (١٧٤/٣) ، ابن كثير : تفسير القرآن العظيم (٥/٢) ، القرطبي : الجامع لأحكام القرآن (٩/٤) .
(٨) انظر : القرطبي : الجامع لأحكام القرآن (٩/٤) ، والشوكاني : فتح القدير (٣١٤/١) .
(٩) سورة الإخلاص الآية (٤) .
(١٠) سورة طه ، بعض الآية (٨٢) .
(١١) انظر : القرطبي : الجامع لأحكام القرآن (٩/٤) ، والشوكاني : فتح القدير (٣١٤/١) .

إن الله يغفر الذنوب جميعاً...)[١] يرجع فيه إلى قوله جل وعلا : (وإني لغفار لمن تاب...)[٤] وعلى قوله تعالى أيضاً : (إن الله لا يغفر أن يشرك به...)[٢] ، ذكر عن النحاس أن هذا أحسن ما قيل في المحكمات والمتشابهات[٣] .

وهـذا القول لا يبعد عن القول السابق له ، إذ هو كالتفسير له ، وبيان معناه لذلك قال القرطبي : " ما قاله النحاس يبين ما اختاره ابن عطية ، وهو الجاري على وضع اللسان ، وذلك أن المحكم اسم مفعول من أحكم ، والاحكام : الاتقان ، ولا شـك في أن ما كان واضح المعنى لا اشكال فيه ولا تردد ، إنما يكون كذلك لوضوح مفردات كلماته واتقان تركيبها ، ومتى اختل أحد الأمرين جاء التشابه والاشكال "[٤] .

ـ <u>القـول السـادس :</u> قيـل : المحكم ما كان معقول المعنى ، والمتشابه بخلافه ، كأعداد الصلوات ، واختصاص الصيام برمضان دون شعبان ، ونحو ذلك ، حكاه السيوطي ولم يعزه لأحد[٥] ، ولكن يقال هنا إن أعداد الصلوات لم ترد في القرآن الكـريم ، وكذلـك أعداد ركعات كل صلاة لم ترد فيه أيضاً شأنها شأن ما قيل في ذكر الدجال ووقت خروجه ، والذي قد نـبهت عليه في القول الأول ، أما صيام رمضان فقد ورد في القرآن الكريم ، فتخصيص رمضان دون شعبان بالصوم أمر تعبدي غير معقول المعنى ، ولذا جعلوه من قبيل المتشابه ، والمقصود أن الكلام هنا عن المتشابه في آيات القرآن الكريم ، وليس في غيره كما سبق .

ـ <u>القول السابع :</u> قيل : المحكمات : هن الثلاث آيات من سورة الأنعام ، وهي قوله تعالى : (قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئاً ، وبالوالدين إحساناً ، ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم ، ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ، ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون {١٥١} ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده وأوفوا الكيل والميزان بالقسط ، لا نكلف نفساً إلا وسعها ، وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى ، وبعهد الله أوفوا ، ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون {١٥٢} وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ، ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون {١٥٣})[٦] .

وكذلـك الـثلاث آيات من سورة الإسراء ، وهي قوله تعالى : (وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسـاناً ، إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولاً كريما {٢٣} واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيراً {٢٤} ربكم أعلم بما في نفوسكم إن تكونوا صالحين فإنه كان للأوابين غفوراً {٢٥})[٧] .

---

(١) سورة الزمر ، بعض الآية (٥٣) .
(٢) سورة النساء ، بعض الآية (٤٨) .
(٣) انظر : القرطبي : الجامع لأحكام القرآن (٩/٤) .
(٤) انظر : القرطبي : الجامع لأحكام القرآن (٩/٤) ، والشوكاني : فتح القدير (٣١٤/١) .
(٥) انظر : معترك الاقران (١٠٤/١) ، والاتقان (٢/٢) .
(٦) سورة الأنعام ، الآيات (١٥١،١٥٢،١٥٣) .
(٧) سورة الإسراء ، الآيات (٢٣،٢٤،٢٥) .

وهـذا القـول مـروي عن ابن عباس ــ رضي الله عنهما ــ[1] وهما مثالان ذكرهما ابن عباس للمحكم لأنه لا يتصـور أن يكـون في القرآن الكريم كله من المحكم سوى هذه الست آيات فقط ، ولذلك قال ابن عطية : " وهذا عندي مثال أعطاه في المحكمات "[2] وكلام ابن جرير أيضاً يدل على أن ما ذكره ابن عباس ــ رضي الله عنهما ــ إنما هو مثال للآيات المحكمات المعمول بهن وهن الناسخات قال ابن جرير : " قال بعضهم : المحكمات من أي القرآن : المعمول بهن ، وهن الناسخات ، أو المثبتات الأحكام ، والمتشابهات من آية : المتروك العمل بهن ، المنسوخات "[3] .

ثم روى ابن جرير بسنده عن ابن عباس قوله في آيات الأنعام ، والاسراء الذي نقلته آنفاً ، ثم روى عنه أيضاً قوله : " إن المحكمات : ناسخه ، وحلاله ، وحرامه ، وحدوده ، وفرائضه وما يؤمن به ، ويعمل به .

والمتشابهات : منسوخه ، ومقدمه ، ومؤخره ، وأمثاله وأقسامه ، وما يؤمن به ، ولا يعمل به "[4] .

ونسـب نحـو هذا القول لابن مسعود ــ رضي الله عنه ــ وناس من أصحاب النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ ، وروى أيضاً عن قتادة ، والضحاك[5] ، وغيرهم ، ونقلته في القول الثالث .

إذاً فـالمحكم عـلى هذا القول : هو الآيات الناسخة ، التي تثبت الأحكام الشرعية ويترتب عليها عمل مباشر من أعمال الجوارح ، كبيان الحلال ليُؤتى ، وبيان الحرام ليجتنب ، والفرائض لتؤدى إلى أصحابها بالعدل ، والحدود لتقام على مقترفي موجباتها ، وكذلك الآيات التي تبين العبادات البدنية والمالية ونحوها من الآيات .

والمتشـابه : هو الآيات المنسوخة ، والأمثال ، والأقسام ، ونحوها من الآيات التي يجب الإيمان بها ، ولا يترتب عليها عمل مباشر ، وإنما قلت عمل مباشر ، تقوم به الجوارح ، لأن الأمثال والمواعظ إنما يترتب عليها عمل القلب ، من الخوف ، والخشية ، والخضوع ، والرغبة والرهبة ونحو ذلك من أعمال القلوب ، فإذا قيل في المتشابهات إنها لا يعمل بها بمعـنى إن كانت منسوخة ، فلا يعمل بها حقاً ، وإن كانت أمثالاً ومواعظ وعبر ، فإنه لا يُعمل بها عمل مباشر ، وإنما هو عمل قلبي يثمر المبادرة والإلتزام بأعمال الجوارح .

هـذه الأقـوال أهم ما قيل في معنى المحكم والمتشابه ، وقد جمع السيوطي أقوالاً أخرى ولكن هذه أهمها وبقيتها تتضمنها هذه الأمور السبعة .

وقـد رجـح أبو منصور البغدادي[1] القول الأول القائل بأن المحكم : هو ما عرف تأويله ، وفهم معناه وتفسيره والمتشابه : ما لم يكن لأحد إلى علمه سبيل كوقت قيام الساعة ، وظهور الدابة ، ونحو ذلك ، وكذلك الحروف المقطعة في أوائل السور .

---

(١) انظر : ابن جرير : جامع البيان (١٧٢/٣) ، والقرطبي : الجامع لأحكام القرآن (٩/٤) ، وابن كثير : تفسير القرآن العظيم (٤/٢) ، وعزاه لإبن أبي حاتم ، وكذلك السيوطي في الاتقان (٣/٢) ، ومعترك الاقران (١٠٤/١) .

(٢) القرطبي : الجامع لأحكام القرآن (٩/٤) .

(٣) جامع البيان (١٧٢/٣) .

(٤) جامع البيان (١٧٢/٣) .

(٥) جامع البيان (١٧٢/٣-١٧٣) .

ونقل الحافظ العسقلاني عن ابن السمعاني[٢] أنه قال : " إنه أحسن الأقوال ، والمختار على طريقة أهل السنة "[٣] واستحسنه كذلك القرطبي فقال : " هذا أحسن ما قيل في المتشابه "[٤] وذهب إلى هذا أيضاً الإمام أبو سليمان الخطابي حيث قسم المتشابه إلى قسمين :

الأول : وهـو الذي إذا رد إلى المحكم ، واعتبر به عرف معناه وزال اشتباهه والتباسه[٥] ، وهذا قريب مما قيل من معنى المتشابه في القول الخامس من تعريفات المحكم والمتشابه ، وقد أوردت له امثلة هناك

الـثاني : هو الذي لا يمكن الوصول إلى حقيقته ولا سبيل إلى الوقوف على معناه ، لا بنفسه ، ولا برده إلى المحكم ، وهو ما يسمى بالتشابه الحقيقي وهو ما لا يمكن أن يعلمه بشر[٦] ، وهذا النوع من المتشابه هو الذي يتبعه أهل الزيغ ، فيطلبون تأويله ، ولا يبلغون كنهه فيرتابون فيه فيفتنون[٧] .

وإلى قريب من هذا ذهب الشوكاني فقال : " إن المحكم : هو الواضح المعنى ، الظاهر الدلالة ، إما باعتبار نفسه أو باعتـبار غيـره ، والمتشابه ما لا يتضح معناه ، أو لا تظهر دلالته باعتبار نفسه ولا باعتبار غيره ، لأن أهل كل قول عرفوا المحكم ببعض صفاته ، وعرفوا المتشابه بما يقابلها "[٨] .

المبحث الثاني : هل المتشابه مما يمكن الاطلاع على علمه ؟

ذكر السيوطي أن في هذه المسألة رأيين[٩] منشؤهما الاختلاف في قوله تعالى :

(والراسخون في العلم يقولون آمنا به كلّ من عند ربنا)[١٠] .

هل لفظة " الراسخون " معطوف على لفظ الجلالة ، وجملة يقولون حال ، أم أن الواو للإستئناف والراسخون مبتدأ خبره جملة يقولون ؟

قال شارح الطحاوية : " الآية فيها قراءتان : قراءة من يقف على قوله : (إلا الله) .

وقـراءة مـن لا يقـف عندها ، وكلتا القراءتين حق "[١١] وحكى الرأيين ــ أيضاً ــ ابن جرير[١] ، وأبو الحسن الاشعري[٢] وابن كثير[٣] ، وغيرهم[٤] .

---

(١) هـو : عـبدالقاهر بـن طاهر بن محمد بن عبدالله البغدادي التميمي الاسفراييني ، أبو منصور ، عالم متفنن ، وتوفي في اسفرايين عام (٤٢٩هـ – ١٠٣٧م) ، انظر : وفيات الأعيان (٢٩٨/١) ، طبقات السبكي (٢٣٨/٣) ، تبيين كذب المفترى (٢٥٣) ، الاعلام (٤٨/٤) .

(٢) هـو : عبدالكريم بن محمد بن منصور التميمي السمعاني المروزي ، أبو سعد ، مؤرخ رحالة من حفاظ الحديث مولده بمرو (٥٠٦هـ – ١١١٣م) ووفاتـه بهـا (٥٦٢هـ – ١١٦٧م)= طبقات السبكي (٢٥٩/٤) مفتاح السعادة (٢١١/١) ، وفيات الاعيان (٣٠١/١) تذكرة الحفاظ (١٠٧/٤) ، الاعلام (٥٥/٤) .

(٣) فتح الباري (٢١١/٨) .

(٤) القرطبي : الجامع لأحكام القرآن (٨/٤) .

(٥) انظر : فتح الباري (٢١١/٨) .

(٦) انظر : السابق نفسه ، وانظر : محمد بن صالح العثيمين : أصول في التفسير (٤١) .

(٧) انظر : فتح الباري (٢١١/٨) .

(٨) فتح القدير (٣١٤/١) .

(٩) انظر : معترك الاقران (١٠٤/١) ، الاتقان (٢/٢) .

(١٠) سورة آل عمران ، بعض الآية (٧) .

(١١) ابن أبي العز : شرح الطحاوية (ص٢٣٤) .

فــإن كــان قولــه تعالى : (والراسخون في العلم) معطوفاً على اسم الله تعالى ، فالراسخون إذاً يعلمون تأويل المتشابهة ، ويكون المراد بالمتشابه على هذه القراءة ، المتشابه الإضافي[٥] ، ويكون معنى الآية كما قال ابن كثير : (وما يعــلم تأويله) الذي أراد ما أراد (إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به) ثم ردوا تأويل المتشابه على ما عرفوا من تــأويل المحكمــة التي لا تأويل لأحد فيها إلا تأويل واحد ، فاتسق بقولهم الكتاب ، وصدق بعضه بعضاً ، فنفذت الحجة ، وظهــر به العذر ، وزاح به الباطل ، ودفع به الكفر "[٦] وإن كان قوله تعالى : (والراسخون في العلم) كلاماً مستأنفاً ، يبدأ بالمبتدأ الذي هو (الراسخون) وخبره جملة " يقولون " فالراسخون على هذا الوجه من القراءة لا يعــلمون تــأويل المتشابه في نفسه ، أو المتشابه الذاتي ــ كما سبق ــ وهو الذي استأثر الله تعالى بعلم تأويله . ولكل من الرأيين أدلته سأتناولها فيما يلي بالتفصيل .

*** أصحاب الرأي الأول وأدلتهم :**

وهم الذين ذهبوا إلى أن اعراب " الراسخون " معطوف على اسم الله تعالى فقد قال السيوطي : " على هذا الرأي طائفة ــ يسيرة منهم مجاهد " وهو راوية عن ابن عباس ، فأخرج ابن المنذر من طريق مجاهد عن ابن عباس في قوله : (ومــا يعلم تأويله إلا الله ، والراسخون في العلم)[٧] قال : أنا ممن يعلم تأويله "[٨] وذكره ابن كثير من رواية أبي نجيح عن مجاهد عن ابن عباس ، ثم قال ابن كثير : " وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد : والراسخون في العلم يعلمون تأويله ويقولون آمنا به ، وكذا قال الربيع بن أنس "[٩] .

ونقــل القرطبي كذلك عن الخطابي أن هذا القول هو قول الأقلين من العلماء ، وأن الأكثرين على القول الثاني وهو الوقف الــتام على قوله تعالى : (وما يعلم تأويله إلا الله)[١٠] وأن ما بعده استئناف كلام آخر وليس معطوفاً وهو قوله تعالى : (والراســخون فــي العلم يقولون آمنا به[٢]...)[١١] وكأن السيوطي تابع في هذا كلام الخطابي ، فردد مقالته ولكن ابن كثير يخــالف هــذا القــول فيقــول : " ومنهم من يقف على قوله : (والراسخون في العلم) وتبعهم كثير من المفسرين وأهل الأصول ، وقالوا : الخطاب بما لا يفهم بعيد "[١٢] .

---

(١) انظر : جامع البيان (١٨٢،١٨٣/٣) .
(٢) انظر : مقالات الاسلاميين (ص٢٢٤) .
(٣) انظر : تفسير القرآن العظيم (٧،٨/٢) .
(٤) انظر : محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي : أضواء البيان (٣٣١/١-٣٣٧) .
(٥) انظر : شرح الطحاوية (ص٢٣٤) .
(٦) تفسير القرآن العظيم (٨/٢) ، وابن جرير : جامع البيان (١٨٣/٣) رواه كل منهما عن محمد بن جعفر بن الزبير .
(٧) سورة آل عمران ، بعض الآية (٧) .
(٨) معترك الاقران (١٠٤/١) ، الاتقان (٣/٢) ، ابن جرير : جامع البيان (١٨٣/٣) .
(٩) تفسير القرآن العظيم (٨/٢) . وابن جرير : جامع البيان (١٨٣/٣) .
(١٠) سورة آل عمران ، بعض الآية (٧) .
(١١) الجامع لأحكام القرآن (١٢/٤) .
(١٢) ابن كثير : تفسير القرآن العظيم (٨/٢) .

والرواية عن مجاهد أوردها السيوطي في " المعترك " فقال : " أخرج عبد بن حميد عن مجاهد في قوله : (والراسخون في العلم) قال : يعلمون تأويله... ويقولون آمنا به "[١] .

وروى ذلك عنه ـ أيضاً ـ ابن جرير[٢] ، وقال القرطبي : " وقرأ مجاهد هذه الآية ، وقال : أنا ممن يعلم تأويله ، حكاه عنه إمام الحرمين أبو المعالي "[٣] .

واعترض القرطبي على الخطابي فقال : " ما حكاه الخطابي من أنه لم يقل بقول مجاهد غيره ، فقد روى عن ابن عباس أن الراسخين معطوف على اسم الله عز وجل ، وأنهم داخلون في علم المتشابه ، وأنهم مع علمهم يقولون : آمنا به ، وقاله الربيع ، ومحمد بن جعفر بن الزبير، والقاسم بن محمد ، وغيرهم ، و " يقولون " على هذا التأويل نصب على الحال من الراسخين "[٤] .

وممن رجح هذا القول أيضاً أبو بكر بن فورك ، وذهب إلى أن الراسخين يعلمون التأويل ، وأطنب في ذلك[٥] .

وذكر السيوطي هذا القول أيضاً عن الضحاك قال : الراسخون في العلم يعلمون تأويله ، ولو لم يعلموا تأويله ، لم يعلموا ناسخه من منسوخه ، ولا حلاله من حرامه ، ولا محكمه من متشابهه .

قال السيوطي : " واختار هذا القول النووي ، فقال في شرح مسلم : إنه الأصح ، لأنه يبعد أن يخاطب الله عباده بما لا سبيل لأحد من الخلق إلى معرفته ، وقال ابن الحاجب : إنه الظاهر "[٦] .

ونقل القرطبي عن شيخه أبي العباس أحمد بن عمر أن هذا القول هو الصحيح ، وقال فإن تسميتهم " راسخين " يقتضي أنهم يعلمون أكثر من المحكم الذي يستوي في علمه جميع من يفهم كلام العرب، وفي أي شئ هو رسوخهم إذا لم يعلموا إلا ما يعلم الجميع[٧] .

وممن قال أيضاً بأن الواو عاطفة : أبو القاسم الزمخشري (من المعتزلة) في تفسيره[٨] .

وأدلة هؤلاء يمكن تلخيصها فيما يلي بعد أن أقرر مذهبهم فأقول : قالوا : إن " الواو " في قوله تعالى : (...والراسخون) هي واو العطف ، وهذا مقتضى سياق اللغة ، فإذا كانت الواو حرف عطف فما بعدها معطوف على ماقبلها ، فصار " الراسخون " معطوفاً على اسم الله تعالى ، مما يقتضي أن الراسخين يعلمون تأويل المتشابه ، وتكون جملة " يقولون آمنا... " جملة حالية ، فيكون المعنى : وما يعلم تأويله إلا الله ، وكذلك الراسخون في العلم يعلمون تأويله حالة كونهم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وشاهده من اللغة قول الشاعر :

---

(١) معترك الاقران (١٠٤/١) ، الاتقان (٣/٢) ، وانظر : ابن كثير : تفسير القرآن العظيم (٨/٢) ، وابن جرير : جامع البيان (١٨٣/٣) ، صحيح البخاري كتاب التفسير (٦٥) باب (١) من تفسير سورة آل عمران (٣) الفتح (٢١٠/٨، ٢٠٩) .

(٢) انظر : جامع البيان (١٨٣/٣) .

(٣) القرطبي : الجامع لأحكام القرآن (١٣/٤) .

(٤) الجامع (١٣/٤) .

(٥) نفسه ، وانظر : أبو بكر محمد بن فورك : مشكل الحديث وبيانه (ص١٩٧) ولعله قد أطنب في كتابه المخطوط : " حل الآيات المتشابهات " .

(٦) معترك الاقران (١٠٥/١) ، والاتقان (٣/٢) ، وانظر كلام الامام النووي في شرحه لصحيح مسلم (٢١٧/١٦-٢١٨) .

(٧) انظر : الجامع لأحكام القرآن (١٤/٤، ١٣) ، وانظر : الشنقيطي : أضواء البيان (٣٣٣/١) .

(٨) انظر : الكشاف .

الـــريح تـــبـــكي شجـــوهـــا   والبرق يلمع في الغمامة[١]

فالواو هنا في قوله : (والبرق) عطفت " البرق " على " الريح " ، و " يلمع " في موضع الحال ، أي : لامعاً .

وذكـــروا أن الاستشهاد بهذا البيت إنما يستقيم لأنه يحتمل المعنيين ، فيجوز أن يكون " والبرق " مبتدأ ، والخبر " يـــلمع " ، فيكون مقطوعاً مما قبله ، ويجوز أن يكون معطوفاً على " الريح " ، و " يلمع " في موضع الحال ــ كما سبق ــ أي لامعـــاً ، قالوا : ومادام قد صح هذا في اللغة فإنه يصح في تأويل هذه الآية الكريمة لأن القرآن الكريم إنما يفسر على مقتضى قانون اللغة العربية لأنه نزل بلسان عربي مبين[٢] .

إلا أنه بعد إمعان النظر في هذا البيت الذي استشهدوا به اتضح لي فيه فارق بينه وبين الآية الكريمة ، فـ " الراسخون " إذا عُطِفـــوا عـــلى اسم الله تعالى اقتضى ذلك العطف اشتراك المعطوف والمعطوف عليه في الحكم ، فالله تعالى يعلم تأويل المتشابه ، وكذلك الراسخون في العلم يعلمون تأويله ، مع اعتقادنا الجازم بالفارق بين الصفتين[٣] .

لكـــن هذا البيت الذي جعلوه شاهداً للآية لا يفيد هذا المعنى ، فالريح جعلها الشاعر تبكي وهي استعارة كما يقوله عـــلماء اللغة ، والبكاء صوت كما أن الريح عند هبوبها تحدث صوتاً مسموعاً ، ولذلك قال : " تبكي شجوها " والشجو هنا هـــو الهـــبوب كمـــا قال صاحب اللسان : " ريح شَجَوْجَىً و شَجَوْجَاةٌ : دائمة الهبوب "[٤] فالريح تهب هبوباً مُحدِثاً صوتاً مسموعاً ، أما " البرق " فلمعانه لا يحدث صوتاً يكون مشتركاً بينه وبين الريح فيه ، فكيف يقال بأن " البرق " يسوغ عطفه عـــلى الـــريح فيبكي شجوه مع الريح حالة كونه لامعاً ؟؟ والبرق ليس له هبوب ولا صوت فيشارك الريح فيهما أو أحدهما بمقتضـــى هذا العطف ، وبناء على هذا المأخذ فإن " البرق " لا يصح عطفه على الريح بهذا الاعتبار ، والأولى أن يكون " البرق " مبتدأ خبره ما بعده .

وإعراب الآية على معنى العطف لا يتوقف على صحة الاستشهاد بهذا البيت .

وبعد تقرير مذهبهم ، فهذه أدلتهم ، وهي :

---

(١) انظر : الأشعري : مقالات الإسلاميين (ص٢٢٤) ، والقرطبي : الجامع (١٣/٤) ، والشنقيطي : أضواء البيان (٣٣٢/١) .

(٢) انظر : القرطبي : الجامع (١٣/٤) ، والشنقيطي : أضواء البيان (٣٣٢/١)

(٣) قـــال شيخ الاسلام ابن تيمية : " اتفاق المسميين في بعض الاسماء والصفات ليس هو التشبيه والتمثيل الذي نفته الأدلة السمعيات والعقليات وإنما نفت ما يستلزم اشتراكهما فيما يختص به الخالق مما يختص بوجوبه أو جوازه أو امتناعه ، فلا يجوز أن يشركه فيه مخلوق ، ولا يشركه مخلوق في شئ من خصائصـــه ســـبحانه وتعالى " التدمرية (ص٣٩،٤٠) وانظر التحفة المهدية (ص٩٦،٩٧) فعلم الرب تبارك وتعالى صفة كمال تليق به جل وعلا ، لا تشبهها صفة علم المخلوقين ، ولا تماثل علم المخلوقين ، وعلم المخلوقين يختص بهم - ويناسب ضعفهم وافتقارهم وعجزهم ، ولا يلزم من اتفاق الاسمين ــ كالعليم والرؤوف والرحيم ــ تماثل مسماهما ، ولا من اتفاق الصفتين تماثل موصوفاهما ، فالصفة في حق الخالق كما يليق بجلاله وعظمته مختصة به لا يشركه فيها مخلوق .

(٤) ابن منظور : لسان العرب (٤٢٤/١٤) ، مادة : " شجو " .

ـــ **أولاً :** أن الله تعـالى أنـزل القـرآن للعلم والعمل به ، ولا يتحقق العمل به إلا إذا فهمه العبد وتدبر آياته ، ووقف على معانيه وأحكامه ولا يتأتى هذا التدبر والفهم إلا إذا خاطبنا الله تعالى بما نفهمه ونعقله ، لذا لزم أن يكون المتشابه مما يعلمه ويفهمه الراسخون في العلم ، وخطاب الله لنا بما لا يفهم بعيد [١] ، لذا وجب أن يعلم الراسخون تأويل المتشابه .

ـــ **ثانيـاً :** أن الراسخين في العلم لو لم يَعلموا تأويل المتشابه ، لم يعلموا ناسخه من منسوخه ، ولا حلاله من حرامه ، ولا محكمه من متشابهه ، ولو لم يعلموا ذلك لم يكونوا راسخين ، وإنما مدحهم الله تعالى برسوخهم ، وأن رسوخهم هو علمهم ، وهم مع علمهم قالوا : آمنا به كل من عند ربنا ، فكيف يمدحهم وهم جهال ، ثم إنهم لو لم يعلموا تأويل المتشابه لا ستوى الراسخون وغيرهم ، ولم تكن لهم ميزة مدح على الآخرين[٢] .

ـــ **ثالـثاً :** أن النبي ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ دعا لابن عباس ـــ رضي الله عنهما ـــ قائلاً : " اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل "[٣] والتأويل هنا عام فيشمل المحكم والمتشابه فلزم على ذلك أن تأويل المتشابه مما يمكن العلم به .

وقـد ورد عـن ابـن عباس ما يؤكد ذلك حين قال : " أنا من الراسخين في العلم الذين يعلمون تأويله "[٤] ، ولقد صـدق رضي الله عنه[٥] ، فإن رسوخه هذا استجابة لدعاء النبي ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ له بأن يفقهه في الدين ويعلمه التأويل ، فثبت بذلك أن من الراسخين من يعلم تأويل المتشابه بنص الشارع .

ولكـن قولهـم بـأن هذا الدليل وهو قوله ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ : " وعلمه التأويل " يشمل تأويل المحكم والمتشابه فيه نظر ، ذلك لأن التأويل إذا قصد به معنى التفسير وبيان معاني الألفاظ العربية فلا اشكال فيه ، بل هو المتبادر من كلام النبي ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ وكلام ابن عباس ـــ رضي الله عنهما ـــ .

ـــ **رابعـاً :** أنـه ورد عن مجاهد أنه قال : " عرضت القرآن على ابن عباس ثلاثين مرة "[٦] وورد عنه أيضاً أنه قال : " عرضـت المصحف على ابن عباس ثلاث عرضات أقف عند كل آية منه وأسأله عنها فيم نزلت ، وكيف كانت "[١] ولهذا

---

(١) انظر : ابن كثير : تفسير القرآن العظيم (٨/٢) ، والسيوطي : معترك الاقران (١٠٥/١)، الاتقان (٣/٢) ، النووي : شرح صحيح مسلم (٢١٨/١٦) ، الحافظ الخطيب البغدادي : الفقيه والمتفقه (٦٣/١) .

(٢) انظر : ابن جرير الطبري : جامع البيان (١٨٣/٣) ، والقرطبي : الجامع لأحكام القرآن (١٣/٤) ، والشنقيطي : أضواء البيان (٣٣٣/١) ، وأبو بكر محمـد بن الحسن بن فورك : مشكل الحديث وبيانه (ص١٩٧) ت/ د.عبدالمعطي قلعجي ـــ دار الوعي ـــ حلب سورية ط١٤٠٢/١هـ ـ ١٩٨٢م .

(٣) حديـث صـحيح : رواه أحمـد (٢٦٦،٣١٤،٣٢٨،٣٣٥/١) والطبراني في " المعجم الكبير " (٢/٨٤/١) ، والبيهقي في " دلائل النبوة " ، والضياء المقدسي في " المختارة " بسند صحيح عن ابن عباس ، وهو عند البخاري بلفظ : " اللهم فقهه في الدين " من غير ذكر التأويل ، وفي لفظ : " اللهم علمه الحكمة " وفي لفظ " الكتاب " بدل " الحكمة " (٤٩٩/٤٤٥،٤/٣١،٢/١) وهو رواية لأحمد (٢١٤،٢٦٩،٣٥٩/١) والطبراني ، ورواه مسلم (١٥٨/٧) مختصـراً : بلفظ : " اللهم فقهه " وهو رواية لأحمد (٣٢٧/١) وفي أخرى له (٣٣٠/١) عن ابن عباس قال : ...فدعا الله أن يزيدني علماً وفهمـاً ، وذكـر ابن حجر في شرحه على صحيح البخاري أن البغوي أخرج في معجم الصحابة من طريق زيد بن أسلم عن ابن عمر : كان عمر يدعـو ابـن عباس ، ويقربه ويقول : إني رأيت رسول الله ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ دعاك يوماً فمسح رأسك وقال : " اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل " الفتح (١٧٠/١) . وانظر ت الالباني لشرح العقيدة الطحاوية (ص٢٣٤) .

(٤) ابـن جرير : جامع البيان (١٨٣/٣) ، ابن كثير : تفسير القرآن العظيم (٨/٢) ، القرطبي : الجامع (١٥/٤) ، شرح الطحاوية (ص٢٣٤) ، السيوطي : الاتقان (٣/٢) ، معترك الأقران (١٠٤/١) ، ابن تيمية : تفسير سورة الاخلاص (ص١٣٨) .

(٥) شرح الطحاوية (ص٢٣٤) .

(٦) السيوطي : الاتقان (١٨٩/٢) .

قـال الـثوري : إذا جاء التفسير عن مجاهد فحسبك به[٢] ، قال ابن تيمية : " ولهذا يعتمد على تفسيره الشافعي والبخاري وغيرهما من أهل العلم ، وكذلك الإمام احمد وغيره ممن صنف في التفسير يكرر الطرق عن مجاهد أكثر من غيره "[٣] .

والمقصـود أنه قد تواترت النقول عن مجاهد أنه تكلم في معاني القرآن الكريم ، ولم يقل عن آية من آياته : إنها مـن المتشـابه الـذي لا يعلم تأويله إلا الله تعالى[٤] ، فإذا كان الأمر كذلك ، فإنه يصح أن يقال : إن الراسخين في العلم يعلمون تأويل المتشابه .

هذه هي أدلة أصحاب القول الأول .

<u>* أصحاب الرأي الثاني وأدلتهم :</u>

وهم القائلون بأن لفظة " الراسخون " وقعت بعد واو الاستئناف وهي مبتدأ لكلام جديد ، وخبره جملة " يقولون آمنا به... " وعلى هذا فالراسخون لا يعلمون تأويل المتشابه ، وذكر السيوطي أن هذا هو رأي الأكثرين من الصحابة والتابعين وتابعيهم ومن بعدهم ، فمن نقل عنهم هذا القول من الصحابة ــ رضي الله عنهم ــ : عمر ، وابن عباس ، وعائشة ، وابن مسعود ، وأبي بن كعب ، ومن بعدهم عروة بن الزبير ، وعمر بن عبدالعزيز نقله عنهم القرطبي[٥] ، وابن جرير الطبري ، ونقله ابن جرير أيضاً عن يونس عن أشهب عن مالك بن أنس[٦] وهو مذهب الكسائي والأخفش ، والفراء ، وأبي عبيد[٧]

وقال أبو نهيك الأسدي : إنكم تصلون هذه الآية[٨] وإنها مقطوعة ، وما انتهى علم الراسخين إلا إلى قولهم : آمنا بـه كل من عند ربنا[٩] ، وممن روى عنه أن الراسخين لا يعلمون تأويل المتشابه أبو الشعثاء كما عند ابن كثير[١٠] ، وقال السيوطي : " وهو أصح الروايات عن ابن عباس "[١١] وقد روى عنه أنه قال بالقول الأول أيضاً ــ كما سبق ــ فقد نقل عنه القولان إذاً .

<u>* وأدلة هؤلاء يمكن تلخيصها فيما يلي :</u>

---

(١) نفسه ، ابن تيمية تفسير سورة الاخلاص (ص١٤٢ــ١٤٣) : مقدمة في أصول التفسير (ص٦٦) مجموعة الرسائل والمسائل (١٩٧/١) ، وابن جرير جامع البيان (٤٠/١) وابن كثير : تفسير القرآن العظيم (١٥/١) ، وانظر : شرح العقيدة الطحاوية (ص٢٣٤) ، وابن عثيمين : أصول في التفسير (ص٣٧) .

(٢) الاتقان (١٨٩/٢)، ابن جرير : جامع البيان (٤٠/١) ، وابن كثير : تفسير القرآن (١٥/١)، ابن تيمية : مقدمة في أصول التفسير (ص٦٧،٦٦) .

(٣) مقدمة في أصول التفسير (ص٦٧) ، وانظر : الاتقان (١٨٩/٢) ، وابن عثيمين : أصول في التفسير (ص٣٧) .

(٤) انظر : شرح العقيدة الطحاوية (ص٢٣٤) .

(٥) انظر : الجامع لأحكام القرآن (١٢/٤) .

(٦) انظـر ابـن جريـر : جامع البيان (١٨٣/٣) ــ القرطبي : الجامع لأحكام القرآن (١٢/٤) وابن كثير : تفسير القرآن العظيم (٨/٢) ، والشنقيطي : أضواء البيان (٣٣٢/١) .

(٧) انظر الشنقيطي : أضواء البيان (٣٣٢/١) .

(٨) يقصد آية {٧} من آل عمران وهي قوله تعالى (وما يعلم تأويله إلا الله...) .

(٩) ابن جرير : جامع البيان (١٨٣/٣) ، القرطبي : الجامع لأحكام القرآن (١٣/٤) ، والشنقيطي : أضواء البيان (٣٣٢/١) .

(١٠) انظر تفسيره (٧/٢) .

(١١) معترك الاقران (١٠٥/١) ، الاتقان (٣/٢) .

أولاً : أن الله تعالى ذم المتبعين للمتشابه ، ووصفهم بالزيغ وابتغاء الفتنة ، وما ذلك إلا لأنهم راموا المستحيل ، في طلب ما اختص الله تعالى بعلمه ، وأرادوا أن يشاركوه تعالى في علم استأثر به هو لنفسه الكريمة ــ جل وعلا[١] .

ثانياً : أنه تعالى مدح الذين فوضوا العلم إليه سبحانه ، وأثني عليهم بتسليمهم له ، وشهد لهم برسوخ قدمهم في العلم وما ذاك إلا لمعرفتهم بأقدارهم العاجزة ، أمام قدرة الخالق تعالى وعلمه المحيط[٢] .

وهذا نص كلام لابن قدامة " في روضة الناظر " يؤيد ما قلناه في " أولاً " و " ثانياً " قال : " ...ولأن في الآية قرائن تدل على أن الله سبحانه ، متفرد بعلم المتشابه ، وأن الوقف الصحيح عند قوله : (وما يعلم تأويله إلا الله) لفظاً ومعنى :

أما اللفظ : فلأنه لو أراد عطف الراسخين لقال : ويقولون آمنا به بالواو. وأما المعنى : فلأنه ذم مبتغى التأويل ، ولو كان ذلك للراسخين معلوماً لكان متبعه ممدوحاً لا مذموماً ، ولأن قولهم آمنا به ، يدل على نوع تفويض وتسليم لشئ لم يقفوا على معناه ، سيما إذا تبعوه بقولهم كل من عند ربنا ، فذكرهم ربهم ههنا يعطى الثقة به والتسليم لأمره . وأنه صدر من عنده ، كما جاء من عنده المحكم ، ولأن لفظة " أما " لتفصيل الجمل ، فذكره لها في الذين في قلوبهم زيغ مع وصفه إياهم باتباع المتشابه وابتغاء تأويله يدل على قسم آخر يخالفهم في هذه الصفة وهم الراسخون ، ولو كانوا يعلمون تأويله لم يخالفوا القسم الأول في ابتغاء التأويل وإذ قد ثبت أنه غير معلوم التأويل لأحد فلا يجوز حمله على غير ما ذكرناه "[٣] .

ثالثاً : إن دلالة الاستقراء في القرآن الكريم تؤيد أن الواو استئنافية لا عاطفة ، وبيان ذلك : أنه تعالى إذا نفى عن الخلق شيئاً وأثبته لنفسه ، اختص به تعالى وحده ، ولا يكون له في ذلك الاثبات شريك وذلك كقوله تعالى : (قل لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله...)[٤] وقوله تعالى : (لا يجليها لوقتها إلا هو...)[٥] وقوله تعالى كذلك : (كل شئ هالك إلا وجهه...)[٦] فعلم الغيب ، وعلم وقت الساعة ، وبقاؤه سبحانه الدائم ، كل هذا مختص به جل وعلا دون سواه .

فالمطابق لذلك أن يكون قوله تعالى : (وما يعلم تأويله إلا الله...) معناه : أنه لا يعلمه إلا هو سبحانه وحده لا يشاركه فيه أحد[٧] لذلك قال الخطابي : " لو كانت الواو في قوله : (والراسخون) للنسق لم يكن لقوله (كل من عند ربنا) فائدة . والقول بأن الوقف تام على قوله (إلا الله) وأن قوله : (والراسخون) ابتداء كلام هو قول جمهور العلماء للأدلة القرآنية التي ذكرنا "[٨] .

---

(١) انظر ابن حجر : فتح الباري (٢١٠/٨) ، السيوطي : معترك الاقران (١٠٥/١) ، الاتقان (٣/٢) ، والشنقيطي : أضواء البيان (٣٣١/١) ومذكرة أصول الفقه (ص٦٤) وكذلك أصلها وهو " روضة الناظرين " لابن قدامة .

(٢) السيوطي : معترك الاقران (١٠٥/١) ، الاتقان (٣/٢) ، الشنقيطي : مذكرة أصول الفقه (ص٦٤) .

(٣) ابن قدامة المقدسي : روضة المناظر ، وانظر : محمد الأمين الشنقيطي : مذكرة في أصول الفقه (ص/٦٤) .

(٤) سورة النمل ، بعض الآية (٦٥) .

(٥) سورة الاعراف ، بعض الآية (١٨٧) .

(٦) سورة القصص ، بعض الآية (٨٨) .

(٧) انظر : الشنقيطي : أضواء البيان (٣٣٢/١) ، القرطبي : الجامع (١٣/٤) .

(٨) الشنقيطي : أضواء البيان (٣٣٢/١) .

رابعاً : أنــه على القول بأن الواو عاطفة يرد إشكال لغوي قوي يدل على منع القول بأن جملة " يقولون " حال ، وبالتالي عــلى مــنع القــول بالعطف في " الراسخون " . وبيانه أن نقول : " إن المعروف في اللغة العربية أن الحال قيد لعاملها ، ووصــف لصــاحبها ، فيشكل تقييد هذا العامل الذي هو " يعلم " بهذه الحال التي هي " يقولون آمنا " إذ لا وجه لتقييد علم الراســخين بتأويله ، بقولهم آمنا به ، لأن مفهومه أنهم في حال عدم قولهم : آمنا به لا يعلمون تأويله ، وهو باطل وهذا الإشكال قوي وفيه الدلالة على منع الحالية في جملة " يقولون " على القول بالعطف "[١] .

وأجاب أصحاب القول الأول عن هذا الإشكال بقولهم : إن جملة " يقولون آمنا به " إذا لم يصح أن تعرب حالاً ، فهــي تعــرب معطوفاً بحرف عطف محذوف ، قالوا : والعطف بالحرف المحذوف أجازه ابن مالك وجماعة من علماء العــربية ، وهو التحقيق ، وأنه ليس مختصاً بضرورة الشعر ، وله شواهد في القرآن تؤيده كما في قوله تعالى : (وجوهٌ يومئذ ناعمة)[٢] فإنه معطوف بلاشك على قوله تعالى : (وجوهٌ يومئذ خاشعة)[٣] بالحرف المحذوف الذي هو الواو ، ويــدل له اثبات الواو في نظيره في قوله تعالى في سورة القيامة : (وجوهٌ يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة ، ووجوهٌ يومئذ باسرة...)[٤] الآية وقوله تعالى في عبس : (وجوهٌ يومئذ مسفرة ضاحكة مستبشرة ، ووجوه يومئذ عليها غبرة)[٥] الآيات ، ومــنه قوــله تعــالى : (ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه...)[٦] الآية ، معناه : وقلت ، بــالعطف بــواو محذوفــة وهــو أحد الاحتمالأت التي ذكرها ابن هشام في المغني ، وغير ذلك من الشواهد ــ وبهذا يرد الإشكال فلا اشكال[٧] .

خامساً : أن بعض الراسخين قد اشكل عليهم بعض تفسير القرآن حتى قال ابن عباس : " لا أدري ما الأواه ، ولا ما غسلين "[٨] وهــذا يدل على أن الراسخين في العلم فضلاً عن غيرهم لا سبيل لهم إلى العلم بتأويل المتشابه وليس لهم غير التسليم والإيمان به كما أخبر الله تعالى عنهم .

ويجــاب عنه بأن هذا لا يلزم ، لأن ابن عباس قد علم بعد ذلك ففسر وما توقف في آية ، كما قد ورد عن مجاهد أنه قال : عرضت المصحف على ابن عباس من أوله إلى آخره أقف عند كل آية وأساله عنها[٩] ، وقد ذكر ابن أبي العز أنه قد تواترت النقول عنه (أي مجاهد) أنه تكلم في جميع معاني القرآن ، ولم يقل عن آية إنها من المتشابه الذي لا يعلم تأويله إلا الله[١٠] .

---

(١) السابق نفسه (٣٣٥/١) .
(٢) سورة الغاشية الآية (٨) .
(٣) سورة الغاشية الآية (٢) .
(٤) سورة القيامة الآيات (٢٤،٢٣،٢٢) .
(٥) سورة عبس الآيات (٤٠،٣٩،٣٨) .
(٦) سورة التوبة ، بعض الآية (٩٢) .
(٧) انظر : الشنقيطي : أضواء البيان (٣٣٥/١) .
(٨) القرطبي : الجامع لأحكام القرآن (١٣/٤) .
(٩) انظر : ابن تيمية : مقدمة في أصول التفسير (ص٦٦) ، والسيوطي : الاتقان (١٨٩/٢) وابن عثيمين أصول في التفسير (ص٣٧) .
(١٠) انظر : شرح العقيدة الطحاوية (ص٢٣٤) .

كما أنه سبحانه لم يقل وكل راسخ يعلم تأويله ، فإذا لم يعلمه أحد علمه الآخر[١] .

وتحقيق المسألة والفصل فيها أن يقال :

لا شك أن في القرآن الكريم أشياء لا يعلمها إلا الله تعالى وحده ، ولا سبيل لأحد من الخلق إلى علم تأويله ، كحقيقة الروح ، لأن الله تعالى يقول : (ويسألونك عن الروح ، قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا)[٢] ، وكمفاتح الغيب التي نص على أنها لا يعلمها إلا هو- عز وجل - بقوله (وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو...)[٣] وقد ثبت عن النبي – صلى الله عليه وسلم – أنها الخمس المذكورة في آخر سورة لقمان ، قال البخاري – رحمه الله – : " باب : (وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو...)[٤] ثم روى بسنده عن سالم بن عبدالله عن أبيه " أن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ قال : مفاتح الغيب خمس : (إن الله عنده علم الساعة ، وينزل الغيث ، ويعلم ما في الأرحام ، وما تدري نفس ماذا تكسب غداً ، وما تدري نفس بأي أرض تموت ، إن الله عليم خبير[٥] "[٦] .

وروى هذا أيضاً ابن جرير[٧] ، ونقله ابن كثير[٨] ، وكذا القرطبي[٩] ، والسيوطي[١٠] ، والشوكاني[١١] ، وغيرهم .

وكذلك يدخل في الأمور التي لا يعلمها إلا الله تعالى وحده الحروف المقطعة في أوائل السور كقوله تعالى الم ، و المر ، و الر ، و كهيعص ، و طه ، و يس ونحوها .

وكذلك نعيم الجنة فحقيقته الكاملة لا يعلمها أحد ولا تطلع عليها نفس كما قال الله تعالى : (فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كان يعلمون)[١٢] فتأويل ما أخبر الله تعالى به من نعيم الجنة ، من الأكل والشرب ، واللباس ، والنكاح ، وقيام الساعة ، وغير ذلك هو الحقائق الموجودة أنفسها ، لا ما يتصور في الأذهان ويعبر عنه باللسان[١٣] .

---

(١) انظر القرطبي : الجامع لأحكام القرآن (١٣/٤) .
(٢) سورة الإسراء ، بعض الآية (٨٥) .
(٣) سورة الأنعام ، بعض الآية (٥٩) .
(٤) سورة الأنعام ، بعض الآية (٥٩) .
(٥) سورة لقمان ، الآية (٣٤) .
(٦) صحيح البخاري ــ كتاب التفسير (٦٥) تفسير سورة الأنعام (٦) باب (١) ح رقم (٤٦٢٧) انظر : الفتح (٢٩١/٨) ، ورواه أيضاً في تفسير سورة لقمان (٣١) باب (٢) ح رقم (٤٧٧٧)، رقم (٤٧٧٨) ، ورواه من وجه آخر في كتاب الاستسقاء (١٥) باب (٢٩) ح رقم (١٠٣٩) الفتح (٥٢٤/٢) . ونحوه رواه مسلم في " صحيحه " (٣٩/١) كتاب الإيمان (١) باب (١) ح رقم (٥) . ورواه الإمام أحمد في " مسنده " (٣٨٦،٤٣٨،٤٤٥/١) ، (٨٥/٢-٨٦) و (٣٥٣/٥) .
(٧) انظر : جامع البيان (٢١٣/٧) موقوف على ابن عباس في تفسير سورة الأنعام ، ورواه مرفوعاً من حديث عمرو بن شعيب ، ومن حديث عبدالله بن عمر ، وعبدالله بن مسعود وأبي هريرة ــ رضي الله عنهم جميعاً ــ ، انظر : جامع البيان (٨٨،٨٩/٢١) في تفسير سورة لقمان.
(٨) انظر : تفسير القرآن العظيم (٢٦٠/٣) و كذلك (٣٥٤/٦-٣٥٨) .
(٩) انظر : الجامع لأحكام القرآن (٣،٤/٧) ، وكذلك (٥٥/١٤-٥٦) .
(١٠) انظر : الدر المنثور (٢٧٧/٣-٢٧٩) ، وكذلك (٥٣١/٦-٥٣٣) ، وعزاه أيضاً لابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردوية .
(١١) انظر : فتح القدير : (١٢٣/٢) تفسير سورة الأنعام الآية (٥٩) وكذلك (٢٤٥/٤-٢٤٦) عند تفسير سورة لقمان الآية (٢٤) .
(١٢) سورة السجدة ، الآية (١٧) .
(١٣) انظر : ابن تيمية : الفتوى الحموية الكبرى (ص٢٢) .

وكذلــك في القرآن أشياء ، يعلمها الراسخون في العلم دون غيرهم كقوله تعالى : (فو ربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون)[١] ، وقوله (فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين)[٢] مع قوله : (فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان)[٣] وقوله : (ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون)[٤] وكقوله : (وروح منه)[٥] .

وبالتأمل في كلا الرأيين نجد أن كل فريق من الفريقين له في رأيه ملحظ فأصحاب الرأي الأول وهم القائلون بأن الواو عاطفة ، وأن الراسخين يعلمون تأويل المتشابه جعلوا معنى التأويل التفسير ، وفهم المعنى اللغوي الذي نزل به القرآن ، والراسخون يفهمون ما خوطبوا به ، وإن لم يحيطوا علماً بحقائق الأشياء على كنه ما هي عليه .

والذيــن قــالوا هي استئنافية جعلوا معنى التأويل حقيقة ما يئول إليه الأمر ، وذلك لا يعلمه إلا الله تعالى وحده ، وبهذا يفصل المقال ويحسم النزاع ويكون كلا الرأيين صحيح وحق كما صرح بذلك شارح الطحاوية[٦] .

ذلك لأن أصحاب القول بالوقف على لفظ الجلالة ، يستبعدون أن يكون هناك بشر يشارك رب العزة جل وعلا في علم غيوبه ، وهذا حق وصدق ، ولا يقول مسلم عاقل غيره بحال .

وأصـــحاب القول بالوقف على " الراسخون في العلم " ، يستبعدون أن يكون تفسير القرآن ، وبيان معناه لا يعلمه إلا الله ، فيبقى القرآن العظيم بمنزلة الرموز التي لا تفهم معانيها ، ولا تعرف أحكامها ، في الوقت الذي أنزل فيه من لدن حكيم حميد ليُفهم و يُتدبر .

والله تعالى منزله هو الذي أمر عباده بالتدبر لأياته والفهم لمعانيه ، وأخبر أن العلة والغاية من إنزاله هو ذلك الفهــم والــتدبر والفقه لأحكامه ، قال تعالى : (كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب)[٧] وقال جل وعــلا : (أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها)[٨] وقال عز وجل : (أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجــدوا فيه اختلافاً كثيراً)[٩] وقال عز وتقدس : (...قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون)[١٠] ومن هنا وجب القول بأن جميع الأقــوال الــتي رويت على أن الوقف في القراءة على لفظ الجلالة ، هي محمولة على أن المراد بالتأويل على هذا الوجه عواقب أخبار القرآن و مصائرها ، وأن جميع ما روى على أن الوقف في التلاوة على قوله تعالى : (والراسخون في العلم)[١١] محمول على أن التأويل في الآية هو التفسير والبيان .

---

(١) سورة الحجر ، الأيتان (٩٢،٩٣) .
(٢) سورة الأعراف ، الآية (٦) .
(٣) سورة الرحمن ــ جل وعلا ــ ، الآية (٣٩) .
(٤) سورة القصص ، الآية (٧٨) .
(٥) سورة النساء ، الآية (١٧١) .
(٦) انظر : (ص/٢٣٤) .
(٧) سورة ص ، الآية (٢٩) .
(٨) سورة سيدنا محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ ، الآية (٢٤) .
(٩) سورة النساء ، الآية (٨٢) .
(١٠) سورة الأنعام ، الآية (٩٨) .
(١١) سورة آل عمران ، بعض الأية (٧) .

عــلى أنــنا إذا رجعنا إلى موقف السلف وأقوالهم وجدناهم قد تكلموا في معنى كل آية ، ولم يستثنوا آية واحدة أو كفوا عن بيان معناها بدعوى أنها متشابهة ، أو أنه لا معنى لها ، ولم يكن بينهم خلاف ولا نزاع في هذا الشأن ، وإنما نشأ الخــلاف بيــن المتأخرين بسبب خطئهم في فهم معنى التأويل في الآية موضوع النزاع ، ونتج عن ذلك أن جعلوا المسألة مســألة نزاع وخلاف بين السلف[١] ، والأمر ليس كذلك ومما يهمنا هنا أن شيخ الإسلام ابن تيمية قد رجح أن تكون الواو عاطفــة ، من قبيل عطف المفرد على المفرد ، ويكون الراسخون في العلم يعلمون معنى المتشابه من القرآن ، ولكنه أيضاً لا يمــنع مــن جواز القول بأن الواو للإستئناف على اعتبار أن يكون التأويل المنفي علمه عن الراسخين غير التأويل الذي يعلمونه[٢] .

ويؤكــد ابن تيمية ما ذهب إليه فيتتبع أقوال العلماء في معنى المتشابه فلا يجد رأياً منها إلا وقد بين السلف معناها وفسروه ووضحوه .

فــإذا كان المتشابه هو المنسوخ على ما قال ابن مسعود ، وابن عباس ، وقتادة ، والسدى وغيرهم ، فالعلماء يقيناً يعــلمون معــناه ، لأنهم يعلمون معنى المنسوخ سواء كان منسوخاً لفظه ، أو لفظه ومعناه معاً ، وهذا يدل في نظره على ضعف الرواية عن ابن عباس وابن مسعود أن الراسخين في العلم لا يعلمون معنى المتشابه[٣] .

وإن كــان المتشابه أخبار القيامة وما فيها ، فمعلوم أن وقت القيام الساعة و حقيقة أمرها لا يعلمه إلا الله ، ولكن هــذا لا يدل على أننا لم نفهم معنى الخطاب الذي خوطبنا به ، والفرق بيِّن وواضح بين معرفة الخبر ، وبين معرفة حقيقة المخبر عنه .

وإن كــان المتشــابه أوائــل السور المفتتحة بحروف المعجم ، فهذه الحروف ليست كلاماً تاماً يتكون من الجمل الاسمية والفعلية ، و لهذا لم تعرب لأن الإعراب جزء من المعنى ، بل ينطق بها موقوفة كما يقال : أ ، ب ، ت ، ولهذا تكــتب في صورة الحروف المقطعة ، لا بصورة اسم الحرف أي لا تكتب : ألف ، لام ، هكذا ، وإذا كان ما سواها محكماً حصل المقصود ، فإنه ليس المقصود إلا معرفة كلام الله ، وكلام رسوله ــ صلى الله عليه وسلم ــ .

وإن قيــل ــ كمــا يقال ــ إن المتشابه آيات الصفات ، فمعلوم بين المسلمين أنهم يفهمون من صفة الرحمة معنى غيــر صــفة القــدرة ، ويفهمون من صفة العلم معنى غير ما يفهم من صفة الإرادة ، وإنما نفى السلف علمهم بكيفية هذه الصفات كلها ، وعدم علمهم بكيفية الصفة لا ينفي علمهم بمعناها ، فإنهم فهموا معاني جميع ما خوطبوا به في كتاب الله ــ جــل وعلا ــ[٤] ، والذين قالوا إن آيات الصفات لا يُعلم معناها ، والله اعلم بمراده منها يسميهم ابن تيمية " أهل التجهيل " ذلك لأنهم وصفوا الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ والسلف بأنهم يجهلون معاني الصفات ، ولم يعرفوا معانيها ، قال ابن

---

(١) انظر : ابن تيمية : تفسير سورة الإخلاص (ص١١٠-١١٧) ، والفتوى الحموية الكبرى (ص٢١-٢٣) ، والاكليل في المتشابه والتأويل (ص٣٠-٣)

(٢) انظر : تفسير سورة الإخلاص (ص١٢٤) ، والإكليل (ص٣٥) .

(٣) انظر : تفسير سورة الإخلاص (ص١٤٢/١٤٣) .

(٤) انظــر : الســابق نفســه (ص١٥٠،١٢١) ، وانظر : موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول (٤٠/١) ، مجموع الفتاوي (٢٣٤/٥) ، الحموية (ص ٢١،٢٢،٢٣) ، الأكليل (ص٣٣) ، مجموعة الرسائل والمسائل (١٩٧/١،١٩٦) .

تيميـة : " وأما الصنف الثالث : وهم أهل التجهيل فهم كثير... يقولون : إن الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ لم يعرف معـاني مـا أنزل الله إليه من آيات الصفات ولا جبريل يعرف معاني الآيات ، ولا السابقون الأولون عرفوا ذلك ، وكذلك قولهـم فـي أحاديث الصفات : إن معناها لا يعلمه إلا الله ، مع أن الرسول تكلم بها ابتداءً فعلى قولهم تكلم بكلام لا يعرف معناه "[١] .

وهـذا ما لا ينبغي أن يقوله مسلم رضي بمحمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ نبياً ورسولاً مبلغاً عن الله تعالى دينه وشرعه ، وبينه للأمه كما أمره ربه تبارك وتعالى بقوله : (...وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم...)[٢] ويجدر بـنا أن نشير هنا إلى أن أبا حامد الغزالي قد ذكر في " إحيائه " أن الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ كان كثيراً ما يردد الآية اكثر من مرة ، متأملاً في معناها ، وجعل أبو حامد التدبر في معاني القرآن أدباً من آداب التلاوة ، لأن المقصود من القراءة هو التدبر فلا خير في عبادة لا فقه فيها ، ولا من قراءة لا تدبر فيها ، كما أن على كل قارئ أن يستوضح من كل آية ما يليق بها[٣] .

وقد عقد فصلاً خاصاً عن ذم قراءة الغافلين ، يقول في ذلك : " وتلاوة القرآن حق تلاوته هو أن يشترك فيه اللسـان والعقل والقلب ، فحظ اللسان تصحيح الحروف بالترتيل ، وحظ العقل تفسير المعاني ، وحظ القلب الاتعاظ والتأثر بالانـزجار والائـتمار ، فاللسان يرتل ، والعقلُ يترجم ، والقلب يتعظ "[٤] ، وخلاصة القول أن الراسخين في العلم يعلمون جميـع معـاني القرآن الكريم بمحكمه ومتشابهه ، وهي المعاني التفسيرية للألفاظ والآيات وما تدل عليه من أحكام ، وأما حقيقـة كيفيـة الصفات وأمور القيامة ــ كما تقدم ــ وما يُرزقه أهل الجنة فيها بكرة وعشياً ، ونحو ذلك وكذلك الحروف المقطعة ــ في أوائل السور ، فهذا كله مما استأثر الله تعالى بعلمه ، فلا يعلم أحد تأويله .

المبحث الثالث : هل تعتبر آيات الصفات من المتشابه ؟

يـرى السيوطي أن آيات الصفات من المتشابه ، ذكر ذلك صريحاً في " معترك الاقران " وغيره ، حيث قال : " مـن المتشابه آيات الصفات... وجمهور أهل السنة : منهم السلف وأهل الحديث ، على الإيمان بها وتفويض معناها المراد منها إلى الله ــ تعالى ــ ولا نفسرها مع تنزيهنا له عن حقيقتها "[٥] وذكر هذا أيضاً بنفس لفظه في الاتقان[٦] .

وهذا الذي ذكره السيوطي هو حقيقة مذهب أهل التفويض الذين جعلوا نصوص الصفات من المتشابه الذي لا يعلم معـناها إلا الله ــ تعـالى ــ ، وينسبون ذلك إلى السلف وأهل الحديث ــ كما هو واضح في كلام السيوطي ويزعمون ــ أعني أهل التفويض ــ أن السلف وأهل الحديث كانوا يتلون نصوص الصفات ولا يفهمون معناها ويروون أحاديث الصفات ولا يفهمون لها معنى كذلك ، ولكن السلف وأهل الحديث براء من هذا المذهب التفويضي الذي نسبه إليهم السيوطي وأمثاله

---

(١) الفتوى الحموية الكبرى (ص٢١) ، وانظر : تفسير سورة الإخلاص (ص١٠٧-١١٠) .
(٢) سورة النحل ، بعض الآية (٤٤) .
(٣) انظر : احياء علوم الدين ــ كتاب آداب التلاوة (ص٥١١) ط الشعب .
(٤) السابق نفسه ــ كتاب آداب التلاوة (ص٥١٩) .
(٥) معترك الاقران في إعجاز القرآن (١١١/١) .
(٦) الاتقان في علوم القرآن (٦/٢) .

، ولقد تقدم مني الكلام أنهم فسروا جميع آيات القرآن الكريم ونصوص الأحاديث الشريفة ، ولم يدع أحد منهم في شئ من نصوص الصفات أنها من المتشابه الذي لا يعلم معناه أحد من الخلق ، فلينظر هناك فإنه يغني عن إعادته هنا . وممن ذهب أيضـــاً إلى أن آيات الصفات من المتشابه موفق الدين ابن قدامة المقدسي ، حيث قال : " والصحيح أن المتشابه ما ورد في صفات الله سبحانه وتعالى مما يجب الإيمان به ويحرم التعرض لتأويله "[١] وكلام الشيخ ابن قـــدامة ـــ رحمه الله ـــ يحتاج إلى تفصـــيل ، فـــإن كان يعني بأنها من المتشابه باعتبار كيفيتها فهو حق ، لأن الكيفية مجهولة لنا ، وهي مما استأثر الله بعلمه ، وإن كان يعني أنها لا يعرف معناها في اللغة ـــ كما يقوله أهل التفويض ـــ فهذا ما لا يصح أن يقال ، وهو مستبعد من مثله أن يقصد هذا المعنى لأنه حنبلي المذهب ، والمعروف عن الحنابلة عموماً شدة تمسكهم بعقيدة أهل السنة والجماعة تـــبعاً لإمـــامهم أبي عبدالله أحمد بن حنبل ـــ رحمه الله ـــ إلا من شذ منهم كأبي الفرج ابن الجوزي ، والقاضي أبي يعلى ، وابن عقيل ، وأمثالهم[٢] ، وكذلك قوله : " يحرم التعرض لتأويله " يحتاج أيضاً إلى تفصيل ، فإن كان يقصد بالتأويل التفسير وبيـــان معاني الآيات على مقتضى قواعد اللغة العربية ومعانيها التي نزل القرآن الكريم بها ، فهذا لا يحرم بل هو مطلوب لفهم معاني كتاب الله ـــ جل وعلا ـــ وهذا مستبعد منه ـــ رحمه الله تعالى ـــ .

وإن كـــان قصده بالتأويل ذلك النوع الذي يسلكه الجهمية نفاة الصفات ، وهو صرف اللفظ عن ظاهره فكلامه في ذلـــك حـــق ، فإنه يحرم تأويل الصفات بما يؤدي إلى تعطيل الخالق ـــ جل وعلا ـــ عنها ، وهذا الذي ينبغي أن يظن في الشيخ موفق الدين ـــ رحمه الله تعالى ـــ ويدل لهذا أنه قد صنف رسالة قيمة سماها : " ذم التأويل "[٣] ضمنها المذهب الحق ، وهـــو مذهب السلف في صفات الله ـــ عز وجل ـــ وبين كيف أنهم تلقوا أخبارها وأثبتوا ما جاء فيها بدون تأويل لها ، ورد على شبه القائلين بأن السلف عندما اثبتوا هذه الصفات العلية إنما قاموا بتأويلها ليستقيم المراد منها[٤] .

قـــال الشيخ الشنقيطي : " وقول المؤلف[٥] ـــ رحمه الله ـــ في هذا المبحث : " والصحيح أن المتشابه ما ورد في صفات الله سبحانه وتعالى مما يجب الإيمان به ، ويحرم التعرض لتأويله كقوله تعالى : (الرحمن على العرش استوى)[٦] " ... إلى آخـــره ، لا يخـــلو من نظر ، لأن آيات الصفات لا يطلق عليها اسم المتشابه بهذا المعنى من غير تفصيل ، لأن

---

(١) روضة الناظر وجُنة المناظر . ضمن مذكرة أصول الفقه الشنقيطي (ص٦٤) .

(٢) قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـــ رحمه الله تعالى ـــ في " درء تعارض العقل والنقل " (٣٤/٧) : " ...ونوع ثالث سمعوا الأحاديث والآثار ، وعظموا مذهب السلف ، وشاركوا المتكلمين الجهمية في بعض أصولهم الباقية ، ولم يكن لهم من الخبرة بالقرآن والحديث والآثار ما لأئمة السنة والحديث ، لا مـــن جهة المعرفة والتمييز بين صحيحها وضعيفها ، ولا من جهة التفهم لمعانيها ، وقد ظنوا صحة بعض الأصول العقلية للنفاة الجهمية ، ورأوا ما بينهما من التعارض وهذا حال أبي بكر بن فورك ، والقاضي أبي يعلى ، وابن عقيل وأمثالهم ، ولذلك كان هؤلاء تارة يختارون طريقة أهل التأويل كما فعلـــه ابن فورك وأمثاله في الكلام على مشكل الآثار ، وتارة يفوضون معانيها ، ويقولون : تجرى على ظواهرها كما فعله القاضي أبو يعلى وأمثاله في ذلك ، وتارة يختلف اجتهادهم ، فيرجحوا هذا تارة ، وهذا تارة كحال ابن عقيل وأمثاله ، وهؤلاء قد يدخلون في الأحاديث ما هو كذب موضوع ، ولا يعرفون أنه موضوع ، وما له لفظ يدفع الاشكال ، مثل أن يكون رؤيا منام فيظنونه كان في اليقظة ليلة المعراج... " .

(٣) طـــبعت هـــذه الرسالة ضمن مجموع ، قام على طباعتها الشيخ محمد أحمد عبدالسلام خضير، بمطبعة المنار بمصر عام ١٣٥١هـــ ، وطبعت مرة أخرى مفردة بالدار السلفية ـــ بالكويت عام ١٤٠٦هـــ ـــ ١٩٨٦م بتحقيق : بدر بن عبدالله البدر .

(٤) انظر الرسالة المذكورة وهي : ذم التأويل (ص١١) وما بعدها .

(٥) يقصد مؤلف روضة الناظر وهو الشيخ الموفق ابن قدامة ـــ رحمه الله ـــ .

(٦) سورة طه الآية (٥) .

معـناها معلوم في اللغة العربية ، وليس متشابهاً ، ولكن كيفية اتصافه — جل وعلا — بها ليست معلومة للخلق ، وإذا فسـرنا المتشـابه بأنه هو ما استأثر الله بعلمه دون خلقه كانت كيفية الاتصاف داخلة فيه لا نفس الصفة ، وإيضاحه : أن الاسـتواء إذا عُـدى بعـلى معـناها في لغة العرب الارتفاع والاعتدال ، ولكن كيفية اتصافه — جل وعلا — بهذا المعنى المعروف عند العرب لا يعلمها إلا الله — جل وعلا — كما أوضح هذا التفصيل إمام دار الهجرة مالك بن أنس — تغمده الله برحمته بقوله : " الاستواء غير مجهول " يوضح أن أصل صفة الاستواء ليست من المتشابه ، وقوله : " والكيف غير معقـول " يـبين أن كيفيـة الأتصاف تدخل في المتشابه بناءً على تفسيره بما استأثر الله تعالى بعلمه — كما تقدم — وهذا التفصيل لا بد منه خلافاً لظاهر كلام المؤلف — رحمه الله — "[١] .

ولقـد ألمـح بعض الباحثين إلى أن الشيخ محمد رشيد رضا صاحب " تفسير المنار " نسب لابن تيمية القول بأن آيـات الصـفات مـن المتشابه[٢] ، وكنت أعلم من قبل أن الشيخ محمد رشيد رضا — رحمه الله — ممن يعظم شيخ الإسـلام ابن تيمية ، ويجل آراءه وطريقته ، فلما رجعت لتفسير المنار رأيت الحقيقة خلاف ما ذكر عنه ، وأنه قد نقل عن ابن تيمية ذلك القول لا باعتباره أنه مذهب ابن تيمية أو أنه قوله ، وإنما نقله كقول من الأقوال الكثيرة التي حكاها ابن تيمية عـن أصـحابها في بيان معنى المحكم والمتشابه ، فصاحب المنار لم ينسب هذا القول إلى شيخ الإسلام — كما ذكرت — وهاك عبارته ، قال : " ولذلك اختلف فيه المفسرون على أقوال : أحدها... " ثم قال " تاسعها : أن المتشابه ما يؤمن به ولا يعمل به ذكره ابن تيمية... عاشرها : أن المتشابه آيات الصفات (أي صفات الله) خاصة ومثلها أحاديثها ، ذكره ابن تيمية أيضاً "[٣]

فهـذا كلام صاحب المنار ليس فيه ما يفيد أن هذا هو قول ابن تيمية أو رأيه ، وإنما ذكره ابن تيمية حكاية لآراء العـلماء فـي هـذه المسـألة ، أما رأي ابن تيمية فقد قال فيه الشيخ محمد رشيد رضا : " اعلم أنه ليس في كتب التفسير

---

(١) مذكرة أصول الفقه (ص٦٥) ، و انظر كذلك نفس هذا المعنى في رسالته الأخرى : منهج ودراسات لآيات الأسماء والصفات (ص٢٤،٢٣) .

(٢) انظر : محمد السيد الجليند : الإمام ابن تيمية وموقفه من قضية التأويل (ص٦٠) .

(٣) السيد محمد رشيد رضا : تفسير القرآن الحكيم ، المسمى تفسير المنار (١٣٧/٣) .

المـــتداولة ما يروي الغليل في هذه المسألة ، وما ذكرناه آنفاً هو صفوة ما قالوه ، وخيره كلام الاستاذ الإمام[١] ، وقد رأينا أن نرجع بعد كتابته إلى كلام في المتشابه والتأويل لشيخ الإسلام أحمد بن تيمية كنا قرأنا بعضه من قبل في تفسيره لسورة الإخـــلاص فرجعنا إليه وقرأناه بإمعان ، فإذا هو منتهى التحقيق والعرفان ، والبيان الذي ليس وراءه بيان... "[٢] وهذا يدل عـــلى ما قلته من أن الشيخ محمد رشيد رضا يعظم كلام شيخ الإسلام ابن تيمية ، ويرى أن مذهبه الذي هو مذهب السلف هو الحق الذي ينبغي أن يتبع ، وأن كل مذهب خالف مذهب السلف فهو ظنون و أوهام ، قال الشيخ رضا : " وكنا نظن في أوائـــل الطـــلب أن مذهب السف ضعيف ، وأنهم لم يؤولوا كما أول الخلق لأنهم لم يبلغوا مبلغهم من العلم والفهم ، لا سيما الحنابـــلة كـــلهم أو بعضـــهم ، ولما تغلغلنا في علم الكلام وظفرنا بعد النظر في الكتب التي هي منتهى فلسفة الأشاعرة في الكـــلام بالكـــتب التي تبين مذهب السلف حق البيان ، لا سيما كتب ابن تيمية ، علمنا علم اليقين أن مذهب السلف هو الحق الـــذي ليس وراءه غاية ولا مطلب ، وأن كل ما خالفه فهو ظنون و أوهام لا تغني من الحق شيئاً "[٣] ومع هذا فقد نقل ابن تيمية هذا القول عن بعض المتأخرين كما نص على ذلك[١] إذا علم هذا ، فإنني الآن ــ بإذنه تعالى ــ أبين رأي ابن تيمية فـــي أن آيـــات الصفات ليست من المتشابه ، وأنا بهذا اعتبره رداً على السيوطي ومن قال بقوله في آيات الصفات قال ابن تيمية ــ رحمه الله ــ رداً على هؤلاء :

" وأمـــا ادخـــال اســـماء الله وصفاته أو بعض ذلك في المتشابه الذي لا يعلم تأويله إلا الله ، أو اعتقاد أن ذلك هو المتشابه الذي استأثر الله بعلم تأويله... فالكلام على هذا من وجهين :

__الوجه الأول :__ مَنْ قال إن هذا من المتشابه ؟؟ وأنه لا يفهم معناه ؟... فإني ما أعلم عن أحد من سلف الأمة ولا من الأئمة ، لا أحمـــد بن حنبل ولا غيره ، أنه جعل ذلك من المتشابه... ونَفَى أن يعلم أحد معناه ، وجعلوا أسماء الله وصفاته بمنزلة الكـــلام الأعجمي الذي لا يفهم ، ولا قالوا إن الله ينزل كلاماً لا يفهم أحد معناه ، وإنما قالوا : كلمات لها معان صحيحة ،

---

(١) يقصد استاذه الشيخ الإمام محمد عبده .

(٢) تفسير المنار : (٣/١٤٢) ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٣م .

(٣) السابق نفسه (٣/١٦٣) .

قالوا في أحاديث الصفات : (تُمر كما جاءت) ونهوا عن تأويلات الجهمية ، وردوها وأبطلوها ، التي مضمونها تعطيل النصوص عما دلت عليه ، ونصوص أحمد والأئمة قبله بينة في أنهم كانوا يبطلون تأويلات الجهمية ، ويقرون النصوص على ما دلت عليه من معناها ، ويفهمون منها بعض ما دلت عليه كما يفهمون ذلك في سائر نصوص الوعد والوعيد ، والفضائل وغير ذلك ، وأحمد قد قال في غير أحاديث الصفات ، تمر كما جاءت ، في أحاديث الوعيد مثل قوله : " من غشنا فليس منا "[٢] و أحاديث الفضائل ، ومقصوده بذلك أن الحديث لا يحرف كلمه عن مواضعه ، كما يفعله من يحرفه ، ويسمي تحريفه تأويلاً " بالعرف المتأخر "[١] ، وسيأتي بعد قليل معنى التأويل بالعرف المتأخر ، وأنه معنى باطل لم يعرفه السلف ولا الأئمة .

ثم قال ابن تيمية : " فتأويل هؤلاء المتأخرين عند الأئمة تحريف باطل ، وكذلك نص أحمد في كتاب " الرد على الزنادقة و الجهمية "[٣] ، أنهم تمسكوا بمتشابه القرآن ، وتكلم أحمد على ذلك المتشابه . وبين معناه وتفسيره بما يخالف تأويل الجهمية ، وجرى في ذلك على سنن الأئمة قبله ، فهذا اتفاق من الأئمة على أنهم يعلمون معنى هذا المتشابه ، وأنه لا يسكت عن بيانه وتفسيره ، بل يبين ويفسر "[٤] فهذا كلام ابن تيمية ، وهو يبين بكلامه بطلان قول من قال : إن آيات الصفات من المتشابه ، وقد رأيناه يستنكر ذلك بسؤال إنكاري فيقول : " مَنْ قال : إن هذا من المتشابه ؟ وأنه لا يفهم معناه ؟ "[٤] . ثم يقول ابن تيمية مؤكداً كلامه السابق : " والدليل على أن هذا ليس بمتشابه لا يعلم معناه ، أن نقول : لا ريب أن الله سمى نفسه في القرآن بأسماء مثل : الرحمن ، والودود ، والعزيز ، والجبار ، والعليم ، والقدير ، والرؤوف ، ونحو ذلك ، ووصف نفسه بصفات مثل : سورة الاخلاص ، وآية الكرسي ، وأول الحديد ، وآخر الحشر ، وقوله : (إن

---

(١) انظر : تفسير سورة الإخلاص (ص١٥٢) .
(٢) ابن تيمية : رسالة الأكليل (٢١-٢٢) ضمن مجموعة الرسائل الكبرى (جـ٢) ، وانظر : تفسير سورة الإخلاص (ص١٠٨) .
(٣) عنوانه المطبوع : " الرد على الجهمية والزنادقة " ت : د. عبدالرحمن عميرة .
(٤،٤) ابن تيمية : الأكليل (ص/٢٢) .

الله بكـل شـئ عليم)[١] و (على كل شئ قدير)[٢] وأنه (يحب المتقين)[٣] و المقسطين[٤] ، و المحسنين[٥] ، وأنه يرضـى عـن الذين آمنوا وعملوا الصالحات[٦] ، و (لما آسفونا انتقمنا منهم)[٧] و (ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله)[٨] (ولكن كره الله انبعاثهم)[٩] و (الرحمن على العرش استوى)[١٠] ، ... إلى أمثال ذلك .

فيقال لمن ادعى في هذا أنه متشابه لا يعلم معناه : أتقول هذا في جميع ما سمى الله ووصف به نفسه أم في البعض ؟

فـإن قـلت : هذا في الجميع كان هذا عناداً ظاهراً ، وجحداً لما يُعلم بالاضطرار من دين الإسلام[١١] ، بل كفر صـريح ، فإنـا نفهم من قوله : (إن الله بكل شئ عليم) معنى ، و نفهم من قوله : (إن الله على كل شئ قدير) معنى ليس هو الأول ، ونفهم من قوله : (ورحمتي وسعت كل شئ)[١٢] معنى .

ونفهم من قوله : (إن الله عزيز ذو انتقام)[١٣] معنى ، وصبيان المسلمين ، بل وكل عاقل يفهم هذا ، وقد رأيت بعض من ابتداع و جمد من أهل المغرب مع انتسابه إلى الحديث ، لكن أثرت فيه الفلسفة الفاسدة ، من يقول : إنا نسمى الله الرحمن الـرحيم ــ العليم القدير علماً محضاً من غير أن نفهم منه معنى يدل على شئ قط ، وكذلك في قوله : (ولا يحيطون بشئ مـن علمه)[١٤] يطلق هذا اللفظ من غير أن نقول له علم وهذا الغلو في الظاهر من جنس غلو القرامطة في الباطن ، لكن هذا أيبس و ذاك أكفر "[١٥] وهكذا أفاض وأطنب ابن تيمية في هذا الوجه من الرد على هؤلاء ، ثم قال :

<u>الوجه الثاني :</u> أنه إذا قيل هذه من المتشابه ، أو كان فيها ما هو من المتشابه ، كما نقل عن بعض الأئمة أنه سمى بعض ما اسـتدل به الجهمية متشابهاً ، فيقال : الذي في القرآن أنه لا يعلم تأويله إلا الله... نفى علم تأويله ليس نفى علم معناه ، ... ونـزيده تقريـراً : أن الله سبحانه يقول : (ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون ، قرآناً عربياً غيـر ذي عـوج)[١٦] . وقال تعالى : (آلر تلك آيات الكتاب المبين ، إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون)[١٧] فأخبر أنه

---

(١) سورة البقرة ، بعض الآية رقم (٢٣١) .
(٢) سورة البقرة ، بعض الآية (١٠٦) .
(٣) سورة التوبة ، بعض الآية (٤) ، الآية (٧) .
(٤) سورة الحجرات ، بعض الآية (٩) .
(٥) سورة المائدة ، بعض الآية (٩٣) .
(٦) قال تعالى : (لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة...) بعض الآية (١٨) من سورة الحجرات .
(٧) سورة الزخرف ، بعض الآية (٥٥) .
(٨) سورة سيدنا محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ ، بعض الآية (٢٨) .
(٩) سورة التوبة ، بعض الآية(٤٦) .
(١٠) سورة طه ، الآية (٥) .
(١١) انظر مع هذا : تفسير سورة الإخلاص (ص١٣٩) .
(١٢) سورة الاعراف ، بعض الآية (١٥٦) .
(١٣) سورة إبراهيم ــ عليه السلام ــ ، بعض الآية (٤٧) .
(١٤) سورة البقرة ، بعض الآية (٢٥٥) .
(١٥) الأكليل (٢/٢٤) وانظر : تفسير سورة الاخلاص (ص١٢١) .
(١٦) سورة الزمر ، بعض الآية (٢٨) .
(١٧) سورة يوسف ــ عليه السلام ــ الآيتان (١،٢) .

أنزله ليعقلوه ... وقال أيضاً : (وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون)[١] فحض على تدبره وفقهه وعقله ، والتذكر بــه والــتفكر فيه ، ولم يستثن من ذلك شيئاً ، بل نصوص متعددة تصرح بالعموم فيه مثل قوله : (أفلا يتدبرون القرآن أم عــلى قلوب أقفالها)[٢] وقوله : (أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً)[٣] ومعلوم أن نفي الاختلاف عنه لا يكون إلا بتدبره كله ، و إلا فتدبر بعضه لا يوجب الحكم بنفي مخالفة ما لم يتدبر لما تدبر "[٤] .

وهكــذا تقرر بوضوح بطلان القول بأن آيات الصفات هي من المتشابه وكذا أحاديث الصفات كلها باللفظ العربي الواضح الذي يفهم معناه ، وليست من قبيل الألغاز أو الكلام الأعجمي بل هي مفهومة المعنى واضحة الدلالة وأما المجهول عنا فهو الكيف فقط وسيأتي مزيد تفصيل لذلك إن شاء الله تعالى . وبه يتضح مذهب شيخ الإسلام ابن تيمية ، وهو كما قال الشــيخ محمــد رشيد رضا : إنه " منتهى التحقيق والعرفان ، والبيان الذي ليس وراءه بيان "[٥] فهو مذهب السلف الذي لا ينبغي أن يختلف في قبوله اثنان ، ذلك لأن العاقل المنصف الذي يريد اتباع الحق لا يسعه إلا أن يسلم بما قاله ابن تيمية ، إذ أنه حال السلف مع كتاب الله وسنة رسوله ــ صلى الله عليه وسلم ــ وطريقة الأئمة الاعلام من بعدهم .

ومــا اثبــته وقــررته مــن كلام ابن تيمية هو الرد الذي أوجهه إلى كلام السيوطي فيما ذهب إليه من أن آيات الصفات من قبيل المتشابه .

كمــا ينــبغي أن يعلم أن جعل الاسماء والصفات من المتشابهات هو الذي الجأ المتكلمين ومن وافقهم إلى التأويل الباطل الذي انتهى إلى تعطيل الباري ــ جل وعلا ــ عن صفاته العليا .

والذي تخلص إليه من هذا المبحث ما يلي :

<u>أولاً :</u> صــفات الله ــ جل وعلا ــ معلومة معانيها ، وليست مجهولة لمن يفهم اللسان العربي ، لأنها قد وردت في القرآن الكريم الذي أنزله الله تعالى بلسان عربي مبين .

<u>ثانياً :</u> أنها بهذا الاعتبار ليست من المتشابه الذي لا يعلم تأويله ، فيلتبس المراد منها على أهل العلم والتحقيق ، وأن اطلاق القول بأن صفات الله ــ تعالى ــ من المتشابه ذريعة تعلق بها المؤولة فأولوها تأويلاً باطلاً انتهى بهم إلى تعطيل الباري ــ جل وعلا ــ عن صفاته العلية .

قال استاذي فضيلة الدكتور محمود مزروعة : " الصواب أن يقال : إن المتشابه الحقيقي يتناول الصفات بوجه دون وجه . فإذا أريد معنى الصفات العلي والأسماء الحسنى التي وصف الله ــ سبحانه ــ ذاته بها ، ووصفه رسوله ــ صــلى الله عليه وسلم ــ بها ، فالصفات من هذا الوجه ليست من المتشابه ، وكل من قال ذلك فقد ألحد في أسماء الله ــ تعالىٰ ــ ذلكم أن الصفات معلومة المعنى لأنها نزلت بلغة العرب التي هي واضحة المعنى لكل فاهم للعربية .

---

(١) سورة الحشر ، بعض الآية (٢١) .
(٢) سورة سيدنا محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ ، الآية (٢٤) .
(٣) سورة النساء ، الآية (٨٢) .
(٤) الأكليل (ص٣٠،٣١) ضمن مجموعة الرسائل الكبرى (جــ٢) .
(٥) نقلته سابقاً ، وهو في تفسير المنار (١٣٧/٣) .

أمـــا إذا أريـــد الكيـــف ، كيفية اتصافه ـــ عز وجل ـــ بهذه الصفات فذلك مما استأثر الله ـــ تعالى ـــ بعلمه ، و لايعلمه إلا هو ، لايعلمه الراسخون و لا غيرهم ، ويكون هذا الشق من المتشابه الحقيقي وليس النسبي أو الاضافي "[١] .

ثالـثاً : أن النـبي ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ كان يفسر آيات القرآن العزيز لأصحابه ، ولم يرد عنه أنه أخبر عن آية أو آيـات أنها من المتشابه الذي لا يجوز تفسيره ، وكذلك أصحابه ـــ رضي الله عنهم ـــ من بعده ، والتابعون لهم بإحسان ، والعلماء المستمسكون بهديهم فسروا كتاب الله تعالى وبينوا معانيه ولم يتوقفوا في شئ منه لأجل أنه من المتشابه .

رابعـاً : أن كيفيـة اتصاف الباري ـــ جل وعلا ـــ بهذه الصفات مجهولة للخلق أياً كانت مرتبتهم في العلم أو منزلتهم في الدين ، ذلك لأن القول في الصفات كالقول في الذات ، فكما أن ذاته ـــ جل وعلا ـــ لا تعلم كيفيتها ، فكذلك لا تعلم كيفية اتصافه بالصفات .

خامسـاً : أن كيفيـة اتصاف الرب ـــ جل جلاله ـــ بالصفات العلية إذا أطلق عليها أنها من المتشابه بقيد (الكيفية) فإنه يسوغ ذلك ، على أن يُحدد المراد بوجه التشابه و لا يقال عن الصفات إنها من المتشابه باطلاق ، ولكن يقال صفات الله ـــ تعالى ـــ ليست من المتشابه ، أما كيفية اتصافه ـــ عز وجل ـــ بها فهي من المتشابه .

سادساً : أنه لم يؤثر عن أحد من السلف ـــ رضي الله عنهم ـــ أنه أطلق لفظ المتشابه على صفات الله ـــ تعالى ـــ ، وإنما سـوغنا القـول بالمتشابه عن الكيفية نظراً لكثرة الخلاف ، واتساع هوة الجدل والنزاع ، في هذه المسألة ، و رأينا أنه لا يـنقطع هـذا المـراء والجدال إلا بهذا التحديد والتقييد ، أعني تحديد المراد بمصطلح المتشابه وتقييد اطلاقه على الصفات بالكيفية ، حيث ان العلم بالكيفية من تمام العلم بالصفة وعلى ذلك فنكون قد علمنا شيئاً من الصفة وجهلنا شيئاً آخر .

سابعاً : أن من نسب التفويض إلى السلف فقد أخطأ وتقول عليهم بغير علم ، و سيأتي مزيد تفصيل للأدلة على خطأ نسبة التفويض إلى السلف .

ثامناً : أنه ينبغي التفريق بين تفويض معنى الصفة ، وبين تفويض كيفية اتصاف الخالق ـــ عز وتقدس ـــ بها ، فإن الأول : وهو تفويض المعنى باطل ، لما قدمنا من أن السلف قد تكلموا في تفسير آيات القرآن وبيان معانيه ومنها آيات الصفات ، ولـم يفوضوا معانيها ـــ كما يحكي عنهم بغير وجه حق ـــ ولذلك قيل : الاستواء معلوم ، وكذلك يقال في جميع صفات الله ـــ تعالى ـــ ، فيقال :

السـمع معـلوم والكيف مجهول ، والمحبة معلومة ، وكيفيتها مجهولة ، والرضى معلوم ، وكيفيته مجهولة... وهكـذا في جميع الصفات العلية ، فمن سأل عن معنى الاستواء فإن الاستواء معناه معلوم ، في لغة العرب ، فنبين له هذا المعـنى ، فإن سأل عن الكيف ، قلنا له الكيف مجهول لنا ، لا نعلمه ولا ينبغي أن تسأل عنه ، وهذا معنى قولنا أن السلف قـد فسروا آيات الصفات وبينوا معانيها ، ولم يفوضوا المعنى فلم يقولوا : لا نعلم معناها ، أو أن معناها غير مفهوم ، فهذا هو الخطأ الذي ينسبه المؤولة إلى السلف الكرام . وأمـا الـثاني : وهو اطلاق لفظ تفويض الكيفية ، ففي رأيي أنه ـــ وإن كان معناه صحيحاً ـــ إلا أنه لا يسوغ استعماله لأمور :

---

(١) تلقيت عنه ـــ حفظه الله ـــ هذا الكلام شفاهاً .

<u>الأول :</u> عدم ورود استعماله عن أحد من السلف .

<u>الـثاني :</u> أنـه قد يكون استعماله سبباً في الخلط بينه وبين الاطلاق الفاسد الذي ينسبه المؤولة دائماً إلى السلف الكرام ، أو يتكلم به من حسنت نيته ، ولكن قل حظه من الفهم الدقيق لمذهب السلف ، فيعتقد التفويض على المعنى الغير صحيح .

<u>الثالث :</u> أن التعبير عنه بما ورد عن السلف والأئمة أولى فإنهم كانوا يعبرون عن هذا المعنى بقولهم : بلا كيف ،

أو : الكيف مجهول ،

أو : الكيف غير معلوم ،

أو : لا يقال كيف ،

أو : نثبت الصفة على ما يليق بجلاله وكماله

ــ جلا وعلا ــ فهذا كله بمعناه .

ولـم يرد عن واحد منهم ــ فيما أعلم ــ أنه قال : أنا أفوض الكيف ، أو أفوض الكيفية ، فإنه لما كثر اتهام المؤولة للسلف بالتفويض ، ولم يتركوا مناسبة أو مناظرة أو تأليف إلا اتهموهم بذلك ، اضطر الباحثون إلى أن يقولوا : إن التفويض الذي عند السلف هو تفويض الكيفية ، وليس التفويض الذي تذهبون إليه ، ولكن لفظ التفويض لم يرد عنهم لا في المعنى ولا في الكيفية ، ولكنهم ــ كما قلت ــ كانوا يعبرون عنه بقولهم : الكيف مجهول ونحوه كما سبق .

فإن كان المؤولة قد نسبوا إلى السلف القول بالتفويض وهو لم يتكلموا به ، فكيف لو به تكلموا ؟؟..

والمقصـود بيان أن القول بأن صفات الله تعالى من المتشابهات ــ هكذا باطلاق ــ غير صحيح ، وأن هذا الاطـلاق هـو الذي أدى بأكثر المتكلمين إلى تأويلها [1] تأويلاً هو في حقيقته تحريف للكلم عن مواضعه لذا وجب أن أبين معنى التأويل ، ثم موقف السيوطي منه .

<u>المبحث الرابع : معنى التأويل في اللغة والاصطلاح :</u>

<u>المطلب الأول : التأويل في اللغة .</u>

تدور مادة " آل " واشتقاقاتها في معاجم اللغة العربية على أربعة معان[2]

المعنى الأول : المرجع والمصير والعاقبة .

المعنى الثاني : التغيير .

المعنى الثالث : التفسير .

المعنى الرابع : الوضوح .

<u>أما المعنى الأول :</u> وهو المرجع والمصير والعاقبة :

---

(١) وقد يقال : إن المتكلمين أخذوا بمذاهب أهل التعطيل من الفلاسفة ومن تأثر بهم ، فأولوا الصفات العلى ثم تذرعوا أنها من المتشابه .

(٢) انظـر :الأزهـري: تهذيب اللغة (١٥/٤٣٧-٤٤٢) مادة " آل " ، وابن فارس معجم مقاييس اللغة (١/١٥٩-١٦٢) مادة " أول " ت: عبدالسلام هارون ط٢/١٣٨٩هـ-١٩٦٩م الحلبي/مصر ، وكذك : مجمل اللغة (١/٢١٧) ت الشيخ هادي حسن حمودي ط١/١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م الكويت ، ابن منظور : لسان العرب (١١/٣٢-٤٠) مادة " أول " ، والقاموس المحيط (٣/٣٢٠) مادة " آل " ، وتاج العروس (٧/٢١٤) مادة " أول " .

فيقـــال : آل يؤول أولاً ومآلاً : رجع(١) ، وآل عنه :ارتد ، وآل الملك رعيته : إذا ساسهم وأحسن رعيتهم ، وقيل ذلك لأنهم يرجعون إليه في أمورهم ، وآل الرجل أهله وأتباعه وأولياؤه ، يعني : من آل إليه بدين أو مذهب أو نسب(٢) .

ويقـــال طبخت النبيذ حتى آل إلى الثلث أو الربع ، أي رجع ، والأيل (وهو الذكر من الأوعال) سمي بذلك لأنه يؤول إلى الجبال يتحصن فيها ، ومنه المآل والموئل : أي الملجأ(٣) . قال الراغب : "التأويل : رد الشـــئ إلى الغايـــة المـــرادة منه قولاً أو فعلاً "(٤) أي العاقبة ، وقال ابن فارس : " ومن هذا الباب تأويل الكلام ، وهو عاقبته وما يؤول إليه ، وذلك قوله – تعالى – : (هل ينظرون إلا تأويله)(٥) يقول ما يؤول إليه في وقت بعثهم ونشورهم "(٦) وقال أيضاً : " التأويل آخر الأمر وعاقبته ، يقال : إلى أي شئ مآل هذا الأمر ؟ أي مصيره وآخره وعقباه(٧) .

<u>والمعـــنى الـــثاني :</u> التغيير : يقال آل اللبن والعسل والشراب ونحوه ، إذا خثر(٨) ، والإيال : وعاء يُجمع فيه الشراب أياماً حتى يجود ، وآل جسم الرجل : إذا نحف(٩) .

<u>والمعـــنى الـــثالث :</u> التفســـير : يقال : أول الكلام تأويلاً ، وتأوّله : دبره ، وقدره ، وفسره ، والتأويل والمعنى والتفسير واحـــد(١٠) . واستعمل بعض العلماء كلمة " مجاز " و " تفسير " و " تأويل " بمعنى واحد ، فيقول في تفسير القرآن : مجازه كذا ، وتفسيره كذا ، ومعناه كذا ، وغريبه ، وتقديره ، وتأويله ، على أن معانيها واحدة(١١) .

وقال ابن جرير : " وأما معنى التأويل في كلام العرب : فإنه التفسير والمرجع والمصير(١٢) "

وقال الليث(١٣) : " التأويل والتأول تفسير الكلام الذي تختلف معانيه ، ولا يصح إلا ببيان غير لفظه ، وأنشد :

" نحن ضربناكـــم على تـــنزيله فاليوم نضربكم على تأويله(١٤) "

---

(١) لسان العرب (٣٢/١١) .
(٢) انظر : تاج العروس (٢١٦/٧) ، واللسان (٣٦/١١) .
(٣) انظر : تهذيب اللغة (٤٤٢/١٥) ، واللسان (٣٢/١١ ، ٣٣ ، ٣٥) .
(٤) المفردات (ص٣١) ، السيد محمد المرتضي الزبيدي : تاج العروس (٢١٥/٧) .
(٥) سورة الأعراف ، بعض الآية (٥٣) .
(٦) ابن فارس : معجم مقاييس اللغة (١٦٢/١) .
(٧) ابن فارس : الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها (ص١٩٣) ت مصطفى الشويمي – ط بدران ١٣٨٢هـ – ١٩٦٣م – بيروت .
(٨) لسان العرب (٣٤/١١، ٣٥) .
(٩) انظر : ابن فارس : مقاييس اللغة (٥٩/١) مادة " أول " ت عبدالسلام هارون سنة ١٣٦٦هـ.
(١٠) انظر : لسان العرب (٣٣/١١) .
(١١) انظر : ابو عبيدة : مجاز القرآن (١٨/١-١٩) مقدمة المحقق : فؤاد سزكين .
(١٢) جامع البيان (١٨٤/٣) .
(١٣) لسان العرب (٣٣/١١) .
(١٤) اللسان (٣٣/١١) .
والبيتان في ديوان عبدالله بن رواحة – رضي الله تعالى عنه – وصوابهما :

نحن قتلناكم على تأويله كما قتلناكم على تنزيله

(ص١٠١ ، ١٠٢) ت : حسن محمد باجودة ط السنة المحمدية ١٩٧٢م – القاهرة . وأصل البيتين في حديث أنس – رضي الله عنه – عند الترمذي في " سننه " (٦٣/٨ ، ٦٤) – كتاب الأدب – باب ما جاء في انشاء الشعر ، ح رقم (٢٨٥١) وفيه أن النبي – صلى الله عليه وسلم – دخل مكة في عمرة القضاء ، وعبدالله بن رواحة – رضي الله عنه – يمشي بين يديه وهو يقول :

خلو بني الكفار عن سبيله اليوم نضربكم على تنزيله

المعنى الرابع : الوضوح ، ويقال في ذلك :

آل الـــبعير : ألواحـــه ومـــا أشرف من أقطار جسمه ، والآل : ما أشرف من السراب وأطراف الجبل[1] ، وهذه المعـــاني الأربعـــة لكلمة " التأويل " ترجع إلى معنيين اثنين فقط ، فالتغيير يرجع إلى معنى العاقبة والمصير ، والوضوح يرجع في معناه إلى معنى التفسير ، إذ أن التفسير معناه الكشف والبيان[2] .

المطلب الثاني: التأويل في الاصطلاح .

وفيه مسألتان :

١- التأويل في استعمال السلف .

٢- والتأويل في اصطلاح المتأخرين من المتكلمين والفقهاء والأصوليين.

أولاً: التأويل في استعمال السلف :

مع البحث وجدنا التأويل في استعمال السلف يطابق معناه اللغوي الذي قدمته : فيأتي بمعنى العاقبة ، وهو الغالب في استعمال القرآن الكريم ، والكلام بصفة عامة خبر وانشاء[3] .

فتأويل الخبر : هو وقوع نفس الشئ المخبر به[4] .

ومـــثاله في قول الله تعالى – عن يوسف – عليه السلام – (... ورفع أبويه على العرش ، وخروا له سجداً ، وقال يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل ، قد جعلها ربي حقاً...)[5]

فهـــذا الـــتحقق للرؤيا هو تأويلها الذي آلت إليه ، وقد وقعت على وفق ما أخبر به يوسف –عليه السلام– ، والعالم بتأويل الرؤيا هو الذي يخبر به[6] ، كما قال يوسف –عليه السلام– (... لايأتيكما طعام ترزقانه...)[7] أي في المنام (إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما)[8] أي قبل أن يأتيكما التأويل[9] . وتأويل الرؤيا هو نفس مدلولها في الخارج[10] .

وأما الانشاء فهو أمور منها : الأمر والنهي

فتأويل الأمر : هو اتيان المأمور به ، وكذلك الطلب تأويله نفس الفعل المطلوب[11] .

ضرباً يزيل الهام عن مقيله ويذهل الخليل عن خليلـــــه

ولم يذكر فيه التأويل ، قال الترمذي : " هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه " وقارن بما ذكره الحافظ ابن حجر في الفتح (٥٠١/٧) .

(١) انظر : لسان العرب (٣٦/١١) .

(٢) انظر : اللسان (٥٥/٥) مادة " فسر " .

(٣) انظر : ابن تيميه ، تفسير سورة الاخلاص (ص١١٧) .

(٤) انظر : ابن تيميه : الاكليل (ص١٨) ضمن مجموع الرسائل الكبرى (ج٢) .

(٥) سورة يوسف –عليه السلام– بعض الآية (١٠٠) .

(٦) انظر الاكليل (ص١٩) .

(٧) سورة يوسف –عليه السلام– بعض الآية (٣٧) .

(٨) انظر الاكليل (ص١٩) .

(٩) انظر :الاكليل (ص١٩) .

(١٠) انظر : ابن تيمية : مجموع الفتاوي (٢٩٠/١٣) .

(١١) انظر : الاكليل (ص١٨) .

وتـأويل النهي : اجتناب المنهي عنه ، وهذه المعاني كلها تدل على أن التأويل هو العاقبة التي يؤول إليها الشئ ، وهي مصيره .

ويـأتي التأويل في كلام السلف كذلك بمعنى التفسير أي تفسير الكلام -سواء وافق ظاهره أو لم يوافقه- فالتأويل والتفسير عندهم متقاربان أو مترادفان ، وهو اصطلاح جمهور المفسرين وغيرهم[١] .

ومن أمثلته :

قولـه - صـلى الله عـليه وسلم- يدعو لابن عباس -رضي الله عنهما- " اللهم فقه في الدين وعلمه التأويل[٢] " فالتأويل هنا التفسير ، ولذلك قال ابن عباس -رضي الله عنهما- : " أنا ممن يعلم تأويله[٣] " وقال أيضاً : "التفسير على أربعة أوجـه : وجـه تعرفه العرب من كلامها ، وتفسير لا يعذر أحد بجهالته ، وتفسير يعلمه العلماء ، وتفسير لايعلمه إلا الله - تعـالى ذكره-[٤] " لذا قال ابن جرير : "وإن منه -أي القرآن- ما يعلم تأويله كل ذي علم باللسان الذي نزل به القرآن[٥] " ومـن أمثلـته أيضاً قول جابر بن عبدالله -رضي الله عنه- في حجة النبي -صلى الله عليه وسلم- : " ... ورسول الله - صلى الله عليه وسلم- بين أظهرنا وعليه ينزل القرآن وهو يعرف تأويله ، وما عمل به من شئ عملنا به[٦] " قال ابن القيم -رحمـه الله- : " فعلمه -صلوات الله وسلامه عليه- بتأويله هو علمه بتفسيره وما يدل عليه ، وعمله به هو تأويل ما أمر به ونهى عنه[٧] " .

والـتأويل بمعـنى التفسيرهواستعمال أبي عبيد في مجاز القرآن ، وابن جرير الطبري في تفسيره ، وقد استعمله الامام احمد -رحمه الله- أيضاً بمعنى التفسير ، فقال في خطبة كتابه " الرد على الجهمية " : " الحمد لله الذي جعل في كل زمـان فترة من الرسل بقايا من أهل العلم ، يدعون من ضل إلى الهدى ، ويصبرون منهم على الأذى ، يحيون بكتاب الله الموتى ، ويبصرون بنور الله أهل العمى ... ينفون عن كتاب الله تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين الذين عقدوا ألوية البدعة ، واطلقوا عنان الفتنة فهم مختلفون في الكتاب مخالفون للكتاب...[٨] " فالجاهلون -كما قال الإمام احمد رحمـه الله- يؤولـون الكـتاب العزيز تأويلاً باطلاً ، بمعنى أنهم يفسرونه تفسيراً مخالفاً للحق والصواب وهو في حقيقته تحـريف لكلام الله عن مواضعه ، ثم أخذ الإمام احمد يفسر ما شكت فيه الزنادقة من القرآن تفسيراً نيراً ينفى عنه تحريف الغـالين ، وانـتحال المبطـلين ، ويـرد كيد هؤلاء الزنادقة الذين ضربوا آيات القرآن بعضها ببعض وزعموا فيها الشك

---

(١) انظر : مجموع الفتاوي (٣٥،٣٦/٥) ، (٢٨٨/١٣) ، (٥٥/٣) ، أضواء البيـــــان (١ /٣٢٩) ، الصواعق المرسلة (١٧٨/١) .

(٢) سبق تخريجه .

(٣) جامع البيان (٣٣/١، ٣٤) ، وانظر الاتقان (٣/٢) ، معترك الأقران (١٠٤/١) .

(٥) جامع البيان (٣٤/١) .

(٦) نفسه (٣٣/١) .

(٧) صحيح مسلم (٨٨٧/٢) .

(٨) الصواعق المرسلة (١٨١/١) .

(٩) الرد على الجهمية والزنادقة (ص٨٥) ت - د. عبد الرحمن عميرة .

والتـــناقص ، فتناولها الإمام احمد شبهة شبهة ، يفندها ويبين وجه الحق فيها ، ثم يعقب بعد كل رد من هذه الردود فيقول : " فهـــذا تفسير ما شكت فيه الزنادقة "[١] فالإمام أحمـــد -تغمده الله برحمته- رد تأويل الجاهلين أهل البدعة الذين اطلقوا عنان الفتنة ، بتأويل العالمين اهل السنة والجماعة الذين يصدقون بالكتاب وبما أرسل الله تعالى به رسله ، ثم سماه تفسيراً ، وهكذا كان السلف يطلقون لفظ التأويل ، ويريدون به التفسير ، أو يريدون به العاقبة والمصير ، وهذا المعنى هو الغالب في القرآن الكريم.

ثانياً : التأويل عند المتأخرين :

فقد ظهر بعد عصر القرون المفضلة الثلاثة معنى آخر للتأويل غير الذى أثبته في المعنى اللغوي وفي هذا المعنى الإصـــطلاحي عند سلف الأمة ، ففي حين تمسك السلف وأئمة أهل السنة بالمعنى الصحيح في أصل اللغة وفي لغة القرآن الكريم فقد تغير مفهوم التأويل عند بعض العلماء المتاخرين ، واصطلح هؤلاء المتأخرون من المتفقهة، والمتكلمة والمحدّثة والمتصوفة ونحوهم ، على أن التأويل هو : صرف اللفظ عن المعنى الراجح إلى المعنى المرجوح لدليل يقترن به[٢] ، بيد أن ما يؤيد حداثة هذا الاصلاح أن من أقدم ما وصل إلينا من المعاجم اللغوية " تهذيب اللغة " لأبي منصور محمد بن احمـــد الأزهـــري[٣] المـــتوفي سـنة (٣٧٠هـــ) وقد بين الأزهري معنى لفظ التأويل في تهذيبه هذا ولم يذكر ذلك الاصـــطلاح الحادث إنما ذكر المعنى الذي اتفقت عليه المعاجم اللغوية وهو : العود والرجوع[٤] ومما يزيد هذا الأمر تأكيداً ما نقله أبو الحسين احمد بن فارس ، المتوفي (سنة ٣٩٥هـــ) في " معجم مقاييس اللغة " عن معنى كلمة " التأويل " والذي لـــم يختـــلف عما قاله أبو منصور الأزهري ، فقد ذكر أن معنى التأويل هو الرجوع والعاقبة[٥] ، ولم يشر إلى هذا المعنى الحادث للتأويل.

ولعلنا – وقد عرفنا أن " تهذيب اللغة " و " معجم مقاييس اللغة " من نتاج القرن الرابع الهجري – ندرك أنه حتى هذا الوقت وهو القرن الرابع وبدايات القرن الخامس ، لم يكن التأويل يستعمل إلا بالمعنى اللغوي الذي ذكرناه .

ثـــم بعـــد ذلك وفي خلال القرن السابع نجد ابن منظور ، ينقل عن ابن الأثير ، في معنى التأويل " أنه نقل ظاهر اللفظ عن وضعه الأصلي إلى ما يحتاج إلى دليل لولاه ما ترك ظاهر اللفظ[٦] " .

وكذلـــك الـــزبيدي في " تاج العروس " ينقل نفس المعنى عن السبكي ، وابن الجوزي ، وكلاهما ليسا من رواة الـــلغة وإنمـــا كل منهما بين فقيه وأصولي ، ومن هنا يزداد تأكيدنا على ما قلناه من أن هذا المعنى الحادث للتأويل لم يكن

---

(١) ردد الإمام احمد -رحمه الله- هذه العبارة كثيراً في كتابه :الرد على الجهمية والزنادقة انظر مثلاً الصفحات :(٩٣ ، ٩٤ ، ٩٥ ، ٩٦ ، ٩٩ ، ١٠٠ ، ١٠١) .

(٢) انظر :الأكليل (ص١٧) ، ضمن مجموعة الرسائل الكبرى (جـ ٢) .

(٣) محمد بن احمد بن الأزهر الهروي ، أبو منصور ، أحد الأئمة في اللغة والأدب مولده في هراة بخراسان (٢٨٢هـــ ٨٩٥م) ووفاته بها (٣٧٠هـــ ٩٨١) نسبته إلى جده " الأزهر " ، انظر : وفيات الاعيـــان (٥٠١/١) ، ارشاد الأريب (٢٩٧/٦) ، أداب اللغة (٣٠٨/٢) ، الاعلام (٣١١/٥) .

(٤) انظر : (٤٣٧/١٥) مادة " أول " ت : ابراهيم الابيار سنة ١٩٦٦م – القاهرة .

(٥) انظر : مقاييس اللغة (١٥٩/١) ، وتهذيب اللغة (٤٤١/١٥) .

(٦) لسان العرب (٣٣/١١) ، ابن الأثير : النهاية في غريب الحديث (٨٠/١) .

معــروفاً لدى القرون الأولى ، ولم يظهر في دواوين اللغة العربية إلا فيما وضع متأخراً مثل : " لسان العرب " و " تاج العروس " وكلاهما من نتاج القرن السابع الهجري .

ولا يبعد أن نقول : إنما تأثرت معاجم اللغة المتأخرة بهذا المعنى بعد ظهور مقالات الفرق المختلفة ، كالمعتزلة ، والأشاعرة ، والماتريدية ، وخاصة بعدما استفحل أمر الفلاسفة والمتكلمين .

" فأبو منصور الماتريدي وهو من أعيان المائة الرابعة ، يعرف التأويل بقوله : " هو ترجيح أحد المحتملات بدون القطع[١] " وهذه تعتبر مرحلة مبكرة لمعنى التأويل الاصطلاحي عند المتكلمين[٢] " .

ثم أبو محمد بن حزم ، وهو من أعيان المائة الخامسة ، يذكر نحو ما قاله أبو منصور الماتريدي .

ويأتي بعده أبو حامد الغزالي وهو من أعيان المائة السادسة فيعرف التأويل بقوله : " احتمال يعضده دليل ، يصير به أغلب على الظن من المعنى الذي يدل عليه الظاهر ، ويشبه أن يكون كل تأويل صرفاً للفظ عن الحقيقة إلى المجاز[٣] " وهو القول الذي يردده دائماً نفاة صفات الله تعالى فجعلونها كلها مجازاً لاحقيقة لها .

ثم الرازي وهو من أعيان المائة السابعة ، يذكر ما قاله الغزالي في " المحصول[٤] " ، أما في " أساس التقديس " فيعرف التأويل بقوله : " هو صرف اللفظ عن ظاهره إلى معناه المرجوح مع قيام الدليل القاطع على أن ظاهره محال[٥] " والدليــل القاطع عند الرازي هو دليل العقل وليس دليل النقل[٦] وهكذا ترسخ المعنى الحادث للتأويل حتى أفسحت له معاجم الـــلغة مكانـــاً بجانب معناه الصحيح الذي عرف في لغة العرب ، ونزل به القرآن الكريم ، وتحدث به إمام البلغاء ، وسيد الفصحاء محمد – صلى الله عليه وسلم – .

والخلاصة من هذا ما يلي :

أولاً : التأويل في اللغة له معنيان أساسيان وما زاد عنهما فهو راجع إليهما وهما :

التأويل : بمعنى العاقبة والمصير والرجوع • والتأويل : بمعنى التفسير .

ثانياً : أن هذين المعنيين هما اللذان تمسك السلف بهما ولم يزيدوا على مفهومهما شيئاً ، وظلا سائدين حتى القرن الرابع الهجري .

ثالــثاً : ظهــر المعنى الثالث للتأويل خلال القرن الرابع بعد وقوع الخلاف العقدي بين طوائف الأمة وحصول التفرق بين المســلمين ، وكان ظهور هذا المعنى الثالث في بيئة المتكلمين والفلاسفة ، لأن كل فرقة من الفرق لا يمكنها الاعتماد على ظاهر القرآن في تقرير مذهبها ، ومن ثم عمد كل منها إلى التأويل المحدث والغلو فيه ، لتأصيل مبادئها ، والتماس الدلائل على عقائدها .

---

(١) تأويلات أهل السنة (٢٤/١) ت . د . ابراهيم عوضين ، السيد عوضين ١٣٩١ هـ .

(٢) عـثمان بن علي حسن : منهج الاستدلال على مسائل الاعتقاد عند أهل السنة والجماعـــة (٥٤٤/٢) مكتبة الرشد / الرياض – ط١٤١٥/٣ هـ – ١٩٩٥م .

(٣) المستصفى (٣٨٧/١) .

(٤) (٣/١ ، ٢٣٢) .

(٥) (ص ٢١١ ، ٢٢٢ ، ٤١١) .

(٦) نفسه .

رابعـاً : أن هـذا المعـنى المحدث للتأويل هو في حقيقته تحريف للكلم عن مواضعه ، وافتراء على كلام الله تعالى وكلام رسـوله -صلى الله عليه وسلم- وبما أنه كذلك فإنه يحرم استعماله في تأويل صفات الله عز وجل ، ذلك لأنه يفضي إلى تعطيل الخالق -جل وعلا- عن صفاته العلية .

خامساً : أنه إن احتج المعطلة اليوم بوجود هذ المعنى في معاجم اللغة ، فإنه لاحجة لهم في ذلك لأن هذه المعاجم التي وجد فيها هذا المعنى إنما هي التي وضعت مؤخراً في القرن السابع وما بعده ، متأثرة بطغيان اشتهاره لدى المتكلمين والفلاسفة ، وأنه لايوجد في المعاجم القديمة التي لم يزد فيها شئ على ما نطقت به العرب .

وسيأتي -إن شاء الله- مزيد إيضاح لذلك عندما أبين موقف السيوطي من التأويل .

المبحث الخامس : التأويل عند السيوطي

تعـرض السـيوطي لـبيان معنى التأويل في معرض كلامه عن معرفة تفسير القرآن وتأويله ، وبيان شرف علم التفسـير والحاجـة إليـه ، وذكـر معناه اللغوي الصحيح الذي نقلناه -فيما سبق- فقال : " التأويل أصله من الأول وهو الـرجوع[١] " وهـذا أحد المعنيين الصحيحين الذين ذكرناهما ، ولم يذكر السيوطي المعنى الثاني للتأويل وهو التفسير لكنه أردف مـا قالـه فـي معنى التأويل بعبارة أخرى حيث قال : " فكأنه صرف الآية إلى ما تحتمله من المعاني[١] " وهذا هو الخـلط الـذي يحصل عند كثير من المتأخرين فالسيوطي ذكر المعنى الصحيح ثم أردفه بالمعنى المحدث ليتقرر في ذهن القـارئ أن هذا هو معنى التأويل وقوله : " صرف الآية " معناها صرفها عن ظاهرها الراجح إلى معنى مرجوح تحتمله ، ثم فرق بين التأويل والتفسير وذكر في ذلك التفريق عدة آراء :

الأول : مـا حكـاه عن أبي عبيد وطائفة أن التأويل والتفسير بمعنى واحد[٢] ، وهذا موافق لما قاله أئمة أهل السنة كابن جريروابن تيمية وابن القيم وغيرهم .

الـثاني : مـا حكاه عن الراغب أن التفسير أعم من التأويل ، وأن التفسير أكثر استعماله في الألفاظ والمفردات ، وأن أكثر استعمال التأويل في المعاني والجمل ، وأكثر ما يستعمل في الكتب الالهية ، والتفسير يستعمل فيها وفي غيرها[٣]

الـثالث : أن التفسـير بيان لفظ لايحتمل إلا وجهاً واحداً ، والتأويل توجيه لفظ متوجه إلى معان مختلفة إلى واحد منها بما ظهر من الأدلة ، ولم يعز هذا القول لأحد[٤] ، وهذا يذكرنا بأحد الأقوال في تعريف المحكم والمتشابه ، حيث قيل : المحكم ما لا يحتمل إلا وجهاً واحداً ، والمتشابه ما كان محتملاً لأكثر من وجه ، وعليه فالآية التي لا تفسر إلا بمعنى واحد محكمة ، والتي تفسر بأكثر من معنى متشابهة ، ويكون بيان المعنى في الحالة الأولى تفسيراً ، وفي الثانية تأويلاً .

---

(١) الاتقان (١٧٣/٢) .

(٢) انظر : السابق نفسه ، وانظر : لسان العرب (٥٥/٥) مادة " فسر " ذكره عن ابن الاعـرابي ، وذكره صاحب القاموس المحيـط عن ثعلب ، انظـــر ترتيب القاموس المحيـط (٤٩٠/٣) .

(٣) انظـر : الاتقان (٢/ ١٧٣) ، المفردات (ص ٣٨٠) ولم أجد عند الراغب هذا التفصيل الذي ذكره السيوطي بل قال الراغب : " والتفسير قد يقال فيما يختص بمفردات الألفاظ وغريبها ، وفيما يختص بالتأويل ، ولهذا قيل : تفسير الرؤيا وتأويلها " ا . هـ .

(٤) انظر : الاتقان (١٧٣/٢) .

وإذا احتمل الكلام أكثر من معنى وجب أن يوجه إلى واحد منها بقرينه تدل عليه ، وهذا أيضاً لا يخرج عن كون التأويل صرف للكلام عن ظاهره الراجح إلى معنى آخر مرجوح ، وهذا قريب من قول الغزالي : " يشبه أن يكون كل تأويل صرفاً للفظ عن الحقيقة إلى المجاز[١] " .

الرابع : قول الماتريدي : " التفسير القطع على أن المراد من اللفظ هذا ، والشهادة على الله أنه عني باللفظ هذا ، فإن قام دليل مقطوع به فصحيح ، وإلا فتفسير بالرأي وهو المنهي عنه .

والتأويل : ترجيح أحد المحتملات بدون القطع ، والشهادة على الله[٢] " .

على أن القطع بأن المعنى المراد من كلام الله تعالى كذا ، والشهادة على الله بذلك لا يمكن إلا إذا قام دليل مقطوع به ، وهذا الدليل لا يمكن تحصيله إلا من كلام الله تعالى نفسه ، كأن تفسر آية بآية أخرى ، أو من كلام رسوله – صلى الله عليه وسلم – وهذه هي أحسن الطرق التي ذكرها العلماء في تفسير كلام الله –جل وعلا[٣] " أما إن كان تفسيراً بالرأي فإنه لا يمكن لأحد القطع به والشهادة بأنه هو مراد الله تعالى .

وهذ التأويل الذي ذكره أبو منصور الماتريدي هو كما سبق أن قلناه – المرحلة المبكرة لشيوع التأويل بالمعنى المحدث الذي لم يكن معروفاً قبل ذلك .

الخامس : قول البغوي ، والكواشي[٤] : التأويل : صرف الآية إلى معنى موافق لما قبلها وما بعدها تحتمله الآية ، غير مخالف للكتاب والسنة من طريق الاستنباط[٥] .

وهذا الذي قاله البغوي هو التفسير ، لأن تفسير الآية إذا وافق الكتاب والسنة ولم يخالفهما فهو تفسير للقرآن بالقرآن وبالسنة الصحيحة ، وهو المعنى المعتبر للتأويل الذي ذكره أبو عبيد ، وابن جرير وغيرهما من أئمة أهل السنة

ثم ذكر السيوطي أقوالاً أخرى لا تخرج عن هذه الأقوال الخمسة .

ويتلخص منها المعاني الثلاثة للتأويل :

١ – الأول وهو الرجوع والعاقبة والمصير .

٢ – التفسير .

٣ – صرف اللفظ عن ظاهره .

---

(١) المستصفى (٣٨٧/١) ، ونقلناه سابقاً .

(٢) الاتقان (١٧٣/٢) ، والماتريدي : تأويلات أهل السنة (٢٤/١) .
وقد نقلت معنى التأويل عنه فيما سبق عند الكلام عن التأويل عند المتأخرين .

(٣) انظر : ابن تيمية : مقدمة في أصول التفسير (ص ٩٢ ، ٩٣) ، وابن عثيمين : اصول في التفسير (ص ٢٧) ، د . فهد بن عبدالرحمن بن سليمان الرومي : بحوث في أصول التفسير ومناهجه (ص ٧٣ – ٧٧) .

(٤) هو : احمد بن يوسف بن الحسن بن رافع ابن الحسين بن سويدان ، الشيباني ، الموصلي ، موفق الدين ، أبوالعباس ، الكواشي ، عالم بالتفسير من فقهاء الشافعية ، من أهل الموصل ولد عام (٥٩٠ هـ = ١١٩٤ م) وتوفي عام (٦٨٠ هـ – ١٢٨١ م) نسبته إلى كواشة أو (كواشى) قلعة بالموصل . انظر : النجوم الزاهرة (٣٤٨/٧) ، الاعلام (٢٧٤/١) .

(٥) الاتقان (١٧٣/٢) .

وهذه هي المعاني التي ذكرناها من قبل ، فأهل السنة يتمسكون بالمعنيين الأول والثاني والمؤولة يتعلقون بالمعنى الثالث ، لأنه أساس مذهبهم في تأويل الصفات .

والسيوطي من الذين أخذوا بالمعنى الثالث فقد انتهج في باب الصفات منهج التأويل جرياً على مذهب الأشاعرة والماتريدية ، وهو منهج معروف في التجهم والتعطيل .

وقد صاغه الرازي في قانون كلي يرجعون إليه ويسيرون عليه ، حيث قال : " اعلم : أن الدلائل القطعية العقلية إذا قامت على ثبوت شئ ، ثم وجدنا أدلة نقلية يشعر ظاهرها بخلاف ذلك ، فهناك لا يخلو الحال من أمور أربعة :

١ - إما أن يصدق مقتضى العقل والنقل ، فيلزم تصديق النقيضين .

٢ - وإما أن نبطلهما ، فيلزم تكذيب النقيضين ، وهو محال .

٣ - وإما أن تكذب الظواهر النقلية ، وتصدق الظواهر العقلية .

٤ - وإما أن تصدق الظواهر النقلية ، وتكذب الظواهر العقلية -وذلك باطل- لأنه لا يمكننا أن نعرف صحة الظواهر النقلية إلا إذا عرفنا بالدلائل العقلية اثبات الصانع وصفاته ، وكيفية دلالة المعجزة على صدق الرسول -صلى الله عليه وسلم- وظهور المعجزات على يد محمد -صلى الله عليه وسلم- ، ولو صار القدح في الدلائل العقلية القطعية صار العقل متهماً غير مقبول القول ، ولو كان كذلك لخرج عن أن يكون مقبول القول في هذه الأصول ، وإذا لم تثبت هذه الأصول خرجت الدلائل النقلية عن كونها مفيدة ، فثبت أن القدح في العقل لتصحيح النقل ، يفضي إلى القدح في العقل والنقل معاً ، وإنه باطل ، ولما بطلت الأقسام الأربعة لم يبق إلا أن يقطع بمقتضى الدلائل العقلية ، القاطعة بأن هذه الدلائل النقلية : إما أن يقال إنها غير صحيحة ، أو يقال : إنها صحيحة إلا أن المراد منها غير ظواهرها ، ثم إن جوزنا التأويل : اشتغلنا - على سبيل التبرع بذكر تلك التأويلات على التفصيل وإن لم نجوز التأويل ، فوضنا العلم بها إلى الله تعالى ، فهذا هو القانون الكلي المرجوع إليه في جميع المتشابهات[1] " .

وهذا القانون الكلي الذي وضعه الرازي يدل على أمر خطير :

هو توهم التعارض بين الظواهر العقلية والظواهر النقلية ، وهذا غير صحيح ، لأن الظواهر النقلية (القرآن والسنة الصحيحة) لايمكن أن يكون بينها وبين مقررات العقل الصحيح تعارض ، لأن هذا التوهم قد أدي بهم إلى رد الاستدلال بما جاءت به الأنبياء والمرسلون في صفات الله تعال[2]ى وغير ذلك من الأمور التي أنبأوا بها ، وظن هؤلاء - الرازي وأمثاله - أن العقل يعارضها "وأما هذا القانون الذي وضعوه فقد سبقهم إليه طائفة ، منهم أبو حامد[3] وجعله قانوناً في جواب المسائل التي سئل عنها في نصوص أشكلت على السائل ، كالمسائل التي سأله عنها القاضي أبو بكر بن العربي

---

(١) أساس التقديس (ص ٢٢٠ - ٢٢١) .

(٢) التعارض بين العقل والنقل على فرض وجوده لايؤدي إلى رد الاستدلال بالشرع ، ذلك لان الشرع عندنا أهل السنة مقدم على العقل أصلاً ، إنما خطأ المتكلمين في فصلين : أولهما : توهمهم أن بين ا لشرع والعقل تعارضاً والثاني : زعمهم أنه في حال التعارض يقدم العقل على الشرع وكلا الأمرين خطأ .

(٣) الاشارة هنا إلى كتاب : " قانون التأويل " الذي ألفه الغزالي ، ط عزت الحسيني - القاهرة ١٣٩٥ هـ - ١٩٤٠ م .

، وخالفـه القاضـي أبو بكر في كثير من تلك الأجوبة... ووضع أبو بكر بن العربي هذا قانوناً آخر مبنياً على طريقة أبي المعالي ومن قبله ، كالقاضي أبي بكر الباقلاني .

ومـثل هذا القانون الذي وضعه هؤلاء ، يضع كل فريق لأنفسهم قانوناً فيما جاءت به الأنبياء عن الله ، فيجعلون الأصل الذي يعتقدونه ويعتمدونه هو ما ظنوا أن عقولهم عرفته ، ويجعلون ما جاءت به الأنبياء تبعاً له ، فما وافق قانونهم قبـلوه ، وما خالفه لم يتبعوه[١] " ومن فعل ذلك فهو على خطر عظيم ، لأنه جعل كلام الله وكلام رسوله – صلى الله عليه وسـلم – تابعـاً لكلام البشر ، وجعل كلام البشر حاكماً على كلام الله –جل وعلا– وكلام الله –عز وجل– محكوماً عليه ، والواجـب أن يكـون كلام الله –عز وجل– مهيمناً على سائر الكلام ، فهو كلام العزيز العظيم ، فإذا كان كلام البشر هو الأصل المعول عليه ، فما فائدة النبوة والرسالة ؟ وما هي فائدة الوحي الذي يوجه البشر إلى خير الدنيا والآخرة ؟

إن هـذا القانون الذي وضعه المتكلمون ، إنما وضعوه بسبب ما لبسوا به على أنفسهم ، بتعظيم العقل وتمجيده ، وظنهم أنه مقدم على الشرع فلما تعارضت عندهم الأصول العقلية التي قرروها بعيداً عن الشرع مع النصوص الشرعية ، وقعـوا في مأزق : إما رد الكل ، أو أخذ الكل ، فوجدوا في التأويل مهرباً عقلياً ومخرجاً من التعارض الذي أنتجه منهجهم العقلي . ولهذا قالوا : إننا مضطرون للتأويل ، وإلا أوقعنا القرآن في التناقض ، وإن الخلف لم يؤولوا عن هوى ومكابرة ، وإنمـا عـن حاجة واضطرار ، فهذا هو الذي أنتجه العقل الذي استخدم بعيداً عن الكتاب والسنة ، انتج توهم التناقض في نصوص الوحي المنزل من عند الله تعالى ، وقولهم : إننا مضطرون لا يعذرهم أمام الله .

وممـا يجدر بيانه حتى تتم الحقيقة أن مذهب السلف لا تأويل فيه لنص من النصوص الشرعية اطلاقاً ، ولا يوجد نص واحد – لا في الصفات ولا في غيرها – اضطر السلف إلى تأويله ولله الحمد ، وكل الآيات أو النصوص التي ذكروها عـن السلف أنهم أولوها ، فإنه ليس تأويلاً وإنما النصوص تحمل في نفسها ما يدل على المعنى الصحيح الذي فهمه السلف منها[٢] والذي يدل على تنزيه الله تعالى دون أدنى حاجة أو أدنى اضطرار إلى التأويل .

إذا تقرر هذا ثم نظرنا في كلام السيوطي الذي سنورده الآن –إن شاء الله– قطعنا بأن السيوطي كان متأرجحاً بين التفويض والتأويل[٣] ، وزعم أن التفويض هو مذهب السلف والتأويل مذهب الخلف ، وهو بذلك لم يصب وجه الصواب في نسبة التفويض للسلف كما سيتبين لنا من خلال البحث، وله قصيدة في التفويض نقل ابن العماد منها هذه الأبيات:

فوض أحاديث الصفات ۞ ولا تشبه أو تعطـل

إن رمت إلا خوضاً في ۞ تحقيق معضـلة فأول

إن المفوض سـالم ۞ مما تكلفه المـؤول[٤]

---

(١) ابن تيمية : درء تعارض العقل والنقل (١/٥ ، ٦) .

(٢) انظر موقف الامام احمد من التأويل في آخر هذا الفصل .

(٣) انظر : احمد الخازندار ، ومحمد ابراهيم الشيباني : دليل مخطوطات السيوطي وأماكن وجودها ، ط١ / ١٤٠٣هـ – ١٩٨٣م – مكتبة ابن تيمية – الكويت ، وانظر : محمد عبدالرحمن المغراوي : المفسرون بين التأويل والاثبات لآيات الصفات (١٨١/٢ ، ١٨٢) دار طيبة ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م

(٤) انظر : ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب (٥٤/٨) .

وللسيوطي مؤلف مستقل في تأويل الأحاديث التي تثبت الصفات لله جل وعلا ، سماه : " تأويل الأحاديث الموهمة للتشـــبيه[١] " وقوـــله " الموهمة " لفظة سيئة غير موفقة ، لأنها تصف كلام الرسول -صلى الله عليه وسلم- بأنه يؤدي إلى الايهام ، والوهم والتوهم خطرات يتخيلها القلب غلطاً[٢] ، ووصف كلام النبي -صلى الله عليه وسلم- بأنه يوقع الخطرات السيئة في قلب الإنسان بحيث يتخيل الغلط في حق الله جل وعلا مناقض لما وصفه الله تعالى به في قوله : (وما ينطق عن الهـــوى ، إن هـــو إلا وحي يوحى)[٣] ومناقض كذلك لقوله -صلى الله عليه وسلم - لعبدالله بن عمرو : " اكتب ، فوالذي نفسي بيده ما خرج مني إلا حق "[٤] . ولقوله أيضاً : " إني لا أقول إلا حقاً "[٥] .

فالســـلف الصالح وأهل السنة عموماً لم يتوهموا من نصوص الوحيين تشبيهاً لخالقنا -جل وعلا- بل فهموا منها معاني الكمال والجمال والجلال ، ولم يدر بخلدهم يوماً بل لحظة أنها تشبه الباري -عز اسمه- بخلقه .

لكـــن أهـــل البدع لما كانوا لا يفهمون من صفات الرب -جل جلاله- إلا مثل ما يفهمونه من صفات المخلوقين ، عطـــلوا الـــرب ســـبحانه عـــن أسمائه وصفاته ، وهذا من جهلهم بالكتاب والسنة فهم شبهوا أولاً ، ثم عطلوا ثانياً ، وهما محذوران أحلاهما مر .

لقـــد كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يذكر لأصحابه صفات ربه -تبارك وتعالى- ولم يستنكروا شيئاً منها ، فـــلو كـــانت موهمة للتشبيه لبادروا إلى السؤال والاستفهام عن مغزاها ، أو لقالوا مثلاً : وهل يشبه الرب خلقه ؟؟ أو لقالوا مـــثلاً : وهل صفات الله من جنس صفات خلقه ؟؟ أو نحو ذلك كما قال أحدهم : أو يضحك ربنا ؟؟ قال : " إي والذي نفســـي بيده إنه ليضحك " قال : فقلت : إذاً لا يعد منا منه خيراً إذا ضحك[٦] . وهذا وإن كان سنده ضعيفاً ، لكن يدل على أن الصـــحابة -رضـــي الله عـــنهم- لو استشكلوا آيات الصفات وأحاديث الصفات وتوهموا منها تشبيهاً لبادروا بالسؤال ، ولكنهم لسلامة فطرهم ، وعدم تلوثها بالعقائد الفاسدة لم يستنكروا ولم يستشكلوا شيئاً منها ، بل أقروا بها وآمنوا وأثبتوا ما دلت عليه ، وعلموا أن الله (ليس كمثله شئ)[٧] لا في ذاته ، ولا في صفاته ، ولا في أفعاله (وهو السميع البصير)[١] بخـــلاف آيات الأحكام ، فإنهم يستشكلون كثيراً منها ، فيبادرون إلى السؤال والاستفصال عما أشكل ، يبين هذا العلامة ابن

---

(١) ضبط وتعليق : البسيوني مصطفى ابراهيم الكومي - دار الشروق - جده ، ط١/١٣٩٩ هـــ - ١٩٧٩م .
(٢) انظر : لسان العرب (٦٤٣/١٢) .
(٣) سورة النجم ، الآيتان (٣ ، ٤) .
(٤) رواه احمد في " المسند " (١٦٢/٢ ، ١٩٢) ، وانظر : ابن كثير : تفسير القرآن العظيم (٤١٨/٧) .
(٥) رواه الامام احمد في " المسند " (٣٤٠/٢) ، (٣٦٠/٢) ، والترمذي من طريق سعيد المقبري ، أنظر : تحفة الأحوذي ، أبواب البر ، باب " ما جاء في المزاح " ح رقم (٢٠٥٨) (١٢٦/٦ ، ١٢٧) .
(٦) أخرجه الامام احمد في " المسند " (١١/٤ - ١٢) ، وابن ماجه -في " سننه "- المقدمة (٦٤/١) باب (١٣) فيما انكرت الجهمية - عن أبي رزين .
والحديث اسناده ضعيف لوجود ثلاثة من الضعفاء في سنده وهم :
١ - موسى بن خاقان ، وهو متكلم فيه - انظر : الميزان (٢٠٣/٤) .
٢ - ســـلم بـــن سالم البلخي ، قال ابن حجر : " اتفق المحدثون على تضعيف رواياته " راجع : الجرح والتعديل (٢٦٦/٤) ، الميزان (١٨٥/٢) ولسان الميزان (٦٤/٣) .
٣ - خارجة بن مصعب بن خارجة ، أبو الحجاج السرخسي ، متروك ، انظر : التهذيب (٧٦/١) والتقريب (٢١٠/١) .
(٧) سورة الشورى ، بعض الآية (١١) .

القيم بطريقة أوضح فيقول : " تنازع الناس في كثير من الأحكام ولم يتنازعوا في آيات الصفات وأخبارها في موضع واحد ، بل اتفق الصحابة والتابعون على اقرارها وامرارها مع فهم معانيها ، واثبات حقائقها ، وهذا يدل على أنها أعظم النوعين بياناً ، وأن العناية ببيانها أهم ، لأنها من تمام تحقيق الشهادتين ، واثباتها من لوازم التوحيد ، فبينها الله سبحانه وتعالى ورسوله بياناً شافياً لا يقع فيه لبس يوقع الراسخين في العلم في منازعة ، ولا اشتباه "[١] .

" وآيات الأحكام لا يكاد يفهم معانيها إلا الخاصة من الناس ، وأما آيات الصفات فيشترك في فهم معناها الخاص والعام ، أعني فهم أصل المعنى ، لا فهم الكنه والكيفية ... "[٢] .

والمهم الذي ينبغي أن يعلم أن النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ لم يتكلم بأحاديث موهمة للتشبيه ، إنما أهل البدع لا يفهمون من ذكر آيات وأحاديث الصفات إلا ما يقتضي التشبيه ، فالباطل نشأ من فهم عقولهم مع أنهم يزعمون أنهم هم وحدهم أهل الحذق في المعقول ، وأنهم أعلم وأحكم من السلف الصالحين .

وكم من عائب قولاً صحيحاً وآفته من الفهم السقيم

وقال ابن القيم أيضاً : " ولهذا أشكل على بعض الصحابة[٣] قوله : (حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود)[٤] حتى بين لهم بقوله : (من الفجر)[٢] ولم يشكل عليه ولا على غيره قوله : (وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان)[٥] وأمثالها من آيات الصفات ، وأشكل على عمر بن الخطاب آية الكلالة ، ولم يشكل عليه أول الحديد وآخر الحشر وأول سورة طه ونحوها من آيات الصفات ، وأيضاً فإن بعض آيات الأحكام مجملة عرف بيانها بالسنة ، كقوله تعالى : (ففدية من صيام أو صدقة أو نسك)[٦] فهذا مجمل في قدر الصيام والاطعام فبينته السنة "[٧] .

قال السيوطي في كتابه المذكور[٨] : " التأويل مندرج في التوحيد اندراج المقدمة في البرهان ، غير أن من السلف من[٩]

---

(١) انظر : من الصواعق المرسلة الأصل الذي حققه د . علي بن محمد الدخيل الله (٢٠٩/١ - ٢١١) ط١ / ١٤٠٨ هـ - دار العاصمة - الرياض .

(٢) مختصر الصواعق المرسلة (ص ١٥) .

(٣) يشير إلى قصة عدي بن حاتم -رضي الله عنه- فيما رواه البخاري عنه بسنده قال : " أخذ عدي عقالاً أبيض وعقالاً أسود ، حتى كان بعض الليل نظر فلم يستبينا ، فلما أصبح قال : يارسول الله جعلت تحت وسادي ، قال : " إن وسادك إذاً لعريض إن كان الخيط الأبيض والأسود تحت وسادتك " رواه البخاري في صحيحه - كتاب التفسير (٦٥) سورة البقرة (٢) باب (٢٨) ح رقم (٤٥٠٩) انظر فتح الباري (١٨٢/٨) .

(٤) سورة البقرة ، بعض الآية (١٨٧) .

(٥) سورة البقرة ، بعض الآية (١٨٦) .

(٦) سورة البقرة ، بعض الآية (١٩٦) .

(٧) فيما رواه البخاري في " صحيحه " كتاب المغازي (٦٤) باب (٣٥) ح رقم (٤١٥٩) عن كعب بن عجرة -رضي الله عنه- انظر الفتح (٧/ ٤٤٤ ، ٤٤٥) .

ورواه مسلم في " صحيحه " (٨٥٩/٢ ، ٨٦٠) كتاب الحج (١٥) ، باب (٩) ح رقم [٨٠ - (١٢٠١)] .

ولفظ الحديث في صحيح البخاري : عن كعب بن عجرة أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- رآه وقمله يسقط على وجهه ، فقال : أيؤذيك هوامك ، قال : نعم ، فأمره رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أن يحلق وهو بالحديبية ، لم يبين لهم أنهم يحلون بها وهم على طمع أن يدخلوا مكة ، فأنزل الله الفدية ، فأمره رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أن يطعم فرقاً بين ستة مساكين ، أو يهدي شاة ، أو يصوم ثلاثة أيام " .

(٨) " تأويل الأحاديث الموهمة للتشبيه " .

أمرها على ما وردت ، وأمر بالكف عن التأويل حذاراً على القلب من الزيغ ، وعلى اللسان من الطغيان ، وإنما حذر غير الراسخين في العلم من الخوض بلا بصيرة ولا إيقان "[١] .

ولنا على هذا الكلام عدة ملاحظات :

أولاً : قوله : " التأويل مندرج في التوحيد اندراج المقدمة في البرهان " بمعنى أن التوحيد مبني على التأويل ، أي أنه إذا كانت المقدمة ضرورية لانتاج البرهان ، فالتأويل ضروري في تحقيق التوحيد ، وإذا كان لا برهان من غير مقدمات فإنه لا توحيد من غير تأويل .

وهـذا كـلام محدث لم يقله أحد من السلف ، ولم يقله أحد من علماء السنة . بل التواتر وارد عن السلف وعلماء السنة في ذم التأويل وتبديع من ينتهجه ، فضلاً عن الأئمة الذين نقل السيوطي نفسه عنهم أنهم أمروا بترك التعرض لآيات وأحاديث الصفات بالتأويل ، وسيأتي ذكرهم -إن شاء الله تعالى- وقد صنف بعض العلماء في ذم التأويل وابطاله منهم : القاضي أبو يعلى[٢] ، والشيخ موفق الدين ابن قدامة [٣] ، وهو الذي حكى عن غير واحد إجماع السلف على عدم القول به .

ثانياً : قوله : " غير أن في السلف من أمرها على ما وردت ، وأمر بالكف عن التأويل " هذا اعتراف منه بتقرير مذهب السلف الذين هم أهل القرون المفضلة ، ومن تبعهم من علماء أهل السنة والجماعة ، وقد قال ناظم " الجوهرة " وهو أشعري العقيدة :

" فكل خير في اتباع من سلف وكل شر في ابتداع من خلف "[٤]

ولقـد صدق في قوله : فبقى العمل الذي يوافق القول ويطابقه ، وهذا عجيب من ناظم الجوهرة وحجة عليه ، وأعجب منه قـول شارح الجوهرة أيضاً : " ...والمراد بمن سلف من تقدم من الأنبياء والصحابة والتابعين وتابعيهم ، خصوصاً الأئمة الأربعـة المجـتهدين الذين انعقد الاجماع على امتناع الخروج عن مذاهبهم في الافتاء والحكم... "[٥] وهذا والله من العجب الـذي لا ينقضي منه العجب ، لأن الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- لم يكونوا على عقيدة الأشاعرة ، وكذلك الصحابة -رضي الله عنهم- والتابعون وتابعوهم فهؤلاء هم السلف الذين ندعوا دائماً إلى اتباعهم والتأسي بهم ، والسير على منهاجهم ، والنسج على منوالهم ، ولقد قلت إن هذا من العجب لأن الأئمة الأربعة الذي يمنع الشارح الخروج عن مذاهبهم بالإجماع ، لـم يكونوا كذلك على عقيدة الأشاعرة ، فهل كان أبو حنيفة أشعرياً ، وكذلك مالك والشافعي والإمام احمد كان أشعرياً ؟؟ أم أن الإمام أبا الحسن الأشعري هو الذي انخلع من الإعتزال ، وأعلن أنه على مذهب أحمد بن حنبل ؟؟ إن الصحيح هو

---

(١) السيوطي : تأويل الأحاديث الموهمة للتشبيه (ص ١٠٦) - ت البسيوني الكومي .

(٢) لـه ردود على الأشعرية ، والكرامية ، والسالمية ، والمجسمة ، وابن اللبان ، من مؤلفاته كتاب : " ذم التأويل " ويسمى " ابطال التأويل " ، ذكره ابن تيميـة في " درء تعارض العقل والنقل " (١/١٦) ، (٥/٢٣٧) وذكره بروكلمان في الملحق (٣/٥٠٣) ولم يذكر أنه موجود ، والكتاب مطبوع منه ثلاث مجلدات طبعه حمود النجدي .

(٣) كتاب " ذم التأويل " مطبوع وسبق ذكره ، وانظر من هذا الكتاب (ص ١٤) ، (ص ١٧) ، (ص ٢٣) ، (ص ٢٧ في حكاية الاجماع) وكذلك (ص ٣٥) و (ص ٤٠) ، (ص ٤٢) .

(٤) ابراهيم اللقاني : جوهرة التوحيد ، بهامش تحفة المريد (ص ١٣١) ط الأخيرة -حلبي مصر ١٣٨٥هـ - ١٩٣٩م

(٥) السابق نفسه ، ومتى انعقد الإجماع على الامتناع عن الخروج عن مذاهبهم في الفتوى والحكم ؟؟ .

الثاني ، فقد ترك أبو الحسن مذهب الإعتزال في طوره الثالث والأخير وانتسب إلى الإمام احمد في مسائل العقيدة[١] ، فقد أصبح أبو الحسن الأشعري حنبلياً ، وما كان احمد بن حنبل يوماً أشعرياً ، وهذه من الأمور العجيبة التي انعكست في عقول الأشاعرة ، فهم في الفقه أحناف وفي العقيدة أشاعرة وكذلك في الفقه مالكية وفي العقيدة أشاعرة !! وفي الفقه شافعية وفي العقيدة أشاعرة ، وكذلك في الفقه حنابلة وفي العقيدة أشاعرة ، وهذا أمر يدعو إلى العجب فعلاً ، فإذا كان شارح الجوهرة يمنع الخروج عن مذاهب الأربعة العظام -رحمهم الله- فلم يترك عقيدة هؤلاء الأربعة فيخرج عنها هو وبقية الأشاعرة ويلتزموا عقيدة غيرهم وهي عقيدة الأشاعرة التي هي في حقيقتها عقيدة عبدالله بن كلاب ، وليست عقيدة الأشعري ، أما الإمام أبو الحسن الأشعري فقد برئ من المعتزلة وغيرهم وأعلن عقيدته فقال : " فإن قال قائل لنا : قد انكرتم قول المعتزلة والقدرية ، والجهمية ، والحرورية ، والرافضة ، والمرجئة فعرفونا قولكم الذي به تقولون ، وديانتكم التي بها تدينون ، قيل له : قولنا الذي نقول به ، وديانتنا التي ندين بها : التمسك بكتاب الله ربنا -عز وجل- ، وبسنة نبينا محمد -صلى الله عليه وسلم- وما روى عن السادة الصحابة والتابعين ، وأئمة الحديث ، ونحن بذلك معتصمون ، وبما كان يقول به أبو عبدالله أحمد بن محمد بن حنبل -نضر الله وجهه ، ورفع درجته ، واجزل مثوبته- قائلون ، ولما خالف قوله مخالفون ، لأنه الإمام الفاضل ، والرئيس الكامل ، الذي أبان الله به الحق ، ودفع به الضلال ، وأوضح به المنهاج ، وقمع به بدع المبتدعين وزيغ الزائغين ، وشك الشاكين ، فرحمة الله عليه من إمام مقدم ، وجليل معظم ، وكبير مفهم... "[٢] فما هو قول شارح الجوهرة بعد هذا الكلام الرصين من أمامه الذي ينتسب إليه ؟؟ ولعل السيوطي كذلك كان قد اطلع على ما قاله الشيخ أبو الحسن -رحمه الله- فلعله كان انزجر عن التأويل الذي سود به صحائف كتابه المذكور[٣] .

غير أن قوله : " في السلف من أمرها... " الخ يشعر بأن بعضاً يسيراً من السلف قال ذلك ولكن الحقيقة أن السلف كلهم قاطبة الذين هم الصحابة والتابعون ومن تبعهم بإحسان لم يشذ أحد منهم عن هذا المعتقد الصحيح وهو قراءة آيات الصفات والإيمان بها وفهم معناها المراد وترك تأويل شئ منها ، وعدم البحث أو السؤال عن الكيف .

<u>**ثالثاً :**</u> قوله : بأن " السلف أمروا بالكف عن التأويل " حذاراً على القلب من الزيغ ، وعلى اللسان من الطغيان " .

وهذا أيضاً اعتراف من السيوطي بأن التأويل سبب للضلال ، وهو علامة على زيغ القلوب وطغيان الألسن ، وهذا هو الحق الذي يجب أن يتبع ، فإن السلف كانوا يخافون من أن يؤدي التأويل بأصحابه إلى الزيغ والضلال ، وهو الذي حدث بالفعل ، وقد حذر منه كتاب الله -جل وعلا- بقوله : (فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله)[٤] وقد سبق السيوطي علماء الكلام في رجوعهم عن معتقداتهم المخالفة لعقيدة السلف وتوبتهم من علم الكلام وما يحمله من تأويل ، فقد رجعوا من هذا إلى الانكفاف عن التأويل . ومن هؤلاء :

---

(١) انظر : ابو الحسن الاشعري : الابانة عن أصول الديانة (ص ٢٠) ت : د. فوقية حسين محمود ، ط١ / ١٣٩٧ هـ - ١٩٧٧ م - دار الأنصار - القاهرة . وابن عساكر : تبيين كذب المفتري (ص ١٥٨) ، الإمام محمد ابو زهرة : تاريخ المذاهب الإسلامية (ص ١٦٢ ، ١٦٣) .

(٢) الابانة عن أصول الديانة (٧٠ ، ٧١) ت . د . فوقية حسين محمود -دار الانصار- القاهرة - ط١ / ١٣٩٧ هـ - ١٩٧٧ م .

(٣) هو الموسوم بـ " تأويل الأحاديث الموهمة للتشبيه " .

(٤) سورة آل عمران ، بعض الآية (٧) .

الإمـــام الجويني -إمام الحرمين- فقد نقل السيوطي نفسه عنه أنه كان على مذهب الخلف في التأويل ثم رجع عنه[١] ، ولا مـــانع عـــندي من نقل كلام إمام الحرمين لتأييد كلام السيوطي عنه ، قال في " العقيدة النظامية " : " ...وذهب أئمة السلف إلى الانكفاف عن التأويل واجراء الظواهر على مواردها... "[٢] ثم قال : " والذي نرتضيه رأياً ، وندين الله به عقداً : اتباع سلف الأمة ، فالأولى الاتباع وترك الابتداع "[٣] ثم قال : " وقد درج صحب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – و -رضـــي عـــنهم – عـــلى ترك التعرض لمعانيها[٤] ، ودرك ما فيها ، وهم صفوة الإسلام ، والمستقلون بأعباء الشريعة ، وكانوا لا يألون جهداً في ضبط قواعد الملة ، والتواصي بحفظها ، وتعليم الناس ما يحتاجون إليه منها ، فلو كان تأويل هذه الآيـــات والظواهـــر مســـوغاً ومحتوماً لأوشك أن يكون اهتمامهم بها فوق اهتمامهم بفروع الشريعة ، وإذا انصرم عصرهم ، وعصر التابعين على الإضراب عن التأويل ، كان ذلك قاطعاً بأنه الوجه المتبع... ومما استحسن من كلام إمام دار الهجرة – رضـــي الله عنه – وهو مالك بن أنس -رضي الله عنه- أنه سئل عن قوله تبارك وتعالى : (الرحمن على العرش اســـتوى)[٥] فقـــال : " الإستواء معلوم ، والكيفية مجهولة والسؤال عنه بدعة ، فلنجر آية الإستواء والمجئ وقوله : (لما خلقت بيدي)[٦] على ما ذكرناه ، فهذا بيان ما يجب لله تبارك وتعالى "[٧] .

وقد سبقه قبل ذلك والده أبو محمد الجويني " والد أبو المعالي " (ت ٤٤٠ هـــ) .

فقـــد رجـــع فـــي آخر عمره إلى عقيدة السلف ، وشهد له بذلك شيخ الإسلام ابن تيمية في مواضع ، وكتب توبته بعنوان " النصيحة "[٨] .

ومن هؤلاء الذين رجعوا وندموا على إضاعتهم الأعمار في علم الكلام عموماً فخر الدين الرازي (ت ٦٠٦ هـــ) .

فقـــد ذكـــر أن الرازي عندما مرض مرض الموت أملى على بعض تلاميذه قال : " لقد اختبرت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية فما رأيت فيها فائدة تساوي الفائدة التي وجدتها في القرآن "[٩] .

ومما قاله الرازي أيضاً في ذلك :

نهـــاية اقـــدام العقـــول عقـــــــــال وأكثر سعي العالمين ضـــــــلال

ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا[١٠]

---

(١) انظر : معترك الإقران (١/١١٢) ، والاتقان (٢/٦) .
(٢) إمام الحرمين أبو المعالي عبدالملك الجويني : العقيدة النظامية (ص/٣٢)
(٣) نفسه . ونقل ذلك السيوطي عن الجويني في كتابه : الكوكب الساطع شرح نظم جمع الجوامع مخطوط – لوحة رقم (١٦٤/أ ، ب) .
(٤) بـــل تعرض السلف لمعانيها وتفسيرها ، أما الذي تركوه وحذروا منه هو كيفية اتصاف الباري جل وعلا بها ، فهذا لا يعلمه أحد من الخلق ، وكلام الجويني يدل على أنه لم يرجع إلى عقيدة السلف ، وإنما رجع إلى عقيدة التفويض الذي ظنّ أنه عقيدة السلف .
(٥) سورة طه ، الآية (٥) .
(٦) سورة ص ، بعض الآية (٧٥) .
(٧) العقيدة النظامية (ص / ٣٢ ، ٣٣) .
(٨) انظرها مطبوعة مع مجموع الرسائل المنيرية ، وطبعها المكتب الإسلامي معزوة إلى ابن شيخ الحزاميين وهو خطأ . ومناسبة فتواه هذه هي صدور مراسيم سلطانية بلعب أصحاب البدع ومنهم الأشاعرة على المنابر – انظر في ذلك المنتظم لابن الجوزي حوادث سنة ٤٣٣ وما بعدها .
(٩) طبقات الشافعية الكبرى (٨/٩٠) وانظر : سير أعلام النبلاء (٢١ / ٥٠١) .
(١٠) طبقات الشافعية الكبرى (٨/٩٦) ، وفيات الأعيان (٤/٢٥٠) ، شرح العقيدة الطحاوية (ص ٢٠٨ ، ٢٠٩) .

وممن نحى ذلك الرجوع وأومأ إلى ذلك الندم أبو الفتح الشهرستاني (ت ٥٤٨ هـ) ، في نهاية الأقدام فقال : " لعمري

لقد طفت في تلك المعاهد كلها وسيرت طرفي بين تلك المعالم

فلم أر إلا واضعاً كف حائر على ذقن أو قارعاً سن نادم[(١)]

ثم كذلك أبو حامد الغزالي (ت ٥٠٥ هـ) بعدما صال وجال مع علم الكلام ، ومع الفلسفة ، ومع التصوف رجع إلى القرآن وإلى صحيح البخاري حتى مات وصحيح البخاري على صدره[(٢)] .

فرجوع إمام الحرمين إلى الاثبات وترك التأويل هو الحق الذي لا مرية فيه .

رابعاً : قول السيوطي : " وإنما حذر غير الراسخين في العلم من الخوض بلا بصيرة ولا إيقان " يدل على أن الراسخين في العلم لم يمنعوا من الخوض في التأويل ، والتأويل يتعلق بآيات الصفات ، وهو قد جعلها من المتشابه ، إذاً فالراسخون على هذا يعلمون تأويل المتشابه ، وقد قال في تفسير الآية : بأن المتشابه لا يطلع على علمه أحد ، لا الراسخون ولا غيرهم ، ونصر هذا القول ، وأخبر أنه مذهب الأكثرين من الصحابة والتابعين ، قال السيوطي : " واختلف أيضاً هل المتشابه مما يمكن الاطلاع على علمه ، أو لا يعلمه إلا الله على قولين ... وعلى الأول طائفة يسيرة ... وأما الأكثرون من الصحابة والتابعين وتابعيهم ومن بعدهم ، خصوصاً أهل السنة فذهبوا إلى الثاني وهو أصح الروايات عن ابن عباس ، قال ابن السمعاني : " لم يذهب إلى القول الأول إلا شرذمة قليلة "[(٣)] ثم قال : " ويدل لصحة مذهب الأكثرين ما أخرجه عبدالرزاق في تفسيره ، والحاكم في مستدركه عن ابن عباس أنه كان يقرأ قوله تعالى : (وما يعلم تأويله إلا الله ويقول الراسخون في العلم آمنا به) ، فهذا يدل على أن الواو للإستئناف ، لأن هذه الرواية وإن ثبتت بها القراءة ، فأقل درجاتها أن تكون خبراً باسناد صحيح إلى ترجمان القرآن ، فيقدم كلامه في ذلك على من دونه " [(٤)] .

ثم هو هنا يقول بأن الراسخين يعلمون تأويله ، وهذا يعد تناقضاً واضحاً في كلام السيوطي ، وتذبذباً يبين وعدم ثباته على رأي واحد في هذه المسألة . غير أننا لو حملنا كلام السيوطي على أحسن وجوهه لقلنا إنه يريد القول بأن الراسخين يعلمون معاني المتشابه ، ويعلمون تفسيره غير أن الكيف في حق الله جل وعلا لا يعلمه أحد ، وهو معنى كلام شيخ الاسلام ابن تيمية الذي سبق أن نقلناه ، وهو يقرره في كل مناسبة .

وهذا الأليق أن نوجه إليه كلام السيوطي فهو في موضع نفي عن الراسخين علم المتشابه وفي هذا الموضع أثبته لهم ، وما من حل لهذا التعارض في أقواله إلا أن نقول إن المنفي هناك غير المثبت هنا فتنفك الجهة فالمنفي هو الكيف ،

---

(١) نهاية الأقدام (ص / ٣) . حرره وصححه الفرجيوم ، وانظر : شرح العقيدة الطحاوية (ص ٢٠٩) ، ايثار الحق على الخلق (ص ١٤٠) .

(٢) انظر : ابن تيمية : السبعينية (٤٢/٥) ، ابن الجوزي : المنتظم (١٧/٩) ، السبكي : طبقات الشافعية (٢١٠/٦) .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في " شرح العقيدة الأصفهانية " : (ص ١٢٣) عن الغزالي : " ...ولهذا تبين له في آخر عمره أن طريق الصوفية لا تحصل مقصوده ، فطلب الهدى من طريق الآثار النبوية ، وأخذ يشتغل بالبخاري ومسلم ومات في أثناء ذلك على أحسن أحواله ، وكان كارهاً ما وقع في كتبه من نحو هذه الأمور مما أنكره الناس عليه... " .

(٣) معترك الاقران (١٠٤/١ ، ١٠٥) ، والاتقان (٣/٢) .

(٤) معترك الاقران (١٠٥/١) ، والاتقان (٣/٢) .

والمثـبت هـو المعنى اللغوي ، غير أن هذا المعنى الذي اعتذرت به عن السيوطي قد يكون مستبعداً ، لأنه لم يصرح ولم يشر إليه ولو مجرد إشارة .

وإذا كان السيوطي قد اختار التأويل منهجاً فإنه أيضاً قال بالتفويض ، فهو مؤول مفوض .

صرح بذلك في مصنفه الموسوم بـ " الكوكب الساطع " حيث نظم وشرح فقال :

" وما أتي به الهدى والسنن   من الصفات المشـكلات نؤمن

بها كما جاءت منزهينـا   مفوضـين أو مؤولينـا "[1]

ثـم شرح قائلاً : " ما ورد في الكتاب والسنة الصحيحة من الصفات المشكلة ظاهرها ، لا يهامه تشبيهاً ونحوه ، كقوله : (الرحمن على العرش استوى)[2] و (يبقى وجه ربك)[3] (ولتصنع على عيني)[4] و (يد الله)[5] ونحو ذلك فيه مذهبان لأهل السنة :

__أحدهما :__ أنا نؤمن بها كما جاءت ونفوض المراد إلى الله تعالى ولانفسرها .

__ثانيها :__ أنا نؤولها على ما يليق بجنابه وجلاله تعالى "[6] .

فقوله " لإيهامه تشبيهاً ونحوه " عبارة أيضاً لا نقرها ولا نرتضيها ، لأن مؤداها أن كلام الله وكلام رسوله أوهام ، وهذا يندرج في إساءة الأدب مع الله عز وجل .

ثم قوله : " مذهبان لأهل السنة " هو يقصد بأهل السنة هنا " الأشاعرة " لأن أهل السنة حقيقة لا يفوضون ، ولا يؤولـون ، فكـلا المذهـبين لا يقول به أهل السنة والجماعة المتبعون للسلف الصالح ولذلك ينبغي أن نحدد المعنى الصحيح لمصطلح أهل السنة ، ونبين لماذا يستعمل الأشاعرة دائماً مصطلح أهل السنة ويقصدون أنفسهم . كما يحلو للبعض أن يقول : الأشاعرة هم أهل السنة ، أو يقول : الأشاعرة والماتريدية هم أهل السنة . فإن هذا الكلام فيه توسع وتجاوز في التعبير ، لذلك نقول : السنة : هي ما كان عليه النبي -صلى الله عليه وسلم- وأصحابه اعتقاداً واقتصاداً ، وقولاً وعملاً[7]

ومصطلح " أهل السنة " له اطلاقان[8] : (عام ، وخاص)

---

(١) الكوكب الساطع شرح نظم جمع الجوامع ، مخطوط لوحة رقم (٤٢١) .

(٢) سورة طه ، الآية (٥) .

(٣) سورة الرحمن ، بعض الآية (٢٧) .

(٤) سورة طه ، بعض الآية (٣٩) .

(٥) سورة الفتح ، بعض الآية (١٠) .

(٦) الكوكب الساطع شرح نظم جمع الجوامع ، مخطوط لوحة رقم (٤٢١) .

(٧) انظـر : ابـو الفرج عبدالرحمن بن رجب الحنبلي جامع العلوم والحكم (١٢٠/٢) - ت : شعيب الأرناؤوط ، ابراهيم باجس ط١ / ١٤١١ هـ - ١٩٩١ م - مؤسسة الرسالة / بيروت لبنان وانظر : ابن تيمية : مجموع الفتاوي (٣٠٦/١٩ ، ٣٠٧) .

(٨) انظر : ابن تيمية منهاج السنة النبوية ، ت . د . محمد رشاد سالم ط ج الامام محمد بن سعود الاسلامية (٢٢١/٢) ، (١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م) . الرياض ، وانظر السنة والشيعة محمد رشيد رضا (ص / ٤٥) مطبعة المنار ١٣٤٧ هـ مصر - ، مجموع الفتاوي (١٥٥/٤) ، والشاطبي : الموافقات (٤/٤) بشرح الشيخ عبدالله دراز بدون تاريخ ، وانظر الرد على المنطقيين لابن تيمية ٥٢٣ - دار المعرفة - بيروت .

- أما الاطلاق العام : فالمراد به ما يكون في مقابل الشيعة[٢] ، فتدخل جميع الفرق المنتسبة للإسلام -عدا الشيعة- في مفهوم أهل السنة . وعلى ذلك يصح تقسيم أهل الإسلام إلى سنة وشيعة ، أو يقال : المسلمون سنة وشيعة .

قال ابن تيمية : " فلفظ السنة يراد به من أثبت خلافة الخلفاء الثلاثة ، فيدخل في ذلك جميع الطوائف إلا الرافضة... "[١] .

وأما الإطلاق الخاص : فالمراد به ما يكون في مقابل أهل البدع والمقالات المحدثة ، كالشيعة والخوارج ، والمعتزلة ، والجهمية ، والأشاعرة ، والمرجئة ، وغيرهم من أهل الزيغ والأهواء .

فهؤلاء قطعاً لا يدخلون في مفهوم أهل السنة بالمعنى الخاص ، قال ابن تيمية : " ...وقد يراد به أهل الحديث والسنة المحضة ، فلا يدخل فيه إلا من أثبت الصفات لله تعالى ، ويقول : إن القرآن غير مخلوق وإن الله يرى في الآخرة ، ويثبت القدر ، وغير ذلك من الأصول المعروفة عند أهل الحديث والسنة "[٢] .

وعندما يقال في ترجمة أحد الأعلام : إنه صاحب سنة ، أو صاحب بدعة ، يريدون به الإطلاق الخاص .

وقد كان أئمة السلف يسمون الاعتقاد الصحيح " سنة "[٣] كما قال سفيان بن عيينة : " السنة عشرة ، فمتى كن فيه ، فقد استكمل السنة ومن ترك منها شيئاً فقد ترك السنة " ثم ذكر جملة من عقائد السلف[٤] .

وقال الإمام احمد بن حنبل : " أصول السنة عندنا : التمسك بما كان عليه أصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ... " ثم ذكر جملة عقائد السلف[٥] .

ويتضح من هذا أن اطلاق السيوطي لمصطلح أهل السنة هو الإطلاق العام ، ويقصد به الأشاعرة خاصة ، بدليل أن الأشاعرة هم الذين يفوضون أو يؤولون ، أما أهل السنة فليس لديهم في منهجهم تفويض ولا تأويل ، بل عقيدتهم اثبات الصفات كما جاءت عن الله تعالى وعن رسوله -صلى الله عليه وسلم- فهم يثبتون ولا يفوضون معاني الصفات - كما ذكر ذلك عنهم افتراءً عليهم - .

أما انتفاء التفويض عنهم فللأدلة الآتية :

<u>أولاً :</u> ما ورد في القرآن الكريم من الآيات التي تضمنت إثبات هذه الصفات الكريمة لله جل وعلا ، من الإستواء والمجيء والمحبة والرضا والغضب ... الخ فإن لم يكن المراد منها اثبات هذه الصفات كما وردت على مراد الله تعالى وكما يليق بجلاله وعظمته فما هو المقصود من ورودها إذاً ؟ .

---

(١) منهاج السنة النبوية (٢/٢٢١) ت د. محمد رشاد سالم ط ج الإمام محمد بن سعود الإسلامية ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م - الرياض - السعودية .

(٢) منهاج السنة النبوية (٢/٢٢١) .

(٣) انظر : ابن رجب : جامع العلوم والحكم (٢/١٢٠) ، ت شعيب الارناؤوط ، ابراهيم باجس وانظر : ابن تيمية : مجموع الفتاوي (٣٠٦/٦٩ ، ٣٠٧) .

(٤) انظر : شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة . للامام هبة الله بن الحسن اللالكائي (١/١٥٥ ، ١٥٦) برقم (٣١٦) ت احمد سعد حمدان - دار طيبة الرياض .

(٥) نفسه .

وكذلك الأحاديث الكثيرة التي لا تكاد تحصر الواردة من طرق صحيحة عن النبي -صلى الله عليه وسلم- والآثار الواردة من طرق صحيحة أيضاً عن الصحابة وأمهات المؤمنين في أثبات الصفات العلية الكريمة ومنها :

١ - قوله -صلى الله عليه وسلم- : " ألا تأمنوني وأنا أمين من في السماء ؟ "[١] .

فهـذا مطابق لقوله تعالى : (أأمنتم من في السماء أن يخسف بكم الأرض فإذا هي تمور ، أم أمنتم من في السماء أن يرسل عليكم حاصباً فستعلمون كيف نذير)[٢] .

٢ - قولـه -صلى الله عليه وسلم- : " الراحمون يرحمهم الرحمن ، ارحموا من في الأرض ، يرحمكم من في السماء "[٣]

فهـذا شـأن الذي قبله في مطابقته لآيتي سورة الملك ، وفيه اثبات صفة الرحمة واسم الرحمن كما قال تعالى : (الرحمن الرحيم)[٤] وقوله تعالى : (الرحمن ، علم القرآن)[٥] وقوله عز وجل : (قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أياً ما تدعو فله الأسماء الحسنى)[٦] وقوله - تعالى - : (وربك الغفور ذو الرحمة...)[٧] .

٣ - قولـه -صلى الله عليه وسلم- : " والذي نفسي بيده ما من رجل يدعو امرأته إلى فراشه فتأبى عليه إلا كان الذي في السماء ساخطاً عليها حتى يرضى عنها "[٨] فهذا أيضاً كسابقه .

٤ - " احتج آدم وموسى ، وفيه : فقال له موسى : أنت آدم فيقولون له : أنت آدم الذي خلقك الله بيده... "[٩] الحديث .

٥ - حديـث أتى في الشفاعة وفيه " فيأتون آدم فيقولون له : أنت آدم أبو البشر ، خلقك الله بيده ، وأسجد لك ملائكته... "[١٠] الحديث .

فهذا والذي قبله يثبتان صفة اليد لله جل وعلا على ما يليق بجلاله وعظمته كما ورد ذلك في قوله تعالى :(يد الله فـوق أيديهم)[١١] وقوله جل وعلا : (بل يداه مبسوطتان)[١] وقوله عز وجل : (أولم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاماً فهم لها مالكون)[٢] .

---

(١) مـتفق عليه : - رواه البخاري في " صحيحه " كتاب المغازي (٦٤) ، باب (٦١) ح رقم (٤٣٥١) فتح الباري (٦٧/٨) - ورواه مسلم في " صحيحه " (٧٤٢/٢) كتاب الزكاة (١٢) باب (٤٧) ح رقم (١٤٤) - ورواه الامام احمد (٤/٣) .

(٢) سورة الملك ، الآيتان (١٦ ، ١٧) .

(٣) رواه أبـو داود في " سننه " رقم (٤٩٤١) والترمذي في " سننه " رقم (١٩٨٩) ، وقال : حسن صحيح ، والبيهقي في الأسماء والصفات (ص ٣٠٠) .

(٤) سورة الفاتحة ، الآية (٣) .

(٥) سورة الرحمن ، الآية (١ ، ٢) .

(٦) سورة الإسراء ، بعض الآية (١١٠) .

(٧) سورة الكهف الآية (٥٨) .

(٨) رواه مسلم في " صحيحه " (١٠٦٠/٢) كتاب النكاح (١٦) باب (٢٠) ح رقم (١٢١ ، ١٢٢) .

(٩) مـتفق عـليه : البخاري في " صحيحه " كتاب القدر (٨٢) باب (١١) ح رقم (٦٦١٤) ، انظر الفتح (٥٠٥/١١) ، ورواه مسلم في " صحيحه " (٤/ ٢٠٤٢) كـتاب القـدر (٤٦) بـاب (٢) ح رقم [(١٣-(٢٦٥٢)] ، وأبو داود (٧٦/٥) كتاب السنة باب (١٧) ، والترمذي (٤٤٤/٤) وابن ماجة في المقدمة (٣١/١) ومالك في الموطأ (٨٩٨/٢) والبغوي في شرح السنة (١٢٢/١) واحمد في المسند (٢٤٨/٢ ، ٢٦٤ ، ٢٦٨ ، ٢٨٧ ، ٢٩٢ ، ٤٤٨ ، ٤٦٤)] .

(١٠) رواه البخاري في " صحيحه " كتاب التوحيد (٩٧) ، باب (٣٧) ح رقم (٧٥١٦) . انظر الفتح (٤٧٧/١٣) . ورواه مسلم في " صحيحه " (١٨٠/١) كتاب الايمان (١) باب (٨٤) ح رقم [٣٢٢ - (١٩٣)] .

(١١) سورة الفتح ، بعض الآية (١٠) .

وهكـــذا كـــثير من الأحاديث والآثار التي تثبت ذلك لله جل وعلا[٣] ، فهي لم ترد لنؤولها أو نفوضها ، بل وردت لنثبتها لله عز وجل وندعوه بها ونثني عليه ونحمده بهذه الصفات الجليلة التي تثبت له الكمال المطلق ، وإلا فمن أين لنا أن نعلم صفات الكمال الإلهي التي يستحقها إلهنا جل وعلا ؟ .

ثانيــاً : أن كـــثيراً مـــن المتقدمين الذين صنفوا في أصول العقائد نقلوا نقلاً صحيحاً أن مذهب السلف هو اثبات الصفات وليس تفويضها . فقد أخرج البيهقي من طريق أبي داود الطيالسي قال : كان سفيان الثوري ، وشعبة ، وحماد بن زيد ، وحماد بن سلمة ، وشريك ، وأبو عوانه : لا يحددون ولا يشبهون ، ويروون هذه الأحاديث ، ولا يقولون كيف ، قال أبو داود وهو قولنا ، وقال البيهقي : وعلى هذا مضى أكابرنا[٤] .

وقال الترمذي : باب ما جاء في فضل الصدقة ، ثم روى حديث أبي هريرة مرفوعاً : " ما تصدق أحد بصدقة من طيـــب ، ولا يقـــبل الله إلا الطيب ، إلا أخذها الرحمن بيمينه ، وإن كانت تمرة تربو في كف الرحمن حتى تكون أعظم من الجـــبل كمـــا يـــربي أحدكم فلوه أو فصيله " ثم قال : وقد قال غير واحد من أهل العلم في هذا الحديث ، وما يشبه هذا من الروايات في الصفات ، ونزول الرب تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا قالوا : تثبت الروايات في هذا ويؤمن بها ولا يـــتوهم ولا يقـــال : كيـــف ؟ هكذا روي عن مالك وسفيان بن عيينة ، وعبدالله بن المبارك أنهم قالوا في هذه الأحاديث : أمـــروها بلا كيف ، وهكذا قول أهل العلم من أهل السنة والجماعة ، وأما الجهمية فأنكرت هذه الروايات ، وقالوا : هـــذا تشـــبيه ، وقـــد ذكـــر الله عـــز وجـــل في غير موضع من كتابه ، اليد ، والسمع ، والبصر ، فتأولت الجهمية هذه الآيـــات ، ففسروها على غير ما فسر أهل العلم ، وقالوا : إن الله لم يخلق آدم بيده ، وقالوا : إن معنى اليد ها هنا القوة ، وقـــال اسحاق بن ابراهيم (بن راهويه) إنما يكون التشبيه إذا قال : يد كيد أو مثل يد ، أو سمع كسمع أو مثل سمع ، فإذا قـــال : سمع كسمع أو مثل سمع فهذا التشبيه ، وأما إذا قال كما قال الله تعالى : يد وسمع وبصر ولا يقول كيف ، ولا يقول مثل سمع ولا كسمع فهذا لا يكون تشبيهاً ، وهو كما قال الله تعالى في كتابه : (ليس كمثله شئ وهو السميع البصير)[٥] .

وقد ورد عن الإمام أبي حنيفة مثل هذا[٦] ، وكذا الإمام مالك بن أنس[٧] ، والشافعي[٨] ، واحمد[٩] ، وكم هائل من العلماء والأئمة [١٠] .

---

(١) سورة المائدة ، بعض الآية (٦٤) .

(٢) سورة يس ، الآية (٧١) .

(٣) للمزيد من الوقوف على هذه الآثار والأحاديث التي تثبت صفات الله تعالى : ابن خزيمة : التوحيد واثبات صفات الرب ، ت . د . عبدالعزيز بن ابراهيم الشـــهوان ، البيهقي : الأسماء والصفات ، العلو للعلي الغفار للذهبي ، شرح حديث النزول لابن تيمية ، الشريعة للأجري صحيح البخاري ، وصحيح مسلم ، سنن الترمذي ، وبقية كتب السنة ، وانظر كذلك مجموع فتاوي شيخ الإسلام ابن تيمية ، والصواعق المرسلة لابن القيم .

(٤) انظر : فتح الباري (٤٠٧/١٣) .

(٥) سنن الترمذي (٤١/٣) .

(٦) انظر : الفقه الأكبر (ص ٢) .

(٧) انظر : ابن كثير : تفسير القرآن العظيم (٢٢٠/٢) .

(٨) انظر : عون المعبود (٤١/١٣ ، ٤٧) .

(٩) انظر : اللالكائي : شرح اعتقاد أهل السنة (١٥٥/١) .

(١٠) انظر : اجتماع الجيوش الإسلامية معظم أبوابه .

ثالثاً : المفســرون للقرآن ، المتبعون للسلف المتمسكون بنهج أهل السنة ، أوردوا الأحاديث والآثار التي تثبت الصفات العلية عند تفسيرهم آيات الصفات وهذا دليل على أن مذهب أهل السنة هو الإثبات وليس التفويض ومن هؤلاء ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وابن كثير وغيرهم .

رابعاً : السيوطي عندما قال بأن أحد مذهبي أهل السنة التفويض ، لم يأت بقول أحد من السلف يؤيد هذا التفويض ، ونحن نقطع أنه لم يقل أحد من السلف بالتفويض لأنه لم ينقل عن أحد منهم أنه قال : إني أفوض آيات وأحاديث الصفات أو نسب إلى أحد الصحابة أنه فوض صفة من الصفات(١) .

خامساً : أن القول بالتفويض يستلزم أموراً باطلة منها :

١ – معارضــة النصوص الشرعية وإبطالها وعدم الإلتفات لها ، وتقرير العقائد بمعزل عنها ، مع أن الفرض والواجب أن تكون هي أصل الدين والإعتقاد ، وأن تستنبط منها العقائد والأحكام ، إذاً فما فائدة الوحي وأهميته ؟ وما هي ضرورة النبوة ؟ إذا كنا نعتقد عقائد من عند أنفسنا ثم نصادم بها الوحي الإلهي فنبطله ؟ أو ندعي عدم فهمه ثم نفوض معناه إلى الله تعالى

٢ – أنه يستلزم القول بأحد أمرين :

إما أن النبي –صلى الله عليه وسلم– لم يعرف معنى الصفات ، بمعنى أنه جهلها ففوضها ، وكذلك الصحابة –رضي الله عنهم– .

وإمــا أنهم علموا ولكنهم كتموا ولم يبينوا ، ولم يبلغوا ما أنزل إليهم من ربهم ، وكلا الأمرين فيه من الخطورة ما قد يقدح في دين المرء من أصله وأساسه .

قــال في " إيثار الحق " : " والدليل على أنه لا يجوز القول بأن الصحابة والسلف الصالح لم يفهموا ذلك أو فهموا ولم يقوموا بما يجب عليهم من نصح المسلمين وبيان التأويل الحق لهم ، أمران :

الأول : قاطع ضروري ، وهو أن العادة توجب في كل ما كان كذلك أن يظهر التحذير منه من رسول الله –صلى الله عليه وسلم– ومن أصحابه ، ويتواتر أعظم مما حذروا من الدجال الأعور الكذاب ، ولا يجوز عليهم مع كمال عقولهم وأديانهم أن يــتركوا صــبيانهم ونساءهم ، وعامتهم يسمعون ذلك منسوباً إلى الله ، وإلى كتابه ورسوله ، وظاهره كفر وهم سكوت عــليه ، مــع بــلادة الأكثرين ، ولو تركوا بيان ذلك ثقة بنظر االعقول الدقيقة لتركوا التحذير من فتنة الدجال ، فإن بطلان ربوبيته أجلى في العقول من ذلك ، ألا ترى أن المتكلمين لما اعتقدوا قبح هذه الظواهر ، تواتر عنهم التحذير منها والتأويل لهــا ، وصــنفوا فــي ذلك وأيقظوا الغافلين ، وعلموا الجاهلين ، وكفروا المخالفين ، وأشاعوا ذلك بين المسلمين ، بل بين العالمين ، فكان أحق منهم بذلك سيد المرسلين وقدماء السابقين ، وأنصار الدين "(٢)

الأمر الثاني : " أنه قد ثبت في تحريم الزيادة في الدين أنه لا يصح سكوت الشرع عن النص على ما يحتاج إليه من مهمات الديــن ، وثبت أن الإسلام متبع لا مخترع ، ولذلك كفر من أنكر شيئاً من أركانه ، لأنها معلومة ضرورة ، فأولى وأحرى

---

(١) انظر : رضا بن نعسان معطي : علاقة الإثبات والتفويض بصفات رب العالمين (ص ٣٠-٦٣) .

(٢) الامام محمد بن ابراهيم الوزير : ايثار الحق على الخلق في رد الخلافات إلى المذهب الحق من أصول التوحيد (ص / ٣٣٩) ، ت : احمد مصطفى حسين صالح – الدار اليمنية للنشر والتوزيع ١٤٠٥ هــ – ١٩٨٥ م .

ألا يجئ الشرع بالباطل ، منطوقاً به مكرراً من غير تنبيه على ذلك لا سيما إذا كان ذلك الذي سموه باطلاً هو المعروف في جميع آيات كتاب الله ... ولم يأت ما يناقضه في كتاب الله حتى ينبه على وجوب التأويل والجمع ، أو يوجب الوقف "[1]

٣ – أن القول بالتفويض مؤداه القول بأن نصوص الشرع (القرآن والسنة) تحمل معاني لا تليق بالله جل جلاله ، وقد التزم هذا بالفعل أهل التفويض والتأويل الذين يسمون بالخلف ، وهاك نماذج من أقوالهم تقشعر منها الأبدان :

قال في شرح الكبرى : " وأما من زعم أن الطريق أبداً إلى معرفة الحق الكتاب والسنة ، ويحرم ما سواهما فالرد عليه : أن حجيتهما لا تعرف إلا بالنظر العقلي ، وأيضاً فقد وقعت فيهما ظواهر من اعتقدها كفر عند جماعة وابتدع "[2] ، ويقول السنوسي أيضاً : " أصول الكفر ستة... " ذكر خمسة ثم قال :

" سادساً : التمسك في أصول العقائد بمجرد ظواهر الكتاب والسنة من غير عرضها على البراهين العقلية ، والقواعد الشرعية "[3] وهكذا يصبح البشر أوصياء على كلام الله وكلام رسوله ، فلا يقبلوا من كلامهما شيئاً حتى يعرضوه أولاً على عقول الرجال ليقرروا هل هو باطل أم حق –سبحان الله العظيم !!

فكيف يتصور أن نصوص الشرع أتت بالباطل والكفر والضلال ، وأن الرسول –صلى الله عليه وسلم– وأصحابه لم ينبهوا الأمة لذلك .

وقد ردد السيوطي نفس هذا المنهج – أعني منهج التأويل – في رسالته في " علم التوحيد "[4] فقال :

" وما ورد في الكتاب والسنة من المشكل من الصفات نؤمن بظاهره ، وننزهه عن حقيقته كقوله تعالى : (الرحمن على العرش استوى)[5]

وقوله تعالى : (ويبقى وجه ربك)[6]

وقوله تعالى : (ولتصنع على عيني)[7]

وقوله تعالى : (يد الله فوق أيديهم)[8]

وقوله –صلى الله عليه وسلم– : " إن قلوب بني آدم كلها بين أصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصرفه كيف يشاء "[9] .

ثم نفوض معناه المراد إليه تعالى كما هو مذهب السلف ، وهي أسلم ، أو نؤول كما هو مذهب الخلف فنؤول في الآيات : الاستواء : بالإستيلاء ، والوجه : بالذات ، والعين : بالبصر ، واليد بالقدرة ، والمراد في الحديث أن قلوب العباد

---

(١) السابق نفسه (ص / ٣٤٠) .

(٢) السنوسي : شرح الكبرى (ص ٥٠٢) .

(٣) نفسه ، وانظر فيما رداً على السنوسي من كلام الشيخ ابن تيمية (ص٢٢٢)

(٤) مخطوط – ورقة رقم (٤) .

(٥) سورة طه ، الآية (٥) .

(٦) سورة الرحمن ، بعض الآية (٢٧) .

(٧) سورة طه ، بعض الآية (٣٩) .

(٨) سورة الفتح ، بعض الآية (١٠) .

(٩) رواه مسلم في " صحيحه " (٢٠٤٥/٤) ، كتاب القدر (٤٦) باب (٣) ح رقم [١٧ – (٢٦٥٤)] ، والترمذي في " سننه " (٤٤٨/٤) ، كتاب القدر ، باب (٧) ، واستقصى طرقه ابن أبي عاصم في " السنة " (٩٨/١) .

كـــلها بالنسبة إلى قدرته تعالى شئ يسير يصرفه كيف يشاء كما يقلب الواحد من عباده اليسير بين إصبعين من أصابعه "[١]

والســـيوطي في هذا الموضع قد نسب فعلاً وصراحة التفويض إلى السلف ، وهو الذي نقضناه وأبطلناه بالدلائل القاطعة ، وقـــررنا أنه ليس بمذهب للسلف ، بل مذهبهم هو الاثبات للصفات كما وردت بها الآيات والأحاديث ، ولم ينس أن يقول : بأن مذهب السلف أسلم ، وهو القول الذي يردده دائماً أهل التأويل ، فيقولون : مذهب السلف أسلم ، ومذهب الخلف أحكم ، قـــال شيخ الإسلام ابن تيمية : " وقد كذبوا على طريقة السلف "[٢] يعني بنسبتهم إلى التفويض أو نسبة التفويض إليهم ، " وضـــلوا في تصويب طريقة الخلف ، فجمعوا بين الجهل بطريقة السلف في الكذب عليهم ، وبين الجهل والضلال بتصويب طريقة الخلف "[١] . لكننا نقرر ونؤكد ، كما قرر وأكد علماء وأئمة أهل السنة ، أن طريقة السلف أسلم وأعلم وأحكم ، وأن طريقة الخلف ليست كذلك ، ولو أنهم اتبعوا طريقة السلف لكان خيراً لهم وأقوم وأكرم .

والســـيوطي مع تقريره بأن مذهب السلف أسلم إلا أنه جنح إلى التأويل كما نراه في تفسيره الجلالين ورسالته في عـــلم الـــتوحيد (مخطـــوط) وكتابه " تأويل الأحاديث الموهمة للتشبيه " وكلامه في معترك الأقران ، والكوكب الساطع (مخطوط) ، والكنز المدفون وغيرها .

وسنورد ذلك إن شاء الله في فصل توحيد الأسماء والصفات من الباب الثالث – عند الكلام عن الصفات الخبرية .

ولقـــد نقـــل الســـيوطي نفســـه من أقوال العلماء والأئمة ما ينقض منهجه في التأويل ، فقال : " أخرج أبو القاسم اللالكـــائي في السنة ، عن الحسن عن أمه ، عن أم سلمة في قوله : (الرحمن على العرش استوى)[٣] قال : الكيف غير معقول ، والاستواء غير مجهول ، والاقرار به من الإيمان والجحود به كفر "[٤] .

ونقـــل عن الترمذي أيضاً قوله : " المذهب في هذا (يعني حديث الرؤية) عند أهل العلم من الأئمة – مثل سفيان الثوري ، ومالك وابن المبارك وابن عيينة ، ووكيع وغيرهم – أنهم قالوا : نروي هذه الأحاديث كما جاءت ، ونؤمن بها ، ولا يقال كيف ؟ ولا نفسر ولا نتوهم "[٥] .

ولم ينقل ذلك فقط بل نقل رجوع بعض العلماء عن مذهب التأويل فقال : " وكان إمام الحرمين يذهب إليه (يعني التأويل) ثم رجع عنه ، فقال في الرسالة النظامية : الذي نرتضيه ديناً وندين به عقداً ، اتباع سلف الأمة فإنهم درجوا على تـــرك الـــتعرض لمعانيها "[٦] " وقال ابن الصلاح : وعلى هذه الطريقة مضى صدر الأمة وساداتها ، واختار أئمة الفقهاء

---

(١) رسالة في علم التوحيد – مخطوط (ص ٤ ، ٥) ، والكوكب الساطع – مخطوط – (ص ١٦٤/ب) .
(٢) ابن تيمية : الفتوة الحموية الكبرى (ص ١٣) تقديم محمد عبدالرزاق حمزة ، ط المدني بمصر ١٤٠٣ هـــ – ١٩٨٣ م .
(٣) سورة طه ، الآية (٥) .
(٤) معـــترك الأقران (١١١/١) ، وهو عند اللالكائي ، شرح أصول اعتقاد أهل السنة (٤٤٠/٢) ، وقال المحقق : " أشار إلى هذه الرواية ابن حجـــر فـــي الفتح (٤٠٦/١٣) وقال ابن تيمية بعد ذكر قول مالك في الاستواء : " وقد روى هذا الجواب عن أم سلمة –رضي الله عنها– ، موقوفاً ومرفوعاً ، ولكن ليس اسناده مما يعتمد عليه " انظر : الفتاوي (٣٦٥/٥) .
(٥) معترك الاقران (١١١/١ ، ١١٢) ، والترمذي في " سننه " (٤١/٣) ، وانظر : عون المعبود (٤٢/١٣) ، وفتح الباري (٤٠٧/١٣) .
(٦) معـــترك الاقـــران (١١٢/١) ، الكوكب الساطع – مخطوط – (ص ١٦٤/ب) وانظر : إمام الحرمين : العقيدة النظامية (ص ٣٢) ، وسبق أن ذكرت أن قول الجويني هو التفويض وليس هو مذهب السلف .

وقادتهـــا ، وإليها دعا أئمة الحديث وأعلامه ، ولا أحد من المتكلمين من أصحابنا يصدف عنها ويأباها "[١] وهل بعد صدر الأمـــة وســـاداتها ، وأئمة الفقهاء وقادتها ، وأئمة الحديث وأعلامه ، هل بقي بعد كلام هؤلاء كلام لمتأول ؟ ، فإذا لم يكن هؤلاء هم قدوة الأنام ، ومصابيح الظلام ، فبمن يقتدي أهل الإيمان والإسلام؟ ولقد قال الإمام احمد بن حنبل ، في الرد على الجهمية الذين أولوا الصفات : " الحمد لله الذي جعل في كل زمان فترة من الرسل ، بقايا من أهل العلم ، يدعون من ضل إلى الهدى ، ويصبرون منهم على الأذى يحيون بكتاب الله الموتى ، ويبصرون بنور الله أهل العمى ، فكم من قتيل لابليس قـــد أحيوه ؟ وكم من تائه قد هدوه ؟ فما أحسن أثرهم على الناس ، وأقبح أثر الناس عليهم ، ينفون عن كتاب الله تحريف الغـــالين ، وانـــتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين الذين عقدوا ألوية البدعة ، واطلقوا عنان الفتنة ، فهم مخالفون للكتاب ، مختـــلفون في الكتاب ، مجمعون على مفارقة الكتاب ، يقولون على الله وفي الله بغير علم ، يتكلمون بالمتشابه من الكلام ، ويخدعون جهال الناس بما يشبهون به عليهم فنعوذ بالله من فتن المضلين "[٢] فالتأويل المذموم لآيات وأحاديث الصفات هو أساس مذهب الجهمية فقد أقام جهم مذهبه الضال على تأويل آيات الصفات كلها الواردة في القرآن وبذلك نفى أن يكون لله تعالى صفات غير ذاته ، واستتبع هذا التأويل :

- نفي رؤية الله تعالى في الآخرة .
- نفي عنه صفة الكلام .
- أراد أن يثبت أن القرآن مخلوق[٣] .

وليس كلامنا هنا عن جهم وإنما أردنا أن نبين أن التأويل المبتدع ، ليس له أصل شرعي ، وليس هو من الدين في شئ بل هو مما ابتدعه جهم وأتباعه ، ووافقه الأشاعرة في ذلك وإن كانوا لم يوافقوه في بقية معتقده .

وروى عن احمد بن حنبل أيضاً في الأحاديث التي تروى :

" إن الله تبارك وتعالى ينزل كل ليلة إلى السماء الدنيا " وما شابهها قال : " نؤمن بها ونصدق بها ، ولا كيف ولا معنى ، أي لا نكيفهـــا ولا نحرفها بالتأويل ، فنقول : معناها كذا ، ولا نرد منها شيئاً ، ونعلم أن ما جاء به الرسول حق ، إذا كان بأسانيد صحاح ، ولا نرد على الله قوله ، ولا يوصف الله بأكثر مما وصف به نفسه بلا حد ولا غاية ليس كمثله شئ "[٤]

وقال اسحاق بن ابراهيم بن راهويه :

" اجمـــاع أهـــل العـــلم أنه (تعالى) فوق العرش استوى ، ويعلم كل شئ في أسفل الأرض السابعة ، وفي قعور البحار ، ورؤوس الاكـــام ، وبطون الأودية ، وفي كل موضع كما يعلم علم ما فوق السماوات السبع ، وما فوق العرش ، أحاط بكل

---

(١) معترك الاقران (١/١١٢)

(٢) الامـــام احمد بن حنبل الشيباني : الرد على الجهمية والزنادقة ت د . عبدالرحمن عميرة (ص / ٨٥) دار اللواء الرياض – ط ١٣٩٧ هـــ – ١٩٧٧ م وانظر : ابن تيمية : موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول (٢ / ٣٩ ، ٤٠) .

(٣) انظر : مقدمة التحقيق لكتاب الامام احمد : الرد على الجهمية (ص / ٤٣) ، للدكتور عبدالرحمن عميرة .

(٤) ابن تيمية : موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول (١/٣٢٣) .

شـــئ علماً ، فلا تسقط من ورقة إلا يعلمها ، ولا حبة في ظلمات البر والبحر ، ولا رطب ولا يابس إلا قد عرف ذلك كله وأحصاه ، فلا تعجزه معرفة شئ عن معرفة غيره "[١] .

وغير هؤلاء الذين ذكرنا من الأئمة كثير يثبتون الصفات ولا يؤولون .

ولابـــن تيميـــة كـــلام نفيـــس فـــي غاية القوة لابطال كلام أهل التأويل رأينا أن ننقله لأهميته القصوى : قال : " ...الخطـــاب الذي أريد به هدانا والبيان لنا ، وإخراجنا من الظلمات إلى النور ، إذا كان ما ذكر فيه من النصوص ظاهره بـــاطل وكفر ، ولم يرد منا أن نعرف لا ظاهره ولا باطنه ، أو أريد منا أن نعرف باطنه من غير بيان في الخطاب لذلك ، فعلى التقديرين لم نخاطب بما بين فيه الحق ، ولا عرفنا أن مدلول هذا الخطاب باطل وكفر .

وحقيقة قول هؤلاء في المخاطب لنا : أنه لم يبين الحق ، ولا أوضحه ، مع أمره لنا أن نعتقده ، وأن ما خاطبنا به وأمرنا باتباعه والرد إليه لم يبين به الحق ولا كشفه بل دل ظاهره على الكفر والباطل ، وأراد منا أن لا نفهم منه شيئاً ، أو أن نفهـــم مـــنه مـــا لا دليل عليه فيه ، وهذا كله مما يعلم بالاضطرار تنزيه الله ورسوله عنه ، وأنه من جنس أقوال أهل التحريف والإلحاد .

وبهذا احتج الملاحدة كابن سينا وغيره على مثبتي المعاد ، وقالوا : القول في نصوص المعاد كالقول في نصوص التشـــبيه والتجســـيم[٢] ، وزعموا أن الرسول – صلى الله عليه وسلم – لم يبين ما الأمر عليه في نفسه ، لا في العلم بالله تعالى ، ولا باليوم الآخر ، فكان الذي استطالوا به على هؤلاء هو موافقتهم لهم على نفي الصفات ، وإلا فلو آمنوا بالكتاب كله حق الإيمان لبطلت معارضتهم ودحضت حجتهم .

ولهـــذا كان ابن النفيس المتطبب الفاضل يقول : ليس إلا مذهبان : مذهب أهل الحديث أو مذهب الفلاسفة ، فأمـــا هؤلاء المتكلمون فقولهم ظاهر التناقض والاختلاف ، يعني أن أهل الحديث اثبتوا كل ما جاء به الرسول أولئك جعلوا الجميع تخييلاً وتوهيماً ، ومعلوم بالأدلة الكثيرة السمعية والعقلية فساد مذهب هؤلاء الملاحدة ، فتعين أن يكون الحق مذهب الســـلف أهـــل الحديـــث والســـنة والجماعة ثم إن ابن سينا وأمثاله من الباطنية المتفلسفة والقرامطة يقولون : إنه أراد من المخاطـــبين أن يفهمـــوا الأمـــر عـــلى خلاف ما هو عليه ، وأن يعتقدوا ما لا حقيقة له في الخارج ، لما في هذا التخييل والإعتقاد الفاسد لهم من المصلحة .

والجهمية والمعتزلة وأمثالهم يقولون : إنه أراد أن يعتقدوا الحق على ما هو عليه ، مع علمهم بأنه لم يبين ذلك في الكتاب والسنة ، بل النصوص تدل على نقيض ذلك فأولئك يقولون : أراد منهم اعتقاد الباطل وأمرهم به ، وهؤلاء يقولون : أراد اعتقاد ما لم يدلهم إلا على نقيضه .

---

(١) نفسه (٣٢٥/١) .

(٢) يعـــني لابـــد مـــن تأويلها – على قولهم – كما أوجب المتكلمون تأويل الصفات التي يزعمون أن اثباتها يفضي إلى التجسيم – تعالى الله عن تعطيل وتجسيم .

والمؤمن يعلم بالاضطرار أن كلا القولين باطل ، ولا بد للنفاة أهل التأويل من هذا أو هذا ، وإذا كان كلاهما باطلاً كان تأويل النفاة للنصوص باطلاً ، فيكون نقيضه حقاً ، وهو إقرار الأدلة الشرعية على مدلولاتها ومن خرج عن ذلك لزمه من الفساد ما لا يقوله إلا أهل الإلحاد "[١] .

المبحث السادس : اتهام السيوطي للإمام أحمد بالتأويل والرد عليه

المطلب الأول: اتهام السيوطي للإمام احمد بالتأويل .

طمع المؤولون أن يجدوا في كلام السلف ما يؤيد مذهبهم ، ويبرر موقفهم ، ويقوي حجتهم ، ففتشوا ونقبوا تفتيش الباحث عن العثرات ، وتنقيب الساقط على الهنات ، وبعد لأي طويل ، وكد مستطيل ، تمخض الجبل فولد فأراً .

فلما ظفروا ببغيتهم ظنوا أنهم حازوا سنداً ، وتوكأوا مستنداً ، فقالوا : تنقمون منا منهج التأويل ، وتلقموننا حجارة بالصياح والعويل ، وتصموننا بالتحريف والتبديل ، وقد ذهب إمامكم مذهبنا ، واستساغ مقدمكم حجتنا ، فقال بالتأويل وهو الذي – عندكم – عليه المعتمد والتعويل ، فكيف تقولون ، وأين تذهبون ؟

فقلنا لهم : أفصحوا عما تكن صدوركم ، وتشتمل عليه أفئدتكم ، فقد ظننتم الظنون بنا ، فـ (هل عندكم من علم فتخرجوه لنا)[٢] ؟؟

قال السيوطي : " ذكر بعض المحدثين عن بعض الحنابلة أنه لعن المتأولين لأحاديث الصفات ، يقال : هذا رجل حنبلي لعن صـــاحبه أحمد ابن حنبل ، وهو لا يحس بما قال ، فإن أحمد قال في قوله : (وجاء ربك)[٣] جاء أمره ، وفي قوله :(إلا هو رابعهم)[٤] بعلمه ، وفي قوله : (الله نور السماوات والأرض)[٥] منور السماوات ، فلو كان نوراً وكان في كل مكان لأضاء البيت المظلم ، وهذا منه تأويل يغطي تأويل كل الأخبار "[٦] .

المطلب الثاني : الرد على السيوطي ومن قال بقوله .

وهذا الذي قاله السيوطي لا يعد وكونه ترديداً لما نقله من قبله أبو بكر البيهقي (ت ٤٥٨ هـــ) ، وأبو حامد الغزالي (ت ٥٠٥ هـــ) ، وأبو الفرج ابن الجوزي (ت ٥٩٧ هـــ) ، والفخر الرازي(ت ٦٠٦ هـــ).

أما البيهقي فرواه في كتابه " مناقب الإمام احمد " يقال إنه مخطوط ، ولم أعثر عليه ، وحكاه عن البيهقي الحافظ ابـــن كـــثير فـــي " البداية والنهاية "[٧] ، وأما أبو حامد فنقله في " الأحياء "[٨] ، وعول عليه كل من ابن الجوزي[١] ، والرازي في " الأساس "[٢] .

---

(١) ابن تيمية : درء تعارض العقل والنقل (٢٠٢/١ - ٢٠٤) الطبعة الاولى ط جامعة الامام محمد بن سعود ت د . محمد رشاد سالم – ١٣٩٩ هـــ – ١٩٧٩ م .

(٢) سورة الأنعام ، بعض الآية (١٤٨) .

(٣) سورة الفجر ، بعض الآية (٢٢) .

(٤) سورة المجادلة ، بعض الآية (٧) .

(٥) سورة النور ، بعض الآية (٣٥) .

(٦) الكنز المدفون (ص ٢١٢) .

(٧) انظر : (٣٢٧/١٠) .

(٨) انظر : (١٠٣/١) .

لذلك رأيت أغلب من تكلم في بحث هذه المسألة يرد هذه النقول إلى مصدرين :

أولهما : الغزالي ، في معرض حديثه عن الإمام احمد ومنعه من التأويل فقال : " سمعت بعض أصحابه يقول : إنه حسم باب التأويل إلا لثلاثة ألفاظ :

ـــ قوله - صلى الله عليه وسلم - : " الحجر الأسود يمين الله في أرضه "(٣)

ـــ وقوله -صلى الله عليه وسلم- : " قلوب العباد بين أصبعين من أصابع الرحمن "(٤) - وقوله -صلى الله عليه وسلم- : " إني لأجد نفس الرحمن من جانب اليمين ...(٥) "(٦) ونقل هذا الرازي عن الغزالي مع تبديل في أحد الأحاديث(٧) .

الثاني : ما نقله حنبل(٨) في " المحنة " عن الإمام احمد ، يقول :

---

(١) انظـر : زاد المسير (٢٢٥/١) عند تفسيره للآية (٢١٠) من سورة البقرة ، وعند تفسيره للآية الكريمة (٢٢) من سورة الفجر ، أحال على آية البقرة .

وانظـر كذلك كتابه : " الباز الأشهب المنقض على مخالفي المذهب " (ص ٦١) ت . محمد منير الامام ، وهذا الكتاب هو نفسه الذي طبع طبعة أخرى بعنوان : " دفع شبه التشبيه بأكف التنزيه " ت . الكوثري ، وطبعة ثالثة بتحقيق : حسن السقاف ، والمحققون الثلاثة يشربون من عين واحدة هي عين البدعة والتعطيل والتهالك على الوقيعة في أهل السنة والجماعة ، وقد رد على ابن الجوزي في دعواه نسبة التأويل إلى الامام احمد ، صاحب رسالة : ابن الجوزي بين التفويض والتأويل (١٣٨ - ١٤٣) ، ط على الآلة الكاتبة ، ورد على حسن السقاف : سليمان بن ناصر بن عبدالله العلوان ، في كـتاب بعنوان : اتحاف أهل الفضل والانصاف بنقض كتاب ابن الجوزي دفع شبه التشبيه وتعليقات السقاف - صدر منه الجزء الأول ١٤١٥ هـ - دار الصميعي / الرياض .

(٢) انظر : اساس التقديس (ص ١٠٧ ، ١٠٨) .

(٣) هذا الحديث روي مرفوعاً وموقوفاً عن عبدالله بن عمرو ، الحاكم في المستدرك (٤٥٧/١) بلفظ " يأتي الركن يوم القيامة ... وهو يمين الله الـتي يصـافح بهـا خـلقه " والطبراني في الأوسط (٣٣٧/١) ورقمه (٥٦٧) ، وابن خزيمة في صحيحه (٢٢١/٤) ورقمه (٢٧٣٧) وابن الجوزي في العلل المتناهية (٨٥/٢) وصححه الحاكم وتعقبه الذهبي بأن في اسناده عبدالله بن المؤمل وهو ضعيف ، كما رواه عن جابر مرفوعاً : الخطيـب في تاريخ بغداد (٣٢٨/٦) ، وابن عدي في الكامل (٣٣٦/١) ، وابن الجوزي في العلل المتناهية (٨٤/٢) وفي اسناده اسحاق بن بشر الكاهلي ، قال عنه ابن عدي في الكامل : هو في عداد من يضع الحديث ، كما رواه عن أنس بن مالك مرفوعاً : الديلمي في الفردوس (٢٥٨/٢) بلفظين ، وفي اسناده علي بن العسكري ، ضعيف ، والعلاء بن سلمة الرواس متهم بالوضع ، انظر : فيض القدير (٣١٠/٣) ، كما رواه موقوفاً عـلى ابـن عباس : عبدالرزاق في المصنف (٣٩/٥) ورقمه (٨٩١٩ ، ٨٩٢٠) وابن قتيبة في غريب الحديث (٣٣٧/٢) والأزرقي في أخبار مكـة من طرق (٣٢٣/١ ، ٣٢٤ ، ٣٢٦) ومحمد بن يحي العدني المعروف محمد بن أبي عمر - كما في المطالب العالية - (٣٣٩/١) ورقمه (١١٤٧) وفي الحاشية (٣٤٠/١) " في المسندة هذا موقوف جيد ، وقال البوصري : رواه ابن أبي عمر موقوفاً باسناد صحيح " كما روي موقوفاً عـلى عكرمة ، رواه الأزرقي في أخبار مكه (٣٢٥/١) ، ومما سبق يتبين أن المرفوع ضعيف وأن الصحيح وقفه على ابن عباس ، وممن صحح وقفه العجلوني في كشف الخفا (٣٤٩/١) وقال في تمييز الطيب من الخبيث (ص ٦٨) قال شيخنا هو موقوف صحيح ، كما أشار ابن تيمية في مجموع الفتاوي (٣٩٧/٦) وفي التدمرية (ص ٧٢) أن المشهور فيه أنه عن ابن عباس ، وانظر حول هذا الحديث احياء علوم الدين (١٠٣/١) مـع تخـريج العـراقي ، وشرحه اتحاف السادة المتقين (٧٩/٢ - ٨٠) والسراج المنير للعزيزي (٢٣٦/٢ - ٢٣٧) وسلسلة الأحاديث الضعيفة للألباني رقم (٢٢٣) وكنز العمال (٢١٥/١٢ - ٢١٧) .

ملحوظة : وقع في الترغيب والترهيب (١٩٤/٢) ت مصطفى عمارة ، (٣١٤/٢) ت الهراس رواية عبدالله بن عمرو بلفظ : " يأتي الركن اليماني ... " والـذي فـي مصادر الحديث - التي أشرت اليها - وأيضاً في مسند الامام احمد (٢١١/٢) حيث روى أول الحديث دون المصافحة - مجيء الـرواية بـلفظ " يأتي الركن " فقط بدون ذكر لفظة " اليماني " ولذلك بوبوا له بالحجر الأسود ، فلعل ما في الترغيب والترهيب وهم من المنذري - رحمه الله - أو من النساخ ، والله تعالى أجل وأعلم .

(٤) سيأتي تخريجه في الفصل الرابع من الباب الثالث ، وهو فصل توحيد الاسماء والصفات والحديث في صحيح مسلم رقم (٢٦٥٤) .

(٥) رواه احمد في " المسند " (٥٤١/٢) ، وقال العراقي في " المغني " تخريج الأحياء (١٠٣/١) " رجاله ثقاة " .

(٦) احياء علوم الدين (١٠٣/١) .

(٧) أساس التقديس (ص ١٠٧ - ١٠٨) .

(٨) هـو حنبل بن اسحاق بن حنبل بن هلال الشيباني ، أبو علي ، من حفاظ الحديث ، كان ثقة، لكن كان كثير المفاريد التي انفرد بها مخالفة للمشهور من مذهبه الحنبلي كما قال ابن القيم في " مختصر الصواعق " (ص ٣٩٠) ، له كتاب " التاريخ " وكتاب " الفتن " وكتاب " محنة الامام احمد بن

" احـتجوا عـليَّ يوم المناظرة ، فقالوا : تجيء يوم القيامة سورة البقرة ، وتجيء سورة تبارك ؟ قال : فقلت لهم : إنما هو الثواب ، قال الله – جل ذكره – : (وجاء ربك والملك صفاً صفاً)[١] وإنما تأتي قدرته ، القرآن أمثال ومواعظ وأمر ونهي ، وكذا وكذا "[٢] ، وأحال القاضي أبو يعلي في " إبطال التأويل " على رواية حنبل[٣] ، ونقل هذه الرواية عن أبي يعلي ابن الجوزي في تفسيره[٤] ، وفي كتابه " دفع شبه التشبيه "[٥] الذي نصر فيه مذهب أهل التعطيل .

وليس في هذين النقلين حجة ولا مستند لهؤلاء المؤولة ، وبيانه كما يلي :

<u>أما النقل الأول :</u> والذي ذكره الغزالي وتبعه الرازي ، فقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية : " هذه الحكاية كذب على احمد ، لم ينقلها أحد عنه بإسناد ، ولا يعرف أحد من أصحابه نقل ذلك عنه ، وهذا الحنبلي الذي ذكر عنه أبو حامد مجهول لا يعرف : لا عـلمه بما قال ، ولا صدقه فيما قال "[٦] ويدل على ذلك اختلاف النقل فيما بين الغزالي والرازي ، وهذا الاختلاف له تقديـران : إمـا أن يكون الرازي غلط في النقل عن الغزالي ، وإما يكون الغزالي نقل في كتاب آخر – غير الأحياء – خـلاف ما نقله في " الإحياء " ، وكلاهما يدل على عدم صحة النقل ، قال ابن تيمية : " وعلى التقديرين فيعلم أن هذا النقل الـذي نقلـه غيـر مضبوط "[٧] . كما أن عدم رسوخ الغزالي في علم الحديث جعله ينقل في كتبه كثيراً من الموضوعات والـروايات المكذوبة التي ينكرها أهل العلم بالرواية ، والغزالي نفسه يشهد على نفسه بذلك فقد كان يقول : " أنا مزجي[٨] البضـاعة فـي الحديث"[٩] قال ابن تيمية : " ولهذا يوجد في كتبه من الأحاديث الموضوعة ، والحكايات الموضوعة ما لا يعتمد عليه من له علم بالآثار[١٠] ، وقال في موضع آخر : " ولهذا في كتبه من المنقولات المكذوبة الموضوعة ما شاء الله ... ومـن ذلـك هـذا الـنقل الذي نقله عن احمد ، ولا يتنازع من يعرف أحمد وكلامه أن هذا كذب مفترى عليه ، ونصوصه المنقولة عنه بنقل الأثبات ، والمتواتر عنه يرد هذا الهذيان الذي نقل عنه... "[١١] .

حنبل " وهو ابن عم الامام احمد بن حنبل ، وتلميذه توفي بواسط (٢٧٣ هـ – ٨٨٦ م) . انظر : تذكرة الحفاظ (٢/١٦٠) ، طبقات الحنابلة (١/١٤٣) والاعلام (٢/٢٨٦) .

(١) سورة الفجر ، الآية (٢٢) .

(٢) الجوهـر المفصل في مناقب الامام احمد (ص ٥٨) لمحمد بن محمد أبي بكر السعدي ، ت . د . عبدالله بن عبدالمحسن التركي – ط١ ١٤٠٧ هـ – ١٩٨٧ م – مصر – ، وانظر : ابن تيمية : الاستقامة (١/٧٤) ط١/١٤٠٣ هـ – ١٩٨٣ م – الامام محمد بن سعود – الرياض .

(٣) مخطوط (ص ٦١) .

(٤) انظر : زاد المسير ، تفسير سورة البقرة (١/٢٢٥) .

(٥) انظر : (ص ١٢ ، ١٣ ، ١٤١) ت . حسن السقاف .

(٦) مجموع الفتاوي (٥/٣٩٨) ، وانظر : درء تعارض العقل والنقل (٧/١٤٩-١٥٠) .

(٧) نقص التأسيس – مخطوط – (٣/٩٤) ، نقلاً عن موقف ابن تيمية من الأشاعرة (٣/١١٦٥) .

(٨) البضاعة المزجاة : هي الرديئة الكاسدة

(٩) قانون التأويل (ص ١٦) ، وانظر ابن تيمية : شرح الأصفهانية (ص ١٢٨) .

(١٠) شرح العقيدة الاصفهانية (ص ١٢٨) .

(١١) نقص تأسيس الجهمية – مخطوط – (٣/١٠٠) ، نقلاً عن : موقف ابن تيمية من الأشاعرة للدكتور عبدالرحمن بن صالح المحمود (٣/١١٦٥)

ثـم إن هذه الأحاديث التي نقلها الغزالي والرازي ومن لف لفهما ، ليس فيها ما يوجب التأويل ، ولا صرفها عن ظاهـرها ، لأن معـناها واضـح ، ودلالتها بينة عند من تدبرها : أما الحديث الأول وهو : الحجر الأسود يمين الله... " فالجواب عنه من وجهين :

أحدهما : أن الرواية الصحيحة هي الموقوفة على ابن عباس – رضي الله عنهما – والمرفوعة لاتصح[١] .

والثاني : أن الفاظ الحديث تدل على معناه دلالة واضحة لا تحتاج إلى تكلف التأويل ، فقوله : " الحجر الأسود يمين الله في الأرض " تقييـد له بـالأرض ، ولم يطلقه ، وحكم اللفظ المقيد يخالف حكم اللفظ المطلق ، فهذا فرق واضح بين " اليمين " الـتي هي صفة لله تعالى ، وبين الحجر المخلوق ، وهو كقول الأمير ، مخاطباً قومه في جاسوس له : هذا عيني عندكم ، وقوله : " فمن صافحه وقبله ، كأنما صافح الله وقبل يمينه " ، هذا تشبيه ، ومعلوم أن المشبه غير المشبه به ، فهو صريح فـي أن المصـافح لم يصافح يمين الله أصلاً ، ولكنه شبه بمن يصافح الله ، فأول الحديث وآخره يبين أن الحجر ليس من صفات الله تعالى[٢] .

وأما حديث : " قلوب العباد بين أصبعين من أصابع الرحمن " فقد قال ابن تيمية : " فإنه ليس في ظاهره أن القلب متصل بالأصابع ، ولا مماس لها ، ولا إنها في جوفه ، ولا في قول القائل : هذا بين يدي ما يقتضي مباشرته ليديه ، وإذا قيل السحاب المسخر بين السماء والأرض لم يقتض أن يكون مماساً للسماء والأرض ، ونظائر هذا كثيرة "[٣] .

أما حديث " نفس الرحمن " فالجواب عنه أيضاً من وجهين :

أولهما : أن المقصود بنفس الرحمن في الحديث : الفرج والنصرة ، إذ بأهل اليمن نفس الله عن المؤمنين ، قاتلوا أهل الردة وفتحوا الأمصار .

الـثاني : قولـه في الحديث : " من قبل اليمن " أو " من جانب اليمن " بين المقصود ، ويصرف الذهن عن التشبيه ، وعن طلب التأويل ، إذ ليس لليمن اختصاص بصفات الله –جل وعلا–[٤] .

وأما النقل الثاني : وهو رواية حنبل بن اسحاق فقد اختلف الناس في هذا النقل عن الإمام احمد على أقوال :

١ – فقـال قوم : غلط حنبل في نقل الرواية ، وأنكروا أن يكون أحمد قد قال ذلك ، وقالوا : بأن حنبل له غلطات معروفة ومفـاريد تفرد بها ، وهذه الرواية واحدة منها لذلك قال ابن القيم : " كان كثير المفاريد التي انفرد بها مخالفة للمشهور من مذهبه "[٥] .

وهـذه المفاريد ترى الجماهير خلافه ، وقد اختلف أصحاب المذهب في هذه المفاريد التي انفرد بها حنبل وخالفه فيها الجمهور ، هل تثبت روايته ؟ على طريقين :

---

(١) انظر تخريج الحديث قبل قليل ، وانظر : مجموع الفتاوي (٣٩٧/٦) ، وكشف الخفا : للعجلوني (٣٤٩/١) .

(٢) انظر : مجموع الفتاوي (٣٩٧/٦ ، ٣٩٨ ، ٥٨٠ ، ٥٨١) ، وانظر : درء تعارض العقل والنقل (٢٣٩/٥) ، والتدمرية (ص ٧١ – ٧٢) .

(٣) التدمرية (ص ٧٣) .

(٤) مجموع الفتاوي (٣٩٨/٦) .

(٥) مختصر الصواعق المرسلة (٣٩٠) ، وانظر مجموع الفتاوي (٣٩٩/٥ – ٤٠٠) .

فالخلال وصاحبه قد ينكرانها ، ويثبتها غيرهما كابن حامد .

٢ - وقـال قوم : إنما قال أحمد ذلك إلزاماً للمنازعين له ، فإنهم يتأولون مجيء الرب بمجيء أمره ، قال : فكذلك قولوا : مجـيء كلامـه مجيء ثوابه ، وهذا قريب ، أي أنه إذا كان الرب - تبارك وتعالى - قد أخبر بمجيء نفسه ثم تأولتم ذلك بأمـره ، فإذا أخبر بمجيء القرآن - وهو في الحديث البقرة وآل عمران - فلأن تتأولون ذلك بمجيء ثوابه بطريق الأولى والأحرى ، وإذا قال لهم ذلك على سبيل الالزام لم يلزم أن يكون موافقاً لهم[١] عليه .

٣ - وقال قوم : إن هذه رواية عن احمد ، وجعلوا ذلك عمدتهم في الميل إلى مذهب الأشاعرة ، كما هو قول ابن الزاغوني وغيره ، أو ما هو أشد منهم غلواً في التعطيل والنفي ، كما هو المشهور من مذهب ابن عقيل ، وابن الجوزي ، وغيرهما .

وقـد نفى شيخ الإسلام ابن تيمية بشكل قاطع ما نسب إلى الإمام احمد من التأويل وقال : " ولا ريب أن المنقول المتواتر عن أحمد يناقص هذه الرواية ، ويبين أنه لا يقول إن الرب يجيء ويأتي وينزل أمره ، بل هو ينكر على من يقول ذلك "[٢] ثم قال ابن تيمية : " والصواب أن جميع هذه التأويلات مبتدعة ، لم يقل أحد من الصحابة شيئاً منها ، ولا أحد من الـتابعين لهم بإحسان ، وهي خلاف المعروف المتواتر عن أئمة السنة والحديث ، أحمد بن حنبل وغيره من أئمة السنة "[٣] وأشار ابن تيمية إلى رسائل وأقوال الإمام احمد وهي مشهورة ومعروفة وأنه ما من مسألة من مسائل أصول الدين إلا وله فيها كلام ، ولم يرد فيها ما يخالف مذهب السلف ، ولذلك عده الناس إماماً لأهل السنة بسبب ما ابتلي به من المخالفين من أهل الأهواء الذين ناظرهم وبين بطلان أقوالهم ، وهو في ذلك متبع لمن قبله من أئمة السلف[٤] .

فإذا كان المتواتر عن أحمد -رحمه الله- أنه يثبت الصفات وأنه لم يؤول شيئاً منها ، وأنه ينكر على من يفعل ذلك فإنـه ينـبغي أن ينظر إلى رواية حنبل على أنها رواية فردة خالفت المشهور عنه ، ولهذا قال القاضي أبو يعلي بعد ذكره لـرواية حنبل ، وتغليط ابن شاقلا له قال : " وقد قال احمد في رواية أبي طالب : (هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل مـن الغمام والملائكة...)[٥] (وجاء ربك والملك صفاً صفاً)[٦] من قال : إن الله لا يرى فقد كفر ، وظاهر هذا أن أحمد أثبت مجيء ذاته لأنه احتج بذلك على جواز رؤيته ، إذا كان الإتيان والمجيء مضافاً إلى الذات "[٧] .

وهكذا يتضح عدم صحة التأويل المنسوب للإمام احمد -تغمده الله تعالى برحمته- وهذا بناء على ما ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية بالدليل الواضح ، إذ يمكننا القول بأن ابن تيمية هو أعلم الحنابلة بمذهبهم وألصقهم به ، وأفقههم فيه ، وأحفظهم لما ورد عن إمامه أحمد -رحمه الله- بل لعلنا لا نبالغ إذا قلنا إنه قد يكون أعرف بمقالات أصحاب المذاهب الأخرى من بعض

---

(١) انظر : الاستقامة (١/٧٥ - ٧٦) .

(٢) مجموع الفتاوي (٥/٤٠١ ، ٤٠٩) .

(٣) نفسه (٥/٤٠٩) .

(٤) انظـر : نقـص التأسيس - مخطوط - (٣/٩٧ - ١٠٣) ، نقلاً عن : موقف ابن تيمية من الأشاعرة للدكتور عبدالرحمن بن صالح المحمود (٣/ ١١٦٧) .

(٥) سورة البقرة ، بعض الآية (٢١٠)

(٦) سورة الفجر ، الآية (٢٢) .

(٧) ابطال التأويلات - مخطوط - (ص ٦١ - ٦٢) نقلاً عن : موقف ابن تيمية من الاشاعرة للدكتور عبدالرحمن بن صالح المحمود (٣/١١٦٧) .

المنتسبين إليها ، وخاصة في أبواب الصفات ومسائل الإيمان ، ولذلك كان قوله وكلامه حجة قوية في بيان الحق والصواب الذي كان عليه السلف الصالح -رضوان الله عليهم- أجمعين .

وخلاصة البحث في صحة ما نسب للإمام احمد من القول بالتأويل هي ما يلي :

أولاً : أن ما نقله الغزالي والرازي لا يصح من جهة النقل والرواية ، إذ لم ينقل بسند واضح صحيح ، ولم يتفق الرازي مع الغزالي فيما نقلاه من ذلك .

ثانياً : أن النقول الكثيرة المتواترة عن الإمام احمد ، تدل على اثباته الصفات ، ومنعه من التأويل ، وانكاره على المؤولة .

ثالثاً : أن رواية حنبل التي ذكرها في كتابه " المحنة " قد انفرد بها دون سائر من نقلوا مناظرة أحمد لخصومه ، مثل عبدالله بن احمد ، وصالح بن احمد ، والمروزي وغيرهم[١] ، فلم ينقلها إلا حنبل وحده دون غيره ، وهي في نفس الوقت مخالفة لمذهب أحمد والحنابلة عموماً[٢] مما يضعفها ويسقط الاحتجاج بها .

رابعاً : أن القوم يزعمون أنهم لا يثبتون العقائد بالروايات الآحاد ، ولا يحتجون بها ، لكنهم هنا خالفوا أصول مذهبهم ، فاحتجوا بما انفرد به حنبل وحده ، وتركوا المتواتر المشهور عن احمد -تغمده الله تعالى برحمته- ، وهذا من انتكاس عقول المؤولة أهل البدعة فإنهم يقولون الذي لهم ، ولا يقولون ما عليهم ، أما أهل الحق فيقولون الذي لهم والذي عليهم ، فلماذا يردون الأخبار الآحاد فيما يثبت الصفات ، ويقبلونها فيما يثبت التأويل ، وهذا على فرض صحة النقل الذي تكلمنا عنه بما يكفي ، وهذا دليل على أنهم يكيلون بمكيالين ويزنون بميزانين وهي علامة اتباع الهوى ، لا اتباع الحق .

خامساً : أن هذه الأحاديث لا حجة لهم فيها ، ذلك لأن ما فهمه المؤولة من الظواهر الفاسدة ، قد دلت النصوص نفسها على أنه غير مراد ، وهذا الفهم السقيم هو الذي جعلهم يقعون في التأويل الفاسد .

سادساً : على فرض ثبوت رواية حنبل عن الإمام احمد -تغمده الله تعالى برحمته- فإنه يقال : إن الإمام -رحمه الله- قد قال هذا على سبيل الالزام لخصومه ، وقد قال شيخ الإسلام : " وهذا قريب "[٣] ، أي قريب من الصواب .

سابعاً : أن السيوطي في نسبته التأويل للإمام احمد إنما هو منساق وراء ما نقله المؤولة من قبله من غير تحقيق ولا تمحيص ، وبناء عليه فالسيوطي غير محق في نسبة هذا التأويل لإمام السنة احمد بن حنبل -رحمه الله تعالى ورضي عنه- .

فهذا هو الحق الذي يجب أن يصار إليه .

وقبل أن ننهي بحث هذه المسألة ينبغي أن نبين أن أبا الفرج ابن الجوزي مضطرب في مسألة الصفات ، فقد أول كثيراً منها ومن هنا فقد طعن في كثير من علماء السنة بغير حق ونسبهم إلى التشبيه ، وقد رد عليه العلماء ، وبينوا أنه في معتقده ليس سلفياً خالصاً ، بل خلط سلفيته بكثير من آراء الأشاعرة والمعتزلة .

ومن بين العلماء الذين شنع عليهم ابن الجوزي شيخ الإسلام الأنصاري ، واتهمه بالتشبيه ، فرد عليه الإمام موفق الدين ابن قدامة المقدسي بقوله : " حاشاه من التشبيه ، ولا يقبل قول ابن الجوزي فيه "[١].

---

(١) انظر : ابن تيمية : مجموع الفتاوي (٤٠٥/١٦) .

(٢) من الحنابلة من جنح إلى التأويل كما ذكرنا عن ابن الجوزي وابن عقيل .

(٣) الاستقامة (٧٥/١) .

كذلــك رد على ابن الجوزي كثير ممن عاصره من العلماء وشنعوا عليه ، وذكروه بمذهب السلف الصالح ، ومن ذلــك الرســالة القيمة التي وجهها له الشيخ اسحاق بن أحمد العلثي[٢] ، وذكر نصها الإمام ابن رجب الحنبلي في ذيله على طــبقات الحنابلة ، وكان مما قال له فيها : " أعلم أنه قد كثر النكير عليك من العلماء والفضلاء والأخيار في الآفاق بمقالتك الفاسدة في الصفات ، وقد أبانوا وهاء مقالتك ، وحكوا عنك أنك أبيت النصيحة ... ثم تعرضت لصفات الخالق تعالى كأنها صــدرت لا مــن مصدر سكن فيه احتشام العلي العظيم ، ولا أملاها قلب مليء بالهيبة والتعظيم ، بل من واقعات النفوس الــبهرجية الزيوف ، وزعمت أن طائفة من أهل السنة والأخيار تلقوها وما فهموا ، وحاشاهم من ذلك بل كفوا عن الثرثرة والتشــدق لا عجــزاً -بحمدالله- عن الجدال والخصام ، ولا جهلاً بطرق الكلام ، وإنما أمسكوا عن الخوض في ذلك عن علم ودراية ، لا عن جهل وعماية ... وتدعي أن الأصحاب خلطوا في الصفات ، فقد قبحت أكثر منهم وما وسعتك السنة ، فاتق الله سبحانه ولا تتكلم فيه برأيك فهذا خبر غيب لا يسمع إلا من الرسول المعصوم ، فقد نصبتم حرباً للأحاديث الصحيحة ، والذين نقلوها نقلوا شرائع الإسلام "[٣] .

وقال ابن قدامة -أيضاً- فيه : " كان ابن الجوزي إمام عصره... إلا أننا لم نرض تصانيفه في السنة ولا طريقته فيها "[٤] .

وابــن تيميــة ممن أثبت تناقض ابن الجوزي في باب الصفات وقرر اضطرابه فيه ، فهو يثبت تارة وينفي تارة أخرى ، قال ابن تيمية : " إن أبا الفرج نفسه متناقض في هذا الباب لم يثبت على قدم النفي ، ولا على قدم الإثبات ، بل له من الكلام في الإثبات نظماً ونثراً ما أثبت به كثيراً من الصفات التي أنكرها في هذا المصنف ، فهو في هذا الباب مثل كثير مــن الخائضين في هذا الباب من أنواع الناس يثبتون تارة ، وينفون أخرى في مواضع كثيرة من الصفات كما هو حال أبي الوفاء ابن عقيل ، وأبي حامد الغزالي "[٥] .

فــإذا كــان أبو الفرج ابن الجوزي ، قد اتخذه أهل التعطيل تكأة في تقوية مذهبهم ، فهذه هي حاله التي بينها شيخ الإســلام ابــن تيميــة ، وهــي حالة متناقضة مضطربة لا يعول عليها ، وليست بحجة لمن يحتج بها ، فإن كان ابن الجوزي قد أول بعض الصفات في موضع ، فقد أثبت غيرها في موضع آخر ، وإن كان قد صنف في منهج التعطيل ، فقد رد عــليه معاصــروه ولامــوه لوماً شديداً ، وأنكروا عليه ما خالف فيه منهاج السلف ، آمرين له أن يتقي الله ويرجع إلى مذهب سلفه وإمامه احمد بن حنبل ، -تغمده الله بواسع رحمته- .

ويؤيــد هــذا ويؤكده ما قاله ابن رجب في حق ابن الجوزي فقد قال : " نقم عليه جماعة من مشايخ أصحابنا وأئمــتهم ميله إلى التأويل في بعض كلامه ، واشتد نكيرهم عليه في ذلك ، ولا ريب أن كلامه في ذلك مضطرب مختلف ، وهــو وإن كــان مطلعاً على الأحاديث والآثار فلم يكن يحل شبه المتكلمين ، وبيان فسادها ، وكان معظماً لأبي الوفاء ابن

---

(١) ابن رجب : ذيل طبقات الحنابلة (٢٠٥/٢) .

(٢) اسحاق بن احمد بن محمد بن غانم العلثي ، الزاهد ، القدوة ، أبو الفضل ، ويقال أبو محمد ، قال المنذري : قيل : إنه لم يكن في زمانه أكثر انكاراً للمنكر منه ، وحبس على ذلك مرة ، توفي عام (٦٣٤ هـ) . انظر : ذيل طبقات الحنابلة لابن رجب (٢٠٥/٤) .

(٣) ذيل طبقات الحنابلة (٢٠٦/٢ - ٢٠٩) .

(٤) ذيل طبقات الحنابلة (٤١٥/١) ، شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي (٣٣١/٤) .

(٥) مجموع الفتاوي (١٦٩/٤) .

عقيل متابعاً لأكثر ما يجده من كلامه ، وإن كان قد رد عليه في بعض المسائل وكان ابن عقيل بارعاً في الكلام ، ولم يكن تام الخبرة بالحديث والآثار فلهذا يضطرب في هذا الباب ، وتتلون آراؤه ، وأبو الفرج تابع له في هذا التلون "[١] .

الفصل الثالث

موقفه من المنطق وعلم الكلام

المبحث الأول : موقف السيوطي من المنطق

المطلب الأول : نشأة المنطق وتعريفه

أولاً : نشأة المنطق

مــر الفكــر اليوناني بأزمة شديدة عندما طغى عليه الجدل السوفسطاني ، الذي ظهر في النصف الثاني من القرن الخــامس وأوائــل الــرابع قبل الميلاد[٢] ، وذلك الجدل الذي كانت غاية صاحبه الغلبة بكل وسيلة ، فهو يهدف إلى تحقيق النصــر عــلى الخصم فقط لا لإستخلاص الحقيقة[٣] ، فالسوفسطائي يدعي أن الحق مسألة نسبية إضافية وهو ما يراه كل شــخص فــي نفسه[٤] ، فالخطأ إذاً مستحيل لأن الإنسان هو مقياس الحق ، فما يراه حقاً فهو كذلك وإن رأى الناس جميعاً عكســه فالمتنازعان في قضية ما كل منهما محق ، ولهذا كثيراً ما كان السوفسطائي يعضد وجهة نظره بالحجج حتى تبدو وكأنها قضية يقينية ، ثم يكر عليها فينقضها ويبرهن على صدق نقيضها[٥] .

ثم ظهر (سقراط)[٦] فأفسد على السوفسطائيين جدلهم العقيم[٧] ، وذلك بأن وضع أسساً جديدة لفن الحوار والجدل ، فبنى طريقته على مناقشة المقدمات والآراء السائدة ، والتي تستنبط منها النتائج ، فهو يبحث مع مجادليه – دون ملل عن الــتعريف الحقيقــي للأشياء[٨] ، أي عن التعريف الذي يعبر عن ماهية الشئ المعرَّف ، بمعنى أنه كان يبحث عن جوهر

---

(١) ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب (٣٣١/٤) .

(٢) انظــر : د/ عبدالمنعم الحفني : الموسوعة الفلسفية ص/٢٤٩ ط١ مكتبة مدبولي – القاهرة بدون تاريخ ، د/ محمد عزيز نظمي سالم : تاريخ الفلسفة ص/٥٣ وما بعدها مؤسسة شباب الجامعة – الاسكندرية بدون تاريخ ولا طبعة .

(٣) انظر : د/ عبدالمنعم الحفني : الموسوعة الفلسفية ص/٢٥٠ . و د/ محمود قاسم : المنطق الحديث ص/١٠ .

(٤) انظر : د/عبدالسلام محمد عبده : المنطق والفكر الانساني ص/ ٨،٩ بدون طبعة وتاريخ .

(٥) انظر : د/ محمود قاسم : المنطق الحديث ومناهج البحث ص/١٠ – مكتبة الأنجلو المصرية –ط٣ .

: د/ محمد عزيز نظمي سالم : تاريخ الفلسفة ص/٥٣ وما بعدها .

: يوسف كــرم : تــاريخ الفلســفة اليونانيــة ص/٤٤-٤٦ ط٥ ، بــدون تــاريخ ، مكتبة النهضة المصرية .

: د/ عبدالسلام محمد عبده : المنطق والفكر الإنساني ص/ ٨،٩ .

(٦) ولــد في أثينا ، وتعلم فيها واتهم بالإلحاد ، وحكم عليه بالإعدام ، كان نحاتاً كأبيه ، ولكن الميل إلى الحكمة ، اشتدت به في سن مبكرة ، فأخذ يغذي عقلــه ويهذب نفسه ، واقتنع بأن العلم إنما هو العلم بالنفس لأجل تقويمها . فكان شعاره " اعرف نفسك " قيل عنه : إنه أنزل الفلسفة من السماء إلى الأرض أي أنزل الفلسفة من البحث في الأفلاك والعناصر إلى البحث في النفس وفيما يؤدي إلى خيرها . انظر : يوسف كرم : تاريخ الفلسفة اليونانية ص/٥٠ ، د/عبدالمنعم الحفني : الموسوعة الفلسفية /٢٤٤،٢٤٥ .

(٧) انظر : د/ محمود قاسم : المنطق الحديث ومناهج البحث ص/١١ .

(٨) انظر : د/ عبدالسلام محمد عبده : المنطق والفكر الانساني ص/٨،٩ .

الأشـياء محـاولاً استخدام القياس[1] ، كما أنه كان يساعد خصمه على الوصول إلى الحقيقة عن طريق ما يسمى بطريقة الـتوليد[2] ، فقد كانت أمه قابلة وكان يشبه نفسه بالقابلة لأن صناعته توليد المعاني في نفوس الرجال ، واستخلاص الأفكار من العقول ، والحق من الصدور[3].

ثـم أعقبه تلميذه " أفلاطون [4] " - (نحو ٤٢٧-٣٤٧ق.م) فزاد على طريقة استاذه تحديداً أكثر لمعاني الألفاظ والتعريفات حتى لا يوجد مجال للمغالطة ، ووضع فكرة " الجدل الصاعد " و نظرية المثل "[5] ، ثم ظهر من بعده تلميذه " أرسـطو "[6] (نحـو ٣٨٤- ٣٢٢ ق.م) ليـتوج هذه الجهود الفكرية فيما سماه بالتحليلات (أي المنطق)[7] ، فقعد له ، ورتـب مباحـثه ، وحـدد مصـطلحاته ، ورتب مسائله ، وفصوله ، فنسب إليه المنطق نسبة صياغة وإظهار ، لا ابتداء واختراع[8] . وذلك لأن أرسطو ، وجد في طريقة أفلاطون الجدلية منبعاً لتصنيف الكليات الخمس وبيان أنواع القضايا به .

قـال ابـن خلدون : (وتكلم فيه - أي المنطق - المتقدمون أول ما تكلموا به جُملاً جُملاً ، ومفترقاً ، ولم تهذب طـرقه ، ولـم تجمـع مسائله حتى ظهر في يونان " أرسطو " فهذب مباحثه ، ورتب مسائله وفصوله ، وجعله أول العلوم الحكمية وفاتحتها ، ولذلك يسمى بالمعلم الأول وكتابه المخصوص بالمنطق يسمى " النص "[9])[10] .

ثم بعد ذلك بدأ دخوله على المسلمين في عهد الدولة العباسية ، متأثراً بأسلوب اللغة اليونانية[11] .

وكـانت أول الحـوادث فـي عهدها اخراج الكتب اليونانية إلى أرض الاسلام ، وذلك علي يد يحي بن خالد ابن بـرمك[1] ، وكـان وزيراً لهارون الرشيد[2] ، فطلب يحي البرمكي كتب اليونان من ملك الروم وكانت محجوبة عن أنظار

---

(١) انظر : د/ محمود قاسم : المنطق الحديث ص/ ١١ .
: و يوسف كرم : تاريخ الفلسفة اليونانية ص/٥٢،٥٣ .

(٢) انظر : د/ محمد عزيز نظمي سالم : تاريخ الفلسفة ص/٦٢،٦٣ .
: يوسف كرم : تاريخ الفلسفة اليونانية ص/٥٢،٥٣ .

(٣) انظر : د/ عبدالمنعم الحفني : الموسوعة الفلسفية ص/٢٤٤ .

(٤) فيلسوف إغريقي ، يعتبرونه بداية فلسفة الغرب السياسية نحو (٤٢٧-٣٤٧ ق.م) الموسوعة الفلسفية (ص ٥٢-٥٥) .

(٥) انظر : د/محمود قاسم : المنطق الحديث ومناهج البحث ص/١٢، وتاريخ الفلسفة اليونانية ، ليوسف كرم (ص ٦٧،٦٩) وما بعدها .
والمُثُل الأفلاطونية : هي التي قالها في كتابه المسمى (عوغياس) سرياني وفيها كتاب برقلس الأفلاطوني . كشف الظنون (١٥٨٦/٢) .

(٦) ويقال أرسطاطاليس وأرسطوطاليس ، وهو الأقرب إلى الأصل اليوناني ، هو ابن نيقوماخس الطبيب المشهور ، وأرسطو هو رأس الحكماء المشائين ويعرف بالمعلم الأول ، لأنه أول من وضع التعاليم المنطقية ، انظر كتاب : دائرة المعارف لبطرس البستاني ٧٥/٣ وما بعدها مؤسسة . مطبوعاتي اسماعيليان ١٨٧٨م - ١٢٩٥هـ طهران بدون طبعة .

(٧) أول من أطلق اسم المنطق على هذا الفن هم شراح أرسطو ، وليس أرسطو نفسه ، انظر : المعجم الفلسفي لجميل صليبا ٤٢٨/٢ ، ومدخل إلى علم المنطق للدكتور/ مهدي فضل الله ص/١٨ دار الطليعة ط١/١٩٧٧م بيروت .

(٨) انظـر : أبو الفتح محمد عبدالكريم الشهرستاني : الملل والنحل ص/٣٧٤ ت: عبدالعزيز الوكيل - دار الفكر - بيروت بدون تاريخ ولا طبعة ، د/ محمود قاسم : المنطق الحديث ص/١٥ .

(٩) قال د/ علي عبدالواحد وافي : اسم كتابه " الأورجانون " ومعنى هذه الكلمة باليونانية " الآلة " أي إنه آلة تعصم الفكر من الخطأ فترجمته بالنص غير صحيحة . المقدمة (١١٣٧/٣) حاشية .

(١٠) مقدمة ابن خلدون (١١٣٧/٣) - ت: د/ علي عبدالواحد وافي ط٣/ بدون تاريخ دار نهضة مصر للطبع والنشر - الفجالة / القاهرة.

(١١) انظـر : عبدالمتعال الصعيدي : تجديد المنطق ص/٥، د/ محمد حسني الزين : منطق ابن تيمية ومنهجه الفكري ص/٣٠ المكتب الاسلامي ط١/ ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م - بيروت .

النصـــارى خشية افتتانهم بها ، فجد الأخير في إرسالها إلى الوزير العربي طلباً في الخلاص من شرها ، ورغبة في إفساد أحـــوال المســـلمين ، حـــتى قال أحد بطارقة الروم : " فما دخلت هذه العلوم على دولة شرعية إلا أفسدتها ، وأوقعت بين علمائها "[٣] فجمع عليها البرمكي كل زنديق وفيلسوف[٤] ، ومنذ ذلك الحين انتشر شرها في دولة الإسلام كما قال البطريق

ويرى بعض الباحثين أن هذا الانتقال كان قبل ذلك ، أي في عهد الأمويين ، وعلى يد خالد بن يزيد بن معاوية[٥] (ت ٩٠هـــ) ، قال ابن النديم : " خطر بباله حب الصنعة (الكيمياء) فأمر بإحضار جماعة من فلاسفة اليونانيين ممن كان ينزل مصر ، وقد تفصح بالعربية وأمرهم بنقل الكتب من اللسان اليوناني والقبطي إلى العربية ، وهذا أول نقل كان في الإسلام من لغة إلى لغة "[٦] .

يقــوي هــذا الراي أيضاً ما ذكره أبو الفتح الشهرستاني عن أصحاب واصل بن عطاء[٧] ، أنهم قد طالعوا بعض كتب الفلاسفة[٨] .

والــذي يظهــر لي من كلا الرأيين : أن هذه الكتب الفلسفية ابتدأ دخولها ونقلها من اليونانية إلى العربية في العهد الأموي كما ذكر ابن النديم والشهرستاني ، ثم كثرت وشاعت في العهد العباسي ، في زمن البرمكي ، ثم استفحل أمرها أيام المأمون لما أثاره من البدع وحث عليه من الاشتغال بعلوم الأوائل وإخماد السنة[٩] .

بقى أن نقول : إنه مع ذلك فلم تكن كتب الفلاسفة والمنطق محل تقدير عند أهل العلم من جميع طوائف المسلمين : أهــل الســنة والجماعــة ، والمعتزلة ، والأشاعرة ، والكرامية[١٠] ، والشيعة ، بل كان كل من يشتغل بها معروفاً عند المسلمين بالإلحاد والزندقة ، كالفارابي[١] (ت ٣٣٩هـــ) والكندي[٢] ، وابن سينا[٣] ، وغيرهم[٤] .

---

(١) يحيــي بــن خــالد بن برمك ، أبو الفضل ، الوزير السري الجواد ، سيد بني برمك وأفضلهم ، وهو مؤدب الرشيد العباسي ، ومعلمه ومربيه ، انظر : ارشاد الأريب ٢٧٢/٧ ، وفيات الأعيان ٢٤٣/٢ ، البداية والنهاية ٢٠٤/١٠ ، المسعودي ٢٢٨/٢ ، تاريخ بغداد ١٢٨/١٤ ، الأعلام ١٤٤/٨ .

(٢) هارون (الرشيد) ابن محمد (المهدي) ابن المنصور العباسي ، أبو جعفر ، خامس الخلفاء العباسيين في العراق ، ولد بالري (١٤٩هـــ-٧٦٦م) ، بويع بالخلافة (١٧٠هـــ) ، انظر : البداية والنهاية ٢١٣/١٠ ، ابن الاثير ٦٩/٦ ، الطبري ٤٧،١١٤/١٠ الأعلام ٦٢/٨ .

(٣) السيوطي : صون المنطق والكلام (ص/٩) – ت د/علي سامي النشار .

(٤) نفسه (ص/٨) .

(٥) خـــالد بـــن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان ، الأموي ، القرشي ، أبو هاشم ، انظر : الفهرست لابن النديم ٢٤٢/١ ، البيان والتبين للجاحظ ١٧٨/١ ، الوفيات ١٦٨/١ ، تهذيب ابن عساكر ١١٦/٥ وفيه وفاته سنة (٩٠هـــ) ، ابن الوردي (١٧٩/١) وذكره في وفيات سنة ٨٢هـــ – الأعلام (٣٠٠/٢).

(٦) ابـــن النديم : الفهرست (٢٤٢/١) ، وانظر : د/ على سامي النشار : مناهج البحث عند مفكري الاسلام ص/٥ . دار المعارف – مطبعة المصري – ط١٣٨٥/٢هـــ-١٩٦٥م – مصر ، وانظر : د/ محمد حسني الزين : منطق ابن تيمية (ص/٣١،٣٢) .

(٧) واصـــل بن عطاء الغزال ، أبو حذيفة ، من موالي بني ضبة أو بني مخزوم ، رأس المعتزلة ، ومنهم طائفة تنسب إليه خاصة تسمى " الواصلية " ، ولـــد بالمدينة (٨٠هـــ – ٧٠٠م) ت (١٣١هـــ – ٧٤٨م) ، انظر : المقريزي (٣٤٥/٢) وفيات الأعيان (١٧٠/٢) ومروج الذهب (٢٩٨/٢) ، آمال المرتضـــى (١١٣/١) فـــوات الوفيـــات (٣١٧/٢) ، تاريخ الإسلام للذهبي (٣١١/٥) ، النجوم الزاهرة (٣١٣/١-٣١٤) لسان الميزان (٢١٤/٦) ، شذرات الذهب (١٨٢/١) الأعلام (١٠٨/٨) .

(٨) انظر : الملل والنحل (ص/٤٦) ، ت عبدالعزيز الوكيل .

(٩) انظر : السيوطي : صون المنطق (ص/١٢) .

(١٠) هم : أصحاب ابي عبدالله محمد بن كرام ، وهم من جملة الصفاتية ، قال الأشاعرة عنهم إنهم يعتقدون التشبيه ، ويقولون بحلول الحوادث في ذات الـــرب (تعالى) وهذا لا يثبت عنهم ، كما حكى عنهم القول بالتحسين والتقبيح العقليين كقول المعتزلة ، وأن الإيمان هو الاقرار باللسان فقط دون التصديق بالقلب وعمل الجوارح ، انظر : الملل والنحل للشهرستاني (ص/١٠٨) ، وما بعدها ، والفرق بين الفرق للبغدادي (ص/٢١٥) وما بعدها .

ثـم بعد ذلك حصل أول مزج حقيقي بين المنطق وعلوم المسلمين وذلك على يد الشيخ أبي حامد الغزالي ، حيث أداه اجتهاده إلى وجوب تعلم المنطق ، بل جعله شرطاً في تحصيل العلوم ، فهو في نظره معيار العلوم وميزانها ، وصنف فـي ذلـك " معيـار العلم " ، و " مقاصد الفلاسفة " و " محل النظر " و " القسطاس المستقيم " كما صرح في بداية كتابه المستصفى[٥] : أن من لا يحيط بالمنطق فلا ثقة بعلومه أصلاً .

وهـذا كلام الغزالي في كتابه معيار العلم ، قال : " ...فلما كثر في المعقولات مزلة الأقدام ، ومثارات الضلال ، ولـم تـنفك مرآة العقل عما يكدرها من تخليطات الأوهام ، وتلبيسات الخيال ، رتبنا هذا الكتاب معياراً للنظر والاعتبار ، وميـزاناً للبحث والافتكار ، وصيقلاً للذهن ، ومشحذاً لقوة الفكر والعقل ، فيكون بالنسبة إلى أدلة العقول كالقروض بالنسبة للشـعر ، والـنحو بالاضافة إلى الإعراب ، إذ كما لا يعرف منزحف الشعر عن موزونه إلا بميزان العروض ، ولا يميز صواب الاعراب عن خطئه إلا بمحك النحو ، كذلك لا يفرق بين فاسد الدليل وقويمه ، وصحيحه وسقيمه إلا بهذا الكتاب . فكل نظر لا يتزن بهذا الميزان ، ولا يعهاير بهذا المعيار ، فاعلم أنه فاسد العيار غير مأمون الغوائل والأغوار "[٦] .

فَرأيُ الغزالي من كلامه هذا واضح وصريح في أن من لم يتبع قواعد هذا المنطق في بحثه واستدلاله – كما قدمنا – فإنه لا يوثق بعلمه ، ولا بنتائج أبحاثه ويكون نظره فاسداً وعلمه لا وزن له ، وبسبب تهويل الغزالي ، وتفخيمه لأهمية المنطق ، حَرَص كثير من العلماء الذين أتوا من بعده على دراسة المنطق وتحصيله حتى يستكمل شرائط النظر والاجتهاد ، ويكون أهلاً للتأليف والفتوى[٧] ، وذلك ظناً منهم أنه لا يبلغ أحدهم درجة الاجتهاد إلا بعد تحصيل علم المنطق ، وقد يدهش القارئ ويتملكه العجب حين يعلم أن الشيخ أبا عمرو بن الصلاح اعتبر ما قام به الغزالي من خلطه المنطق بعلوم الاسلام ، بدعـة صـار شؤمها عظيماً على من أتوا من بعده ، قال أبو عمرو : " ولقد أتى بخلطة المنطق باصول الفقه بدعة عظم

---

(١) هـو : أبـو نصـر محمد بن محمد بن طرخان بن أوزلغ ، تركي الأصل ، يحسن اليونانية ، وأكثر اللغات الشرقية ، في وقته ، يلقب بالمعلم الثاني لشـرحه مؤلفـات المعلم الأول أرسطو ، له : إحصاء العلوم ، وآراء أهل المدينة الفاضلة ، وغيرها . كان يقول بالمعاد الروحاني وخصه بالأرواح العالمة دون الجاهلة ، وله في ذلك مذاهب يخالف فيها سبيل المؤمنين والفلاسفة من سلفه الأقدمين ، قال ابن كثير : " فعليه – إن كان مات على ذلك – لعـنة رب العالمين " وقال أيضاً : " ولم أر الحافظ ابن عساكر ذكره في تاريخه لفتنه وقباحته " . ولد سنة (٢٦٠هـ) ، وتوفي سنة (٣٣٩هـ) . انظر : البداية والنهاية (٢٢٤/١١) حوادث سنة (٣٣٩هـ) ، وفيات الأعيان (٧٦/٢) طبقات الأطباء (١٣٤/٢-١٤٠) ، حكماء الإسلام ٣٠ ، دائرة المعارف الاسلامية (٤٠٧/١-٤١٢) الأعلام (٢٠/٧) .

(٢) هو : أبو يوسف يعقوب بن اسحاق الصباح ، فيلسوف وأحد ابناء ملوك كندة ، ت سنة (٢٦٠هـ-٨٧٣م) . انظر : طبقات الأطباء والحكماء لابن جلجل (٧٣) أخبار الحكماء للقضطي (٢٤٠-٢٤٧) ، الأعلام (١٩٥/٨) .

(٣) هـو : أبو علي الحسين بن عبدالله بن سيناء ، شرف الملك ، الفيلسوف الذي يدعى الرئيس ، أصله من بلخ ومولده في إحدى قرى بخارى (٣٧٠هـ-٩٨٠م) ت (٤٢٨هـ-١٠٣٧م) قال ابن القيم : " كان ابن سينا – كما أخبر عن نفسه – هو وأبوه من أهل دعوة الحاكم ، من القرامطة الباطنيين " وقال ابن تيمية : " وكان أهل بيته من أهل دعوة الحاكم العبيدي الذي= = كان هو وأهل بيته معروفين عند المسلمين بالالحاد " انظر : وفيات الأعيان (١٥٢/١) ، تاريخ حكماء الاسلام ٢٧-٧٢ ، دائرة المعارف الاسلامية (٢٠٣/١) ، إغاثة اللهفان لابن القيم (٢٦٦/٢) ، الأعلام (٢٤٢/٢) .

(٤) انظر : الرد على المنطقيين (ص/٣٣٧) ، وتجديد علم المنطق لعبد المتعال الصعيدي (ص/٥) وموقف أهل السنة القدماء بإزاء علوم الأوائل – مقالة للمستشرق جولد تسيهر ضمن كتاب المستشرقين جمعها الدكتور عبدالرحمن بدوي مكتبة نهضة مصر ، وانظر مقدمة ابن خلدون (ص/٤٨٣) .

(٥) (١٠/١) ، وانظر الرد على المنطقيين لابن تيمية (ص/١٥،١٤) .

(٦) معيار العلم (ص/١٢) ت: مصطفى أبو العلا .

(٧) انظر : ما رُمي به جلال الدين السيوطي من عدم استكماله للمنطق وذكر ذلك في أول كتابه صون المنطق (ص/١) .

شـؤمها عـلى المـتفقهة حتى كثر بعد ذلك اللمتفلسفة ، والله المستعان "[١] ولم يكن ابن الصلاح وحده هو الذي أنكر على الغزالي فعله ذلك ، فقد وجدنا شيخ الإسلام ابن تيمية أيضاً من أشد المنكرين لصنيع الغزالي ، وقد أخبر ابن تيمية كذلك أن العقـلاء والفضلاء من المسلمين ظلوا ينكرون ذلد ، ويطعنون عليه بسببه ، قال ابن تيمية : " لكن بسبب ما وقع منه – أي الغـزالي – فـي أثناء عمره ، وغير ذلك ، صار كثير من النظار يدخلون المنطق اليوناني في علومهم ، حتى صار من يسلك طريق هؤلاء من المتأخرين يظن أنه لا طريق إلا هذا ... ولا يعلم أنه مازال العقلاء والفضلاء من المسلمين وغيرهم يعيبون ذلك ، ويطعنون فيه ، وقد صنف نظار للمسلمين في ذلك مصنفات متعددة "[٢] .

ويتـبين مـن هذا أن دخول المنطق علوم المسلمين لم يكن محبوباً ولا مرغوباً لأي جماهير العلماء والأئمة ، بل قوبل منهم بالإنكار والرفض ، وعدم القبول ، وتأثيم من يشتغل به ، ويترك الوحي الذي جاء بالحق ، والهدى .

ولعلـه من المتبادر إلى الذهن أن يقال : إذا كان علماء الأمة وأئمتها جابهوا المنطق بالرفض والكراهية والتحريم إذاً فلماذا تمكن بعد ذلك من أهل العلم وتغلغل في مصنفاتهم ، حتى أصبح كثير منهم يعتبرونه مقدمة ضرورية لكثير من العلوم ؟ .

أقـول إن دخـول المنطق على المسلمين حصل على يد عالم فحل من فحول الأمة (هو أبو حامد الغزالي والذي لقـبه البعض بحجة الإسلام) ، ولقد كان محل تقدير كبير للعلماء الذين عاصروه ، وكذلك الذين أتوا من بعده ، وكان هذا الـتقدير والاكبار للشيخ أبي حامد سبباً عظيماً لأن يأخذوا ذلك عنه من غير بحث ولا تمحيص ، ثقة منهم بعلمه وفضله ، ولا شك أن هذا التلقي غير المدروس ، هو التقليد المذموم الذي أدى إلى هذا التغلغل لعلم المنطق ولذلك ينبغي أن لا يتلقى المسلمون شيئاً إلا شيئاً يوافق أصول دينهم ، ومبادئ عقيدتهم ، كما أن نظرة الاكبار والإجلال لأحد الأئمة لا يسوغ لنا أن نقـبل منه كل شئ دون عرضه على أدلة الوحي المعصوم ، فكثيراً ما وقع الانحراف والضلال بسبب التلقي التقليدي الذي ذمه رب العزة – جل وعلا – بقوله : (وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون)[٣] . يستخلص من ذلك عدة أمور :

<u>أولاً :</u> أن المـنطق عـلم غير اسلامي ، فقد نشأ علماً وثنياً ، متولداً من أفكار بشرية ، ونما في أحضان الفلسفة ، التي لم يعـرف اصـحابها هـدى القرآن الكريم ، ولم يستنيروا بمنهاج السنة النبوية بل كانوا أهل شرك وإلحاد ، بل ما كان عند مشركي العرب من الكفر والشرك خير مما عند الفلاسفة[٤] فهو علم ارضى لم يهتد بهدى الأنبياء .

<u>ثانيـاً :</u> أن النـبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه والتابعين لم يعرفوه ، ولم يأمروا به أو يحثوا الأمة عليه . فهو من البدع السيئة فإن شريعة الإسلام ليست موقوفة على شئ يتعلم من غير المسلمين أصلاً[٥] .

---

(١) ابن تيمية : شرح العقيدة الأصفهانية (ص/١٣٣) .

(٢) الرد على المنطقيين (ص/١٩٨) .

(٣) سورة البقرة الآية (١٧٠) .

(٤) انظر : ابن تيمية : الرد على المنطقيين ص/ ١٠١،٥٣٥ ، وما بعدها .

(٥) نفسه ص/٢٥٨ .

ثالثاً : أن علماء الأمة الناصحين اعتبروا نقله وترجمته وادخاله إلى المسلمين نكته سوداء في جبين كل من ساهم أو أمرأ واشتغل به وجد في تحصيله .

واعتبره البعض بدعة مشؤمة على الإسلام وأهله فإن المسلمين لم يأخذوا بالمنطق الأرسطي بل رفضوه بشدة ، ولا يزال فيهم الآن من يرفضه ويحرمه لملابسته العلوم الفلسفية المباينة للعقائد الصحيحة[١] ، ولا يزال يتردد قول بعض العلماء : " نعوذ بالله من قياس فلسفي وخيال صوفي "[٢] وإن علماء السنة إنما حذروا من المنطق وأهله ومن الاشتغال به لئلا يغتر بعض المسلمين به عندما يرى صدق بعض قضاياه فيظن أن قضاياه كلها صادقة ، وقد نبه إلى ذلك الشيخ أبو حامد الغزالي فقال : " وربما ينظر في المنطق أيضاً من يستحسنه ويراه واضحاً ، فيظن أن ما ينقل عنهم من الكفريات مؤيدة بمثل تلك البراهين ، فاستعجل بالكفر قبل الانتهاء إلى العلوم الإلهية "[٣] وهذا الكلام من أبي حامد – رحمه الله – يؤخذ منه ، ويؤاخذ به ، أما كونه يؤخذ منه فلأنه إشارة واضحة إلى أنه لا ينبغي الوثوق في كل قضايا المنطق ، وذلك لما يحمله من كفريات – كما قال – فمن وثق ببعض قضاياه ، يخش عليه أن يصدق بتلك الكفريات فيستعجل الوقوع فيها (خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين)[٤] .

وأما كونه يؤاخذ به ، فلأن أبا حامد بالرغم من معرفته بحال المنطق ، وخبرته به ، واشارته إلى المحظور الخطير المترتب عليه ، فقد بالغ في مدحه والثناء عليه ، والتعظيم من شأنه حتى جعله أساس العلوم ومعيارها وميزانها ، وهذا يعد تناقضاً في الرأي ، وتضاداً في الرؤية ، فإذا كان المنطق ينطوي على أصول فاسدة لا تؤمن غوائلها ، فلماذا التهويل من شأنه ، والتعظيم لأمره ، سيما وأن المسلمين ليسوا بحاجة إليه ، وقد مضت القرون المفضلة دون معرفته ، وقد كانت أقرب القرون إلى الله تعالى ، وأعمقها علماً ، وأقلها تكلفاً ، وأسلمها حجة ، وأقواها برهاناً .

وها هو شيخ الإسلام ابن تيمية ينبه إلى ما نبه إليه الغزالي من قبل ، بل جعل فساد أصول الفلاسفة في الإلهيات بسبب اعتمادهم على المنطق قال ابن تيمية : " كنت دائماً أعلم أن المنطق اليوناني لا يحتاج إليه الذكي ، ولا ينتفع به البليد ، ولكن كنت أحسب أن قضاياه صادقة لما رأيت من صدق كثير من قضاياه ... وتبين لي أن كثيراً فما ذكروه في أصولهم في الإلهيات وفي المنطق هو من أصول فساد قولهم في الإلهيات "[٥] . ولو اقتصر الأمر على عدم صدق بعض قضايا المنطق لهان الأمر ، وسهل الخطب ، لكنه مع ذلك يلزم من اعتقده لوازم باطلة وعقائد فاسدة تناقض العلم والإيمان وتفضى إلى أنواع من الجهل والكفر والضلال[٦] ومن ذلك قولهم بقدم العالم فهم يعتقدون أن الإله لا يسبق العالم في الوجود

---

(١) انظر : د/ على سامي النشار : مناهج البحث عن مفكرة الإسلام (ص/٢٧،٢٨،٨٦) ط٤ دار المعارف – ١٩٧٨م .

(٢) ابن تيمية : الرد على المنطقيين (ص/٤٨٢) وهو من كلام أبي القاسم السهيلي صاحب : " الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لإبن هشام " ومن قول شيخه أبي بكر بن العربي أيضاً .

(٣) المنقذ من الضلال (ص٩٣) ، ط ابن زيدون ١٣٥٣هـ–١٩٣٤م ، دمشق .

(٤) سورة الحج ، بعض الآية (١١) .

(٥) الرد على المنطقيين (ص ٣،٤) .

(٦) انظر : ابن تيمية : الرد على المنطقيين (ص/١٩٨) .

الزمني وإن كان يسبقه في الوجود الفكري مثلما تسبق المقدمة النتيجة في الوجود الفكري[١] ، فالإله – عندهم – متقدم على العـالم بالرتـبة لا بالـزمان[٢] . وهذا مما انكره الشيخ أبو حامد الغزالي عليهم وكفرهم به[٣] ، هو وغيره من علماء المسـلمين ، ومن ذلك – أيضاً – إنكارهم النبوات[٤] أو قولهم بأنها مكتسبة تستعد لها النفوس بأنواع الرياضات ، كما كان يسـتعد لهـا السهروردى [٥] المقتول ، وابن سبعين[٦] وهناك لوازم أخرى فاسدة أثرت عدم ذكرها خشية الإطالة وخروج الموضوع عن مقصوده[٧] .

ثانياً : تعريف المنطق ونبذة مختصرة عنه :

يعـرفه أرسـطو نفسه بأنه : آلة العلم ، وموضوعه الحقيقي هو العلم نفسه ، أوصورة العلم "[٨] وقد أثر تعريف أرسطو للمنطق في العصور الوسطى إسلامية ونصرانية فردد الإسلاميون التعريف كما هو ، وكذلك فعل النصارى[٩] .

وعرفه ابن سينا بقوله : " المراد من المنطق أن يكون عند الإنسان آلة قانونية تعصمه مراعاتها عن أن يضل في فكره "[١٠]

ويعـرف ابـن سينا أيضاً بقوله : " المنطق هو الصناعة النظرية التي تعرفنا من أي الصور والمواد يكون الحد الصـحيح ، الذي يسمى بالحقيقة حداً والقياس الصحيح الذي يسمى برهاناً "[١١] وهو تعريف ارسطاطاليسي بحت يتضمن تفسيرات معلمه الأول (أرسطو) كما يتضمن تقسيماته له[١٢] .

أما الغزالي فيعرفه في " معيار العلم " بقوله : " إن مضمونه تعليم كيفية الانتقال من الصور الحاصلة في ذهنك ، إلى الأمور الغائبة عنك ، فإن هذا له هيئة وترتيب إذا روعيت أفضت إلى المطلوب ، وإن أهملت قصرت عن المطلوب "[١٣] .

ويقـول أيضـاً فـي " مقاصد الفلاسفة " : " إنه القانون الذي يميز صحيح الحد والقياس عن غيره ، فيتميز العلم اليقيـني عما ليس يقينياً وكأنه الميزان أو المعيار للعلوم كلها "[١٤] وهو أيضاً تعريف لا يبعد كثيراً عن تعريف ابن سينا ، الذي يرجع بدوره إلى تعريف أرسطو .

---

(١) انظر : الأستاذ : علي لبن : الغزو الفكري في المناهج الدراسية (ص/٣٢) – دار الوفاء ط١/١٤٠٧هـ-١٩٨٧م ، مصر .

(٢) انظر : أبو حامد الغزالي : تهافت الفلاسفة (ص/٤٨) ، ط٣ دار المشرق ، بيروت – بتقديم ماجد فخري .

(٣) انظر : تهافت الفلاسفة (ص/٤٨) وما بعدها (ص/٢٥٤) بتقديم : ماجد فخري .

(٤) انظر : ابن تيمية : الرد على المنطقيين (ص/٢٧٧) .

(٥) يحيى بن حبش بن أميرك ، أبو الفتوح شهاب الدين السهرودي ، فيلسوف – مختلف في اسمه – ، وفيات الأعيان (١/٢٦١) ، النجوم الزاهرة (٦/ ١١٤) ، أعلام النبلاء (٤/٢٩٢٩) ، لسان الميزان (٣/١٥٦) ، الأعلام (٨/١٤٠) .

(٦) نفسه : (ص/٤٧٥،٤٧٤،٣٠٢،٣٠١) ، وابن سبعين : هو عبد الحق بن إبراهيم بن محمد بن نصر بن سبعين الإشبيلي المرسي الرقوطي قطب الدين ، أبو محمد ، من القائلين بوحدة الوجود ، جلاء العينين (ص١٥) ، فوات الوفيات (١/٢٤٧) ، شذارت الذهب (٥/٣٢٩) ، الأعلام (٣/٢٨٠)

(٧) لمـزيد من معرفة هذه اللوازم الباطلة الفاسدة ينظر : عثمان بن علي حسن : منهج الإستدلال على مسائل الاعتقاد عن أهل السنة والجماعة (جـ٢/ ٦١٣) وما بعدها مكتبة الرشد – الرياض ط٣/ ١٤١٥هـــ – ١٩٩٥م .

(٨) د/ علي سامي النشار : المنطق الصوري منذ أرسطو حتى عصورنا الحاضرة (ص/٦) ط٥ / ١٩٧١م – دار المعارف بمصر .

(٩) نفسه (ص/٧) .

(١٠) ابن سينا : الإشارات والتنبيهات مع شرح نصير الدين الطوسي القسم الأول (ص/١١٧) د. سليمان دنيا ط٣ / دار المعارف القاهرة – مصر .

(١١) ابن سينا (ص/٣) نقلاً عن د. علي سامي النشار : المنطق الصوري ص/٧ .

(١٢) انظر : د. علي سامي النشار : المنطق الصوري (ص/٧) .

(١٣) (ص/٢٧) .

(١٤) (ص/٣) .

وقد ردد الغزالي نفس هذا المعنى لتعريف المنطق في بقية مصنفاته " كالمستصفى " و " محك النظر "[١] .

فالمناطقة إذاً يعتبرونه قواعد أو قانون من يراعيه في طريقة بحثه وأصله إلى مطلوبه فهو كما قال ابو حامد عبارة عن تعليم كيفية الانتقال من صور حاصلة ، أي مقدمات معلومة حتى يصل منها إلى أمور غائبة مجهولة ، أو هو كما قيل : الانتقال من المعلوم إلى المجهول .

فهو بذلك بمثابة الآلة المستخدمة في صناعة العلوم الفلسفية العقلية ، لذلك قال الجرجاني (ت٨١٦هـ)[٢] في تعريفاته : " المنطق : آلة قانونية تعصم مراعاتها الذهن عن الخطأ في الفكر " فهو كالنحو للسان ، والقروض للشعر . فالذي يراعي قواعد النحو لا يقع منه خطأ في الكلام عندما يتكلم أو يكتب .

ويبدو أن هذا التعريف هو الذي استقر عليه الباحثون من قبل الجرجاني لذا وجدنا ابن تيمية (ت٧٢٨هـ) قد سبق الجرجاني به حيث يقول : " يزعمون أنه آلة قانونية تعصم مراعاتها الذهن أن يزل في فكره "[٣] .

ويقول في موضع آخر : " فإنهم يزعمون أنه : آلة قانونية تمنع مراعاتها الذهن أن يزل في فكره "[٤] فهو إذاً علم يبحث فيه عن المعلومات التصورية والتصديقية من حيث إنها توصل إلى مجهول تصوري أو تصديقي وهم بهذا يقسمون العلم إلى تصور وتصديق وكل من التصور والتصديق ينقسم إلى ضروري ونظري ، فالأقسام أربعة :

١- تصور ضروري . ٢- تصور نظري .

٣- تصديق ضروري . ٤- تصديق نظري .[٥]

فادراكنا معنى كلمة (زيد) هو تصور ، وإدراكنا معنى كلمة (قائم) هو تصور أيضاً ، والتصور الضروري هو الذي لا يحتاج إلى تأمل ونظر ومثاله : إدراك أن الواحد نصف الاثنين ، والتصور النظري هو الذي يحتاج إلى تأمل وفكر ونظر ومثاله : إدراك أن الواحد نصف سدس الاثنى عشر .

والتصديق : هو إدراك وقوع النسبة بين كلمة (زيد) وبين كلمة (قائم) ، فكلمة (زيد قائم) اشتملت على تصورات أربعة :

١- تصور الموضوع : وهو (زيد) . ٢- وتصور المحمول : وهو (قائم) .

٣- وتصور النسبة بينهما وهو تعلق المحمول بالموضوع . ٤- تصور وقوع النسبة بينهما .

والتصور الرابع هو التصديق[٦] ، أما معنى الموضوع والمحمول :

---

(١) انظر : د/ علي سامي النشار : المنطق الصوري (ص/٧) .

(٢) كتاب التعريفات (ص/٢٠٨) .

(٣) الرد على المنطقيين (ص/٧) .

(٤) نقض المنطق (ص/١٥٧) .

(٥) انظر : ابن تيمية : الرد على المنطقيين (ص/٤) ،
: الشيخ أحمد الدمنهوري : إيضاح المبهم من معاني السلم في المنطق (ص/٥) ط ١٣٦٧هـ - ١٩٤٨م - الحلبي وأولاده .

(٦) انظر : الدمنهوري : إيضاح المبهم (ص/٥،٦) .

فالموضـــوع : هـــو المبتدأ عند النحاة ، وهو الذي يقتضي خبراً وهو الموصوف ، وهو في مثالنا (زيد) والمحمول : هو خبر المبتدأ ، وهو الصفة ، وهو في مثالنا كلمة (قائم) .

فزيد هو الموضوع ، وقائم هو المحمول[١] . أما التصديق الضروري ، فهو إدراك وقوع النسبة في قولنا : الواحد نصـف الاثـنين ، والتصديق النظري : هو إدراك وقوع النسبة في قولنا : الواحد نصف سدس الاثنى عشر ، وعلى هذا فالعلوم منحصرة في التصورات والتصديقات ، لذلك قالوا : العلم إما تصور وإما تصديق[٢] .

" والنظري منهما لابد له من طريق ينال به ، فالطريق الذي ينال به التصور هو الحد[٣] ، والطريق الذي ينال به التصديق هو القياس "[٤]. ولكل من التصورات والتصديقات مبادئ ومقاصد .

فمبادي التصورات : الكليات الخمس وهي : " الجنس " و " النوع " و " الفصل " و " الخاصة " و " العرض العام "[٥] ومقاصد التصورات هو " القول الشارح " يعني " الحد " أو " التعريف "[٦] .

ومبادئ التصديقات : القضايا وأحكامها، والقضايا هي " المقدمات " وهي إما " موجبة " ، وإما " سالبة " وكل منهما إما " كـلية " وإما " جزئية "[٧] ومقاصد التصديقات هو القياس ، وقد قدمنا عن ابن تيمية – قبل أسطر – أن القياس هو الطريق الذي تنال به التصديقات .

أمـا غايـته وفائدته : فتظهر فائدته مما قدمنا من تعريفه فهو – كما يقولون – يمنع الذهن من الخطأ والزلل في التفكير والبحث والاستدلال ، " فمن تمكن من هذا الفن صار النظري من المعاني المستورة ضرورياً مكشوفاً واضحاً له "[٨]

فهذا مختصر موجز جداً عن المنطق وتعريفه و مضمونه .

المطلب الثاني : السيوطي يهدم المنطق ويحرمه

لما ادعى السيوطي أنه مجتهد الأمة الإسلامية في وقته[٩] ، لم يُسلَّم له ذلك بسبب حدة أخلاقه ، واعتداده بنفسه في بعـض الأحيـان ، وكـان مما رموه به أنه لا يعرف فن المنطق ولا يتقنه ، ولهذا فلا ينبغي له – في زعمهم – أن يرفع عقيرته بوصوله إلى مرتبة الإجتهاد ، وذلك لأنهم يرون أن من شروط الإجتهاد اتقان فن المنطق .

---

(١) انظر : أبو عبدالله محمد بن أحمد بن يوسف الخوارزمي : مفاتيح العلوم (ص/٨٦) دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان ، بدون تاريخ ولا طبعة .
(٢) انظر : ابن تيمية : الرد على المنطقيين (ص/٤) .
(٣) يعني : التعريف ، كما في قولهم : حد الإنسان أنه حيوان ناطق ، انظر : الجرجاني : التعريفات (ص/٣٨،٨٣) – دار الكتب العلمية ط١٤٠٣/١هـ – ١٩٨٣م .
(٤) ابن تيمية : الرد على المنطقيين (ص/٤) .
(٥) نفس السابق (ص/٥) .
(٦) الشيخ أحمد الدمنهوري : إيضاح المبهم في معاني السلم (ص/٦) .
(٧) ابن تيمية : الرد على المنطقيين (ص/٦) .
(٨) الدمنهوري ، إيضاح المبهم (ص/٤) .
(٩) انظـر : صون المنطق والكلام (ص١) ، التنبئة بمن يبعثه الله على رأس كل مئة (ص١٦،٧٥) ، حسن المحاضرة (١٩٠/١) ، تعريف الفئة بأجوبة الأسـئلة المائـة (٥٠٩/٢) ضـمن الحاوي للفتاوي ، الرد على من أخلد إلى الأرض وجهل أن الاجتهاد في كل عصر فرض (ص٢) ، الكشف عن مجاوزة هذه الأمة الألف ، رسالة ضمن الحاوي (١٦٧/٢) ، وانظر كذلك : السخاوي : الضوء اللامع (٦٩/٤) .

تحـدث السيوطي بذلك صراحة فقال : " ... فلما كان في هذا العام ، وتحدثت بما أنعم الله به عليَّ من الوصول إلى رتبة الإجتهاد ، ذكر ذاكر أن من شروط الإجتهاد معرفة فن المنطق[١] ، يعني وقد فقد هذا الشرط عندي بزعمه ، وما شعر المسكين أني أحسنه أكثر ممن يدعيه ويناضل عليه ، وأعرف أصول قواعده وما بنيت عليه ، وما يتولد منها ، معرفةً ما وصل إليها شيوخ المناطقة الآن ، إلا شيخنا محيي الدين الكافيجي[٢] ... "[٣] .

ولا يكـتفي السيوطي فقط بإبراز مكانته ، وعلو همته في اتقان ذلك الفن ، بل يكر بالهجوم على مناوئيه فيصفهم هـم بعدم اتقانه ، وبخلو أبحاثهم من استعماله والاستدلال به فيقول : " ... ثم إن كثيراً من المحبطين ، الذين هم عن تحقيق العلم بمعزل ، لهجوا بأن يقولوا : ما الدليل على تحريمه ؟ وما مستند ابن الصلاح في إفتائه بذلك ؟

ونحو ذلك من العبارات ، والعجب أنهم يناضلون عن المنطق ولا يتقنونه ، ويدأبون فيه وفي أبحاثهم لا يستعملونه ، فيخبطون فيه خبط عشواء ، ولا يهتدون عند المناظرة والاستدلال إلا إلى عمياء "[٤] .

فهـو إذن لم يكن يجهل هذا العلم ، ولم يترك الاشتغال به لعدم إدراكه ومعرفته بموضوعه وقضاياه ، وإنما تركه ترك الخبير بحرمته ، وعدل عنه عدول العالم بقلة فائدته وعدم جدواه ، وتيقنه بأنه علم دخيل على لسان الشرع الحنيف ، فهـو يعـبر عـن لسان يوناني ومنطق ارسطاطاليس ، الذي هو في حيز ، ولسان العرب في حيز ، ومن عدل عن لسان الشرع إلى لسان غيره وخرج ، فقد ضل وجهل ولم يصب القصد[٥] .

ولذلك فإن كثيراً من أهل المنطق إذا تكلم في مسالة فقهية ، وأراد تخريجها على قواعد علمه (يعني علم المنطق) أخطأ ، ولم يصب ما قاله الفقهاء ، ولا سار على قواعدهم ، من أجل ذلك فقد اتهم شيخه الكافيجي – مع تعظيمه له – بأن فتاواه الفقهية كانت غير جارية على قوانين الفقه ، وما ذاك إلا لأنه كان يخرجها على قواعد الاستدلال المنطقي أما شريعة الإسلام فلها قواعد أخرى ، لا يخرج الفقه إلا عليها فمن تركها وخرج على غيرها لم يدرك غرض الفقه[٦] .

وهناك يقول : " والشيخ – رحمه الله –[٧] استاذي ونعله تاج رأسي ولكن هذا هو الحق الذي لابد منه ، وقد أراد مني مرات أن أوافقه في فتاوى تتعلق بالأوقاف ، ولم أوافقه على شئ منها"[٨] .

فهذه وقفة حق من السيوطي تجاه شيخه واستاذه ، وتجاه المنطق بصفة عامة ، فقد اعتبره من البدع المضلة ، وأن من دأب على الاشتغال به فهو مبتدع ، ترد روايته للحديث ولا يقبل منه شأنه شأن سائر المبتدعة من الجهمية والرافضة* وغيرها[٩] .

---

(١) صورة المنطق (ص١) .

(٢) مضت ترجمته في فصل شيوخه .

(٣) صون المنطق (ص١) .

(٤) صون المنطق (ص٢) .

(٥) نفسه (١٥،١٦) .

(٦) نفسه (ص/١٦) .

(٧) يقصد شيخه محيي الدين الكافيجي .

(٨) صون المنطق (ص/١٦) .

(٩) انظر : تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي (٣٢٧/١) ت: عبدالوهاب عبداللطيف ط١٣٩٩/٢هـ – ١٩٧٩م – دار الكتب العلمية – بيروت .

ومن هذا المنطلق وضع السيوطي كتاباً في تحريم الاشتغال بفن المنطق منذ عام (٨٦٨هـ)[١] ثمان وستين وثمانمائة ، سماه : " القول المشرق في تحريم الاشتغال بالمنطق "[٢] ذكره في ترجمته لنفسه – في كتابه " حسن المحاضرة "[٣] .

وكذلك يؤكد السيوطي أن أول من وضع فن المنطق هو أرسطاطاليس[٤] – كما سبق لنا بيان ذلك عند التعريف بالمنطق[٥] – الذي قرر أن في كل نوع حصة من جنسه ، وأن الإنسان يشاركه الكلب وغيره من الحيوانات في الحيوانية[٦]

وباستقرائي كلام السيوطي وجدت أن نقده المنطق قام على عدة – نقاط كانت هي الأسباب الرئيسية في تحريمه للمنطق وتحريمه الاشتغال به وهي :

أولاً : أنه علم مبتدع لم يتكلم به الصحابة – رضي الله عنهم – ولا اشتغل أحدهم به ، بل لم يكونوا يعرفونه ، وهم القدوة بعد رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فقد كانوا أعمق الناس علماً ، وأقلهم تكلفاً ، وأبرهم قلوباً وما لم يكن عندهم ديناً فهو ليس اليوم بدين ولا علم . وقد قال النبي – صلى الله عليه وسلم – : " من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد "[٧] وفي رواية : " من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد "[٨] .

ثانياً : أنه نشأ في أحضان الفلسفة ، وتولد منها وهي أساس الكفر والإلحاد .

ثالثاً : أن بعضه مبني على القول بالهيولي[٩] الذي هو كفر يجر إلى الإلحاد والزندقة[١٠] .

رابعاً : أنه لا فائدة فيه ، وليس له ثمرة دينية أصلاً بل ولا دنيوية[١١] .

قال ابن تيمية : " كنتُ أعلم دائماً أن المنطق اليوناني لايحتاج إليه الذكي ، ولا ينتفع به البليد "[١٢] وقال يصفه بأنه " لحم جمل غثٍ على رأس جبل وعر لا سهلَ فيرتقى ، ولا سمينَ فيُنتَقل "[١٣] .

---

* ذكر السيوطي قبل هذا أهل البدع ممن لا تقبل روايتهم ، كالمجسمة ومنكر علم الجزئيات ، والقائل بخلق القرآن ، والرافضة ، والمرجئة ، انظر : تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي (٣٢٧/١) ت عبدالوهاب عبداللطيف .

(١) انظر : السيوطي : صون المنطق (ص/١) .

(٢) هو ليس كتاباً بالمعنى المعروف ولكنها فتوى في حوالي صفحتين ونصف وهي مرقومة في الحاوي (ط/٢٥٥) .

(٣) انظر : حسن المحاضرة (٣٣٥/١) .

(٤) انظر : صون المنطق (ص/٤) .

(٥) انظر بحثنا السابق في التعريف بالمنطق .

(٦) هذا كلام أرسطو ولذلك دأب المناطق على تعريف الإنسان بأنه : " حيوان ناطق " .

(٧) رواه البخاري في " صحيحه " كتاب الصلح (٥٣) باب (٥) ح رقم (٢٦٩٧) ، انظر فتح الباري (٣٠١/٥) . ورواه مسلم في " صحيحه " (١٣٤٣/٣) كتاب الاقضية (٣٠) باب (٨) ح رقم (١٧-(١٧١٨)) ، وأبو داود (٤٦٠٦) ، وابن ماجه (١٤) وابن حيان وصححه (٢٦،٢٧).

(٨) مسلم في " صحيحه " (١٣٤٤/٣) كتاب الأقضية (٣٠) باب (٨) ح رقم (١٨-(٠٠٠)) .

(٩) الهيولي : لفظ يوناني بمعنى الأصل والمادة ، وفي الإصطلاح هي جوهر في الجسم قابل لما يعرض لذلك الجسم من الاتصال والانفصال ، محل للصورتين الجسمية والنوعية . التعريفات للجرجاني (ص ٢٥٧) .

(١٠) انظر السيوطي : القول المشرق ضمن الحاوي (٢٥٥/١) .

(١١) نفسه السابق .

(١٢) ابن تيمية : الرد على المنطقيين (ص/٣) .

(١٣) ابن تيمية : نقض المنطق (ص/١٥٥) – ت : محمد حامد الفقي ، وهو مثل يضرب للشئ الذي يغرك ظاهره فإذا دنوت منه وبحثته لم تجد ما فيه يكافئ تعب السعي إليه ، وهو جزء من حديث أم زرع رواه البخاري كتاب النكاح باب (٨٢) انظر الفتح (٢٥٤/٩) .

خامساً : أنـه لم يكن أحد من نظار المسلمين – قبل الغزالي – يلتفت إلى طريق المنطقيين ، بل الأشعرية ، والمعتزلة ، والكرامية ، والشيعة وسائر الطوائف كانوا يعيبونها يثبتون فسادها[١] .

سادساً : أنه لم يزل علماء المسلمين من أهل السنة وأئمة الدين يذمون المنطق ، ويذمون أهله وينهون عنه وعن أهله[٢] .

قـال ابن تيمية : " ... حتى رأيت للمتأخرين فتياً فيها خطوط جماعة من أعيان زمانهم من أئمة الشافعية والحنفية وغيـرهم فيها كلام عظيم في تحريمه وعقوبة أهله ، حتى إن من الحكايات المشهورة التي بلغتنا : أن الشيخ أبا عمرو ابن الصلاح أمر بانتزاع مدرسة معروفة من أبي الحسن الآمدي ، وقال أخذها منه أفضل من أخذ عكا ، مع أن الآمدي لم يكن أحد في وقته أكثر تبحراً في العلوم الكلامية والفلسفية منه ، وكان من أحسنهم إسلاماً ، وأمثلهم اعتقاداً "[٣] .

سـابعاً : أن المنطق عندما حدث في أواخر القرن الثاني كان الإمام الشافعي حَيّاً إذ ذاك ، فتكلم فيه حيث قال : " ما جهل الناس ولا اختلفوا إلا لتركهم لسان العرب وميلهم إلى لسان ارسطاطاليس "[٤] .

واسـتنتج السـيوطي من كلام إمامه الشافعي : أن من أراد تخريج القرآن والسنة والشريعة على مقتضى قواعد المـنطق لم يصب غرض الشارع ألبتة ، فإن كان في الفروع نُسب إلى الخطأ ، وإن كان في الأصول نُسب إلى البدعة ، وهذا أعظم دليل على تحريم المنطق لأنه كان سبب الإحداث والإبداع ومخالفة السنة ومخالفة غرض الشارع[٥] .

ويقـل السـيوطي عن جمع كبير من علماء المذاهب الأربعة أنهم ذموا المنطق والمناطقة، وذكر أنهم نصوا على تحـريمه وعـدم منفعته، وقرر أن أول من نص على ذلك الإمام الشافعي[٦] وتبعه في ذلك من أصحابه إمام الحرمين أبو المعـالي الجويني[٧]، والغزالي في آخر أمره[٨] وابن عساكر[٩] ، والشيخ أبو عمرو بن الصلاح[١٠] ، وابن عبدالسلام[١] ، والإمام النووي[٢] ، وابن دقيق العيد[٣] ، والذهبي[٤] وغيرهم .

---

(١) انظر السيوطي : صون المنطق (٤-٦) .

(٢) انظر : ابن تيمية : نقض المنطق (١٥٦) .

(٣) نقض المنطق (ص١٥٦) .

(٤) السيوطي : صون المنطق (١٤) .

(٥) نفسه .

(٦) هو : محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع الهاشمي القرشي المطلي ، إمام الشافعية وإليه نسبتهم ، ولد بغزة (فلسطين) عام (١٥٠هـ – ٧٦٧م) وحمل إلى مكة وهو ابن سنتين ، وزار بغداد مرتين ، وقصد مصر عام ١٩٩هـ فتوفي بها عام (٢٠٤هـ – ٨٢٠ م) – الأعلام (٢٦/٦) تذكرة الحفاظ (٣٢٩/١)، تهذيب التهذيب (٢٥/٩)، صفة الصفوة (١٤٠/٢) .

(٧) هـو عبدالملك بن عبدالله بن يوسف بن محمد الجويني ، أبو المعالي ، ركن الدين ، الملقب بإمام الحرمين ، ولد في جوين من نواحي نيسابور عام (٤١٩هـ – ١٠٢٨م) – انظـر : وفيـات الأعيـان (٢٨٧/١) السـبكي (٢٤٩/٣) تـبين كـذب المفـترى (٢٧٨) – والأعـلام (١٦٠/٤) .

(٨) انظر : السيوطي : الحاوي للفتاوي (٢٥٥/١) رسالة القول المشرق في تحريم المنطق .

(٩) هـو : علـي بـن الحسن بن هبة الله أبو القاسم ، ثقة الدين ابن عساكر الدمشقي ، المؤرخ الحافظ الرحالة ، مولده في دمشق (٤٩٩هـ – ١١٠٥م) ووفاته بها (٥٧١هـ – ١١٧٦م) انظر : ابن خلكان (٣٣٥/١) ، مفتاح السعادة ، (٢١٦/١) ، البداية والنهاية (٢٩٤/١٢) ، طبقات الشافعية (٢٧٣/٤) ، الأعلام (٢٧٣/٤) .

(١٠) هو : عثمان بن عبدالرحمن بن عثمان بن موسى بن أبي النصر النصري الشهرزوري الكردي الشرخاني ، أبو عمرو ، تقي الدين ، المعروف بابن الصلاح ، ، ولد في شرخان (قرب شهرزور) عام (٥٧٧هـ– ١١٨١م) وتوفي بدمشق عام (٦٤٣هـ – ١٢٤٥م) انظر : وفيات الأعيان (٣١٢/١) ، طبقات الشافعية (١٣٧/٥) ، شذرات الذهب (٢٢١/٥) ، علماء بغداد/١٣٠ ، مفتاح السعادة (٣٩٧/١) ، والأعلام (٢٠٧/٤) .

ومــن أئمــة المالكية الذين نصوا على تحريم الاشتغال بالمنطق : ابن أبي زيد ، والقاضي أبو بكر بن العربي ، وأبو بكر الطرطوشي[٥] ، وأبو طالب المكي[٦] وابن المنير[٧] وغيرهم من عامة أهل المغرب .

ونص عليه من أئمة الحنفية :

أبــو سـعيد السـيرافي ، والسراج القزويني[٨] وألف في ذمه كتاباً سماه " نصيحة المسلم المشفق لمن ابتلى بحب علم المنطق "[٩] وغيرهم .

ونص على ذلك من أئمة الحنابلة :

أبــو الفــرج بن الجوزي[١٠] ، وسعد الدين الحارثي[١١] وتقي الدين ابن تيمية[١٢] ، وقد ألف في ذمه ونقض قواعده مجلداً كبيراً سماه : " نصيحة أهل الإيمان في الرد على منطق اليونان " اختصره السيوطي في نحو ثلثه[١] ، وهو المصنف الكبير ، العظيم الفائدة الجليل النفع الذي طُبع بعنوان " الرد على المنطقيين "[٢]

---

(١) هو : عبدالعزيز بن عبدالسلام بن ابي القاسم بن الحسن السلمي الدمشقي ، عز الدين الملقب بسلطان العلماء ، ولد ونشأ في دمشق (٥٧٧هـ- ١١٨١ م) ونشـأ بهـا ، توفـي بالقاهـرة عـام (٦٦٠هـ - ١٢٦٢م) ، انظـر : فـوات الوفيـات (٢٨٧/١) ، طـبقات السـبكي (١٠٧-٨٠/٥) ، الأعلام (٢١/٤) .

(٢) هو : الإمام يحيي بن شرف النووي ، محيي الدين أبو زكريا - مضت ترجمته في الفصل الثاني من الباب الأول .

(٣) هو : محمد بن علي بن وهب بن مطيع ، أبو الفتح ، تقي الدين القشيري ، المعروف كأبيه وجده وأخيه بابن دقيق العيد ، قاض ، من أكابر العلماء ، توفي بالقاهرة سنة (٧٠٢هـ-١٣٠٢م) " حسن المحاضرة " (٣٢٩/١) ، انظر : الدرر الكامنة (٩١/٤) ، مفتاح السعادة (٢١٩/٢) ، فوات الوفيات (٢٤٤/٢) ، خطط مبارك (١٣٥/١٤) ، والأعلام (٢٨٣/٦) .

(٤) هــو : محمــد بــن أحمــد بــن عــثمان بــن قايمــاز الذهــبي ، شــمس الديــن ، أبــو عــبدالله حــافظ مــؤرخ ، علامة محقق ، تركماني الأصل ، من أهل ميا فارقين مولده بدمشق (٦٧٣هـ - ١٢٧٤م) ووفاته بها ، انظر : فوات الوفيات (١٨٣/٢) ، وذيــل تذكــرة الحفاظ (٣٤و٣٤٧) ، وطبقات السبكي (٢١٦/٥) ، والشذرات (١٥٣/٦) ، والدرر الكافية (٣٣٦/٣) ، والنجوم الزاهرة (١٨٢/١٠)، والاعلام بالتوبيخ (٨٤) ، مفتاح السعادة (٢١٢/١) ثم (٢١٦/٢) ، والأعلام (٣٢٦/٥) .

(٥) هــو : محمــد بــن الوليــد بــن محمــد بــن خــلف القرشــي الفهــري الأندلســي ، أبــو بكــر ، الطرطوشــي ، أديب من فقهاء المالكية الحفاظ ، من أهل طرطوشة بشرق الأندلس ، توفى عام (٥٢٠هـ - ١١٢٦م) ، انظر : وفيات الأعيان (٤٧٩/١) ، الديباج (٢٧٦)، نفح الطيب (٣٦٨/١) ، ودائرة المعارف الإسلامية (٧٧/١) ، حسن المحاضرة (٢٥٦/١) . الأعلام (١٣٤/٧) .

(٦) هــو : محمــد بن علي بن عطية الحارثي ، أبو طالب ، واعظ زاهد ، فقيه من أهل الجبل بين واسط وبغداد ، توفي ببغداد عام (٣٨٦هـ-٩٩٦م) ، انظر : وفيات الأعيان (٤٩١/١) ، = ميزان الاعتدال (١٠٧/٣) ، تاريخ بغداد (٨٩/٣) ، لسان الميزان (٣٠٠/٥) . الأعلام (٢٧٤/٦) .

(٧) هــو : عــبدالواحد بــن منصــور بن محمد بن المنير ، أبو محمد ، فخر الدين الاسكندري ، المالكي ، مفسر له شعر ونظم في " كان وكان " وفاته بالاسكندرية عام (٧٣٣هـ - ١٣٣٣م) انظر : البداية والنهاية (١٦٣/١٤) ، الدرر الكامنة (٤٢٢/٢) ، الأعلام (١٧٧/٤) .

(٨) هو : عمر بن عبدالرحمن بن عمر البهبهائي ، الكناني ، القزويني ، الفارسي ، سراج الدين ، فاضل مات شاباً عن (٣٧) أو (٣٨) عاماً (سنة ٧٤٥ هـ-١٣٤٤م) ، انظر : ابن العماد : شذرات الذهب (١٤٣/٦) ، فهرس الكتب خانة (١٩٢/١) وخزائن الأوقاف (٣١) ، الأعلام (٤٩/٥) .

(٩) فــي كشف الظنون (١٩٥٨/٢) " نصحية المسلم المشفق لمن ابتلى بحب المنطق " للسراج القزويني " هو : عمر بن عبدالرحمن المتوفي (٧٤٥هـ) ذكره السيوطي في " القول المشرق ".

(١٠) هــو : عــبدالرحمن بن علي بن محمد الجوزي القرشي البغدادي ، أبو الفرج علامة عصره، وواعظ دهره ، مولده ببغداد (٥٠٨هـ-١١١٤م) ، ووفاتــه بها (٥٩٧هـ-١٢٠١م) انظر : وفيات الأعيان (٢٧٩/١) ، البداية والنهاية (٢٨/١٣) ، مفتاح السعادة (٢٠٧/١) ، ابن الوردي (١١٨/٢) ، دائرة المعارف الإسلامية (١٢٥/١) - الأعلام (٣١٧/٣) .

(١١) هو : مسعود بن أحمد بن مسعود بن زيد بن عباس الحارثي ، البغدادي ، ثم المصري ، فقيه حنبلي ، محدث حافظ ، قاضي القضاة ، سعد الدين ، أبو محمد ، وأبو عبدالرحمن ، ولد سنة (٦٥٢هـ) أو (٦٥٣هـ) ، وتوفي بالقاهرة سنة (٧١١هـ) ، انظر : ذيل طبقات الحنابلة (٣٦٢/٤) ، الدرر الكامنة (٣٤٧/٤) ، حسن المحاضرة (٢٠٢/١) ، شذرات الذهب (٢٨/٦) .

(١٢) مضت ترجمته في الفصل الأول .

وله مؤلف ثالث من درره العظيمة سماه " نقض المنطق " . وغير هؤلاء كثير ممن لم نذكرهم اقتصاراً على مشاهيرهم .

لقـد نقل السيوطي عن كم كبير من الأئمة والعلماء ذمهم المنطق و أهله ليدلل على صحة رأيه الذي ذهب إليه ، وليـبين للمبهورين بالمنطق أنه ليس بدعاً في انكار ذلك العلم والازراء بأهله بل سبق من الفحول المعتد بكلامهم والمعتبر بآرائهم ما يبين معه الحق ويتضح الصدق في رد هذا العلم الذي لا يحتاج إليه المسلمون لا عالمهم ولا متعلمهم .

وهكـذا حارب السيوطي المنطق محاربة عنيفة في كل اتجاه يمكنه أن يوجه إليه سهام النقد . وإن كتابه " صون المنطق والكلام عن فني المنطق والكلام " ليعد موسوعة هامة في موضوع نقد المنطق اليوناني[٣]، يبحث فيه موقف علماء المسـلمين مـن عـلم الكلام وعلم المنطق ، وهو قد جمع بين هذين الفنيين – علم الكلام والمنطق – نظراً لما بينهما من التلازم[٤] . وهذا الكتاب يتميز بميزات ثلاث :

أولها : أنه تناول الموضوع بتسلسل تاريخي ، فتكلم أولاً عن ابتداء وضع المنطق ثم ابتداء دخوله في ملة الإسلام ، وابتداء تأثر الأصول به ، ثم ابتداء فشوه في المتأخرين ، ثم أخذ يبسط أقوال علماء الإسلام في نقد المنطق وتحريمه مراعياً في ذلك كله الترتيب التاريخي ولا غرو في ذلك فالسيوطي يعد من كبار المؤرخين ولذلك قال :

" ذكـر مـن صـرح بذم المنطق أو تحريمه من أئمة الإسلام : لاشك أن المجتهد يحرم عليه إحداث قول لم يقل به أحد ، واخـتراع رأي لـم يسـبق إليـه ، ولهذا كان من شروط الإجتهاد ، معرفة أقوال العلماء من الصحابة فمن بعدهم إجماعاً وإختلافاً لئلا يخرق الإجماع فيما يختاره موجب في ذكر أقوال العلماء هذه المسألة قبل إقامة الدليل لكون الكتاب مؤلفاً على طريقة الإجتهاد "[٥] ثم يبدأ السيوطي في سرد أقوال علماء المسلمين في ذم المنطق ، ونقده مبدئاً بالشافعي ومنتهياً بابن تيمية[٦] .

<u>ثانيها :</u> أنه قام في هذا الكتاب بتلخيص بعض الكتب المفقودة من خلال عرض لآراء العلماء وأقوالهم في تحريم المنطق ، بعـض هـذه الكـتب مفقود والبعض الآخر ليس في متناول أيدينا الآن[٧] . وقد أفاد السيوطي بعلمه هذا الدراسة التاريخية الفلسـفية افادة كبيرة ، ومن أهم الكتب الذي لخصها كتاب ابن تيمية المسمى : " نصيحة أهل الإيمان في الرد على منطق اليونـان " وقـد سـبق أن قلت بأن هذا الكتاب هو المطبوع باسم " الرد على المنطقيين " والسيوطي سمى تلخيصه " جهد القريحة في تجريد النصيحة "[٨] وقد قام السيوطي فعلاً بتلخيصه تلخيصاً متقناً مفهوماً ، ثم قال في آخره : " وهذا آخر ما لخصـته من كتاب ابن تيمية ، وقد أوردت عبارته بلفظة من غير تصرف في الغالب ، وحذفت من كتابه الكثير ، فإنه في عشرين كراسة ، ولم أحذف من المهم شيئاً ، إنما حذفت مالا تعلق له بالمقصود مما ذكر استطراداً أو رداً على مسائل من

---

(١) انظر : صون المنطق (ص/١) ، (ص/٢٠١) ، والحاوي (٢٥٦/١) .

(٢) مطبوع بواسطة إدارة ترجمان السنة – لاهور – باكستان والذي عندي هو الطبعة الرابعة .

(٣) انظر : د/ علي سامي النشار : مناهج البحث عند مفكري الإسلام (ص٢٢٤) .

(٤) انظر : السيوطي : صون المنطق والكلام (ص/٣،٤..) .

(٥) السيوطي : صون المنطق (ص/١٤) .

(٦) انظر : د/ النشار ، مناهج البحث عند مفكري الإسلام (ص/٢٢٤) .

(٧) انظر : د/ علي سامي النشار : مناهج البحث (ص/٢٢٢٤) .

(٨) انظر : صون المنطق (ص/٢) .

الإلهيـات أو نحوهـا ، أو مكرراً أو نقصاً لعبارات بعض المناطقة ، وليس راجعاً لقاعدة كلية في الفن أو نحو ذلك ، فإذا طالع كل واحد كتابي هذا المختصر ، استفاد من المقصود بسهولة أكثر مما يدركه من الأصل فإنه وعر صعب المآخذ "[١]

ثالثها : أنه اقتصر فقط على الراي الصحيح من أقوال أهل العلم ، وهو الرأي الذي اتفق عليه أهل السنة والجماعة ، وأهل الحديث وهو تحريم المنطق وتحريم الاشتغال به ، وذمه وذم أهله ، ولم يلتفت اطلاقاً لتهويل المؤيدين للمنطق والموجبين له كالغـزالي وغيـره ، بل يؤيد ما قرره ابن تيمية من أن سائر طوائف المسلمين تذمه وتحذر منه[٢] ولم يتعرض السيوطي مطـلقاً في هذا المصنف لرأي المناطقة أو ايراد شئ من حججهم في الدفاع عن المنطق أو الدعوة إليه ، أو بيان أهميته . فهو لا يرى له أهمية تذكر ، بل يرى أنه علم سيىء محرم على المسلمين تعلمه والاشتغال به .

ورأيــي في هذا أن السيوطي – رحمه الله – قد أحسن في هذا المصنف كل الإحسان ، وابدع أيما إبداع في بيان الـرأي الحـق الذي لم يخلطه بغيره من الآراء والمذاهب ، وهو سائر بذلك على نهج الشافعي وابن الصلاح وابن تيمية – رحمهم الله – وكفى بهم حجة في بيان الحق واتِّبَاعِه ، وذم الباطل وأَتْبَاعِه .

المبحث الثاني : موقف السيوطي من علم الكلام

المطلب الأول : نشأة علم الكلام

بعـث الله – تعالى – نبيه محمداً – صلى الله عليه وسلم – إلى الثقلين كافة ، فختم به النبوة ، وأكمل به الدين ، وأتم به النعمة ، ووضع عن أمته الآصار والأغلال ، فلم يترك رسول الله – صلى الله عليه وسلم – خيراً إلا دل أمته عليه ، ولـم يـترك شراً إلا حذرها منه ، وإنه لم ينتقل إلى جوار ربه حتى بلغ جميع ما أنزل إليه من ربه ، فترك أتباعه على المحجة البيضاء ، ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك .

وبعد أن انتقل – صلى الله عليه وسلم – إلى الرفيق الأعلى بدأت تطل الفتن والمحن برأسها على أمته[٣] .

قال البخاري : " وقعت الفتنة الأولى – يعني مقتل عثمان – فلم تُبق من أصحاب بدر أحداً ، ثم وقعت الفتنة الثانية – يعني الحرة – فلم تُبق من أصحاب الحديبية أحداً ، ثم وقعت الفتنة الثالثة ، فلم ترتفع ، وللناس طَبَاخ "[٤] يعني عقل وقوة[٥] .

" فـالخوارج والشيعة حدثوا في الفتنة الأولى ، والقدرية والمرجئة في الفتنة الثانية ، والجهمية ونحوهم بعد الفتنة الثالثة ، فصار هؤلاء الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً ، يقابلون البدعة بالبدعة "[٦]

---

(١) صون المنطق (ص٣٤٣) .

(٢) انظر : الرد على المنطقيين (ص/٣٣٧) .

(٣) انظـر الشهرستاني : الملل والنحل (١/٢٣-٣٢) ، د/ محمد البهي : الجانب الإلهي من التفكير الإسلامي (ص/٣٠-٣٥) ط٦/١٤٠٢هـ – ١٩٨٢م مكتبة وهبة – القاهرة .

(٤) رواه الـبخاري فـي صـحيحه من قول سعيد بن المسيب – رحمه الله – كتاب المغازي (٦٤) باب (١٢) حديث (٤٠٢٤) انظر فتح الباري بصرح صحيح البخاري (٧/٣٢٣) . ط المكتبة السلفية .

(٥) قـال ابـن حجر : " طَبَاخ بفتح المهملة والموحدة الخفيفة ، وآخره معجمة أي : قوة ، قال الخليل : أصل الطباخ السِمَن والقوة و يستعمل في العقل والخيرة ، قال حسان – رضي الله عنه – : المال يغشى رجالاً لا طباخ لهم كالسيل يغشى أصول الدندن البالي
" والدندن ما أسود من النبات " ا . هـ – الفتح (٧/٣٢٥) .

(٦) ابن أبي العز : شرح العقيدة الطحاوية (ص/٥٩٣) . ت: محمد ناصر الدين الألباني ط٦/١٤٠٠هـ .

ومن شأن هذه الفتن أن تحل على المسلمين بصدمات شديدة عنيفة ، ثم لا تنقشع حتى تخلف وراءها اختلافاً بيناً واسعاً بين الناس ، ثم يشتد الخلاف ويتسع أكثر حتى يصبح كل رأي مذهباً يبحث له أصحابه عن تأصيل علمي بين الأدلة الشرعية أو العقلية .

غير أن الفتن التي نزلت بالمسلمين عند بدء شروق الإسلام وظهور نوره ، مرت وانتهت دون أن تفرق لهم كلمة ، أو تزعزع لهم دولة ، فقد تركهم الرسول – صلى الله عليه وسلم – جميعاً على منهاج واحد في أصول الدين وفروعه ، غير من أظهروا وفاقاً ، وأضمروا نفاقاً[١] .

١- بيد أن مسألة الخلافة كانت هي الشرارة الأولى التي اندلعت منها نار الخلاف القوي ، فكانت العامل الأول في نشأة الجدل والكلام[٢] .

حيث أدى ذلك الخلاف إلى التقاطع والتدابر بين الأخوة ، وتبادل الاتهام بينهم بالزيغ والضلال والانحراف[٣] .

كان للخلافة شأنها الكبير في قيام الفرق ، وفي ظهور الجدل والاختلاف ، وهو من أكبر – إن لم يكن أكبر – مظاهر الخلاف التي حدثت منذ وفاة النبي – صلى الله عليه وسلم – حتى عدها أبو الحسن الأشعري أول ما حدث من الاختلاف بين المسلمين[٤] .

" ثم لم يلبث تمادي الخلاف بينهم ، أن انتقل من الأشخاص إلى التبريرات الدينية نفسها التي كانت تساق لتأييد هؤلاء الأشخاص أو معارضتهم ، فصار يقال : ما هي الكبيرة ؟ بعد أن كان يقال : فلان لا تصح خلافته لأنه ارتكب الكبيرة[٥] ، ومن النظر في تحديد الكبيرة ، انتقلوا إلى النظر في جزائها ، فهل يخلد صاحبها في النار أو لايخلد ؟ وتفرعت الأقوال لديهم في الإجابة عن هذا السؤال ، وتشققت المذاهب .

ومن النظر في تحديد الكبيرة وجزائها ، انتقلوا إلى النظر في ظروف مرتكبيها وهل يرتكبها مرتكبها وهو حر مختار ؟ أو يرتكبها مرتكبها مجبراً غير مختار ؟ "[٦] وعلى هذا المنوال تمادى الناس ، فالبحث يجر إلى البحث ، والمسألة تثير المسألة ، واتسعت الهوة ، وتفاقم الأمر ، وذلك بسبب توارد جملة من العوامل ، بجانب الخلاف السياسي والتي دفعتهم إلى السير فيها دفعاً[٧] .

---

(١) انظر : عبدالقاهر البغدادي : الفرق بين الفرق (ص/١٤) ت محمد يحي الدين عبدالحميد دار المعرفة – بيروت لبنان بدون تاريخ ولا طبعة .

(٢) انظر : د/ أبو الوفا التفتازاني : علم الكلام وبعض مشكلاته (ص/١٦-١٩) وانظر كذلك : يحي هاشم فرغل : عوامل وأهداف نشأة علم الكلام (ص/ ١٢٦) ، الشيخ محمد أبو زهرة : تاريخ المذاهب الاسلامية في السياسة وتاريخ المذاهب الفقهية (ص/١٣) – دار الفكر العربية بدون طبعة ولا تاريخ

(٣) انظر : أبو الحسن علي بن اسماعيل الاشعري : مقالات الاسلاميين واختلاف المصلين ، عنى بتصحيحه هلموت ريتر (ص/١) ط٣ النشرات الاسلامية .

(٤) انظر : نفس المصدر والصفحة ، وانظر : مصطفى عبدالرزاق تمهيد لتاريخ الفلسفة الاسلامية (ص/٢٨٤) ط٣ بدون تاريخ .

(٥) قال الجرجاني : " هي كل ما كان حراماً محضاً ، وشرع عليها عقوبة محضة بنص قاطع في الدنيا والآخرة " التعريفات (ص١٨٣) ، وروى ابن كثير عن ابن عباس = – رضي الله عنهما – قال : " الكبائر كل ذنب ختمه الله بنار أو غضب أو لعنة أو عذاب " تفسير القرآن العظيم (٢//٢٤٧) ورواه ابن جرير وقال ابن كثير في تفسيره أيضاً (٢/٢٤٨) " وقد اختلف علماء الأصول والفروع في حد الكبيرة ، فمن قائل : هي ما عليه حد في الشرع ، ومنهم من قال : هي ما عليه وعيد لخصوصه... الكتاب والسنة ، وقيل غير ذلك " .

(٦) د. سليمان دنيا : التفكير الفلسفي الإسلامي (ص٣٢٦،٣٢٥) ط١/ ١٣٨٧هـ-١٩٦٧م . مكتبة الخانجي – مصر .

(٧) انظر تفصيلاً اكثر في ذلك : يحي هاشم فرغل : عوامل وأهداف نشأة علم الكلام في الإسلام (ص١١٨-١٣٤) .

ومن هذه العوامل المساعدة على نشأة الكلام والجدل أيضاً .

٢- كـثرة فتوح المسلمين ، ودخولهم البلاد المفتوحة ، كأرض فارس والهند وغيرها[١] ، وكانت ديانات هذه البلاد ديانات وثـنية ، وعقائدهـا شـركية ، وكـانت بـلاد فـارس - مـثلاً - تعتـنق المجوسـية[٢] ، والزردشـنية[٣] ، والثنوية[٤] ، ولقد كان للمجوسية قدم في أرض العرب في قريش وفي تميم وفي أرض الـبحرين وقد أخذ الرسول - صلى الله عليه وسلم - الجزية من مجوس البحرين عام ٨هـ[٥] ، وكانت الزرادشتية ديانة الفرس العامة في عهد الأسرة الساسانية إلى الفتح الإسلامي[٦] ، وكان بجانبها المزدكية والمانوية[٧] .

فـلما دخل الإسلام أرض فارس ، عاملهم المسلمون بأخذ الجزية اقتداءً بسنة النبي - صلى الله عليه وسلم - في ماملـتهم كأهل الكتاب وذلك طوال عصر الخلفاء الراشدين ثم الأمويين وكان من الطبيعي أن يتركوا على حالهم يمارسون طقوسهم المجوسية ، ويحتفظون ببيوت النار ، وبكتبهم التي يعتبرونها مقدسة وبرجال الدين فيهم[٨] .

فساعد هذا التسامح على بقاء مذاهبهم وعقائدهم الباطلة حتى ظلت كرمان ، على مجوسيتها طوال خلافة بني أمية ، ولم تدخل الإسلام إلا في عهد الخلافة العباسية ، واستقرت بيوت النار في كل ولاية من ولايات فارس تقريباً في القرون الأولى الـثلاثة بعد الفتح[٩] . وكذلك استمرت الديصانية[١٠] والمانوية[١١] ، والمزدكية[١] فكان بعض من دخل الإسلام ممن

---

(١) انظر : المصدر السابق (ص١٤٧-٢٥٥) ، وانظر كذلك : الشيخ محمد أبو زهرة : تاريخ المذاهب الإسلامية في السياسة والعقائد (ص١٣) .

(٢) المجوسية : اسم يجمع الديانات الفارسية المختلفة وأصلها عبادة النار ، قال الشهرستاني : يقال لها الدين الأكبر والملة العظمى... اثبتوا أصلين اثنين مدبرين قديمين يقتسمان الخير والشر ، والنفع والضر ، والصلاح والفساد ، يسمون أحدهما النور ، والآخر الظلمة ، وبالفارسية : يزدان ، وأهرمن ، ولهم بعد ذلك تفصيلات تبعاً لكل ديانة منها ، الملل والنحل (٢٣١،٢٣٣) .

(٣) الزردشتية : ديانة فارسية قديمة من ديانات المجوس عبدة النار ، وكان " زردشت " المنسوبة إليه اعتنق عبادة النار ، ولد زردشت في اذربيجان ، ثم انـتقل إلى فلسـطين واسـتمع إلى بعـض أنبياء بني اسرائيل ثم رجع إلى اذربيجان وارتد مرة أخرى إلى الأديان الفارسية ويدعى اتباعه له النبوة والرسـالة ، وينسـبون إليه بعض الخوارق ، وهم يقولون أيضاً بأصلي النور والظلمة وأنهما يتقاومان ويتغالبان إلى أن يغلب النور الظلمة ، انظر تفصيل ذلك عند الشهرستاني " الملل والنحل (٢٣٧-٢٤٥) .

(٤) أصـحاب الاثنين الأزليين ، يزعمون أن النور والظلمة أزليان قديمان ، يتساويان في القدم ، ويختلفان في الجوهر والطبع والفعل والحيز والمكان والأجناس والابدان والأرواح ، الشهرستاني : الملل والنحل (ص٢٤٥) .

(٥) انظر : البلاذري : فتوح البلدان (ص/٨٥،٢٦٦) .

(٦) انظر : أحمد أمين : فجر الإسلام (ص/٩٣) .

(٧) انظـر : د/ عـلي سامي النشار ، نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام (١٨٦،١٨٩/١) . ويحيي هاشم حسن فرغل : عوامل وأهداف نشأة علم الكلام في الإسلام (ص/١٨٣) - ط مجمع البحوث الإسلامية ١٣٩٢هـ-١٩٧٢م .

(٨) انظر : يحيي هاشم فرغل : عوامل وأهداف نشأة علم الكلام في الإسلام (ص١٨٣) ط مجمع البحوث الإسلامية ١٣٩٢هـ-١٩٧٢م

(٩) انظر : نفس المرجع .

(١٠) نسـبة إلى " ديصان " أو " ابن ديصان " أثبتوا أصلين : نوراً وظلاماً ، فالنور يفعل الخير قصداً ، والظلام يفعل الشر طبعاً واضطراراً ، فما كان من خير ونفع ، وطيب ، وحسن ، فمـن الـنور ، ومـا كان من شر ، وضرر ، وفتن ، وقبح فمن الظلام ، ورعموا أن النور : حي ، عالم ، قادر ، حساس ، دراك ، ومنه تكون الحركة والحياة ، والظلام : ميت ، جاهل ، عاجز ، جماد ، موات ، لا فعل له ولا تمييز ، وزعموا أن الشر يقع منه طباعاً وخرقاً ، (انظر الشهرستاني : الملل والنحل (٢٥١)) .

(١١) نسـبة إلى " ماني بن فاتك " ، ولد بجنوبي بابل نحو (٢١٦م) وربما كان فارسي الأصل ، ادعى النبوة في الرابعة والعشرين من عمره ، والمانوية فـرقة غنوصـية ، كـانت أخطر البدع التي تعرضت لها النصرانية ، واعتنقها كثير من النصارى وكان من يلقبونه القديس أو غسطين نفسه مانوياً لـبعض الوقـت ، أهم أركانها قولها بالثنائية ، بمعنى أن العالم مصنوع مركب من أصلين قديمين : أحدهما النور ، والآخر ظلمة ، وأنهما أزليان لم يـزالا ، ولن يزالا ، ثم اصبحت المانوية فلسفة ممزوجة من النصرانية واليهودية ، والبوذية ، والزردشتية وكانت تقول بالمعمودية والقربان ، وتأخذ من كل الأديان وتحرم اللحوم ، انظر : الشهرستاني : الملل والنحل (٢٤٥-٢٥٠) ، د. عبدالمنعم حفني : الموسوعة الفلسفية (ص٤١٧) .

كـــان يدين بهذه الوثنيات باقياً على شئ من اعتقاداته السابقة ، بل لم يكن بعضهم مخلصين للإسلام وإن أظهروه ، فكيف الحال بمن لم يدخلوا فيه – أصلاً – ، وظلوا معلنين لدياناتهم .

لقــد أخذ هؤلاء وأولئك يجادلون في الإسلام ويحاورون ، بل أخذوا يهاجمون ويعارضون(٢) ، وشجعهم على ذلك مـــا ذكــرناه مـــن التسامح البعيد المدى مع هؤلاء ، ولقد انبرى لهم بعض العلماء للرد عليهم والدفاع عن الإسلام وعقيدته وتشــريعاته ، ومـــن هنا كانت هذه الفتوحات وبقاء أصحاب الديانات المنسوخة بل الموضوعة ، على دياناتهم وعقائدهم ، عاملاً قوياً من عوامل نشأة علم الكلام(٣) .

٣- كمـــا كـــان بجـــانب ذلك رغبة بعض الولاة(٤)في تعريب بعض الكتب اليونانية وغيرها وقد ذكرنا ذلك في بحث نشأة المنطق ، ولقد اتفق العقلاء على أن هذا التعريب أو الترجمة قد تسبب في إحداث مفاسد كبيرة(٥) في أمة الإسلام .

قـــال الصلاح الصفدي(٦) : " حكى أن المأمون لما هادن بعض ملوك النصارى – أظنه صاحب جزيرة قبرص – كـــتب يطلب منه خزانة كتب اليونان ، وكانت عندهم مجموعة في بيت لا يظهر عليه أحد ، فجمع الملك خواصه من ذوي الرأي واستشارهم في ذلك فكلهم أشار عليه بعدم تجهيزها إليه ، إلا بطراقاً واحداً ، فإنه قال : جهزها إليهم فما دخلت هذه العـــلوم عـــلى دولة شرعية إلا أفسدتها وأوقعت بين علمائها "(٧) ثم قال الصفدي : " حدثني من أثق به أن الشيخ تقي الدين أحمـــد بن تيمية – رحمه الله تعالى – كان يقول : " ما أظن أن الله يغفل عن المأمون ، ولابد أن يقابله على ما اعتمده مع هذه الأمة من إدخاله هذه العلوم الفلسفية بين أهلها "(٨) .

---

(١) نســـبة إلى " مزدك " المولود في نيسابور سنة (٤٨٧م) ، والمقتول عام (٥٢٣م) كان مانوياً وانشق عليهم ، وقال بثلاثة أصول للعالم بدلاً من أصلين هـــي الماء والنار والتراب امتزجت بنسب متساوية ، فكانت مادة الخير الصافية ، وبنسب متفاوتة فكانت مادة الشر الكدرة ، وكان " مزدك " ينهى الناس عـــن المخالفـــة والمباغضـــة والقـــتال ، ولما كان أكثر ذلك إنما يقع بسبب النساء والأموال ، أحل النساء وأباح الأموال ، وجعل الناس شركة فيهما كاشتراكهم في الماء والنار والكلأ ، انظر : الملل والنحل (ص٢٥٠) والموسوعة الفلسفية (٤٣٨) .

(٢) انظر : د/ سليمان دنيا : التفكير الفلسفي الاسلامي (ص/٣٢٦) ، مكتبة الخانجي بمصر ط١/١٣٨٧هـــ-١٩٦٧م .

(٣) انظر : عبدالرحمن بن عبدالعزيز الشبل: ذم الكلام وأهله للهروي تحقيق ودراسة (٣٥/١) ط١/١٤١٦هـــ-١٩٩٥م مكتبة العلوم والحكم / المدينة المنورة .

(٤) قـــد اختلف في أول من بدأ الترجمة لهذه الكتب فقيل : خالد بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان ، المتوفي سنة (٩٠هـــ) وقيل : قبلها ، انظر : الغيث المسجم (٧٩/١) ، صون المنطق (٧-٨) ، ابن النديم الفهرست (٢٤٢/١) والنشار : مناهج البحث (ص/٥) . وقيل : أبو جعفر المنصور ، عبدالله بن محمد بن علي ، ثاني خلفاء بني العباس المتوفي سنة (١٥٨هـــ) . انظر : مقدمة ابن خلدون (٨٩٢) ، تاريخ الخلفاء (٢٦٩) الاعلام (٢٥٩/٤) وقيل : يحي بن خالد بن برمك الفارسي ، المتوفي سنة (١٩٠هـــ) أثناء خلافة هارون الرشيد بن محمد المهدي وكان وزيراً له . انظر صون المنطق (٧-٩) وقيـــل : عبدالله المأمون بن هارون الرشيد سابع الخلفاء العباسيين المتوفي سنة (٢١٨هـــ) . انظر : الملل والنحل (٣٠/١) ، الرد على المنطقيين (ص/٣٧٤) . وقيل : أمير الأندلس عبدالرحمن بن الحكم بن هشام بن عبدالرحمن بن معاوية ابن هشام بن عبدالملك بن مروان ، المتوفي سنة (٢٣٩ هـــــ) وانـــه كان يشبه بالمأمون العباسي في طلب الكتب الفلسفية ، وبالوليد بن عبدالملك في قوته . انظر : السيوطي : صون المنطق (ص/١٢) ، الذهبي في تاريخ دول الإسلام .

(٥) انظر : عبدالرحمن بن عبدالعزيز الشبل : ذم الكلام للهروي تحقيق ودراسة (ص/٣٢) .

(٦) صلاح الدين أبو الصفا خليل بن أيبك الصفدي الشافعي ت(٧٤٦هـــ) .

(٧) السيوطي : صون المنطق (٧-٩) ، وانظر الغيث المسجم (٧٩/١) ، الهروي : ذم الكلام وأهله (٣١/١) مقدمة المحقق .

(٨) السابق نفسه .

هــذه الـترجمة كـانت وسـيلة للجدال واستنصار بعض المسلمين على بعض في مجال الحجاج وتأييد كل فريق لرأيه[١] ، مما كان له أثره البالغ في نشأة علم الكلام .

٤- ويـرى بعض الباحثين أن النصوص الشرعية (الكتاب والسنة) كانت عاملاً من عوامل نشأة علم الكلام[٢] . فكل ما وقـع من النزاع على الخلافة والذي سبق وتكلمت عليه قد حاول كل فريق أن يربط رأيه فيه بالنصوص الشرعية كمصدر أساسي للدين والاعتقاد كما أن كل فريق منهم كان يجتهد في أن يظهر رأيه على أنه هو وحده الموافق للعقيدة الصحيحة ، وأن كلاً منهم يدعى تمسكه بمصدر الفخر العام للجماعة ألا وهو الوحي ، بل قد يحاول كل منهم أن يظهر أمام الجميع بأنه هو الراعي الأوحد لهذا المصدر العظيم ، وأن جماعته وفريقه هو وحده الوفي بمطالب القرآن والسنة .

ولا شـك أنهـم في سبيل ذلك يحاولون أن يؤلوا آيات القرآن والأحاديث على وفق ما يخدم نزعتهم أو آراءهم ، حتى ولو كلفهم ذلك منقصة التعسف في ليّ عنق الآيات والأحاديث بما يحقق لهم ما يريدون .

يقول د. محمد البهي : " ولو أن القرآن لم يشتمل على ما يساعد بعض هذه المحاولات ، لكان التعسف أمراً لازماً لكل محاولة من هذا النوع ، ولو لم يكن في بعض عباراته من الاحتمال ما يغذي تخريجه على وجهين فأكثر ، لكان التعقيد أبـرز خصائص هذا التخريج ، ومثل هذا الاحتمال ليس خصوصية للقرآن من حيث هو قرآن ، لكنه خصوصية للغة على العموم ، لأنه من طبيعتها ، و " الحقيقة " و " المجاز " ليسا إلا عنوانين لهذه الطبيعة وهما ضربان من ضروب الاحتمال "[٣]

ومـا يقال عن القرآن ، يقال أيضاً عن الأحاديث النبوية لأن لغتها هي لغة القرآن ، والتي تحمل نفس الخصائص مـن احتمال التأويل والتفسير بأكثر من وجه واحد ، ولقد كان من الأحاديث النبوية التي أسهمت بدور كبير في نشأة الفرق ومن ثم ظهور علم الكلام ، حديث الفرق ، الذي يذكر أن الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة[٤] . إذ أنه قد حصر الفرقة الناجية في واحدة فقط ، فكان على كلٍ أن يبحث لنفسه : أين هو من هذه الفرقة الناجية ؟[٥].

ولكن كون نصوص الكتاب والسنة سبباً في نشأة الفرق ، ومن ثم في نشأة علم الكلام قول لا يخلو من نظر ، ذلك لأن الصـحابه – رضـي الله عنهم جميعاً – قد تلقوا جميع النصوص الشرعية ، وعايشوا نزولها لحظة بلحظة ، ولم ينشأ فيهـم مثل هذا الجدل المبتدع ألا وهو علم الكلام ، فلو كانت النصوص الشرعية – وهي آيات القرآن الكريم والأحاديث

---

(١) انظر : د. سليمان دنيا (ص/٣٢٧) .

(٢) انظـر : ابن خلدون: المقدمة (١٠٧٦/٣) ت.د.علي عبدالواحد وافي ط٣/ دار نهضة مصر ، و د/ محمـد البـهي : الجانب الالهي مـن التفكـير الاسـلامي (ص/٣٥) – ط٦ مكتـبة وهبة – القاهرة . و يحي هاشم بن فرغل: عوامل وأهداف نشأة علم الكلام في الإسلام (ص١٨-٦١) ، (ص/٢٨٩-٢٩١). و د. محمد يوسف موسى : القرآن والفلسفة (ص/٣٠) .

(٣) الجانب الالهي من التفكير الاسلامي (ص/٣٤،٣٥) .

(٤) أخرجه : أبو داود (٥٠٣/٢-٥٠٤) ، الدارمي (٢٤١/٢) ، أحمد (١٠٢/٤) الحاكم (١٢٨/١) والآجري في الشريعة (١٨) وابن بطة في الابانة (١٠٨/٢) والالكـائي في شرح السنة (١/٢٣/١) ، وقال الحاكم : " هذه أسانيد تقام بها الحجة في تصحيح هذا الحديث " ووافقه الذهبي وقال الحافظ في تخـريج الكشاف (ص/٦٣) اسناده حسن ، وقال ابن تيمية في المسائل (٨٣/٢) هو حديث صحيح مشهور ، وصححه أيضاً الشاطبي في الاعتصام (٣٨/٣) ، وانظر : الألباني : سلسلة الأحاديث الصحيحة ١/حديث رقم (٢٠٣،٢٠٤) .

(٥) انظر : يحي هاشم فرغل : عوامل وأهداف نشأة علم الكلام (ص٢٩١) .

النبوية الشريفة – سبباً في نشأة علم الكلام ، لوجد هذا العلم في عصر الصحابة والتابعين ، ولكنهم قد تلقوا القرآن والسنة بفهم واع ، ونظر ثاقب ، ولم يلتبس على عقولهم وأفهامهم شئ من هذه النصوص ، ولذلك كانوا كلهم يصدرون عن منهج واحد في التلقي ألا وهو الوحي ، وعن منهج واحد في الفهم ، وهو طريقة فهم الرسول – صلى الله عليه وسلم – التي علمهم ورباهم عليها ، ولم يرتضوا غير ذلك سبيلاً ، ولم يتكلفوا بحث مسائل عقيمة لا يرجون فائدتها ولا ثوابها من الله تعالى ، وإنما كان كل عملهم وتعلمهم ودعوتهم كتاب الله وسنة رسوله – صلى الله عليه وسلم – كما كانوا يخشون على أنفسهم خشية عظيمة من أن يزيدوا في كلامهم أو علمهم أو عملهم شيئاً عما كان يفعله رسول الهدى – صلى الله عليه وسلم – أو يتكلم به أو يعلمه الناس .

فكيف يقال : إن نصوص الوحيين هي السبب – أو هي سبب من أسباب – نشأة علم الكلام ؟ إنما نشأ الكلام فيما بعد العصور المفضلة بأسباب ليست منها النصوص الشرعية ، ولو تمسك الناس بهما كما فعل الأصحاب – رضي الله عنهم – ولو لم ينبهروا بأفكار غيرهم ، لما حصل ما نراه من اكداس العلوم التي لا تنفع المسلمين بل كانت سبباً في تمزقهم وتفرقهم ومناجزة بعضهم بعضاً وكم من باحث.عزا نشأة علم الكلام إلى التأثير المباشر أو غير المباشر بالفلسفة اليونانية[١] ، أما القلة النادرة من الباحثين فهي التي جعلت تلك النصوص الشرعية سبباً من الأسباب ، لكنه لا يعدو كونه رأياً يحتمل الخطأ والصواب ، ونحن نميل إلى خطأ هذا القول ، نظراً لأن الكثرة الكاثرة من الباحثين يرجعون نشأة علم الكلام إلى الفلسفة اليونانية والتأثر بها بشكل أو بأخر ، وعلى تفاوت بين المتأثرين بها ، فهو يكاد يكون اجماعاً ، أو شبه اجماع على أن هذا هو السبب الرئيس – إن لم يكن عند البعض هو السبب الأوحد – في نشأة هذا العلم .

كما أن ما قدمته من أن هذا العلم لم يظهر له أثر في عهد الصحابة – رضي الله عنهم – وهم أفضل القرون ، مما يعضد أيضاً ميلنا إلى مجانية هذا الرأي للصواب ، لكن يمكن القول بأن ابتعاد الناس بعد عصر الصحابة والتابعين عن الفهم الصحيح لنصوص القرآن والسنة كان سبباً من أسباب الجدال والشقاق الذي نتج عنه – كسبب فرعي لا أصل – علم الكلام ، فالعيب إذاً ليس في النصوص الشرعية ، إنما العيب في الناس أنفسهم إذ لم يتمسكوا بالنصوص التمسك الحق ولم يعضوا عليها بالنواجد ، اتباعاً للهدى واعتقاداً بأن الحق فيها وحدها وليس في غيرها .

فالآفة إذاً – كما قيل – من الفهم السقيم ، وما ذنب النص القرآني ، أو النص النبوي إذا لم يفهمه المنحرف على وجهه الصحيح الذي أنزل به ؟

يقول د. محمد البهي : " والكندي والفارابي وابن سينا وابن رشد من الحكماء ، كأبي الهذيل العلاف ، والنظام من المعتزلة ، وكالأشعري وإمام الحرمين والغزالي من الأشاعرة ، في أن كل واحد منهم استخدم العقل في بحثه الالهي في حدود ما ورد به الإسلام ، مع فطنه تأثره بآراء الاغريق ، لكن درجة التاثر بين هذه الطبقات الثلاث بالفكر الاغريقي متفاوتة ، فمن يُعرفون باسم الفلاسفة والحكماء تعتبر درجة التأثر عندهم أوضح منها عند من يعرفون بالمتكلمين ، معتزلة

---

(١) انظر في ذلك : ذم الكلام وأهله لشيخ الإسلام الهروي ، مقدمة المحقق (١/٢٩-٣٣) ، د.محمد البهي : الجانب الالهي من التفكير الاسلامي (ص٢١-٢٤، من ٥١-٩٣) ، د.سليمان دنيا : التفكير الفلسفي الاسلامي (ص٣٢٧،٣٢٦) ، د/ علي سامي النشار : نشأة الفكر = = الفلسفي في الإسلام (١/٥٤) ، د.فاروق دسوقي حرية الإنسان (ص٥٢،٥١) ، د.سليمان العايدة محاضرات في العقيدة – النبوات مذكرة على الآلة الكاتبة (ص٤) .

وأشاعرة على وجه العموم ، والأشاعرة أقل في التأثر من المعتزلة "[١] ، لقد كان المسلمون - ولا يزالون - في غنى عن هـذا الفكـر الاغـريقي وعن غيره من الأفكار الدخيلة عليهم ، لأن الله تعالى قد اكمل الدين الاسلامي ورضيه لعباده ولم يرتض لهم ديناً سواه ، ولقد فهم الصحابة - رضي الله عنهم - هذه المعاني ، فلم ينظروا لأفكار الأمم الكافرة إلا على أنها أفكـار جاهـلية ، يقـول مصطفى عبدالرزاق : " كان لهذه المعاني الدينية التي قررها الإسلام منذ نشأته أثرها العظيم في توجيه النظر العقلي عند المسلمين في عهودهم الأولى ، فكرهوا البحث والجدل في أمور الدين دون أمور الأحكام الشرعية ... فالمسلمون في الصدر الأول كانوا يرون ألا سبيل لتقرير العقائد إلا بوحي ... وقد مضى زمان النبي - عليه السلام - والمسـلمون على عقيدة واحدة هي ماجاء في كتاب الله[٢] لأنهم أدركوا زمان الوحي وشرف صحبة صاحبه ، وأزال نور الصحبة عنهم الشكوك والأوهام "[٣] .

ويقول المقريزي : " اعلم أن الله تعالى لما بعث من العرب نبيه محمد - صلى الله عليه وسلم - رسولاً إلى الناس جميعـاً وصف لهم ربهم سبحانه وتعالى بما وصف نفسه الكريمة في كتابه العزيز الذي نزل به على قلبه - صلى الله عليه وسـلم - الروح الأمين ، وبما أوحى إليه ربه تعالى ، فلم يسأله - صلى الله عليه وسلم - أحد من العرب بأسرهم قرويهم وبدويهـم عن معنى شئ من ذلك ، كما كانوا يسألونه - صلى الله عليه وسلم - في أحكام الحلال والحرام ، وفي الترغيب والـترهيب ، وأحوال القيامة ، والملاحم والفتن ونحو ذلك مما تضمنته كتب الحديث ومعاجمها ومسانيدها وجوامعها ، ومن أمعـن النظر في دواوين الحديث النبوي ، ووقف على الآثار السلفية ، علم أنه لم يرو قط من طريق صحيح ولا سقيم عن أحد من الصحابة - رضي الله عنهم - على اختلاف طبقاتهم وكثرة عددهم ، أنه سأل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عن معنى شئ مما وصف الرب سبحانه به نفسه الكريمة في القرآن الكريم ، وعن لسان نبيه محمد - صلى الله عليه وسلم - بـل كـلهم فهمـوا معنى ذلك وسكتوا عن الكلام في الصفات فأثبتوا - رضي الله عنهم - بلا تشبيه ، ونزهوا من غير تعطيـل ، ولم يتعرض مع ذلك أحد منهم إلى تأويل شئ من هذا ورأوا بأجمعهم إجراء الصفات كما وردت ، ولم يكن عند أحد منهم ما يستدل به على واحدانية الله تعالى ، وعلى اثبات نبوة محمد - صلى الله عليه وسلم - سوى كتاب الله[٤] ، ولا عرف أحد منهم شيئاً من الطرق الكلامية ولا مسائل الفلسفة "[٥] .

إذاً فلم يكن القرآن الكريم ولا السنة النبوية فلسفة ولا أصولاً للتفلسف ، وما كانت نصوصهما سبباً لنشأة علم الكلام - كما يقوله البعض

٥- وأخيراً يمكن القول بأن الأحاديث الموضوعة التي وضعها الوضاعون ، قد أسهمت بنصيب كبير في إثارة الجدل ، كما كان لها أثرها السئ في انحراف متبعيها عن العقيدة الصحيحة . يضاف مع ذلك - مما يتعلق بالأحاديث - أن تأخر حركة التدوين ، والجرح والتعديل وتخريج الأحاديث ، وتمييز صحيحها من سقيمها ، كان له أثر بالغ أيضاً في نشأة علم الكلام ،

---

(١) في هذا الكلام تساهل شديد في حق الفلاسفة ، وكذلك المعتزلة فإن من قرأ كلام هؤلاء وهؤلاء تبين له أنه لا يمت إلى الإسلام بصلة .

(٢) الجانب الالهي من التفكير الاسلامي (ص٢١) .

(٣) تمهيد لتاريخ الفلسفة الاسلامية (ص٢٧٢،٢٧١) .

(٤) كـان الصحابة - رضي الله عنهم - جميعاً ، وكذلك السلف ، يرون أن سنة النبي - صلى الله عليه وسلم - وحي كالقرآن ، فهما مصدرا العقيدة ، وأصل الدين ، وأساس الاستدلال على العقيدة واثبات النبوة .

(٥) الخطط (٨١/٤،٨٠) نقلاً عن : تمهيد التاريخ الفلسفة الاسلامية (ص٢٧٣) .

والــبحث والجــدل ، وإثــارة الخصومات وتوسيع هوة الخلاف والفرقة بين المسلمين ، مع ما يضاف إلى ذلك من الجهل بنصوص الوحي فيأخذون بعضاً ويتركون بعضاً إلى جانب ما تبتلى به النفوس من اتباع الهوى الذي يعمي ويصم عن اتباع الحق .

هكــذا كانت نشأة علم الكلام – كما رأيناها وبإيجاز شديد – مع شئ من عوامل هذه النشأة ، فما هو علم الكلام ؟ هذا ما سنجيب عليه – إن شاء الله تعالى – في الورقات التالية .

I

المطلب الثاني : تعريف علم الكلام وموضوعه

قال أبو نصر الفاراني (ت ٣٣٩هـ ـــ ٩٥٠م) (١)

" وصناعة الكلام يقتدر بها الإنسان على نصرة الآراء والأفعال المحددة التي صرح بها واضع الملة ، وتزييف كل ماخالفها " (٢) ٠

وهذا التعريف هو الأصل الذي انبثقت منه بقية التعريفات من بعد الفارابي ٠

فقال الايجي (٧٥٦هـ ـــ ١٣٥٥م) (٣) : والكلام علم يقتدر معه على إثبات العقائد الدينية بإيراد الحجج ودفع الشبه" (٤)

وقال التفتازاني (ت ٧٩٢هـ ـــ ١٣٨٩م) :(٥) الكلام هو العلم بالعقائد الدينية عن الأدلة اليقينية " (٦) ٠

والناظر إلى هذه التعريفات يتبادر إلى ذهنه أن علم الكلام إنما وضع لإثبات العقيدة الإسلامية ، وتدعيم أركانها ، والدفاع عنها ضد شبهات الخصوم ، وإيراد الأدلة والحجج التي سموها يقينية ، وزعموا أنها تحلى الإيمان بالإيقان ٠

وإذا مايحثنا عن تلك الأدلة التي قال عنها المتكلمون بأنها يقينية في تثبيت العقائد الإيمانية ، وجدنا أنهم يقصدون بها الادلة العقلية ، المبنية على مقدمات ونتائج عقلية غير منضبطة بميزان الشرع ، زاعمين أن الحق في نفس الأمر هو ماعلموه بعقولهم(٧)٠

ولذلك نجد ابن خلدون يعرف علم الكلام بقوله : " هو علم يتضمن الحجاج عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية " (٨) ٠

كما ان دفاع المتكلمين أيضاً عن العقائد ودفع شبه المعاندين يقوم كذلك على نفس الطريقة العقلية التي لاتهتدي بهدى القرآن والسنة ٠

ـــ والفرق بين علم الكلام ، وعلم المنطق الذي سبق الكلام عنه ،أن المنطق أعم من علم الكلام ، فلا يختص بالعقائد فقط

ـــ ويفترق أيضاً المنطق في كونه نشأ متقدماً عن علم الكلام قروناً طويلة ، فتأثر لذلك علم الكلام بالمنطق ، دون العكس ٠

ـــ ومن الفروق أيضاً أن المتكلم يعتقد ثم يستدل على ذلك بالعقل ، أما أهل المنطق فإنهم يستدلون ثم يعتقدون ٠(٩)

والمنطق فرع من فروع الفلسفة ، وقد أختلط علم الكلام أيضاً بالفلسفة حتى كاد يصير فلسفة خالصة يقول ابن خلدون :" ٠٠٠ والتبست مسائل الكلام بمسائل الفلسفة بحيث لايتمز أحد الفنين عن الآخر ، ولا يحصل عليه طالبه من كتبهم"(١٠) ٠

فغاية ماظن علماء الكلام أن الدلائل الشرعية ليس فيها مايقنع الخصومة وبقية الحجة عليهم ، وهذا من خطئهم وجهللهم وضلالهم ، وفإن الله عزوجل ـــ قد خاطب بكتابه كل ملحد وكافر ومشرك ، وفاسق ،وأقام الحجة عليهم بأظهر الدلائل وأقربها ، فأقم الحجة على فرعون ، ونمرود وسائر الكفرة من علماء اليهود والنصارى ، والمنافقين ، وكذلك الفسقة والمبتدعين بشكل بين وواضح ، إلا أن علماء الكلام لم ينظروا فيه ،ولم يلتفتوا إلى دلائله الدافعة ولا أدل على ذلك من أن فرعون خصم والنمرود كذلك ، وكذا علماء اليهود والنصارى ظهر لهم الحق بالدلائل الشرعية التي تحارفيها العقول ، ولا يحيلها ٠

ويتضح مما تقدم في تعريف علم الكلام ، أن المتكلمين متفقون على أنه : علم يعتمد على النظر العقلي في أمر العقائد الدينية ، لأن الأدلة السمعية (الكتاب والسنة) - عندهم - لا تفيد اليقين[1] فيجب أن يصار إلى العقل ، ليكون

---

(١) محمد بن محمد بن طره خان بن أوزلغ ، أبو نصر الفارابي ، المشهور بالمعلم الثاني ، ولد في فاراب على نهر جيحون (٢٦٠هـ ـــ ٨٧٤م) ووفاته عام (٣٣٩هـ ـــ ٩٥٠) ، انظر وفيات الأعيان (٢ /٧٦) ، طبقات الأطباء (٢ / ١٣٤) الأعلام (١٢٠/٧) ٠

(٢) إحصاء العلوم (ص ٧١) م ٠ السعادة القاهرة ، ٦٣٥ ـــ ١٩٣١م ٠

(٣) عبدالرحمن بن أحمد الأيجي (ت ٧٥٦هـ) ، انظر : بغية الوعاة (٢٩٦) ، مفتاح السعادة (١٦٩/١) ، الدرر الكامنة (٢ /٣٢٢) ، طبقات البكي (٧٠٨/٦) ٠

(٤) الموافق في علمالكلام (ص٧) مكتبة المتنبيء ـــ القاهرة ٠

(٥) مسعود بن عمر بن عبدالله التفتازاني ، سعد الدين ، ولد بتفتازان من بلاد خراسان (٧١٢هـ ـــ ١٣١٢م) ، وتوفي (٧٩٣هـ ـــ ١٣٩٠م) ٠ انظر :بغي لاوعاة (٣٩١) ، مفتاح السعادة (١٦٥/١) الدرر الكامنة (٣٥٠/٤) الأعلام ٢١٩/٧) ٠

(٦) شرح المقاصد (١٧٧/١) ٠

(٧) درء تعارض العقل والنقل (١٢/١) ٠

(٨) المقدمة ٠ ١٠٦٩/٣) ت ٠ د ٠ علي عبد الواحد واقي ٠

(٩) دائرة المعارف الإسلامي (٥٢٩/٥) ٠

(١٠) المقدمة (١٠٧٠/٣) ٠

محكَّمـــاً فيمـــا يجب وفيما يحرم اعتقاده ، فما استساغه العقل وجب إثباته وإن لم يثبت في الكتاب والسنة ، وما رده العقل وجب رده أو على الأقل التوقف فيه ، ولو كان هذا الأمر قد ورد إثباته في الكتاب أو في السنة أو فيهما معاً[٢] .

هـــذه محصَّـــلة موجزة لتعريف علم الكلام أردت الوقوف عليها قبل أن أبين نقد السيوطي له ، والآن حان الوقت لأوضح – بعون الله تعالى – ذلك النقد .

المطلب الثالث : نقد السيوطي علم الكلام وتحريمه إياه

ركز السيوطي نقده علم الكلام على ثلاثة محاور :

المحـــور الأول : أنـــه علم مبتدع ، لأن السلف الصالح – رضي الله عنهم – لم يتكلموا به ، ولم يعرفوا قضاياه ، ولم يتـــلقوا عقائدهم منه ، ولم يؤسسوا توحيدهم على قواعده[٣] ، فهو لم يرد الأمر به في الكتاب ولا في السنة ، ولا يوجد عن السلف البحث فيه ، وذلك بخلاف العربية فإنه ورد الأمر بها في الحديث ، ووجد عن السلف البحث فيها[٤] .

أمـــا قول السيوطي بأن الحديث قد ورد بالأمر بها أي بتعلم العربية ، فلم أقف في ذلك على حديث صحيح يأمر بتعلم العربية ، بل ما ورد في ذلك من الأحاديث إما موضوع وإما ضعيف [٥] .

ولذلـــك فـــإن الســـيوطي عد علم الكلام من البدع المذمومة ، ففي كتابه " الأمر بالاتباع والنهي عن الابتداع "[٦] اســـتعرض العديد من البدع ، وعد منها علم الكلام ، قال : " ومن ذلك – أي من البدع – علم الكلام والجدل ، وهو بدعة ومحدث لم يكن في السلف الماحنين "[٧] وكذلك وصف المشتغل بعلوم الفلسفة والمنطق بالابتداع فقال : " الرابع : من الملحق بالمبتدع ، من دأبه الاشتغال بعلوم الأوائل كالفلسفة والمنطق... "[٨] .

ولا ريب أن علم الكلام وليد الفلسفة والمنطق وهو فرع عنهما ، فله حكم أصله وما دام المنطق والفلسفة بدعةً ، والمشتغلُ بهما مبتدعاً فإن علم الكلام كذلك بدعة ، والمشتغل به مبتدع . ومادام علم الكلام بدعة ، فالبدعة ضلالة وهو محرم .

ويؤكـــد السيوطي هذا الحكم على علم الكلام بالتحريم بما نقله عن الإمام الذهبي بأنه قل من أمعن النظر في علم الكـــلام إلا وأداه اجتهاده إلى القول بما يخالف السنة ، ولهذا ذم علماء السلف النظر في علم الأوائل ، فإن علم الكلام مولد من علم الحكماء الدهرية[٩] ، فمن أراد الجمع بين علم الأنبياء بين علم الفلاسفة بذكائه ، لا بد وأن يخالف هؤلاء وهؤلاء ،

---

(١) انظـــر : ابن تيمية : درء تعارض العقل والنقل (١٣/٢) ، الاستقامة (٤٧/١،٢٣،٦-٥٠) ، ابن القيم ك الصواعق المرسلة (٣/٢،٦٣٢/١١٣٠-١١٣١) ابن ابي العز : شرح العقيدة الطحاوية (٥٩٠،٣٩٩) .

(٢) انظر : أبو اسماعيل الهروي : ذم الكلام ط٣٦/١ – من كلام المحقق عبدالرحمن بن عبدالعزيز الشبل في المقدمة ، وانظر : ابن تيمية : الرد على المنطقيين (ص/١٠٠) .

(١) انظر : صون المنطق (ص/٣٠) ، وانظر : محمد جلال شرف : جلال الدين السيوطي منهجه وآراؤه الكلامية – ١٩٨١م .

(٢) السابق نفسه .

(٣) لـــلوقوف على صحة ما قلته من أن هذه الأحاديث التي تأمر بتعلم العربية غير صحيحة ، انظر : أبو الربيع نجم الدين سليمان بن عبد القوي بن عبد الكريم الطوفي الحنبلي : الصعقة الغضبية في الرد على من أنكر العربية ، ت.د. محمد بن خالد الفاضل .

(٦) الكتاب مطبوع بدراسة وتحقيق : مصطفى عبدالقادر عطا ، دار الكتب العلمية – بيروت (ط١٤٠٨/١هـــ-١٩٨٨م) – لبنان .

(٧) (ص/١٠٦) .

(٨) تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي (٣٢٧/١) – ت عبدالوهاب عبداللطيف ، دار الكتب العلمية (ط١٣٩٩/٢هـــ-١٩٧٩م).

(٩) الدهـــر : مدة الحياة الدنيا كلها ، وهو كل مدة طويلة ، وهو مرور الزمن وكان العرب ينسبون كل حادث إليه ، والدهريون هم الذين يعتقدون أن ما في العالم موجود أزلاً ، ولا خلق له فهم ملحدون ، يجحدون الصانع المدبر العالم القادر ، ويزعمون أن العالم لم يزل موجوداً كذلك بنفسه لا بصانع

ومـن كف ومشى خلف ما جاءت به الرسل من إطلاق ما أطلقوا ، ولم يتخذ لق ولا عمق ، فإنهم – صلوات الله عليهم – أطـلقوا وما عمقوا فقد سلك طريق السلف الصالح ، وسلم له دينه ويقينه نسأل الله السلامة في الدين[١] يضاف إلى ما تقدم أن الـدأب على الاشتغال بعلم الكلام من شأنه أن يثير الشبه ويجر إلى الحيرة والشكوك[٢] ، يستنبط السيوطي هذا من كلام ابـن عباس – رضي الله عنهما – عندما قال : " لا تضربوا كتاب الله بعض ببعض ، فإن ذلك يوقع الشك في قلوبكم "[٣]، ويذكر السيوطي أن هذه العلة التي علل بها ابن عباس منع النظر في المتشابه هي نفسها التي علل بها النووي – رحمه الله – في شرح المهذب منع النظر في علم الكلام[٤] .

ولعـل مـا يزيد هذه المسألة وضوحاً وبياناً ما نقله .. السيوطي عن الإمام مالك – رحمه الله – وقد جاءه رجل يسـأله ، فقال مالك : لعلك من أصحاب عمرو بن عبيد ، لعن الله عمراً ، فإنه ابتدع هذه البدع من الكلام ، ولو كان الكلام علماً لتكلم فيه الصحابة والتابعون كما تكلموا في الأحكام والشرائع[٥] .

وهذا النص من مالك – رحمه الله – يصرح بالعلة في تحريم الكلام ، وكذا سائر أئمة المسلمين الذين نصوا على تحـريم عـلم الكـلام ، عللوه بكون السلف لم يتكلموا فيه[٦] ، وذلك لخلوه من الخير والفائدة في الدين ، بل هو باب كبير للدخول إلى لجة الخصومة والخلاف ، وهو الذي حذر منه السلف ، بل قد وقع فعلاً بين فرق الأمة ، كما أن العلة الكبرى في تحريمه أنه باب عظيم لمخالفة الكتاب والسنة .

هذا هو مجمل المحور الأول الذي تناول فيه السيوطي نقد علم الكلام ، والآن إلى المحور الثاني.

المحور الثاني : أن النبي – صلى الله عليه وسلم – حذر الأمة منه ، ويبين السيوطي ذلك فيؤكد أن الكلام عبارة عن آراء وأهـواء ، وقد حذر النبي – صلى الله عليه وسلم – من أهل الأهواء ، ويتفق علماء الإسلام على أن أهل الأهواء هم أهل الكلام والمنطق والفلسفة* ، ويستشهد على ذلك بحديث النبي – صلى الله عليه وسلم – الذي نقله عن الهروي[٧] في كتابه :

، ولم يزل الحيوان من النطفة والنطفة من الحيوان كذلك كان وكذلك يكون أبداً وهؤلاء هم الزنادقة (الغزالي المنقذ من الضلال) وعليه فهم ينكرون الخـالق والنـبوة والـبعث والحسـاب ويردون – كل شئ إلى فعل الأفلاك ولا يعرفون الخير ولا الشر وإنما اللذة والمنفعة (الجاحظ : الحيوان) والطـبيعيون الدهريون بخلاف فلاسفة الدهريين والأولون يقولون بالمحسوس ، وينكرون المعقول ، بينما يقول الآخرون بالمحسوس والمعقول معاً ، وينكرون الحدود والأحكام وصارت الدهرية ديناً صريحاً في عهد يزدجرد الثاني في الدولة الساسانية (٤٣٨-٤٥٧م) ويصفهم القرآن الكريم آية (٢٣) الجاثيـة : فيقول : (وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر) . معجم الألفاظ والاعلام القرآنية (ص/١٧٨) محمد اسماعيل ابراهيم ، والموسوعة الفلسفية د/عبدالمنعم الحفني (١٨٣) .

(١) صون المنطق (ص/١٩) ، وانظر الذهبي : ميزان الاعتدال (١٤٤/٣) في ترجمة علي ابن الزاغوني .

(٢) انظر : جلال الدين السيوطي وآراؤه الكلامية (ص/٧٤) .

(٣) صون المنطق (ص/٣٩/٤٠) .

(٤) صون المنطق (ص/٤٠) ، المجموع شرح المهذب (٤٩/١) ت : محمد نجيب المطيعي، مكتبة الإرشاد جدة .

(٥) انظر : صون المنطق (ص/٣٣) .

(٦) انظر : نفسه (ص/٣٣) ، د/محمد جلال شرف : جلال الدين السيوطي منهجه وآراؤه الكلامية (ص/٧٤) .

* انظر : صون المنطق (ص/١٣٦،١٣٧) .

(٧) هو : عبدالله بن محمد بن علي الأنصاري الهروي ، أبو اسماعيل ، شيخ خراسان في عصره ، من كبار الحنابلة ، من ذرية أبي أيوب الأنصاري – رضي الله عنه – ، انظر : سير أنباء النبلاء ج ١٥ ، والذيل على طبقات الحنابلة ، (١-٦٤) ، الاعلام (١٢٢/٤) .

" ذم الكـــلام "[١] فقال : " وأخرج الهروي عن ابن عمر قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : " إياكم والركون إلى أصحاب الأهواء ، فإنهم بطروا النعمة ، وأظهروا البدعة ، وخالفوا السنة ونطقوا بالشبهة ، وتابعوا الشيطان "[٢] .

قال أبو عمر بن عبد البر : " ما توفى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – حتى كره المسائل وناحية التنقيب والبحث وزجر عـــن ذلك ، وحذر المسلمين في غير موطن حتى كان من قوله كراهية لذلك : " ذروني ما تركتكم ، فإنما هلك الذين من قبلكم بسؤالهم واختلافهم على أنبيائهم فإذا نهيتكم عن شئ فاجتنبوه ، وإذا أمرتكم بشئ فخذوا منه ما استطعتم "[٣] .

وهذا يؤكد كلام السيوطي في استدلاله من أن النبي – صلى الله عليه وسلم – قد حذر الأمة من الركون إلى أهل الـــبدع ويستمر السيوطي في الاستدلال على ذلك فينقل عن علي – رضي الله عنه – أنه قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : " إن من البيان سحراً ، وإن من الشعر حِكَماً ، وإن من القول عيا ، وإن من طلب العلم جهلاً "[٤] ثم يفسر السيوطي معنى قوله – صلى الله عليه وسلم – " وإن مِن طَلَبِ العلم جهلاً " فيقول : " معناه علم النجوم وعلم الكلام "[٥]

وهـــذا ممـــا يؤيد ما قاله أبو يوسف[٦] – رحمه الله – لبشر المريسي[٧] : " العلم بالخصومة والكلام هو الجهل ، والجهل بالخصومة والكلام هو العلم وإذا صار الرجل رأساً في الكلام قيل زنديق ، أو رمى بالزندقة "[٨] .

أراد بـــالجهل به اعتقاد عدم صحته ... أو أراد به الاعراض عنه أو ترك الالتفاف إلى اعتباره ، فإن ذلك يصون علم الرجل وعقله ، فيكون علماً بهذا الاعتبار[٩] ، والله تعالى أعلم .

ولا أدل عـــلى أن أهل الكلام هم أهل الأهواء الذين حذر منهم المصطفى – صلى الله عليه وسلم – من قول أبي عمـــر بن عبدالبر[١٠] ، – رحمه الله – قال : " أجمع أهل الفقه والآثار في جميع الأمصار أن أهل الكلام أهل بدع وزيغ ،

---

(١) حققه / عبدالرحمن بن عبدالعزيز الشبل بقسم العقيدة بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ، ونال به درجة الدكتوراه ، ولم يطبع منه سوى جزئين فقط .

(٢) هـــذا الحديـــث الذي استشهد به السيوطي موضوع ، أخرجه ابن عدي في " الكامل " (٢٠٥/١) وابن الجوزي في " الموضوعات " (٢٦٩/١) والسهمي في " تاريخ جـــرجان " (ص ٢٦٤) ثلاثتهم من طريق أبي حمزة السكري عن ابراهيم الصائغ عن نافع عن ابن عمر بنحوه ، وقال ابن عدي : " هذا الحديث كذب موضوع على رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وأحمد بن محمد بن علي كان يضع الحديث " . انظر : ذم الكلام للهروي (١٨٦/٣) ح رقم (٦٣٢) .

(٣) جامع بيان العلم وفضله (ص٣٦٩) ، والحديث رواه البخاري في صحيحه رقم (٧٢٨٨) ، مسلم في صحيحه (٩٧٥/٢) رقم (١٣٣٧) .

(٤) صون المنطق (ص٤٧) ، والهروي : ذم الكلام (١٧١/٣) وإسناده ضعيف أخرجه الخطيب في " المتفق والمفترق " رقم (١٥٦٠) والضياء المقدسي فـــي " المختارة " (١٢٠٠،٤٩٣/٢) كلاهما من طريق ابن أبي عروبة عن المغيرة بن عبدالرحمن عن يحيي بن السكن وهو اسناد ضعيف جداً . فيحي بن السكن هو البصري ، قال أبو حاتم : " ليس بالقوى " وقال صالح جزرة : " لا يسوى فلساً " ورماه الوليد بالكذب ، انظر : الجرح والتعديل (٩/ ٥٥) ، وتاريخ بغداد (١٤٦/١٤) واللسان (٢٥٩/٦) ، وانظر ترجمة المغيرة في " تهذيب الكمال " (٣٩٠/٢٨) .

(٥) صون المنطق (ص/٤٧) .

(٦) يعقوب بن إبراهيم بن حبيب الأنصاري ، الكوفي ، البغدادي أبو يوسف ن صاحب الإمام أبي حنيفة ، وتلميذه ، وأول من نشر مذهبه ، ولد بالكوفة (١١٣هـــ–٧٣١م) مات ببغداد (١٨٢هـــ–٧٩٨م) ، انظر : مفتاح السعادة (١٠٠/٢) ، النجوم الزاهرة (١٠٧/٢) ، البداية والنهاية (١٨٠/١٠) ، ابن خلكان (٣٠٣/٢) ، الاعلام (١٩٣/٨) .

(٧) بشـــر بـــن غيـــاث بن أبي كريمة عبدالرحمن المريسي العدوي بالولاء ، أبو عبدالرحمن ، فقيه معتزلي ، متفلسف يرمي بالزندقة كان أبوه يهودياً ، انظر : وفيات الأعيان (٩١/١) ، النجوم الزاهرة (٢٢٨/٢) ، ميزان الاعتدال (١٥٠/١) ، الاعلام (٥٥/٢) – (ت٢١٨هـــ–٨٣٣م) وعمره نحو من ٧٠ سنة .

(٨) صون المنطق (ص/٦٠) ، وانظر : ابن تيمية : مجموع الفتاوي (٦٤/٤) ، شرح العقيدة الطحاوية (ص٧٢) ، وانظر : تقريب وترتيب شرح العقيدة الطحاوية (١٢٧/١) .

(٩) انظر : ابن أبي العز شرح العقيدة الطحاوية (ص٧٢) .

(١٠) يوسف بن عبدالله بن محمد بن عبدالبر النمري القرطبي المالكي ، أبو عمر ، من كبار حفاظ الحديث ، ولد بقرطبة (٣٦٨هـــ–٩٧٨م) توفي بشاطبة (٤٦٣هـــ–١٠٧١م) ، انظـــر : بغية الملتمس (٤٧٤) ، وفيات الأعيان (٣٤٨/٢) ، آداب اللغة (٦٦/٣) ، الديباج المذهب (٣٥٧) – وسماه يوسف بن عمر وهو خطأ . الأعلام (٢٤٠/٨) .

ولا يعدون عند الجميع في طبقات العلماء ، وإنما العلماء أهل الأثر والتفقه فيه ، ويتفاضلون فيه بالإتقان والميز والفهم "(١)

ثم ساق ابن عبدالبر – رحمه الله – بسنده إلى أبي عبدالله محمد بن خويز منداد(٢) أنه قال : قال مالك : لا تجوز الإجارة في كتب أهل الأهواء والبدع والتنجيم ، وذكر كتباً ، ثم قال : وكتب أهل الأهواء والبدع عند أصحابنا هي كتب أصحاب الكلام من المعتزلة وغيرهم ، وتفسخ الإجارة في ذلك ، وكذلك كتب القضاء بالنجوم وعزائم الجن وما أشبه ذلك "(٣) وقال في كتاب الشهادات في تأويل قول مالك – رحمه الله – : " لا تجوز شهادة أهل البدع وأهل الأهواء " قال : " وأهل الأهواء عند مالك وسائر أصحابنا هم أهل الكلام فكل متكلم فهو من أهل الأهواء والبدع ، أشعرياً كان أو غير أشعري ولا تقبل له شهادة في الإسلام أبداً ، ويهجر ، ويؤدب على بدعته ، فإن تمادى عليها استتيب منها "(١) .

ويستطرد السيوطي في ذكر الأحاديث النبوية التي تحذر من الكلام والبدع فيذكر حديث أبي أمامة – رضي الله عنه – أن النبي – صلى الله عليه وسلم – قال : " ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل(٤) ، ثم تلا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : (ما ضربوه لك إلا جدلاً بل هم قوم خصمون)(٥) وكذا حديث عمرو بن شعيب عن أبه عن جده قال : خرج رسول الله – صلى الله عليه وسلم – على أصحابه ذات يوم ، وهم يتراجعون في القدر ن فخرج مغضباً ، حتى وقف عليهم ، فقال : يا قوم ، بهذا ضلت الأمم قبلكم باختلافهم على أنبيائهم وضربهم الكتاب بعضه ببعض ، وإن القرآن لم ينزل لنضرب بعضه ببعض ، ولكن نزل القرآن فصدق بعضه بعضاً ، ما عرفتم منه فاعملوا به ، وما تشابه فآمنوا به "(٦) .

ويستمر السيوطي في سرد الأحاديث التي تؤيد رأيه في أن علم الكلام والجدل من البدع التي ينبغي للأمة أن تحذر منها وتبتعد عنها ، وأن تعلم الأجيال المتعاقبة من أبناء الأمة أن علم الكلام يجب الابتعاد عنه وعن الاشتغال به ، فهو يريد بذلك التحذير من تكرار البدع ، لأنها ليست موقوتة بعصر دون آخر ، فإن الزمان باق ، والتكليف قائم ، والخطرات متوقعة ولا تكاد تنتهي ، مؤكداً بذلك المعنى الذي قصده ابن عباس – رضي الله عنهما – حين قال : " ما من عام إلا والناس يحيون فيه بدعة ويميتون فيه سنة ، حتى تحيا البدع ، وتموت السنن "(٧) وإن المتأمل في تاريخ المسلمين ليرى صحة ما قاله ذلك الحبر الجليل ، لا سيما في العصور الأخيرة التي غاصت في تيارات الجدل والانحرافات .

---

(١) صون المنطق (ص/١٣٦) وهو في جامع بيان العلم وفضله (ص/٣٦٥) تقديم عبدالكريم الخطيب ، دار الكتب الحديثة – القاهرة بدون طبعة وبدون تاريخ .

(٢) هو : محمد بن أحمد بن عبدالله ، وقيل : ابن اسحاق ، كنيته أبو عبدالله الشهير بابن خويز منداد ، وكان يجانب الكلام وينافر أهله – رحمه الله – ، انظر : الديباج المذهب (ص٢٦٨) .

(٣) صون المنطق (ص/١٣٦-١٣٧) ، وهو في كتاب " جامع بيان العلم وفضله " لابن عبدالبر (ص/٣٦٥ ، ٣٦٦) .

(٤) صون المنطق (ص/٣٥) ، ورواه أبو عمر بن عبدالبر في جامع بيان العلم وفضله (ص/٣٦٨) ، وحكاه بن عبدالبر عن الأوزاعي من كلامه في جامع بيان العلم وفضله أيضاً وكذلك عن بكر بن نصر . وهو عند ابن ماجة في سننه عن أبي أمامة – رضي الله عنه – (١٩/١) ح رقم ٤٨ المقدمة باب (٧) اجتناب البدع والجدل ، ت/ محمد فؤاد عبدالباقي ، ط الحلبي بدون تاريخ ، والهروي في ذم الكلام (٣٢٢/١) رقم (٤٤) ، والترمذي (٣٥٣/٥) رقم (٣٢٥٣) وقال : هذا حديث حسن صحيح .

(٥) سورة الزخرف الآية (٥٨) .

(٦) صون المنطق (ص/٣٥) وحديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده ، رواه ابن ماجة في سننه (٣٣/١) ح رقم (٨٥) ، وقال المحقق : قال في الزوائد : هذا اسناد صحيح ، رجاله ثقات .

(٧) الإمام الشاطبي : الاعتصام (١٢٨/٢) .

لقـد كان النبي – صلى الله عليه وسلم – يخشى على أمته التنازع والخلاف الذي يؤدي بهم إلى تكفير بعضهم بعضاً ثم استحلال كل منهم دماء وأموال الآخرين فينشأ القتل والقتال بينهم ، ومن ثم يهلكون وتذهب ريحهم ، لقد خرج على أصحابه يوماً وهم يتنازعون في القدر فغضب حتى احمر وجهه ، ثم قال : أبهذا أمرتم ، أم بهذا أرسلت إليكم ، إنما هلك من كان قبلكم حين تنازعوا في هذا الأمر عزمت عليكم أن لا تنازعوا "(١) .

كمـا كـان يخشى – صلى الله عليه وسلم – ويخاف من رؤوس الضلال وأئمة الزندقة ، الذين يزخرفون للناس الحجج ، ويسمونها دلائل وبراهين ليقنعوا بها السذج والبسطاء والدهماء فيتبعوهم ، وهذا وارد في حديث معاذ ابن جبل – رضي الله عنه – قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – " إني أخاف عليكم ثلاثاً ، وهي كائنة ، زلة عالم ، وجدال مـنافق بالقرآن ، ودنيا تفتح عليكم "(٢) يؤيد هذا المعنى ما ذكره الإمام ابن جرير في قوله تعالى : (إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً...)(٣) قال : " هم أهل البدع من هذه الأمة الذين اتبعوا متشابه القرآن دون محكمه "(٤) ثم روى عن أبي هريرة – رضي الله عنه – أنه قال : " هم أهل الضلالة " وروى أيضاً عن أبي هريرة عن النبي – صلى الله عليه وسلم – أنه قال : " هم أهل البدع وأهل الشبهات وأهل الضلالة من هذه الأمة "(٥) ولا يزال السيوطي يورد الروايات التي ينقلها من ذم الكـلام للهروي وغيره في هذا الباب فينقل من ذلك قول النبي – صلى الله عليه وسلم – : " لا تقوم الساعة حتى تكون خصوماتهم في ربهم "(٦) .

---

(١) أخرجه الهروي في ذم الكلام ، وانظر صون المنطق (٣٥) وهذا الحديث عن أبي هريرة – رضي الله عنه – غير حديث عمرو بن شعيب السابق . كما قد نبهت عليه فيما سبق . وانظر : سنن الترمذي (٣٨٦/٤) ح رقم (٢١٣٣) – كتاب القدر (٣٣) باب (١) ، والحديث الصحيح بشواهده ، انظر : ذم الكلام (٣٤٠/١) رقم (٥٦) وشواهده رقم (٥٥،٥٤،٥٣،٥٢،٤٨،٤٧) .

(٢) صـون المـنطق (ص٣٨) وذم الكلام (٣٧٦/١) ، والحديث اسناده بهذا اللفظ ضعيف جداً ، وهو حسن لغيره ، أخرجه الطبراني في " الكبير " (٢٠/ ١٣٨،٢٨٢) ، وفـي " الأوسط " كما في " مجمع البحرين " (٢٦٩/١،٢٤٠) وفي " الصغير " (١٨٦/٢) ، والطيب في " تاريخه " (١٢٩/٢) كلاهما من طريق عبدالحكيم بن منصور الواسطي ، عن عبدالملك بن عمير ، عن عبدالرحمن ، عن ابن أبي ليلى ، عن معاذ به . قال الطبراني – كما في مجمع البحرين : (٢٤١/١) " لم يروه عن عبدالملك إلا عبدالحكيم ، ولايروي عن معاذ إلا بهذا الاسناد " وقال الهيثمي في " مجمع الزوائد " (١٨٦/١) " وفيـه عبد الحكيم بن منصور وهو متروك الحديث " وانظر : " الميزان (٢٥١/٣) وفيه أيضاً انقطاع ، فابن أبي ليلى لم يدرك معاذاً ، وأخرجه أيضـاً الطـبراني في " الأوسط " – كما في مجمع البحرين " (٢٤٢/١) واللالكائي (١١٦/١) كلاهما من طريق أبي حازم عن عمرو بن مرة ، عن معاذ بنحوه ، قال الهيثمي في " مجمع الزوائد " عمرو بن مرة لم يسمع من معاذ ، وللحديث شاهد من حديث ابن عمر أخرجه البيهقي في الشعب (٢٨١/٧) وغيره

(٣) سورة الأنعام ، الآية (١٥٩) .

(٤) جامع البيان (١٠٥/٨) .

(٥) نفسـه ، وانظـر : السيوطي : معترك الأقران (٥٠٤/٣) وعزاه السيوطي في الدر المنثور إلى الحكيم الترمذي ، والطبراني والشيرازي في الالقاب وابن مردوية . عن أبي هريرة .

وعـزاه أيضـاً بسـياق آخر عن عائشة – رضي الله عنهما – إلى ابن أبي حاتم وأبي الشيخ والطبراني وأبي نعيم في الحلية وابن مردوية ، وأبي نصر السجزي في الابانة ، والبيهقي في شعب الإيمان .

انظر : الدر المنثور (٤٠٢/٣) .

(٦) صون المنطق (ص/٤٧) وذم الكلام للهروي (١٥٩/٣) – والحديث اسناده ضعيف ، أخرجه ابن عبدالبر في جامع بيان العلم وفضله (ص/٣٦٣) من طريق أحمد بن سليمان عن أبي قلابة ، به .

وأبو قلابة ، هو : عبدالملك بن محمد بن عبدالله بن محمد الرقاشي ، صدوق ، تغير حفظه لما سكن بغداد .

وفي إسناده أيضاً : سهيل بن أبي صالح ، صدوق ، تغير حفظه بآخره ، كما في " التقريب " وانظر أيضاً : سؤالات الحاكم للدار قطني " (ص/١٣١) و " تهذيب التهذيب " لابن حجر (٣٧١/٦) .

المحـــور الـــثالث : أقـــوال الصحابة – رضوان الله عنهم أجمعين – وكذا التابعين وأئمة مذاهب أهل السنة ، وكذلك أئمة التصوف والسلوك في ذم الكلام وأهله .

أما الصحابة – رضي الله عنهم – فهم مجمعون إجماعاً لا شك فيه على اتباع نبيهم محمد – صلى الله عليه وسلم – وامتثال أمره وعدم التزحزح عن منهجه قيد شعرة ، ذلك لأنهم صاحبوه ورأوا فيه نور النبوة ، فآمنوا به وصدقوه ، وأحبوه حباً لم يكن له في التاريخ مثيلاً لا سابقاً ولا لاحقاً ، واتبعوا النور الذي أنزل معه ، فاستحقوا وصف الله تعالى لهم بأنهم هم المفلحون ، الصادقون[١] .

فأول من أبدأ به عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – وهو من هو في حبه واتباعه لرسول الله – صلى الله عليه وسـلم – بعـد الصـديق أبي بكر – رضي الله عنه – فقد نقل عنه السيوطي أنه قال : " يهدم الإسلام ثلاث : زلة عالم ، وجـدال مـنافق بالقرآن ، وأئمة مضلون "[٢] وهذا الصحابي الجليل عبدالله بن مسعود – رضي الله عنه – يأمر المسلمين بالاتـباع ، وينهاهم عن الضلال والابتداع ، فيقول – رضي الله تعالى عنه – : " يا أيها الناس : إن الله بعث محمداً بالحق وأنـزل عليه الفرقان ، وفرض عليه الفرائض ، وأمره أن يعلم أمته ، فبلغ رسالته ، ونصح لأمته ، وعلمهم ما لم يكونوا يعلمون ، وبين لهم ما يجهلون ، فاتبعوا ولا تبتدعوا فقد كفيتم ، كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة"[٣] وهو تصريح من ابن مسعود – رضي الله عنه – بأن المحدثات في الدين بدع ، وهي بدورها ضلالات ، وهذا يتناول علم الكلام ، لأنه محدث ، وليـس مبنياً على أصول الكتاب والسنة ، – كما قد بينا قبل ذلك – وابن مسعود – رضي الله عنه – لم يخرج في كلامه هذا عما قاله النبي – صلى الله عليه وسلم – حيث قال : " إن أصدق الحديث كتاب الله ، وخير الهدى هدى محمد – صلى الله عـليه وسـلم – وشـر الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة "[٤] .وهو نفس المعنى الذي في حديث العـرباض بـن سـارية – رضي الله عنه – عن النبي – صلى الله عليه وسلم – قال : " ... عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين ، عضوا عليها بالنواجذ ، وإياكم ومحدثات الأمور ، فإن كل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة "[٥] .

---

(١) قـال تعـالى : (ذلك الكتاب لا ريب فيه هدىً للمتقين {٢} الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون {٣} والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون {٤} أولئك على هدىً من ربهم وأولئك هم المفلحون {٥}) سورة البقرة ، والصحابة – رضي الله عنهم – قـد بـلغوا الغايـة في الإيمان بالغيب ، وإقامة الصلاة والإيمان بالآخرة ، والإخلاص واليقين فلذلك استحقوا وصفهم بالمفلحين ، وكذلك أول سورة المؤمـنون ، ومن سورة الأعراف الآية (١٥٧) ، وقال تعالى : (إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله ، أولئك هم الصادقون {١٥}) سورة الحجرات ، والصحابة – رضي الله عنهم – جميعاً هم أول الموصوفين بهذه الأوصاف .

(٢) صون المنطق (ص٣٨) ، ذم الكلام (٣٧٥/١) رقم (٨٠) والأثر صحيح . رواه الدارمي في " سننه " (٨٢/١) رقم (٢١٤) .

(٣) صون المنطق (ص٣٥-٤٨) ، ذم الكلام (١٦٥/٢) ، روى الجزء الأخير من الأثر مختصراً : وكيع في " الزهد " (٣١٥) ، وأبو خيثمة في " العلم " (٥٤) ، وأحمـد فـي " الزهد " (ص٢٠٢) من طريق وكيع ، والدارمي في " سننه " (٢١١) في المقدمة ، وابن وضاح في " البدع " (ص١٠) من طـريقين ، والمـروزي فـي " السنة " (ص٢٣) ، والطبراني في " الكبير " (١٦٨/٩) رقم (٨٧٧٠) قال الهيثمي : " ورجاله رجال الصحيح " مجمع الزوائد (١٨١/١) ، ورواه ابن بطة في الإبانة الكبرى (١٧٤،١٧٥) وفي الإبانة الصغرى (١٠٣) ، ورواه ابن أبي زمنين في " أصول السنة " (١١) واللالكائي (١٠٤) ، والبيهقي في " المدخل إلى السنن " (٢٠٤) ، وفي " الشعب " ٤٠٧/٢) رقم (٢٢١٦) ، وأورده ابن قدامة في ذم التأويل (٥٨) .

(٤) صون المنطق (ص/٤٣) ، والحديث صحيح ، رواه مسلم في " صحيحه " (٥٩٢/٢) كتاب الجمعة (٧) باب (١٣) ح رقم {٤٣-(٨٦٧)} .

(٥) صون المنطق (ص/٤٦) ، والهروي : ذم الكلام (١١٣/٣-١٤٨) ، والحديث صحيح – كما قال أبو العباس الدغولي ، ونقله عنه الهروي – وقد أخـرج هذا الحديث : الإمام حمد في " المسند " (١٢٧/٤،١٢٦) ، والدارمي في " سننه " (٥٧/١) وابن ماجة في " السنن " (٤٤) وصححه كما قال ابن حجر في الفتح (٢٥٣/١٣) ، والحاكم في " المستدرك " (٩٥/١-٩٦) وفي المدخل إلى الصحيح ، وصححه ووافقه الذهبي .

وقـد أتى أبـو قرة الكندي ابن مسعود بكتاب فقال : إني قرأت هذا بالشام فأعجبني ، فإذا هو كتاب من كتب أهل الكتاب ، فقال ابن مسعود : إنما هلك من كان قبلكم باتباعهم الكتب ، وتركهم كتاب الله ، فدعا بطست وماء ، فوضعه فيه ، وأماثه بيده حتى رأيت سواد المراد"[١] . ولذلـك قـال ابن مسعود : " إنكم ستحدثون ويحدث لكم ، فإذا رأيتم محدثاً فعليكم بالأمر الأول "[٢] .

كمـا أنـه أمـر بالتأسـي بصحابة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال : " من كان منكم مؤتسياً فليأتسي بأصحاب محمد - صلى الله عليه وسلم - فإنهم كانوا أبر قلوباً ، وأعمق علماً ، وأقل تكلفاً ، وأقوم هدياً ، وأحسن أخلاقاً ، اختارهم الله لصحبة نبيه ، وإقامة دينه فاعرفوا لهم فضلهم واتبعوهم في آثارهم فإنهم كانوا على هدى مستقيم "[٣] .

كمـا نقل السيوطي آثاراً كثيرة عن الصحابة في نفس هذا المعنى الذي يؤكد على وجوب اتباع النبي - صلى الله عليه وسلم - وصحابته الكرام دون دخول في جدال أو اشتغال بعلم الكلام فأثر ذلك عن ابن عباس[٤] ، وأبي بن كعب[٥] ، ومعاذ بن جبل[٦] ، و محمد بن علي[٧] وابن عمر[٨] - رضي الله عنهم جميعاً - .

والـتابعون أيضاً آثارهم في هذا الباب كثيرة ، فمنهم منصور بن المعتمر[٩] الذي قال : ما هلك أهل دين قط حتى يخـلف فيهـم الـزنادقة[١٠]. ومـنهم عمر بن عبدالعزيز[١١] الذي قال : لم يزل أمر بني اسرائيل مستقيماً حتى حدث فيهم المولدون أبناء سبايا الأمم ، فقالوا فيهم بالرأي ، فضلوا وأضلوا[١٢] .

ومـنهم إبراهيم النخعي[١] ، قال في قوله تعالى : (فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء ...)[٢] قال : اعزي بعضهم ببعض بالجدال في الدين[٣] .

ورواه أيضـاً أبو داود في " سننه " (٤٦٠٧) ، ورواه الترمذي في " سننه " (٢٦٧٦) وقال : " حديث حسن صحيح " كما نقله عنه الحافظ ابن الجوزي في " تلبيس إبليس " (ص٢٢) ورواه ابن جرير في " تفسيره " (٦/٢١٢-٢١٣) وابن أبي حاتم في " تفسيره " (١٠٢٠١) ، وابن حبان في " صحيحه " (١ رقم ٥) وصححه ابن تيمية في " مجموع الفتاوي " (٤٩٣٩/٢٨) .

(١) صون المنطق ،ص٣٦) ، ذم الكلام (٣٤٩/١) .

(٢) صون المنطق (ص/٤٥) ، ذم الكلام (٤٧/٣) رقم (٥٤٩) .

(٣) صون المنطق (ص٥٢) ، ذم الكلام (٣٨/٤) رقم (٧٥٨) .

(٤) انظر صون المنطق (ص/٥٠،٤٩،٣٩) .

(٥) انظر نفسه (ص/٣٩) .

(٦) انظر نفسه (ص/٥٢،٤٥) .

(٧) انظر نفسه (ص/٥٣،٤٧) .

(٨) انظر نفسه (ص/٥١) .

(٩) منصور بن المعتمر بن عبدالله السلمي ، ابو عتاب ، من أعلام رجال الحديث من أهل الكوفة (ت١٣٢هـ-٧٥٠م) انظر : تهذيب (٣١٢/١) ، حلية الأولياء (٤٠/٥) ، تاريخ الإسلام للذهبي (٣٠٥/٥) ، الأعلام (٣٠٥/٧) .

(١٠) صون المنطق (ص٣٧) ، وذم الكلام (٣٥٠/١) رقم (٦٢) ، وفيه " ما هلك دين... " .

(١١) عمـر بن عبدالعزيز بن مروان بن الحكم الأموي ، القرشي ، أبو حفص ، الخليفة الصالح ، والملك العادل ، ولد عام (٦١هـ-٦٨١م) ، (ت١٠١ هـ-٧٢٠م) رحمه الله تعالى ، أنظر : فوات الوفيات (١٠٥/٢) ، تهذيب التهذيب (٤٧٥/٧) ، حلية الأولياء (٢٥٣/٥) ، صفة الصفوة (٦٣/٢) ، وانظر مراجع أخرى في الأعلام (٥/٥) .

(١٢) صـون المنطق (٣٧) ، وذم الكلام (٣٥٥/١-٣٥٦) رقم (٦٥)،وهذا الأثر إسناده ضعيف . أخرجه الشافعي في السنن (٥٢/٢) رقم (٣٥٦) ومن طريق البيهقي في " معـرفة السنن " (١٨٧/١) رقم (٣٣٣) من طريق عبدالله بن مؤمل المخزومي ، عن عمر بن عبدالرحمن بن محيض ، عن عمر بن عبدالعزيز ، به ، وعبدالله بن مؤمل المخزومي ضعيف الحديث - كما في " التقريب " . وعمر بن عبدالرحمن بن محيض السهمي ، مقبول ، كما في " التقريب " ولم يتابع .

ومنهم أبو عمرو الأوزاعي[٤] الذي قال : عليك بآثار السلف وإياك وآراء الرجال وإن زخرفوها بالقول[٥] .

ومــنهم الحســن البصــري[٦] الذي قال : لا تجالس أصحاب الأهواء وإن ظننت أن عندك الجواب[٧] . أي وإن اعــتقدت أنك قادر على الرد على آرائهم ومعتقداتهم فلا تجالسهم . وأمثال هذه الآثار عن كثير من التابعين منهم عطاء بن أبــي رباح[٨] ، ومطرف بن عبدالله بن الشخير[٩]، ويحي بن أبي كثير[١٠] وغيرهم كثير جداً ، ولست هنا في مقام الحصر والاستقصاء لأقوال الصحابة والتابعين كلها[١١] .

كمــا يستشهد السيوطي على ما ذهب إليه من ذم الكلام وأهله بأقوال الأئمة الأربعة ، أبي حنيفة[١٢] ، ومالك[١٣] ، والشافعي[١٤] ، وأحمد[١]   - رحمهم الله تعالى جميعاً - .

---

(١) إبراهيم بن يزيد بن قيس بن الأسود ، أبو عمران ، النخعي ، من منحج ، من أكابر التابعين صلاحاً وصدق رواية ، وحفظاً للحديث ، من أهل الكوفة ، ولد (٤٦هـ-٦٦٦م) وتوفي مختفياً من الحجاج بن يوسف (٩٦هـ-٨١٥م) . انظر : طبقات ابن سعد (١٨٨/٦) ، تهذيب التهذيب ، وحلية الأولياء (٢١٩/٤) ، الأعلام (٨٠/١) .

(٢) سورة المائدة ، بعض الآية (١٤) .

(٣) صــون المــنطق (ص٣٧) وعــزاه إلى سعيد بن منصور في " سننه " ، وهو في " ذم الكلام " (٩٢،٩٣/٤) ، ابن جرير في " جامع البيان " (١٥٨/٦) وعزاه السيوطي في " الدر المنثور " (٤٢/٣) إلى أبي عبيد ، وابن المنذر .

(٤) عبدالرحمن بن عمرو بن يُحْمِد الأوزاعي ، من قبيلة الأوزاع ، إمام الديار الشامية في الفقه والزهد ، ولد في بعلبك (٨٨هـ-٧٠٧م) ونشأ في البقاع ، وسكن بيروت وتوفي بها (١٥٧هـ-٧٧٤) ، انظر : ابن النديم (٢٢٧/١) والوفيات (٢٧٥/١) حلية الأولياء (١٣٥/٦) ، شذرات الذهب (٢٤١/١) ، الأعلام (٣٢٠/٣) .

(٥) صون المنطق (ص٣٩) ، ذم الكلام (٤٣١/١) رقم (١٢٠) ، (٢٥٩/٢) رقم (٣٢٤) .

(٦) الحســن بن يسار البصري ، أبو سعيد ، تابعي جليل ، إمام البصرة وحبر الأمة في زمانه ، ولد بالمدينة المنورة (٢١هـ-٦٤٢م) ، ونشأ في كنف علي بــن أبــي طالب - رضي الله عنه - توفي بالبصرة (١١٠هـ-٧٢٨م) ، انظر : تهذيب التهذيب ، وفيات الأعيان ، ميزان الاعتدال (٢٥٤/١) ، حلية الأولياء (١٣١/٢) ، الأعلام (٢٢٦/٢) .

(٧) صون المنطق (ص٥٢) ، ذم الكلام (٤٣/٤) .

(٨) عطــاء بن أسلم بن صفوان ، تابعي ، من أجلاء الفقهاء ، كان عبداً أسود ، ولد بجَنَد   (باليمن) (٢٧هـ-٦٤٧م) ونشأ بمكة فكان مفتي أهلها ومحدثهــم ، وتوفي بها (١١٤هـ-٧٣٢م) انظر : تذكرة الحفاظ (٩٢/١) ، تهذيب (١٩٩/٧) ، حلية الأولياء (٣١٠/٣) ، صفة الصفوة (١١٩/٢) ، ميزان الاعتدال (١٩٧/٢) ، الوفيات (٣١٨/١) ، الأعلام (٢٣٥/٤) .

(٩) مطــرف بن عبدالله بن الشِّخِّير الحرشي العامري ، أبو عبدالله ، زاهد من كبار التابعين ، ولد في حياة النبي - صلى الله عليه وسلم - وكانت إقامته ووفاتــه بالبصرة (٨٧هـ-٧٠٦م) انظر : حلية الأولياء (١٩٨/٢) ، تهذيب التهذيب (١٧٣/١٠) ، الاعلام (٢٥٠/٧) ، وانظر : صون المنطق (ص ٥٣) .

(١٠) يحي بن صالح الطائي بالولاء ، اليمامي ، أبو نصر بن أبي كثير ، عالم أهل اليمامة في عصره ، من ثقات أهل الحديث ، وفاته (١٢٩هـ-٧٤٧م) انظــر : تاريخ الإسلام للذهبي (١٧٩/٥) ، وتهذيب التهذيب (٢٦٨/١١) ، طبقات ابن سعد (٤٠٤/٥) ، الاعلام (١٥٠/٨) ذكره السيوطي في صون المنطق (ص٥٦) .

(١١) لــلمزيد من معرفة أقوال والصحابة والتابعين ، انظر صون المنطق (ص٥٦) وما بعدها . وذم الكلام للهروي ت . أبي جابر عبدالله بن محمد بن عثمان الأنصاري .

(١٢) الــنعمان بــن ثابت ، التيمي بالولاء ، الكوفي ، أبو حنيفة ، إمام الحنفية الفقيه المجتهد المحقق ولد بالكوفة (٨٠هـ-٦٩٩م) ونشأ بها ، يبيع الخز ويطلب العلم ، أراده المنصور ليتولى القضاء فأبى ، فحبسه حتى مات ببغداد (١٥٠هـ-٧٦٧م) . انظر : تاريخ بغداد (٣٢٣/١٣) ، ابن خلكان (١٦٣/٢) والنجوم الزاهرة (١٢/٢) والبداية والنهاية (١٠٧/١٠) ،   الاعلام (٣٦/٨) .

(١٣) مــالك بن أنس بن مالك الأصبحي ، الحميري أبو عبدالله ، إمام المذهب المالكي أحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة ، انظر : الديباج المذهب (٧١) الوفيات (٤٣٩/١) ، تهذيب التهذيب (٥/١٠) صفة الصفوة (٩٩/٢) ، الأعلام (٢٥٨/٥) .

(١٤) محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع الهاشمي القرشي المطلبي ، أبو عبدالله ، إمام المذهب الشافعي وأحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة ، أنظر : تذكرة الحفاظ (٣٢٩/١) ، تهذيب التهذيب (٢٥/٩) الوفيات (٤٤٧/١) الأعلام (٢٦/٦) .

قال الإمام ابن حجر : " واشتد انكار السلف لذلك – يعني للبدع – كأبي حنيفة وأبي يوسف[٢] والشافعي ، وكلامهم في ذم أهل الكلام مشهور ، وسببه أنهم تكلموا فيما سكت عنه النبي – صلى الله عليه وسلم – وأصحابه ... فالسعيد من تمسـك بمـا كان عليه السلف ، واجتنب ما أحدثه الخلف "[٣] ، وكذلك سفيان الثوري[٤] ، و يحي بن يحي النيسابوري[٥] ، وابن المبارك[٦] ، ومحمد بن الحسن[٧] ، وأبو يوسف[٨]. فهؤلاء جميعاً وغيرهم ممن لم نذكرهم لم يكونوا يتكلمون فـي شـئ مـن علم الكلام ، بل كانوا ينهون عنه وعن الخوض فيه ، ويأمرون أصحابهم وأتباعهم باتباع الكتاب والسنة ، وعدم الخوض في شئ من علم الكلام ، ويزجرون الناس عن مجالسة المتكلمين ، وعن النظر في شئ من كتبهم .

وعند معرض كلام السيوطي عن أصحاب الفرق الضالة ، وجدته يصف الروافض بالكذب ، والمعتزلة بالكلام ، أما أصحاب الحديث فيصفهم بالمروءة والدين[٩] .

وما قاله في ذلك هو الصواب أما الروافض فلأن دينهم فعلاً قائم على الكذب الذي أشهره التقية[١٠] .

ولهـذا قـام جلال الدين السيوطي بتوجيه رسالة سماها " مفتاح الجنة في الاحتجاج بالسنة "[١] إلى المسلمين في مصـر يوم دخلها داعية إيزاني يزعم أنه يدعو إلى التقريب بين السنة والشيعة بين لهم فيها حقيقة دين الشيعة المبني على التقية والخداع والكذب[٢] .

---

(١) أحمـد بن محمد بن حنبل ، أبو عبدالله ، الشيباني الوائلي ، إمام المذهب الحنبلي وأحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة ، أنظر : ابن عساكر (٢٨/٢) . حلية الأولياء (١٦١/٩) صفة الصفوة (١٩٠/٢) تاريخ بغداد (٤١٢/٤) ، والأعلام (٢٠٣/١) .

(٢) مضت ترجمته .

(٣) فتح الباري (٢٥٣/١٣) .

(٤) سـفيان بن سعيد بن مسروق الثوري من بني ثور بن عبد مناة ، من مضر ، أبو عبدالله ، أمير المؤمنين في الحديث ، ولد بالكوفة (٩٧هـ-٧١٦م) ت (١٦١هـ-٧٧٨م) . انظـر : دول الإسـلام (٨٤/١) ، ابن خلكان (٢١٠/١) ، طبقات ابن سعد (٢٥٧/٦) ، حلية الأولياء (٣٥٦/٦) ، تهذيب التهذيب (١١١/٤) ، تاريخ بغداد (١٥١/٩) .

(٥) يحيي بن يحيي بن بكير بن عبدالرحمن ، التميمي الحنظلي ، أبو زكريا ، النيسابوري ، إمام في الحديث ، ورع ثقة ، ولد (١٤٢هـ-٧٥٩م) وتوفي (٢٢٦هـ-٨٤٠م) انظر : تهذيب (٢٩٦/١١) وانظر الأعلام (١٧٦/٨) .

(٦) عبدالله بن المبارك بن واضح الحنظلي بالولاء ، التميمي ، المروزي ، أبو عبدالرحمن ، الحافظ ، شيخ الإسلام ، المجاهد التاجر ، صاحب التصانيف أفنى عمره في الأسفار حاجاً ومجاهداً وتاجراً ، ولد (١١٨هـ-٧٣٦م) وتوفي بهيت على الفرات منصرفاً من غزو الروم (١٨١هـ-٧٩٧م) انظر : تذكرة الحفاظ (٢٥٣/١) ، مفتاح السعادة (١١٢/٢) ، حلية الأولياء (١٦٢/٨) وشذرات الذهب (٢٩٥/١) ، الأعلام (١١٥/٤) .

(٧) محمـد بـن الحسـن بن فرقد ، الشيباني من موالي بني شيبان ، أبو عبدالله ، إمام بالفقه والأصول ، وهو الذي نشر علم أبي حنيفة أصله من قرية حرسته بغوطة دمشق ولد بواسط (١٣١هـ-٧٤٨م) ونشأ بالكوفة ، ثم انتقل إلى بغداد ومنها إلى خراسان وتوفي بالري (١٨٩هـ-٨٠٤م) . انظر : الفهرست لإبن النديم (٢٠٣/١) ، الوفيات (٤٥٣/١) ، البداية والنهاية (٢٠٢/١٠) ، لسان الميزان (١٢١/٥) والنجوم الزاهرة (١٣٠/٢) ، الأعلام (٦/ ٨٠).

(٨) مضت ترجمته .

(٩) صـون المنطق (١٤٦) عن هارون الرشيد ، ٠ص/٦٠) عن ابن المبارك ، وانظر : د/محمد جلال أبو الفتوح شرف : جلال الدين السيوطي منهجه وآراؤه الكلامية (ص/٧٧) ، ذم الكلام (٢١٦/٤) رقم (١٠١٩) ٠

(١٠) الـتقية عند الشيعة : هي موافقة غيرهم في الظاهر ، ومخالفتهم في الباطن ، وقد رووا في ذلك " خالطوهم بالبرانية وخالفوهم بالجوانية " وهو في اصول الكافي للكليني وهو من الكتب الشيعية (١١٦/٩) ، ورووا أيضاً " إن تسعة أعشار الدين في التقية ، ولا دين لمن لا تقية له " نفس المصدر (٩/ ١١٠) ونسبوا لجعفر الصادق في تفسير قوله تعالى : (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) قال : أي أعمالكم بالتقية ، وهو في كتاب الاعتقادات ط إيران (١٣٧٤هـ) .

وأمـــا المعـــتزلة فهم الذين حملوا لواء البدعة النكراء التي هي بدعة الكلام ، ورفعوا منارها وهاجموا أهل السنة واضـــطهدوهم وعذبوهم ، واستعدوا عليهم الحكام والخلفاء ، فاستوجبوا بذلك اللعائن التي استمطروها من أفواه الصـالحين المتقين ، من أمثال الإمام أبي حنيفة والإمام مالك – رحمهما الله – ولا يخفى على كثير من العقلاء ما وقع للإمام أحمد بن حنبل – رحمه الله – من الضرب والسجن والتعذيب على أيدي هؤلاء المعتزلة في قضية خلق القرآن التي ابتليت بها الأمة زمناً. ثم افترقوا في مذهبهم فرقاً شتى ، وطرائق قدداً ، ومن أراد الاطلاع ليتبين صحة هذا الكلام فليراجع كتب الفرق[٣] ، وسـيرى من ذلك العجب ، فلا يكاد يجد اثنين على طريقة واحدة في الاعتقاد ، ولكن يبدع بعضهم بعضاً ، بل يترقون إلى الـتكفير ، يكفر الابن أباه ، والرجل أخاه ، والجار جاره[٤] فتراهم أبداً في تنازع وتباغض واختلاف تنقض أعمارهم ولما تـتفق كلمـتهم ، إن المعتزلة مع اجتماعهم في هذا اللقب يكفر البغداديون منهم البصريين ، والبصريون منهم البغداديين ، ويكفر أصحاب أبي علي الجبائي[٥] ابنه أبا هاشم ، وأصحابُ أبي هاشم يكفرون أباه أبا علي وكذلك سائر رؤوسهم وأرباب المقالات منهم ، إذا تدبرت أقوالهم رأيتهم متفرقين يكفر بعضهم بعضاً ويتبرأ بعضهم من بعضهم الآخر ، وكذلك الخوارج والروافض فيما بينهم وبين سائر المبتدعة بمثابتهم ، وهل على الباطل دليل أظهر من هذا[٦] ؟؟!

قال تعالى : (إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شئ إنما أمرهم إلى الله)[٧] إن أهل البدعة تفرقوا وتحـزبوا لأنهم أخذوا الدين من المعقولات والآراء ، فأورثهم الافتراق والاختلاف ، لأن دلائل العقل قلما تتفق ، لأن عقل كـل واحـد يُرِي صاحبه غير ما يرى الآخر ، بل قد يُرِي صاحبه أن الآخر على ضلال أو كفر ومن هنا جاء الاختلاف والافتراق[٨] .

وأمـــا أصـــحاب الحديث ، فهم الفرقة الناجية المنصورة إلى يوم القيامة – إن شاء الله – ذلك لأنهم اتبعوا القرآن الكـريم وفهموه على فهم الرسول – صلى الله عليه وسلم – وصحابته الكرام ، فتحدثوا وعلموا ودعوا ونشروا العلم الذي كـان يتكلم به النبي – صلى الله عليه وسلم – وأصحابه – رض الله عنهم – وكفوا وسكتوا عما سكتوا عنه ، ووسعهم ، وسـع القـوم ، واتبعوا مع كتاب الله سنة رسوله – صلى الله عليه وسلم – وما الدين إلا نصوص الكتاب والسنة على فهم السلف الصالحين من الصحابة والتابعين ومن تبعهم بإحسان .

---

(١) هذه الرسالة بين يدي الآن مطبوعة بضبط وتعليق خالد عبدالفتاح شبل ، مكتبة التراث الإسلامي القاهرة . بدون رقم طبعة ولا تاريخ.

(٢) انظر : د/ عبدالله الأفغاني : سراب في إيران ، كلمات سريعة حول الخميني ودين الشيعة (ص/٢٣،٢٢) ط٢/١٤٠٢هـ–١٩٨٢م . بدون ناشر . ومـن أراد التوسع في معرفة كذبهم وضلالهم فليرجع إلى المصنف العظيم " منهاج السنة النبوية في الرد على الشيعة والقدرية " بأكمله وهو من مصنفات شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله .

(٣) مـن ذلك : مقالات الاسلاميين لأبي الحسن الأشعري ١٥٥ ــ ٢٧٩، الفرق بين الفرق للبغدادي ١١٤ ــ ٢٠١ ، الملل والنحل للشهرستاني (٤٣ ــ ٨٢) ، نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام د/ علي سامي النشار (٣٧٣ ــ ٥١٩) .

(٤) انظر : صون المنطق (ص/١٦٧) ، وهو من كلام أبي المظفر السمعاني في كتابه " الانتصار لأهل الحديث " .

(٥) مضت ترجمته .

(٦) انظر : صون المنطق (ص/١٦٨،١٦٧) ، نقلاً عن أبي المظفر السمعاني في كتابه الانتصار لأهل الحديث .

(٧) سورة الأنعام بعض آية (١٥٩) .

(٨) انظر : صون المنطق (ص/١٦٨) .

إنهم جعلوا الكتاب والسنة أمامهم ، وطلبوا الدين من قبلهما ، وما وقع لهم من معقولهم وخواطرهم عرضوه على الوحيين ، فما وجدوه موافقاً لهما قبلوه وشكروا الله عز وجل ، حيث أراهم ذلك ووفقهم عليه ، وما وجدوه مخالفاً لهما تركوه وأقبلوا على الكتاب والسنة ورجعوا بالتهمة على أنفسهم ، فإن الكتاب والسنة لا يهديان إلا إلى الحق ، ورأى الإنسان قد يرى الحق وقد يرى الباطل[١] وهذا معنى قول أبي سليمان الداراني[٢] - وهو واحد زمانه في المعرفة - : ما حدثتني نفسي بشئ إلا طلبت منها شاهدين من الكتاب والسنة ، فإن أتت بهما ، وإلا رددته[٣] .

صح عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قوله : " لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله "[٤]وفي بيان هذه الطائفة المتمسكة بالحق . يقول علي بن المديني[٥]: هم أصحاب الحديث[٦] .

وهم الذين ينطبق عليهم ما ورد في الأثر " يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ، ينفون عنه تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين "[٧] ومما يدل على أن أهل الحديث هم أهل الحق ، وهم عدول الأمة أنك لو طالعت جميع كتبهم المصنفة من أولهم إلى آخرهم ، قديمهم وحديثهم مع اختلاف بلدانهم ، وزمانهم ، وتباعد ما بينهم في الديار ، وسكون كل واحد منهم قطراً من الأقطار ، وجدتهم في بيان الاعتقاد على وتيرة واحدة ، ونمط واحد يجرون فيه على

---

(١) انظر : صون المنطق (ص/١٦٧) .

(٢) مضت ترجمته .

(٣) صون المنطق (١٦٧) ، نقله السيوطي عن أبي المظفر السمعاني في كتابه " الانتصار لأهل الحديث " قال د/ النشار : " لم أعثر على ذكر لهذا الكتاب في " كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون " انظر : صون المنطق ص١٤٧) حاشية (١) .

(٤) متفق عليه .

رواه البخاري في " صحيحه " كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة (٩٦) باب (١٠) ح رقم (٧٣١١) فتح الباري (٢٩٣/١٣)

ورواه مسلم في " صحيحه " (١٣٧/١) كتاب الإيمان (١) باب (٧١) ح رقم {٢٤٧-(١٥٦)} ، وفي كتاب الإمارة (٣٣) باب (٥٣) ح رقم {١٧٠-(١٩٢٠)} (١٥٢٣/٣) ، رقم {١٧٣-(١٩٢٣)} ، رقم {١٧٤-(١٠٣٧)} (١٥٢٤/٣) . ورواه أبو داود في " سننه " كتاب الفتن (١) والترمذي في " سننه " كتاب الفتن (٢٧،٥١) وابن ماجة في " سننه " المقدمة (١) ، وفي كتاب الفتن (٩) ، ورواه أحمد في " المسند " (٢٧٩/٥، ٢٧٨، ٢٦٩، ٣٤) .

(٥) علي بن عبدالله بن جعفر السعدي ، بالولاء ، المديني ، البصري ، أبو الحسن محدث مؤرخ ، كان حافظ عصره ، ولد بالبصرة (١٦١هـ-٧٧٧م) ، ومات بسامراء (٢٣٤هـ-٨٤٩م) انظر : تذكرة الحفاظ (١٥/٢) ، تهذيب التهذيب (٣٤٩/٧) ، طبقات الحنابلة (١٦٨) ، ميزان الاعتدال (٢٢٢٩/٢) ، تاريخ بغداد (٤٥٨/١١) ، مفتاح السعادة (١٦٣/٢) ، الأعلام (٣٠٣/٤) .

(٦) صون المنطق (ص٤٩) ، وبمثل كلام ابن المديني قال الإمام أحمد انظر : صحيح مسلم (١٥٢٣/٣) حاشية المحقق (٢) .

(٧) صون المنطق (ص٤٩) ، وابن عبدالبر : التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد (٥٩/١) ت.أ/ مصطفى بن أحمد العلوي ، أ/ محمد عبدالكبير البكري ط١٤٠٢/٢هـ-١٩٨٢م ، وانظر خطبة كتاب الرد على الجهمية للإمام أحمد .

والحديث اسناده موضوع ، فيه وهب بن وهب ، هو ابن كثير بن عبدالله القرشي القاضي ، وكنيته أبو البختري ، رماه بالوضع الإمام أحمد وابن الجارود ، وابن عدي والحاكم ، وكذبه غير واحد من أهل العلم كيحي بن معين ، وابن راهويه ، ووكيع ، وللحديث شواهد متعددة ، كلها ضعيفة لا يتقوى بها ، وبعضها مسلسلة بالعلل ، قال العراقي في " التقييد " (ص١١٦) : " وقد روي متصلاً من رواية جماعة من الصحابة : علي بن أبي طالب ، وابن عمر ، وأبي هريرة ، وعبدالله بن عمرو ، وجابر بن سمرة ، وأبي أمامة ، وكلها ضعيفة ، لا يثبت منها شئ ، وليس فيها شئ يقوي المرسل المذكور... " .

وقد سبق العراقي إلى هذا الحكم الدار قطني وغيره فيما نقله عنه ابن الملقن في " المقنع " (٢٤٦/١) فقال : " وقال جماعة منهم الدار قطني لا يصح مرفوعاً إنما هو مرسل " .

وقال ابن عبدالبر في كتابه " جامع بيان العلم وفضله " : " إن هذا الحديث روى عن أسامة وأبي هريرة بأسانيد ، وكلها مضطربة غير مستقيمة " وقال العقيلي في " الضعفاء " : " وقد رواه قوم مرفوعاً من جهة لا تثبت " . وعليه فالحديث ضعيف كما ذهب إلى ذلك الدار قطني ، والعقيلي ، وابن القطان ، وابن كثير ، والعراقي ، والبلقيني ، وغيرهم ، والواقع يشهد بذلك حيث وجد من حملة العلم من هو مخروم العدالة فاسق ، وهذا فيه تعارض مع ما وقع في الخبر من الأخبار بأن كل حامل علم عدل . والله أعلم .

طريقة لا يحيدون عنها ، ولا يميلون فيها ، قولهم في ذلك واحد ، وفعلهم واحد ، لا ترى بينهم اختلافاً ولا تفرقاً في شئ ما وإن قـل ، بـل لو جمع جميع ما جرى على ألسنتهم مما نقلوه عن سلفهم ، وجدته كأنه جاء من قلب واحد ، وجرى على لسان واحد وهو على الحق دليل مبين(١) .

ويصـل السيوطي إلى موقف الصوفية من علم الكلام ، ولم يكن موقف علماء الصوفية العاملين المتبعين للكتاب والسـنة مختلفاً عما كان عليه السلف الصالح من الصحابة - رضي الله عنهم - والتابعين ومن تبعهم بإحسان ، فمن هؤلاء شيخ مذهب الصوفية الجنيد بن محمد(٢) ، الذي قال : " أقل ما في الكلام سقوط هيبة الرب من القلب ، والقلب إذا عرى من الهيبة بالله عرى من الإيمان "(٣) . ومثل هذا الكلام ورد عن سهل بن محمد الصعلوكي(٤) .

ومنهم أيضاً ممشاد الدينوري ، الذي كان يحذر أصحابه من أصحاب علم الكلام ألا يخرجوهم من دينهم(٥) .

ومنهم كذلك سهل التستري(٦) ، الذي حث على التمسك بالكتاب والسنة فقال : " ... ما أحد ترك الظاهر إلا خرج إلى الزندقة "(٧) .

ومـنهم أيضـاً : أبـو حفص الحداد الذي سئل عن البدعة فقال : " التعدي في الأحكام ، والتهاون بالسنن ، واتباع الآراء والأهواء ، وترك الاقتداء والاتباع "(٨) .

ومـن مشـايخ الصـوفية كذلـك أبو علي الجوزجاني ، فقد سُئل : كيف الطريق إلى الله ؟ قال : أصح الطريق وأعمـرها و أبعدها من الشبه اتباع الكتاب والسنة قولاً وفعلاً وعزماً ، وعقداً ونية ، لأن الله تعالى قال : (وإن تطيعوه تهـتدوا)(٩) فسـأله : كيـف الطريق إلى اتباع السنة قال : مجانبة البدع ، واتباع ما اجتمع عليه الصدر الأول من علماء الإسلام وأهله ، والتباعد من مجالس الكلام وأهله ، ولزوم طريقة الاقتداء والاتباع ، بذلك أُمر النبي - صلى الله عليه وسلم - بقوله تعالى : (ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً)(١٠) .

وبعد نقد السيوطي علم الكلام على تلك المحاور الثلاثة السابقة واستطراده في ذلك بما يوحي لمن قرأ كلامه أنه عالم أثري سلفي ، لم يتأثر في عقيدته بعلم الكلام ، إلا أنه من الجلي جداً ــ وبعد أن علمنا موقفه من التأويل ، وكذلك بما

---

(١) انظر : صون المنطق (ص١٦٧) .

(٢) الجـنيد بن محمد بن الجنيد البغدادي ، الخزاز ، القواريري أبو القاسم ، شيخ مذهب الصوفية ، مولده ببغداد ومنشأه ووفاته (٢٩٧هـ-٩١٠م) بها ، انظر : وفيات الأعيان (١١٧/١) حلية الأولياء (٢٥٥/١٠) ، صفة الصفوة (٢٣٥/٢) ، تاريخ بغداد (٢٤١/٧) الاعلام (١٤١/٢) .

(٣) صون المنطق (ص/٧٤) ، ذم الكلام للهروي (٤٠٦/٤) .

(٤) صون المنطق (ص/٧٧) .

- والصعلوكي هو : سهل بن محمد بن سليمان الصعلوكي ، النيسابوري ، أبو الطيب ، مفتي نيسابور ، انظر : وفيات الأعيان (٢١/١) الأعلام (١٤/٣)

(٥) صون المنطق (ص/٧٤) ، ذم الكلام (٣٧٦/٤) رقم (١٢٤٤) .

(٦) هـو : سـهل بـن عبدالله بن يونس التستري ، أبو محمد ، أحد أئمة الصوفية ، انظر : طبقات الصوفية (٢٠٦) وفيات الأعيان ، (٢١٨/١) ، حلية الأولياء (١٨٩/١٠) ، الأعلام (١٤٣/٣).

(٧) صون المنطق (ص/٧٤) ، ذم الكلام (٣٧٧/٤-٣٧٨) رقم (١٢٤٦) .

(٨) صون المنطق (ص٧٥) ولم أعثر عليه في ذم الكلام .

(٩) سورة النور (٥٤) .

(١٠) سورة النحل (١٢٣) ، وانظر : صون المنطق (ص/٧٥) ، وذم الكلام (٣٨١/٤) رقم (١٢٥٢)

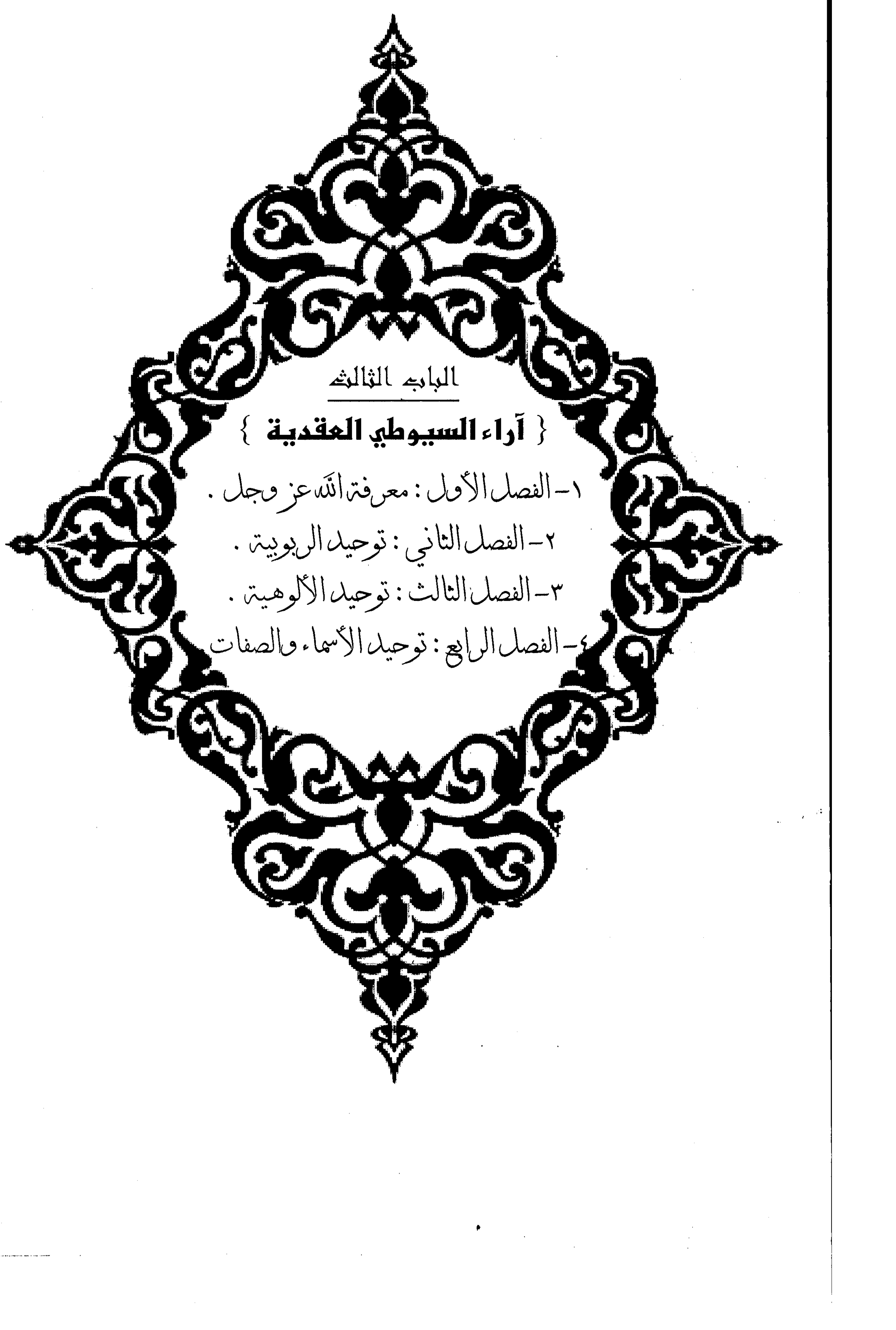
سـيأتي فـي موقفه من الصفات ـ أن السيوطي أشعري المعتقد له ميل واضح إلى التصوف ، وما المذهب الأشعري إلا مسلك من مسالك علم الكلام ، فكيف يتصور ذم علم الكلام مع اتباعه ؟ وكيف يتسق هدمه مع بناء المعتقد على قواعده ؟

الحق أن السيوطي يتبنى في ذلك ازدواجية عجيبة ، ليس من تفسير لها إلا بواحد من ثلاثة:-

<u>الأول :</u> أنـه ربما قصد بعلم الكلام المحرم ذاك الذي أوغل به اصحابه في تشققات وتفريعات طويلة لا تمت إلى العقيدة بصلة ، كما فعل الكثير من فرق المعتزلة وأضرابهم ، والتزموا بمقتضاه لوازم باطلة تقدح في الدين ٠

<u>الـثاني :</u> تحريمه على العامة دون الخاصة من العلماء الذين يعلمون قواعده ، وطرقه ، يقررون بها العقيدة ، ويردون بها شبهات الخصوم ، أما العوام فليس ذلك لهم ، لأنهم إن خاضوا في الاطلاع عليه كان سبباً في شتاتهم وضياعهم وضلالهم

<u>الـثالث :</u> أن السـيوطي اختار عقيدة الأشعري ، دون الخوض في علم الكلام ، أي كما يتلقنها العوام أو المبتدئون ، دون التوسع في الاستدلال أو الرد ٠ وهذا هو الأرجح ـ والله أعلم٠



الباب الثالث

{ آراء السيوطي العقدية }

١- الفصل الأول : معرفة الله عز وجل .
٢- الفصل الثاني : توحيد الربوبية .
٣- الفصل الثالث : توحيد الألوهية .
٤- الفصل الرابع : توحيد الأسماء والصفات

الفصل الأول

معرفة الله عزوجل

معـرفة الله – جل وعلا – أعظم المعارف وأهمها على الإطلاق فالذي لا يعرف ربه الذي خلقه لا تنفعه معرفة ألبـتة ، فـإن الله تعالى خلق الإنسان لغاية ، وأوجده لحكمة ، وإذا لم يعرف المرء خالقه وموجده ولأي غاية أوجده ، كان كالأنعام بل أضل .

المبحث الأول : هل المعرفة فطرية أم نظرية ؟

وهـذه المسألة – مع منتهى وضوحها وجلائها – تخبط كثيرٌ من الناس فيها خبط عشواء ، ولم يهتدوا فيها إلا إلى عمياء ، إلا من رحمهم الله تعالى وهداهم ، وكثر القيل والقال ، واشتد النزاع والجدال ، وكان الناس فيها على قولين :

١- فـريق هداهـم الله تعـالى إلى الحـق ، فعـلموا أن معـرفة الله تعـالى فطرية ، مركوزة في النفس البشرية ، لا تحتاج إلى دليل ، وهؤلاء هم أهل السنة والجماعة المتبعون للسلف الكرام .

ولكـن بعـض الناس قد تفسد فطرته لأسباب خارجية كاجتيال الشياطين له عن فطرته الصحيحة وكذلك التربية المنحرفة أو التنشيئة الضالة وغير ذلك . وعندئذ يحتاج إلى تذكير وتدليل وبيان ونظر ، قال ابن تيمية : " ... وهذا كما أن الذيـن أوجبوا النظر ، وقالوا : لا يحصل العلم إلا به مطلقاً ، أخطأوا ، والذين قالوا : لا حاجة إليه بحال ، بل المعرفة ، دائمـاً ضرورية لكل أحد في كل حال ، أخطأوا ، بل المعرفة وإن كانت ضرورية في حق أهل الفطر السليمة ، فكثير من الـناس يحـتاج فيهـا إلى نظـر ، والإنسـان قـد يسـتغني عـنه فـي حـال ، ويحـتاج إليـه فـي حال "[1] ويدل على فطرية المعرفة أدلة متعددة منها :

أولاً : القرآن الكريم :

وردت في القرآن الكريم آيات كريمة تؤكد فطرية معرفة الله عز وجل ، ومن ذلك :

١- قـال تعالى : (وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم . قالوا بلى شهدنا أن تقولـوا يـوم القيامـة إنـا كـنا عن هذا غافلين أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطـلون)[2] فهذه الآية الكريمة تقرر بوضوح أن الله تعالى قد أخذ ميثاقاً أزلياً على ذرية بني آدم قبل خروجهم إلى هذه الحياة الدنيا وأشهدهم جميعاً على أنه تعالى هو ربهم فعرفوه وأقروا له بذلك . وسواء كان هذا العهد قبل خروج الذرية إلى الدنيـا في عالم الذر ، أو كان عهد الفطرة – على خلاف بين العلماء – فإن ذلك لا يؤثر في حصول المعرفة ، فالآية إنما تؤكد هذه القضية وتقررها تقريراً واضحاً .

٢- قوله تعالى : (فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ، ولكن أكثر الـناس لا يعـلمون)[3] ، فالله تعالى يأمر رسوله – صلى الله عليه وسلم – بأن يقيم وجهه للدين ، فيقول جل وعلا :

---

(١) درء التعارض (٣/٣٠٣) ، وانظر مجموع الفتاوى (٦/٧٣) .

(٢) سورة الأعراف الأيتان (١٧٢-١٧٣) .

(٣) سورة الروم الآية (٣٠) .

فسدد وجهك واستمر على الدين الذي شرعه الله لك من الحنيفية ملة إبراهيم ، التي هداك الله لها ، وكملها لك غاية الكمال ، وأنــت مــع ذلك لازم فطرتك السليمة التي فطر الله الخلق عليها فإنه تعالى فطر الخلق على معرفته وتوحيده ، وأنه لا إله غيره[١]. نعم قد تطمس هذه الفطرة وتغطى حيناً عند بعض الناس لكنها لا تزول بالكلية لتبقى شاهدة على أهلها يوم القيامة ، وإن كــان ذلــك لا يترتب عليه ثواب ولا عقاب قبل مجئ الرسل وبلوغ الدعوة ، لكن الله تعالى جعل ذلك لإقامة الحجة وقطــع الأعذار[٢] . قال تعالى (...وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً)[٣] وقال جل وعلا : (رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكــون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكيماً)[٤] وأما قوله تعالى : (لا تبديل لخلق الله ...) قال بعض المفسرين معناه لا تبدلوا خلق الله فتغيروا الناس عن فطرتهم التي فطرهم الله عليها ، فيكون خبراً بمعنى الطلب وهذا معنى حسن صحيح[٥] .

" وقــال آخرون : هو خبر على بابه ومعناه : أنه تعالى ساوى بين خلقه كلهم في الفطرة على الجبلة المستقيمة لا يولد أحد إلا على ذلك ولا تفاوت بين الناس في ذلك ، ولهذا قال ابن عباس ، وإبراهيم النخعي ، وسعيد بن جبير ، ومجاهد وعكرمة ، وقتادة والضحاك ، وابن زيد في قوله تعالى : (لا تبديل لخلق الله) أي : لدين الله "[٦] .

وقــال الإمــام الــبخاري – رحمــه الله – " قوله : (لا تبديل لخلق الله) لدين الله ، خلق الأولين : دين الأولين ، والفطرة : الإسلام "[٧] .

<u>ثانياً : السنة النبوية الشريفة :</u>

١- عن ابن عباس – رضي الله عنهما – عن النبي – صلى الله عليه وسلم – قال : " أخذ الله الميثاق من ظهر آدم بنعمان – يعــني بعــرفة – فأخرج من صلبه كل ذرية ذرأها فنثرهم بن يديه كالذر ثم كلمهم قبلاً قال : (ألست بربكم قالوا بلى شــهدنا...) الآية "[٨] فهذا الحديث يؤيد معنى الآية التي ذكرناها في أدلة القرآن الكريم بأن العباد قد أقروا بربوبية الخالق جل وعلا قبل أن يولدوا ، وهذا مما يدل على أن الخلق فطروا على معرفة الله جل وعلا .

٢- عــن عيــاض بــن حمار المجاشعي أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال ذات يوم في خطبته : " ألا إن ربي أمرني أن أعلمكم ما جهلتم مما علمني يومي هذا : كل مال نحلته عبداً حلال ، وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم ، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم ، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً "[٩].

---

(١) انظر : ابن كثير : تفسير القرآن العظيم (٣٢٠/٦) .

(٢) انظر : فطرية المعرفة (ص١٧) .

(٣) سورة الأسراء ، بعض الآية (١٥) .

(٤) سورة النساء الآية (١٦٥) .

(٥) انظر : تفسير القرآن العظيم (٣٢٠/٦) .

(٦) ابن كثير : تفسير القرآن العظيم (٣٢٠/٦) وانظر : ابن جرير : جامع البيان (٢٧/٢١).

(٧) صحيح البخاري – كتاب التفسير (٦٥) تفسير سورة الروم ، الفتح (٥١٢/٨) .

(٨) رواه الإمــام أحمــد فــي " مسنده " (٢٧٢/١) وابن أبي عاصم في " السنة " ح رقم (٢٠٢) والحاكم في " المستدرك " (٥٤٤/٢) والبيهقي في " الاسماء والصفات " (٤١٣) وقال الحاكم : " هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه " ، وقد احتج مسلم بكلثوم بن جبر ، ووافقه الذهبي .

(٩) رواه مســلم في " صحيحه " كتاب الجنة وصفة نعيمها (٥١) باب (١٦) ، ح رقم {٦٣-(٢٨٦٥)} انظر صحيح مسلم (٢١٩٧/٤) وأحمد في " المسند " (٤/ ١٦٢) .

وفـي هـذا الحديـث الشريف دليل على أن الله تعالى خلق عباده كلهم حنفاء ، أي مسلمين[١] ، ولكن الشياطين اجتالـتهم أي استخفوهم فذهبوا بهم وأزالوهم عما كانوا عليه وجالوا معهم في الباطل ، فغيروا فطرهم السليمة وأمروهم أن يشركوا بالله تعالى ما لم ينزل به سلطاناً .

٣- عـن أبـي هريرة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : " ما من مولود إلا يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه ، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء " ثم يقول : (فطرة الله التي فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم) "[٢] .

فـأبو هريرة - رضي الله عنه - يذهب إلى أن الفطرة في الحديث المراد بها الإسلام ، وممن قال ذلك أيضاً ابن شـهاب ، وقتادة ، ومجاهد ، وسعيد بن جبير ، والنخعي ، وروي أيضاً عن ابن عباس وعكرمة في إحدى الروايتين عن الإمام أحمد[٣] ، وهو تفسير البخاري في صحيحه[٤] .

وقال ابن تيمية : " هذا هو المعروف عند عامة السلف ، وأجمع عليه أهل العلم بالتأويل "[٥] .

- ووجه دلالة الحديث على أن الفطرة فيه أريد بها الإسلام :

١- أنـه - صلى الله عليه وسلم - ذكر الأديان الباطلة التي يلقنها الآباء أولادهم ، دون الإسلام فهذا يدل على أن الإسلام أمـر مـركوز في النفس لا يحتاج إلى تلقين الآباء احتياج الأديان الباطلة إلى من يروجها محاولة لاعتناقها فلوترك المولود دون إخراجه إلى أحد هذه الأديان لكان على الإسلام .

٢- تشبيهه - صلى الله عليه وسلم - المولود على الفطرة بالبهيمة الجمعاء السليمة مما يعيبها ، وتشبيهه - صلى الله عليه وسلم - ما يكون من عمل الأبوين من التهويد والتنصير والتمجيس بجدع الأذن الصحيحة ، وعيبها بعد سلامتها ، ولا يكون ذلـك إلا إذا غير الأبوان ما كان كاملاً ، ومعلوم أن المولود على الفطرة إذا كان كاملاً وخرج عن كماله بأي دين باطل ، كان مولوداً على الإسلام . ذلك أن الإسلام هو الدين الكامل الذي رضيه الله لعباده بل إنه دين الأنبياء جميعاً ، ومن البدهي أن الإنسان إذا كان مولوداً على الإسلام كان مولوداً على العلم والإقرار به تعالى[٦] .

---

(١) انظر : شرح النووي على صحيح مسلم (١٩٦/١٧) . وهي رواية عبدالرحمن بن عائذ التي أوردها ابن عبدالبر في التمهيد (٧٣/٨) .

(٢) رواه الـبخاري في " صحيحه " كتاب التفسير (٦٥) سورة الروم ، ح رقم (٤٧٧٥) الفتح (٥١٢/٨) ، ومسلم في " صحيحه " (٢٠٤٧/٤) كتاب القدر (٤٦) باب (٦) رقم { ٢٢-(٢٦٥٨)} ، وأحمد في " المسند " (٣٩٣/٢) من طريق سلمة بن عبدالرحمن .

ورواه مسلم في " صحيحه " ح (٢٦٥٨) وأحمد في " المسند " (٢٧٥/٢) وابن حبان في " صحيحه " (الإحسان) ح (١٢٨) ، واللالكائي في " شرح أصول اعتقاد أهل السنة " ح (٩٩٤) من طريق سعيد بن المسيب .

ورواه ابن حبان في " صحيحه " (الإحسان) ح (١٣٣) واللالكائي في " شرح اعتقاد أهل السنة " ح (٩٩٥) من طريق حميد بن عبدالرحمن .

ورواه مالك في " الوطأ " كتاب الجنائز ح (٥٢) ، وأبو داود في " سننه " ح (٤٧١٤) ، وابن حبان في " صحيحه " ح (١٣٣) واللالكائي في " شرح اعتقاد أهل السنة " ح (٩٩٨) .

(٣) انظر : ابن تيمية : رسالة الفطرة (ص٣٣٤) ، وانظر : النووي شرحه على صحيح مسلم (٢٠٨/١٦) وذكره قولا عن المازري، وانظر: ابن حجر: فتح الباري (٢٤٨/٣)، (٥١٢/٨) .

(٤) انظر : فتح الباري (٥١٢/٨) .

(٥) رسالة الفطرة (ص٣٣٤) ، وانظر : فتح الباري (٢٤٨/٣) .

(٦) انظر : ابن تيمية : رسالة الفطرة (ص٣٣) .

هذا ومع ما ذكرنا من وجه الدلالة في الحديث ، فهناك روايات تؤيد أن الفطرة هي الإسلام :

أ- جاء في رواية : " ما من مولود يولد إلا وهو على الملة "(١) وفي أخرى " ... إلا على هذه الملة "(٢) فقوله - صلى الله عـليه وسلم - " على الملة " الألف واللام في " الملة " للعهد أي يولد على الملة المعهودة وهي ملة الإسلام ، وقوله - صلى الله عليه وسلم - في الأخرى " على هذه الملة الإشارة واضحة هنا أنها تشير إلى الملة الإسلامية .

ب- وفـي حديـث عيـاض بـن حمـار المجاشعي - رضي الله عنه - الذي تقدم : " إني خلقت عبادي حنفاء كلهم... " الحديث(٣) فإذا كان العبد قد خلق حنيفاً مسلماً كان مفطوراً على معرفة ربه جل وعلا .

جـ- وقـال - صـلى الله عـليه وسلم - فيما رواه الترمذي : " كل مولود يولد من ولد كافر أو مسلم يولد على فطرة الإسلام... "(٤) الحديث فإضافة الفطرة إلى الإسلام ، إضافة بيانية .

د- وقال - صلى الله عليه وسلم - : " خمس من الفطرة "(٥) أي من الفطرة التي هي الإسلام ، بدليل ما روى : " عشر من الفطرة "(٦) وفي لفظ : " عشر من سنن الإسلام "(٧) .

<u>ثالثاً : أدلة الواقع :</u>

بدراسـة واقع الإنسان ومظاهر حياته يتبين لنا أن معرفة الله تعالى وقصد عبادته فطرة في قلبه فطر عليها ويدل على ذلك أمور منها :

<u>١- الإحسـاس المبكر :</u> يظهـر على الطفل في وقت مبكر من حياته دلائل واضحة على فطرية معرفته لله عز وجل ، فالمولود إذا بلغ سن الفهم والتمييز بدأ يلقي على أبويه أسئلة لا يجدان لها أية إجابة إلا أن يقولا له : (الله) ، وهذا يعني أن في أعماق الطفل إحساساً بخالقه وصانعه ، وخالق الكون وصانعه ومدبره . فمن أسئلة هذا الطفل الصغير :

- من خلقنا ؟ - من خلق الشمس ؟ - من خلق القمر ؟

- لمـاذا يمـوت الـناس ؟ وهكذا ... أسئلة لا جواب لها إلا أن يقال : الله تعالى هو الذي خلقك وخلق أباك وأمك وخلق الشمس والقمر والنجوم وجعل الموت والحياة إلا أن يكون الوالدان ملحدين لا يؤمنان بالله تعالى فعندئذ سيكون الجواب كاذباً ، ويتـلقى الطفـل معلومات خاطئة تكون سبباً في انحراف فطرته ، وإخراجه من السلامة إلى النقص ، ومن التوحيد إلى الشرك ومن المعرفة إلى الجهل والشك والريب كما قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فيما سبق ، : " فأبواه يهودانه

---

(١) صحيح مسلم (٢٠٤٨/٤) كتاب القدر (٤٦) باب (٦) ح (٢٣) .

(٢) نفسه .

(٣) صحيح مسلم (٢١٩٧/٤) كتاب الجنة (٥١) باب (١٦) ح رقم (٦٣) .

(٤) رواه الترمذي في " سننه " (٢٤٧/٤) .

(٥) رواه البخاري في " صحيحه " كتاب اللباس (٧٧) باب (٦٣) رقم (٥٨٨٩) الفتح (٣٣٤/١٠) وباب (٦٤) رقم (٥٨٩١) الفتح (٣٤٩/١٠) ، ومسلم في " صحيحه " (٢٢١،٢٢٢/١) كتاب الطهارة (٢) باب (١٦) رقم (٤٩،٥٠) .

وأبـو داود فـي " سننه " كتاب الترجل (١٦) والترمذي كتاب الأدب ، باب (١٤) والنسائي في " سننه " كتاب الطهارة ، باب (٨،١٠) وأحمد (٢/ ٢٢٩،٢٣٩،٢٨٣،٤١٠،٤٨٩) .

(٦) رواه مسلم في " صحيحه " (٢٢٣/١) كتاب الطهارة (٢) باب (١٦) رقم (٥٦) وأحمد (١٣٧/٦) .

(٧) نفسه .

أو ينصرانه أو يمجسانه "[١] وكقوله – صلى الله عليه وسلم – : " فأتتهم الشياطين فاجتالتهم ، وحرمت عليهم ما أحللت لهم وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً "[٢] .

٢- **طمأنيـــنة المؤمـــن وشـــقاء الكافر والملحد :** إن العبد إذا آمن بالله تعالى وأسمائه وصفاته وقدره وقضائه عاش آمناً مطمئـــناً راضـــياً بما يقضيه الله تعالى له ، مطمئن القلب مستقر النفس ، وذلك لتوافق الإيمان الشرعي مع ما في قلبه من معرفة فطرية . وبالعكس فإن غير المؤمن بالله تعالى يعيش في قلق قلبي ، واضطراب نفسي ، لأن فطرته تنادي وتصرخ بأن لهذا الكون إلهاً حكيماً عليماً مدبراً ، والشياطين تناديه بمضادة هذه الفطرة ومحادتها فيعيش في صراع داخلي بين نداء الفطرة والمذاهب المنحرفة ، مما يسبب له قلقاً دائماً ، وانزعاجاً قوياً قد ينتهي بصاحبه إلى أمراض نفسية تقضي على دنياه وأخراه وذلك بسبب الانحراف الخارجي عن مقتضى الفطرة الصحيحة السليمة التي خلق الله الناس عليها .

٣- **عدم وجود مجتمع بلا دين :** يؤكد التاريخ والدراسات والأبحاث المعاصرة أنه لا يوجد مجتمع أياً كان بدون دين يدين به في حياته ، وإن كانت تختلف هذه الأديان من مجتمع لآخر .

ومن هذه الأديان ما أصله دين سماوي وإن كان قد لحقه التحريف والتبديل – ما عدا الإسلام – دين الله عز وجل ومنها ما هو وضعي من صنع البشر .

وهـــذه الظاهرة تؤكد أن في القلب معرفة تدفع الإنسان إلى عبادة خالقه . إلا أن هذه المعرفة وجهت إلى الوجهة التي يدين بها المجتمع . وإلا فلو لم يكن لدى الإنسان شعور بخالقه ، وحاجته إلى طاعته والتقرب إليه ليرضى عنه لأمكن أن توجد مجتمعات بغير دين .

لقـــد اعـــترف بهـــذه الحقيقة غير المسلمين ، يقول " لاروس " : " وإن الغريزة الدينية مشتركة بين كل الأجناس البشـــرية حـــتى أشـــدها همجيـــة وأقر بها إلى الحياة الحيوانية ، وإن الإهتمام بالمعنى الإلهي وبما فوق الطبيعة هو إحدى النزعات العالمية الخالدة "[٣] .

ويقـــول " ليفي بريل " : " ...فالبدائيون لهم نفس الأعضاء الحاسة التي لنا ، ويدركون ظواهر الطبيعة كما يدركها المتحضرون غير أن إدراكاتهم متضمنة في حالة من حالاتت الشعور المركب ويتحكم في تلك الحالات أحاسيس وعواطف ديـــنية ، ففكـــر الـــبدائي قـــبل كل شئ فكر ديني تتصل فيه كل الأفكار بالدين وتختلط به "[٤] . ونقول إن الإنسان البدائي والمتحضـــر على حد سواء في الشعور بقوة غيبية هائلة مسيطرة على هذا الكون ، متحكمة في قوانينه وفق إرادتها العليا ، فيدين لها بالولاء والطاعة والخضوع ، والخوف والرجاء .

يقول " لاروس " : " إن هذه الغريزة الدينية لا تختفي بل لا تضعف ولا تذبل إلا في فترات الإسراف في الحضارة وعند عدد قليل جداً من الأفراد "[٥] .

---

(١) سبق تخريجه .

(٢) سبق تخريجه .

(٣) د. محمد عبدالله دراز : الدين (ص٨٣) .

(٤) د. علي سامي النشار : نشأة الدين (ص١٧) .

(٥) د. محمد عبدالله دراز : الدين (ص٨٣) .

ويقـول " هـنري برجسـون " : " لقـد وجدت جماعات إنسانية من غير علوم وفنون وفلسفات ، ولكنه لم توجد جماعات بغير ديانة "[١] .

هـذه هي بعض أقوال المؤرخين للأديان تؤكد أنه لم يخل مجتمع من دين يؤكد فطرية التدين ، وإن هذا الإنسان مدفوع من داخله للدين إلا أنه يتدين بما يجده في مجتمعه ظاناً أنه هو الذي يجده في داخله .

هذه بعض دلائل الواقع الذي يشهد على فطرية الدين ، ومعرفة الله عز وجل بعيداً عن تعقيد المتكلمين ونظرياتهم الفلسفية .

رابعاً : أن الجمادات فطرت على معرفة الله تعالى وطاعته والسجود له وتسبيحه : يدل لذلك :

١- تسـبيح الجمـاد لله عـز وجـل وتحميـده تسـبيحاً وحمـداً حقيقيـن قـال تعالى : (تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شئ إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليماً غفـوراً)[٢] فالمخلوقات متحركها وساكنها ، ناطقها وصامتها تنزه الله تعالى وتقدسه وتكبره عما يقول هؤلاء المشركون ، ولكـن لا تفهمون تسبيحهم لأنه بلغة غير لغتكم[٣] . وقال تعالى : (يسبح لله ما في السموات وما في الأرض...)[٤] وقال جل وعلا : (سبح لله ما في السموات وما في الأرض)[٥] وغيرها من الآيات .

وثبت في الصحيح عن ابن مسعود - رضي الله عنه - قال : " ... وكنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل "[٦] .

ومـن المعـلوم أن المفطور على تسبيح الله - تعالى - وحده ، مفطور على معرفته به سبحانه ، إذ كان تسبيحاً وحمـداً حقيقيـن[٧] وليـس مجرد دلالتها على أنه سبحانه المنزه عن النقائص ، المحمود المستحق للحمد ، ولكن تسبيحها تسبيح حقيقي بلسان المقال لا بلسان الحال بدليل قوله تعالى : (... و لكن لا تفقهون تسبيحهم ...) أي لا تفهمون ، بل الذي يعلم تسبيحهم ونطقهم هو الله تعالى .

٢ ــ وفريق آخر ، وهم المتكلمون من المعتزلة وجمهور الأشاعرة أنكروا فطرية المعرفة ، وذهبوا إلى أنها نظرية ، أي لايوجـد في القلوب معرفة للخالق ــ جل وعلا ــ قبل النظر في الآيات الكونية والنفسية ، ومن باب أول لايكون فيها ميل إلى عبادة الله عزوجل أومحبته وتعظيمه .

لهذا فإن المتكلمين أول مايوجبون على المكلف " المعرفة " أي معرفة الله عزوجل على اختلاف في بدايات المعرفة ــ كما سيأتي ــ ويحكون على ذلك الاجماع[٨] ،وهو زعم غير صحيح .

فـإن قصدوا بذلك الاجماع إجماع الأمة فهو باطل لأن أهل السنة من السلف والأئمة التابعين لهم يخالفون ذلك ــ كما سبق ــ ويقولون إن معرفة الله تعالى فطرية ولايوجبون النظر .

وإن قصدوا بالاجماع اجماع المتكلمين ، فهو أيضاً غير صحيح لأن منهم من خالف في ذلك ووافق السلف على أنها فطرية .

---

(١) نفسه .
(٢) سورة الإسراء ، الآية (٤٤) .
(٣) انظر : ابن تيمية : رسالة الفطرة (ص٣٣٨-٣٣٩) ، وابن جرير : جامع البيان (١٥/٩٢-٩٣) ، وابن كثير : تفسير القرآن العظيم (٥/٧٥-٧٨) .
(٤) سورة الجمعة ، بعض الآية (١) .
(٥) سورة الصف ، بعض الآية (١) .
(٦) رواه البخاري في " صحيحه " كتاب المناقب (٦١) باب (٢٥) رقم (٣٥٧٩) الفتح (٦/٥٨٧) .
(٧) انظر : ابن تيمية : رسالة الفطرة (ص٣٣٨) ، وابن كثير : تفسير القرآن العظيم (٥/٧٦) ، والقرطبي : الجامع لأحكام القرآن (١٠/١٧٤) .
(٨) انظر : الباقلاني : الانصاف (ص٢٢) ، الايجي : المواقف (ص٢٨) .

قـا الإمام ابن حجر ـ رحمه الله ـ : " وفي نقل الاجماع نظر كبير ومنازعة طويلة حتى نقل جماعة الاجماع في نقيضه ،واستدلوا بإطباق أهل العصر الأول على قبول الاسلام فمن دخل فيه من غير تنقيب [١] .

وهذا هو الحق الذي تثبته الأدلة ، وتبطل ماسواه وستأتي إن شاء الله .

أما من خالف المتكلمين وهو منهم فإنه أبو الفتح الشهر ستاني بل هو من زعمائهم ، فقد قال : " أما تعطيل العالم عن الصـانع العـالم القادر الحكيم لست أراها مقالة لأحد ،ولا أعرف عليه صاحب مقالة إلا مانقل عنشرذمة قليلة من الدهرية ... "[٢] ثـم حـكى مذهبهم ، ثم قال : " ولست أرى صاحب هذه المقالة ممن ينكر الصانع بل هو معترف بالصانع لكن يحيل سبب وجود العالم على البحث والاتفاق ، احترازاً عن التعطي ، فما عدت هذه المسألة من النظريات التي يقام عليها برهان ، فإن الفطر السليمة الانسانية شهدت بضرورة فطرتها ، وبديهة فكرتها على صانع حكيم عالم قدير ... ولهذا لم يرد التكليف بمعرفة وجود الصانع وإنما ورد بمعرفة التوحيد ونفي الشرك" [٣] .

والسيوطي في هذا تابع المتكلمين فقد أوجب المعرفة كما أوجبوها حيث قال : " وأول واجب على المكلف معرفة الله ... لأنها مبنى سائر الواجبات إذ لايصح بدونها واجب ولا مندوب " [٤] .

وواضح من كلام السيوطي أن العبد إذا كان أول مايجب عليه من أمور الدين هو معرفة الله ، فهو ليس مقطوراً على المعرفة ، ولاتحل له المعرفة إلا بالنظر والاستدلال .

والذي ذهب إليه السيوطي خلاف ماقرره أهل السنة والجماعة ، ولكنه في " الدر المنثور " [٥] ذك رالأحاديث والآثار التي تقرر أن الفطرة هي الإسلام ، وكذلك في الجلالين ، وإن كان هذا القسم من التفسير من وضع شيخه المحلي ، إلا أنه صـرح بتأييد شيخه فيما كتب ووافقه [٦] ،ونهج نهجه في هذا التفسير فقال شيخه المحلي في تفسير سورة الروم : " (فأقم) يـامحمد (وجهـك للدين حنيفاً) مائلاً إليه ، أي : أخلص دينك لله أنت ومن تبعك (فطرة الله) خلقته (التي فطر الناس عـليها) وهـي دين الاسلام ، أي : الزموها (لاتبديل لخلق الله) لدينه ، أي : لاتبدلوه بأن تشركوا (ذلك الدين القيم) المستقيم ، توحيد الله " [٧] .

فهذا تقرير السيوطي في التفسيرين ، موافق لما قرره أهل السنة ، ومخالف لماقرره في " الكوكب الساطع " [٨] ولا استطيع الآن تحديـد أي الـرأيين هو الذي استقرت عليه عقيدة السيوطي ، ولا استطيع كذلك الجزم بأيهما كان متأخراً على الآخر فيكون الحكم له ،وقد ذكر السيوطي كلا الكتابين في ترجمة نفسه في حسن المحاضرة[٩] دون بيان شيء من ذلك التقدم والتأخر .

فإن كان التفسير هو المتأخر فهو ذاك ، وإن كان الكوكب الساطع هوا لمتأخر ، فهو دليل على التزام السيوطي عقيدته الأشـعرية ، وعدم التخلي عنها ، وهذا هو الظاهر ، ذلك لأنني لما رجعت إلى التفسير الكبير للفخر الرازي ،وجدته فسر الفطـرة بالإسلامي كما فعل السيوطي ، ولكنه ذكر بعد ذلك أن الفطرة وحدها لاتكفي في الإيمان فقال عند قوله تعالى : (لاتبديل لخلق الله) [١٠] أي الوحدانية مترسخة فيهم لاتغير لها حتى إن سألتهم من خلق السموات والأرض يقولون الله ، كأن الايمان الفطري غير كاف " [١١] ،ومعنى ذلك أنه لابد من النظر حتى تحصل المعرفة ،وهذه محاولة من الرازي للاحتفاظ

---

(١) فتح الباري (١/٧٠) .

(٢) نهاية الإقدام (ص١٢٣) .

(٣) نهاية الاقدام(ص١٢٣ ـ ١٢٤) .

(٤) الكوكب الساطع شرح نظم جمع الجوامع ـ مخ ـ (١٨٤ / أ ـ ب) .

(٥) الدر المنثور (م٦ جـ ٢١ / ٤٩١) .

(٦) انظر تصريحه بذلك في تفسير الجلالين (ص ٣) .

(٧) نفسه (٤٩٢) مذيلاً بلباب النقول في أسباب النزول ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت ١٤٠٧ ـ ١٩٨٧م

(٨) نفس المرجع السابق .

(٩) انظر : (١/٣٣٩ ، ٣٤٢) .

(١٠) سورة الروم ، بعض الآية (٣٠) .

(١١) التفسير الكبير (٢٥/١٢١) .

بعقيدتـــه الاشـــعرية ،ولا يبعد أن يكون السيوطي كذلك ،فهو على المذهب الأشعري كالرازي تماماً ، وكونه يفسر الفطرة بالاسلام فهذا لايتعارض مع مذهبه ــ كما ذكرنا عن الرازي ٠٠٠

المبحث الثاني : أول واجب على المكلف

اختلفت الأقوال في بيان أول الواجبات تبعاً للاختلاف حول المعرفة هل هي فطرية أم نظرية ؟

١ ــ فــأهل السنة قالوا : مادامت المعرفة فطرية ، فإن أول واجب على المكلف أن ينطق بالشهادتين ، وهي قول (أشــهد أن لا إلــه إلا الله ، وأشــهد أن محمداً رسول الله) فإنه من المعلوم يقيناً أن رسول الله ــ ﷺ ــ إنما كان يقبل في الاسلام كل من قال : لا إله إلا الله من غير ان يوجب عليه النظر ، في دلائل نبوته ، أو يطالبه به قبل أن يدخل الإسلام ، فقد " علم بالاضطرار من دين الرسول ــ ﷺ ــ واتفقت الأمة أن أصل الاسلام وأول مايؤمر به الخلق شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله فبذلك يصير الكافر مسلماً ، والعدو ولياً ، والمباح دمه وماله معصوم الدم والمال ثم إن كان ذلك من قلبه فقد دخل في الايمان ،وإن قاله بلسانه دون قبله فهو في ظاهر الاسلام دون باطن الإيمان " [١] ٠

٢ ــ وذهــب المتكــلمون لى أنــه مــادامت المعــرفة نظرية وهي متوقف حصولها على حصول النظر ،ومادامت المعرفةواجــبة فالنظر الموصل إليها واجب ، لأنه مالايتم الواجب إلا به فهو واجب ٠ ولذلك قالوا : إن أول واجب على المكلف هوا لنظر ، وواضح من هذا أنه خلاف قول أهل السنة والجماعة ٠

والقــول بوجوب النظر هو قول أبي الحسن الأشعري وأبي إسحاق الإسفرايين [٢] ، قال التفتازاني : " ٠٠٠ أما كون النظر مقدروا فظاهر ،وأما توقف المعرفة عليه ، فلأنها ليست بضرورية بل نظرية ،ولامعنى للنظرى إلا مايتوقف على النظر ويتحصل به" [٣]

٣ ــ والسيوطي وإن كان قد أوجب المعرفة ، فإنه لم يصرح بوجوب النظر ،ولكنه جمع الأقوال المختلفة في بيان أول واجب على المكلف فبلغت ثمانية أقوال ولم يقطع بترجيح أحدها ، فقال عن أول الواجبات : " فيه أقوال :

أحدها : أنه معرفة الله ٠٠٠

الثاني : أنه النظر المؤدي إليها ، لأنه مقدمتها ، وعليه الاستاذ أبو اسحاق ٠٠٠

الثالث : أنه أول النظر ، أي : أول أجزائه ،وعليه القاضي [٤] ،

الرابع : أنه القصد إلى النظر ، لتوقف النظر على قصده ،وعليه ابن فورك[٥] ،وإمام الحرمين ٠[٦]

الخامس : أنه الاقرار بالله ورسوله ،

السادس : أنه النطق بالشهادتين ٠

السابع : أنه الإسلام ٠

الثامن : أنه التقليد [٧] ٠

وزاد بعضهم أن أول واجب هو الشك ، حكي عن ابي هاشم المعتزلي [٨] ،ولم يذكره السيوطي ضمن الأقوال السابقة ، إما لعدم تحقق ثبوته عنده ،وإما لسقوطه وبطلانه وعدم صحته ، ذلك لأن المطلوب من العبد زوال شكه ، بل ورد القرآن الكريم باستبعاد وقوعه ، فقال تعالى : (أفي الله شك فاطر السموات والأرض) [٩]

---

[١] سليمان بن عبدالله بن محمد بن عبدالوهاب : تيسير العزيز الحميد في شرح كتا ب التوحيد (ص١٢٧) ٠

[٢] انظر : إبراهيم بن محمد الباجوري : تحفة المريد على جوهر التوحيد (ص ٢٤) ٠

[٣] شرح المقاصد (٢٩١/١) ٠

[٤] أي : أبو بكر الباقلاني ، محمد بن الطيب ت (٤٠٣) هــ ٠

[٥]أبو بكر ، محمد بن لحسن (ت٤٠٦هــ) ٠

[٦]أبو محمد ، عبد الملك بن يوسف الجويني (ت٤٧٨ هــ) ٠

[٧] الكوكب الساطع ق (١٨٤ / أ ــ ب) ،وانظر : شرح المقاصد (١/ ٣٠١ ومابعدها) ٠

[٨] انظر : شرح المقاصد (٣٠٢/١) ، والمواقف (١٩٢/١) ، الشامل للجويني (ص١٢١) ، تحفة المريد (ص٢٤) ٠

[٩] سورة سيدنا إبراهيم عليه السلام ــ بعض الآية (١٠) ٠

والسيوطي وإن لم يصرح بترجيح أحد هذه الأقول ، فقد مال إلى القول الأول حيث استدل له بحديث معاذ ـ رضي الله عنه ـ : " إنك تقدم على قوم أهل كتاب ، فليكن أول ماتدعوهم إليه عبادة الله ، فإذا عرفوا الله فأخبرهم ... " الحديث [1] ، لأن فيه دليلاً على عدم معرفتهم به ـ جل وعلا ـ وهذا قول القاضي عياض [2] ـ رحمه الله ـ نقله عنه الإمام النووي ـ رحمه الله ـ [3] وذكر انه مذهب حذاق المتكلمين [4] ، وفي رأيي أن الحديث لايدل على ماذهب إليه حذاق المتكلمين مع القاضي ، فأول الحديث يحدد أول مايدعى إليه أهل الكتاب فيقول :" فليكن أول ماتدعوهم إليه عبادة الله " ولم يقل : فليكن أو ل ماتدعوهم إليه معرفة الله ، لأن معرفة أن لهذا الكون إلهاً مدبراً حكيماً شيء مستقر في النفوس ، لكنهم ضلوا في صرف العبادة لغيره ـ جل وعلا ـ ، وأما قوله ـ ﷺ ـ " فإذا عرفوا الله ...) فهو بلاغة إيجار بحذف المضاف ، تقديره : فإذا عرفوا عبادة الله ، وهذا سائغ كثير في اللغة غير ممنوع ، مثاله قوله تعالى : ﴿ واسأل القرية التي كنا فيها والعير التي أقبلنا فيها ... ﴾ [5] وعلى هذا فلا مستند لهؤلاء الحذاق ـ على ماذكر ـ في أن أول الواجبات هو المعرفة ،والحق أن أول مايدعى إليه العبد قول لا إله إلا الله ، محمد رسول الله ، وهو توحيد الله وعبادته وترك الشرك والتنديد ، وإذا سقط وجوب المعرفة ، سقط النظر ، وسقط القصد إليه ، وكذلك الشك من قبل ، ولم يصح من ذلك سوى قول أهل السنة ولله الحمد .

المبحث الثالث :

إيمان المقلد عند المتكلمين

سبق أن قلنا إن المتكلمين لما أوجبوا النظر على المكلف نشأت مسألة إيمان من آمن تقليداً وبغير نظر هل يصح إيمانه أم لا تعرض السيوطي لهذه المسألة وأورد فيها أقوالاً :

فقال نظماً :

" يُمنع التقليد في العقائد	للفخر والأستاذ ثم الآمدي
والعنبري جوزه وقد حظر	أسلافنا كالشافعي فيها النظر
ثم على الأول أن يقلد	فمؤمن عاص على المعتمد
لكن أبو هاشم لم يعتبر	إيمانه وقد عُزي للأشعري
قال القشيري : عليه مفترى	والحق أن يأخذ بقول من عرى
بغير حجة بأدنى وهمِ	لم يكفه ويكتفى بالجزمِ "[6] .

ثم شرح السيوطي ما نظمه وفصله في أربعة أقوال فقال : " في التقليد في العقائد أقوال : أحدها : لا يجوز وعليه كثيرون ، منهم الاستاذ أبو اسحاق الاسفراييني كما نقله عنه في جمع الجوامع في أوائل التقليد ، ورجحه الإمام الرازي والآمدي كما

---

(1) متفق عليه ، رواه البخاري في صحيحه ، كتاب الزكاة (٢٤) باب (٦٣) ح رقم (١٤٩٦) الفتح (٣ / ٣٥٧) .. ورواه مسلم في صحيحه (٥١/١) كتاب الايمان (١) باب (٧) ،ح رقم (٣١) .

(2) عياض بن موسى بن عياض اليحصبي ، (ت ٥٤٤ هـ) .

(3) انظر : شرح النووي على صحيح مسلم (١٩٩/١ ـ ٢٠٠) .

(4) السابق نفسه ، وانظر : ابن حجر : فتح الباري (٣٥٩/٣) .

(5) سورة سيدنا يوسف ـ عليه السلام ـ بعض الآية (٨٢) .

(6) الكوكب الساطع (لوحة ٤١٠) .

فـــي معـــرفة الله تعالى واجب محتم ، وأن التقليد في العقائد لا يكفي ، وأن المقلد وهو من أخذ بقول غيره بدون دليل عنده على معتقده الذي أخذه عن غيره غير مؤمن . وقول السيوطي : " وعليه كثيرون " أي هو قول المعتزلة والأشاعرة وكثير من المتكلمين على ما حكى في المقاصد . وعزا البيجوري هذا القول إلى السنوسي في الكبرى[١] . وذكر عن أبي هاشم أنه حكـم بكفر المقلد[٢] . وحكاه السيوطي عن الأشعري ولكنه اعتذر عنه فقال : " وحكى هذا القول عن الأشعري ، وقد شنع عليه أقوام بسبب ذلك لأنه يلزم منه تكفير العوام وهم غالب المؤمنين "[٣] وهذا هو أشد مأخذ على أصحاب هذا القول ، لأن تكفير العوام لم يؤثر عن أحد من الأئمة بل المأثور عنهم هو التحذير من اطلاق حكم الكفر على أي أحد من غير حجة أو دليل يوجب ذلك ، وأن من اشتهر عنهم تكفير عامة المسلمين هم الخوارج وقد وصمهم أئمة الإسلام بالبدعة والجهالة لذلك واعتذر السيوطي – كما قلت – عما نسب إلى الإمام الأشعري من تكفير المقلد ، أو عدم إعتبار إيمانه .

فقال : " وأجيب عنه بأوجه :

<u>أحدها :</u> أنه مكذوب عليه . قاله القشيري .

<u>ثانيهـــا :</u> أنـــه ليس المراد النظر على طريقة المتكلمين ، بل على طريقة العامة وذلك يتأتى من العوام والأعراب كما قال الأصمعي لبعض الأعراب : بم عرفت ربك ؟ فقال : البعرة تدل على البعير ، وأثر الأقدام على المسير ، فسماء ذات أبراج وأرض ذات فجاج ألا تدل على اللطيف الخبير ؟

<u>ثالـــثها :</u> أن مراد الأشعري أن من اختلج في قلبه شبهة في حدوث العالم أو النبوة أو الحشر أو نحو ذلك ، وجب أن يجتهد في إزالته بالدليل العقلي فإن استمر على ذلك لا يصح إيمانه "[٤] .

قال السيوطي ناقلاً عن صاحب جمع الجوامع : " والتحقيق أنه إن أريد بالتقليد الأخذ بقول الغير بغير حجة مع احتمال شك أو وهـــم ، كما في تقليد إمام في الفروع مع تجويز أن يكون الحق في خلافه فهذا لا يكفي في الإيمان عند أحد لا الأشعري ولا غيره ، وإن أريد به الاعتقاد الجازم لا لموجب فهذا كاف في الإيمان ، ولم يخالف فيه إلا أبو هاشم "[٥] .

وهؤلاء القائلون بعدم كفاية التقليد في العقائد اختلفوا في النظر الذي لا يكون الشخص معه مقلداً :

١- فمـــنهم مـــن لا يوجـــب الاســـتدلال العقلي على كل مسألة من مسائل العقيدة بل يقولون يكفي أن تثبت الرسالة عنده بالمعجزة، بأن يعلمها مشاهدة أو اخباراً متواتراً أو إجماعاً ، فإذا ثبت عنده أن الرسول صادق بسبب ما أظهره من معجزة وأخـــذ بقول الرسول لم يكن مقلداً إذ كل قول للرسول يأخذه العبد فالدليل عنده قائم على حقيقته وهو أن هذا خبر المعصوم الذي ثبت صدقه . وكل خبر هذا شأنه فهو حق[٦] .

٢- ومنهم من لا يكتفي بذلك بل يوجب الاستدلال العقلي في كل مسألة ، ومع ذلك فلا يجب عند هؤلاء القدرة على التعبير

---

(١) انظر : (ص٢٥) .

(٢) انظر : مذكرة التوحيد (ص٢٦) ، والكوكب الساطع لوحة رقم (٤١١) .

(٣) الكوكب الساطع – لوحة رقم (٤١١) .

(٤) الكوكب الساطع (١٦٠ ب) .

(٥) نفسه .

(٦) انظر : مذكرة التوحيد (ص٢٦) .

الذي ثبت صدقه . وكل خبر هذا شأنه فهو حق[١] .

٢- ومنهم من لا يكتفي بذلك بل يوجب الاستدلال العقلي في كل مسألة ، ومع ذلك فلا يجب عند هؤلاء القدرة على التعبير عن الدليل القائم عنده ، ولا على مجالدة الخصوم ودفع الشبه فيكفي الإيمان بالعقائد بدليل على كل منها ولو كان الدليل سمعياً ، وهذا هو المشهور عند الأشعري بل حكى عنه أن من لم يكن كذلك لا يكون مؤمناً[٢] ، وسبق الاعتذار عنه .

٣- ومنهم من أوجب مع ايجاب الاستدلال على كل عقيدة القدرة على مجالدة الخصوم ، ودفع الشبه ، وإلى هذا ذهب المعتزلة فأوجبوا العلم بكل عقيدة بدليل تفصيلي ، ولم يكتفوا بالأدلة الإجمالية فلم يحكموا بإيمان من عجز عن الدليل الذي يستطيع معه رد الخصوم ودفع الشبه ، بل حكم أبو هاشم بكفره[٣] .

هذا القول هو القول الأول من حكم إيمان المقلد .

القول الثاني : في حكم التقليد ذكره السيوطي بقوله : " أنه يجوز ، وعليه عبيد الله بن الحسن العنبري[٤] وغيره ... لأنه - صلى الله عليه وسلم - كان يكتفى في الإيمان من الأعراب بالتلفظ بكلمتي الشهادة المبني على العقد الجازم وليسوا أهلاً للنظر "[٥] وذكره البيجوري في القول الخامس من الأقوال التي أوردها في حكم إيمان المقلد فقال : " الإكتفاء به من غير عصيان مطلقاً لأن النظر شرط كمال فمن كان فيه أهلية النظر ولم ينظر فقد ترك الأولى "[٦] .

القول الثالث : هو قول من قال : إن التقليد واجب وإن النظر حرام ، وأن المقلد مؤمن وليس النظر شرطاً لا في حصول الإيمان ولا في كماله وعلل السيوطي إيجاب التقليد وأنه " يحرم النظر والبحث فيه لأنه مظنة الشبه والوقوع في الضلال لاختلاف الأذهان والأنظار [٧] .

ولعل شبهه من قال هذا القول تتمثل - كما هو ظاهر في كلام السيوطي - في نقطتين :

الأولى : أن النظر بدعة لم يكن على عهد الرسول - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه وكل بدعة ضلالة وهي رد على صاحبها[٨] .

وقد يجاب عن هذا بأن النظر ليس ببدعة كما قيل بل كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه يقيمون الأدلة الدامغة رداً على المنكرين ودحضاً لشبه المعاندين ، والقرآن الكريم مملوء بالأدلة المقنعة والأنظار الدقيقة ، وما يوجد عند المتكلمين من أدلة صحيحة إنما هي غيض من فيض مما يوجد في آيات القرآن الكريم .

الثانية : قالوا : إن النظر جدال ، والجدال منهي عنه ، قد ذمه السلف الكرام ، ونهى الرسول - صلى الله عليه وسلم -

---

(١) انظر : مذكرة التوحيد (ص٢٦) .

(٢) انظر : مذكرة التوحيد (ص٢٦) .

(٣) نفسه .

(٤) عبيد الله بن الحسن بن الحصين العنبري ، من تميم ، قاض من الفقهاء العلماء بالحديث ، من أهل البصرة ، وتوفي بها (١٦٨هـ-٧٨٥م) انظر : تهذيب التهذيب (٧/٧) ، الأعلام (١٩٢/٤) .

(٥) الكوكب الساطع - لوحة (٤١٠) .

(٦) تحفة المريد (ص٢٢-٢٣) وانظر : مذكرة التوحيد (ص٢٧) ، فطرية المعرفة (ص٢٢٠) .

(٧) الكوكب الساطع - لوحة (٤١٠) .

(٨) انظر : مذكرة التوحيد (ص٢٧) .

الحــق بعدمــا تبين...)[١] أما إذا كان الجدال إظهاراً للحق فهو غير مذموم وليس منهياً عنه بل هو أمر مطلوب وقد قال تعــالى : (وجادلهم بالتي هي أحسن...)[٢] . ثم إن النظر تفكر يقصد به الوصول إلى حقيقة من الحقائق فهو غير الجدال فكيــف يقال إنه مذموم والفكر مأمور به لأنه وسيلة يتوصل بها إلى معرفة عظمة الله ، جل وعلا وحكمته وقدرته البالغة وغير ذلك من عظيم صفاته وشريف أسمائه .

---

(١) سورة الأنفال ، بعض الآية (٦) .

(٢) سورة النحل ، بعض الآية (١٢٥) .

الفصل الثاني : توحيد الربوبية

تعريف كمة التوحيد لغة :

يقول ابن الأثير (في أسماء الله الواحد) : " هو الفرد الذي لم يزل وحده ولم يكن معه آخر "[١] ويقول الأزهري : " فالواحد منفرد بالذات في عدم المثل والنظير . وقيل هو الذي لا يتجزأ ولا يثني ولا يقبل الانقسام ولا نظير له ولا مثل ، ولا يجمع هذان الوصفان (يعني الواحد الأحد) إلا لله تعالى "[٢] . ومن هذه النقول من علماء اللغة أستطيع أن أقول : إن هذه المادة (وَحَدَ) تدور حول انفراد الشئ بذاته أو بصفاته أو بأفعاله ، وعدم وجود نظير له : فيما هو واحد فيه[٣] . فالتوحيد مصدر وحد يوحد ، بمعنى جعله واحداً[٤] ، ثم نقلت هذه اللفظة إلى معنى الفرد المتميز عن غيره ، لأن كون الله تعالى واحداً ليس بجعل جاعل ، وعلى هذا فالواحد هو المنفرد بخصائصه عما سواه[٥] . ويكون معنى قول القائل : وحد الله ، أي اعتقده واحداً[٦] ، قال تعالى حكاية عن المشركين : (أجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا الشئ عجاب)[٧] أي : " أزعم أن المعبود واحد لا إله إلا هو ؟! "[٨] يقول الإمام ابن حجر – رحمه الله – : " ومعنى وحدت الله ، اعتقدته منفرداً بذاته وصفاته لا نظير له ولا شبيه "[٩] وقال السفاريني – رحمه الله : " ... فمعنى وحدت الله نسبت إليه الوحدانية ، لا جعلته واحداً ، فإن وحدانية الله تعالى ذاتية ليست بجعل جاعل "[١٠] وعلى هذا فالتوحيد باعتباره فعلاً من أفعال القلب : هو الاعتقاد الجازم بانفراد الله تعالى المطلق بالربوبية والألوهية ، والأسماء الحسنى والصفات العليا ، والأفعال الحكيمة .

التوحيد في الاصطلاح :

ثم أصبحت هذه الكلمة – أعني كلمة التوحيد تدل على العلم المسمى بها وهو : " العلم الذي يقتدر به على إثبات العقائد الدينية بالأدلة اليقينية "[١١] أو هو : " العلم بالعقائد الدينية عن الأدلة اليقينية "[١٢] أي العلم بالقواعد الشرعية الاعتقادية المكتسبة من أدلتها اليقينية ، سواء توقفت على الشرع كالسمعيات أم لا[١٣] وعرفه السيوطي فقال : " ... هو علم يبحث فيه

---

(١) لسان العرب (٣/٤٥١) .

(٢) نفسه .

(٣) انظر : د.محمد خليل هراس : دعوة التوحيد (ص٧) مكتبة الصحابة ، طنطا – مصر بدون تاريخ ولا طبعة .

(٤) انظر : ابن حجر : فتح الباري (١٣/٢٤٤) ، وانظر الشيخ سليمان ابن عبدالله بن محمد بن عبدالوهاب : تيسير العزيز الحميد شرح كتاب التوحيد (ص/٣٢) ط٤/١٤٠٠هـ المكتب الإسلامي – بيروت ، د.محمد خليل هراس دعوة التوحيد (ص٧) ، د.إبراهيم بن محمد البريكان : المدخل لدراسة العقيدة الإسلامية على ضوء عقيدة أهل السنة والجماعة (ص١٠) دار السنة – الخبر – السعودية .

(٥) انظر : د.إبراهيم بن محمد البريكان : المدخل لدراسة العقيدة الإسلامية (ص١٠) .

(٦) انظر : د. محمد خليل هراس : دعوة التوحيد (ص٧) .

(٧) سورة ص الآية (٥) .

(٨) ابن كثير : تفسير القرآن العظيم (٧/٤٥) .

(٩) فتح الباري (١٣/٣٤٤) .

(١٠) لوامع الأنوار (١/٥٧) .

(١١) د. إبراهيم بن محمد البريكان : المدخل لدراسة العقيدة الإسلامية (ص١٠) .

(١٢) السفاريني : لوامع الأنوار (١/٥) ، لوائح الأنوار السنية (١/١٤٩) ت: عبدالله بن محمد بن سليمان بصيري – مكتبة الرشد – الرياض ط١/ ١٤١٥هـ .

(١٣) انظر : السفاريني : لوامع الأنوار (١/٥) .

عمـــا يجب اعتقاده في ذات الله ، وما يجب له ، ويمتنع عليه من الصفات ، وبعثة الرسل ، وأحوال المعاد على قانون الاسلام "[١] وعرفه في موضع آخر فقال : " علم يبحث فيه عما يجب اعتقاده "[٢] . وقد سمى دين الإسلام توحيداً ، لأن مبناه على أن الله تعـــالى واحد في ملكه وأفعاله لا شريك له ، وّواحد في ذاته وصفاته لا نظير له ، والى هذه الأنواع الثلاثة ينقسم التوحيد ، وهي أقسام متلازمة ، كل قسم منها لا ينفك عن القسمين الآخرين وهي – على التقسيم الاصطلاحي :

– توحيد الربوبية . – توحيد الأسماء والصفات . – توحيد الالوهية .

وســـأعقد إن شاء الله تعالى لكل من توحيد الأسماء والصفات ، وتوحيد الألوهية فصلاً مستقلاً بعد هذا . أما في هذا الفصل فسأتناول – بحوله تعالى – بيان توحيد الربوبية ، فأقول :

<u>أما عن توحيد الربوبية :</u>

فالربوبية نسبة إلى " الرب " وهو الله جل وعلا ، فهو تعالى الذي له الربوبية على جميع الخلق[٣] ، لا شريك له ، وهو ســبحانه رب الأربـــاب ، ومـــلك الملوك والأملاك ولا يقال الرب في غير الله إلا بالإضافة[٤] ورب كل شئ مالكه ومستحقه . والرب يطلق على الملك ، والسيد ، والمدبر ، والمربي ، والقيِّم ، والمنعم[٥] . قال ابن الأنباري في بيان معنى لفظة الرب : " الرب ينقسم على ثلاثة أقسام :

١– يكون الرب الملك .

٢– ويكون الرب السيد المطاع ، قال تعالى (...فيسقي ربه خمراً)[٦] أي : سيده .

٣– ويكون الرب المصلح ، رب الشئ إذا أصلحه ، وأنشد :

يَرُبُّ الذي يأتي من العرق أنه إذا سُئل المعروف زاد وعمما "[٧]

والـــرب بهذه المعاني كلها على الوجه الأكمل الأتم هي حق لله كما ينبغي له سبحانه ، وعلى الوجه الذي يليق بجلاله وعظمـــته . قال ابن كثير : " والرب هو المالك المتصرف ويطلق في اللغة على السيد وعلى المتصرف للإصلاح ، وكل ذلك صحيح في حق الله تعالى "[٨] .

وعـــلى ضـــوء مـــا سبق من بيان معنى لفظة " التوحيد " ، ولفظة " الربوبية " يمكن القول بأن توحيد الربوبية والمـــلك[٩] : هـــو الإقرار بأن الله تعالى رب كل شئ ومالكه ، وخالقه ورازقه ، وأنه المحيي والمميت ، النافع الضار المتفرد

---

(١) شرح نظم جمع الجوامع – مخطوط رقم (١٣٣٠) جامعة الرياض – لوحة رقم (٤٠٢) .

(٢) علم التوحيد (مخطوط) لوحة رقم (١) مكتبة المعهد الأحمدي – بطنطنا – مصر .

(٣) ابن منظور : لسان العرب (٣٩٩/١) . مادة " ربب " .

(٤) نفسه ، وقيل في الجاهلية بغير إضافة للملك قال الحرث بن حلزة : وهو الرب ، والشهيد على يوم الحِيَارَيْن والبلاء بلاء .

(٥) نفسه .

(٦) سورة يوسف الآية (٤١) .

(٧) لسان العرب (٤٠٠/١-٤٠١) مادة " ربب " .

(٨) تفسير القرآن العظيم (٣٩/١) .

(٩) انظر : الشيخ سليمان بن عبدالله بن محمد بن عبدالوهاب : تيسير العزيز الحميد (ص٣٣) .

بإجابـــة دعاء الداعي إذا دعاه ، الذي له الأمر كله ، وبيده الخير كله ، القادر على ما يشاء ، ليس له في ذلك شريك "[١] وهذا التوحيد أعني " توحيد الربوبية " لا يكفي وحده لنجاة العبد يوم القيامة من عذاب الله ، بل لا بد من أن يأتي معه يلازمه وهو " توحيد الألوهية " فتوحيد الربوبية يستلزم توحيد الألوهية ، وتوحيد الألوهية – الذي سأبينه قريباً في الفصل الثالث – بحول الله تعالى – يتضمن توحيد الربوبية . أما كون توحيد الربوبية يستلزم توحيد الألوهية ، فلأن الذي يخلق ويرزق ، ويميت ويحي ، ويدبر أمور خلقه ، ويكون بيده الأمر كله ، هو وحده المستوجب للانفراد بالألوهية ، وبناءً على ذلك فمن أقر بالربوبية لله عز وجـــل ، لزمه لزوماً مؤكداً أن يقر له بالألوهية فينقاد إليه ولا يعبد غيره ، وألا يتوجه بقلبه وقالبه إلى غيره سبحانه وتعالى . وأمـــا كـــون " توحيد الربوبية " لا يكفي في نجاة العبد من العقوبة في الآخرة ، فلأن الله تعالى قد أخبر في كتابه الكريم ، بأن مشـــركي العرب وقت مبعث النبي – صلى الله عليه وسلم – كانوا مقرين به ، ومع ذلك كانوا يعاندون دعوة الرسول – صلى الله عـــليه وســـلم – فهم مقرون بالربوبية ، لكنهم كافرون بالألوهية معاندون لدعوة الإسلام التي بنيت على الألوهية[٢] . قال تعـــالى : (ولـــئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم)[٣] وقال تعالى : (ولئن سألتهم من خلقهم ليقولـــن الله فـــأنى يؤفكون)[٤] وقال جل وعلا : (قل من يرزقكم من السماء والأرض أم من يملك السمع والأبصار ، ومن يخرج الحي من الميت ، ويخرج الميت من الحي ومن يدبر الأمر ، فسيقولون الله فقل أفلا تتقون)[٥] يقول ابن كثير : " يحتج تعـــالى على المشركين باعتراضهم بوحدانيته وربوبيته على وحدانية الاله ، (قل من يرزقكم من السماء والأرض)[٦] أي من ذا الـــذي ينزل من السماء ماء المطر ، فيشق الأرض شقاً بقدرته ومشيئته ، فيخرج منها (حباً ، وعنباً وقضباً ، وزيتوناً ونخـــلا ، وحدائق غلبا ، وفاكهة وأبا)[٧] أإله مع الله ؟؟ فسيقولون : الله ، يعني لا غيره ... وكذلك قوله : (أمن يملك السمع والأبصـــار)[٨] أي : الـــذي وهبكم هذه القوة السامعة والقوة الباصرة ، ولو شاء لذهب بها وسلبكم إياها ، ... وقوله : (ومن يخـــرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي)[٩] أي : بقدرته العظيمة ، ومنته العميمة . وقوله : (ومن يدبر الأمر)[١٠] أي : من بيده ملكوت كل شئ وهو يجير ولا يجار عليه ، وهو المتصرف الحاكم الذي لا معقب لحكمه ، ولا يسأل عما يفعل ، وهـــم يسألون ... فالملك كله العلوي والسفلي وما فيهما من ملائكة وإنس وجان ، فقيرون إليه ، عبيد له ، خاضعون لديه (

---

(١) انظـــر : ابـــن أبي العز شرح العقيدة الطحاوية (ص/٧٦) ت الألباني – ط٦ المكتب الإسلامي . والسفاريني : لوامع الأنوار البهية (١٢٩/١) ، سليمان بن عبدالله بن محمد بن عبدالوهاب تيسير العزيز الحميد (ص/٣٣) .

(٢) انظر : ابن أبي العز : شرح العقيدة الطحاوية (٧٦-٨١) والشيخ : سليمان بن عبدالله بن محمد بن عبدالوهاب : تيسير العزيز الحميد (ص٣٣-٣٤) .

(٣) سورة الزخرف الآية (٩) .

(٤) سورة الزخرف الآية (٨٧) .

(٥) سورة سيدنا يونس – عليه السلام – الآية (٣١) .

(٦) سورة سيدنا يون س– عليه السلام – الآية (٣١) .

(٧) سورة عبس الآيات (٢٧-٣١) .

(٨) سورة سيدنا يون س– عليه السلام – الآية (٣١) .

(٩) نفس الآية السابقة .

(١٠) نفس الآية السابقة .

فسيقولون الله)[١] أي : هم يعلمون ذلك ويعترفون به (فقل : أفلا تتقون)[٢] أي : أفلا تخافون منه أن تعبدوا معه غيره بآرائكم وجهلكم " ا.هـ[٣] ويرى السيوطي أن سورة الفاتحة تضمنت الاقرار بالربوبية[٤] ، وذلك في قوله تعالى : (...رب العالمين)[٥] فالعالمين جمع عالم والعالم هو ما سوى الله تعالى[٦] . والرب هو المربي بالنعم[٧] ، قال ابن عباس – رضي الله عنهما – : " رب الجن والانس "[٨] وهذا أيضاً قول سعيد بن جبير ، ومجاهد ، وابن جريج ، وهو مروى عن علي بن أبي طالب – رضي الله عنه – ، وقال قتادة : " رب العالمين ، كل صنف عالم[٩] ، والمقصود بالعالمين كل ما سوى الله – عز وجل – وهو سبحانه خالقهم ورازقهم وما لكهم . فالخلق والملك من خصائص الربوبية ، فالرب جل وعلا هو الخالق لجميع العالمين ، فلا خالق غيره ، ولا يستقل شئ سواه باحداث أمر من الأمور ، بل ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، فكل ما سواه إذا قدر سببا فلا بد له من شريك معاون وضد معوق فهو سبحانه المالك المتصرف الذي يرزق الخلق ويملك السمع والأبصار ، ويهبها لعباده ، فيجعل فيها القوة السامعة والقوة الباصرة ، ولو شاء لذهب بها وسلب العباد إياها ، وهو الذي يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ، وهو الذي يدبر أمر عباده ، وأمر الكون كله ، بيده ملكوت كل شئ وهو يجير ولا يجار عليه ، وهو المتصرف الحاكم الذي لا معقب لحكمه ، لا يسأل عما يفعل وهم يسألون قال تعالى : (قل من يرزقكم من السماء والأرض ، أمن يملك السمع والأبصار من يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ومن يدبر الأمر ، فسيقولون الله ، فقل أفلا تتقون)[١٠] يقول السيوطي : (قل) لهم (من يرزقكم من السماء)[١١] بالمطر (والأرض) بالنبات (أمن يملك السمع) بمعنى الأسمع أي خلقها[١٢] ، (والأبصار ، ومن يخرج الحي من الميت) كالانسان والطائر من النطفة والبيضة[١٣] ، (ويخرج الميت) كالنطفة والبيضة[١٤] (من الحي) (ومن يدبر الأمر) بين الخلائق (فسيقولون) هو (الله ، فقل) لهم (أفلا تتقون) ـه فتؤمنون "[١٥] وقد قدمت أن المشركين كانوا مقرين بالربوبية لله جل وعلا وذكرت دليلاً هناك وفي هذه الآية دليل آخر على أن المشركين كانوا يقرون بأن الله وحده هو خالق كل شئ وهو اقرار بربوبيته تعالى أيضاً ولكنهم لا يعبدونه وحده لا شريك له ، ويدل على هذا أيضاً قوله تعالى : (قل لمن الأرض ومن

---

(١) نفس الآية السابقة .
(٢) نفس الآية السابقة .
(٣) ابن كثير : تفسير القرآن العظيم (٢٠٢،٢٠٣/٤) .
(٤) معترك الأقران (٥٣/١) وانظر ابن القيم : مدارج السالكين (٧/١) .
(٥) سورة الفاتحة الآية (٢) .
(٦) السيوطي : رسالة علم التوحيد لوحة ١ مخطوط .
(٧) معترك الاقران (١٨٧/٢) .
(٨) ابن كثير : تفسير القرآن العظيم (٣٩/١) .
(٩) انظر : السابق نفسه .
(١٠) سورة يونس – عليه السلام – الآية (٣١) .
(١١) السابق نفسه .
(١٢) الجلالين (٢٥٠) .
(١٣) الجلالين (٦٢) .
(١٤) نفسه السابق .
(١٥) الجلالين (٢٥٠) .

فيهـا إن كنـتم تعلمون سيقولون لله قل أفلا تذكرون قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم سيقولون لله قل أفلا تتقون قل من بيده ملكوت كل شئ وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون سيقولون لله قل فأنى تسحرون)[١] وقوله تعالى أيضاً : (ولـئن سـألتهم من خلق السموت والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله ، فأنى تؤفكون)[٢] وقوله تعالى كذلك : (وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون)[٣] يقول السيوطي : " (وما يؤمن أكثرهم بالله) حيث يقرون بأنه الخالق الرازق (إلا وهـم مشركون) به بعبادة الأصنام ولذا كانوا يقولون في تلبيتهم : لبيك لا شريك لك ، إلا شريكا هو لك تملكه ، وما ملك ، يعنونها "[٤] وقوله : " يعنونها " أي يقصدون معناها ، أي يقصدون هذا الاشراك بالله تعالى في ألوهيته مع اعتقادهم واقرارهم بربوبيته جل وعلا .

وهذا يدل على أن مجرد الاقرار بالربوبية وحده دون تحقيق الألوهية وهي صرف العبادة لله تعالى وحده لا شريك لـه دون سـواه ، ليس بنافع صاحبه شيئاً ، لأن المقر بأن الله تعالى هو الخالق الرازق ثم يعبد غيره أو يدعو غيره تعالى كالاصنام أو الملائكة أو الجن فهو مشرك[٥] ، كما في الآية (وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون)[٦] والمشركون في نار جهنم كما أخبر الله تعالى عنهم ، قال تعالى : (إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين في نار جهنم خالدين فيها ، أولـئك هم شر البرية)[٧] فتبين من ذلك أن توحيد الربوبية وحده لا يكفي العبد في حصول الاسلام ، بل لابد أن يأتي مع ذلك بلازمه وهو توحيد الألوهية – كما قد تقدم من الكلام في بداية هذا الفصل .

---

(١) سورة المؤمنون الآيات (٨٤-٨٩) .
(٢) سورة العنكبوت الآية (٦١) .
(٣) سورة يوسف الآية (١٠٦) .
(٤) الجلالين (٢٩٤) .
(٥) انظر : ابن أبي العز : شرح العقيدة الطحاوية (ص٧٩-٨٠) .
(٦) سورة يوسف – عليه السلام – الآية (١٠٦) .
(٧) سورة البينة الآية (٣) .

الفصل الثالث

توحيـــــــــد الألوهيـــــــــة

المبحث الأول :

تعريف توحيد الألوهية

توحيـد الألوهيـة هو القسم الثاني من أقسام التوحيد على حسب خطة هذا البحث ، و " الألوهية " من أَلِه يأله إذا تحيـر[١] ، لأنه " إذا وقع العبد في عظمة الله وجلاله وغير ذلك من صفات الربوبية ، ابغض الناس حتى لا يميل قلبه إلى أحد "[١] وقيل : " أصل أَلِه ولاه ، فقلبت الواو همزة ، كما قالوا : للوِشاح : إشاح ، وللوِجاح – وهو الستر – : إجاح[٢] ، ومعنى ولاه : أن الخلق يولهون إليه في حوائجهم ، ويضرعون إليه فيما يصيبهم ، ويفزعون إليه في كل ما ينوبهم ، كما يَوله كل طفل إلى أمه "[٣] . و " الله " هو المألوه المعبود[٤].

قال ابن عباس : " الله : ذو الألوهية والمعبوديةعلى خلقه أجمعين "[٥] و " الألوهية " : العبادة[٦] .

قال تعالى : (... وَيَذَرَكَ وآلهتك ...)[٧] وقرأ ابن عباس : ويذرك وإلاهتك ، أي وعبادتك ، قال : لأن فرعون كان يُعبد ولا يَعبد أحداً[٨] . وهكذا كان يقرؤها مجاهد[٩] وغيره .

والتألُّه : التنسك والتعبد ، والتأليه : التعبيد ، قال رؤبه :

للـــه دَرُّ الغـانيات المُـدَّه ... سبحن واسترجعن من تألُّهي[١٠]

يعني من تعبدي ، وطلبي الله بعمل[١١] .

وعــليه " فالألوهيــة " : العبادة ، ويكون معنى الإله : المعبود ، والمطاع ، وهو يطلق على المعبود بحق كقوله

---

(١) لسان العرب (٤٦٧/١٣) .

(٢) قال القرطبي : " وللوِسادة : إسادة " الجامع لأحكام القرآن (٧٢/١) .

(٣) ابن منظور لسان العرب (٤٦٨/١٣) ، القرطبي (٧٢/١) الجامع لأحكام القرآن .

(٤) ابن القيم : مدارج السالكين (٨/١) . ت . محمد حامد الفقي .

(٥) ابن جرير : جامع البيان (٥٤/١) .

(٦) ابن منظور : لسان العرب (٤٦٨/١٣) ، وابن جرير : جامع البيان (٨/١) .

(٧) سورة الأعراف الآية (١٢٧) .

(٨) ابــن منظور : لسان العرب (٤٦٨/١٣) ، وابن جرير : جامع البيان (٥٤/١) ، وابن كثير : تفسير القرآن العظيم (٣٥/١) ، والسيوطي : معترك الأقران (٢/ ٣٤) . وهنا ينبغي أن أنبه إلى أن قراءة الجمهور هي القراءة الأولى " ويذرك وآلهتك " قال ابن كثير – رحمه الله : " وقرأ بعضهم (إلاهتك) ، أي عبادتك ، وروى ذلك عن ابن عباس ومجاهد " تفسير القرآن العظيم (٤٥٦/٣) قلت : روى هذا ابن جرير – رحمه الله – عــن ابــن عــباس ومجــاهد في تفسير (٣٨/١٣) ، ووجه ابن كثير قراءة الجمهور على أنه كان لفرعون إله يعبده ، وروى عن الحسن البصـــري – رحمه الله – قال : " كان لفرعون إله يعبده في السر " وهو عند ابن جرير أيضاً الأثر رقم (١٤٩٦٤) (٣٩/١٣) ، وفي رواية عن الحســن أخــرى : كــان له جُمانةٌ في عنقه يسجد لها ، وقد قيل إنه كان يعبد قرص الشمس ، وعن السدي أنه كان إذا رأى بقرة حسناء أمرهم فرعون أن يعبدوها فلذلك أخرج لهم عجلاً جسداً – على قول ابن كثير – أو عجلاً بقرة – على رواية ابن جرير ، ورجح الرازي عبادة فرعون للكواكب . انظر تفسيره (٢٢٠/١٤) .

(٩) انظر : ابن جرير : جامع البيان (٥٤/١) ، وابن كثير : تفسير القرآن العظيم (٣٥/١) .

(١٠) ابن منظور : لسان العرب (٤٦٩/١٣) ، وابن جرير : جامع البيان (٥٤/١) .

(١١) ابن جرير : جامع البيان (٥٤/١) .

تعـالى : (الله لا الــه إلا هو الحي القيوم)[١] ويطلق على المعبود بالباطل ، كما في قوله تعالى : (أفرأيت من اتخذ إلهه هواه)[٢] ثم غلب استعماله على الاله الحق ، وصار معنى الإله هو : من تألهه القلوب حباً وتعظيماً ، وإجلالاً[٣] .

وبهذا يكون معناه يشتمل على أمرين :

<u>الاول :</u> غاية الحب والتعظيم والإجلال .

<u>الثاني :</u> غاية الذل بالطاعة والإنقياد والعبادة[٤] .

وبـناءً على ذلك ، يكون معنى توحيد الألوهية : إفراد الخالق جل وعلا بالعبادة والطاعة واخلاص الدين له وحده لا شريك له[٥] والخضوع والذل والحب والإفتقار والتوجه إليه تعالى[٦] .

ويقـال أيضـاً : إن توحيد الألوهية ، هو توحيد الله عز وجل بأفعال عباده ، كالصلاة والصيام والزكاة والحج ، والذبـح ، والـنذر ، والخوف والرجاء ، والمحبة ، على معنى أنهم يفعلونها طاعةً له سبحانه ، وابتغاء مرضاته ، وينبني عـلى ذلك إخلاص العبادات كلها ظاهرها وباطنها لله وحده لا شريك له ، لا يجعل فيها شيئاً لغيره ، لا لملك مقرب ، ولا لنبي مرسل ، فضلاً عن غيرهما "[٧] .

وقـال السـيوطي في قوله تعالى : (حتى إذا فزع عن قلوبهم...)[٨] " الصحيح أنها في الملائكة ، ولأن القصد الـرد عـلى الكفار الذين عبدوا الملائكة بذكر شدة خوف الملائكة من الله وتعظيمهم له " معنى ذلك أن الملائكة مخلوقة لا تسـتحق العبادة لأنها تعبد الله وتخافه والإله لا يخاف أحداً ولا يعبد أحداً فإذا كانت الملائكة تخاف الله تعالى فالله تعالى هو المستحق للخوف والعبادة وحده لا شريك له[٩] ومن هنا كان لابد من توفر أصلين لتحقيق توحيد الألوهية :

<u>أولهما :</u> أن تصرف جميع أنواع العبادة له سبحانه ، دون ما سواه .

<u>وثانيهما :</u> أن تكون العبادة موافقة لأمر الله تعالى ونهيه .

ويجمع هذين الأصلين : الإخلاص والمتابعة وهو مدلول الشهادتين : (أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله) فلا عبادة ولا طاعة إلا لله ، ولا طريق لذلك إلا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وكل طريق غير طريق رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فإنه لا يوصل إلى المطلوب[١٠] ..

وهـذا التوحيد هو لازم لتوحيد الربوبية ومتضمن له . وتوحيد الربوبية – كما قدمت قبل – بدون هذا التوحيد لا

---

(١) سورة البقرة بعض الآية (٢٥٥) ، آل عمران الآية (٢) .
(٢) سورة الجاثية الآية (٢٣) .
(٣) البريكان المدخل (ص٩٤) ، فتح المجيد (ص٣٥) .
(٤) الوابل الطيب (ص١٥) – البريكان المدخل (ص٩٤) .
(٥) د. محمد خليل هراس : دعوة التوحيد (ص٣٧) ، والبريكان : المدخل لدراسة العقيدة (ص٩٤) .
(٦) لوامع الانوار (١٢٨/١) .
(٧) تيسير العزيز الحميد (ص ٣٦) .
(٨) سورة سبأ بعض الآية (٢٣) .
(٩) معترك الأقران (١٣٣/٣ ، ١٣٤) .
(١٠) انظر البريكان (ص ٩٤) ، وشرح الطحاوية (ص٧٠ وما بعدها) ، وفتح المجيد (ص٢٥) .

ينفع صاحبه ولا ينجيه يوم القيامة من عذاب الله تعالى ، كما أن توحيد الألوهية هذا هو حقيقة دين الإسلام الذي لا يقبل الله من أحد ديناً سواه[١] .

وهو أول دعوة الرسل ، وأول منازل الطريق ، وأول مقام يقوم فيه السالك إلى الله عز وجل[٢] .

قـال تعـالى : (لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيـم)[٣] وقال هود - عليه السلام - : (يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون)[٤] ، وقال صالح - عـليه السلام - لقومه : (يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره)[٥] وقال شعيب - عليه السلام - لقومه : (يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره)[٦] وقال تعالى : (ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت)[٧] وقال تعالى : (وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون)[٨] .

وقـال - صـلى الله عليه وسلم - : " أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ... "[٩]

فهـذا التوحيد هو أول ما يدخل به العبد الإسلام وهو آخر ما يخرج به من الدنيا كما قال النبي - صلى الله عليه وسلم - : " من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة " . وهو أول واجب وآخر واجب [١٠] .

وفـي فضل (لا إله إلا الله) ورد عن معاذ[١١] بن جبل - رضي الله عنه - قال : كنت رديف النبي - صلى الله عليه وسلم - فقال : " يا معاذ " ، قلت : لبيك وسعديك ، ثم قال مثله ثلاثاً ، " هل تدري ما حق الله على العباد ؟ " قلت : لا ، قال : " حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً " ثم سار ساعة فقال : " يا معاذ " ، قلت : لبيك وسعديك قال : " هل تدري ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك ؟ ألا يعذبهم "[١٢].

وعـن جابـر[١٣] - رضـي الله عنه - قال : أتى النبي - صلى الله عليه وسلم - رجل فقال : يا رسول الله ما

---

(١) انظر : التيسير (ص ٣٩) .

(٢) شرح الطحاوية (٧٤ - ٧٥) .

(٣) سورة الأعراف بعض الآية (٥٩) .

(٤) سورة الأعراف بعض الآية (٦٥) .

(٥) سورة الاعراف بعض الاية (٧٣) .

(٦) سورة الاعراف بعض الاية (٨٥) .

(٧) سورة النحل بعض الاية (٣٦) .

(٨) سورة الانبياء الاية (٢٥) .

(٩) رواه الـبخاري (٢٦٢/٣) و (١١١،١١٢/٦) و (٢٧٥/١٢) و (٢٥٠/١٣) من فتح الباري ، ومسلم (٥١،٥٢،٥٣/١) عن أبي هريرة - رضي الله عنه - ، وأخرجه مسلم (٥٣/١) عن جابر وابن عمر ، وانظر : نظم المتناثر من الحديث المتواتر (ص٩) .

(١٠) شرح الطحاوية (٧٤ - ٧٥) ، تيسير العزيز الحميد (ص ٣٩) وما بعدها ، وانظر فتح المجيد (ص٤٨) .

(١١) هـو أبـو عـبدالرحمن معاذ بن جبل بن عمرو بن أوس بن عائذ الأنصاري الخزرجي المدني البدري الصحابي الشهير الجليل ، وأعلم الأمة بالحلال والحرام ، توفي سنة ١٧هـ - وقيل ١٨هـ - انظر : الاستيعاب (١٤٠٢/٣ - ١٤٠٧) ، وأسد الغابة (١٩٤/٥ - ١٩٧) والاصابة (٦/ ١٣٦ - ١٣٨) .

(١٢) الـبخاري فـي صـحيحه ، كـتاب الاسـتئذان (٧٩) باب (٣٠) ح رقم (٦٢٦٧) ، انظر فتح الباري بشرح صحيح البخاري لابن حجر العسـقلاني (٣٩٧/١٠) (٦٠/١١-٦١) ، وكذا في مواضع أخرى من الصحيح بألفاظ متقاربة ، ورواه مسلم في صحيحه كتاب الايمان (١) ح رقم (٤٨ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٥١) انظر (٥٨/١ - ٥٩) ، والترمذي في سننه كتاب الايمان باب (١٨) ح رقم (٢٦٤٣) انظر (٢٦/٥ - ٢٧) .

(١٣) هـو : أبـو عـبدالله جابر بن عبدالله بن عمرو بن حرام الأنصاري الخزرجي السلمي المدني له ولأبيه صحبة كان من أعيان الصحابة وفقائهم ومجتهديهم ، مات بالمدينة سنة ٧٨هـ ، وقيل ٧٧ هـ وقيل غير ذلك ، انظر : الاستيعاب (٢١٩/١) ، أسد الغابة (٣٠٧/١) الاصابة (١/

الموجبتان[١] ؟ فقال : " من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة ، ومن مات يشرك بالله شيئاً دخل النار "[٢] .

وعنه – أيضاً – قال : سمعت رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يقول : " من لقي الله لا يشرك به شيئاً دخل الجنة ، ومن لقيه يشرك به دخل النار "[٣] .

المبحث الثاني :أساليب القرآن في تقرير توحيد الألوهية والدعوة إليه

يتضـــح من خلال آيات الكتاب العزيز المنهج الإلهي في إثبات توحيد الألوهية ، ودعوة الناس إليه ، وهو في ذلك يســلك طــرقاً وأساليب متعددة ومتنوعة ليرسخ هذا المقصد الأعظم ألا وهو توحيد الألوهية ، اذكر منها على سبيل الإيجاز في إيراد الأدلة – ما يلي :

الأول : ســوق آيات الربوبية في الخلق والتدبير والملك والحفظ ، والرعاية ، والإحسان ، والرحمة وجعل ذلك دليلاً على توحيد الألوهية .

فمن لا يقدر أن يخلق يكون عاجزاً ، والعاجز لا يصلح أن يكون إلهاً[٤] .

قال تعالى : (أيشركون ما لا يخلق شيئاً وهم يخلقون)[٥] ، وقال تعالى : (أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون)[٦] .

والقرآن مملوء من تقرير هذا التوحيد وبيانه وضرب الأمثال له ، ومن ذلك أنه يقرر توحيد الربوبية ، ويبين أنــه لا خــالق إلا الله ، وأن ذلــك مســتلزم أن لا يعبد إلا الله ، فيجعل الأول دليلاً على الثاني ، إذ كانوا يسلمون الأول ويــنازعون فــي الــثاني ، فيبين لهم سبحانه انكم إذا كنتم تعلمون أنه لا خالق إلا الله وحده ، وأنه هو الذي يؤتي العباد ما ينفعهم ويدفع عنهم ما يضرهم ، لا شريك له في ذلك ، فلم تعبدون غيره ، وتجعلون معه آلهة اخرى[٧] ؟؟ كقوله تعالى : (قــل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى آلله خير أما يشركون ، أمن خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماءً ، فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ، ما كان لكم أن تنبتوا شجرها أ إله مع الله ؟ بل هم قوم يعدلون)[٨] الآيات[٩] .

والآيات التي تعتبر شواهد ودلائل للربوبية كثيرة جداً يسوقها الله عز وجل ثم ينتقل منها إلى الدعوة لعبادته وحده لا شريك له .

الــثاني : التنديد بما يتخذه الناس آلهة من دون الله عز وجل ، وإظهار عجز هذه الآلهة الباطلة العجز الشنيع والفقر البالغ والغفــلة عمن يدعوها ويفزع إليها كقوله تعالى في أواخر سورة الأعراف : (أيشركون ما لا يخلق شيئاً وهم يخلقون ولا يســتطيعون لهم نصراً ولا أنفسهم ينصرون وإن تدعوهم إلى الهدى لا يتبعوكم سواء عليكم أدعوتموهم أم أنتم صامتون إن

---

٤٣٤) .

(١) أي الخصلة الموجبة لدخول الجنة ، والخصلة الموجبة لدخول النار .

(٢) أخــرجه مسـلم في صحيحه ، كتاب الايمان (١) ح رقم (١٥١) انظر (٩٤/١) وأحمد في مسنده (٣٩١/٣) ، وابو يعلى في مسنده ح (٢٢٧٤) انظر (٤٦٨/٢) .

(٣) اخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب الايمان (١) (٩٤/١) ح رقم (١٥٢) .

(٤) شرح الطحاوية (٨٧) .

(٥) سورة الاعراف الآية (١٩١) .

(٦) سورة النحل الآية (١٧) .

(٧) انظر : شرح العقيدة الطحاوية (ص ٨٣ ، ٨٤) .

(٨) سورة النمل الآيتان (٥٩ ، ٦٠) .

(٩) انظر : تفسير ابن جرير (٤/٢٠ – ٥) ، تفسير الالوسي (٥/٢٠) ، وتفسير أبي السعود (٨٣/٦ ، ٨٤) .

الذيــن تدعون من دون الله عباد أمثالكم فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين ألهم أرجل يمشون بها أم لهم أيد يبطشون بها أم لهم أعين يبصرون بها أم لهم آذان يسمعون بها قل ادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تنظرون)[١] وآيات أخرى غير ذلك .

ويقول السيوطي في قوله تعالى : (ويعبدون من دون الله مالا يملك لهم رزقاً من السموات والأرض شيئاً ، ولا يستطعون)[٢] .

" فــي هــذه الآية توبيخ للكفار ، ورد عليهم في عبادتهم من لا يملك لهم رزقاً من السموات والأرض شيئاً ، ولا يستطيعون ، فنفي الإستطاعة بعد نفي الملك أبلغ في الذم ، والضمير على (ما) لأن المراد به الآلهة "[٣] .

وقــال أيضــاً في قوله تعالى : (ضرب الله مثلاً عبداً مملوكاً لا يقدر على شيء ومن رزقناه منا رزقاً حسناً)[٤] الآيــة " مَــن – هنا نكرة موصوفة ، والمراد بها من هو حر قادر كأنه قال : وحراً رزقناه ... ليطابق عبداً ، ويحتمل أن تكــون موصــولة ، فالأصنام كالعبد المملوك الذي لا يقدر على شيء ، والله تعالى له الملك وبيده الرزق ، ويتصرف فيه كيــف يشــاء ، فكيف يسوي بينه وبين الأصنام ، وإنما قال : (لا يقدر على شيء) لأن بعض العبيد يقدرون على بعض الأمور كالمكاتب والمأذون له "[٥] .

الــثالث : التشنيع بحال العابدين لهذه الآلهة الباطلة ، ووصفهم بالضلال والإنحراف والسفه حيث رضوا لأنفسهم أن يعبدوا ما لا يسمع ولا يبصر ، ولا يملك لهم ضراً ولا نفعاً ، ولا تغني شفاعتهم عنهم شيئاً كما في قوله تعالى على لسان إبراهيم – عــليه الســلام – يخــاطب قومــه : (أف لكــم ولمــا تعــبدون مــن دون الله أفلا تعقلون)[٦] ، وقوله لهم في مكان آخــر : (لقــد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلال مبين)[٧] وقوله لأبيه : (يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئاً)[٨] والآيات في بيان هذا التشنيع على المشركين كثيرة[٩] .

الــرابع : بيــان مشاهد الندم يوم القيامة بين العابدين والمعبودين ، وبين الأتباع والمتبوعين من التبرؤ والمعاداة ، وتنصل المعــبودين من جناية هؤلاء العابدين المشركين ، وإنكارهم أن يكونوا هم السبب في إضلالهم وشركهم قال تعالى في سورة الــبقرة : (ومــن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله ، والذين آمنوا أشد حباً لله ولو يرى الذين ظلموا إذ يــرون العــذاب أن القــوة لله جميعاً وأن الله شديد العذاب إذ تبرأ الذين اتُبعوا من الذين اتَبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأســباب وقــال الذيــن اتــبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرءوا منا كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وما هم بخارجين من النار)[١٠] وغير هذه الآيات كثير في تقرير هذه المسألة .

---

(١) سورة الأعراف الآيات (١٩١ – ١٩٥) .
(٢) سورة النحل الآية (٧٣) .
(٣) معترك الأقران (٢/٣٥٢) .
(٤) سورة النحل الآية (٧٥) .
(٥) معترك الأقران (٢/٣٥٢) .
(٦) سورة الأنبياء الآية (٦٧) .
(٧) سورة الانبياء الآية (٥٤) .
(٨) سورة مريم الآية (٤٢) .
(٩) انظر : د. محمد خليل هراس : دعوة التوحيد (ص٤٢) .
(١٠) سورة البقرة الآيات (١٦٥ ، ١٦٦ ، ١٦٧) .

الخامس : بيان انفراده سبحانه وتعالى بما له من الأسماء الحسنى ، والصفات العليا ، التي لا يكون إلهاً إلا من اتصف بها ، فالإلـه يجب أن يكون كاملاً حائزاً لجميع صفات الكمال فإن النقص مناف للألوهية ، فإذا ثبت اختصاصه سبحانه بهذه الأسماء والصفات دل ذلك على تفرده بالألوهية . ومن أمثلة ذلك قوله تعالى : (وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم)[١] ، وقوله تعالى : (الله لا إله إلا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم له ما في السموات وما في الأرض ، من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء ، وسع كرسيه السموات والأرض ، ولا يؤوده حفظهما وهو العلي العظيم)[٢] ، وغير ذلك من الآيات[٣] .

المبحث الثالث : ما ذكره السيوطي من نواقض التوحيد

وإذا كانت الألوهية هي العبادة كما قدمت وأن حق الله تعالى على عباده هو أن يوحدوه التوحيد الخالص بصرف العبادة كلها له وحده لا شريك له ، وألا يتوجهوا بشيء منها لغيره جل وعلا سواء كان ذبحاً أو سجوداً أو غيره ، فهذا هو الذي قرره السيوطي وأكده في مؤلفاته وفتاويه .

١- الذبح لغير الله : افتى السيوطي بأن الذبح لغير الله كفر ، قال في جواب له على أسئلة وردته : " ... فاعلم أن جميع ما سألت عنه في هذه الفصول من فعل الملوك والرعية للأشياء التي وصفتها كلها مذمومة ، ومحرمة شرعاً ، إلا ما استثنيته لك وبعضه أشد في الحرمة من بعض ، وبعضها مقتض للكفر، وهو ما ذكرت عن قوم أنهم يذبحون للأصنام ويعبدونها ... "[٤] .

وما قاله السيوطي هو الصحيح الذي تؤيده الأدلة الشرعية ، قال تعالى : (قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين ، لا شريك له ، وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين)[٥] قال ابن كثير : " يأمره تعالى أن يخبر المشركين الذين يعبدون غير الله ، ويذبحون لغير اسمه وحده لا شريك له ، وهذا كقوله تعالى : (فصل لربك وانحر)[٦] أي أخلص صلاتك وذبيحتك كما هي في بعض معانيها ، فإن المشركين يعبدون الأصنام ويذبحون لها ، فأمر الله بمخالفتهم ، والإنحراف عما هم فيه ، والإقبال بالقصد والنية ، والعزم على الإخلاص لله تعالى " .

والنسك : هو الذبح في الحج والعمرة كما ورد عن مجاهد وسعيد بن جبير والضحاك وغيرهم[٧] .

فدلت الآية الكريمة على أن الذبح الذي عبرت عنه بالنسك هو لله وحده لا لغيره وقوله تعالى : (لا شريك له) دل على أن الذبح لغيرالله تعالى شرك به عز وجل ، يؤيد هذا أيضاً ما ورد في الحديث الصحيح عن علي – رضي الله عنه – قال : حدثني رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بأربع كلمات : " لعن الله من ذبح لغير الله ، ولعن الله من لعن

---

(١) سورة البقرة الآية (١٦٣) .

(٢) سورة البقرة الآية (٢٥٥) .

(٣) كالآيات في أوائل سورة آل عمران ، وأوائل سورة الشورى ، وأوائل سورة الحديد ، وغيرها .

(٤) الحاوي (١/٩١) .

(٥) سورة الأنعام الآية (١٦٤) .

(٦) سورة الكوثر الآية (٣) .

(٧) ابن جرير : جامع البيان (٨/١١٢) وتفسير ابن كثير (٣/٣٧٧) ، وانظر : تيسير العزيز الحميد (ص ١٨٨) .

والديه ولعن الله من آوى محدثاً ، ولعن الله من غير منار الأرض "[١] .

والمـــراد بـــالذبح لغير الله تعالى – كما قال الإمام النووي – هو أن يذبح باسم غير اسم الله تعالى ، كمن يذبح للصنم ، أو للصليب ، أو لموسى أو لعيسى – عليهما الصلاة والسلام – أو الكعبة ونحو ذلك ، وكل هذا حرام ، ولا تحل هذه الذبيحة ، ســـواء كان الذابح مسلماً أو نصرانياً أو يهودياً ، قال النووي : مضى عليه الشافعي ، واتفق عليه أصحابنا ، فإن قصد مع ذلك تعظيم المذبوح له غير الله ، والعبادة له ، كان ذلك كفراً ، فإن كان الذابح مسلماً قبل ذلك صار بالذبح مرتداً[٢] .

وقـــد ورد مـــاهو أشد مما ذكر من الذبح لغير الله ، فمجرد أن يقرب المسلم شيئاً ولو حقيراً لمخلوق غير الله على سبيل التعبد لهذا المخلوق فإن ذلك يوقعه في الشرك الذي يكون سبباً لدخوله النار ، فعن طارق بن شهاب أن رسول الله – صـــلى الله عـــليه وســـلم – قال : " دخل الجنة رجل في ذباب ، ودخل النار رجل في ذباب " قالوا : وكيف ذلك يا رسول الله ؟؟ قـــال : " مـــر رجلان على قوم لهم صنم لا يجاوزه أحد حتى يقرب له شيئاً فقالوا لأحدهما قرب ، قال : ما عندي شيء ، قالوا : قرب ولو ذباباً ، فقرب ذباباً فخلوا سبيله ، فدخل النار ، وقالوا للآخر : قرب قال : ما كنت لأقرب لأحد شـــيئاً من دون الله عز وجل ، فضربوا عنقه ، فدخل الجنة "[٣] فدخول الرجل الجنة في ذباب ، أي : بسبب الذباب ، ذلك لأنـــه أبى أن يقرب الذباب ولو كان حقيراً على سبيل التعبد لهذا الصنم ، فهذا التقريب لغير الله شرك يستحق فاعله دخول النار ، وهو الذي جوزي به صاحبه الذي قرب ذباباً للصنم ، ففي هذا بيان عظمة الشرك ولو في شيء قليل ، وأنه يوجب النار ألا ترى إلى هذا لما قرب لهذا الصنم الذباب وهو أرذل الحيوان وأخسه كان جزاؤه النار لإشراكه في عبادة الله[٤] ، " إذ الذبح على سبيل القربة والتعظيم عبادة ، وهذا مطابق لقوله تعالى : (إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه الـــنار)[٥] ... وفيه أنه دخل النار بسبب لم يقصده ، بل فعله تخلصاً من شرهم ، وفيه أن الذي دخل النار مسلم ، لأنه لو كان كافراً لم يقل : دخل النار في ذباب ، وفيه أن عمل القلب هو المقصود الأعظم حتى عند عبدة الأوثان "[٦] .

وهذا الحديث يبين أن الشرك عند الله ثم عند المؤمنين ذنب عظيم ، فانظر إلى هذا المؤمن كيف صبر على القتل ، ولم يوافقهم على طلبهم مع كونهم لم يطلبوا إلا العمل الظاهر .

ولقد ورد في الحديث ما هو أشد من ذلك وأدق ، وهو التحذير من الذبح لله تعالى بمكان كان يذبح فيه لغير الله ، فعـــلى الرغم من أن الذابح يذبح لله تعالى خالصاً ، لكنه أوقع الذبح في مكان كان يذبح فيه لصنم أو لوثن أو لمخلوق غير الله ، فـــإن ذبحـــه هذا لا يجوز فعن ثابت بن الضحاك[٧] قال : نذر رجل أن ينحر إبلاً ببوانة[٨] ، فسأل النبي – صلى الله

---

(١) صحيح مسلم (١٥٦٧/٣) .

(٢) شرح الامام النووي لصحيح مسلم وبالتالي تطبق عليه احكام الردة من القتل وغيره (١٤١/١٣) .

(٣) معارج القبول :حافظ الحكمي (٤١٣/١) ، تيسير العزيز الحميد (١٩٣) ، والحديث صحيح موقوفاً ، رواه أحمد في " الزهد " (ص١٥،١٦) وأبو نعيم في الحلية (٢٠٣/١) عن طارق بن شهاب عن سلمان الفارسي – رضي الله عنه – ، ولم أقف على روايته مرفوعاً .

(٤) انظر تيسير العزيز الحميد (١٩٥) .

(٥) سورة المائدة بعض الآية (٧٦) .

(٦) تيسير العزيز الحميد (١٩٥) .

(٧) ثابت بن الضحاك بن خليفة الأشهلي ، صحابي جليل مشهور ، روى عنه ابو قلابة وغيره ومات سنة اربع وستين – رضي الله عنه – .

(٨) " بوانة " بضم الباء وقيل فتحها ، قال البغوي : موضع في اسفل مكة دون يلملم ، وقيل هضبة من وراء ينبع . انظر : تيسير العزيز الحميد (ص

عـــليه وسلم – فقال : " هل كان فيه وثن من أوثان الجاهلية يُعبد " ؟ قالوا : لا ، قال : " فهل كان فيها عيد من أعيادهم " ؟ قالوا : لا ، فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : " أوف بنذرك ، فإنه لا وفاء لنذر في معصية الله ولا فيما يملك ابن آدم "[١] .

ففـــي هذا الحديث الشريف استفصال المفتي من المستفت عما إذا كان يوجد مانع من موانع الوفاء بالنذر ، فإنه قد دل على أن هذا المكان المسئول عن الذبح فيه إذا كان يذبح فيه لغير الله فإنه يمنع من الذبح فيه لله ، أو كان في المكان عيد من أعياد الجاهلية ولو بعد زواله ، والحذر من مشابهة المشركين في نسكهم وأعيادهم ولو لم يقصده . وأن هذا يعد معصية لأن قولـــه – صلى الله عليه وسلم – : " فأوف بنذرك " تعقيب للوصف بالحكم بحرف الفاء ، وذلك يدل على أن الوصف ســـبب الحكـــم ، فيكون سبب الأمر بالوفاء وجود النذر خالياً عن هذين الوصفين ، فيكونان مانعين من الوفاء ، ولو لم يكن معصـــية لجاز الوفاء به ، ولأنه عقبة بقوله : " فإنه لا وفاء لنذر في معصية الله " فدل أن الصورة المسئول عنها مندرجة في هذا اللفظ العام ، لأن العام إذا أورد على سبب فلا بد أن يكون السبب مندرجاً فيه ، ولأنه لو كان الذبح فيما ذكر جائزاً لســـوغ – صلى الله عليه وسلم – للناذر الوفاء به كما سوغ لمن نذرت الضرب بالدف أن تضرب به ، لأنه عليه السلام – استفصـــل فلما قالوا : لا ، قال له : " فأوف بنذرك " وهذا يقتضي أن كون البقعة مكاناً لعيدهم ، أو بها وثن من أوثانهم مانع مـــن الذبح بها وإن نذر ، وإلا لما حسن الاستفصال ، فتخصيص البقعة بالنذر لا بأس به ، مالم يوجد مانع من تلك الموانع التي استفصل عنها النبي – صلى الله عليه وسلم –[٢] .

٢- <u>السجود لغير الله :</u> وكان مما تناوله السيوطي في فتاويه مسألة السجود لغير الله جل وعلا ، وأفتى بأن هذا السجود كفر ، قال في الحاوي رداً على سائل يسأل عن قوم يسجدون لغير الله : " ...وقوم انهم يسجدون لملوكهم ، فهذا كله كفر... "[٣] وهذا موافق لما ورد من النصوص الشرعية في النهي عن السجود لغير الله تعالى ومنها :

١- قولـــه تعالى : (ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذي خلقهن إن كنتم إياه تعبدون)[٤] يقول ابن جرير – رحمه الله – : (واسجدوا لله الذي خلقهن إن كنتم إياه تعبدون) " إن كنتم تعبدون الله ، وتذلون له بالطاعة ، وإن من طاعته أن تخلصوا له العبادة ولا تشركوا في طاعتكم إياه وعبادتكموه شيئاً سواه ، فإن العبادة لا تصلح لغيره ، ولا تنبغي لشئ سواه "[٥] .

ويقول ابن كثير – رحمه الله – : " لا تشركوا به فما تنفعكم عبادتكم له مع عبادتكم لغيره ، فإنه لا يغفر أن يشرك به "[٦] .

فهذا يدل على أن السجود لغير الله تعالى شرك ، سواء كان للشمس أو للقمر أو لملك أو لنبي أو لسلطان أو لجن ،

---

٢٠٠) .

(١) الحديـــث صحيح ، رواه أبو داود (٣٣١٣) ومن طريقه البيهقي (٨٣/١٠) والطبراني في الكبير (١٣٤١) عن ثابت بن الضحاك بسند صحيح ، رجاله رجال الشيخين ، وصححه الحافظ ابن حجر في التلخيص الحبير (١٨٠/٤) .

(٢) انظر تيسير العزيز الحميد (ص ٢٠٠ ، ٢٠١)

(٣) الحاوي (٢٩١/١) .

(٤) سورة فصلت الآية (٣٧) .

(٥) جامع البيان (١٢١/٢٤) .

(٦) تفسير القرآن العظيم (١٧٠/٧) .

أو لغيره فالسجود عبادة كالركوع قال تعالى : (يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم)[١] والسجود عبارة عن نهاية التعظيم للمسجود له فلا تليق إلا بالله الخالق جل وعلا .

٢- قوله تعالى حكاية عن الهدهد يخبر سليمان – عليه السلام – عن ملكة سبأ وقومها الذين كانوا يعبدون الشمس من دون الله : (وجدتهـا وقومهـا يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون ألا يسجدوا لله الذي يخرج الخبء في السموات والأرض ويعلم ما تخفون وما تعلنون الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم)[٢]

فوصف سجودهم لغير الله تعالى بأنه من تزيين الشيطان ، فالشيطان دأبه تزيين الكفر والشرك والمعاصي للإنسان ، وقد زين لهؤلاء القوم السجود لغير الله تعالى ، وهو السجود للشمس ، فصدهم بذلك عن السبيل الحق ، الذي هو التوحيد والسـجود والـركوع لله تعالى وحده ، ومن صُد عن الحق وقع في الباطل ، فصاروا في ضلال لا يهتدون ، ووصفها في سـياق القصـة بالكفر هي وقومها ، قال تعالى : (وصدها ما كانت تعبد من دون الله إنها كانت من قوم كافرين)[٣] ، وعلى ذلك فكل من عبد غير الله أو سجد لغير الله فهو كافر بمنطوق هذه الآية الكريمة ، يقول ابن جرير : (إن هذه المرأة كانت كافرة من قوم كافرين)[٤] .

فهذا مما يؤيد صحة فتوى السيوطي بكفر من سجد لغير الله تعالى .

<u>٣- السـحر :</u> وكـان مما تعرض له السيوطي أيضاً موضوع السحر ، وقد أفتى فيه بأنه كفر ، فقال في إجابته بعض من سأله : " ...ومنها من يعتقد أن بعض الناس يقتل بمس أو مقاربة ، أو يمرض ، وهذا اعتقاد فاسد ، فإن كان ذلك بسحر أثم فاعله أو كفر ... "[٥] .

والسـحر لغـة : هـو " كل ما لطف مأخذه ودق "[٦] ولهذا جاء في الحديث : " إن من البيان لسحراً "[٧] وسمي السحور سحوراً لأنه يقع خفياً آخر الليل[٨] ، قال تعالى : (سحروا أعين الناس)[٩] أي أخفوا عنهم علمهم[١٠] .

والسحر اصطلاحاً : " هو عقد ورقي وكلام يتكلم به أو يكتبه أو يعمل شيئاً يؤثر في بدن المسحور أو قلبه أو عقله من غير مباشـرة له ولـه حقيقة فمنه ما يقتل ، وما يمرض ، وما يأخذ الرجل عن أمرأته فيمنعه وطأها ، ومنه ما يفرق بين المرء وزوجه ، وما يبغض أحدهما إلى الآخر ، أو يحبب بين اثنين "[١١] وقال ابن القيم : " والسحر مركب من تأثيرات الأرواح

---

(١) سورة الحج ، بعض الآية (٧٧) .

(٢) سورة النمل الآيات (٢٤-٢٦) .

(٣) سورة النمل الآية (٤٣) .

(٤) جامع البيان (١٦٨/١٩) .

(٥) الحاوي للفتاوي (٢٩٢/١) .

(٦) الطاهر الزاوي : ترتيب القاموس المحيط (٥٢٨/٢) . والراغب الاصفهاني : المفردات (٢٢٦) .

(٧) رواه البخاري عن ابن عمر – في صحيحه كتاب الطب (٧٦) باب (٥١) ح رقم (٥٧٦٧) ، انظر فتح الباري (٢٣٧/١) ، اخرجه البيهقي في الدلائل من طريق مسلم عن ابن عباس ، ومالك في الموطأ باب ما يكره من الكلام بغير ذكر الله .

(٨) انظر : ابن كثير : تفسير القرآن العظيم (٢١٢/١) .

(٩) سورة الاعراف جزء من الآية رقم (١١٦) .

(١٠) ابن كثير : تفسير القرآن العظيم (٢١٢/١) .

(١١) ابـو محمـد عبدالله بن قدامة المقدس : المغنى المطبوع معه الشرح الكبير (١١٣/١٠) ونحوه في الشرح الكبير (١١٢/١٠) ، وقريب منه في

الخبيثة ، وانفعال القوى الطبيعية عنها ، وهو أشد ما يكون من السحر والاسيما في الموضع الذي انتهى السحر إليه "[١] .

قلت : وقد أجمع أهل السنة والجماعة على وقوع السحر بدليل القرآن وصحيح الأخبار ، وانكر المعتزلة وطائفة من الناس[٢]

وقال تعالى : (ومن شر النفاثات في العقد)[٣] يعني السواحر اللاتي يعقدن في سحرهن وينفثن في عقدهن[٤] .

وللسحر حقيقة ، بمعنى أنه يتحقق وقوعه ووجوده ، وهذا هو الحق الذي عليه أهل السنة والجماعة – كما قلت – ، وقد شذ منهم قوم بعضهم من أصحاب الإمام الشافعي[٥] وهو أبو جعفر الاستراباذي ، ومن الحنفية أبو بكر الرازي ، وكذا الإمام ابن حزم الظاهري فأنكروا حقيقة السحر وقالوا : إنما هو وهم وتخييل[٦] فوافقوا بذلك مذهب المعتزلة فيه .

قال الإمام النووي : " والصحيح أن له حقيقة وبه قطع الجمهور ، وعليه عامة العلماء ، ويدل عليه الكتاب والسنة الصحيحة المشهورة "[٧] ولو لم يكن للسحر حقيقة ووجود لم ترد النواهي عنه في الشرع ، والوعيد على فاعله ، والعقوبات الدنيوية والأخروية على متعاطيه والإستعاذة منه أمراً وخبراً .

فإنه لا يعقل أن ينهى الشرع عن شيء لا حقيقة له ولا وجود له في الواقع .

وقـد أخبر الله سبحانه أن السحر كان موجوداً في زمن فرعون وأنه أراد – لعنه الله – أن يعارض به معجزات نـبي الله ورسـوله موسى – عليه السلام – في العصا بعد أن رماه هو وقومه به بقولهم الذي حكاه الله تعالى فقال : (قال المـلأ مـن قـوم فرعون إن هذا لساحر عليم ، يريد أن يخرجكم من أرضكم فماذا تأمرون قالوا أرجه وأخاه وأرسل في المدائن حاشرين يأتوك بكل ساحر عليم)[٨] وقال تعالى عن سحرة فرعون : (فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجـاءوا بسحر عظيم)[٩] وقال جل وعلا : (... فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى فأوجس في نفسه خيفـة موسـى قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى ، وألق ما في يمينك تلقف ما صنعوا إنما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى)[١٠] . ومعظم سياق قصة موسى – عليه السلام – مع فرعون تثبت حقيقة السحر وتأثيره ، بل وصفه الله تعالى بأنه (سحر عظيم)[١١] .

وقـد أخبر الله تعالى كذلك عن قوم صالح – عليه السلام – وكانوا قبل إبراهيم – عليه السلام – أنهم قالوا لنبيهم

تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد نقلاً عن الكافي لابن قدامة كذلك انظر ص (٣٨٢) – ط المكتب الاسلامي .

(١) زاد المعاد (١٢٥/٤-١٢٦) .

(٢) لـلمزيد انظر : المعتمد في أصول الدين (ص١٦٧) ، والارشاد (ص٢٧٠-٢٧٢) ، والمغني لابن قدامة (١١٣/١٠) ن بدائع الفوائد (٢١١/٢-٢٢٨) وكشاف اصطلاحات الفنون (١٥٢/٣-١٥٧) .

(٣) سورة الفلق الآية (٤)

(٤) انظر : ابن جرير : جامع البيان (٣٥٣/١٥) ، وابن كثير : تفسير القرآن العظيم (٥٥٥/٨) ، الشوكاني : فتح القدير (٥٢٠/٥ ، ٥٢١) .

(٥) انظر : ابن حجر : فتح الباري (٢٢٢/١٠) .

(٦) المغنى (١١٣/١٠)

(٧) ابن حجر : فتح الباري (٢٤٢/١٠) ، شرح النووي لصحيح مسلم (١٧٤/١٤) .

(٨) سورة الاعراف الآيات (١٠٩ – ١١٢) .

(٩) سورة الاعراف الآية (١١٦) .

(١٠) سورة طه الآيات (٦٦ – ٦٩) .

(١١) سورة الأعراف بعض الآية (١١٦) .

صـــالح - عـــليه الســـلام - (إنمـــا أنت من المسحرين)[1] وكذا قال قوم شعيب - عليه السلام - له (إنما أنت من المسحرين)[2] وكذلك قال المشركون لنبينا محمد - صلى الله عليه وسلم - كما ذكر الله تعالى عنهم في غير موضع ، بل ذكر الله عز وجل أن هذا القول قاله كل قوم لرسولهم قال تعالى : (كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون)[3] وقال تعالى آمراً بالإستعاذة من السحر : (ومن الشر النفاثات في العقد)[4] وهن السواحر اللاتي يعقدن في سحرهن وينفثن في عقدهن[5] .

وأخـــبر تعـــالى عن اليهود أنهم نبذوا كتاب الله تعالى المنزل بالوحي على موسى - عليه السلام - أو على نبينا محمـــد - صلى الله عليه وسلم - واتبعوا العلم الضار الذي هو السحر تعلماً من الشياطين وتعليماً وأخبر أن من فعل ذلك ليـــس له فـــي الآخرة من نصيب وليس له دين ينجيه من عذاب الله يوم القيامة ، قال جل وعلا : (ولما جاءهم رسول من عندالله مصدق لما معهم نبذ فريق من الذين أتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون واتبعوا ما تتلوا الشياطين عـــلى مـــلك ســـليمان ومـــا كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل هاروت ومـــاروت ومـــا يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم ولقد علموا لمن اشتراه ما له في الآخرة من خلاق ولبئس مـــا شـــروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون ولو أنهم آمنوا واتقوا لمثوبة من عندالله خير لو كانوا يعلمون)[6] وبهذه النصوص القـــرآنية وغيـــرها مما سأذكره قريباً - إن شاء الله - يثبت السحر ، حقيقته ووقوعه فعلاً وتأثيراً . قال الإمام أبو سليمان الخطـــابي : " وقد أنكر قوم من أصحاب الطبائع[7] السحر وأبطلوا حقيقته ، والجواب : أن السحر ثابت وحقيقته موجودة ، وقد اتفق أكثر الأمم من العرب والفرس والهند وبعض الروم على اثباته ... وقد ذكر الله عز وجل أمر السحر في كتابه في قصـــة ســـليمان ، وما كان الشياطين يعلمونه من ذلك ، ويعلمون الناس منه ... وورد في ذلك عن النبي - صلى الله عليه وســـلم - وعن الصحابة - رضي الله عنهم - أخبار كثيرة لا ينكرها لكثرتها إلا من انكر العيان وجحد الضرورة ... فنفى الحر جهل والاشتغال بالرد على من نفاه لغز وفضل ... "[8]

قال صاحب " سلم الوصول إلى علم الأصول ":

" والسحـــر حـــــق ولـــه تـــأثير لكـــــن بـمـــــا قـــــدره الـقـــــديـــر

---

(١) سورة الشعراء الآية (١٥٣) .

(٢) سورة الشعراء الآية (١٨٥) .

(٣) ســـورة الذاريـــات الآية (٥٢) . يحتمل أن يكون بعضهم قال : ساحر ، وبعضهم الآخر قال : مجنون ، ثم تبادلوا الاتهام فقال الأولون : مجنون ، وقال الآخرون : ساحر ، ويحتمل أيضاً أن يكون الجميع قالوا مرة : ساحر ، ومرة أخرى قالوا : مجنون .

(٤) سورة الفلق الآية (٤) .

(٥) انظر : ابن جرير الطبري : جامع البيان (٣٥٣/١٥) ، وابن كثير : تفسير القرآن العظيم (٥٥٥/٨) ، الشوكاني : فتح القدير (٥٢٠/٥ ، ٥٢١) .

(٦) سورة البقرة الآيات (١٠١ - ١٠٣) .

(٧) هـــم المنتســـبون إلى مـــا يســـمى بعلم الطبيعة وهو علم يبحث عن طبائع الأشياء ، وما اختصت به من القوة ، والطبائع الأربع عند الأقدمين : الحرارة ، البرودة ، والرطوبة ، واليبوسة - انظر : كشاف اصطلاح الفنون (٩١٢/٢) والمعجم الوسيط مادة (طبع) (ص٥٥٠) .

(٨) أعلام الحديث (١٥٠٠/٢-١٥٠٤) مع بعض التصرف والاختصار .

أعني بذا التقدير ما قد قدره   في الكون لا في الشرعة المطهرة "[١]

وتأييداً وتأكيداً لذلك ولما ذكرته من الآيات التي تثبت حقيقة السحر قد ثبت في الصحيحين من طرق عن عائشة – رضي الله عنها – قالت : سَحَرَ رسول الله – صلى الله عليه وسلم – رجل من بني زريق يقال له لبيد الأعصم ، حتى كان رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يخيل إليه أنه كان يفعل الشيء وما فعله ، حتى إذا كان ذات يوم – أو ذات ليلة – وهو عندي ، لكنه دعا ودعا ثم قال : يا عائشة ، أشعرت أن الله أفتاني فيما استفتيته فيه ؟ أتاني رجلان ، فقعد أحدهما عند رأسي ، والآخر عند رجلي ، فقال أحدهما لصاحبه : ما وجع الرجل ؟ فقال مطبوب ، قال : من طبه ؟ قال لبيد بن الأعصم . قال : في أي شيء ؟

قال : في مشط ومشاطه ، وجفِ طلِع نخلة ذكرٍ.   قال : وأين هو ؟

قال : في بئر ذروان ، فأتاها رسول الله – صلى الله عليه وسلم – في ناس من أصحابه ، فجاء فقال : يا عائشة ، كأن ماءها نقاعة الحناء ، وكأن رؤوس نخلها رؤوس الشياطين . قلت يا رسول الله أفلا استخرجته ؟

قال : قد عافاني الله ، فكرهت أن أثير على الناس فيه شراً ، فأمر بها فدفنت[٢] .

قال الإمام النووي : " قال المازري – رحمه الله تعالى – : مذهب أهل السنة وجمهور علماء الأمة على اثبات السحر ، وأن له حقيقة كحقيقة غيره من الأشياء الثابتة ، خلافاً لمن انكر ذلك ونفى حقيقته وأضاف ما يقع منه إلى خيالات باطلة لا حقائق لها ، وقد ذكره الله تعالى في كتابه . وذكر أنه مما يتعلم ، وذكر ما فيه إشارة إلى أنه مما يكفر به ، وأنه يفرق بين المرء وزوجه ، وهذا كله لا يمكن فيما لا حقيقة له ، وهذا الحديث أيضاً مصرح باثباته ، وأنه أشياء دفنت وأخرجت وهذا كله يبطل ما قالوه ، فإحالة كونه من الحقائق محال ، ولا يستنكر في العقول أن الله سبحانه وتعالى يخرق العادة عند النطق بكلام ملفق ، أو تركيب أجسام أو المزج بين قوى على ترتيب لا يعرفه إلا الساحر ، وإذا شاهد الإنسان بعض الأجسام منها قاتلة كالسموم ، ومنها مسقمة كالأدوية الحادة ، ومنها مضرة كالأدوية المضادة للمرض لم يستبعد عقله أن ينفرد الساحر بعلم قوي قتالة ، أو كلام مهلك ، أو مؤد إلى التفرقة ... وقد أنكر بعض المبتدعة هذا الحديث بسبب آخر ، فزعم أنه يحط من منصب النبوة ، ويشكك فيها ، وأن تجويزه يمنع الثقة بالشرع ، وهذا الذي ادعاه هؤلاء المبتدعة باطل ؛ لأن الدلائل القطعية قد قامت على صدقه وصحته ، وعصمته – صلى الله عليه وسلم – فيما يتعلق ببعض أمور الدنيا التي لم يبعث بسببها ، ولا كان مفضلاً من أجلها ، وهو مما يعرض للبشر ، فغير بعيد أن يخيل إليه من أمور الدنيا ما لا حقيقة له ، وقد قيل إنه إنما كان يخيل إليه أنه وطيء زوجاته وليس بواطيء ، وقد يتخيل الإنسان مثل هذا في المنام فلا يبعد تخيله في اليقظة ولا حقيقة له ، وقيل : إنه يخيل إليه أنه فعله وما فعله ، ولكن لا يعتقد صحة ما يتخيله ، فتكون اعتقاداته على السداد ، قال القاضي عياض – رحمه الله تعالى – وقد جاءت روايات هذا الحديث مبينة أن السحر إنما تسلط

---

(١) الشيخ حافظ بن احمد الحكمي : معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول في التوحيد (٥٠٦/١) من مطبوعات الرئاسة العامة لإدارة البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد – بدون رقم طبعة ولا تاريخ .

(٢) رواه البخاري في كتاب الطب (٧٦) باب (٤٧) ح رقم (٥٧٦٣) ومسلم (١٧١٩/٤) ح رقم (٢١٨٩) وابن ماجة – كتاب الطب باب (٤٥) وأحمد (٥٧،٦٣،٩٦/٦) .

عـلى جسـده وظواهر جوارحه لا على عقله وقلبه واعتقاده ، ويكون معنى قوله في الحديث حتى يظن أنه يأتي أهله ولا يـأتيهن ، ويـروي : يخيل إليه أي يظهر له من نشاطه ومتقدم عادته القدرة عليهن ، فإذا دنا منهن أخذته أخذة السحر فلم يـأتهن ولم يتمكن من ذلك كما يعتري المسحور ، وكل ما جاء في الروايات من أنه يخيل إليه فعل شيء لم يفعله ونحوه ، فمحمـول عـلى الـتخيل بالبصر لا كالخلل يتطرق إلى العقل ، وليس في ذلك ما يدخل لبساً على الرسالة ولا طعناً لأهل الضلالة "[١] . وأما ما نقله النووي عن المازري فيما سبق من قوله : " خلافاً لمن أنكر ذلك " قال ابن هبيرة " أجمعوا على أن السحر له حقيقة إلا أبا حنيفة فإنه قال : لا حقيقة له عندي ، ثم ذكر الإختلاف في حكم الساحر[٢] ، وقال القرطبي : " وعـندنا أن السـحر حق وله حقيقة يخلق الله عنده ما شاء "[٣] ثم أكد مرة أخرى وقال : " ذهب أهل السنة إلى أن السحر ثابت وله حقيقة ، وذهب عامة المعتزلة وأبو اسحاق الاسترابادي من أصحاب الشافعي إلى أن السحر لا حقيقة له وإنما هو تمويه وتخييل وإيهام "[٤] .

ثم أبطل القرطبي ما ذهب إليه المعتزلة ومن وافقهم من انكار حقيقة السحر وقال : " روى سفيان عن أبي الأعور عـن عكرمة عن ابن عباس قال : عُلم السحر في قرية من قرى مصر يقال لها " الفرما " فمن كذب به فهو كافر مكذب لله ورسوله ، منكر لم علم مشاهدة وعياناً "[٥] .

- ولقـد نقـلت فيمـا تقدم - عن السيوطي أنه أفتى بإثم الساحر وكفره ، ولدي عدد من الأدلة على صحة كلام السيوطي وفتواه في تحريم السحر وأنه كفر ، وأن متعاطيه كافر لا خلاق له في الآخرة .

قال صاحب " سلم الوصول " :

" واحكم على الساحـر بالتكفـير ... وحـــده القتـــل بـــلا نكـــير

كما أتى في السنة المصرحة ... مما رواه الترمذي وصـــــححه

عن جنـــدب وهكـذا في أثـر ... أمـر بقتـلهم روي عن عمـــر

وصح عن حفصة عند مالك ... ما فيه أقوى مرشد للسالك[٦] .

ومقصـوده الحكم على الساحر إذا تعلم السحر أو علمه ، وسواء عمل به أو لم يعمل - بالتكفير ، يعني أن يحكم عليه بأنه كفر بهذا الذنب الذي هو السحر[٧] ، وهو قول مالك ، وبقول مالك قال أحمد بن حنبل وهو مروي عن جماعة من الصحابة والتابعين ، أما مالك فيحكم بكفره وبقتله دون استتابة والشافعية على خلاف ذلك .

---

(١) شرح النووي لصحيح مسلم (١٤/١٧٤-١٧٥) .

(٢) الإفصاح عن معاني الصحاح (٢/٢٢٦) المؤسسة السعيدية بالرياض .

(٣) الجامع لأحكام القرآن (٢/٣٢) ، وانظر : الخطابي : أعلام الحديث (٢/١٥٠٠-١٥٠٤) .

(٤) نفسه السابق .

(٥) الجامع (٢/٣٣) .

(٦) الشيخ حافظ بن احمد الحكمي : معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الوصول في التوحيد (١/٥١٢) ، مطبوعات الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد ، وانظر : الخطابي : أعلام الحديث (٢/١٥٠٠-١٥٠٤) .

(٧) حـافظ حكمـي : معـارج القبول (١/٥١٢) ، وانظر : شرح النووي على صحيح مسلم (١٤/١٧٦) ، وابن جرير : جامع البيان (١/٤٥٤) ، والرازي (٣/٢٣٢) ، فتح القدير (١/١٢٠) . وابن كثير (١/٢٠٦-٢٠٧) .

وهذا الحكم بالكفر صريح وواضح في آية سورة البقرة من أوجه :

الأول : فـــي قوله تعالى: (ولما جاءهم رسول من عندالله مصدق لما معهم نبذ فريق من الذين أوتو الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون)[١] .

والنبذ هو الطرح والإلقاء للشيء ، وهذا فيه من الإحتقار والإزدراء والسخرية والإمتهان ما فيه ، قال القرطي : " النبذ : الطرح والالقاء ... قال أبو الاسود :

وخبرني من كنتُ أرسلت إنما	أخذت كتابي معرضا بشمالكـــا
نظرت إلى عنوانه فنبـــذتــــــــه	كنبذك نعلاً اخلقت من نعالكـــــا

وهـــذا مـــثل يضرب لمن استخف بالشيء فلا يعمل به "[٢] ، فإذا كان ذلك بكتاب الله تعالى فهو كفر ، سواء أريد بالكتاب التوراة التي كانت بأيديهم ، أو القرآن الذي جاء به محمد – صلى الله عليه وسلم – كل ذلك نبذه كفر[٣] .

الثاني : فـــي قوله تعالى : (وتبعوا ما تتلوا الشياطين)[٤] تتقوله وتزوره (على ملك سليمان)[٤] أي في ملكه وعهده ، ومعلوم أن استبدال ما تتلوه الشياطين وتتنوله ، والإنقياد له والعمل به عوضاً عما أوحاه الله تعالى إلى رسوله – صلى الله عليه وسلم – هذا من أعظم الكفر ، وهو مع ذلك من عبادة الطاغوت التي هي أصل الكفر[٥] .

ومعـــلوم كذلك أن الله جل وعلا سمي طاعة العلماء والأمراء في تحليل ما حرمه الله ، أو تحريم ما أحله ، سمي ذلك عبادة ، وأنه اتخاذ لهم أرباباً من دون الله فقال تعالى : (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله)[٦] الآية .

قال عدي بن حاتم حين سمع رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يتلوها : إنا لسنا نعبدهم ، قال : " أليس يحلون مـــا حـــرم الله فتحلونه ، ويحرمون ما أحل الله فتحرمونه " ؟ قال : بلى ، قال : " فتلك عبادتكم إياهم "[٧] ولهذا قال تعالى بعدها : (وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون)[٨] .

فـــإذا كان هذا في طاعة الأحبار والرهبان فكيف يكون الحكم إذا كانت طاعة للشيطان فيما ينافي وحي الله بل بعد أن ينبذ ويطرح وحي الله ويعظم وحي الشيطان بالتلاوة والإتباع .

" فعـــبادة الشيطان هي اتباعه فيما أمر به من الكفر والضلال ودعا إليه "[٩] كما قال عز وجل نيه : (إنما يدعو

---

(١) سورة البقرة الآية (١٠١) .

(٢) الجامع لأحكام القران (٢٩/٢) والأبيات في ديوان أبي الأسود الدؤلي (ص٢١) وتفسير الطبري (٤٠١/٢) .

(٣) حافظ حكمي : معارج القبول (٥١٢/١) .

(٤) سورة البقرة بعض الآية (١٠٢) .

(٥) انظر : الشيخ حافظ بن احمد الحكمي : معارج القبول (٥١٣/١) .

(٦) سورة التوبة بعض الآية (٣١) .

(٧) قـــال ابـــن كـــثير : " رواه الإمام أحمد ، والترمذي وابن جرير من طرق " تفسيره (٧٧/٤) ، وانظر : تحفة الأحوذي ، تفسير سورة التوبة – الحديـــث (٥٠٩٣) (٨/٤٩٢-٤٩٤) وقـــال الترمذي : " هذا حديث غريب " ، وقال صاحب التحفة : " وأخرجه أحمد ، وابن جرير وابن سعد ، وعبد بن حميد ، وابن المنذر ، وأبو الشيخ ، وابن مردوية ، والبيهقي في " سننه " وانظر تفسير الطبري (١٤/٢٠٩-٢١١) ، ونقل السيوطي في الدر المنثور (١٧٤/١٠) أن الترمذي حسنه " .

(٨) سورة التوبة ، بعض الآية (٣١) .

(٩) الشيخ حافظ بن احمد الحكمي : معارج القبول (٥١٣/١) ، ومجموع الفتاوي (١٣/٨٠ – ٨١) ، ومجموع الفتاوي (٣٣/١٩) التفسير القيم (ص

وهذا الحكم بالكفر صريح وواضح في آية سورة البقرة من أوجه :

الأول : في قوله تعالى: (ولما جاءهم رسول من عندالله مصدق لما معهم نبذ فريق من الذين أوتو الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون)[١] .

والنبذ هو الطرح والإلقاء للشيء ، وهذا فيه من الإحتقار والإزدراء والسخرية والإمتهان ما فيه ، قال القرطبي : " النبذ : الطرح والالقاء ... قال أبو الاسود :

وخبرني من كنتُ أرسلت إنما — أخذت كتابي معرضا بشمالكا

نظرت إلى عنوانه فنبذته — كنبذك نعلاً اخلقت من نعالكا

وهذا مثل يضرب لمن استخف بالشيء فلا يعمل به "[٢] ، فإذا كان ذلك بكتاب الله تعالى فهو كفر ، سواء أريد بالكتاب التوراة التي كانت بأيديهم ، أو القرآن الذي جاء به محمد – صلى الله عليه وسلم – كل ذلك نبذه كفر[٣] .

الثاني : في قوله تعالى : (وتبعوا ما تتلوا الشياطين)[٤] تتقوله وتزوره (على ملك سليمان)[٤] أي في ملكه وعهده ، ومعلوم أن استبدال ما تتلوه الشياطين وتتقوله ، والإنقياد له والعمل به عوضاً عما أوحاه الله تعالى إلى رسوله – صلى الله عليه وسلم – هذا من أعظم الكفر ، وهو مع ذلك من عبادة الطاغوت التي هي أصل الكفر[٥] .

ومعلوم كذلك أن الله جل وعلا سمي طاعة العلماء والأمراء في تحليل ما حرمه الله ، أو تحريم ما أحله ، سمي ذلك عبادة ، وأنه اتخاذ لهم أرباباً من دون الله فقال تعالى : (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله)[٦] الآية .

قال عدي بن حاتم حين سمع رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يتلوها : إنا لسنا نعبدهم ، قال : " أليس يحلون ما حرم الله فتحلونه ، ويحرمون ما أحل الله فتحرمونه " ؟ قال : بلى ، قال : " فتلك عبادتكم إياهم "[٧] ولهذا قال تعالى بعدها : (وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون)[٨] .

فإذا كان هذا في طاعة الأحبار والرهبان فكيف يكون الحكم إذا كانت طاعة للشيطان فيما ينافي وحي الله بل بعد أن ينبذ ويطرح وحي الله ويعظم وحي الشيطان بالتلاوة والإتباع .

" فعبادة الشيطان هي اتباعه فيما أمر به من الكفر والضلال ودعا إليه "[٩] كما قال عز وجل فيه : (إنما يدعو

---

(١) سورة البقرة الآية (١٠١) .

(٢) الجامع لأحكام القران (٢٩/٢) والأبيات في ديوان أبي الأسود الدؤلي (ص٢١) وتفسير الطبري (٤٠١/٢) .

(٣) حافظ حكمي : معارج القبول (٥١٢/١) .

(٤) سورة البقرة بعض الآية (١٠٢) .

(٥) انظر : الشيخ حافظ بن احمد الحكمي : معارج القبول (٥١٣/١) .

(٦) سورة التوبة بعض الآية (٣١) .

(٧) قال ابن كثير : " رواه الإمام أحمد ، والترمذي وابن جرير من طرق " تفسيره (٧٧/٤) ، وانظر : تحفة الأحوذي ، تفسير سورة التوبة – الحديث (٥٠٩٣) (٤٩٢/٨-٤٩٤) وقال الترمذي : " هذا حديث غريب " ، وقال صاحب التحفة : " وأخرجه أحمد ، وابن جرير وابن سعد ، وعبد بن حميد ، وابن المنذر ، وأبو الشيخ ، وابن مردوية ، والبيهقي في " سننه " وانظر تفسير الطبري (٢٠٩/١٤-٢١١) ، ونقل السيوطي في الدر المنثور (١٧٤/١٠) أن الترمذي حسنه .

(٨) سورة التوبة ، بعض الآية (٣١) .

(٩) الشيخ حافظ بن احمد الحكمي : معارج القبول (٥١٣/١) ، ومجموع الفتاوي (٨٠/١٣ – ٨١) ، ومجموع الفتاوي (٣٣/١٩) التفسير القيم (ص

حزبه ليكونوا من أصحاب السعير)[١] .

الثالث : في قوله تعالى : (وما كفر سليمان)[٢] فهي تبرئة الله سبحانه وتعالى نبيه سليمان من الوقوع في الكفر ، وهذا الكفر الذي برأه منه هو علم السحر - وإن كان بريئاً من الكفر كله معصوماً مما هو دونه - ولكن سياق الآية في خصوص السحر وأنه بريء منه ، ولو فرض وجود عمله به لكفر ، لأنه شرك ، والشرك أقبح الذنوب وأعظم المحبطات للأعمال كما قال تعالى في جميع رسله ، سليمان وغيره - عليهم السلام -[٣] : (ذلك هدى الله يهدي به من يشاء ، ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون)[٤] . وعلى ذلك يكون المعنى المفهوم من الآية : إن سليمان - عليه السلام - لو سحر أو عمل بالسحر لكفر ، ولكن الكفر منفي عنه ، فنتج أن سليمان ما سحر وما كفر ، ونتج أيضاً أن السحر كفر ، وأن الساحر كافر ، وإن سليمان - عليه السلام - مبرأ من ذلك كله .

الرابع : في قوله تعالى : (ولكن الشياطين كفروا يعلمون السحر)[٥] قال القرطبي : " فأثبت كفرهم بتعليم السحر "[٦] .

وقد أكذب الله تعالى اليهود فيما نسبوه إلى نبيه سليمان - عليه السلام - وإنما نسبوه إلى السحر ، ولازم ما نسبوه إليه هو الكفر لأن السحر كفر ، ولهذا أثبت كفر الشياطين لأنهم علموا الناس السحر ، وكذلك كل من تعلم السحر أو علمه ، أو عمل به يكفر ككفر الشياطين الذين علموه الناس[٧] ، ولهذا قال تعالى في الملكين (وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر)[٨] فالملكان يحذران من يتعلمه منهما ، ويبينان له أنه بمجرد تعلمه يكفر سواء عمل به وعلمه أو لا[٩]

عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال : ... فإذا أتاهما الآتي مريد السحر نهياه أشد النهي وقالا له : إنما نحن فتنة فلا تكفر ، وذلك أنهما عَلِمَا الخير والشر والكفر والإيمان فعرفا أن السحر من الكفر ، قال : فإذا أبى عليهما أمراه أن يأتي مكان كذا وكذا ، فإذا أتى عاين الشيطان فعلمه ، فإذا تعلمه خرج منه النور فنظر إليه ساطعاً في السماء ، فيقول : يا حسرتاه يا ويله ماذا أصنع[١٠] .

وعن الحسن البصري أنه قال : في تفسير هذه الآية " نعم أُنزل الملكان بالسحر ليعلما الناس البلاء الذي أراد الله تعالى أن يبتلى به الناس ، فأخذ عليهما الميثاق أن لا يعلما أحداً حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر "[١١] ، أي لا تتعلمه

---

٥٧١) ، النبوات (٢٥٧ - ٦٦) واستعاذة السحرة بالجن في الصفدية (١٧١/١ - ١٧٤) .

(١) سورة فاطر الآية (٦) .

(٢) سورة البقرة بعض الآية (١٠٢) . انظر : الشوكاني : فتح القدير (١١٩/١) .

(٣) انظر : الشيخ حافظ بن احمد الحكمي : معارج القبول (٥١٤/١) .

(٤) سورة الانعام الآية (٨٨) .

(٥) سورة البقرة الآية (١٠٢) .

(٦) الجامع (٣١/٢) ، والشوكاني : فتح القدير (١١٩/١) ، الرازي في تفسيره (١٢١/٣) .

(٧) انظر : الشيخ حافظ بن احمد حكمي (١ /٥١٦) ، وانظر النووي : شرح مسلم (١٧٦/١٤) ، الشوكاني : فتح القدير (١١٩/١) .

(٨) سورة البقرة الآية (١٠٢) .

(٩) انظر : الشيخ حافظ احمد حكمي (٥١٦/١) ، ذكر الرازي في تفسيره (٢٣١/٣) أن العلم بالسحر غير قبيح ولا محظور وهو رأي غير صواب لمخالفته الأدلة السابقة .

(١٠) معارج القبول (٥١٧/١) ، تفسير ابن كثير (٢٠٥/١) .

(١١) معارج القبول (٥١٧/١) ، نفس المصدرين السابقين .

فتكفر بذلك[١]

وقال قتادة : " كان أخذ عليهما أن لا يعلما أحداً حتى يقولا : (إنما نحن فتنة) أي بلاء ابتلينا به (فلا تكفر) "[٢]

وقـــال السدى : " إذا أتاهما إنسان يريد السحر وعظاه وقالا له : ائت هذا الرماد فبل عليه فإذا بال عليه خرج منه نــور فســطع حتى يدخل السماء ، وذلك الإيمان ، وأقبل شيء أسود كهيئة الدخان حتى يدخل في مسامعه وكل شيء وذلك غضــب الله ، فإذا أخبرهما بذلك علماء السحر ، فذلك قول الله تعالى : (وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر...) الآية "[٣] وعن ابن جريج في هذه الآية قال : " لا يجتريء على السحر إلا كافر ، والفتنة هي المحنة والإختبار "[١] .

<u>الخـــامس</u> : فـــي قوله تعالى : (ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم ، ولقد علموا لمن اشتراه ماله في الآخرة من خلاق)[٤] يعني من حظ ولا نصيب ، وهذا الوعيد لم يطلق إلا فيما هو كفر لا بقاء للإيمان معه ، فإنه ما من مؤمن إلا ويدخل الجنة ، وكفى بدخول الجنة خلاقاً ، ولا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة ، ولذا قال الحسن : (ماله في الآخرة من خلاق) قال : ليس له دين[٥] .

<u>الســـادس :</u> فـــي قوـــله تعالى : (ولو أنهم آمنوا)[٦] يعني برسول الله محمد – صلى الله عليه وسلم – (واتقوا) السحر وسائر الذنوب (لمثوبة من عندالله خير لو كانوا يعلمون)[٧] وهذا صريح جداً في كفر الساحر ، ونفى الإيمان عنه بالكلية ، فإنه لا يقال للمؤمن المتقي : ولو أنه آمن واتقى ، وإنما قال تعالى ذلك لمن كفر وفجر وعمل بالسحر واتبعه وخاصم به رسوله ، ورمى به نبيه ، ونبذ الكتاب وراء ظهره وهذا ظاهر[٨] .

ومن المعلوم لغة : أن " لو " حرف امتناع لامتناع أي امتناع جوابها لامتناع شرطها فإن هؤلاء السحرة قد امتنعت عـــنهم مثوبة الخير من الله تعالى لامتناع إيمانهم بالرسول – صلى الله علية وسلم – وعدم تقواهم ، وهذا صريح كذلك في انتفاء الإيمان عن هؤلاء السحرة ، ولازم انتفاء الإيمان هو الكفر .

وقد صرح بكفر الساحر طائفة من السلف .

قال ابن حجر : " وقد استدل بهذة الآية – يعني آية سورة البقرة – على أن السحر كفر ، ومتعلمه كافر "[٩] .

وقـــال النووي : " وعن مالك : الساحر كافر يقتل بالسحر ولا يستتاب ، يتحتم قتله كالزنديق قال عياض : وبقول مالك قال احمد وسبقهما في ذلك جماعة من الصحابة والتابعين "[١٠] .

---

(١) ابن قدامة : المغني (١١٥/١٠) .

(٢) تفسير الطبري (٤٦٢/١) ، وتفسير ابن كثير (٢٠٦/١) .

(٣) معارج القبول (٥١٧/١) ، تفسير الطبري (٤٦٢/١) ، وتفسير ابن كثير (٢٠٦/١) .

(٤) سورة البقرة بعض الآية (١٠٢) .

(٥) تيسير العزيز الحميد (٣٨٣) وابن جرير : جامع البيان (٤٦٥/١) ، تفسير ابن كثير (٢٠٧/١) .

(٦) سورة البقرة الآية (١٠٣) .

(٧) سورة البقرة الآية (١٠٣) .

(٨) معارج القبول (٥١٨/١) .

(٩) فتح الباري (٢٢٤/١٠) ، وابن تيمية : مجموع الفتاوى (٣٨٤/٢٩) .

(١٠) صـــحيح مســـلم مـــع شرح النووي (١٧٦/١٤) -ابن حجر (٢٢٤/١٠) ، تيسير العزيز الحميد (٣٨٤) معارج القبول (٥١٨/١) ، والنووي : المجموع شرح المهذب (٢٤١/١٩) .

وهــو كذلك قول أبي حنيفة والشافعي[١] قال الشافعي : " إذا تعلم السحر قلنا له صف لنا سحرك ، فإن وصف ما يوجب الكفر ، مثل ما اعتقد أهل بابل من التقرب إلى الكواكب السبعة وأنها تفعل ما يلتمس منها ، فهو كافر "[٢] .

وقــال ابن قدامة : " قال أصحابنا : ويكفر الساحر بتعلمه وفعله سواء اعتقد تحريمه أو إباحته "[٣] وقال علي : " الساحر كافر "[٤] .

وفي حديث مرفوع رواه رزين : " الساحر كافر "[٥] وقال أبو العالية : " السحر من الكفر "[٦] وقال ابن جريج : " لا يجتريء على السحر إلا الكافر "[٧] وقال القرطبي : " ذهب مالك إلى أن المسلم إذا سحر نفسه بكلام يكون كفراً يقتل ولا يســتتاب ولا تقبل توبته لأنه أمر يستسر به كالزنديق والزاني ، ولأن الله تعالى سمى السحر كفراً بقوله : (وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر) وهو قول احمد ابن حنبل ، وأبي ثور وإسحاق والشافعي وأبي حنيفة ، وروى قتل الســاحر عن عمر وعثمان وابن عمر وحفصة وأبي موسى وقيس بن سعد وعن سبعة من التابعين "[٨] وقال ابن حجر : " وفــي إيراد المصنف[٩] هذه الآية[١٠] إشارة إلى اختيار الحكم بكفر الساحر لقوله فيها : (وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفــروا يعلمون الناس السحر)[١١] فإن ظاهرها انهم كفروا بذلك ، ولا يكفر بتعلم الشيء إلا وذلك الشيء كفر ، وكذا قوله تعــالى في الآية على لسان الملكين : (إنما نحن فتنة فلا تكفر) فإن فيه إشارة إلى أن تعلم السحر كفر ، فيكون العمل به كفراً ... وقد زعم بعضهم أن السحر لا يصح إلا بذلك "[١٢] أي لا يصح إلا بالكفر . وقد نبهت على كفر الساحر فيما سبق من ستة أوجه تدل عليها الآية .

ثــم قــال ابن حجر : " وقصة هاروت وماروت جاءت بسند حسن من حديث ابن عمر في مسند احمد ، وأطنب الطــبري في إيراد طرقها[١٣] بحيث يقضي بمجموعها على أن للقصة أصلاً ، خلافاً لمن زعم بطلانها " وكل ما أوردته من الدلائل على أن السحر كفر ، وأن الساحر كافر إنما سقته تأييداً لفتوى الجلال السيوطي في أن من يقتل بسحر فقد كفر ، والكفر هنا بسبب السحر لا بسبب القتل[١٤]

---

(١) ابن هبيرة الاشراف نقله عن ابن كثير (٢١٢/١) ، تيسير العزيز (٣٨٤) .

(٢) ابــن قدامــة – المغنى (١١٥/١) ، تيسير العزيز (٣٨٤) ، أبو بكر الجصاص : أحكام القرآن – بيروت ط٢ / دار الكتاب العربي ، والنووي : المجموع (٢٤٥/١٩) ، روضة الطالبين (٣٤٦/٩) المكتب الاسلامي بيروت ط٢ / ١٤٠٥هـ – ١٩٨٥م .

(٣) المغنى (١١٥/٧) .

(٤) المغــنى (١١٦/٧) ، وانظر : منصور البهوتي : كشف القناع عن متن الاقناع (١٨٦/٦) تعليق الشيخ هلال مصيلحي – الرياض مكتبة النصر الحديثة .

(٥) تيسير العزيز العززيز الحميد (٣٨٤) .

(٦) تيسير العزيز الحميد (٣٨٤) .

(٧) ابن جرير : جامع البيان (٤٦٤/١) ، تيسير العزيز الحميد (٣٨٤) .

(٨) الجامع لأحكام القرآن (٣٣/٢) .

(٩) يقصد الإمام البخاري في صحيحه .

(١٠) فتح الباري (٢٢٠/١٠) ، والآية (١٠٢) من سورة البقرة .

(١١) سورة البقرة بعض الآية (١٠٢) .

(١٢) فتح الباري (٢٢٥/١٠) .

(١٣) انظر جامع البيان (٤٥٤/١ – ٤٥٩) .

(١٤) يجب أن ننوه هنا إلى أنه يرى بعض العلماء أن الساحر لا يكفر بسحره منهم الامام ابن حزم – انظر المحلي بالآثار (٣٩٨/١١) .

٤- الرياء : " الرياء " هو " ترك الإخلاص في العمل بملاحظة غير الله فيه"[١] قال ابن حجر : " وهو مشتق من الرؤية ، والمراد به اظهار العبادة لقصد رؤية الناس لها فيحمدوا صاحبها "[٢] .

والمرائي يقصد رؤية الناس لعبادته لطلب المنزلة في قلوبهم بأن يريهم الخصال المحمودة من نفسه فيحظى لديهم بالمنزلة .

وقد حذر السيوطي من الرياء وبين أنه مذموم ، وأن فاعله آثم ، فعندما وردت إليه أسئلة سائل يستفتيه في بعض المسائل كان جواب السيوطي عليه ببيان الحق فقال : " ... ومنها من أمر ونهى وقصد به رياء وسمعة ، والجواب : أنه مذموم آثم ، فشرط ذلك الإخلاص لوجه الله تعالى "[٣] قال تعالى : (قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي أنما إلهكم إله واحد ، فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ، ولا يشرك بعبادة ربه أحداً)[٤] .

فأصل دين الإسلام الذي بعث الله به رسوله محمداً – صلى الله عليه وسلم – هو إفراده تعالى بأنواع العبادة ، والإخلاص له فيها .

فالرياء سبب من أسباب عدم قبول العمل فإن الله تعالى لا يقبل إلا ما كان صواباً خالصاً ولذا قال النبي – صلى الله عليه وسلم – : " إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً وابتغى به وجهه "[٥] وقال تعالى في الحديث القدسي : " أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، من عمل عملاً أشرك معي فيه غيري تركته وشريكه "[٦] .

فمن قصد بعمله غير الله تركه الله وشركه قال الطيبي : " الضمير المنصوب في قوله (تركته) يجوز أن يرجع إلى العمل "[٧] .

فإذا كان الرياء محضاً كحال المنافقين فهو نفاق كما قال تعالى : (... وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلاً)[٨] .

وإذا كان العمل لله تعالى ويشاركه الرياء ، فإن شاركه في أصله فالنصوص الصحيحة تدل على بطلانه ومن الأدلة على هذا حديث شداد بن أوس مرفوعاً : " من صلى يرائي فقد أشرك ، ومن صام يرائي فقد أشرك ، ومن تصدق يرائي فقد أشرك ، وإن الله عز وجل يقول : أنا خير قسيم لمن أشرك بي ، فمن أشرك بي شيئاً فإنَّ حَشْدَة عمله وقليله وكثيره لشريكه الذي أشرك به أنا عنه غني "[٩] .

وإن خالط العمل نية أخرى غير الرياء ، مثل أخذ أجرة خدمة في الجهاد مثلاً أو أخذ شيء من الغنيمة أو التجارة

---

(١) الجرجاني : كتاب التعريفات (١١٣) .
(٢) ابن حجر العسقلاني : فتح الباري (١١/٣٣٦) .
(٣) الحاوي (١/٢٩٣) .
(٤) سورة الكهف الآية (١١٠) .
(٥) رواه النسائي (٦/٢٥) ، والطبراني (٧٦٢٨) وحسنه الحافظ العراقي في تخريج أحاديث إحياء علوم الدين (٤/٣٨٤) ، والسيوطي في الدر المنثور (٥/٤٧٢) .
(٦) رواه مسلم (٢٩٨٥) وابن ماجه (٤٢٠٢) واحمد (٢/٣٠١ ، ٤٣٥) ، وصححه ابن حيان (٣٩٥) .
(٧) شرح النووي على صحيح مسلم (١٨/١١٥-١١٦) ، وانظر فتح المجيد (٣٢٤) .
(٨) سورة النساء بعض الآية (١٤٢) .
(٩) رواه احمد (٤/١٢٦) ، والطيالسي (١١٢٠) والطبراني في الكبير (٧١٣٩) والحاكم (٤/٣٢٩) ، وفيه شهر بن حوشب ، وهو ضعيف ، وبعضهم حسن حديثه ، وانظر " مجمع الزوائد " (١٠/٢٢١) .

نقص بذلك أجر جهاده ولم يبطل بالكلية[١] ، قال الإمام احمد : " التاجر والمستأجر والمكري ، أجرهم على قدر ما يخلص من نياتهم في غزواتهم ، ولا يكونون مثل من جاهد بنفسه وماله ولا يخلط به غيره[٢] .

وقال أيضاً فيمن يأخذ جعلاً على الجهاد : إذا لم يخرج لأجل الدراهم فلا بأس أن يأخذ كأنه خرج لدينه فإن أعطى شيئاً أخذه[٣] .

وروى عن عبدالله ابن عمر قال : إذا أجمع أحدكم على الغزو ، فعوضه الله رزقاً ، فلا بأس بذلك ، وأما إن أحدكم إن أعطي درهماً غزا ، وإن منع درهماً مكث فلا خير في ذلك ... وهكذا يقال فيمن أخذ شيئاً في الحج ليحج به : إما عن نفسه ، أو عن غيره ، وقد روي عن مجاهد أنه قال في حج الجمال ، وحج الأجير ، وحج التاجر : هو تمام لا ينقص من أجورهم شيء ، وهو محمول على أن قصدهم الأصلي كان هو الحج دون التكسب .

وأما إن كان أصل العمل لله ، ثم طرأت عليه نية الرياء ، فإن كان خاطراً ودفعه فلا يضره بغير خلاف ، وإن استرسل معه هذا الخاطر فهل يُحبط به عمله أم لا يضره ذلك ويجازى على أصل نيته ؟ في ذلك اختلاف بين العلماء من السلف قد حكاه الإمام احمد وابن جرير الطبري ورجحا أن عمله لا يبطل بذلك ، وأنه يجازى بنيته الأولى وهو مروي عن الحسن البصري وغيره[٤] .

قال ابن رجب : " فأما إذا عمل العمل لله خالصاً ، ثم ألقى الله له الثناء الحسن في قلوب المؤمنين بذلك ، ففرح بفضل الله ورحمته ، واستبشر بذلك ، لم يضره ذلك ، وفي هذا المعنى جاء حديث أبي ذر عن النبي – صلى الله عليه وسلم – أنه سئل عن الرجل يعمل العمل لله من الخير ويحمده الناس عليه فقال : " تلك عاجل بشرى المؤمن "[٥] وبهذا المعنى فسره الإمام احمد واسحاق بن راهويه وابن جرير الطبري وغيرهم "[٦] .

والمقصود مما سبق أن الرياء محرم ، ينقص الأجر والثواب على العمل أو يحبطه من أساسه فلا يستحق فاعله الثواب بل يكون جزاؤه العقاب .

" وبالجملة فما أحسن قول سهل بن عبدالله التستري : ليس على النفس شيء أشق من الإخلاص ، لأنه ليس لها فيه نصيب "[٧] .

وقد ورد في حديث تسمية الرياء " بالشرك الخفي أو الأصغر " ومن هنا كانت علاقة الرياء بموضوع الألوهية ، فالشرك ينافي التوحيد والرياء ينافي كمال التوحيد ، فعن أبي سعيد مرفوعاً : " ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندي من المسيح الدجال ؟ قالوا : بلى ، قال : الشرك الخفي ، يقوم الرجل فيصلي فيزين صلاته لما يرى من نظر الرجل إليه "[٨]

---

(١) انظر ابن رجب : جامع العلوم والحكم (٨٢/١) .
(٢) نفسه .
(٣) نفسه .
(٤) انظر : نفسه (٨٢/١ – ٨٣) .
(٥) رواه مسلم (٢٦٤٢) ، وابن ماجه (٤٢٢٥) ، وأحمد (١٥٦/٥ ، ١٥٧ ، ١٦٨) وصححه ابن حيان (٣٦٦ ، ٣٦٧) .
(٦) جامع العلوم والحكم (٨٣/١ ، ٨٤) .
(٧) نفسه ٨٤ .
(٨) رواه احمد (٣٠/٣) .

ففي هذا الحديث سمي الرياء " بالشرك الخفي " وأما " الشرك الأصغر " فأطلق على الرياء في حديث شداد بن أوس قال : كنا نعد الرياء على عهد رسول الله – صلى الله عليه وسلم – الشرك الأصغر "[١] .

٥- العـدوى : وكـان مما تناوله السيوطي ويتعلق بتوحيد الألوهية " العدوى " فقال في فتاويه : " ... ومنها من يعتقد أن الأمراض تعدى وهو اعتقاد فاسد ، قال – صلى الله عليه وسلم – : " لا عدوى "[٢] .

والعدوى : اسم من الإعداء ، يقال : أعداه الداء يعديه إعداءً : جاوز غيره إليه[٣] .

والعدوى : أن يكون ببعير جرب مثلاً فتتقى مخالطته بإبل أخرى حذار أن يتعدى ما به من الجرب إليها فيصيبها ما أصابه[٣] ، وقد أبطله الإسلام لأنهم كانوا يظنون أن المرض بنفسه يتعدى ، فأعلمهم النبي – صلى الله عليه وسلم – أن الأمر ليس كذلك ، وإنما الله تعالى هو الذي يمرض ، وينزل الداء .

ونص الحديث في الصحيحين عن أبي هريرة – رضي الله عنه – أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال : " لا عدوى ، ولا طيرة ولا هامة ، ولا صفر "[٤]

وقوله : " ولا هامة " بتخفيف الميم على الصحيح ، وهي طائر من طير الليل كأنه يعني : البومة ، وكان أهل الجاهلية يتشاءمون بها إذا وقعت على بيت أحدهم يقول : نعت إليّ نفسي أو أحداً من أهل داري[٥] وقيل : كانوا يزعمون أن عظام الميت تصير هامه فتطير ، ويسمون ذلك الطائر : الصدى[٦] . فنفى الإسلام هذا الإعتقاد الفاسد[٧] .

وأما قوله : " لا صفر " قيل : هي حية تكون في البطن تصيب الماشية والناس ، وهي أعدى من الجرب عند العرب ، وعلى هذا يكون المراد بنفيه ما كانوا يعتقدونه من العدوى ، ويكون عطفه على العدوى من باب عطف الخاص على العام ، وهذا قول سفيان بن عيينه وأحمد والبخاري وابن جرير[٨] .

وقيل المراد بها : شهر صفر ، والنفي وارد على ما كان يفعله المشركون في النسيء فكانوا يحلون المحرم ويحرمون صفر مكانه ، وهذا قول الإمام مالك[٩] ، وقيل إن أهل الجاهلية كانوا يتشاءمون من شهر صفر ، روى أبو داود[١٠] عن محمد بن راشد عمن سمعه يقول : إن أهل الجاهلية كانوا يستشئمون بصفر ويقولون : إنه شهر مشؤوم فأبطل النبي – صلى الله عليه وسلم – ذلك . واختار ابن رجب هذا القول ثم قال : " وكثير من الجهال يتشاءم بصفر ، وربما ينتهي عن السفر فيه والتشاؤم بصفر هو من جنس الطيرة المنهي عنها ، والطيرة هي التشاؤم وكذلك التشاؤم بيوم من الأيام

---

(١) رواه ابن ابي الدنيا في كتاب الاخلاص ، وابن جرير في التهذيب ، والطبراني والحاكم وصححه .

(٢) الحاوي للفتاوي (٢٩٢/١) .

(٣) انظر : ابن منظور : لسان العرب (٣٩/١٥) .

(٤) البخاري انظر الفتح (٢١٤/١٠) ومسلم (١٧٤٢/٤-١٧٤٥) .

(٥) تيسير االعزيز الحميد (٤٣٢) .

(٦) به جزم ابن رجب في لطائف المعارف (١٤٧) .

(٧) تيسير العزيز الحميد (٤٣٢) .

(٨) انظر : تيسير العزيز الحميد (٤٣٣) ، لطائف المعارف (ص١٤٧) .

(٩) لطائف المعارف (ص١٤٧) ، تيسير العزيز الحميد (٤٣٣) ، وابن كثير في تفسير النسيء.

(١٠) سنن أبي داود (٣٩١٥) في الطب .

، كيوم الأربعاء مثلاً – عند البعض – وتشاؤم أهل الجاهلية بشوال وخاصة في النكاح ، وكذلك الاعتقاد بأن بعض الساعات في بعض الأيام ساعات نحسة كالساعة التي قبل صلاة الجمعة ونحو ذلك ، كل ذلك من الباطل المنهي عنه .

و الكلام عن العدوى وقع فيه اشكالاً بين اعتقادات الناس في العدوى وبين النهي الشرعي عن اعتقادها أو نفيها في الحديث ، كذلك إشكال بين حديثين متعارضين في الظاهر كلاهما رواهما أبو هريرة – رضي الله عنه – فالحديث الأول هو الذي أثبته قبل قليل وهو قوله – صلى الله عليه وسلم – : " لا عدوى ، ولا طيرة ، ولا هامة ، ولا صفر " وهو حديث متفق على صحته – كما قدمت – في صحيح البخاري : إن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال : " لا عدوى " فقام أعرابي فقال : أرأيت الإبل تكون في الرمال أمثال الظباء فيأتيها البعير الأجرب فتجرب ، قال النبي – صلى الله عليه وسلم – : " فمن أعدى الأول " ورواه مسلم من طريق آخر بنحوه ، وروى البخاري عن أنس بن مالك – رضي الله عنه – أن النبي – صلى الله عليه وسلم – قال : " لا عدوى ولا طيرة ، ويعجبني الفأل الصالح " " الكلمة الحسنة "[١] ورواه مسلم[٢] – أيضاً – . والأحاديث في نفي العدوى كثيرة في الصحيحين والسنن وغيرهما .

وقد ورد في صحيح مسلم أن أبا هريرة كان يحدث بحديث " لا عدوى " ويحدث عن النبي – صلى الله عليه وسلم – أيضاً أنه قال : " لا يورد ممرض على مصح " وأمسك عن حديث : " لا عدوى " فراجعوه فيه فقالوا : سمعناك تحدثه ، فأبى أن يعترف به ، قال أبو سلمة الراوي عن أبي هريرة : فلا أدري أنسي أبو هريرة أو نسخ أحد القولين الآخر[٣] .

وقد روى حديث " لا عدوى " جماعة من الصحابة منهم أنس بن مالك ، وجابر بن عبدالله ، والسائب ابن يزيد ، وابن عمر وغيرهم فنسيان أبي هريرة له لا يضر[٤] .

وفي بعض روايات هذا الحديث : " ... وفر من المجذوم كما تفر من الأسد "[٥] .

وقد اختلف العلماء في ذلك اختلافاً كثيراً :

(١) فذهبت طائفة إلى رد حديث : " لا عدوى " مستدلين بأن أبا هريرة رجع عنه ، قالوا : والأحاديث الدالة على الإجتناب أكثر ، فالمصير إليها أولى ، وهذا يعارض بأن حديث " لا عدوى " قد رواه جماعة كما تقدم غير أبي هريرة .

(٢) وذهبت طائفة أخرى إلى عكس الأولى تماماً ، ورجحوا حديث " لا عدوى " ، زيفوا ما سواه من الأخبار ، وأعلوا بعضها بالشذوذ كحديث " فر من المجذوم فرارك من الأسد " ، وبأن عائشة أنكرته ، كما روى ابن جرير عنها : أن امرأة سألتها عنه فقالت : ما قال ذلك ، ولكنهُ قال : " لاعدوى " وقال : " فمن أعدى الأول " ؟ قالت : وكان لي مولى به هذا الداء ، فكان يأكل في صحافي ، ويشرب في أقداحي ، وينام على فراشي .

وهذا الإنكار أيضاً من عائشة – رضي الله عنها – لا يضر إذ الأحاديث في الإجتناب أيضاً ثابتة ، كحديث " لاعدوى " . فلم يبق إلا الجمع .

---

(١) صحيح البخاري – كتاب الطب (٦٧) باب (٤٤) ح رقم (٥٧٥٦) ، انظر : الفتح (١٠/٢١٤)

(٢) صحيح مسلم (٤/١٧٤٢-١٧٤٣) .

(٣) نفسه السابق .

(٤) انظر : تيسير العزيز الحميد (٤٢٤) ، وفتح الباري (١٠/١٦٠) .

(٥) رواه البخاري (١٠/١٥٨) تعليقاً .

(٣) لذلك ذهبت طائفة ثالثة إلى أن لكل من الإثبات والنفي حالتين مختلفتين :

فحيث جاء : " لا عدوى " كان المخاطب بذلك من قوي يقينه ، وصح توكله بحيث يستطيع أن يدفع عن نفسه اعتقاد العدوى كما يستطيع أن يدفع التطير الذي يقع في نفس كل واحد ، لكن القوي اليقين لا يتأثر به وهذا كما أن قوة الطبيعة تدفع العلة وتبطلها . وحيث جاء الإثبات كان المراد به ضعيف الإيمان والتوكل .

قال مالك لما سئل عن حديث " فر من المجذوم " ، قال : " ما سمعت فيه بكراهية ، وما أرى ما جاء من ذلك إلا مخافة أن يقع في نفس المؤمن شيء "(١) ومعنى هذا أنه نفى العدوى مطلقاً ، وحمل الأمر بالمجانبه على حسم المادة وسد الذريعة لئلا يحدث للمخاطب شيء من ذلك فيظن أنه بسبب المخالطة فيثبت العدوى التي نفاها الشارع .

وإلى هذا ذهب أبو عبيد وابن جرير والطحاوي وذكره القاضي أبو يعلى عن احمد(٢)

(٤) وذهب البيهقي إلى أحسن من هذا كله ، وتبعه ابن الصلاح ، وابن القيم ، وابن رجب ، وابن مفلح وغيرهم :

وهو أن قوله - صلى الله عليه وسلم - : " لا عدوى " على الوجه الذي كانوا يعتقدونه في الجاهلية من إضافة الفعل إلى غير الله تعالى وأن هذه الأمراض تعدى بطبعها ، وإلا فقد يجعل الله بمشيئته مخالطة الصحيح من به شيء من هذه العيوب سبباً لحدوث ذلك ، ولذلك قال : " فر من المجذوم كما تفر من الأسد " وقال : " لا يورد ممرض على مصح " (٣) وقال في الطاعون : " إذا سمعتم به بأرض فلا تدخلوها "(٤) وكل ذلك بتقدير الله تعالى كما قال : " فمن أعدى الأول "(٥) يشير إلى أن الأول إنما جرب بقضاء الله وقدره فكذلك الثاني وما بعده .

وقد ورد عن ابن مسعود مرفوعاً : " لا يعدى شيء " قالها ثلاثاً فقال الأعرابي : يا رسول الله ، النقبة من الجرب تكون بمشفر البعير أو بذنبه في الإبل العظيمة فتجرب كلها ، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : " فمن أجرب الأول ؟ لا عدوى ، ولا هامة ، ولا صفر ، خلق الله كل نفس وكتب حياتها ومصابها ورزقها "(٦) فأخبر - صلى الله عليه وسلم - أن ذلك كله بقضاء الله وقدره كما دل عليه قوله تعالى : (ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها)(٧) .

وأما أمره بالفرار من المجذوم ، ونهيه عن إيراد الممرض على المصح ، وعن الدخول إلى موضع الطاعون ، فإنه من باب اجتناب الأسباب التي خلقها الله تعالى ، وجعلها أسباباً للهلاك والأذى ، والعبد مأمور باتقاء أسباب الشر إذا كان في عافية ، فكما أنه يؤمر أن لا يلقى بنفسه في الماء أو في النار أو تحت الهدم أو نحو ذلك كما جرت العادة بأنه يهلك أو يؤذى ، فكذلك اجتناب مقاربة المريض كالمجذوم ، وقدوم بلد الطاعون ، فإن هذه الأسباب كلها أسباب للمرض والتلف ،

---

(١) تيسير العزيز الحميد (٤٢٥) ، وانظر الفتح (١٦٢/١٠) .
(٢) تيسير العزيز الحميد (٤٢٥) ، وانظر : الفتح (١٦٢/١٠) .
(٣) صحيح البخاري (٢٤١/١٠) فتح ، ومسلم برقم (٢٢٢١) .
(٤) صحيح مسلم (رقم ٢٢١٨) ، (٢٢١٩) ، والبخاري (١٧٨/١٠-فتح) .
(٥) صحيح البخاري (١٧١/١٠-فتح) ومسلم (١٧٤٢/٤-١٧٤٣) .
(٦) رواه احمد (٤٤٠/١) ، والترمذي رقم (٢١٤٣) ، والطحاوي في شرح المعاني (٣٠٨/٤) واسناده صحيح ، انظر : المنهج السديد في تخريج أحاديث تيسير العزيز الحميد : تصنيف أبي سليمان جاسم الفهيد الدوسري (ص ١٥٤) .
(٧) سورة الحديد الآية (٢٣) .

والله تعالى هو الخالق للأسباب ومسبباتها لا خالق غيره ولا مقدر غيره[١] .

وأمـــا إذا قـــوي التوكل على الله والإيمان بقضائه وقدره ، فقويت النفس على مباشرة بعض هذه الأسباب اعتماداً على الله ورجاء منه أن لا يحصل به ضرر ، ففي هذه الحالة تجوز مباشرة ذلك لا سيما إذا كانت فيه مصلحة عامة أو خاصة .

٦- زجر الطير والكهانة :

وقــد تعــرض السيوطي لمسألة زجر الطير والكهانة وقرر أنها من المحرمات التي لا يجوز فعلها ، فعند تفسيره قولــه تعــالى : (وأن تستقســموا بالأزلام ...)[٢] قال : " تستفعلوا وهو طلب ما قسم له ، وذلك أنهم كانوا يكتبون على الأزلام وهـــي الســـهام ، على أحدها : أفعل ، وعلى الآخر : لا تفعل ، والثالث : مهمل ، فإذا أراد الإنسان أن يفعل أمراً جعلها في خريطة وأدخل يده وأخرج أحدها ، فإن خرج الذي فيه أفعل فعل وإن خرج المهمل أعاد الضرب[٣] .

وقد شدد ابن العربي في النظر في شيء منها حتى جعلها من الكفر والعياذ بالله[٤] ، مستدلاً بالآية (ذلكم فسق)[٥] وإنمــا حرمه الله وجعله فسقاً لأنه دخول في علم الغيب الذي انفرد الله به ، فهو كالكهانة وغيرها لما يرام به من الاطلاع على الغيوب "[٦] . ومن رام الاطلاع على الغيوب فقد رام مستحيلاً واقترف شركاً وبيلاً .

يقول السيوطي في قوله تعالى : (قل لايعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله ...)[٧] يقول : " سبب نزول هــذه الآيــة ، أن قريشــاً سألوه - صلى الله عليه وسلم - متى الساعة ؟ فأخبره الله بعدم علمها[٨] ، ولذلك قالت عائشة - رضـــي الله عنها - : " من زعم أن محمداً يعلم الغيب فقد أعظم الفرية على الله "[٩] إن الرسول - صلى الله عليه وسلم - حقــاً لا يعلم الغيب فعلم ذلك الغيب المطلق من صفات الله عز وجل ، (عالم الغيب)[١٠] إنه تعالى يعلم الغيب ، ولا يطلع على غيبه أحداً من خلقه[١١] ، إلا من شاء الله تعالى أن يطلعه على شيء من الغيب من أنبيائه ورسله آية لهم على صدقهم وتثبيتاً لهم وإقامة للحجة على المخالفين ، كما قال تعالى : (إلا من ارتضى من رسول)[١٢] .

والســـعي وراء معرفة الغيب هو الكهانة التي كانت كثيرة جداً في الجاهلية حتى إنهم لم يكونوا يفعلون شيئاً ذا بال إلا بعد سؤال الكهان ، إذن فالكهانة : هي ادعاء علم الغيب كالإخبار بما سيقع في الأرض مع الإستناد إلى سبب . والأصل

---

(١) تيسير العزيز الحميد (٤٢٦) ، فتح المجيد (٢٧٦) .

(٢) سورة المائدة الآية (٣) .

(٣) السيوطي : معترك الأقران (٩٩/٢) ، وانظر : ابو بكر محمد بن عبدالله ابن العربي : أحكام القرآن (٥٤٥/٢) ت . علي محمد البجاوي - دار المعـــرفة بـــدون تاريخ ولا طبعة ، وانظر : ابو المظفر السمعاني (١٠/٢) ت . ابي تميم ياسر بن ابراهيم ، ابي بلال غنيم دار الوطن ط (١/ ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م) .

(٤) هذا من كلام السيوطي ولم أجد هذا التشديد عند ابن العربي في احكام القرآن .

(٥) سورة المائدة الآية (٣) .

(٦) السيوطي : معترك الأقران (٩٩/٢) .

(٧) سورة النمل الآية (٦٥) .

(٨) معترك الأقران (٣٨٧/٢) ، ولم اجد سبب النزول هذا في كتب التفسير التي بين يدي ولا حتى في لباب النقول الذي وضعه السيوطي - ولا الواحدي .

(٩) رواه مسلم في صحيحه (١٥٩/١) رقم (١٧٧) .

(١٠) سورة الرعد بعض الآية (٩) ، سورة المؤمنون بعض الآية (٩٢) ، سورة السجدة بعض الآية (٦) .

(١١) انظر ابن كثير (٢٧٣/٨) .

(١٢) سورة الجن ، بعض الآية (٢٧) .

فيه استراق الجن السمع من كلام الملائكة فتلقيه في أذن الكاهن ، والكاهن : لفظ يطلق على العراف والذي يضرب الحصى والمنجم ، وقال في المحكم : الكاهن القاضي بالغيب ، وقال الخطابي : الكهان – فيما علم بشهادة الإمتحان – : قوم لهم أذهان حادة ونفوس شريرة ، وطبائع نارية ، فهم يفزعون إلى الجن في أمورهم ، ويستفتونهم في الحوادث فيلقون إليهم الكلمات[١] .

لقد أكد السيوطي على عدم امكان علم الغيب لغير الأنبياء كما قدمت[٢] ، أما هؤلاء الكهان والمنجمون فهم طواغيت ضلالة ، لكن السيوطي ينبه على أن هؤلاء الكهان حتى ولو أخبروا بشيء من المغيبات فإن إخبارهم يكون عن ظن ضعيف أو عن وهم لا عن علم يقيني قال السيوطي : " فإن قلت : قد ظهر من أخبار الكهان والمنجمين ما وقع وظهر صدقهم : والجواب : أن إخبارهم بذلك عن ظن ضعيف أو عن وهم لا عن علم ولا يجب تصديقهم لأن الآية نفت علمهم ، وإنما يجب علينا تصديق الرسل ، لأنه علم إلهي ... ورضي الله عن بعض العلماء لما دخل على بعض الملوك ، ووجده متحيراً ، فقال له : مالك فقال له : رأيت البارحة ملك الموت في المنام وسألته : كم بقي من عمري فأشار لي بأصابعه الخمسة ولا أدري هل هي خمس ساعات أو أيام أو جمعات أو أشهر أو سنين ؟؟ فقال له : إنما أشار لك بالخمس إلى الحديث في : خمس لا يعلمهن إلا الله ثم قرأ : (إن الله عنده علم الساعة ...) الآية[٣] ، فهدأ روعه ، وإن كان ملك الموت الموكل بقبض الأرواح لا يدري عمر العبد حتى يؤمر بقبض روحه ، فما بالك بمن افترى على الله ، ورحم الله القائل :

لعمرك ما تدري الضوارب بالحصى ... ولا زاجرات الطير ما الله صانع[٤]

وكلام السيوطي حق يؤيده قوله – صلى الله عليه وسلم – " من أتى عرافاً فسأله عن شيء لم تقبل له صلاة أربعين يوماً "[٥] .

وقوله – صلى الله عليه وسلم – : " من أتى عرافاً أو كاهناً فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد – صلى الله عليه وسلم – "[٦] .

وعن عمران بن حصين مرفوعاً : " ليس منا من تطير أو تطير له ، أو تكهن أو تكهن له ، أو سحر له ومن أتى كاهناً فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد – صلى الله عليه وسلم – "[٧] .

قال شارح الطحاوية : " ولا تصدق كاهناً ، ولا عرافاً ولا من يدعى شيئاً يخالف الكتاب والسنة واجماع الأمة "[٨]

أما صاحب " سلم الوصول " فقد قال :" ومن يصدق كاهناً فقد كفر ... بما أتى به الرسول المعتبر "[٩] .

---

(١) تيسير العزيز الحميد (٤٠٦) .

(٢) انظر : معترك الأقران (٣٨٧/٢) .

(٣) سورة لقمان الآية (٣٤) .

(٤) معترك الاقران (٣٨٧/٢ – ٣٨٨) .

(٥) اخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب السلام ، باب تحريم الكهانة واتيان الكهان (١٧٥١/٤) ح رقم (٢٢٣٠) .

(٦) اخرجه احمد (٤٠٨/٢ ، ٤٢٩ ، ٤٧٦) ، وأبو داود في سننه كتاب الطب في باب الكاهن (١٥/٤) ح رقم (٣٩٠٤) ، والترمذي في سننه كتاب الطهارة باب في كراهية اتيان الحائض (٢٤٢/١) ح رقم (١٣٥) ، واسناد هذا الحديث صحيح على شرط البخاري ، قال العراقي في اماليه حديث صحيح وتابعه الألباني – شرح الطحاوية ص (٥٦٦) ، وقال الذهبي : اسناده قوي وتابعه الأرناؤوط ايضاً في شرح الطحاوية بتحقيقه ص (٤٤١) .

(٧) تيسير العزيز الحميد (٤١٠) وما بعدها رواه الترمذي باسناد جيد ، ورواه الطبراني باسناد حسن من حديث ابن عباس .

(٨) شرح العقيدة الطحاوية ص (٥٦٦) ، ت الألباني .

(٩) معارج القبول (٥٣٠/١) .

الفصل الرابع
توحيد الأسماء والصفات

تمهيد:

ارتكز في جميع الفطر السليمة ثبوت الكمال المطلق لله جل وعلا ، فكل من عرف الله تعالى عرف له ذلك الكمال ، وإن الفطر النظيفة التي لم تتنجس بأدران البدع والتعطيل تقر للرب جل وعلا بأسمائه الحسنى ، وصفاته العليا وتعبده وتدعوه بها .

كما أن صفات الكمال الإلهية تعود إلى الأمور الوجودية لا العدمية ، فإن نفاة الصفات يصفون الله جل وعلا بالسلوب والإضافات[1] ولا يصفونه بصفاته الثبوتية إلا نادراً وبعضهم لا يصفه بشئ منها .

" وقد وصف الله تعالى نفسه بأن له المثل الأعلى[2] فقال تعالى : (للذين لا يؤمنون بالآخرة مثل السوء ولله المثل الأعلى)[3] وقال تعالى : (وله المثل الأعلى في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم)[4] فجعل سبحانه مثل السوء – المتضمن للعيوب والنقائض وسلب الكمال – لأعدائه المشركين وأوثانهم ، وأخبر أن المثل الأعلى المتضمن لإثبات الكمال كله لله وحده فمن سلب صفة الكمال عن الله تعالى فقد جعل له مثل السوء ، ونفى عنه ما وصف به نفسه من المثل الأعلى ، وهو الكمال المطلق المتضمن للأمور الوجودية ، والمعاني الثبوتية ، التي كلما كانت أكثر في الموصوف وأكمل ، كان بها أكمل وأعلى من غيره "[5] .

إن صفات الله – جل وعلا – لما كانت أكثر وأكمل ، كان له – جل وعلا – المثل الأعلى وكان هو سبحانه أحق به من كل ما سواه ، بل يستحيل أن يشترك في المثل الأعلى المطلق اثنان ، لأنهما إن تكافآ من كل وجه لم يكن أحدهما أعلى من الآخر ، وإن لم يتكافآ فالموصوف به أحدهما وحده ، فيستحيل أن يكون لمن له المثل الأعلى مثل أو نظير ، وهو الله جل في علاه[6] .

المبحث الأول: تعريف توحيد الأسماء والصفات

وعلى ضوء ما سبق فإنه يجب على كل مسلم أن يقر بل يؤمن إيماناً راسخاً بتوحيد الأسماء والصفات وهو : الإقرار والإعتراف الجازم بكل ما ورد في كتاب الله ، وما ورد في سنة رسوله – صلى الله عليه وسلم – الصحيحة ، من أسماء الله الحسنى وصفاته العليا ، وإثبات ما أثبته الله لنفسه من صفاته الكريمة ، لأنه لا يصف الله أعلم

---

(١) انظر : ابن تيمية : الفتوى الحموية الكبرى (ص٢٠) بمقدمة محمد عبدالرزاق حمزة ، ط المدني – القاهرة ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م .

(٢) ابن أبي العز : شرح العقيدة الطحاوية (ص/١٤٤) – ت الألباني ط٦ المكتب الاسلامي .

(٣) سورة النحل الآية (٦٠) .

(٤) سورة الروم الآية (٢٧) .

(٥) ابن أبي العز : شرح العقيدة الطحاوية (ص/١٤٤) ، ت الألباني ط٦ المكتب الإسلامي ، وانظر : ابن تيمية : مجموع الفتاوى (١٦/١٠٤-١٠٥) . وانظر : الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة لابن القيم (٣/١٠٣٠-١٠٣١) ، د.علي بن محمد الدخيل الله – دار العاصمة بالرياض النشرة الأولى ١٤٠٨هـ .

(٦) انظر : شرح العقيدة الطحاوية (١٤٤) ألباني ، وابن القيم : الصواعق المرسلة (٣/١٠٣٢،١٠٣١) ، ت.د. علي بن محمد الدخيل الله .

بـالله مـن الله ، قال تعالى : (أأنتم أعلم أم الله)[1] وما أثبته له رسوله – صلى الله عليه وسلم – الذي قال فيه ربه – جل وعـلا – : (وما ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحي يوحى)[2] . وأن تُثبت هذه الصفات العلية لله على الوجه الذي يليق بكمالـه وجماله وجلاله ، من غير تعطيل ، ولا تحريف ، ولا تمثيل ، ولا تكييف[3] ، إيماناً بقوله جل وعلا عن نفسه : (ليس كمثله شئ وهو السميع البصير)[4] .

قـال شيخ الإسلام ابن تيمية : " ومن الإيمان بالله : الإيمان بما وصف به نفسه في كتابه ، وبما وصفه به رسوله محمـد – صـلى الله عليه وسلم – من غير تحريف ولا تعطيل ، ومن غير تكييف ولا تمثيل بل يؤمنون بأن الله سبحانه (ليـس كمثله شئ وهو السميع البصير)[5] فلا ينفون عن ما وصف به نفسه ، ولا يحرفون الكلم عن مواضعه ولا يلحدون فـي أسماء الله وآياته ، ولا يكيفون ولا يمثلون صفاته بصفات خلقه ، لأنه سبحانه لا سمى له ، ولا كفوء له ، ولا ند له ، ولا يقـاس بخـلقه سبحانه وتعالى ، فإنه سبحانه أعلم بنفسه وبغيره وأصدق قيلاً وأحسن حديثاً من خلقه "[6] وقال صاحب كـتاب " تيسير العزيز الحميد " في تعريف توحيد الأسماء والصفات : " هو الإقرار بأن الله بكل شئ عليم ، وعلى كل شئ قدير وأنه الحي القيوم الذي لا تأخذه سنة ولا نوم ، له المشيئة النافذة ، والحكمة البالغة ، وأنه سميع بصير ، رؤوف رحيم ، عـلى العرض استوى ، وعلى الملك احتوى ، وأنه الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر ، سبحان الله عما يشركون إلى غير ذلك من الأسماء الحسنى ، والصفات العلى "[7] يقول ابن رجب : " وأما وصف النبي – صلى الله عـليه وسـلم – لـربه – عز وجل – بما وصفه به ، فكل ما وصف النبي – صلى الله عليه وسلم – به ربه فهو حق وصدق ، يجب الإيمان والتصديق به ، كما وصف الله – عز وجل – به نفسه ، مع نفي التمثيل عنه "[8] .

فتوحيد الأسماء والصفات إذاً : هو إفراد الله تعالى بأسمائه الحسنى وصفاته العليا معرفةً وإثباتاً وإقراراً وتصديقاً ، وتـنزيهه تعـالى عن كل ما يضاهيه ويشابهه ، وينافي كماله وجلاله وعظمته ، وذلك بالانتهاء إلى ما انتهى إليه الكتاب والسنة والوقوف عنده ، وعدم تجاوزه إلى غيره .

يقول ابن أبي زمنين[9] : " وأعلم أن أهل العلم بالله ، وبما جاءت به أنبياؤه ورسله ، يرون الجهل بما لم يخبر به – تـبارك وتعـالى – عن نفسه علماً ، والعجز عما لم يدع إليه إيماناً ، وأنهم إنما ينتهون من وصفه بصفاته وأسمائه إلى

---

(١) سورة البقرة الآية (١٤٠) .

(٢) سورة النجم الآية (٣،٤) .

(٣) انظـر : ابـن تيميـة : العقيـدة الواسطية (ص/٢٢-٢٨) مع شرحها للشيخ هراس ، والفتوى الحموية (ص/٣١-٣٢) ، د. البريكان : المدخل لدراسة العقيدة الإسلامية (ص/٩٠) ، الشيخ عبدالرحمن الدوسري : الأجوبة المفيدة المهمات العقيدة (ص/١٧) ط١٤٠٢/١هـ-١٩٨٢م ، مكتبة دار الأرقم – الكويت .

(٤) سورة الشورى ، بعض الآية (١١) .

(٥) العقيدة الواسطية (ص/٨-٩) . زهير الشاويش ط١٤٠٥/١هـ-١٩٨٤م – المكتب الإسلامي .

(٦) نفسه السابق .

(٧) الشيخ سليمان بن عبدالله : تيسير العزيز الحميد (ص/٣٥،٣٤) .

(٨) اختيار الأولى في شرح حديث اختصام الملأ الأعلى (ص/٤٠-٤١) .

(٩) هـو : أبـو عبدالله محمد بن عبدالله بن عيسى المرى الأندلسي ، فقيه مالكي ، من الوعاظ الأدباء والمشايخ الفضلاء ، ولد سنة ٣٢٤هـ وتوفي سنة ٣٩٩هـ . انظر : ترتيب المدارك (١٨٣/٧) ، بغية الملتمس (ص/٨٧،٨٨) ، الديباج المذهب (٢٣٢/٢-٢٣٤) .

حيث انتهى في كتابه وعلى لسان نبيه "[١] - صلى الله عليه وسلم - .

وهنا وأنا بصدد بيان مسلك السيوطي في الأسماء والصفات أقول : إن السيوطي في باب الأسماء قد أثبت الوارد مـــن أسماء الله الحسنى إثباتاً شرعياً صحيحاً موافقاً لأهل السنة والجماعة . وأما الصفات فله فيها مخالفة لمنهج أهل السنة سأبينه - إن شاء الله تعالى - قريباً .

المبحث الثاني : منهج السيوطي في توحيد الأسماء والصفات

المطلب الأول : الكلام عن ذات الله تعالى

قـــال السيوطي : " وذاته تعالى مخالفة لسائر الذوات مخالفة مطلقة ، لا يشاركها شئ في حقيقتها ولا في صفاتها ولا في أفعالها "[٢] .

وقد ورد اطلاق لفظ " الذات " في صحيح البخاري في قصة خبيب - رضي الله عنه - عندما أراد المشركون أن يقتلوه ، وخرجوا به من الحرم قال خبيب - رضي الله عنه - :

ولست أبالي حين اقتل مسلماً — على أي جنب كان في الله مصرعي

وذلك في ذات الإله وإن يشأ — يبارك على أوصال شلو ممزع[٣]

وهذا قد ترجم عليه البخاري فقال : " باب ما يذكر في الذات والنعوت وأسامي الله عز وجل ، وقال خُبيب : وذلك في ذات الإله ، فذكر الذات باسمه تعالى "[٤] .

وروى البخاري أيضاً في صحيحه قول أبي هريرة - رضي الله عنه - : " لم يكذب إبراهيم - عليه السلام - إلا ثلاث كذبات : ثنتين منهن في ذات الله عز وجل ... " إلخ[٥]

وقصة خبيب استدل بها السيوطي على صحة ما ذهب إليه من اطلاق لفظ الذات على الله - عز وجل - فقال : " ذاته مخالفة لسائر الذوات - جل وعلا - وعدلت عن قول ابن السبكي[٦] في " جمع الجوامع " حقيقته مخالفة لسائر الحقائق ، لأن ابن الزملكاني[٧] قال : يمتنع اطلاق لفظ الحقيقة على الله تعالى ، قال ابن جماعة[١] : لأنه لم يرد ، وقد ورد اطلاقه

---

(١) أصـــول السنة (١٧٩/١) رسالة ما جستير قدمها الطالب محمد إبراهيم هارون للجامعة الإسلامية عام (١٤٠٣-١٤٠٤هـ) ، وفي كتاب التمهيد لابن عبدالبر كلام نحو كلام ابن أبي زمنين انظره (١٤٦/٧-١٤٧) .

(٢) الكوكب الساطع في شرح نظم جمع الجوامع - مخطوط لوحة رقم (١٦١/أ) - رقم المخطوط (١٣٣٠) - بجامعة الرياض ، يقوم بتحقيقها الآن الزميل حسان فلمبان - بجامعة أم القرى بمكة .

ونحو هذه العبارة التي ذكرها السيوطي عند الايجي في المواقف انظر (ص/٣٦٩) - مكتبة المتنبي - القاهرة .

(٣) صحيح البخاري - كتاب التوحيد (٩٧) باب (١٤) ح رقم (٧٤٠٢) انظر الفتح (٣٨١/١٣) .

(٤) المصدر السابق .

(٥) المصدر السابق (٣٨٨/٦) - كتاب الأنبياء (٦٠) باب (٨) ح رقم (٣٣٥٨) ، ورواه مسلم أيضاً ولكن بدون ذكر لفظة " ذات الله " انظر صحيح مسلم (١٨٤/١) كتاب الإيمان (١) باب (٨٤) ح رقم {٣٢٧-(١٩٤)} .

(٦) عـــبدالوهاب بـــن عـــلي بـــن عـــبدالكافي السـبكي ، أبـــو نصـــر ، تـــاج الديـــن ، قاضـــي القضــــاة المـــؤرخ ، ولد في القاهرة (٧٢٧هـ-١٣٢٧م) ثم انتقل إلى دمشق وتوفي بها (٧٧١هـ-١٣٧٠م) ونسبته إلى سبك من أعمال المنوفيه بمصر ، ، انظر : جلاء العينين (١٦) ، الدرر الكامنة (٤٢٥/٢) ، وحسن المحاضرة (١٨٢/١) ، الاعلام (١٨٤/٤) .

(٧) محمـــد بـــن علي بن عبدالواحد الأنصاري ، كمال الدين المعروف بابن الزملكاني فقيه شافعي ، ولد بدمشق (٦٦٧هـ-١٢٦٩م) ، وتوفي ودفن بالقاهرة (٧٢٧هـ-١٣٢٧م) انظر : جلاء العينين (١٧) ، فوات الوفيات (٢٥٠/٢) ، طبقات السبكي (٢٥١/٥) والاعلام (٢٨٤/٦) .

عليه[٢] تعالى ، ففي البخاري في قصة خبيب من قوله : وذلك في ذات الإله "[٣] .

ومعنى كلام ابن الزملكاني وابن جماعة أن اطلاق لفظ الحقيقة على الله تعالى لم يرد في النصوص الشرعية ، ولذلك لا يجوز اطلاقه عليه سبحانه وتعالى ، أما لفظ الذات فقد ورد اطلاقه كما قدمت من نصوص عن خبيب وأبي هريرة – رضي الله عنهما – .

قال الحافظ ابن حجر : " قوله[٤] : باب ما يذكر في الذات والنعوت وأسامي الله عز وجل ، أي ما يذكر في ذات الله ونعوته من تجويز إطلاق ذلك كأسمائه "[٥] .

وفي بعض مجالس المناظرة بين شيخ الإسلام ابن تيمية ، وبعض علماء عصره ، قال ابن تيمية : بعد أن أجاب المناظرين لـه عمن حكى مذهب السلف من العلماء : " وأن الكلام في الصفات فرع على الكلام في الذات ، يحتذى فيه حذوه ، ويتبع فيه مثاله ، فإذا كان إثبات الذات إثبات وجود لا اثبات كيفية ، فكذلك إثبات الصفات ، إثبات وجود لا اثبات كيفية "[٦] .

وقـال أيضاً في موضع آخر : " القول في الصفات ، كالقول في الذات فإن الله ليس كمثله شئ لا في ذاته ولا في صـفاته ، ولا فـي أفعالـه ، فإذا كان له ذات حقيقة لا تماثل الذوات ، فالذات متصفة بصفات حقيقة لا تماثل سائر صفات الـذوات "[٧] فهذا فيه دلالة على جواز اطلاق لفظ " الذات " ، وكذلك قال ابن حجر : " قلت : وظاهر لفظه أن مراده أضاف اسم الذات إلى اسم الله تعالى ، وسمعه النبي – صلى الله عليه وسلم – فلم ينكره ، فكان جائزاً "[٨] ثم قال ابن حجر – رحمـه الله تعـالى – : " وقـد تـرجم الـبيهقي فـي الأسـماء والصـفات مـا جـاء فـي الـذات[٩] ، وأورد حديث أبي هريرة المتفق عليه في ذكر ابراهيم – عليه السلام – " إلا ثلاث كذبات اثنتين في ذات الله " ... وحديـث أبـي هريـرة المذكور في الباب[١٠] ، وحديث ابن عباس " تفكروا في كل شئ ولا تفكروا في ذات الله "[١١] موقوف وسنده جيد .

---

(١) محمد بن أبي بكر بن عبدالعزيز بن محمد ، أبو عبدالله ، عز الدين الكناني ، الحموي ، ثم المصري ، الشافعي ، المعروف بابن جماعة ، مولده بينبع (٧٤٩هـ–١٣٤٨م) انتقل إلى القاهرة وتتلمذ لإبن خلدون وتوفي فيها بالطاعون (٨١٩هـ–١٤١٦م) .

انظر : حسن المحاضرة (٢٣٦/١) ، بغية الوعاة (٢٥) ، الضوء اللامع (١٧١/٧–١٧٤) شذرات الذهب (١٣٩/٧) ، الاعلام (٥٧/٦) .

(٢) يقصد لفظ " الذات " كما يبينه كلامه الذي بعده .

(٣) رسالة في علم التوحيد من دراية جلال الدين السيوطي (ص٣) .

(٤) يعني قول الإمام البخاري في صحيحه .

(٥) فتح الباري (٣٨١/١٣) .

(٦) العقيدة الواسطية (ص/٩٤) ت زهير الشاويش ، وانظر : عبدالعزيز المحمد السلمان : الكواشف الجلية عن معاني الواسطية (ص/٤٣٠) .

(٧) التدمرية (ص/٤٣) ت. محمد بن عودة السعوي ط١/١٤٠٥هـ–١٩٨٥م) .

(٨) فتح الباري (٣٨٢/١٣) .

(٩) انظر : الاسماء والصفات (٦/٢) ، وانظر الكوكب الساطع – مخطوط لوحة رقم (١٦١/ب) .

(١٠) الذي فيه قصة خبيب – رضي الله عنه – .

(١١) قـال ابن حجر : " موقوف وسنده جيد " ما نقلته في المتن ، والحديث له حكم الرفع وقد روى مرفوعاً ، قال السخاوي : اخرجه ابن أبي شيبة في العرش من حديث سعيد بن جبير عن ابن عباس به ، ورواه الأصبهاني في ترغيبه ، ثم أبو نعيم في الحلية من حديث اسماعيل بن عباس عن الأحـوص بـن حكيم عن شهر عن ابن عباس ، وفيه قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : " تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في الله " قال السـخاوي وأسانيدها ضعيفة لكن اجتماعها يكتسب قوة ، والمعنى صحيح ، وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة – رضي الله عنه – مرفوعاً " لا يزال الناس يتساءلون حتى يقال : هذا الله خلق الخلق فمن خلق الله ؟ فمن وجد من ذلك شيئاً فليقل : آمنت بالله " انظر : فتح الباري (٣٨٣/١٣) ، والمقاصد الحسنة (ص/١٥٩) ، والترغيب والترهيب للأصبهاني (٢٨٧/١–٢٨٨) ح رقم (٦٤١) ، وحلية الأولياء (٦٧/٦) ، ومجمع الزوائد (٨١/١) ، وشعب الإيمان للبيهقي (١٣٦/١) ح رقم (١٢٠) .

قال السيوطي : " وقال حسان[١] بحضرة النبي - صلى الله عليه وسلم - :

وإن أخا الأحقاف إذ قام فيهم يجاهد في ذات الإله ويعدلُ "[٢]

ويـــبين ابن تيمية أصل دخول كلمة " الذات " في اصطلاحات علماء الكلام فيقول : " ...وأما لفظ " الذات " فإنها في اللغة تأنيث ذو ، وهذا اللفظ يستعمل مضافاً إلى اسماء الأجناس ، يتوصلون به إلى الوصف بذلك ، فيقال : شخص ذو علم وذو مال وشرف ، ويعني حقيقته ، أو عين ، أو نفس ذات علم وقدرة وسلطان ونحو ذلك .

وقد يضاف إلى الأعلام كقولهم : ذو عمرو ، وذو الكلام ، وقول عمر : " الغنى بلال وذووه " .

فلما وجدوا الله قال في القرآن : (تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك... "[٣] ، (...ويحذركم الله نفسه...)[٤] ، و (...كتب على نفسه الرحمة...)[٥] : وصفوها فقالوا : نفس ذات علم وقدرة ، ورحمة ، ومشيئة ونحو ذلك ، ثم حذفوا الموصـــوف وعرفوا الصفة فقالوا : الذات ، وهي كلمة مولدة ، ليست قديمة ، وقد وجدت في كلام النبي - صلى الله عليه وسلم - والصحابة ، لكن بمعنى آخر ، مثل قول خبيب الذي في صحيح البخاري :

وذلك في ذات الإله وإن يشأ يبارك على أوصال شلو ممزع[٦]

وفي الصحيح عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال : " لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات ، كلهن في ذات الله... "[٧] .

وعن أبي ذر : " كلنا أحمق في ذات الله " ، وفي قول بعضهم : أصبنا في ذات الله ، والمعنى في جهة الله وناحيته أي لأجل الله ولابتغاء وجهه ، ليس المراد بذلك النفس ، ونحوه في القرآن : (فاتقوا الله واصلحوا ذات بينكم)[٨] وقوله : (علِم بذات الصدور)[٩] أي الخصلة والجهة التي هي صلة بينكم ، وعلِم بالخواطر ونحوها التي هي صاحبة الصدور .

فاســـم " الـــذات " في كلام النبي - صلى الله عليه وسلم - والصحابة والعربية المحضة : بهذا المعنى ، ثم أطلق المتكـــلمون وغيـــرهم على " النفس " بالاعتبار الذي تقدم ، فإنها صاحبة الصفات ، فإذا قالوا الذات فقد قالوا التي لها الصفات ، وقد روى في حديث مرفوع وغير مرفوع " تفكروا في آلاء الله ، ولا تتفكروا في ذات الله "[١٠] فإن كان هذا الـــلفظ أو نظيره ثابتاً عن النبي - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه ، فقد وجد في كلامهم اطلاق اسم " الذات " على النفس كما يطلق المتأخرون "[١١] .

---

(١) هـــو الصـــحابي الجـــليل حسان بن ثابت بن المنذر الخزرجي ، الأنصاري ، أبو الوليد ، شاعر النبي - صلى الله عليه وسلم - توفي بالمدينة المنورة (٥٤هـــ-٦٧٤م) . انظر : تهذيب التهذيب (٢٤٧/٢) ، والإصابة (٣٢٦/١) ، وابن عساكر (١٢٥/٤) ، والشعر والشعراء (١٠٤) .

(٢) الكوكب الساطع (١٦١/ب) ، وانظر : فتح الباري (٣٨٣/١٣) .

(٣) سورة المائدة ، بعض الآية (١١٦) .

(٤) سورة آل عمران ، بعض الآية (٣٠) .

(٥) سورة الأنعام ، بعض الآية (١٢) .

(٦) انظر : فتح الباري (٣٨١/١٣) ح رقم (٧٤٠٢) .

(٧) سبق تخريجه وهو متفق عليه ، انظر : فتح الباري (٣٨٨/٦) ، وصحيح مسلم (١٨٤/١).

(٨) سورة الأنفال ، بعض الآية (١) .

(٩) ســـورة آل عمران بعض الآية (١١٩) ، (١٥٤) ، والمائدة بعض الآية (٧) ، الأنفال بعض الآية (٤٣) ، وهود بعض الآية (٥) ولقمان بعض الآية (٢٣) ، وفاطر بعض الآية (٣٨) ، والزمر بعض الآية (٧) ، والشورى بعض الآية (٢٤) ، والحديد بعض الآية (٦) ، والملك بعض الآية (١٣) .

(١٠) سبق تخريجه ، انظر : (ص/١٩) .

(١١) مجموع الفتاوى (٣٤١/٦-٣٤٢) وانظر نفسه (ص/٩٩-١٠٠) .

المطلب الثاني : أسماؤه تعالى توقيفية

مــن الأصول المقررة عند أهل السنة والجماعة أن أسماء الله تعالى وصفاته توقيفية ، لا مجال فيها لتدخل العقل بنفي ما ورد في النصوص الصحيحة ، أو اثبات ما لم يرد فيه نص ، بل ذلك موقوف على نصوص الكتاب وصحيح السنة ، ولا يؤخذ ولا يتلقى إلا من جهة الرسل - عليهم الصلاة والسلام - فيما يوحي به الله إليهم ، فما جاء من ذلك مثبتاً يجب علينــا إثــباته والإيمــان بــه وفق ما وردت به نصوص الوحيين ، وما جاء منفياً وجب نفيه ، وما سكت عنه وجب علينا السكوت عنه وعدم الخوض فيه .

وليس لعقل بشري - مهما بلغ من القوة والعلم والنباهة - أن يجتهد في اختراع أسماء وصفات لله جل وعلا ، إذ كــان العقــول قاصــرة عن إدراك ذلك ، ولا يمكنها معرفة ما يستحقه الباري جل وعلا من الأسماء والصفات بحال من الأحــوال ، إن ذلك لباب عظيم القدر ، عزيز المنال ، غير مظفور به ، ولا مطموع فيه ، ولا موصول إليه ، فعظمته جل وعلا فوق كل عظمة ، وقدرته فوق كل قدرة ، وشأنه أعظم من أي شأن ، فالقول فيه من غير طريق الوحي خبط تائه في دياجير الحلل ، وتقول على الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير .

وقد صرح السيوطي بأن أسماء الله تعالى توقيفية فقال وهو يتكلم عن اطلاق اسم " الصانع " عليه سبحانه وتعالى فقال : " اشتهر عند المتكلمين اطلاق الصانع عليه تعالى ، واعترض بأنه لم يرد ، وأسماؤه تعالى توقيفية ، وأجاب السبكي بأنه قرئ شاذاً (...صنعة الله...)[1] فمن اكتفى في الاطلاق بورود الفعل اكتفى بذلك .

وأجــاب غيــره بأنه مأخوذ من قوله (صنع الله)[2] "[3] فهذا تصريح من السيوطي بالتوقيف في أسمائه تعالى ، وأتى بمثال من الأسماء التي لم يرد ذكرها في النصوص الشرعية ، وهو اسم " الصانع " ولكنه قال : " وقد ظفرت بحديث صحيح ورد فيه اطلاقه عليه وهو ما أخرجه الحاكم ، والبيهقي وغيرهما .

مــن حديــث حذيفة مرفوعاً : " إن الله صانع كل صانع وصنعته "[4] قال النووي : " وأسماء الله تعالى توقيفية لا تطلق إلا بدليل صحيح "[5] ويقول ابن القيم : " ما يطلق على الله في باب الأسماء والصفات توقيفي "[6] .

ويقول ابن حجر : " قال الفخر : المشهور عن أصحابنا أنها توقيفية ... وقال أبو القاسم القشيري : الأسماء تؤخذ توقيفاً من الكتاب والسنة والاجماع "[7] .

---

(١) ســورة الــنمل ، بعض الآية (٨٨) ، وهي قوله تعالى : (وترى الجبال تحسبها جامدة ، وهي تمر مر السحاب صنع الله الذي اتقن كل شئ إنه خبير بما تفعلون)

وجواب السبكي يوحي بجواز اشتقاق اسم " الصانع " لله تعالى من هذا المصدر (صنعة) الله ، فمادامت صنعته فهو صانعها - جل وعلا - وهذا لا يجوزه أهل السنة بل يكتفون في إطلاق الأسماء على ما ورد به السمع في القرآن والسنة الصحيحة .

(٢) سورة النمل ، بعض الآية (٨٨) .

(٣) الكوكب الساطع - مخطوط - لوحة رقم (١٦١/ب) ، وكذلك رسالة في علم التوحيد - مخطوط - لوحة رقم (٢) .

(٤) الكوكب الساطع لوحة رقم (١٦١/ب) وكذلك رسالة في علم التوحيد ، لوحة رقم (٢) ، وانظر في توقيف الأسماء لله تعالى : عضد الدين الايجي : المواقف (ص/٣٣٣) .

(٥) شرح صحيح مسلم (١٨٨/٧) وانظر : تهذيب الأسماء واللغات (١٢٧/٣) ، وتحرير ألفاظ التنبيه (ص/١٢٣) والأذكار (٣٤٣) .

(٦) بدائع الفوائد (١٦٢/١) .

(٧) فتح الباري (٢٢٣/١١) .

وقال السفاريني :

" لكنها في الحق توقيفية   لنا بـذا أدلـة وفيـة "[١]

وقال في شرحه لذلك : " الجمهور منعوا إطلاق ما لم يأذن به الشرع مطلقاً ، وجوزه المعتزلة مطلقاً ، ومال إليه بعض الأشاعرة كالقاضي أبي بكر الباقلاني ، وتوقف إمام الحرمين الجويني ، وفصل الغزالي فجوز اطلاق الصفة ، وهي ما دل على معنى زائداً على الذات ومنع اطلاق الاسم وهو ما يدل على نفس الذات واحتج للقول المعتمد أنها توقيفية بأنه لا يجوز أن يسمى النبي – صلى الله عليه وسلم – بما ليس من أسمائه فالباري أولى "[٢] .

والحـق لديّ في هذه المسألة هو رأيُ الجمهور الذي حكاه السفاريني وهو المنع من اطلاق ما لم يأذن الشرع مطلقاً وذلك لأمور منها :

<u>أولاً :</u> أن إباحة ذلك قول على الله بغير علم ، ورجم بالغيب ، وقد حرم الله تعالى ذلك فقال جل وعلا : (أتقولون على الله مـا لا تعـلمون)[٣] وسماه إلحاداً فقال : (...وذروا الذين يلحدون في أسمائه...)[٤] كما سماه هوى وجعله سبباً للضلال فقـال تعالى : (...وإن كثيراً ليضلون بأهوائهم بغير علم...)[٥] وسماه تعالى كذلك افتراء وكذباً ووصم صاحبه بأنه أظلم الـناس ، فقال – جل وعلا – : (فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً ليضل الناس بغير علم)[٦] كما أن الله تعالى قد نهانا عن ذلك نهياً صريحاً فقال تعالى : (ولا تقف ما ليس لك به علم)[٧] .

<u>ثانيـاً :</u> أنه تشريع في الدين بما لم يأذن به الله تعالى ، وهو في حقيقته ابتداع كما قال جل شأنه : (أم لهم شركاء شرعوا لهـم مـن الدين ما لم يأذن به الله ، ولولا كلمة الفصل لقضي بينهم ، وإن الظالمين لهم عذاب أليم)[٨] قال ابن جرير : " ابـتدعوا لهم من الدين ما لم يبح الله لهم ابتدعوا "[٩] ولا شك أن ذلك الابتداع ظلم ، ولذلك قال تعالى : (وإن الظالمين لهم عذاب أليم)[١٠] .

<u>ثالثاً :</u> أنه تقديم بين يدي الله تعالى ورسوله – صلى الله عليه وسلم – وقد نهينا عن ذلك كما في قوله جل وعلا : (يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله...)[١١] .

وكيف يجيب العبد إذا حاسبه ربه يوم القيامة عن وصفه ربه تعالى بما لم يصف الله تعالى به نفسه ؟؟ .

<u>رابعـاً :</u> أن اسـماء الله – تعالى – حسنى ومهما اجتهد العبد فإنه لن يوفق للتعرف على الإسم الأحسن الذي يستحقه الله –

---

(١) لوامع الأنوار البيهية (١/١٢٤-١٢٥) .
(٢) السابق نفسه ، وانظر الجويني : الإرشاد (ص/١٤٣) .
(٣) سورة الأعراف ، بعض الآية (٢٨) .
(٤) سورة الأعراف ، بعض الآية (١٢٨) .
(٥) سورة الأنعام ، بعض الآية (١١٩) .
(٦) سورة الأنعام ، بعض الآية (١٤٤) .
(٧) سورة الأسراء الآية (٣٦) .
(٨) سورة الشورى الآية (٢١) .
(٩) جامع البيان (٢١/٢٥) .
(١٠) سورة الشورى الآية (٢١) .
(١١) سورة الحجرات ، بعض الآية (١) .

جل وعلا - .

قال ابن القيم : " لله من صفة الإدراكات : العليم الخبير ، دون العاقل الفقيه ، والسميع البصير ، دون السامع والباصر ، ومن صفات الإحسان : البر ، الرحيم ، الودود ، دون الرفيق والشفيق ونحوها . وكذلك العلي العظيم دون الرفيع الشريف وكذلك الكريم ، دون السخي ، والخالق ، البارئ ، المصور ، دون الفاعل ، الصانع ، المُشَكِّل . والغفور ، العفو ، دون الصفوح الساتر "(١) فهذه الأسماء كلها لا يجوز اطلاقها على الله وهي مترادفات للأسماء الصحيحة الواردة فكيف بما ليس لها مرادف أصلاً ؟؟ .

خامساً : إذا كان البشر لا يرضون أن يسمعوا بغير أسمائهم فكيف يجوز ذلك في حق الله تعالى خالق البشر ، وخالق الخلق أجمعين ؟

قال البغدادي : " مأخذ أسماء الله تعالى التوقيف عليها ، إما بالقرآن وإما بالسنة الصحيحة ، وإما بإجماع الأمة عليه ، ولا يجوز اطلاق اسم عليه من طريق القياس . وهذا خلاف قول المعتزلة البصرية في اجازتها إطلاق الأسماء عليه بالقياس .

وقد أفرط الجبائي(٢) في هذا الباب حتى سمى الله مطيعاً لعبده إذا أعطاه مراده ، وسماه مُحبِلاً للنساء إذا خلق فيهن الحبل ، وضللته الأمة في هذه الجسارة التي تورثه الخسارة "(٣) .

لقد جعل أبو بكر بن العربي الزيادة في أسماء الله تعالى من الإلحاد المنهي عنه بقوله تعالى : (وذروا الذين يلحدون في أسمائه)(٤) فقال : " والإلحاد يكون بالزيادة فيها ، والنقصان منها ، كما يفعله الجهال الذين يخترعون أدعية يسمون فيها الباري بغير أسمائه ، ويذكرونه بما لم يذكره من أفعاله ، إلى غير ذلك مما لا يليق به ، فحذار منها "(٥) .

وبهذا يظهر رجحان قول الجمهور وصحته ، وهو قول أهل السنة والجماعة ، وبه ظهر بطلان مذهب المعتزلة ، كما أنه لا مسوغ لتوقف الجويني الذي قيده في الإرشاد(٦) .

المطلب الثالث : هل "القديم" من أسماء الله تعالى ؟

قال السيوطي(٧) : " والله تعالى قديم ، كما ورد وصفه بذلك في حديث أبي هريرة في عد الأسماء التسعة والتسعين أخرجه ابن ماجة "(٨) وقال أيضاً : " ...الله الواحد أي الذي لا نظير له في ذاته ولا صفاته ، قديم أي لا ابتداء لوجوده إذ

---

(١) بدائع الفوائد (١٦٨/١) .

(٢) محمد بن عبدالوهاب بن سلام الجبائي ، أبو علي ، من أئمة المعتزلة ، ورئيس علماء الكلام في عصره ، ولد (٢٣٥هـ-٨٤٩م) واشتهر بالبصرة ودفن بحي المنسوبي إليها (٣٠٣هـ-٩١٦م) . انظر : المقريزي (٣٤٨/٢) ، وفيات الأعيان (٤٨٠/١) ، البداية والنهاية (١٢٥/١١) ، الأعلام (٢٥٦/٦) .

(٣) عبدالقاهر البغدادي : الفرق بين الفرق (ص/٣٣٧) .

(٤) سورة الأعراف ، بعض الآية (١٨٠) .

(٥) أحكام القرآن (٨١٦/٢) .

(٦) انظر (ص/١٤٣) - ت.د.محمد يوسف موسى .

(٧) الكوكب الساطع - مخطوط - لوحة رقم (١٦١/أ) .

(٨) قال البوصيري : " لم يخرج من الأئمة الستة عدد أسماء الله الحسنى من حديث أبي هريرة ولا من غيره سوى ابن ماجة والترمذي ، لكن طريق الترمذي بغير هذا السياق وبزيادة ونقص، وتقديم وتأخير ... واسناد طريق ابن ماجة ضعيف لضعف عبدالملك بن محمد الصنعاني " وقد نبه الترمذي على عدم صحة الحديث انظر (٤٩٧/٥) وأخرج هذا الحديث أيضاً الحاكم في المستدرك وفيه ضعف كما قال البيهقي ، انظر : سنن ابن ماجة (١٢٦٩/٢-١٢٧٠) ، كتاب الدعاء (٣٤) ، باب أسماء الله عز وجل (١٠) ح رقم (٣٨٦١) ، ومصباح الزجاجة (١٤٨/٤) ، المستدرك (١٧/١) ، كتاب الإيمان - باب إن لله تسعة وتسعين اسماً... ، والأسماء والصفات للبيهقي (٣٢/١) . وانظر الزوائد للبوصيري (ص/٤٩٨) .

لو كان حادثاً لاحتاج إلى محدث تعالى عن ذلك... "[١] .

وفي بيان معنى " القديم " قال السفاريني نفس العبارة التي نقلتها عن السيوطي حيث قال : " صفاته قديمة ، لا ابتداء لوجودها ولا انتهاء ، إذ لو كانت حادثة لا حتاجت إلى محدث ، تعالت ذاته المقدسة ، وصفاته المعظمة عن ذلك ، فإن حقيقة ذاته مخالفة لسائر الحقائق وكذلك صفاته تعالى "[٢] .

وقال أيضاً : " والقديم هو الذي لم يسبق وجوده عدم ، فإنه سبحانه و تعالى متصف بالقدم ، وهي صفة سلبية في اصطلاحهم ، والصفات السلبية ما مدلولها عدم أمر لا يليق به تعالى ، فقِدَمُه تعالى ذاتي واجب له تعالى غير مسبوق بعدم ، إذ هو تعالى لا ابتداء لوجوده "[٣] .

وقول السفاريني : " فإنه سبحانه وتعالى متصف بالقدم " فهذا الوصف إنما أطلقه عليه العلماء من باب الأخبار ، لا أنه وَصَفَ نَفْسَه به ، فنصوص الكتاب والسنة ليس فيها اسم القديم أو وصفه بالقدم ، وإنما هو من باب الأخبار عنه تعالى لا من باب الانشاء[٤] .

والقِدَمَ في اللغة يطلق على ما توالت على وجوده الأزمنة ، وكر عليه الجديدان ، الليل والنهار ، ومنه قوله تعالى : (...حتى عاد كالعرجون القديم)[٥] وبهذا الاعتبار يقال أساس قديم ، وبناء قديم .

وهذا المعنى مستحيل في حقه تعالى ، إذ أن وجوده عز وجل ليس وجوداً زمانياً ، ولا نسبة للزمان إلى وجوده البتة ، وليس وجوده سبحانه مقيساً بتوالي الأزمنة ، بل وجوده غير مقترن بزمان أصلاً تعالى وتقدس .

ولذا احترز السيوطي في تعريف القدم فقال : " لا ابتداء لوجوده "[٦] ، وكذلك قال العلامة السفاريني – ما سبق النقل عنه[٧]– .

واطلاق " القديم " بمعنى ما لا أول لوجوده هو الذي يليق بالله – عز وجل – . ولهذا المعنى ألمح السفاريني حيث قال : " وأعلم أن القِدم إما ذاتي كقدم الواجب ، وإما زماني كقدم زمان الهجرة بالنسبة لليوم ، ومنه : (...حتى عاد كالعرجون القديم)[٨] ، ومنه القدم الإضافي كقدم الأب بالنسبة للإبن "[٩] . وقد جعله السيوطي اسماً من أسمائه تعالى بهذا المعنى ، أعني القدم الذاتي ، وممن عده اسماً من اسمائه – جل وعلا – أيضاً من المحدثين د.عمر سليمان الأشقر[١٠] .

ولكن ابن أبي العز أنكر ذلك وحكى هذا الانكار عن كثير من السلف والخلف ولم يسم منهم غير ابن حزم ، وهذه

---

(١) رسالة علم التوحيد – مخطوط – لوحة رقم (١) . وانظر : الجويني : الإرشاد (ص/٣٢) ، سعد الدين التفتازاني : شرح العقائد النسفية (ص/٣٠) ، والجويني أيضاً : العقيدة النظامية (ص/٢٠) .

(٢) لوامع الأنوار البيهية (١١٦/١) .

(٣) نفسه (٣٨/١) .

(٤) انظر : نفسه ، في حاشية الصفحة مستفاد من تعليقات مفتي الديار النجدية في عصره العلامة الشيخ عبدالله بابطين (ت١٢٨٢هـ) .

(٥) سورة يس الآية (٣٩) .

(٦) رسالة في علم التوحيد – مخطوط – لوحة رقم (١) .

(٧) انظر : لوامع الأنوار البهية (١١٦/١) .

(٨) سورة يس ، بعض الآية (٣٩) .

(٩) لوامع الأنوار البهية (٣٨/١) .

(١٠) انظر : أسماء الله وصفاته (ص/٥٣) .

هـي عـبارة ابن أبي العز شارح العقيدة الطحاوية : قال : " وقد أدخل المتكلمون في أسمائه تعالى القديم ، وليس هو من الأسماء الحسنى ، فإن القديم في لغة العرب التي نزل بها القرآن : هو المتقدم على غيره ، فيقال : هذا قديم ، للعتيق ، وهذا حديـث ، لـلجديد ، ولم يستعملون هذا الإسم إلا في المتقدم على غيره لا فيما لم يسبقه عدم ، كما قال تعالى : (حتى عاد كالعرجون القديم)[١] والعرجون القديم الذي يبقى إلى حين وجود العرجون الثاني ، فإذا وجد الجديد ، قيل للأول قديم ، قال تعالى : (وإذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفك قديم)[٢] أي متقدم في الزمان ، وقال تعالى : (قال أفرأيتم ما كنتم تعبدون {٧٥} أنـتم وآباؤكم الأقدمون {٧٦})[٣] فالأقدم مبالغة في القديم ، ومنه : القول القديم والجديد للشافعي – رحمه الله تعالى – وقال تعالى : (يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار)[٤] أي يتقدمهم ، ويستعمل منه الفعل لازماً ومتعدياً ، كما يقال : أخذت ما قدم وما حدث ، ويقال : هذا قدم هذا وهو يقدمه ، ومنه سميت القدم قدماً لأنها تقدم بقية بدن الإنسان ، وأما إدخال القديم فـي أسماء الله تعالى فهو مشهور عند أكثر أهل الكلام ، وقد أنكر ذلك كثير من السلف والخلف ، منهم ابن حزم ، ولا ريب أنه إذا كان مستعملاً في نفس التقدم ، فإن ما تقدم على الحوادث كلها فهو أحق بالتقدم من غيره ، لكن أسماء الله تعالى هي الأسماء الحسنى ، التي تدل على خصوص ما يمدح به ، والتقدم في اللغة مطلق لا يختص بالتقدم على الحوادث كلها ، فلا يكـون من الأسماء الحسنى ، وجاء الشرع باسمه الأول ، وهو أحسن من القديم لأنه يشعر بأن ما بعده آيل إليه وتابع له ، بخلاف القديم ، والله تعالى له الأسماء الحسنى لا الحسنة "[٥] .

والحـق أن الحديـث الـذي اسـتدل به السيوطي عند ابن ماجة لا ينهض للاستدلال به ، لأنه لا يصح ، ولأن الاستدلال على معرفة أسماء الباري أشرف الغايات فلا يليق أن يُستدل على ذلك بأحاديث واهية .

قال البوصيري : " واسناد طريق ابن ماجة ضعيف لضعف عبدالملك بن محمد الصنعاني "[٦] .

ونقله الشوكاني[٧] بنصه في " تحفة الذاكرين " ثم قال : " وفي اسناده ضعف "[٨] .

ونقل عن ابن حزم قوله : " جاءت في إحصائها – يعني الأسماء الحسنى – أحاديث مضطربة لا يصح منها شئ أصلاً "[٩]

وقال ابن تيمية : " والحديث الذي في عدد الأسماء الحسنى ... ليس هو عند أهل المعرفة بالحديث من كلام النبي – صلى الله عليه وسلم – بل هذا ذكره الوليد بن مسلم ، عن سعيد بن عبدالعزيز ، أو عن بعض شيوخه ، ولهذا لم يروه أحد مـن أهل الكتب المشهورة إلا الترمذي ، رواه عن طريق الوليد بن مسلم بسياق ، ورواه غيره باختلاف في الأسماء ، وفي

---

(١) سورة يس ، بعض الآية (٣٩) .

(٢) سورة الأحقاف الآية (١١) .

(٣) سورة الشعراء الآيتان (٧٥،٧٦) .

(٤) سورة هود الآية (٩٨) .

(٥) شرح العقيدة الطحاوية (ص/١١٤-١١٥) . وانظر تقريب وترتيب شرح العقيدة الطحاوية (٤٦٦/١-٤٦٨) .

(٦) الزوائد (ص/٤٩٨)

(٧) محمـد بن علي بن محمد الشوكاني ، اليماني ، الصنعاني ، ولد (١١٧٣هـ) في هجرة شوكان من قرى السحامية إحدى قبائل خولان ، وتوفى بصنعاء (١٢٥٠هـ) له : فتح القدير في التفسير ، ونيل الأوطار في الحديث ، انظر : البدر الطالع .

(٨) (ص/٥٤،٥٥) .

(٩) المحلي (٣٠/١) ، الفصل (٣٤٥/٢) ، وانظر : ابن حجر : فتح الباري (٢١٧/١١) الشوكاني تحفة الذاكرين (٥٤،٥٥) .

ترتيـبها ، يبين أنه ليس من كلام النبي – صلى الله عليه وسلم – ، وسائر من روى هذا الحديث عن أبي هريرة ، ثم عن الأعـرج ، ثم عن أبي الزناد لم يذكروا أعيان الأسماء ، بل ذكروا قوله – صلى الله عليه وسلم – : " إن لله تسعة وتسعين اسـماً ، مائة إلا واحداً ، من أحصاها دخل الجنة "[١] وهكذا أخرجه أهل الصحيح كالبخاري ومسلم وغيرهما ، ولكن رُوي عدد الأسماء من طريق أخرى من حديث محمد بن سيرين عن أبي هريرة ، رواه ابن ماجة واسناده ضعيف[٢] ، يعلم أهل الحديث أنه ليس من كلام النبي – صلى الله عليه وسلم – وليس في عدد الأسماء الحسنى عن النبي – صلى الله عليه وسلم – إلا هذان الحديثان ، كلاهما مروي من طريق أبي هريرة "[٣] .

ومحصول القول أن هذا الحديث الذي ذكر فيه عدد الأسماء الحسنى روى من طريقين :

أولهما : عند الترمذي في جامعه[٤] ، من طريق الوليد بن مسلم ، عن شعيب ، عن أبي الزناد ، عن الأعرج ، عن أبي هريرة .

ثانيهما : عند ابن ماجة في سننه[٥] ، من طريق مخلد ابن زياد القطواني ، عن هشام بن حسان ، عن محمد بن سيرين ، عن أبي هريرة .

قـال ابن تيمية : " وقد اتفق أهل المعرفة بالحديث على أن هاتين الروايتين ليستا من كلام النبي – صلى الله عليه وسـلم – وإنمـا كل منهما من كلام بعض السلف... "[٦] وقد أغفل ابن جرير الطبري الكلام عن تعداد الأسماء الحسنى أو إيراد شئ من الروايات التي تعينها كما في حديث الترمذي وابن ماجة مما يدل على أنه لم يثبت في تعيينها شئ عنده[٧] .

أمـا ابن كثير فقد ذكر رواية الترمذي ، التي فيها سرد الأسماء ، ونبه على أن رواية ابن ماجة بها زيادة ونقص عن رواية الترمذي ثم قال : " والذي عول عليه جماعة من الحفاظ أن سرد الأسماء في هذا الحديث مدرج[٨] فيه ، وإنما ذلك كما رواه الوليد بن مسلم ، وعبدالملك بن محمد الصنعاني ، عن زهير بن محمد ، أنه بلغه عن غير واحد من أهل العلم أنهم قالوا ذلك ، أي أنهم جمعوها من القرآن كما ورد عن جعفر بن محمد ، وسفيان ابن عيينة وأبي زيد اللغوي والله أعلم "[٩] .

وقال الحاكم في المستدرك بعد تخريج الحديث من طريق صفوان بن صالح ، عن الوليد بن مسلم : " صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه بسياق الأسماء الحسنى ، والعلة فيه عندهما تفرد الوليد بن مسلم "[١٠] .

---

(١) متفق عليه ، أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب الشروط باب (١٨) ح (٢٧٣٦) ، الفتح (٥/٣٥٤) ، وفي مواضع أخرى انظر ح (٦٤١٠،٧٣٩٢) كـتاب الدعوات (٦٨) كتاب التوحيد (٩٧) ، ومسلم في صحيحه ح رقم (٥٦) (٤/٢٠٦٣،٢٠٦٢) ، والترمذي (٥/٥٣٠) ح رقم (٣٥٠٦، ٣٥٠٨) .

(٢) وهذا هو الذي عول عليه السيوطي في استدلاله .

(٣) مجموع الفتاوى (٨/٩٧،٩٦) .

(٤) انظر (٥/٥٣٠) .

(٥) انظر : كتاب الدعاء (٣٤) من سنن ابن ماجة ، باب (١٠) ح رقم (٣٨٦٠) .

(٦) مجموع الفتاوى (٦/٣٧٩) ، وابن حجر : فتح الباري (١١/٢١٥) .

(٧) انظر : جامع البيان (٩/١٣٣-١٣٤) .

(٨) المدرج في حديث الرسول – صلى الله عليه وسلم – هو : أن يذكر الراوي عقيبه كلاماً لنفسه أو لغيره ، فيرويه بعده متصلاً بالحديث من غير فصـل ، فيـتوهم أنه من الحديث وليس كذلك ، انظر : ابن حجر : نزهة النظر شرح نخبة الفكر (ص/٤٦) ، والسيوطي : تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي (١/٢٦٨) .

(٩) ابن كثير : تفسير القرآن العظيم (٣/٥١٦) ، وابن حجر : الفتح (١١/٢١٨) .

(١٠) مستدرك الحاكم (١/١٧) ، وانظر : فتح الباري (١١/٢١٥) .

قال ابن حجر : " وليست العلة عند الشيخين تفرد الوليد بن مسلم فقط بل الاختلاف فيه ، والاضطراب وتدليسه ، واحتمال الادراج "[١] .

وهو ما رجحه أبو بكر بن العربي ، ورجحه أيضاً الحافظ ابن حجر في نهاية بحثه لهذه المسألة[٢] .

وإذا تـــرجح عدم صحة الحديث الذي استدل به السيوطي على تسمية الله بـــ " القديم " فإنه لا يجوز أن يسمى به جل وعلا ، كما هو مذهب أهل السنة والجماعة والذي قرره ابن تيمية وحكاه عن الإمام أحمد – رحمه الله[٣]– .

كمـــا أنه لا يجوز أن يشتق له سبحانه اسماء مما أخبر به عن نفسه من أفعال ، فلا يقال : إن من أسمائه تعالى : المفتي ، أخذاً من قوله تعالى : (ويستفتونك فيْ النساء قل الله يفتيكم فيهن)[٤] .

ولا يقال : الزارع ، أخذاً من قوله تعالى : (أفرأيتم ما تحرثون ، أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون)[٥] .

ولا يقال : الماكر ، أخذاً من قوله تعالى : (ويمكرون ويمكر الله ، والله خير الماكرين)[٦] .

ولا يقا : الفارش أو الماهد أخذاً من قوله تعالى : (والأرض فرشناها فنعم الماهدون)[٧] .

ولا يقال : الفالق ، أخذاً من قوله تعالى : (إن الله فالق الحب والنوى)[٨] ، وهكذا ، فلا يجوز لأحد أن يشتق من أفعاله الثابتة له اسماً ، بل لا يطلق عليه إلا ما ورد به نص الكتاب والسنة[٩] .

لكـــن يقـــال إن ما يُخبَر به عن الله تعالى بما يظن أنه اسم أو صفة هو ليس في الحقيقة اسماً أو صفة ، وإنما هو إخـــبار عن الله بما يليق به جل وعلا ، لا سيما في معرض الدفاع عن العقائد والرد على الخصوم ، كما وقع شئ من ذلك خـــلال كـــلام ابـــن تيميـــة في رده على نفاة الصفات ، قال : " وصفه تعالى بالصفات الفعلية – مثل الخالق ، والرازق ، والـــباعث ، والوارث ، والمحيي ، والمميت – قديم عند أصحابنا ، وعامة أهل السنة من المالكية والشافعية والصوفية ... حتى الحنفية ... "[١٠] .

وقـــال أيضاً : " ...فإنه قد ثبت بالأدلة العقلية والسمعية أن كل ما سوى الله تعالى مخلوق محدث كائن بعد أن لم يكن ، وأن الله انفرد بالقدم والأزلية "[١١] .

فهـــذا وقع من ابن تيمية على سبيل الاخبار لا على أنه اسم أو وصف لله تعالى ، وهو الإخبار عن صفاته الفعلية بأنهـــا قديمة ، وأن الله تفرد بالقدم والأزلية ، فإن ابن تيمية ليس ممن يطلق هذه الألفاظ على الله تعالى إلا من باب الإخبار

---

(١) فتح الباري (٢١٥/١١) .
(٢) انظر : السابق (٢١٧/١١) .
(٣) انظر : مجموع الفتاوى (٢٦/٥) .
(٤) سورة النساء الآية (١٢٧) .
(٥) سورة الواقعة الآيتان (٦٣-٦٤) .
(٦) سورة الأنفال الآية (٣٠) .
(٧) سورة الذاريات الآية (٤٨) .
(٨) سورة الأنعام الآية (٩٥) .
(٩) انظر : الصنعاني : سبل السلام (١٤٣/٣) .
(١٠) مجموع الفتاوى (٢٦٨/٦) .
(١١) نفسه (٢٣٠/٦) .

كما قد قدمت . فإن أهل السنة – وابن تيمية منهم – يحكمون الكتاب والسنة فيما أطلقته الفرق المخرفة من أسماء وصفات علــى الله ، فــلا يبادرون بقبوله ولا رده حتى يعلمون مراد قائله منه ، فإذا كان معنىً خطأً ردوه على صاحبه ، وإن كان حسناً قبلوه وأقروه وقالوا لقائله : مرادك صحيح ، ولكن لا تستعمل هذه الألفاظ المبتدعة الموهمة[١] .

" فإن قيل : ما قولكم في من قال لنا : هل الله شئ أو ليس بشئ ؟ وهل الله موجود أو معدوم ؟ ، وهل الله قديم أو محدث ؟ – وهل الله قائم بنفسه أو محتاج إلى غيره ؟؟ فهل يجوز أن نقول : إن الله شئ ، وموجود ، وقديم ، وقائم بنفسه ؟

فــإن قلــتم : نعم ، خالفتم قاعدتكم ، وإن قلتم : لا ، قلتم قولاً عظيماً . والجواب : أن قولنا بأن الله شئ ، وقديم ، وموجود ، وقائم بنفسه ، هو من باب الإخبار لا من باب الصفات ، فباب الإخبار يتوسع فيه ، أما باب الصفات فيقتصر فيه على ما ورد "[٢] .

قــال ابن القيم : " ما يطلق عليه في باب الأسماء والصفات توقيفي ، وما يطلق عليه من الأخبار لا يجب أن يكون توقيفاً ، كالقديم ، والشئ والموجود ، والقائم بنفسه "[٣] .

ولكن مع ذلك فالأفضل والأولى أن يُخْبَر عن الله تعالى بما ورد من الألفاظ الشرعية في الكتاب والسنة ، فنقول : الأول بدل القديم ، ونقول : القيوم بدل القائم بالنفس .

ونقول : الآخر بدل الأزلي والأبدي ، فالتعبير بما ورد أولى وأحرى[٤] .

المطلب الرابع : الإسم الأعظم

تعــرض السيوطي لبيان الإسم الأعظم ، وذكر أقوال العلماء فيه . قال الشوكاني : " وقد اختلف في تعيين الإسم الأعظــم عــلى نحو أربعين قولاً قد أفردها السيوطي بالتصنيف "[٥] وقال ابن حجر " وجملة ما وقفت عليه من ذلك أربعة عشــر قولاً "[٦] ولم يذكر السيوطي في تصنيفه الذي ذكره الشوكاني سوى عشرين قولاً فقط ، قال : " فقد سئلت عن الإسم الأعظم وما ورد فيه فأردت أن اتتبع ما ورد فيه من الأحاديث والآثار والأقوال فقلت في الإسم الأعظم أقوال... "[٧] .

ثــم سرد السيوطي بعد ذلك أقوال العلماء وآراءهم ، فبلغ بها العشرين . وقد عزا بعض الأقوال إلى أصحابها ولم يعز البعض الآخر غير أنه ذكر قولاً آخر في معترك الأقران زائداً على العشرين وسأبينها بشئ من التفصيل :

<u>القول الأول :</u> وهو قول ابن جرير الطبري حكى عنه ابن حجر أنه أنكر وجود الإسم الأعظم ، وذكر بأنه لا يجوز تفضيل بعــض الأســماء على بعض[٨] ، وذكر السيوطي عن أصحاب هذا القول أنه لا وجود له بمعنى أن اسماء الله تعالى كلها

---

(١) انظر : ابن تيمية : مجموع الفتاوى (٣٦/٦) ، (٤١/٣) ، وانظر كذلك : د.عمر سليمان الأشقر : اسماء الله وصفاته (ص/١٣٣) – دار النفائس ط٢-١٤١٤هـ-١٩٩٤م .

(٢) د.عمر سليمان الأشقر : اسماء الله وصفاته (ص/١٣٣)

(٣) بدائع الفوائد (١٦٢/١) . وانظر : السفاريني : لوامع الأنوار البيهية (١٢٥/١) .

(٤) انظر : د.عمر سليمان الأشقر : اسماء الله وصفاته (١٣٣) .

(٥) تحفة الذاكرين (ص/٥٢) . دار الكتب العلمية – بدون تاريخ ولا طبعة .

(٦) الحاوي للفتاوي (٣٩٤/١) . وهي رسالة بعنوان الدر المنظم في الإسم الأعظم (ضمن كتاب الحاوي كما أشرت) .

(٧) انظر : معترك الأقران (١١٠/٣) .

(٨) فتح الباري (٢٢٤/١١) .

عظيمـــة ، لا يجـــوز تفضيل بعضها على بعض[1] وحكاه عن ابن جرير الطبري ، وأبي الحسن الأشعري ، وأبي حاتم بن حـــبان[2] ، والقاضي أبي بكر الباقلاني[3] ، ونحوه عن الإمام مالك[4] . ولم يذكر السيوطي قول مالك ، بل ذكره ابن حجر فقـــال : " ونســـب ذلك بعضهم لمالك ، لكراهيته أن تعاد سورة أو تردد دون غيرها من السور لئلا يظن أن بعض القرآن أفضـــل مـــن بعض ، فيؤذن ذلك باعتقاد نقصان المفضول عن الأفضل ، وحملوا ما ورد من ذلك على أن المراد بالأعظم العظيم ، وأن أسماء الله كلها عظيمة "[5] .

وأورد الســـيوطي نـــص كلام ابن جرير فقال : " وعبارة الطبري : اختلفت الآثار في تعيين الإسم الأعظم والذي عـــندي أن الأقوال كلها صحيحة إذ لم يرد في خبر منها أنه الإسم الأعظم ولا شئ أعظم منه ، فكأنه تعالى يقول : كل إسم من أسمائي يجوز وصفه بكونه أعظم فيرجع إلى معنى عظيم "[6] .

ولا شـــك أن كلام الإمام الطبري حق في أن أسماء الله تعالى عظيمة كلها ، ولكن لا مانع أن يكون بعضها أعظم مـــن بعـــض ، ولا يقتضـــي ذلك نقصاً ولا عيباً ، قال ابن القيم : " أسماء الله وصفاته يفضل بعضها بعضاً ، ولا يقتضي تفاضـــلها نقصاً ، وتفسير بعضها ببعض لا يعني تماثلها من كل وجه ، بل له سبحانه من كل صفة معنى من معاني الكمال والجمـــال "[7] ويفضل بعضها بعضاً أي في المعنى والمدلول أما من حيث نسبتها إلى الباري جل وعلا فواحدة إذ كل منها يدل على الكمال والعظمة والجمال[8] .

كذلك لا يلزم من القول بتفاضلها ثبوت نقص في المفضول ، فإن من الأمور المسلمة شرعاً وعقلاً تفاضل الكمال في ذاته[9]

ولا يـــلزم كذلـــك أن يكـــون معنى الصفة والإسم هو معنى الصفة الأخرى والإسم الآخر من جميع وجوه الدلالة المعنوية واللفظية وإن كانتا متفقتين في الدلالة على ذات الرب جل وعلا[10] ، فكل صفة من صفاته الجليلة تدل على معنى

---

(١) انظر : الحاوي (٣٩٤/١) .

(٢) هـــو : محمـــد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن معبد التميمي ، أبو حاتم البستي ، مشهور بابن حبان ، مؤرخ علامة ، محدث ، ولد في بست من بلاد سجستان وتنقل في الأقطار ثم عاد إلى بلده حيث توفي بها (٣٥٤هـ-٩٦٥م) له تصانيف عديدة ، انظر : معجم البلدان (١٧١/٢) ، شـــذرات الذهب (١٦/٣) ، تذكرة الحفاظ (١٢٥/٣) ، ميزان الاعتدال (٣٩/٣) ، طبقات السبكي (١٤١/٢) ، لسان الميزان (١١٢/٥) ، الأعلام (٧٨/٦) .

(٣) محمـــد بـــن الطيـــب بن محمد بن جعفر ، الباقلاني ، أبو بكر ، قاض من كبار علماء الكلام انتهت إليه رياسة الأشعرية في عصره ، ولد في البصرة (٣٣٨هـ-٩٥٠م) وسكن بغداد فتوفي بها (٤٠٣هـ-١٠١٣م) وينتسب في الفروع إلى مذهب المالكية ، له مصنفات عديدة معظمها في علم الكلام والرد على الباطنية والملاحدة والمعطلة والخوارج والمعتزلة ، انظر : وفيات الأعيان (٤٨١/١) ، قضاة الأندلس (٣٧-٤٠) تاريخ بغداد (٣٧٩/٥) الوافي بالوفيات (١٧٧/٣) ، الديباج المذهب (٢٦٧) ، تبين كذب المفترى (٢١٧-٢٢٦) ، الأعلام (١٧٦/٦) .

(٤) مـــالك بن أنس بن مالك الأصبحي ، الحميري ، أبو عبدالله ، إمام دار الهجرة ، وأحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة ، وإليه تنسب المالكية مولده بالمدينة المنورة (٩٣هـ-٧١٢م) ووفاته بها (١٧٩هـ-٧٩٥م) له مناقب عظيمة ، ومؤلفات عديدة ، انظر : الديباج المذهب (ص/١٧-٣٠) ، والوفيات (٤٣٩/١) ، تهذيب التهذيب (٥/١٠) ، صفة الصفوة (٩٩/٢) ، حلية الأولياء (٣١٦/٦) ، والأعلام (٢٥٧/٥) .

(٥) فتح الباري (٢٢٤/١١) .

(٦) الحاوي (٣٩٤/١-٣٩٥) ، وانظر ابن حجر : فتح الباري (٢٢٤/١١) ، وانظر كلام ابن جرير : جامع البيان (٤٨١/١) .

(٧) بدائع الفوائد (١٦٧/١) .

(٨) انظر : د.إبراهيم بن محمد بن عبدالله البريكان : القواعد الكلية للأسماء والصفات عند السلف (ص/٢٥٩) . دار الهجرة ط١٤١٥/٢هـ-١٩٩٤م

(٩) نفس المصدر .

(١٠) نفس المصدر .

ثبوتي جمالي للرب سبحانه وتعالى زائد على مدلول الصفة الأخرى ، فلا مانع حينئذ من أن يصف الله تعالى بعض أسمائه بأنــه أعظم من البعض الآخر لتضمنه معنى زائداً أعظم من غيره ، من غير أن يؤدي هذا إلى اعتقاد نقص في المفضول - كما قدمت - ومن الأدلة على ذلك : ما ثبت عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : " لما قضى الله الخلق كتب عنده فوق عرشه : إن رحمتي سبقت غضبي "[1] وفي رواية : " ...تغلب غضبي... "[2] .

ووجه الدلالة من هذا الحديث : أن الرحمة والغضب صفتان من صفات الله - عز وجل - وقد فاضل بينهما بأن بين أن رحمته تسبق وتغلب غضبه ، إذ التعبير بالسبق والغلبة يدلان على أن السابق والغالب أفضل من المسبوق والمغلوب

٢- مـــا ثــبت أيضـــاً عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه كان يدعو فيقول : " اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك ، وبمعافـــاتك من عقوبتك... "[3] فإن الرضا والسخط صفتان من صفات الله وقد فاضل الرسول - صلى الله عليه وسلم - بيـــنهما ، بأن استعاذ بصفة الرضا من صفة السخط ، ولا شك أن المستعاذ به أفضل للمستعيذ من المستعاذ منه[4] ، وثبوت هذه الأفضلية لصفة الرضا ، لا تنفي دلالة الصفة المفضولة التي هي السخط على الكمال الإلهي ، فضلاً عن أن تدل على نقص في الموصوف - عز وجل - فصفة السخط هي نفسها صفة كمال لله - جل وعلا - فإنه تعالى يسخط على الكافرين والمشـــركين ، ويغضـــب من أعدائه وأعداء أوليائه من الأنبياء والمرسلين والمؤمنين التابعين لهم ، وهذا السخط في محله وموضـــعه صـــفة كمال له تعالى ، ويرضى تبارك وتعالى عن أنبيائه ورسله ، وأتباعهم المؤمنين الموحدين وهذا الرضا أيضاً في نفسه صفة كمال له سبحانه وتعالى ، وهو أفضل من السخط بلا شك ، ولا ريب أيضاً أن الكمال الذي وصف الله - عــز وجل - به نفسه ووصفه به رسوله - صلى الله عليه وسلم - غاية في الجمال والعظمة ، وهو مع ذلك يتفاوت من إسم إلى آخر ، ومن صفة إلى أخرى .

إن الـــناظرين فـــي معـــاني الأسماء والصفات يجد فيها من الدلالة من كل صفة له على جانب من جوانب كماله ســبحانه ، كمـــا يجد بعضها أرفع من بعض وأدل على الجمال والعظمة والكمال من البعض الآخر ، لذلك صحت البلاغة النبوية بالإخبار عن إسمه الأعظم[5] .

خلاصـــة ما تقدم أن إثبات الإسم الأعظم لا يدل على نقص غيره من الأسماء أو الصفات وترجح من ذلك ثبوت

---

(١) صحيح البخاري : انظر الأحاديث رقم (٣١٩٤) ، (٧٤٠٤) ، (٧٤١٢) ، (٧٤٢٢) ، (٧٤٥٣) ، (٧٥٥٣) ، (٧٥٥٤) .
، كتاب التوبة (٤٩) باب (٤) في سعة رحمة الله وأنها سبقت غضبه ح رقم (١٤) (٢٧٥١) انظر : صحيح مسلم (٢١٠٧/٤) وكذلك ح رقم (١٥،١٦) حـــ٢١٠٨/٤ . والـــترمذي : دعـــوات (٩٩) وابـــن ماجـــة - مقدمـــة (١٣) ، زهـــد (٣٥) ، وأحمـــد (٢٤٢،٢٥٨،٢٦٠،٣١٣/٢، ٣٥٨،٣٨١،٣٩٧،٤٣٣،٤٦٦) .

(٢) صـــحيح البخاري ، كتاب التوحيد (٩٧) باب (١٥) انظر فتح الباري (٣٨٤/١٣) ح رقم (٧٤٠٤) ونصه كما أثبته في الحاشية السابقة . وكذلك في كتاب بدء الخلق (٥٩) ح رقم (٣١٩٤) فتح (٢٧٧/٦) وفي صحيح مسلم (٢١٠٨/٤) كتاب التوبة (٤٩) باب (٤) في سعة رحمة الله تعالى ، وأنها سبقت غضبه ح رقم (١٤،١٦) .

(٣) رواه مســلم فـــي " صحيحه " (٣٥٢/١) كتاب الصلاة (٤) باب (٤٢) ح رقم (٢٢)-{٤٨٦}) ، ورواه أبو داود في " سننه " كتاب الصلاة ، باب في الدعاء في الركوع والسجود ، ح رقم (٨٦٥) ، انظر : عون المعبود (١٣٢/٣) ، وابن ماجة في " سننه " كتاب الدعاء ، باب ما يتعوذ منه النبي - صلى الله عليه وسلم - ح رقم (٣٨٤١) (ص/١٢٦٢-١٢٦٣) ، وغيرهم .

(٤) انظر : ابن تيمية : جواب أهل العلم والإيمان (ص/٨٧) وما بعدها .

(٥) انظر : د.إبراهيم بن محمد بن عبدالله البريكان : القواعد الكلية للأسماء والصفات عند السلف (ص/٢٦١) .

الإسم الأعظم دون أية محاذير ، خلافاً لمن أنكره ، أو أورد عليه شئ من المحاذير . ويبقى الخلاف فقط في تعيينه .

القول الثاني : أن الإسم الأعظم مما استأثر الله تعالى بعلمه ، ولم يطلع عليه أحداً من خلقه ، كما قيل بذلك في ليلة القدر ، وفي ساعة الإجابة من يوم الجمعة ، وفي الصلاة الوسطى[١] وهذا القول قريب جداً من القول الأول .

القول الثالث : أن ضمير الغائب المفرد (هو) هو الإسم الأعظم[٢] ، نقله الفخر الرازي عن بعض أهل الكشف[٣] ، واحتج له بأن من أراد أن يعبر عن كلام عظيم بحضرته لم يقل أنت قلت كذا ، وإنما يقول : (هــو) تأدباً معه[٤] .

هكــذا ذكــر السيوطي كلام الرازي عن بعض أهل الكشف هؤلاء ، ولم يعلق على ذلك بتصحيح أو تضعيف أو إبطال ، وكذلك ابن حجر في الفتح ولكني أقول إن هذا القول باطل من وجوه :

أولاً : أن لفظـــة (هــو) ضمير وليست إسماً ، وهو إجماع أهل اللغة قاطبة ، ولم يقل أحد منهم - فيما أعلم - أنها إسم لمخلوق ، فضلاً عن أن تكون إسماً للخالق جل وعلا .

ثانياً : أنه حتى ولو افترضنا جدلاً - أنه إسم ، فلا يجوز إطلاقه على الباري جل وعلا ، لعدم ورود ما يدل على ذلك في الكــتاب العزيــز ، أو السنة النبوية المطهرة الصحيحة ، إذ بان لنا آنفاً أن أسماءه تعالى توقيفية ، ونقلت إجماع علماء السنة على ذلك[٥] . وبناءً عليه لا يصح أن يعتبر (هو) إسماً من أسمائه تعالى فضلاً عن اعتباره الإسم الأعظم .

ثالــثاً : ادعــاء أن (هــو) إسم من أسمائه تعالى ، ذريعة سيئة لتعطيل أسماء الله تعالى وصفاته وإبطالها أو على الأقل هجرانها فنسيانها وعدم دعائه تعالى بها ، إذ قد رأينا وسمعنا كثيراً ممن ينتسب إلى التصوف عندما يدعو الله تعالى يقول : (يا هو) ، أو يذكرون الله عز وجل بقولهم : (هو .. هو .. هو) أو يقولون (هوَّ .. هوَّ .. هوَّ الله) بتشديد الواو ، (هوّ هــوّ هــوّ اللطيف - هوَّ هوَّ هوَّ الخبير... إلخ) ، وهم إنما يفعلون ذلك اعتقاداً منهم بأنه (أي الضمير : هو) هو الإسم الأعظم فيقدمونه على كل إسم من أسمائه تعالى ، فيتركون أسماء الله : العظيم ، الكبير ، المتعال ، القوي ، الملك ، القدوس ، الســلام ، المؤمــن ، المهيمــن ، العزيز ، الجبار ، المتكبر ، الخالق ، البارئ المصور ، الرحمن ، الرحيم وغيرها من

---

(١) انظر : السيوطي : الحاوي للفتاوي (٣٩٥/١) ، ابن حجر : فتح الباري (٢٢٤/١١) .

(٢) انظر : نفس المصدرين السابقين .

(٣) الكشف في اللغة : رفع الحجاب ، وفي الإصطلاح : هو الإطلاع على ما وراء الحجاب من المعاني الغيبية ، والأمور الحقيقية وجوداً أو شهوداً . انظر : الجرجاني : التعريفات (ص/١٨٤) ، وهذا الكشف مصطلح صوفي يدندن به المتصوفة ، ولا أدري كيف يكشف لهم الحجاب ويطلعون عن المعاني الغيبية والأمور الحقيقية ؟؟! إلا أن يكون كما قال بعضهم : حدثني سري عن ربي ، وهذا أوسع باب للإفتراء على الله تعالى بالكذب ، قال أبو الحسن الشاذلي : زعم بعض الناس أنه وصل إلى مقام المحبة لله ، وهو في درجة تُفنيه عن إتباع التكاليف الشرعية ، ويرد عليهم أبو الحســن الشــاذلي فيقــول : سمعت هاتفاً يقول : إن أردت كرامتي فعليك بطاعتي وبالإعراض عن معصيتي ، وتعبير أبي الحسن هذا بقوله : ســمعت هاتفــاً ، إن قصد به الله فلماذا يسميه هاتفاً ؟ وإن كان يقصد شيئاً آخر غير الله تعالى ، فطاعة غير الله فيما يناقض تعاليم الله لا تجوز فعلى المسلم الإعراض عن هذه الألفاظ والمصطلحات المبتدعة ، وأن يتقيد بالكتاب والسنة ، وقد يفسر كلام أبي الحسن الشاذلي بأنه يقصد اتباع ديــن الله الصـــحيح بطاعة الله وترك معصيته حتى ينال العبد كرامة الله له ، لكن نسبته للهاتف لا ينبغي ، وكان الأولى أن يرد عليهم بقول الله تعــالى : (قــل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم ، قل أطيعوا الله والرسول فإن تولوا فإن الله لا يحب الكافرين) آل عمران (٣١،٣٢).

انظر : د.حسن الشرقاوي : معجم ألفاظ الصوفية (ص/٢٤٢) ، د.عبدالحليم محمود : أبو الحسن الساذلي (ص/٨٩) أعلام العرب عدد (٢٢) .

(٤) الرازي : لوامع البينات (ص/١٠٢) .

(٥) نقلت عن المعتزلة أنهم جوزوا - مطلقاً - إطلاق أسماء على الله لم يرد بها الشرع ، انظر : المطلب الثاني من هذا المبحث .

الأسماء الحسنى ويذكرونه تعالى بهذا الضمير الذي يبعدهم عن الله ولا يقربهم منه تعالى .

القول الرابع : إن إسم الله الأعظم هو (الله)[1] . وهذا القول هو رأي ابن عباس ، وجابر بن زيد وأبي حنيفة ، وابن أبي حاتم[2] في تفسيره ، وعامر الشعبي[3] ، وجابر بن زيد وأبي ضيفة والطحاوي .

قال السيوطي : " لأنه اسم لم يطلق على غيره ، ولأنه الأصل في الأسماء الحسنى ، ومن ثم أضيفت إليه "[4] ولم يزد ابن حجر على ذلك شيئاً ، ولكن السيوطي أورد كلام ابن ابي حاتم بسنده فقال : " قال ابن ابي حاتم في تفسيره : حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح ، حدثنا إسماعيل بن عليه ، عن أبي رجاء ، حدثني رجل عن جابر بن عبدالله بن زيد أنه قال : إسم الله الأعظم هو " الله " ، ألم تسمع أنه يقول : (هو الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم)[5] "[6] وقـــال السيوطي أيضاً : " وقال ابن أبي الدنيا في كتاب الدعاء : حدثنا اسحاق بن إسماعيل عن سفيان بن عيينة عن مسعر قـــال : قال الشعبي : اسم الله الأعظم يا أنله "[7] هذا ولم يستدل ابن حجر لهذا القول بدليل ولعل السبب أنه لم يثبت لديه ما اســتدل بـــه الســـيوطي لهذا القول . لكنني رأيت السفاريني مال إلى ترجيحه حين قال : " ...وعند أكثر أهل العلم أنه لفظ الجلالة "[8] ورجحه صراحة العلامة المباركفوري[9] ، وكذلك الدكتور عمر سليمان الأشقر[10] وغيرهم[11] .

ولعل ترجيح هذا القول لأمور منها :

أولاً : أنه المأثورعن السلف كابن عباس ، وعامر الشعبي ، وجابر بن زيد ، وأبي حنيفة النعمان[12] ، والطحاوي[4] وغيرهم .

ثانياً : أن لفظ الجلالة (الله) هو المذكور في معظم الأحاديث التي وردت في بيان الإسم الأعظم ، قال الطحاوي : " فهذه

(١) انظر : الحاوي (٣٩٥/١) وفتح الباري (٢٢٤/١١) .

(٢) هو : عبدالرحمن بن محمد أبي حاتم ابن ادريس بن المنذر التميمي الحنظلي الرازي ، أبو محمد ، حافظ للحديث ، مفسر ، ولد (٢٤٠هـ-٨٥٤م) ، وتوفي (٣٢٧هـ-٩٣٨م) لـه مصنفات منها : الجرح والتعديل ، وتفسير القرآن العظيم ، والرد على الجهمية ، وغيرها انظر : تذكرة الحفاظ (٤٦/٣) ، فوات الوفيات (٢٦٠/١) ، طبقات الحنابلة (٥٥/٢) ، الأعلام (٣٢٤/٣) .

(٣) هو : عامر بن شراحيل بن عبد ذي كبار ، الشعبي ، الحميري ، أبو عمرو ، راوية من التابعين يضرب المثل بحفظه ، ولد بالكوفة (١٩هـ-٦٤٠م) ، ونشـأ ومات بها فجأة (١٠٣هـ-٧٢١م) ، نسبته إلى شعب وهو بطن من همدان ، انظر : تهذيب التهذيب (٦٥/٥) ، الوفيات (٢٤٤/١) ، حلية الأولياء (٣١٠/٤) ، تهذيب ابن عساكر (١٣٨/٧) ، تاريخ بغداد (٢٢٧/١٢) ، الأعلام (٢٥١/٣) .

(٤) الحاوي (٣٩٥/١) وانظر : فتح الباري (٢٢٤/١١) .

(٥) سورة الحشر الآية (٢٢) .

(٦) الحاوي (٣٩٥/١) ، وابن حجر : الفتح (٢٢٤/١١) .والأثر رواه ابن ابي شيبة في " مصنفه " (٢٧٣/١٠) ح رقم (٩٤١٥) ، (٣٢/١٤) ح رقم (١٧٤٦١) والدارمــي في الرد على المريس ضمن عقائد السلف (ص/٣٦٨) وعزاه السيوطي في الدر المنثور (٢٣/١) إلى البخاري في تاريخه وابن الضريس في فضائله .

(٧) الحـاوي (٣٩٥/١) ، وانظر : ابن حجر : فتح الباري (٢٢٤/١١) ، والأثر رواه ابن أبي شيبة في " مصنفه " (٢٧٣/١٠) ح رقم (٩٤١٦) و (٣٢/١٤) ح رقـم (١٧٤٦٢) ، والدارمي في " الرد على بشر المريسي العنيد " ضمن عقائد السلف (ص/٣٦٨) والسيوطي في " الدر المنثور " من طريق ابن أبي شيبة ، وعزاه أيضاً لإبن مردوية عن ابن عباس - رضي الله عنه - انظر (٢٣/١) .

(٨) لوامع الأنوار البهية (٣٥/١) .

(٩) انظر : تحفة الأحوذي (٤٤٦/٩) .

(١٠) انظر : أسماء الله وصفاته في معتقد أهل السنة (ص/٨٧) .

(١١) انظر : الشيخ عبدالله الغصن : أسماء الله الحسنى (ص/٩٦) .

(١٢) انظر : شرح مشكل الآثار (١٦١/١-١٦٢) .

الآثار قد رويت عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – متفقة في إسم الله الأعظم أنه (الله) جل وعز "[١] .

ثالثاً : أن هذا الإسم الشريف أصل في أسماء الله تعالى وسائر أسمائه تعالى ترجع إليه قال تعالى : (ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها...)[٢] فأضاف سائر الأسماء الشريفة إلى هذا الإسم العظيم ، والموصوف بلا ريب أشرف من الصفة ، ولأنه يقال : الرحمن الرحيم الملك القدوس كلها أسماء الله تعالى ، ولا يقال : الله إسم الرحمن الرحيم ، فدل على أن هذا الإسم هو الأصل[٣] .

قال الجرجاني : " الإسم الأعظم هو الإسم الجامع لجميع الأسماء ، وقيل : هو (الله) لأنه إسم الذات الموصوفة بجميع الصفات "[٤] .

رابعاً : أن هذا الإسم العظيم تكرر في كتاب الله تعالى عدداً يفوق كثيراً أي إسم آخر من الأسماء الحسنى ، فقد تكرر في كتاب الله (٢٦٠٢) مرة ، منها (٩٨٠) مرة مرفوعاً ، (٥٩٢) مرة منصوباً ، (١١٢٥) مرة مجروراً ، وخمس مرات بلفظ (اللهم) ، بينما تكررت الأسماء الأخرى بعدد أقل من ذلك بكثير[٥] .

إلى غير ذلك من الميزات والخصائص لهذا الإسم العظيم[٦] .

القول الخامس : أن الإسم الأعظم هو : (الله الرحمن الرحيم)[٧] .

ثم نقل السيوطي كلام ابن حجر في الفتح فقال : " قال ابن حجر في شرح البخاري : ولعل مستنده ما أخرجه ابن ماجة عن عائشة أنها سألت النبي – صلى الله عليه وسلم – أن يعلمها الإسم الأعظم فلم يفعل ، فصلَّت ودعت : اللهم إني أدعوك الله ، وأدعوك الرحمن ، وأدعوك الرحيم ، وأدعوك بأسمائك الحسنى كلها ما علمت منه ومالم أعلم ... الحديث ، وفيه أنه – صلى الله عليه وسلم – قال لها : " إنه لفي الأسماء التي دعوت بها "[٨] ، قال (يعني ابن حجر) : وسنده ضعيف ، وفي الإستدلال به نظر لا يخفى "[٩] .

وفي كلام ابن حجر إشارة إلى أن هذا الحديث لا يصح الاستدلال به من وجهين :

الأول : ضعف سنده .

الثاني : أن أم المؤمنين لم تقتصر في دعائها على أسماء (الله الرحمن الرحيم) فقط بل دعت بأسماء الله الحسنى كلها ، ولم تقتصر على الأسماء التي تعلمها كلها ، بل عمت وقالت : " ما علمت منه وما لم أعلم " فلو أنها اقتصرت في دعائها على

---

(١) شرح مشكل الآثار (١٦١/١) .
(٢) سورة الأعراف ، بعض الآية (١٨٠) .
(٣) الإمام الخطابي : شأن الدعاء (ص/٢٥) .
(٤) التعريفات (ص/٢٤) .
(٥) انظر : د.عمر سليمان الأشقر : أسماء الله وصفاته في معتقد أهل السنة والجماعة (ص/٨٩-٩٠) .
(٦) انظر : ابن القيم : مدارج السالكين (٣٢/١-٣٣) ، جلاء الأفهام (ص/١١٧) ، القرطبي : الجامع لأحكام القرآن (١٠٢/١) .
(٧) الحاوي (٣٩٥/١) ، وابن حجر : الفتح (٢٢٤/١١) .
(٨) رواه ابن ماجة في " سننه " كتاب الدعاء ، باب الإسم الأعظم (١٢٦٨/٢) ح رقم (٣٨٥٩) واسناده ضعيف – كما قال ابن حجر – قال البوصيري في " مصباح الزجاجة " المطبوع مع السنن . هذا إسناد فيه مقال ، وعبدالله بن عكيم وثقة الخطيب ، وعده جماعة من الصحابة ولا يصح له سماع ، وأبو شيبة لم أر من جرحه ، ولا من وثقه ، وباقي رجال الإسناد ثقات . ا.هـ وانظر ابن حجر : الفتح (٢٢٧/١١) .
(٩) الحاوي (٣٩٥/١) ، والفتح (٢٢٤/١١) .

(اسـم الله الرحمن الرحيم) وقال النبي – صلى الله عليه وسلم – لها إنه لفي هذه الأسماء لعلم يقيناً أنه فيها ، أما وأنها قد جمعت معه غيره من الأسماء فيحتمل أن يكون في هذه ، وفي غيرها ، والدليل إذا تطرق إليه الاحتمال سقط به الإستدلال

لكن السيوطي قوى هذا الرأي بدليل آخر لم يذكره ابن حجر ، فقال : " قلت (أي السيوطي) أقوى منه في الإستدلال مـا أخرجه الحاكم في المستدرك وصححه عن ابن عباس أن عثمان بن عفان – سال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – عـن بسم الله الرحمن الرحيم ، فقال : " هو إسم من أسماء الله تعالى وما بينه وبين إسم الله الأكبر إلا كما بين سواد العين وبياضـها من القرب "[١] ، وفي مسند الفردوس للديلمي ، من حديث ابن عباس مرفوعاً : (إسم الله الأعظم في ست آيات مـن آخر سورة الحشر) "[٢] وفي هذا الذي استدل به السيوطي أيضاً نظر ، لأنه لم يعين هذا الإسم بالتحديد ، ولكنه أقوى في الإستدلال كما قال السيوطي من جهة أنه أقرب إلى الإسم الأكبر من غيره كما في نص الحديث ، هو أقرب ولكنه ليس هـو ، ومـا فـي مسند الفردوس كذلك لم يعين الإسم ، ولكنه قال في ست آيات من آخر سورة الحشر ، وفي هذه الآيات المذكورة ثمانية عشر إسماً فكيف يتعين منها (الله الرحمن الرحيم) دون غيرها ؟ .

ويتضح من هذا أيضاً أن هذا ليس هو الإسم الأعظم وإن كان عظيماً كبقية أسمائه تعالى .

القول السادس : أنه (الرحمن الرحيم الحي القيوم)[٣] واستدل له السيوطي وابن حجر بقول النبي – صلى الله عليه وسلم – : " اسم الله الأعظم في هاتين الآيتين : (وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم)[٤] وفاتحة سورة آل عمران : (الله لا إله إلا هو الحي القيوم)[٥] "[٦] .

وأومأ ابن حجر إلى تضعيفه بقوله : " وحسنه الترمذي وفيه نظر لأنه من رواية شهر بن حوشب "[٧] ولأجل شهر بن حوشب فإن هذا الحديث لا ينهض للاحتجاج به ويظهر – تبعاً لذلك – ضعف هذا الرأي .

القـول السابع : أنه : (الحي القيوم)[٨] . واحتج له السيوطي بحديث أبي أمامة يرفعه : " الإسم الأعظم في ثلاث سور : البقرة ، وآل عمران ، وطه ، قال القاسم الراوي عن أبي أمامة : ألتمسته فيها فعرفت أنه : الحي القيوم "[٩] .

قـال السـيوطي : " وقواه الرازي واحتج بأنهما يدلان على صفات العظمة بالربوبية ما لا يدل على ذلك غيرهما

---

(١) الحاكم : السمتدرك (٥٠٥/١) .

(٢) الحاوي (٣٩٥/١) وانظر : مسند الفردوس .

(٣) انظر : الحاوي (٣٩٥/١) ، وفتح الباري (٢٢٤/١١) .

(٤) سورة البقرة الآية (١٦٣) .

(٥) سورة البقرة الآية (٢٥٥) وآل عمران الآية (٢) .

(٦) سنن أبي داود – كتاب الصلاة – باب الدعاء (٨٠/٢–ح١٤٩٦) . وجامع الترمذي – كتاب الدعوات ، باب جامع الدعوات عن النبي – صلى الله عـليه وسلم – (٤٨٣/٥–٣٤٧٨) وقال : حسن صحيح – ومسند الإمام أحمد (٤٦١/٦) . والحديث مداره على شهر ابن حوشب ، وفيه مقال . كما قال ابن حجر في الفتح (٢٢٤/١١) .

(٧) فتح الباري (٢٢٤/١١) .

(٨) الحاوي (٣٩٥/١) ، ابن حجر الفتح (٢٢٤/١١) .

(٩) رواه ابـن ماجـة فـي " سننه " كتاب الدعاء ، باب إسم الله الأعظم (١٢٦٧/٢) ح رقم (٣٨٥٥) ، ورواه الحاكم في " مستدركه " (٥٠٥/١) وقوله : " التمسـته فيهـا فعرفـتت أنه الحي القيوم " كلام مدرج في الحديث من كلام القاسم الراوي عن أبي أمامة – كما ذكر السيوطي – في الحاوي " وكذلك ابن حجر في فتح الباري (٢٢٨/١١) ، والحديث صحيح لطرقه ، انظر : النهج الأسمى (٦٥/١) .

كدلالتهما "[١] . وقد رجحه الإمام ابن القيم – رحمه الله – فقال :

إسم الإلـــه الأعظم اشتملا على إسم الحي والقـــيوم مـــقـــترنان

فالكل مرجعها إلى الإسمين يد ري ذاك ذو بصر بهذا الشان[٢]

أي أن مدار الأسماء والصفات والأفعال راجع إلى هذين الإسمين[٣] .

وقال في زاد المعاد : " ولهذا كان اسم الله الأعظم الذي إذا دعي به أجاب وإذا سئل به أعطى هم إسم الحي القيوم "[٤] وذكـــر عـــن شـــيخه الإمـــام ابـــن تيميـــة – رحمــــه الله – أنــــه كـــان يشـــير إلى أنهمـــا الإســـم الأعظم[٥] .

وقـــوى هـــذا القـــول شارح الطحاوية فقال : " ...وإليهما يرجع معانيها (أي معاني الأسماء الحسنى كلها) فإن الحيـــاة مســـتلزمة لجميع صفات الكمال فلا يتخلف عنها صفة منها ، إلا لضعف الحياة ، فإذا كانت حياته تعالى أكمل حياة وأتمهـــا اســـتلزم إثباتها إثبات كل كمال يضاد نفيه كمال الحياة ، وأما القيوم فهو متضمن كمال غناه ، وكمال قدرته ، فإنه القـــائم بنفســـه ، فـــلا يحتاج إلى غيره بوجه من الوجوه ، المقيم لغيره ، فلا قيام لغيره إلا بإقامته ، فانتظم هذان الإسمان صفات الكمال أتم انتظام "[٦] .

ويشهد لهذا الرأي ويقويه ما يلي :

أولاً : حديث أبي أمامة أن النبي – صلى الله عليه وسلم – قال : " إن اسم الله الأعظم لفي سور من القرآن ثلاث : البقرة ، وآل عمران ، وطـــــه "[٧] .

واستنبط العلماء من هذا الحديث أن الإسم الأعظم هو : (الحي القيوم) [٨]

ثانياً : حديـــث أنس – رضي الله عنه – أنه كان مع رسول الله – صلى الله عليه وسلم – جالساً ورجل يصلي ثم دعا : اللهم إني أسألك بأن لك الحمد ، لا إله إلا أنت ، المنان ، بديع السموات والأرض ، ياذا الجلال والإكرام ، يا حي ياقيوم ، فقال النبي – صلى الله عليه وسلم – : " لقد دعا الله بإسمه الأعظم الذي إذا دعى به أجاب ، وإذا سئل به أعطى "[٩] .

---

(١) الحاوي (٣٩٥/١) ، ابن حجر : الفتح (٢٢٤/١١) ، وكلام الرازي في لوامع البينات (ص/٩٥) نقلاً عن د.عبدالله بن عمر

(٢) أحمـــد بن إبراهيم بن عيسى : توضيح المقاصد وتصحيح القواعد في شرح قصيدة الإمام ابن القيم الموسومة بالكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية – (٢٥٩/١) ، ت.زهير الشاويش .

(٣) انظر : د.عبدالله بن عمر الدميجي : اسم الله الأعظم (ص/١٣٨) .

(٤) زاد المعاد في هدي خير العباد (٢٠٤/١) .

(٥) انظر : مدارج السالكين (٤٤٨/١) .

(٦) ابن أبي العز : شرح العقيدة الطحاوية (٩٢/١) .

(٧) سبق تخريجه قبل قليل ص ، والحديث كما سبق صحيح بمجموع طرقه انظر : النهج الأسمى (٦٥/١) .

(٨) انظر : شرح مشكل الآثار (١٦٣/١) .

(٩) الحديـــث روي مـــن عدة طرق يرتقي بها إلى الصحة ، وقد صححه الحاكم في " المستدرك " (٥٠٣/٣) فقال : صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبي ، وصححه العلامة الألباني في تخريجه على مشكاة المصابيح (٧٠٩/٢) وكذلك العلامة شعيب الأرناؤوط في تخريج صحيح ابن حبان (١٧٦/٣) ، ومشكل الآثار (١٦١/١) والشيخ محمد الحمود النجدي : النهج الأسمى في شرح أسماء الله الحسنى (٦٤/١) .

والإمام الشوكاني – رحمه الله – يجعل الإسم الأعظم (لا إله إلا هو الحي القيوم بزيادة (لا إله إلا هو)[١] ، كما أن ابن القيم – رحمه الله – يجعل التجربة للدعاء بهذا الإسم دليلاً على صحته مع ما تقدم من الأحاديث والآثار ، فيقول : " ومن تجريبات السالكين التي جربوها فألفوها صحيحة : أن من أدمن (يا حي يا قيوم لا إله إلا أنت) أورثه ذلك حياة القلب والعقل ، وكان شيخ الإسلام ابن تيمية – قدس الله روحه – شديد اللهج بها جداً ، وقال لي يوماً : لهذين الإسمين – وهما الحي القيوم – تأثير عظيم في حياة القلب "[٢] .

القول الثامن : أنه : (الحنان المنان بديع السموات والأرض ذو الجلال والإكرام الحي القيوم)[٣] .

قال ابن حجر : " ورد ذلك مجموعاً في حديث أنس عند أحمد[٤] ، والحاكم[٥] ، وأصله عند أبي داوود[٦] ، والنسائي[٧] ، وصححه ابن حبان[٨] "[٩] .

وأورد السيوطي نص الحديث عن أنس – رضي الله عنه – " أنه كان مع رسول الله – صلى الله عليه وسلم – جالساً ورجل يصلي ثم دعا : اللهم إني أسألك بأن لك الحمد لا إله إلا أنت الحنان المنان بديع السموات والأرض ياذا الجلال والإكرام ، يا حي يا قيوم ، فقال النبي – صلى الله عليه وسلم – : " لقد دعا الله بإسمه العظيم الذي إذا دُعي به أجاب ، وإذا سئل به أعطى "[١٠] ومال ابن القيم إلى تصحيحه في مدارج السالكين[١١] .

القول التاسع : أنه : (الله لا إله إلا هو ، الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد)[١٢] .

وهذا الذي رجحه السيوطي وابن حجر ، قال السيوطي : " وهو أرجح من حيث السند عن جميع ما ورد في ذلك " ومال إلى تصحيحه أيضاً ابن القيم في المدارج[١٣] .

القول العاشر : أنه : (بديع السموات والأرض ذو الجلال والإكرام)[١٤]. قال السيوطي : " أخرج أبو يعلي [١٥]عن رجل

---

(١) انظر : تحفة الذاكرين (ص/٧١) .
(٢) مدارج السالكين (٤٤٨/١) .
(٣) الحاوي (٣٩٦/١) ، الفتح (٢٢٤/١١) .
(٤) المسند (١٥٨،٢٤٥/٣) .
(٥) المستدرك (٥٠٤/١) .
(٦) سنن أبي داود الحديث رقم (١٤٩٥) .
(٧) سنن النسائي (٥٢/٣) .
(٨) صحيح ابن حبان (زوائد) ح رقم (٢٣٨٢) .
(٩) فتح الباري (٢٢٤/١١) .
(١٠) السيوطي : الحاوي (٣٩٦/١) والحديث سبق تخريجه قبل قليل وهو صحيح بمجموع طرقه .
(١١) انظر : (٢٣/١) ، والحديث صحيح كما سبق ص (٤٧١).
(١٢) الحاوي (٣٩٦/١) ، ابن حجر : الفتح (٢٢٥/١١) ،ورد في حديث إسناده صحيح – رواه أبو داود (١٤٩٣،١٤٩٤) والترمذي (٣٥٤٢) وقال : حسن غريب ، والحاكم (٥٠٤/١) وصححه ، وابن ماجة (٣٨٥٧) ، وابن أبي شيبة في مصنفه (٩٤٠٩،١٧٥٦) ، وابن حبان (٢٣٨٢) من طريق مالك بن مغول عن عبد الله بن بريدة الأسلمي عن أبيه ومن طريق أخرى عند أحمد (٣٣٨/٤) .
(١٣) انظر (٢٣/١)، والحديث صحيح ، انظر الصفحة السابقة (ص٤٧١) .
(١٤) الحاوي (٣٩٦/١) ، ابن حجر : الفتح (٢٢٤/١١) وهو قطعة من حديث عبدالله بن بريدة عن أبيه ، الذي سبق تخريجه ، وانظر ابن جرير : جامع البيان (١٦٣/١٩) .
(١٥) أحمد بن علي بن المثنى التميمي الموصلي ، حافظ من علماء الحديث (ت ٣٠٧هـ) انظر : دول الإسلام (١٤٦/١) .

من طئ – وأثني عليه خيراً – قال : كنت أسأل الله تعالى أن يريني الإسم الأعظم ، فرأيت مكتوباً في الكواكب في السماء : يا بديع السموات والأرض ياذا الجلال والإكرام[1] . وهذا أيضاً لا يعول عليه لأنه منام ، والمنام لا ينبنى عليه حكم ، كما أنه من رجل مجهول لا يعرف حاله ، إلا أنه أثني عليه خيراً .

القول الحادي عشر : أنه (ذو الجلال والإكرام)[2] واحتج السيوطي لهذا القول بحديث معاذ – رضي الله عنه – أن النبي – صلى الله عليه وسلم – سمع رجلاً يقول : ياذا الجلال والإكرام ، فقال : " قد استجيب لك فسل "[3] .

وقد أخرج ابن جرير الطبري في تفسيره عن مجاهد قال : " الإسم الذي إذا دُعي به أجاب : ياذا الجلال والإكرام" [4].

القول الثاني عشر : أن الإسم الأعظم هو : (رب رب)[5] ورد عن أبي الدرداء ، وابن عباس قالا : " إسم الله الأكبر رب رب "[6]

وعن عائشة مرفوعاً وموقوفاً : " إذا قال العبد يارب يارب ، قال الله تعالى : لبيك عبدي سل تُعط "[7] .

القول الثالث عشر : أنه : دعوة ذي النون في بطن الحوتت : (لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين)[8] .

فعن فضالة بن عبيد – يرفعه – : " دعوة ذي النون في بطن الحوت لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين ، لم يدع بها رجل مسلم قط إلا استجاب الله له "[9] .

قال السيوطي[10] : " وأخرج ابن جرير من حديث سعد مرفوعاً : " إسم الله الذي إذا دعُي به أجاب وإذا سئل به أعطى دعوة يونس بن متى "[11] .

قال[12] : " وأخرج الحاكم عن سعد بن أبي وقاص – مرفوعاً – " ألا أدلكم على إسم الله الأعظم : دعاء يونس ، فقال رجل هل كانت ليونس خاصة ؟ فقال : ألا تسمع قوله : (ونجيناه من الغم ، وكذلك ننجي المؤمنين) "[13] .

---

(١) أبـو يعلي في " مسنده " ، ورجاله ثقات ، انظر : الهيثمي : مجمع الزوائد (١٥٦/١٠) ، جلاء الأفهام (ص/١٤٦) ، فتح الباري (٢٢٨/١١) ، لوامع الأنوار البهية (٣٦/١) .

(٢) الحاوي (٣٩٦/١) ، فتح الباري (٢٢٤/١١) .

(٣) جزء من حديث رواه الترمذي في " سننه " كتاب الدعوات ح رقم (٣٥٢٧) (٥٤١/٥) وقال حديث حسن .

(٤) جامع البيان (١٦٣/١٩) .

(٥) الحاوي (٣٩٦/١) ، فتح الباري (٢٢٥/١١) .

(٦) رواه ابن أبي شيبة في " مصنفه " كتاب الدعاء (٢٧٣/١٠) ، باب اسم الله الأعظم ،ح رقم (٩٤١٤) ، وفي الرقائق (٣٢/١٤) ح رقم (١٧٤٥٩) وسنده صحيح ، أو حسن . ورواه الحاكم في " المستدرك " (٥٠٥/١) .

(٧) ذكره السيوطي في الحاوي (٣٩٦/١) والحديث اخرجه البزار (٣١٤٥) من طريق الحكم بن سعيد، حدثنا هشام عن ابيه ، عن عائشة–مرفوعاً ... " وإسناده ضعيف، آفته الحكم بن سعيد وهو الأموي ضعيف،وقدصرح بعلته الهيتمي في "المجمع" (١٥٩/١٠) وذكره البخاري في التاريخ(١/ ٢٤٣/٢) وقال : "منكر"٤٠١هــ وتبعه ابن عدي في الكامل (٦٢٥/٢)بقوله:"حديث منكر " .

(٨) الحاوي (٣٩٧/١) ، فتح الباري (٢٢٥/١١) ، وهي بعض الآية (٨٧) من سورة الأنبياء – عليهم السلام – .

(٩) أخرجه أحمد في " المسند " (١٧٠/١مطولاً) ، من حديث سعد بن أبي وقاص ، والترمذي في " سننه " (٥٢٩/٥) كتاب الدعوات ح رقم (٣٥٠٥) والحاكم في " المستدرك " (٥٠٥/١) وصححه ووافقه الذهبي ، والنسائي في عمل اليوم والليلة ح رقم (٦٥٦) .

(١٠) الحاوي (٣٩٧/١) .

(١١) لم أجده في جامع البيان .

(١٢) الحاوي (٣٩٧/١) .

(١٣) الحــاكم في " المستدرك " (٥٠٥/١) ، وصححه ، ووافقه الذهبي ، والنسائي في عمل اليوم والليلة مع رقم (٦٥٦) والترمذي في " سننه " (٥/ ٥٢٩) كـتاب الدعــوات ح (٣٥٠٥) ، وأحمد في " المسند " (١٧٠/١) ، وحسنه الإمام ابن حجر كما في الفتوحات الربانية (١١/٤) وصححه العلامة الألباني في صحيح الجامع (٨٠٢/٣) ح رقم (٣٣٧٨) وفي صحيح الكلم الطيب (ص/٧٤) ح (١٢٢) .

قال[1] : وأخرج إبن أبي حاتم عن كثير بن معبد قال : سألت الحسن عن إسم الله الأعظم فقال : أما تقرأ القرآن : قول ذي النون : (لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين) [2] " .

القول الرابع عشر : أنه (هو الله الله الذي لا إله إلا هو رب العرش العظيم)[3] .

نقلـه الفخر الرازي عن زين العابدين أنه سأل الله أن يعلمه الإسم الأعظم ، فرأى في النوم هذا الذي ذكرته (هو الله الله ... إلخ) وهذا يتوقف على موافقته للدليل الشرعي لأن مجرد المنام لا ينبني عليه حكم مثل هذا والدليل الشرعي يؤخذ من الكتاب والسنة وليس لزين العابدين ولا لغيره أن يعين مثل هذا لأنه لا يعلم إلا من قبل الوحي .

القول الخامس عشر : أنه مخفي في الأسماء الحسنى ، ويؤيده حديث عائشة – رضي الله عنها – المتقدم لما دعت ببعض الأسـماء وبالأسماء الحسنى ما علمت هي منها وما لم تعلم ، فقال لها النبي – صلى الله عليه وسلم – إنه لفي الأسماء التي دعوت بها[4] .

ومؤدى هذا القول التوقف عن التعيين فمن أراد أن يصيب الإسم الأعظم فليدع بجميع الأسماء الحسنى والصفات العليا كلها

القـول السادس عشر : أنه : كل إسم من أسمائه تعالى دعا العبد به مستغرقاً ، بحيث لا يكون في فكره حالتئذ غير الله ، فإن من دعا الله تعالى بهذه الحالة كان قريب الإجابة[5] . حكاه السيوطي عن أبي يزيد البسطامي[6] أنه سأله رجل عن الإسم الأعظم فقال : ليس له حد محدود، إنما هو فراغ قلبك لوحدانيته ، فإذا كنت كذلك فافزع إلى أي إسم شئت فإنك تسير به إلى المشرق والمغرب[7] .

كما نقل السيوطي نحواً من هذا عن أبي سليمان الداراني[8] ، قال : سألت بعض المشايخ عن إسم الله الأعظم قال : تعرف قلبك ؟؟ قال : قلت : نعم ، قال : فإذا رأيته قد أقبل ورق فسل الله حاجتك ، فذاك إسم الله الأعظم[9] .

وهـذا القـول مآله إلى القول الأول بمعنى أنه لا وجود للإسم الأعظم ، ولكنها حالة من الشفافية والإخلاص وجمعية

---

(١) الحاوي (١/٣٩٧) .

(٢) سورة الأنبياء الآية(٨٧)، والحديث اخرجه أبي حاتم في تفسيره (٨/٢٤٦٥) ، (١١٣٧١٤) قال : " ثنا أبي ثنا أحمد بن أبي سريج ، ثنا داود بن المحبر بن قحذم المقدسي عن كثير بن معبد ، قال : سألني الحسن ... " إسناده ضعيف جداً ، علته داود بن المحبر قال الذهبي في الميزان : (٢/٢٠) قـال أحمد : " لا يدري ما الحديث " قال ابن المديني : " ذهب حديثه " وقال أبو زرعة وغيره : " ضعيف " وقال أبو حاتم : " ذاهب الحديـث ، غيـر ثقـة " - وقال الدارقطني : " متروك " وفيه أيضاً كثير بن معبد وهو القيسي ، لا يكاد يعرف ، ضعفه الأزدي ، الذهبي : الميزان (٣/٤١٠) وانظر لسان الميزان لابن حجر ، ترجمة رقم (٦٨٢٠) .

(٣) الحاوي (١/٣٩٧) ، والفتح (١١/٢٢٥) .

(٤) الحاوي (١/٣٩٧) وفتح الباري (١١/٢٢٥) .

(٥) الحاوي (١/٣٩٧) .

(٦) طيفـور بـن عيسى البسطامي ، أبو يزيد ، زاهد مشهور ، نسبته إلى بسطام بلدة بين خراسان والعراق أصله منها ولد سنة (١٨٨هـ–٨٠٤م) ووفاتـه بهـا (٢٦١هـ–٨٧٥م) ، طبقات الصوفية (٦٧-٧٤) وفيات الأعيان (١/٢٤٠) ، ميزان الاعتدال (١/٤٨٠) حلية الأولياء (١٠/٣٣) الشعراني (١/٦٥) الاعلام (٣/٢٣٥) .

(٧) الحاوي (١/٣٩٧) ، وانظر : حلية الأولياء (١٠/٣٣) .

(٨) عبدالرحمن بن أحمد بن عطية العنسى ، المذحجى ، أبو سليمان ، زاهد مشهور من أهل داريا بغوطة دمشق توفي بها (٢١٥هـ–٨٣٠م) كان مـن كبار المتصوفين ، انظر : طبقات الصوفية (ص٧٥-٨٢) ، وفيات الأعيان (١/٢٧٦) ، حلية الأولياء (٩/٢٥٤) ، تاريخ بغداد (١٠/٢٤٨) الإعلام (٣/٢٩٣) .

(٩) أبو نعم : الحلية (٩/٢٥٦) .

القلب على الله والالتجاء إليه فعند هذه الحالة يكون الإسم الأعظم .

ولكـــن يرد على هذا أن الله تعالى يجيب المضطر إذا دعاه كما ورد في الكتاب العزيز[١] ، والمضطر يشمل من كـــانت حالته ما ذكر ، ويشمل غيره ، ويرد عليه كذلك ان من شروط استجابة الدعاء وليس هوبعينه اسم الله الأعظم ، مما يبين معه ضعف هذا القول .

القـــول السابع عشر : أن الإسم الأعظم هو (اللهم)[٢] نقله السيوطي عن الزركشي[٣] الذي حكاه في شرح جمع الجوامع واســـتدل لذلك بدليل عقلي لا شرعي قال : إن " الله دال على الذات ، والميم دالة على الصفات التسعة والتسعين ... ولهذا قال الحسن البصري : (اللهم) مجمع الدعاء ، وقال النضر ابن شميل : من قال : اللهم ، فقد دعا الله بجميع أسمائه "[٤] .

وهذا الكلام أيضاً يعوزه الدليل الشرعي .

القول الثامن عشر : أنه (مالك الملك) عن ابن عباس – رضي الله عنهما – قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : " إســـم الله الأعظـــم الـــذي إذا دعى بــــه أجاب في هذه الآية من آل عمران : (قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء[٥]...) إلى قوله تعالى : (...وترزق من تشاء بغير حساب) "[٦] وحكم السيوطي على ضعف سند هذا الحديث وكفانا المؤونة[٧] .

القـــول التاســـع عشر : أنه في ست آيات من أول سورة الحديد . قال السيوطي في تفسير قوله تعالى : (فسبح بإسم ربك العظيم)[٨] :

" يحـــتمل أن يكـــون المعنى سبح الله بذكر أسمائه ، والإسم هنا جنس الأسماء ، والعظيم صفة للرب ، أو يكون الإسم هنا واحـــداً ، والعظيـــم صفة له ، وكأنه أمر أن يسبح بإسمه الأعظم ويؤيد هذا ويشير إليه إتصال سورة الحديد بها وفي أولها التسبيح وجعله من صفات الله وأسمائه .

قال ابن عباس : إسم الله الأعظم موجود في ست آيات من أول سورة الحديد ، وروى أن الدعاء بعد قراءتها مستجاب "[٩]

وروى السيوطي في الدر المنثور عن علي بن أبي طالب قال : إذا أردت أن تدعو الله بإسمه الأعظم ، فاقرأ من أول ســـورة الحديد إلى آخر ست آيات منها ، وآخر سورة الحشر يعني أربع آيات ، ثم ارفع يديك فقل : يا من هو هكذا ، اسألك بحق هذه الأسماء أن تصلي على محمد ، وأن تفعل بي كذا وكذا مما تريد ، فوالله الذي لا إله غيره ، لتنقلبن بحاجتك

(١) قال تعالى : (أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض أإله مع الله قليلاً ما تذكرون) النمل الآية (٦٢) .
(٢) الحاوي (٣٩٧/١) .
(٣) نفسه .
(٤) نفسه .
(٥) سورة آل عمران ، الآية (٢٦) .
(٦) الطبراني في الكبير .
(٧) الحاوي (٣٩٦/١) .
(٨) سورة الواقعة الآية (٩٦) .
(٩) معترك الأقران (١١٠/٣) .

إن شاء الله[١] .

خلاصة هذا البحث :

أولاً : ثبوت الإسم الأعظم من أسماء الله جل وعلا حقيقة لا جدال فيها ، يدل عليها ما صح من الأحاديث النبوية .

ثانيـــاً : كـــلام العلماء بشأن الإسم الأعظم وحديثهم عنه ، واختلافهم في تعيينه مما يدل دلالة واضحة وقاطعة على ثبوت الإسم الأعظم خلافاً لمن أنكره .

ثالـــثاً : أرجح الأقوال السابقة في تعيين الإسم الأعظم هو ما ورد من حديث عبدالله بن بريدة ، عن النبي – صلى الله عليه وســـلم – أنه سمع رجلاً يدعو ويقول : اللهم إني أسألك بأني أشهد أنك الله الذي لا إله إلا أنت الأحد الصمد ، الذي لم يلد ولـــم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد ، فقال : والذي نفسي بيده لقد سأل الله بإسمه الأعظم الذي إذا دعي به أجاب ، وإذا سئل به أعطى "[٢] قال الترمذي هذا حديث صحيح .

وكذلـــك ما ورد من حديث أنس – رضي الله عنه – أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – سمع رجلاً يدعو : الـــلهم إنـــي أسألك بأن لك الحمد ، لا إله إلا أنت ، المنان ، بديع السموات والأرض ، ذا الجلال والإكرام ، ياحي ياقيوم ، فقال : لقد سأل الله بإسمه الأعظم "[٣] .

وممن رجح هذا الذي ذكرت :

- ابن حجر في فتح الباري[٤] .
- ابن القيم في مدارج السالكين[٥] .
- السيوطي في الحاوي[٦] .
- الشوكاني في تحفة الذاكرين[٧] .

وبقية الأقوال إما ضعيف ، وإما أنه لا دليل عليه .

المطلب الخامس : الصفات الذاتية

تقسيم : يقسم أهل السنة صفات الله تعالى إلى قسمين : صفات ذاتية ، وصفات فعلية[٨] .

١- **فالصـــفات الذاتية :** هي الصفات المتعلقة بذاته المقدسة التي لم يزل ولا يزال متصفاً بها ، وهي لا تنفك عنه سبحانه ، بل هي لازمة لذاته أزلاً وأبداً وهي قسمان :

---

(١) الدر المنثور مجلد (٨) (حـــ٤٨/٢٧) ، وقال السيوطي : أخرجه ابن النجار في تاريخ بغداد بسند ضعيف .

(٢) سبق تخريجه في القول التاسع .

(٣) سبق تخريجه في القول الثامن .

(٤) انظر : (٢٢٥/١١) .

(٥) انظر : (٢٣/١) بتحقيق محمد حامد الفقي .

(٦) انظر : (٣٩٦/١) .

(٧) انظر : (ص/٥٢) .

(٨) انظـــر : العلامة محمد بن أحمد السفاريني الحنبلي : لوامع الأنوار البهية (١١٢/١) الحاشية من تعليق العلامة الشيخ عبدالله ابن عبدالرحمن بن عبدالعزيز أبا بطين .

كصـفة الحيـاة ، والعلم والقدرة ، والإرادة ، والقوة ، والعزة ، والملك والعظمة والكبرياء ، والمجد ، والجلال ، والسمع والبصر و الوجه ، واليدين والعين ونحوها .

وأمـا الصـفات الفعلية : فهي الصفات التي تتعلق بمشيئته وقدرته ، إن شاء فعلها وإن شاء لم يفعلها كالخلق ، والرزق ، والإعطـاء ، والمـنع ، والإحيـاء ، والإماتة ،والرحمة ، وأنواع التدبير المختلفة .وكذلك الاستواء على العرش وخبرية : كالإستواء على العرش ، والمجئ والإتيان ، والنزول إلى السماء الدنيا ، والرضى والغضب ، والمحبة ونحوها[1]...

وقد تكون الصفة ذاتية فعلية بإعتبارين : كصفة الكلام : فإنه بإعتبار أصل الصفة صفة ذاتية ، لأنه تعالى لم يزل ولا يـزال متكـلماً ، وباعتبار آحاد الكلام صفة فعلية ، لأن الكلام متعلق بمشيئته - عز وجل - يتكلم متى شاء بما شاء كيف شاء[2] - سبحانه وتعالى - قال تعالى : (إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون)[3] .

١- صفة الحياة :

أثبت السيوطي صفة الحياة لله جل وعلا ، وهي من الصفات السمعية العقلية - كما قدمت - .

- أمـا العقل فإنه يثبت - ضرورة وإستدلالاً - أن الله تعالى متصف بالحياة ، إذ لو لم يتصف بالحياة ، لا تصف بضدها وهـو الموت والفناء - تعالى الله - وهو محال ، بدليل ظهور الأفعال منه سبحانه ، واستحالة ظهورها ممن يجهلها ويعجز عـنها ، فهـو عالم وقادر ، ويستحيل قيام العلم والقدرة بغير الحي[4] . ولأن الحياة من صفات الكمال ، بل هي مستلزمة لجميع صفات الكمال ، وكل كمال لا نقص فيه ثبت لمخلوق وأمكن أن يتصف به الخالق فهو أولى به[5] .

- وأمـا السمع : فقد ورد في القرآن الكريم وصف الله تعالى بأنه حي في كثير من الآيات قال تعالى : (الله لا إله إلا هو الحي القيوم)[6] وقال تعالى : (وتوكل على الحي الذي لا يموت...)[7] وقال : (وعنت الوجوه للحي القيوم)[8] وقال : (

---

(١) انظر : د.محمد خليل هراس : شرح العقيدة الواسطية (١٥٩-١٦٠) .
والشيخ محمد بن صالح العثيمين : شرح لمعة الاعتقاد (ص١١-١٢) .
وعبدالعزيز المحمد السلمان : الكواشف الجلية عن معاني الواسطية (ص٤٢٩-٤٣٠) .

(٢) انظر في جميع تقسيم ما تقدم :
- الأسماء والصفات : للبيهقي (ص/١٣٧-١٣٨) ، والفتاوى السعدية : للشيخ عبدالرحمن بن ناصر السعدي (ص/٨) ، والتنبيهات السنية على العقيدة الواسطية : لعبدالعزيز ابن ناصر الرشيد (ص١٩-٢٠) .
والتنبيهات اللطيفة على ما احتوت عليه العقيدة الواسطية من المباحث المنيفة : للشيخ عبدالرحمن بن ناصر السعدي (ص/٤٠-٤١) .
وشرح العقيدة الواسطية : د.محمد خليل هراس (ص/١٥٩-١٦٠) ، والإمام الخطابي ومنهجه في العقيدة : بقلم أبي عبدالرحمن الحسن بن عبدالرحمن العلوي (ص١٤٧) والكواشف الجلية : عبدالعزيز المحمد السلمان (ص/٤٢٩-٤٣٠) ، وشرح لمعة الإعتقاد : محمد بن صالح العثيمين (ص١١-١٢) ومنهج الإمام الشوكاني في العقيدة : د.عبدالله نوموك (١/٤٠٠) .

(٣) سورة يس الآية (٨٢) .

(٤) انظـر : عضـد الديـن عـبدالرحمن بن أحمد الإيجي : المواقف في علم الكلام (ص٢٩٠) ، وحاشية الدسوقي على أم البراهين : الشيخ محمد الدسوقي (١٠٨) .

(٥) انظر : محمد خليل هراس : شرح العقيدة الواسطية (٢٣-٢٤) وانظر كذلك : ابن تيمية : مجموع الفتاوى (٩/١٤١) .

(٦) سورة البقرة الآية (٢٥٥) وسورة آل عمران الآية (٢) .

(٧) سورة الفرقان الآية (٥٨) .

(٨) سورة طه الآية (١١١) .

هو الحي لا إله إلا هو)[١] .

وقد ذكر السيوطي أن من صفات الله تعالى الحياة ، قال : " وهي صفة تقتضي صحة العلم لموصوفها "[٢] بمعنى أنها تصح لمن قامت به أن يتصف بالإدراك الذي هو العلم[٣] ، فمن اتصف بالحياة لا يستحيل اتصافه بالإدراك فما دام حياً فإنه يصح وصفه بالعلم والقدرة ، ومن كان عالماً قادراً يجب أن يكون حياً .

قال الشيخ محمد بن صالح العثيمين : " فالحي ذو الحياة الكاملة المتضمنة لأكمل الصفات التي لم تسبق بعدم ولا يلحقها زوال "[٤] .

وقال السيوطي : " الحي ... الذي له حياة "[٥] وقال في موضع آخر : " الحي : الدائم بالبقاء "[٦] ويشهد لهذا التفسير قوله تعالى : (وتوكل على الحي الذي لايموت...)[٧] فهو تعالى دائم بالبقاء لا يموت عز وجل [٨].

فالله – عز وجل – حي لم يزل موجوداً ، وبالحياة موصوفاً ، وسائر الأحياء يعترضهم الموت والعدم ، والحياة صفة ذاتية حقيقية قائمة بذاته تعالى[٩] ، جامعة لسائر الصفات متقدمة الرتبة عليها ، فلا يتقدمها إلا الوجود[١٠] .

٢- صفة البقاء :

وهي استمرار الوجود فيما لا يزال[١١] ، وقيل هي نفي العدم اللاحق بعد الوجود ، والبقاء صفة واجبة له تعالى ، كما وجب له القدم ، لأن ما ثبت قدمه استحال عدمه[١٢] .

فإنه سبحانه لو قدر لحوق العدم له ، لكانت نسبة الوجود والعدم إلى ذاته تعالى سواء ، فيلزم افتقار وجوده إلى موجد يخترعه بدلاً عن العدم الجائز عليه – تقدس وتعالى عن ذلك – فيكون حادثاً ، واللازم باطل ، فكذا الملزوم لأن وجوده تعالى واجب لذاته[١٣] .

ولذلك أثبت السيوطي لله تعالى – فيما سبق – صفة الحياة ، وفسر الحي بأنه الدائم بالبقاء ، فإذا كانت قد ثبتت له تعالى صفة الحياة الكاملة التي لا يلحقها زوال ، ثبت له تعالى البقاء بطريق اللزوم .

فالحياة الكاملة اللائقة بكماله – جل وعلا – تستلزم جميع صفات الكمال .

---

(١) سورة غافر الآية (٦٥) .
(٢) علم التوحيد لوحة (ص٣) ، الكوكب الساطع – مخطوط لوحة رقم (١٦٣/أ) .
(٣) انظر : الشيخ محمد الدسوقي : حاشية الدسوقي على أم البراهين (ص/١٠٨) .
(٤) تعليقات على العقيدة الواسطية (ص١٣) .
(٥) الكنز المدفون والفلك المشحون (ص٩٤) .
(٦) تفسير الجلالين (ص٤٩) .
(٧) سورة الفرقان الآية (٥٨) .
(٨) انظر : الدر المنثور في التفسير بالمأثور (١٥/٣) وبمثل هذا التفسير اورده السيوطي عن الربيع وقتادة .
(٩) انظر : السفاريني : لوامع الأنوار البهية (٤١/١) .
(١٠) انظر : نفس المصدر (١٣٢/١) .
(١١) انظر : السيوطي : الكوكب الساطع – مخطوط لوحة رقم (١٦٣-ب) .
(١٢) انظر : السفاريني : لوامع الأنوار البهية (٣٩/١) .
(١٣) انظر : نفس المصدر .

والبقاء الذي لا يلحقه عدم ، صفة من صفات الكمال تستلزمها صفة الحياة .

يقول ابن أبي العز : " فالحي بحياة باقية لا يشبه الحي بحياة زائلة ... فإن الحياة مستلزمة لجميع صفات الكمال ، فـلا يتخلف عنها صفة منها إلا لضعف الحياة ، فإذا كانت حياته تعالى أكمل حياة وأتمها - استلزم إثباتها إثبات كل كمال يضاد نفيه كمال الحياة "[١] .قال تعالى (ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام)[٢] .

وقـال : (هو الأول والآخر)[٣] قال السيوطي في معنى الآخر : " الذي لا انتها ء لوجوده "[٤] وقال أيضاً : " بقـاؤه تعالى غير مستفتح ولا متناه ، أي لا أول له ، ولا آخر ، فهو والقدم راجعان إلى استمرار الوجود في الماضي إلى غيـر غايـة ، وفي المستقبل إلى غير نهاية "[٥] . وقال في معنى الباقي : " الذي دام وجوده وفي معناه الوارث "[٦] . قال مؤلف الطحاوية : " قديم بلا ابتداء ، دائم بلا انتهاء "[٧] .

وقال الشارح : " قوله : لا يفنى ولا يبيد ، إقرار بدوام بقائه سبحانه وتعالى ... ومؤكد لقوله دائم بلا انتهاء "[٨] .

قال - صلى الله عليه وسلم - : " اللهم أنت الأول فليس قبلك شئ ، وأنت الآخر فليس بعدك شئ... "[٩] .

قال ابن أبي العز : " والعلم بثبوت هذين الوصفين مستقر في الفطر "[١٠] .

٣- صفة القدرة :

القدرة صفة أزلية ، تؤثر في المقدورات بإيجادها عند تعلقها بها على طبق العلم والإرادة[١١] .

وفـي اثـباتها يقول السيوطي في معنى إسم الله " القادر " الذي له القدرة ، وفي معناه المقتدر ... والقوي المتين بمعنى القادر "[١٢] .

ويقول أيضاً في معنى إسم الله تعالى " المقتدر" : " من أسماء الله ، ومعناه : من له القدرة والقوة والعظمة والكبرياء ، وإنمـا يوصف بذلك تعظيماً ، فكل مقدور معلوم ، وليس كل معلوم مقدوراً ، لأن المحالات كلها معلومة للقديم سبحانه ، وليست بمقدورة له "[١٣] .

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية (ص١٢٥،١٢٤) .
(٢) سورة الرحمن رقم الآية (٢٧) .
(٣) سورة الحديد رقم الآية (٣) .
(٤) الكنز المدفون (ص/٩٥) .
(٥) الكوكب الساطع شرح نظم جمع الجوامع - مخطوط - لوحة رقم (١٦٣/أ) .
(٦) الكنز المدفون (ص/٩٥) .
(٧) شرح العقيدة الطحاوية (ص/١١٣) .
(٨) شرح العقيدة الطحاوية (ص/١١٥) .
(٩) صحيح مسلم .
(١٠) شرح العقيدة الطحاوية (ص/١١٣) .
(١١) انظر : العلامة السفاريني : لوامع الأنوار البهية (١/١٥٠،١٤١) ، وانظر كذلك الايجي : المواقف (١٥٠) .
(١٢) الكنز المدفون (ص٩٤) .
(١٣) معترك الأقران في إعجاز القرآن (٤٩٤/٢) ضبطه وصححه وكتب فهارسه أحمد شمس الدين (ط١٤٠٨/١هـ-١٩٨٨م) دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان .

فالله تعالى هو القادر المقتدر ذو القدرة التامة الشاملة[١] .

وللقادر في لسان اللغة معنيان :

الأول : أن يكون بمعنى القدير ، من القدرة ، على كل شئ ...

الثاني : أن يكون القادر بمعنى المُقدِّر ، يقال : قَدَرَ ، وقَدَّر (بالتخفيف والتشديد) معنى واحد قال تعالى : (فقدرنا فنعم القادرون)[٢] ، أي نعم المقدّرون[٣] .

والدليل على قدرته تعالى إيجاد الأشياء وخلق هذا العالم الضخم الهائل علوية وسفلية بأجرامه وأفلاكه ، ويستحيل في الفطرة السليمة أن يكون خالق هذا العالم عاجزاً .

ومن المعلوم أن القدرة صفة كمال ، فإذا كان المخلوق قوياً قادراً على ما يفعله ، فالخالق تعالى أولى أن يكون قادراً قوياً على ما يفعله ، ومن المستقر في الفطر أنه إذا فرض الفاعل غير قادر على الفعل امتنع كونه فاعلاً[٤] .

فكل آيات الله الظاهرة والمعنوية ، وجميع مخلوقاته العلوية والسفلية تدل على كمال قدرته الشاملة ، التي لا يخرج عنها مثقال ذرة كما أنه لا يعزب عن علمه مثقال ذرة ، وعبارة العبد تقصر عن ذلك المعنى العظيم ، وكفى العبد دليلاً أن ينظر في خلق نفسه كيف قدره أحكم الحاكمين ، وخلقه في أحسن تقويم ، وشق له السمع فسمع ، والبصر فأبصر ، واللسان فنطق ، والفؤاد فعقل إلى غير ذلك فكيف إذا سرح قلبه في عجائب الملكوت ، ونظر بعين بصيرته إلى مبدعات الحي الذي لا يموت ، ورأى الآيات الباهرة ، والبراهين الظاهرة على كمال قدرة ذي العزة والجبروت .

فالله تعالى القدير الذي له مطلق القدرة ، وكمالها وتمامها ، ما كان ليعجزه من شئ في الأرض ولا في السماء ، الذي ما خَلْقُ الخلق ولا بعثهم في كمال قدرته إلا كنفس واحدة الذي إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ، الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه ، الذي يمسك السموات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده ، ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه ، الذي وسع كرسيه السموات والأرض ولا يؤده حفظهما أي لا يكرثه ولا يثقله ، الفعال لما يشاء إذا شاء كيف شاء في أي وقت شاء .

قال تعالى في إثبات قدرته جل وعلا : (إن يشأ يذهبكم أيها الناس ويأت بآخرين وكان الله على ذلك قديراً)[٥] .

وقال : (ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحي الموتى وأنه على كل شئ قدير)[٦] .

وقال : (أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم وكانوا أشد منهم قوة وما كان الله ليعجزه من شئ في السموات ولا في الأرض إنه كان عليماً قديراً)[٧] .

---

(١) انظر : السفاريني : لوامع الأنوار البهية (٤١/١) ، والشيخ محمد بن صالح العثيمين : تعليقات على العقيدة الواسطية (ص١٦) .
(٢) سورة المرسلات الآية (٢٣) .
(٣) انظر : السفاريني : لوامع الأنوار (٤١/١) ، والإمام أبو سليمان الخطابي : شأن الدعاء (ص٨٦) ت أحمد الدقاق ، والإمام أبو عبدالله القرطبي : الجامع لأحكام القرآن (١٥/١١) .
(٤) انظر : لوامع الأنوار (١٥٠/١) .
(٥) سورة النساء الآية (١٣٣) .
(٦) سورة الحج الآية (٦) .
(٧) سورة فاطر الآية (٤٤) .

وقـــال : (أو لم يروا أن الله الذي خلق السموات والأرض ولم يعي بخلقهن بقادر على أن يحي الموتى ، بلى إنه على كل شئ قدير)[١] .

والآيات في هذا الباب كثيرة جداً يطول ذكرها . وأما الأحاديث النبوية فمنها :

قول الرسول – صلى الله عليه وسلم – في حديث الاستخارة : " اللهم إني استخيرك بعلمك ، واستقدرك بقدرتك ، وأسألك من فضلك العظيم ، فإنك تقدر ولا أقدر وتعلم ولا أعلم ... " الحديث[٢] .

وقـــد أجمعت الأمة على الإيمان والإقرار بقدرة الله جل وعلا ، حكى ذلك ابن حزم في الدرة [٣]، و الجويني في العقيدة النظامية[٤] .

يقول الشيخ محمد بن صالح العثيمين : " القدرة هي التمكن من الفعل بلا عجز ، وقدرة الله شاملة كل شئ "[٥] .

ولمثل هذا ذهب السيوطي حيث قال : " قدرته تعالى شاملة".

٤ ـــ صفة الإرادة :

أثـــبت السيوطي لله تعالى صفة الإرادة ، وهي من الصفات السمعية العقلية ، لأن العقل يثبت لله تعالى إرادة تليق بجلالـــه – جل وعلا – وأنه مريد لأفعاله سبحانه ، إذ لو لم يتصف بالإرادة لا تصف بضدها ، كالسهو والإكراه ، ولكان مغلوباً مقهوراً على ما لا يريده – تعالى وتقدس – وهذا محال عليه – جل وعلا – بدليل ما ظهر في أفعاله – سبحانه – من تخصيص وترتيب ووضعها في مواضعها .

أمـــا الســـمع فقد وردت الآيات المثبتة لها في الكتاب العزيز ، مثل قوله تعالى : (إن ربك فعال لما يريد)[٦] ، وقولـــه : (وربك يخلق ما يشاء ويختار)[٧] ، وقوله : (إن الله يحكم ما يريد)[٨] ، وقوله : (إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون)[٩] .

قال السيوطي : " الإرادة صفة تخصص أحد طرفي الشئ من الفعل والترك بالوقوع "[١٠] .

---

(١) سورة الأحقاف الآية (٣٣) .

(٢) أخرجه البخاري في مواضع من صحيحه منها : كتاب التهجد (١٩) باب (٢٥) ح رقم (١١٦٢) ، وفي كتاب الدعوات (٨٠) باب (٤٨) ح رقم (٦٣٨٢) ، وفي كتاب التوحيد (٩٧) باب (١٠) ح رقم (٧٣٩٠) .

– وأخرجه أبو داود في سننه (٨٩،٩٠/٢) ح رقم (١٥٣٨) .

– وأخرجه الترمذي في سننه (٣٤٥،٣٤٦/٢) .

– وأخرجه النسائي في سننه (٦٦/٦) .

– وأخرجه ابن ماجة في سننه (٤٤٠/١) ح رقم (١٣٨٣) .

– وأخرجه الإمام أحمد في السمند (٣٤٤/٣) .

(٣)انظر : (٣٢١) .

(٤) (ص/٢٤) .

(٥) نقلها على الواسطية (ص/١٦) .

(٦) سورة هود الآية (١٠٧) .

(٧) سورة القصص الآية (٦٨) .

(٨) سورة المائدة الآية (١) .

(٩) سورة يس الآية (٨٢) .

(١٠) الكوكب الساطع – مخطوط لوحة رقم (١٦٣/أ) ، علم التوحيد – مخ – لوحة (٣) .

وتوضيح هذا أن يقال : إن نسبة الضدين إلى قدرته تعالى سواء ، فكما يمكن أن يقع بقدرته تعالى أحد الضدين يمكن أن يقع به الضد الآخر .

وكذلك نسبة وقوع كل منهما إلى الأوقات سواء ، فكما يمكن أن يقع في وقته الذي وقع فيه ، يمكن أيضاً أن يقع قبله أو بعده ، إذاً فلا بد من مخصص يرجح أحدهما على الآخر ، ويخصص له أيضاً وقتاً دون سائر الأوقات ، ولا يكون هذا المخصص إلا الإرادة[١] .ولذلك عرفها السيوطي بأنها صفة تخصص ... إلخ

ويبين السيوطي أن الله تعالى يريد ما علم أنه سيقع ويكون ، وأماماً لايكون فلا يريده سبحانه :

يقول السيوطي :

" ما علم تعالى أنه يكون أراده ، وما يعلم أنه لا يكون فلا يريده ، فالإرادة عندنا تابعة للعلم لا للأمر ، إذ لو أراد ما لا يقع لكان نقصاً في إرادته لكلالها عن النفوذ فيما تعلقت به "[٢] .

ولم أر للسيوطي كلاماً في التفريق بين الأرادة والمشيئة . وهما في الأصل بمعنى واحد ، إلا أن السلف يقسمون الإرادة إلى : إرادة كونية خلقية وهي المستلزمة لوقوع المراد عموماً في العالم ، كقول المسلمين : ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن[٣] ، وعلى هذا فلا تتضمن المشيئة المعنى الثاني للإرادة .

قال الشيخ محمد بن صالح العثيمين :

" مشيئة الله هي إرادته الكونية ، وهي عامة لكل شئ من أفعاله وأفعال عباده ، والدليل قوله تعالى في أفعال الله (ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها...)[٤] والدليل في أفعال العباد قوله تعالى (ولو شاء الله ما فعلوه)[٥] وإرادة الله صفة من صفاته وتنقسم إلى قسمين : **كونية** : وهي التي بمعنى المشيئة . **وشرعية** : وهي التي بمعنى المحبة .

فدليل الكونية قوله تعالى : (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام)[٦] ، ودليل الشرعية قوله تعالى : (والله يريد أن يتوب عليكم)[٧] "[٨] .

والفرق بين الإرادة الكونية وبين الإرادة الشرعية :

أن الإرادة الكونية : لا بد فيها من وقوع المراد ، سواءً كان هذا المراد محبوباً لله أم غير محبوب له تعالى .

وأما الإرادة الشرعية فلا يلزم فيها وقوع المراد ، ولا يكون المراد فيها إلا محبوباً لله تعالى كما أن الإرادة الكونية تتحقق في حق الكافر كفرعون وأبي لهب دون الإرادة الشرعية . فالله تعالى أراد - كوناً - أن يكون فرعون وأبو لهب كافرين ، ولكنه أراد منهما الإيمان - شرعاً - فتحققت فيهما الأولى دون الثانية . فافترقتا .

---

(١) انظر : السفاريني : لوامع الأنوار (١٤٥/١) .
(٢) الكوكب الساطع - مخ - لوحة (١٦٣/أ) .
(٣) انظر : ابن تيمية : رسالة في الإرادة والأمر (ص٣٦٧) ضمن مجموعة الرسائل الكبرى - المجموعة الأولى .
(٤) سورة السجدة الآية (١٣) .
(٥) سورة الأنعام الآية (١٣٧) .
(٦) سورة الأنعام الآية (١٢٥) .
(٧) سورة النساء الآية (٢٧) .
(٨) تعليقات على العقيدة الواسطية (ص١٩) .

أمـا فـي حق المؤمن كأبي بكر الصديق وجميع الصحابة وغيرهم من المؤمنين فتجتمع في كل واحد منهم الإرادة الكونية والإرادة الشرعية .

لأن الله تعالى أراد - كوناً - إيماناً هؤلاء ، وأراد منهم الإيمان - شرعاً - فاجتمعتا[١] .

٥- صفة العلم :

قال السيوطي في تعريفها : " هي صفة ينكشف بها الشئ عند تعلقها به "[٢] وكذا قال السفاريني[٣] .

وصفة العلم صفة سمعية عقلية ، فالعقل يثبت أن لله تعالى علماً محيطاً بكل شئ ، وأنه تعالى عالم بكل شئ ، بل هو العليم سبحانه ، والعليم نعت على سبيل المبالغة[٤] في وصفه بكمال العلم[٥] ، أحاط بكل شئ علماً ، وأحصى كل شئ عدداً[٦] .

ويدل على علمه تعالى : إيجاده للأشياء في هذا الكون ، لاستحالة إيجاده الأشياء مع الجهل بها[٧] .

ولأن إيجـاده تعـالى للأشـياء هو بإرادته ، والإرادة تستلزم تصور المراد ، وهو العلم ، فكان الإيجاد مستلزماً للإرادة ، والإرادة مستلزمة للعلم ، فالإيجاد مستلزم للعلم[٨] . ولأن مِنَ المخلوقين مَنْ هو عالم ، والعلم صفة كمال ، وكل كمال اتصف به المخلوق من غير استلزام نقص ، فالخالق تعالى أحق به ، وأكمل فيه منه[٩] .

وهـذا الدليل له طريقان : **أولهما** : أن يقال : يُعلم بالضرورة أن الخالق أكمل من المخلوق ، وأن الواجب أكمل من الممكن ، ويُعلم بالضرورة أنا إذا فرضنا شيئين أحدهما عالم والآخر غير عالم ، كان العالم أكمل ، فلو لم يكن الواجب عالماً لزم أن يكون الممكن أكمل منه ، وهو ممتنع[١٠] .

الـثاني : أن يقال : كل علم في الممكنات التي هي المخلوقات فهو منه ، ومن الممتنع أن يكون فاعل الكمال ومبدعه عارياً مـنه ، بـل هـو أحق به ، والله سبحانه وتعالى له المثل الأعلى ، لا يستوي هو والمخلوق في العلم فضلاً عن أن يكون المخـلوق أعـلم مـنه - جل وعلا - بل كل ما ثبت لمخلوق أعلم منه - جل وعلا - بل كل ما ثبت لمخلوق من كمال ، فالخالق تعالى أحق به[١١] . وطـريق ثبوت صفة العلم لله تعالى سمعاً من الكتاب والسنة كثير جداً كقوله تعالى : (إن الله بكل شئ عليم)[١٢] وقوله : (يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم...)[١٣] وقوله : (وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ، ويعلم

---

(١) شرح الواسطية - هراس (ص/٥٢،٥١) ، انظر : ابن عثيمين : تعليقات على الواسطية (١٩) .

(٢) علم التوحيد - مخ - لوحة (٣) .

(٣) لوامع الأنوار (١/١٤٥) .

(٤) انظر السيوطي : الكنز المدفون (ص٩٤) .

(٥) انظر : الخطابي : شأن الدعاء (ص٥٧) .

(٦) انظر : السفاريني : لوامع الأنوار (١/٤١) ، الخطابي : شأن الدعاء (ص٥٧) .

(٧) انظر : السفاريني : لوامع الأنوار (١/١٤٨) نقلاً عن ابن تيمية .

(٨) نفسه .

(٩) انظر : ابن تيمية : رسالة الإرادة والأمر - ضمن مجموعة الرسائل الكبرى (١/٣٨٢) .

(١٠) انظر : السفاريني : لوامع الأنوار (١/١٤٩) نقلاً عن ابن تيمية .

(١١) نفسه .

(١٢) سورة العنكبوت الآية (٦٢) .

(١٣) سورة البقرة الآية (٢٥٥) .

مـا فـي الـبر والـبحر ، وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ، ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين)[١] . وقوله : (يعلم ما في السموات والأرض ، ويعلم ما تسرون وما تعلنون ، والله عليم بذات الصدور)[٢] وقوله : (يعـلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها ، وما ينزل من السماء ، وما يعرج فيها)[٣] وبعد أن أثبت السيوطي صفة العلم لله تعـالى قـرر أن عـلمه تعالى شامل محيط بكل شئ لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض . قال السيوطي : " علمه تعالى شامل لكل معلوم أي ما من شأنه أن يعلم ممكناً كان أو ممتنعاً ، جزئياً أو كلياً قال تعالى : (أحاط بكل شئ علماً)[٤] (وما تسقط من ورقة إلا يعلمها)[٥] الآية (عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة)[٦] الآية (ألا يعلم من خلق)[٧] " ثم نقل عن الإمام النووي في شرح المهذب رداً على من أنكر علم الله تعالى بالجزئيات ، قال : " قال في شـرح المهـذب ومن أنكر علمه تعالى بالجزئيات فهو كافر ، ثم قال : كثير من أهل السنة : إنه لا يحصل بذلك تغير في علمه تعالى فإن العلم بأنه سيوجد هو العلم بوجوده في زمن الوجود ، فإذا علم أن فلاناً في الجزء الفلاني من النهار قاعد ، وفـي الجزء الفلاني مضطجع ، وفي الجزء الفلاني قائم ، كانت حالته في كل جزء من النهار ما علم تعالى كونه عليه في تلك الحالة ، فلا تغير في العلم ، فإن العلم بتفاصيل ذلك قديماً ، وإنما يحتاج الخلق إلى علم آخر لطروا الغفلة منهم ، وقال آخـرون منهم بالتغير ، وقالوا : إنما يمتنع التغير في الصفات الحقيقية دون الإضافية ، فإن التغير فيها لا يوجب تغيراً في الـذات ، ومـثَّل ذلك باسطوانه قام إنسان عن يمينها ، فقلنا الإسطوانة عن يساره ، ثم عن يسارها فقلنا صارت يمينه ، ثم تحول إلى غيرها ، فقلنا صارت أمامه أو وراءه ، فالاسطوانة لم تتغير ، وإنما المتغير المتنقل .

وصـدقت هذه العبارة عليها للإضافة فلذا إذا قلنا الله عالم الآن بما نحن فيه ، وقد كان عالماً بما كنا أمس عليه ، وسيكون عالماً بما نكون عليه غداً ، فالتغير جار على أحوالنا وهو تعالى أمس واليوم وغداً في معنى كونه عالماً في جميع الأحوال على حد واحد "[٨] وردُّ السيوطي على من أنكر علم الله تعالى بالجزئيات هو في الحقيقة رد على الفلاسفة لأنهم هم الذين قالوا بذلك ، وقد كفرهم أبو حامد الغزالي كذلك في آخر كتابه " تهافت الفلاسفة " فقال في خاتمته : " فإن قال قائل : قد فصلتم مذاهب هؤلاء أفتقطعون القول بكفرهم ووجوب القتل لمن يعتقد اعتقادهم ؟؟ .

قلنا : تكفيرهم لابد منه في ثلاث مسائل : **احداها :** مسئلة قدم العالم ، وقولهم إن الجواهر كلها قديمة .

والثانية : قولهم إن الله لا يحيط علماً بالجزئيات الحادثة من الأشخاص . **والثالثة :** في انكارهم بعث الأجساد وحشرها .

فهـذه المسـائل الثلاث لا تلائم الإسلام بوجه ، ومعتقدها معتقد كذب الأنبياء ، وأنهم ذكروا ما ذكروه على سبيل

---

(١) سورة الأنعام الآية (٥٩) .

(٢) سورة التغابن الآية (٤) .

(٣) سورة سبأ الآية ٢) وسورة الحديد الآية (٤) .

(٤) سورة الطلاق الآية (١٢) .

(٥) سورة الأنعام الآية (٥٩) .

(٦) سورة سبأ الآية (٣) .

(٧) سورة الملك الآية (١٤) .

(٨) الكوكب الساطع - مخ - لوحة (١٨،١٩) ، وانظر النووي : المجموع شرح المهذب .

المصلحة تمثيلاً لجماهير الخلق ، وتفهيماً ، وهذا هو الكفر الصراح الذي لم يعتقده أحد من فرق المسلمين "[١] .

وحكى ابن تيمية أن الغزالي قد كفر الفلاسفة أيضاً في كتاب " فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة "[٢] .

وفي تأكيد الرد على المنكرين لعلم الله تعالى بالجزئيات يقول السيوطي في تفسير قوله تعالى : (قل لو كان البحر مـداداً لكلمات ربي لنفذ البحر قبل أن تنفذ كلمات ربي)[٣] قال : " وفي الآية اخبار عن اتساع علم الله تعالى ... والكلمات هي المعلومات فمعنى الآية : لو كتب علم الله بمداد البحر ، لنفد البحر ولم ينفد علم الله ، وكذلك لو جيئ ببحر مثله ، وذلك أن الـبحر متناه ، وعلم الله غير متناه "[٤] ويقول السيوطي أيضاً في تفسير قوله تعالى : (ولو أنما في الأرض من شجرةٍ أقلام ، والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله إن الله عزيز حكيم)[٥] .

قال : " إخبار بكثرة كلمة[٦] الله ، والمراد اتساع علمه ، ويعني أنه لو كانت شجرة الأرض أقلاماً ، والبحور مداداً تصـب فيـه[٧] صبّاً دائماً ، وكتبت بذلك كلمات الله ، لنفدت الأشجار والبحار ولم تنفد كلمات الله ، لأن الأشجار والبحار متناهية ، وكلمات الله غير متناهية[٨] ، فإن قلت : لِمَ لَمْ يقل : والبحر مداداً ، كما قال في الكهف ؟

فالجواب أنه أغنى عن ذلك قوله : (يمده) ، لأنه من قوله مدّ الدواة وأمدها .

فـإن قـلت : لـم قال (من شجرة) ، ولم يقل من شجر ، بإسم الجنس الذي يقتضي العموم ؟ فالجواب أنه أراد تفصيل الشجر ، إلى شجرة شجرة ، حتى لا يبقى منها واحدة . فـإن قـلت : لم قال : (كلمات الله) ولم يقل كلام الله بجمع الكثرة ؟ . فالجواب أن هذا أبلغ ، لأنه إذا لم تنفد الكلمات مع أنها جمع قلة ، فكيف ينفد الجمع الكثير ؟؟ وروى أن سبب نزول الآية قول اليهود : قد أوتينا التوراة وفيها العلم كله ، فنزلت الآية لتدل على أن ما عندهم قليل من كثير ، والآية على هذا مدنية . وقيل سببها أن قريشاً قالوا : إن القرآن سينفد "[٩] .

ويقول السيوطي أيضاً في اثبات علم الله تعالى المحيط بكل شئ الكليات والجزئيات : " لا يغيب عن علم الله مثقال ذرة وقد قدمنا أن الذرة صغار النمل أو بيضها "[١٠] .

<u>٦،٧- صفتا السمع والبصر :</u>

قال السيوطي : " وهما صفتان يزيد الانكشاف بهما على الانكشاف بالعلم "[١١] .

---

(١) (٢٥٤/١) ط٣ بدون تاريخ دار المشرق - بيروت ، حقّقه ووقف على طبعه موريس بويج في طبعة أولى سنة ألف وتسعمائة وسبع وعشرين وأعيد طبعه مصدراً بدراسة للدكتور ماجد فخري .

(٢) انظر : بغية المرتاد (ص٣٣٢) ت.د. موسى بن سليمان الدويش ط١/١٤٠٨هـ-١٩٨م.

(٣) سورة الكهف الآية (١٠٩) .

(٤) معترك الأقران (١٠٧/٢) ونحوه في تفسير الجلالين (ص٣٦٤) .

(٥) سورة لقمان الآية (٢٧) .

(٦) هكذا بالافراد ، والكلمة الواحدة لا يتصور فيها كثرة ولعلها كلمات .

(٧) لم يتقدم في كلام السيوطي ذكر اسم يعود عليه الضمير ، ومفهوم من سياق الكلام أنه البحر ، لكن الكلام على هذا يعتبر ناقصاً .

(٨) نحو هذا التفسير في تفسير الجلالين (ص/٥٠٠) .

(٩) معترك الأقران (٤٠٢،٤٠٣/٢) ، وانظر : لباب النقول في أسباب النزول سورة لقمان ، وانظر : الدر المنثور (٥٢٨/٢١) ولم يذكره الواحدي .

(١٠) معترك الأقران (٣٨٦/٣) .

(١١) علم التوحيد - مخ - لوحة (٣) ، الكوكب الساطع - مخ - لوحة (١٦٣/ب) ز

وهاتـــان الصفتان من الصفات السمعية العقلية ، فالعقل يثبت بالضرورة أن الله الحي القدير العليم يجب أن يتصف بالسمع والبصـــر ، إذ لولم يتصف بالسمع والبصر لا تصف بضد ذلك وهو العمى والصم ، وهذا محال ، لأن السمع والبصر من صفات الكمال ، فإن الحي السميع البصير أكمل من حيّ لا يُسمع ولا يبصر كما أن الموجود الحيّ ، أكمل من موجود ليس بحي ، وكل كمال اتصف به المخلوق من غير استلزام نقص فالخالق به أولى ، لأنه تعالى يتنزه عن كل نقص وعيب .

وثـــبت أيضاً بالنصوص الكثيرة من الكتاب والسنة أن الله تعالى سميع بصير ، ففي الكتاب العزيز قوله تعالى : (ليـــس كمثله شئ وهو السميع البصير)[١] ، وقوله تعالى : (إنني معكما أسمع وأرى)[٢] ، وقوله تعالى : (أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم ، بلى ورسلنا لديهم يكتبون)[٣] ، وقوله تعالى (قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير)[٤] .

ووردت الســـنة النبوية كذلك بإثبات هاتين الصفتين فعن عائشة قالت : " تبارك الذي وسع سمعه الأصوات كلها ، إن المـــرأة لتناجي النبي - صلى الله عليه وسلم - اسمع بعض كلامها ، ويخفى علي بعض كلامها إذ أنزل الله (قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها)[٥] وقوله - صلى الله عليه وسلم - : " اربَعُوا على أنفسكم فإنكم لا تدعون أصم ولا غائباً ، تدعون سميعاً بصيراً قريباً... " الحديث[٦] .

وعـــن أبي يونس سليم بن جبير[٧] ، مولى أبي هريرة قال : سمعت أبا هريرة يقرأ هذه الآية : (إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها)[٨] إلى قوله : (سميعاً بصيراً) قال[٩] : رأيت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يضع إبهامه على أذنه والتي تليها على عينه "[١٠] .

قال الخطابي : " وضعه اصبعه على أذنه وعينه عند قراءته سميعاً بصيراً ، معناه اثبات صفة السمع والبصر لله سبحانه "[١١] .

---

(١) سورة الشورى الآية (١١) .
(٢) سورة طه الآية (٤٦) .
(٣) سورة الزخرف الآية (٨٠) .
(٤) سورة المجادلة الآية (١) .
(٥) ابـــن جريـــر الطبري : جامع البيان مجلد (١٤ جـ٢٨/٥) ورواه البخاري تعليقاً في صحيحه كتاب التوحيد ، باب الفتح (٣٧٢/١٣) ، ورواه الامام احمد في مسند موصولاً(٤٦/٦) ، وابن ماجة (٦٧/١) رقم (١٨٨)، وانظر: ابن كثير في تفسيره(٦٠/٨) .
(٦) البخاري في صحيحه - كتاب التوحيد (٩٧) باب (٩) ، انظر الفتح (٣٧٢/١٣) ح (٧٣٨٦) .
ومسلم في صحيحه - كتاب الذكر (٤٨) باب (١٣) انظر (٢٠٧٦/٤) ح (٢٧٠٤) ، ومعنى اربعوا أي ارفقوا بأنفسكم واخفضوا أصواتكم .
(٧) أبـــو يونـــس سليم بن جبير المصري ، ثقة ، مات سنة (١٢٣هـ) انظر : التاريخ الكبير (١٢٢/٤) ، تهذيب التهذيب (١٦٦/٤) والتقريب (ص٢٤٩) .
(٨) سورة النساء الآية (١١) .
(٩) أي أبو هريرة - رضي الله عنه .
(١٠) أبـــو داود فـــي ســـننه - كتاب السنة - باب (١٩) ح (٤٧٢٨) (٩٦/٥-٩٧) ، والدارمي في الرد على بشر المريسي العنيد (ص٤٧) ، وابن خـــزيمة : الـــتوحيد (٩٧/١-٩٨) واللالكـــائي : شرح أصول الاعتقاد (٤١٠/٣) ، وقال عقبة : (وهو اسناد صحيح على شرط مسلم ، يلزمه إخراجه " والبيهقي : الاسماء والصفات (٢٣٤،٢٣٣) والهروي في كتاب الأربعين (ص٦٦-٦٧) وقال ابن حجر : " أخرجه أبو داود بسند قوي على شرط مسلم من رواية أبي يونس..." انظر الفتح (٣٧٣/١٣) .
(١١) معالم السنن (٣٣٠/٤) ، شأن الدعاء (ص٥٩-٦١) .

قـال شارح الواسطية : " ومعنى السميع : المدرك لجميع الأصوات مهما خفتت فهو يسمع السر والنجوى ، يسمع هـو صفة لا يماثل أسماع خلقه ، والبصير ك المدرك لجميع المرئيات من الأشخاص والألوان مهما لطفت أو بعدت ، فلا تؤثر على رؤيته الحواجز والأستار ... وهو دال على ثبوت صفة البصر له سبحانه على الوجه الذي يليق به "[١] .

ومـن الخطـأ الاعتقاد أن سمعه تعالى هو علمه بالمسموعات ، وبصره علمه بالمبصرات فإن الأعمى يعلم بوجود السماء ولكنه لا يراها ، وكذا الأصم يعلم بوجود الأصوات ولكنه لا يسمعها .

فسمع الله تعالى من الصفات الذاتية الثابتة له حقيقة على الوجه الذي يليق بجلاله تعالى . وهو على قسمين :

الأول : بمعنى الإجابة ، وهذا من الصفات الفعلية ودليله قوله تعالى : (إن ربي لسميع الدعاء)[٢] .

الثاني : بمعنى إدراك المسموع ، وهذا من الصفات الذاتية ، ودليله سبق إيراده من سورة المجادلة وهو قوله تعالى : (قد سمع الله قول التي تجادل في زوجها...) الآية[٣] .

وهذا القسم قد يراد به - مع إدراك المسموع - النصر والتأييد كما في قوله تعالى (إنني معكما أسمع وأرى)[٤] . وقـد يراد به أيضاً التهديد كقوله تعالى : (لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء)[٥] والبصير بمعنى إدراك المرئيات والمبصرات ، قد يراد به أحياناً النصر والتأييد كالآية التي شرحتها قبل قليل من سورة طه وهي قوله تعالى : (إنـني معكمـا أسمع وأرى)[٦] . وقد يراد به ايضاً التهديد كما في قوله تعالى : (ألم يعلم بأن الله يرى)[٧] وهذا المعنى لصفة البصر هو قسم من قسمي الرؤية ، وهي صفة ذاتية لله تعالى - أيضاً - ثابتة له حقيقة على ما يليق به تعالى .

وأمـا القسـم الـثاني من هذه الرؤية : فهو الرؤية بمعنى العلم ، كما في قوله تعالى : (إنهم يرونه بعيداً ونراه قريباً)[٨] أي نعلمه[٩] .

قـال ابن القيم عند ذكره لحديث أبي هريرة الذي أوردته سابقاً " وضع إبهامه على أذنه والتي تليها على عينه " رفعـاً لـتوهم مـتوهم أن المراد بالسمع والبصر غير الصفتين المعلومتين ، وأمثال هذا كثير في القرآن والسنة ، كما في الحديـث الصـحيح أنه - صلى الله عليه وسلم - قال : " يقبض الله سمواته بيده ، والأرض بيده الأخرى "[١٠] ثم جعل

---

(١) محمد خليل هراس : شرح العقيدة الواسطية (ص/٤٩-٥٠) .
(٢) سورة إبراهيم الآية (٣٩) .
(٣) سورة المجادلة الآية (١) .
(٤) سورة طه الآية (٤٦) .
(٥) سورة آل عمران بعض الآية (١٨١) .
(٦) سورة طه الآية (٤٦) .
(٧) سورة العلق الآية (١٤) .
(٨) سورة المعارج الآيتان (٦،٧) .
(٩) انظر فيما تقدم من التقسيمات للسمع والبصر : الشيخ محمد بن صالح العثيمين : تعليقات على العقيدة الواسطية (ص٢٥-٢٦) .
(١٠) إشارة إلى حديث ابن عمر - رضي الله عنهما - الذي رواه مسلم في صحيحه كتاب صفة القيامة والجنة والتاريخ (٢٥) (٤/٢١٤٨-٢١٤٩) ، وابـن ماجة في سننه ، المقدمة ، باب (١٣) ح (١٩٨) (١/٧١-٧٢) وأحمد في المسند (٢/٧٢) ، والدارمي في الرد على بشر المريسي العنيد (ص٣١-٣٢) وابن أبي عاصم في السنة (ص٢٤٠-٢٤١) ، وابن خزيمة في التوحيد (١/١٧٠-١٧١) ، وأبو الشيخ في العظمة (٢/٤٣٧-٤٣٨) ، وابن منده في الرد على الجهمية (ص٧٤-٧٥) ، والبيهقي في الأسماء والصفات (ص٤٢٧) .

رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يقبض يده ويبسطها تحقيقاً لإثبات اليد ، وإثبات صفة القبض "[١] .

وحديث أبي هريرة المتقدم ، ساق ابن خزيمة لإثبات صفة العين[٢] ، وسيأتي الكلام عنها .

٨- **صفة الكلام :**

هــذه الصفة العظيمة وقع حولها خلاف واسع بين الفرق والطوائف ومن أجل هذا ينبغي أن أبين أولاً – وقبل أن أعرض لكلام السيوطي في إثبات هذه الصفة – مجمل اعتقاد أهل السنة والجماعة في كلام الله عز وجل فأقول : إن اعتقاد أهل السنة هو إثبات صفة الكلام لله تعالى ، وأنها صفة قائمة به غير بائنة عنه ، وأنها من صفاته اللازمة لذاته ، لا ابتداء لإتصـــافه بها ولا انتهاء ، فهو تعالى لم يزل ولا يزال يتكلم بكلام حقيقي بصوت لا يشبه أصوات المخلوقين ، وحروف ، يتكــلم بما شاء ومتى شاء ، وكيف شاء ، كلامه تعالى أحسن الكلام ، لا يشبه كلام المخلوقين ، ويكلم به من شاء من خلقه من ملائكته ، ورسله ، وسائر عباده بواسطة إن شاء ، وبغيرها .

ويُســـمِعه مـــن شـــاء على الحقيقة من رسله وملائكته ويُسمِعه عباده في الدار الآخرة بصوت نفسه ، كما أنه كلم موســـى – عليه السلام – وناداه حين أتى الشجرة بصوت نفسه ، فسمعه موسى وكلماته تعالى لا نهاية لها ، ومن كلامه : القــرآن ، والتوراة ، والإنجيل فالقرآن كلامه سوره ، وآياته ، وكلماته ، تكلم به بحروفه ومعانيه ، ولم ينزله على أحد قبل رسوله محمد بن عبدالله – صلى الله عليه وسلم –

أســـمعه جـــبريل – عليه السلام – وأسمعه جبريلُ محمداً – صلى الله عليه وسلم – ، وأسمعه محمدٌ – صلى الله عليه وسلم – أصحابه ، وليس لجبريل ولا لمحمد – صلى الله عليه وسلم – إلا التبليغ والأداء .

وهو المكتوب في اللوح المحفوظ وهو الذي في المصاحف ، يتلوه التالون بألسنتهم ، ويقرؤه المقرئون بأصواتهم ، ويســـمعه السامعون بآذانهم ، وينسخه النساخ ، ويطبعه الطابعون بآلاتهم ، وهو الذي في صدور الحفاظ بحروفه ومعانيه ، تكــلم الله بـــه عـــلى الحقيقة ، فهو كلامه على الحقيقة لا كلام غيره ، منه بدأ وإليه يعود ، وهو قرآن واحد منزل ، غير مخلوق كيفما تصرف : بقراءة قارئ ، أو بلفظ لافظ ، أو بحفظ حافظ ، أو بخط كاتب ، وحيث تُلي وكُتب وقرئ .

وكـــلام الله تعـــالى ينقسم ويتبعض ويتجزأ فالقرآن من كلامه ، والتوراة من كلامه والإنجيل من كلامه ، والقرآن غيـــر الـــتوراة ، والتوراة غير الإنجيل ، والفاتحة بعض القرآن ، وآية الكرسي بعض البقرة وسورة البقرة غير سورة آل عمـــران وكـــذا سورة آل عمران غير سورة النساء وهكذا سائر كلامه – جل وعلا – وفي القرآن من المعاني ما ليس في التوراة ، وفيها من المعاني ما ليس في القرآن وهكذا سائر كلامه .

وكلامه تعالى يتفاضل ، فيكون بعضه أفضل من بعض ، فآية الكرسي أفضل من سواها من الآي .

وسورة الفاتحة لم ينزل في التوراة ولا في الإنجيل ولا في القرآن مثلها ، و (قل هو الله أحد)[٣] تعدل ثلث القرآن .

وكلامه تعالى يتعاقب – أي يتلو بعضه بعضاً – كـــ (بسم الله) فكلمة (الله) عقب (بسم) وكذلك السين عقب

---

(١) الصواعق المرسلة (٣٩٧/١) .

(٢) انظر : كتاب التوحيد وإثبات صفات الرب (٩٦/١) .

(٣) سورة الإخلاص ،الآية (١) .

الباء ، والميم عقب السين ، وكل ذلك كلام الله تعالى ، غير مخلوق بألفاظه وحروفه لا يشبه كلام الخلق .

وأصوات العباد وحركاتهم بالقرآن ، وورقه وجلده ، ومداد الكتابة ، كل ذلك مخلوق مصنوع والمؤلف من الحروف المنطوقة المسموعة المسطورة المحفوظة هو كلام الله تعالى غير مخلوق بحروفه ومعانيه ومن زعم أنه مخلوق فقد كفر .

هذا هو مجمل اعتقاد أهل السنة والجماعة في كلام الله ، وكل ما خالف هذا فهو بدعة وباطل .

وقد أثبت السيوطي صفة الكلام لله تعالى فقال : " ... وصفاته الحياة ... "[١] . إن صفة الكلام من الصفات السمعية العقلية اثبتها الله تعالى لنفسه في كتابه فقال تعالى : (وكلم الله موسى تكليما)[٢] وقال : (وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله)[٣] وقال تعالى مخاطباً نبيه موسى – عليه السلام – : (إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي ، فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين)[٤] .

والآيات في إثبات هذه الصفة العظيمة كثيرة مع ما في القرآن من ذكر مناداته ومناجاته المتضمنة معنى الكلام كقوله تعالى : (وناداهما ربهما...)[٥] (وناديناه من جانب الطور الأيمن)[٦] والنداء لا يكون إلا بصوت مسموع حادث بكلام ، وغيرها من الآيات التي تدل على ما ذكر .

ومن السنة والآثار أدلة كثيرة أيضاً اجتزئ منها :

حديث أبي هريرة – رضي الله عنه – عن النبي – صلى الله عليه وسلم – قال : " احتج آدم وموسى ، فقال له موسى : يا آدم ، أنت أبونا خيبتنا وأخرجتنا من الجنة ، قال له آدم : يا موسى ، اصطفاك الله بكلامه ، وخط لك التوراة بيده ، أتلومني على أمر قدره الله عليّ قبل أن يخلقني بأربعين سنة ؟ فحج آدم موسى ، فحج آدم موسى ، ثلاثاً "[٧] .

وحديث أبي هريرة – أيضاً – عن النبي – صلى الله عليه وسلم – قال : " فضل كلام الله على سائر الكلام كفضل الله على سائر خلقه "[٨] وحديث عائشة – رضي الله عنها – قالت في قصة الأفك : " والله ما كنت أظن أن الله ينزل براءتي وحياً يتلى ، ولشأني في نفسي كان أحقر من أن يتكلم الله فيّ بأمر يتلى... "[٩] .

وغير هذه الأحاديث كثير وكذلك الآثار . وأما دلالة العقل على هذه الصفة فيقال : إن الكلام صفة كمال ، وضدها

---

(١) علم التوحيد (ص٣) .
(٢) سورة النساء الآية (١٦٤) .
(٣) سورة التوبة الآية (٦) .
(٤) سورة الأعراف الآية (١٤٤) .
(٥) سورة الأعراف الآية (٢٢) .
(٦) سورة مريم الآية (٥٢) .
(٧) متفق عليه، وصحيح البخاري ٢١٤/٠٧) كتاب القدر-باب (١١) ،صحيح مسلم (٢٠٤٢/٤) وانظر: التوحيد لابن خزيمة (١٢/١) .
(٨) أخرجه عثمان بن سعيد الدارمي في " الرد على الجهمية " رقم (٢٨٧،٣٤٠) .
واللالكائي رقم (٥٥٧) .
وللحديث شاهدين من حديث أبي سعيد الخدري مرفوعاً : " .. وفضل كلام الله على سائر الكلام كفضل الله على خلقه "
أخرجه الترمذي في سننه رقم (٢٩٢٦) والدارمي في سننه رقم (٣٣٥٩) .
فالحديث حسن ، انظر :تخريجه والحكم عليه،في شرح اصول اعتقاد اهل السنة للألكائي (٣٧٥/٢) .
(٩) متفق عليه ،صحيح البخاري (٢٧٧/٣-٢٣١٩) وتفسير سورة النور (١٢٧/٦-١٣٢)،وصحيح مسلم (٢١٢٩/٤) رقم (٢٧٧٠) .

وهـــو الخـــرس صفة نقص ، و الخرس أو البكم إن وجد في مخلوق كان نقصاً بيناً ، ويتمنى أن يتنزه المخلوق عن هذا الـــنقص والعيـــب ، فالخالق – جل وعلا – يتنزه عنه من باب أولى ، وإذا كان الكلام صفة كمال في المخلوق ، فاتصاف الخـــالق بـــه أولى وأحرى . فإنه يجب له كل كمال وجلال – وكما قدمت – كل كمال اتصف به المخلوق من غير استلزام نقص فالخالق أولى أن يتصف به .

ولمـــا تكـــلم السيوطي عن القرآن ظهرت على بعض كلامه ظلال كثيفة من الأشعرية حيث قال : " القرآن كلامه تعـــالى أي المعنى القائم بذاته المقدسة ، وهو المراد بالكلام النفسي "[١] وهذا هو نفس مذهب الأشاعرة في كلام الله تعالى : حيـــث قـــالوا : هـــو المعنى القائم بالنفس ، أو هو الكلام النفسي والألفاظ موضوعة للدلالة عليه ، ولذلك قالوا في القرآن هوعبارة عن كلام الله أو أن الكلام صفة عُبِّر عنها بالنظم المسمى بالقرآن[٢] .

وبـــناء عـــلى ذلك قالوا : الكلام ليس بحروف ولا أصوات . والمتكلم من قام به الكلام لا من أوجد الكلام ، وقد نصروا هذا القول ببعض الشبه التي حسبوها أدلة من اللغة والشرع : أما اللغة فقالوا : إن العربي يقول ك (كان في نفسي كلام) ويقول : (كان في نفسي قول) ويقول : (كان في نفسي حديث) .

وقال عمر – رضي الله عنه – : " زورت في نفسي كلاماً فأتى أبو بكر فزاد عليه "[٣] .

نسمى عمر ما في نفسه كلاماً .واستدلوا أيضاً بقول الأخطل النصراني[٤] :

إن الكلام لفي الفؤاد وإنما جعل اللسان على الفؤاد دليلاً

وأما شبههم الشرعية فقالوا :

قال الله تعالى : (إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله والله يعلم إنك لرسوله والله يشهد إن المنافقين لكاذبون) . فالله تعالى لم يكذب المنافقين في الفاظهم ، وإنما كذبهم فيما تكنه ضمائرهم وسرائرهم ، فدل على أنه حقيقة الكلام والقول . ومـــثله قوله تعالى : (ويقولون في أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول)[٥] قالوا : فالقول بالنفس قائم وإن لم ينطق به اللسان والقول هو الكلام .

وقولـــه تعالى : (إلا من اكره وقلبه مطمئن بالإيمان)[٦] فأسقط حكم الكفر عن المكره على كلمة الكفر ، وجعل الحكـــم لصدق الكلام القائم بالقلب . قالوا : فهذه الآيات وما في معناها دالة على أن حقيقة الكلام هو المعنى القائم بالنفس ،

---

(١) الكوكب الساطع لوحة (١٦٤/ب) .

(٢) السيوطي : الكوكب (١٦٣/ب) .

(٣) ورد هذا في حديث السقيفة .

أخـــرجه أحمـــد في المسند رقم (٣٩١) والبخاري في صحيحه – كتاب الحدود (٨٦) ، باب (٣١) انظر الفتح (١٤٥/١٢) ، وفي موضع آخر في كتاب فضائل الصحابة (٦٢) باب (٥) الفتح (١٩/٧-٢٠) .

(٤) هـــو : غياث بن غوث بن الصلت بن طارقة ابن عمرو ، من بني تغلب ، أبو مالك ، شاعر مصقول الألفاظ ، حسن الديباجة ، اشتهر في عهد بـــني أميـــة بالشـــام ، قيل إنه أشهر أهل عصره كما قيل في الفرزدق وجرير ، نشأ على النصرانية في اطراف الحيرة بالعراق له ديوان شعر مطـــبوع . ولد (١٩هـــ-٦٤٠م) ومات (٩٠هــ-٧٠٨م) – الأغاني (٢٨٠/٨) ، الشعر والشعراء ١٨٩ ، دائرة المعارف الإسلامية (٥١٥/١) ، الاعلام (١٢٣/٥) .

(٥) سورة المجادلة الآية (٨) .

(٦) سورة النحل الآية (١٠٦) .

لا الحروف ولا الأصوات التي هي أمارات ودلالات على الكلام الحقيقي(١) .

- إبطال مذهب الأشاعرة في الكلام النفسي : أما قول العربي : (كان في نفسي كلام) ونحوه ، فليس لهم فيه مستند ، لأن الكلام إذا أطلق ينصرف إلى الألفاظ الخارجة من الفم والشفتين وقد يشمل المعنى ، لأن المجنون قد يتكلم بكلام لا معنى له ، لكـنه يسمى كلاماً في الإطلاق ، لكن لفظ (الكلام) إذا جاء مقيداً ، كان التقييد قرينة دالة على اخراجه عن اطلاقه ولا منازعة في أنه قد يراد به المعاني أو الألفاظ بالقرائن فلما قيده العربي بالنفس أخرجه من مطلق الكلام إلى كونه في النفس لم يظهر في الخارج ، ولا يصح أن يقال لهذا العربي إنه متكلم به طالما أنه في نفسه ولم تتحرك به شفتاه ولسانه ونطق به

كمـا أن مـن لازم الكلام أن يكون مسموعاً فلو لم يُسمع من شخص ما كلام ، لم يصح أن يقال إنه تكلم ، إذ لو ادعى عليه مدع بكلام لم ينطق به لعُدّ ذلك كذباً عليه وبهتاناً .

- الجواب عن كلام عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - وأما قول عمر يوم السقيفة فالجواب عنه من وجهين :

أولهما : إن التزوير - كما قال الأصمعي - : " إصلاح الكلام وتهيئته " فهو قد قدر في نفسه كلاماً وهيأه ، ولكن لم يتكلم به بعد ، فلا يعتبر كلاماً حتى يتكلم به .

ومثاله أيضاً من يقدر في نفسه أن يعمل عملاً كأن يصلي مثلاً ، ثم لا يفعله ، فهل يقال : إنه صلـى في نفسه ؟؟ مع أن القلب له عمل كما أن للجوارح عملاً .

والـثاني : لـو صحّ ما قالوه ، لكان موافقاً لرأي أهل السنة لا لمذهبهم ، فإنهم يعدون مطلق الكلام كلام النفس ، أما أهل السنة فعندهم مطلق الكلام اللفظ والمعنى جميعاً ، وقد يراد أحدهما بقرينة ، وهي موجودة في قول عمر المذكور ، ألا وهي التقييد بالنفس ، وهي قرينة تخرجه عن مطلق الكلام المعروف المتبادر إلى ذهن السامع ، إلى كلام مقيد بحالة معينة .

* أما الجواب عن شعر الأخطل فمن وجوه :

الأول : انكـر العـلماء كونه من شعره ، لأنهم قد بحثوا عنه في دواوينه ، فلم يجدوه فيه ، قال أبو محمد الخشاب نحوي العراق : " فتشتُ شعر الأخطل المدون ، كثيراً ، فما وجدت هذا البيت "(٢) .

الثاني : أنه لم يتلقه أهل العربية بالقبول .

الثالث : أن بعضهم أورده بلفظ : إن البيان لفي الفؤاد... إلخ

وهذا يفسد المعنى الذي أرادوه .

الرابع : الأخطل شاعر نصراني مثلث كافر ، وقد ضلت النصارى في معنى كلام الله تعالى ومسماه ، فجعلوا المسيح نفس كلمة الله .

الخامس : أنه شاعر مولد ، لا يحتج بشعره في اللغة ، وهذا معلوم عند أهل التحقيق .

السادس : أن من يحتج من أهل البدع بهذا البيت يخفي بيتاً قبله يوضح معناه أكثر ، ويتبين من البيتين مجتمعين أنهما حجة

---

(١) انظر : أبو بكر الباقلاني : الانصاف (١٠٩-١١٠) .

(٢) العلو الذهبي (ص/١٩٤) .

على الأشاعرة وليسا حجة لهم ، وهما هكذا :

لا تعجبنك من أثـير خطبة حتى يكون مع الكـلام أصيلاً

إن الكلام لفي الفؤاد وإنما جعل اللسان على الفؤاد دليلاً

فحيـنما ذكـر الشـاعر الكلام في البيت الأول ذكره مطلقاً ليشمل اللفظ والمعنى ، إذ أن الذي يُسمع من الخطيب ألفاظـه ، فأبـان الشـاعر عـن حقيقة الكلام المؤثر الذي يقع من النفوس موقعاً ، بأنه الذي قد اشتمل على المعاني التي موضعها القلب ، لا مجرد الألفاظ التي تُسمع من المتكلم ، ولم يرد تعريف الكلام ووضع حد له بكونه المعاني المجردة .

السابع : مسمى " الكلام " و " القول " ونحوهما ليس مما يحتاج في تفسيره إلى قول شاعر ، بل ولا ألف شاعر ، فإنه مما قـد عـلم ضرورة إذ هو مما تكلم به الأولون والآخرون من أهل اللسان ، وعرفوا معناه في لغتهم . واللغة إنما تستفاد من استعمال أهلها لها في كلامهم ، لا تستفاد مما يذكر من الحدود والتعريفات ، بأن يقال : " الرأس كذا ... الكلام كذا ... "[١] . وبهذا يتبين فساد استدلالهم بهذا الشعر ، وأشد ما يظهر هذا الفساد عندما يترك الاستدلال بكتاب الله وسنة رسوله ، ويُلجأ إلى الاستدلال بشعر شاعر كافر لا يعتد به .

قـال أبو المعالي : أسعد بن المنجي الحنبلي : " كنت يوماً عند الشيخ أبي البيان[٢] – رحمه الله – فجاءه ابن تميم الـذي يدعى الشيخ الأمين ، فقال له الشيخ بعد كلام جرى بينهما : " ويحك ، الحنابلة إذا قيل لهم ما الدليل على أن القرآن بحـرف وصوت ؟ قالوا : قال الله كذا ، وقال رسوله كذا ، – وسرد الشيخ الآيات والأخبار – وأنتم إذا قيل لكم ما الدليل على أن القرآن معنى قائم في النفس ؟ قلتم : قال الأخطل : إن الكلام لفي الفؤاد ....

إيش هذا الأخطل ؟ نصراني خبيث ، بنيتم مذهبكم على بيت شعر من قوله ، وتركتم الكتاب والسنة "[٣] وقال شيخ الإسلام : " كان مما يُشنّع به على هؤلاء أنهم احتجوا في أصل دينهم ومعرفة حقيقة الكلام – كلام الله وكلام جميع الخلق – بقول شاعر نصراني يقال له الأخطل :

إن الكلام لفي الفؤاد وإنما جعل اللسان على الفؤاد دليلاً

وقد قال طائفة : إن هذا ليس من شعره ، وبتقدير أن يكون من شعره ، فالحقائق العقلية ، أو مسمى لفظ (الكلام) الـذي يتكـلم به جميع بني آدم ، لا يرجع فيه إلى قول ألف شاعر فاضل ، دع أن يكون شاعراً نصرانياً اسمه الأخطل ، والنصـارى قـد عرف أنهم يتكلمون في كلمة الله بما هو باطل ، والخطل في اللغة : هو الخطأ في الكلام ، وقد أنشد فيهم المنشد :

قبحاً هذا بيت شعر لمن نبذ القرآن وراءه وإذا استدل يقول قال الأخطل "[٤]

وقال شيخ الإسلام أيضاً : " ولو احتج محتج في مسألة بحديث أخرجاه في الصحيحين عن النبي – صلى الله عليه وسلم –

---

(١) شيخ الإسلام : الإيمان (ص١٣٢-١٣٤) .

(٢) نبأ بن محمد بن محفوظ القرشي الشافعي .

(٣) الذهبي : العلو (١٩٣-١٩٤) . بسند صحيح وفي المتن تحريف في المطبوعة انظر مختصرة (ص٢٨٤-٢٨٥) .

(٤) ابن تيمية : مجوع الفتاوى (٦/٢٩٦-٢٩٧) .

لقالوا : هذا خبر واحد ويكون مما اتفق العلماء على تصديقه وتلقيه بالقبول ، وهذا البيت لم يثبت نقله عن قائله بإسناد صحيح لا واحد ولا أكثر من واحد ، ولا تلقاه أهل العربية بالقبول ، فكيف يثبت به أدنى شئ من اللغة فضلاً عن مسمى الكلام "(١) .

* وأما الجواب عما احتجوا به من الكتاب والسنة : فيقال عن قوله تعالى : (إذا جاءك المنافقون...) إن الله تعالى كذب المنافقين في قولهم الذي سماه قولاً ، فقد قال تعالى : (إذا جاءك المنافقون قالوا...) والقول ألفاظ وكلمات منطوقة خلافاً لزعمهم أنه في القلب ، ولكن لما كانت الألفاظ المجردة غير كافية لإثبات إيمانهم وصدقهم فيه وإنما يجب أن يقارنها إيمان القلب ، واستقرار معنى ما قالوه فيه ، لأجل ذلك كذبهم في دعواهم ، فالذي كذبهم الله تعالى فيه إنما هو الدعوى المجردة ، وعدم صحة ذلك منهم ، ولم يكذبهم في صحة كون ما نطقوا به ، قولاً وكلاماً ، بل أقر ذلك وثبته ، وليس الخلاف في صدق القول أو كذبه إنما الخلاف في ماهيته وحقيقته(٢) . ونظير هذه الآية قول النبي – صلى الله عليه وسلم – : " يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه... "(٣) وأما استدلالهم بقوله تعالى : (ويقولون في أنفسهم...) الآية فمردود أيضاً من وجهين : <u>أولهما :</u> أن لفظ (القول) ورد في الآية مرتين ، مرة مقيداً بالنفس ، ومرة مطلقاً ، ولا ريب أن المطلق هو تناجيهم بالإثم والعدوان ومعصية الرسول – صلى الله عليه وسلم – وتحيتهم له بغير ما حياه به الله ، وكل ذلك أقوال هي ألفاظ ومعاني ، فأطلقه للعلم به ، وقيد الأول بالنفس ليكون خاصاً بالمعنى دون اللفظ ، هذا على تسليم كونه حديث نفسي . فلو كان مطلق القول إنما يراد به حديث النفس لم تكن هناك حاجة إلى تقييده بها ، ولكان التناجي والتحية معاني مجردة ، تُحدّثُ القلوب بعضها بعضاً بها من غير نطق ولا لفظ ، وهذا لا يتصوره عاقل . ومثل هذه الآية آية الاعراف ، وهي قوله تعالى : (واذكر ربك في نفسك تضرعاً وخيفة ودون الجهر من القول)(٤) فهذا هو الذكر باللسان سراً ، فلم يخرج عن كونه ألفاظاً ومعاني مجتمعة ألا ترى قوله : (ودون الجهر) ؟ والجهر هو رفع الصوت بالذكر ، وهو فوق مرتبة الإسرار التي هي الذكر بخفض الصوت وكل ذلك قائم باللسان والقلب . ونظير هذه الآية – أيضاً – احتجاجهم بحديث " يقول الله

---

(١) كتاب الإيمان (ص١٣٢) .

(٢) انظر : العقيدة السلفية (٣٣٦-٣٣٧) في كلام رب البرية .

(٣) حديث صحيح ، وتمامه : " ...لا تغتابوا المسلمين ، ولا تتبعوا عوراتهم ، فإنه من يتبع عوراتهم يتبع الله عورته ، ومن يتبع الله عورته يفضحه وإن كان في بيته " .

- أخرجه أحمد في مسنده (٤/٤٢٠-٤٢١-٤٢٤) ، وأبو داود في سننه (٤٨٨٠) وابن أبي الدنيا في " الصمت " (١٦٨،١٦٩) والخرائطي في " مساوئ الأخلاق " ج٢ ورقة ٢/ب ، كلهم من حديث أبي برزة الاسلمي ، واسناده حسن .

- وأخرجه أبو يعلي (١٦٧٥) ، وابن أبي الدنيا في " الصمت " أيضاً (١٦٧) ، وأبو نعيم في " دلائل النبوة " (٣٥٦) ، والبيهقي في " دلائل النبوة " أيضاً (٢٥٦/٦) كلهم من حديث البراء ابن عازب ، واسناده صالح في الشواهد .

- وأخرجه أيضاً : الترمذي في سننه (٢٠٣٢) ، وابن حبان في صحيحه (١٤٩٤) (موارد الظمآن) ، وأبو بكر الإسماعيلي – كما في تفسير ابن كثير (٣٨٢/٦) كلهم من حديث عبدالله بن عمر ، قال الترمذي : " حديث حسن غريب " واسناده جيد .

- وأخرجه كذلك : الطبراني في " الكبير " (٢٠٧٤/٦) من طريق قدامة وهو صدوق لا بأس به ، ولكن اسماعيل بن شيبة الطائفي له مناكير ولكن الحديث بمجموع طرقه السابقة صحيح .

(٣) سورة الأعراف الآية (٢٠٥)

عز وجل : أنا عند ظن عبدي بي ، وأنا معه حين يذكرني... " الحديث[١] فإن الذكر في النفس هنا هو ذكر اللسان سراً ، ألا تراه قال في تتمة الحديث : (وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم) ؟ فهما منزلتان للذكر .

ومثل ذلك – أيضاً – يكون الجواب عن احتجاجهم بقوله تعالى : (وأسروا قولكم أو أجهروا به ، إنه عليم بذات الصدور)[٢] . بل هي حجة عليهم لا لهم ، إذ أنه تعالى أثبت لهم قولاً يُسَرُّ به ، وقولاً يُجهر به ، والمجهور إنما يكون برفع الصوت ، وضده الذي يسر به ، ويجمعهما نطق اللسان ، يوضحه قوله تعالى : (وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى)[٣] فهذه ثلاث مراتب : الأولى : الجهر ، والثانية : السر ، والثالثة : هي حديث النفس ، ولذلك قال في الآية : (إنه عليم بذات الصدور) تنبيهاً لهم على أنه إذا كان يعلم ما في الصدور هو المعبر عنه في الآية الأخرى بقوله (وأخفى) فعلمه بالجهر من القول والاسرار به أولى .

وأما الجواب عن احتجاجهم بقوله تعالى : (إلا من اكره وقلبه مطمئن بالإيمان)[٤] فإنه تعالى لم يسم ما في القلب كلاماً ، وإنما قال : (وقلبه مطمئن بالإيمان) لأنه موضعه ومحله في الأصل .

وتسميتهم ما في القلب كلاماً راجع إلى ما أصلوه في مذهبهم من أن الإيمان هو التصديق القلبي ، فمذهبهم في الإيمان هو مذهب الجهمية المرجئة ، أما الإيمان عند أهل السنة والجماعة فهو : تصديق بالقلب ، وقول باللسان ، وعمل بالجوارح ، حقيقة في هذا جميعاً ، فرفع الله الحرج عن المكره رفعاً مؤقتاً للضرورة ، تيسيراً عليه وتخفيفاً لا على أن الإيمان على الحقيقة هو تصديق القلب فقط ، فإنه لو كان كذلك لما كان فرق بين حال الاكراه وعدمه ، ففيم الرخصة إذاً ؟؟

ولو سُلِّمَ – جدلاً – بكون إيمان المكره كلاماً فإنه مقيد بذكر القلب .

قال شيخ الإسلام : " ولم يكن في مسمى الكلام نزاع بين الصحابة والتابعين لهم بإحسان ، وتابعيهم ، لا من أهل السنة ، ولا من أهل البدعة ، بل أول من عُرِف في الإسلام أنه جعل مسمى الكلام المعنى فقط هو عبدالله ابن سعيد بن كلاب[٥] ، وهو متأخر في زمن محنة أحمد بن حنبل ، وقد انكر عليه علماء السنة وعلماء البدعة ، فيمتنع أن يكون الكلام الذي هو أظهر صفات بني آدم ، كما قال تعالى : (فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما انكم تنطقون)[٦] ولفظه لا تحصى وجوهه كثرة ، لم يعرفه أحد من الصحابة والتابعين وتابعيهم ، حتى جاء من قال فيه قولاً لم يسبقه إليه أحد من المسلمين

---

(١) متفق عليه صحيح البخاري رقم (٧٤٠٥) الفتح (٣٨٤/١٣) ،وصحيح مسلم (٢٠٦١/٤) رقم (٢٦٧٥)

(٢) سورة الملك الآية (١٣) .

(٣) سورة طه الآية (٧) .

(٤) سورة النحل الآية (١٠٦) .

(٥) هو : عبدالله بن سعيد بن كُلاَّب ، أبو محمد ، القطان ، متكلم ، يعرف (بابن كُلاَّب) قال السبكي : وكلاب بضم الكاف وتشديد اللام ، قيل : لقب بها لأنه كان يجتذب الناس إلى معتقده إذا ناظر عليه ، كما يجتذب الكلاب الشئ ، له مصنفات منها : " الصفات " و " خلق الأفعال " و " الرد على المعتزلة (ت بعد سنة ٢٤٠هـ بقليل) قال عنه ابن حزم : " إنه شيخ قديم للأشعرية " انظر : لسان الميزان (٢٩٠/٣) طبقات الشافعية (٥١/٢) ، الفهرست لابن النديم (ص٢٥٥) ، مقالات الاشعري (٢٩٨/١-٢٩٩) ، (١١٨/٢،٥٤،٥٢، ٢٠٢-٢٠٣،٢٣١،٢٣٣،٢٤٥) والاعلام (٩٠/٤) .

(٦) سورة الذاريات الآية (٢٣) .

ولا غيرهم "[١] .

وقال أبو نصر السجزي[٢] : " ركبوا مكابرة العيان ، وخرقوا الاجماع المنعقد بين الكافة المسلم والكافر "[٣] بل " ألجأهم الضيق مما دخل عليهم في مقالتهم إلى أن قالوا الأخرس متكلم ، وكذلك الساكت والنائم ، ولهم في حال الخرس والسكوت والنوم كلام هم متكلمون به ، ثم أفصحوا بأن الخرس والسكوت والآفات المانعة من النطق ليست بأضداء للكلام ... وهذه مقالة تبين فضيحة قائلها في ظاهرها من غير رد عليه ، ومن عُلم منه خرق اجماع الكافة ، ومخالفة كل عقلي وسمعي قبله لم يُناظر ، بل يُجانَب ويقمع "[٤] وبهذا يتبين خطأ الأشعرية وبطلان مذهبهم في كلام الله ، وبه يتبين خطأ السيوطي لأنه ردد مذهبهم فيه .

أما مسألة خلق القرآن فقد أنكر السيوطي ذلك قال : " القرآن كلامه تعالى ... غير مخلوق "[٥] وهذا منه رد وإبطال لمذهب المعتزلة .

أدلة السيوطي على أن القرآن غير مخلوق :

١- وكان مما استدل به السيوطي على ما ذهب إليه قوله : " لأنه كلام الله وكلامه صفته "[١] بمعنى أن صفاته تعالى ليست مخلوقة ، والكلام في الصفات فرع عن الكلام في الذات كما قرر ابن تيمية .

٢- ومن أدلة السيوطي أيضاً قوله : " وقد ذكر الله الإنسان في ثمانية عشر موضعاً[٦] ، وقال إنه مخلوق ، وذكر القرآن في أربعة وخمسين موضعاً[٧] ولم يقل إنه مخلوق ، ولما جمع بينهما نبه على ذلك فقال : (الرحمن ، علم القرآن ، خلق الإنسان)[٨] "[٩] وهذا حق فإن الله تعالى فرق بين علمه وبين خلقه ، فالقرآن علمه ، والإنسان خلقه ، وعلمه تعالى غير مخلوق . وبهذه الآية احتج الإمام أحمد -رحمه الله - في رده على الجهمية فيما كتبه للمتوكل في مسألة القرآن ، قال : " قال الله عز وجل : (الرحمن {١} علم القرآن {٢} خلق الإنسان {٣} علمه البيان {٤})[١٠] فأخبر تعالى أن القرآن من علمه ، وقال أيضاً : (قل إن هدى الله هو الهدى ، ولئن اتبعت اهواءهم بعد الذي جاءك من العلم مالك من الله من ولي ولا نصير)[١١] وقال تعالى : (...ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم إنك إذاً لمن الظالمين)[١٢] وقال تعالى : (

---

(١) الإيمان (ص١٢٨) .

(٢) هو : عبيد الله بن سعيد بن حاتم الوائلي ، البكري ، السجزي ، نسبة إلى سجستان ، نزيل الحرم ، ومصر ، من حفاظ الحديث ، سكن مكة وتوفي بها سنة (٤٤٤هـ-١٠٥٢م) . انظر : تذكرة الحفاظ (٣/٢٠٦-٢٠٧، ١١١٨،٢٩٧-٢١٢٠) ، والرسالة المستطرفة (ص٣٠) ، الاعلام (٤/١٩٤) .

(٣) ابن تيمية : درء تعارض العقل والنقل (٢/٨٥-٨٦) .

(٤) السابق (٢/٨٦) .

(٥) الكوكب الساطع لوحة رقم (١٦٤/ب،١٦٥/أ) .

(٦) رجعت إلى المعجم المفهرس فوجدتها كما قال السيوطي : ثمانية عشر موضعاً .

(٧) رجعت إلى المعجم المفهرس فوجدت ما ذكر بلفظ (القرآن) بالافراد والتعريف : في ثمانية وخمسين موضعاً ، وما ذكر بلفظ (قرآناً) بالنصب : في عشرة مواضع أخرى .

(٨) سورة الرحمن الآيات (١-٣) .

(٩) الكوكب الساطع - لوحة رقم (١٦٥/أ) .

(١٠) سورة الرحمن الآيات (١-٤) .

(١١) سورة البقرة الآية (١٤٠) .

(١٢) سورة البقرة الآية (١٤٥) .

وكذلــك أنزلناه حكماً عربياً ولئن اتبعت أهواءهم بعد ما جاءك من العلم ما لك من الله من ولي ولا واق)[١] . فالقرآن من عــلم الله تعالى ، وفي هذه الآيات دليل على أن الذي جاءه – صلى الله عليه وسلم – هو القرآن ، لقوله تعالى : (ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم) "[٢] .

وقال الإمام أحمد – أيضاً – في حكاية مناظرته للجهمية في مجلس المعتصم : " قال لي عبدالرحمن القزّاز : كان الله ولا قــرآن ، فقــلت له : فكــان الله ولا علم ، فأمسك ، ولو زعم أن الله كان ولا علم لكفر بالله "[٣] وقيل للإمام أحمد : قوم يقولــون : إذا قال الرجل : كلام الله ليس بمخلوق ، يقولون من إمامك في هذا ؟ ومن أين قلت : ليس بمخلوق ؟ قال : " الحجة قــول الله تــبارك وتعالى (فمن حاجك فيه مِنْ بعد ما جاءك من العلم)[٤] فما جاءه غير القرآن ... القرآن من علم الله ، وعلم الله ليس بمخلوق ، والقرآن كلام الله ليس بمخلوق ، ومثل هذا في القرآن كثير "[٥] .

وقــال الإمــام أحمد – رحمه الله – : " القرآن علم من علم الله ، فمن زعم أن علم الله مخلوق فهو كافر "[٦] وبناءً على ذلك يمكنني القول : بأن الله تعالى سمى القرآن علماً ، إذ هو الذي جاءه من ربه وهو الذي علمه الله تعالى إياه – صلى الله عليه وسلم – وعلمه تعالى غير مخلوق ، إذ لو كان مخلوقاً لا تصف تعالى بضده قبل الخلق – وهو الجهل – تعالى الله عن ذلك وتنزه وتقدس .

٣- ثم استدل السيوطي بعد ذلك بما ورد عن بعض الصحابة – رضي الله عنهم – منهم ابن عباس – رضي الله عنهما – فقــال[٧] : " أخــرج اللالكائي في " السنة " ، والآجري في " الشريعة " بسند صحيح عن ابن عباس في قوله : (قرآناً عربياً غير ذي عوج)[٨] قال : " غير مخلوق "[٩]

---

(١) سورة الرعد الآية (٣٧) .

(٢) رواه صــالح فــي " المحــنة " (ص١٢١) وعبدالله في " السنة " (رقم ١٠٧) عن أبيهما الإمام أحمد بن حنبل – رحمهم الله جميعاً – . وهي في رسالته إلى المتوكل ضمن كتاب " الرد على الجهمية " لأحمد ، ت د. عبدالرحمن عميرة .

(٣) رواه حنبل في " المحنة " (ص٤٥) عنه .

(٤) سورة آل عمران الآية (٦١) .

(٥) رواه صالح في " المحنة " (ص٦٩) عنه .

(٦) رواه ابن هانيء في " المسائل " (٢/١٥٤،١٥٣) عنه .

(٧) الكوكب الساطع – لوحة رقم (١٦٥/أ) .

(٨) سورة الزمر الآية (٢٨) .

(٩) الالكــائي في السنة (٢/٢٤٢) ، وصحح السيوطي اسناده كما ذكر في المتن،وأخرجه أبو بكر محمد بن الحسين الآجري في " الشريعة " ، كما ذكــر الســيوطي ، وهو في الطبعة الأولى المحققة بتحقيق د. عبدالله بن عمر بن سليمان الدميجي (١/٤٩٥) رقم (١٦٠) ، وأشار المحقق إلى ضعف اسناده ، لضعف أبي عبدالله جعفر بن إدريس القزويني شيخ الآجري ، كما في اللسان (٢/١١٠) عن الدار قطني .

– ورواه البيهقي في " الاسماء والصفات " (١/٣٧٧) .

– وأورده السيوطي في الدر المنثور وعزاه لإبن مردوية ، وعزاه أيضاً للديلمي في " مسند الفردوس " عن أنس عن النبي – صلى الله عليه وسلم – انظر الدر المنثور (٧/٢٢٣) وعزاه كذلك لإبن شاهين في " السنة " عن أبي الدرداء عن النبي – صلى الله عليه وسلم– .

– كما رواه الأصبهاني في " الحجة " (ص١٤٨) .

– وعزاه أبو المظفر السمعاني في " تفسيره " للوالي عن ابن عباس ، انظر (٤/٤٦٧) بتحقيق : أبي تميم ياسر بن إبراهيم ، أبي بلال غنيم بن عباس بن غنيم .

– وانظر : الشوكاني : فتح القدير (٤/٤٦٣) .

– وقال القرطبي : " وعن ابن عباس – أيضاً – غير مخلوق ، ذكره المهدوي ، وقاله السدي فيما ذكره الثعلبي " (١٥/١٦٤) .

٤- ثم استدل السيوطي بأقوال أئمة أهل السنة ، فقال : " وقال الشافعي : إنما خلق الله كل شئ بــ(كُن) فلو كانت (كُن) مخــلوقة لكــان مخــلوق خلق مخلوقاً " ، ثم قال : " قال الأئمة : لو كان (كُن) الأولى مخلوقاً لكان مخلوقاً بكن أخرى ، وهكذا إلى ما لا يتناهى هو محال "[1] وعلى[2] ، ونظير هذا قول النبي – صلى الله عليه وسلم – : " من نزل منزلاً ثم قال : أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق ، لم يضره شئ حتى يرتحل من منزله ذلك "[3] وقوله – صلى الله عليه وسلم – أيضــاً : " من قال إذا أمسى ثلاث مرات : أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق لم تضره حُمَة[4] تلك الليلة " ، قال أبو هريرة : فكان أهلنا قد تعلموها ، فكانوا يقولونها فلدغت جارية منهم فلم تجد لها وجعاً[5] .

إن فــي هذا اثبات شرعية الاستعاذة بكلمات الله تعالى ، فلو كانت كلماته مخلوقة لكانت الاستعاذة بها شركاً ، لأنها استعاذة بمخــلوق ومــن المعلوم أن الاستعاذة بغير اللهُ تعالى وأسمائه وصفاته شرك ، فكيف يصح أن يُعلّم النبي – صلى الله عليه وسلم – أمته ما هو شرك ظاهر ، وهو الذي جاءهم بالتوحيد الخالص ؟؟ ففي هذا دليل على أن كلمات الله تعالى غير مخلوقة

قــال نعيم بن حماد[6] : " لا يستعاذ بالمخلوق ولا بكلام العباد والجن والإنس والملائكة " وقال البخاري عقبه : " وفي هذا دليل أن كلام الله غير مخلوق ، وأن سواه خلق "[7] كما استدل السيوطي أيضاً بكلام نعيم بن حماد قال : " سمعت سفيان بن عيينة وسئل عن القرآن أمخلوق هو ؟ فقال : يقول الله : (ألا له الخلق والأمر)[8] ألا ترى كيف فرق بين الخلق والأمــر ، فالأمر كلامه ، فلو كان كلامه مخلوقاً لم يفرق "[9] وقد استدل الإمام أحمد بآية الاعراف (الا له الخلق والأمر)[10] في رسالته إلى المتوكل عندما طلب منه أن يبين له حقيقة رأيه في مسألة خلق القرآن ، قال أحمد : " وقال (تعالى) : (ألا له الخــلق والأمــر) فأخبر بالخلق ، ثم قال والأمر ، فأخبر أن الأمر غير الخلق "[11] وبهذه الأدلة الدامغة يظهر بطــلان مذهــب المعتزلة المبتدع في قولهم بخلق القرآن ، كما أن نصوص أئمة أهل السنة متضافرة في تكفير من قال إن

---

(١) الكوكــب (١٦٥/أ) وهــذا الأثر رواه اللالكائي في السنة (٢٤٣/٢) ،والبيهقي في الأسماء والصفات (ص٢٥٢) ، وأورده السبكي في طبقات الشافعية (١٦٤/٢) وانظر: تاريخ بغداد (٣٠٢/١٤) .

(٢) سورة الفرقان الآية (٣) .

(٣)أخــرجه أحمد في المسند (٣٧٧،٤٠٩/٦) ، ومسلم في صحيحه (٢٠٨٠/٤) ، والترمذي في سننه رقم (٣٤٣٧) ، والنسائي في " عمل اليوم والليلة " رقــم (٥٦٠،٥٦١) ، وابــن ماجة رقم (٣٥٤٧) من حديث سعد بن أبي وقاص عن خولة بنت حكيم السلمية . وقال الترمذي : " حديث حسن صحيح غريب " وأورد على اسناده اختلاف لا يضر .

(٤) الحُمة ، بضم الحاء المهملة ، وتخفيف الميم ، هي سم العقرب .

(٥) حديث صحيح ، صحيح مسلم (٢٠٨٠/٤) ح رقم (٢٧٠٨) .

- أخــرجه أحمد في " المسند " (٢٩٠/٢) ، والنسائي في " عمل اليوم والليلة " رقم (٥٩٠) من طريق سهيل بن ابي صالح عن أبيه عن أبي هريرة مرفوعاً . واسناده صحيح ، ورجاله رجال الصحيح .

(٦) شيخ الإمام البخاري ، وأحد أعلام السنة .

(٧) خلق أفعال العباد (ص١٤٣) .

(٨) سورة الأعراف الآية (٥٤) .

(٩) الكوكب الساطع – لوحة رقم (١٦٥/أ) وعزاه السيوطي لابن أبي حاتم في كتاب " الرد على الجهمية " . وقد أخرجه أبو داود في " المسائل " (ص٢٦٥) بسند جيد .

(١٠) سورة الأعراف الآية (٥٤) .

(١١) هــذه الرسالة ذكرها الذهبي في " تاريخه " ، وهي أيضاً في " حلية الأولياء " (٢١٦/٩-٢١٩) ورواها ابن الجوزي في " مناقب الإمام أحمد " (ص ٣٧٧) ، ونقلها الشيخ محمد أبو زهرة في كتابه " ابن حنبل حياته وعصره " (ص١٣٤-١٣٧) . قال الذهبي عقب الرسالة : " قلت : رواة هذه الرسالة عن أحمد أئمة اثبات أشهد بالله أنه أملاها على ولده " .

القرآن مخلوق ومن هؤلاء الأئمة على سبيل المثال لا الحصر :

١- سفيان بن سعيد الثوري ، قال : " من قال : إن (قل هو الله أحد ، الله الصمد) مخلوق ، فهو كافر "[١] .

٢- مـــالك بن أنس : قال : " من قال القرآن مخلوق ، يوجع ضرباً ويحبس حتى يموت "[٢] وقال أيضاً : " من قال القرآن مخلوق يؤدب ويحبس حتى تعلم منه التوبة "[٣] وقال : " من قال القرآن مخلوق يستتاب ، فإن تاب وإلا ضربت عنقه "[٤] .

٣- عبدالله بن المبارك : كان يقول : الجهمية كفار "[٥] ، وقال محمد بن أعين ، سمعت النضر بن محمد يقول : من قال : (إنـــني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني) [٦]مخلوق فهو كافر " ، قال : فأتيت ابن المبارك فقلت له : ألا تعجب من أبي محمد قـــال : كـــذا وكذا ؟ ، قال : " وهل الأمر إلا ذاك ، وهل يجد بداً من أن يقول هذا ؟؟ "[٧] . وفي رواية قال : " صدق أبو محمد عافاه الله ، ما كان الله عز وجل يأمر أن نعبد مخلوقاً "[٨] .

٤- أبـــو يوسف صاحب أبي حنيفة ، قال : جيئوني بشاهدين يشهدان على المريسي ، والله لأملأن ظهره وبطنه بالسياط ، يقول في القرآن " يعني : مخلوق[٩] .

٥،٦،٧- معتمر بن سليمان [١٠]. - حماد بن زيد[١١] . - يزيد بن زريع[١٢] .

قال فطر بن حماد : سألت معتمر بن سليمان ، فقلت : يا أبا محمد ، إمام لقوم يقول : القرآن مخلوق ، أُصلي خلفه ؟ فقال : " ينبغي أن تضرب عنقه " . قال فطر وسألت حماد بن زيد ، فقلت يا أبا اسماعيل ، لنا إمام يقول : القرآن مخلوق أُصلي خلفه ؟؟ قال : " صل خلف مسلم أحب إلي " قال فطر : وسألت يزيد بن زريع ، فقلت : يا أبا معاوية ، إمام يقول : القرآن مخلوق ، أصلي خلفه ؟ قال : " لا ، ولا كرامة "[١٣] .

٨- عـــــبدالله بـــــن ادريـــــس الأودي[١٤] ، قـــــال يحيـــــي بـــــن يوســـــف

---

(١) عبدالله بن أحمد في السنة رقم ١٣ بسند جيد .

(٢) الاجري في الشريعة (ص/٧٩) بسند جيد ، عبدالله بن أحمد في السنة رقم (١١)

(٣) عبدالله بن أحمد رقم (٢١٣) . وابن الطبري اللالكائي في السنة رقم (٤٩٧-٤٩٨) بسند صحيح .

(٤) رواه ابن أبي حاتم كما في السنة لابن الطبري رقم (٤٩٥) ، بسند صالح .

(٥) عبدالله بن أحمد في السنة رقم (١٥) بسند صحيح .

(٦) سورة طه الآية رقم (١٤) .

(٧) رواه عبدالله بن أحمد في " السنة " رقم (١٩) بسند جيد .

(٨) رواه عـــبدالله بـــن أحمـــد فـــي البسنة رقم (٢٠) وأبو داود في " المسائل " (ص٢٦٧) والبيهقي في الأسماء والصفات (ص٢٤٨) وابن الطبري اللالكائي رقم (٤٢٨) بسند جيد .

(٩) رواه عبدالله بن أحمد رقم (٥٣) بسند صحيح .

(١٠)معتمر بتن سليمان بن طرفان ، ابو محمد ، حدث عنه الإمام احمد بن حنبل (ت ١٨٧هـ)تذكرة الحفاظ (٢٤٥/١) ، والأعلام (٢٦٥/٧) .

(١١)حماد بن زيد بن درهم الأزدي الجهضمي (ت ١٧٩هـ) تذكرة الحفاظ (٢١١/١) تهذيب التهذيب (٩/٣) ، حلية الأولياء (٢٥٧/٦)، الأعلام (٢٧١/٢) .

(١٢)يزيد بن زريع ، ابو معاوية البصري (ت ١٨٢هـ) تذكرة الحفاظ (٢٣٦/١) تهذيب التهذيب (٣٢٥/١١)، تهذيب الكمال (٣٧١) ، الأعلام(١٨٢/٨) .

(١٣) روايـــات فطر بن حماد هذه عن الأئمة الثلاثة : معتمر ابن سليمان ، حماد بن زيد ، يزيد بن زريع رواها عبدالله ابن الإمام أحمد في " السنة " رقم (٤٢) بسند حسن .

(١٤) من أئمة المسلمين ثقة عابد .

(١٥) ثقة عدل .

(١٦) من أئمة المسلمين ثقة عابد .

(١٧) ثقة عدل .

الزِّمِّي[١] : كنا عند عبدالله بن ادريس ، فجاءه رجل فقال : يا أبا محمد : ما تقول في قوم يقولون القرآن مخلوق ؟ فقال : " أمِنَ اليهود ؟ " قال : لا ، قال : " فمِنَ النصارى ؟ " قال : لا ، قال : فمن المجوس ؟ " قال : لا ، قال : " فيمن ؟ " قال : من أهل التوحيد ، قال : " ليس هؤلاء من أهل التوحيد ، هؤلاء الزنادقة ، من زعم أن القرآن مخلوق ، فقد زعم أن الله مخلوق ، يقو الله : (بسم الله الرحمن الرحيم) فالله لا يكون مخلوقاً ، والرحمن لا يكون مخلوقاً ، وهذا أصل الزنادقة ، من قال هذا فعليه لعنة الله ، لا تجالسوهم ولا تناكحوهم "[٢] .

٩- وكيع بن الجراح : قال أبو جعفر السويدي : سمعت وكيعاً وقيل له : إن فلاناً يقول : إن القرآن محدث ، فقال : " سبحان الله ، هذا كفر " وسئل عن الجهمية فقال : " لا يُصلي خلفهم "[٣] .

١٠- سفيان بن عيينة : قال : " القرآن كلام الله عز وجل ، من قال : مخلوق فهو كافر ، ومن شك في كفره فهو كافر "[٤] . وغير هؤلاء الذين ذكرتهم خلق كثير وردت أقوالهم صريحة في تكفير من قال إن القرآن مخلوق ، ولا يتسع المجال هنا لاستيعابهم جميعاً ، إلا أن يفردوا بمصنف مستقل[٥] .

٩- صفة الوجه :

أوّل السيوطي صفة الوجه بالذات فقال : " وما ورد في الكتاب والسنة من المشكل من الصفات نؤمن بظاهره وننزهه عن حقيقته كقوله تعالى : (ويبقى وجه ربك)[٦] ... ثم نفوض معناه المراد إليه تعالى كما هو مذهب السلف وهو أسلم أو نؤول كما هو مذهب الخلف ... الوجه بالذات "[٧] ويظهر أنه قد استحسن مذهب الخلف فجنح إلى التأويل – كما سنرى – ، والعجيب في الأمر أنه نسب كلاً من التفويض والتأويل إلى مذهب أهل السنة[٨] .

أما أنها طريقة خلفية ، فهو صحيح ، وأما أنها طريقة لأهل السنة فهذا هو الباطل بعينه ، لأن أهل السنة والجماعة عقيدتهم اثبات صفات الله كما وردت من غير تأويل ولا تحريف ، ولا تمثيل ولا تعطيل .

قال ابن تيمية : " قال لي بعض الناس : إذا أردنا أن نسلك سبيل السلامة والسكوت ، وهي الطريقة التي تصلح عليها السلامة – قلنا كما قال الشافعي – رضي الله عنه – : آمنت بالله وبما جاء عن الله على مراد الله ، وآمنت برسول

---

(١) رواه البخاري في " خلق أفعال العباد " رقم (٥) وعبدالله بن أحمد في " السنة " رقم (٢٩) وابن الطبري اللالكائي رقم (٤٣٢) بسند صحيح ، الآجري في " الشريعة " (٤٩٦/١) رقم (١٦١) بتحقيق د. عبدالله بن عمر الديجي – دار الوطن ط١٤١٨/١هـ–١٩٩٧م .

(٢) عبد الله بن أحمد في السنة برقم (٣٣) ، بسند صحيح .

(٣) نفس المصدر السابق ، رقم (٢٥) ، بسند صحيح .

(٤) ذكر الآجري جمعاً من الأئمة يقولون : القرآن غير مخلوق ، الشريعة (٥٢٤/١) .

(٥) سورة الرحمن الآية (٢٨) .

(٦) رسالة في علم التوحيد – مخطوط لوحة رقم (٤،٥) ، والكوكب الساطع – مخطوط – لوحة رقم (١٦٤/أ ، ب) .

(٧) انظر : الكوكب الساطع – لوحة رقم (١٦٤/أ ، ب) .

(٨) أورد كلام الشافعي ابن قدامة المقدسي في " لمعة الاعتقاد " (ص٦،٧) .

الله وما جاء عن رسول الله على مراد رسول الله [١] ، وإذا سلكنا سبيل البحث والتحقيق فإن الحق مذهب من يتأول الصفات ، وأحاديث الصفات من المتكلمين . فقلت له - يعني ابن تيمية - : أما ما قال الشافعي فإنه حق يجب على كل مسلم أن يعتقده ، ومن اعتقده ولم يأت بقول يناقضه فإنه سالك سبيل السلامة في الدنيا والآخرة وأما إذا بحث الإنسان وفحص وجد ما يقوله المتكلمون من التأويل الذي يخالفون به أهل الحديث كله باطلاً ، ويتقن أن الحق مع أهل الحديث ظاهراً وباطناً "[٢] ، وبين ابن تيمية مذهب أهل الحديث فقال : " مذهب أهل الحديث وهم السلف من القرون الثلاثة المفضلة ، ومن سلك سبيلهم من الخلف : أن هذه الأحاديث تمر كما جاءت ، ويؤمن بها وتصدق وتصان عن تأويل يفضي إلى تعطيل ، وتكييف يفضي إلى تمثيل "[٣] . وهذا هو المذهب الحق ، مذهب أهل السنة والجماعة الذي أنزله الله تعالى على نبيه - صلى الله عليه وسلم - وبناءً على معرفة هذا النهج الصحيح : أرى أن السيوطي قد أخطأ في تأويل صفة الوجه بالذات كما أخطأ جميع المؤولة في ذلك . وهؤلاء المؤولة للصفات قد لجأوا للتأويل الفاسد ظناً منهم أن اثبات الصفات يؤدي إلى تشبيه الخالق جل وعلا بالمخلوق ، وأن له جوارح وأعضاء تشبه جوارح المخلوق ، وهو وهمٌ فاسد أدى إلى تأويل فاسد . فالمؤول قد افترض التشبيه والمماثلة بين الله تعالى وبين الخلق في ذهنه ، ثم أراد أن يتخلص من هذا التشبيه فنفى عن الله ما أثبته لنفسه وبذلك وقعوا في محذورين عظيمين :

<u>أولهما :</u> توهم التشبيه من اثبات الصفات .

<u>الثاني :</u> نفي الصفات لئلا يقعوا في التشبيه .

وقد أفضى بهم ذلك إلى جرأة كبيرة على قدسية النصوص الشرعية ، إما بالتأويل إن كانت قرآناً ، وإما بالرد وعدم القبول إن كانت أحاديث بزعم أنها آحاد لا تنهض إلى درجة الاحتجاج بها في العقائد . وكلاهما باطل . لأن مؤدي هذا هو القدح في الشارع ، واتهامه في بيانه ونصحه .

إذا تقرر هذا ، فإنني أقول إن صفة " الوجه " صفة ثابتة بكتاب الله تعالى ولسنة رسوله - صلى الله عليه وسلم - الصحيحة قال تعالى : (كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام)[٤] وقال تعالى : (فأينما تولوا فثم وجه الله)[٥] وقال تعالى : (كل شئ هالك إلا وجهه)[٦] وقال - صلى الله عليه وسلم - : " حجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه "[٧].

---

(١) أورد كلام الشافعي ابن قدامة المقدسي في " لمعة الاعتقاد " (ص٦،٧) .

(٢) الرسالة المدنية (٢٧٠) - بحث نظري وتطبيقي في الأسماء والصفات - ت: الوليد ابن عبدالرحمن الفريان - ط١٤٠٨/١هـ - دار طيبة - الرياض .

(٣) نفسه (ص٢٩) .

(٤) سورة الرحمن الأيتان (٢٦،٢٧) .

(٥) سورة البقرة الآية (١١٥) .

(٦) سورة القصص الآية (٨٨) .

(٧) حديث صحيح : رواه مسلم في " صحيحه " كتاب الإيمان (١) باب (٧٩) ح رقم (١٧٩/٢٩٣) (١٦٢/١) ، وأحمد في " المسند " (٣٩٥،٤٠٥/٤) والدارمي في " الرد على الجهمية " (ص٢٧٨) والآجري في " الشريعة " ح/٦٥٩،٦٦٠ (١٠٨٣/٣-١٠٨٥) واللالكائي ح/٦٩٦ (٤١٤/٣) والبيهقي في " الأسماء والصفات " (٢٩٥/١) ، وابن خزيمة في التوحيد (ص٧٤) ، وابن ماجة في المقدمة ح/١٩٦ (٧١/١) .

وقال – صلى الله عليه وسلم – أيضاً : " ... وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم عز وجل إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن "[1] .

وغيرها من الأحاديث[2] ، وقد صح في قوله تعالى : (للذين أحسنو الحسنى وزيادة)[3] أن الزيادة هي النظر إلى وجه الله تعالى الكريم ، عن النبي – صلى الله عليه وسلم – وذلك في قوله : " إن أهل الجنة إذا دخلوا الجنة نودوا : أن يا أهل الجنة ، إن لكم عند الله – عز وجل – موعداً لم تروه ، قالوا : وما هو ؟ ألم يبيض وجوهنا ؟ ويزحزحنا عن النار ؟ ويدخلنا الجنة ؟ قال : فيكشف الحجاب فينظرون إليه تبارك وتعالى ، فوالله ما أعطاهم الله عز وجل شيئاً أحب إليهم منه " ثم تلا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة)[4] . ومع أن اللفظ في هذا غير صريح في بيان صفة الوجه ولكن تفسره الأحاديث السابقة .

وهذا كله إنما يدل على اثبات صفة الوجه لله تعالى حقيقة على ما يليق به ، وأن تأويل السيوطي وغيره لها لا يصح ، بل هو باطل لأنه حمل للكلام على غير معناه الحقيقي ، ولا يصح ذلك إلا بقرينة مانعة من حمله على الحقيقة ، وليس فيما أوردته من الأدلة أي قرينة صحيحة تمنع ذلك[5] . كما أن القول بإثبات صفة الوجه لله تعالى على ما يليق بجلاله وعظمته هو قول السلف ومن تبعهم من أهل السنة والجماعة ، وهو الحق ومن العجيب حقاً أن ترى منتسباً إلى مذهب ما لا يوافق مؤسس مذهبه ، بل يخالفه ويذهب إلى ما لم يقله إمامه ، وأوضح هذا بمثالين :

__أولهما :__ السيوطي ، وهو في أساس مذهبه أشعري ، فإنه خالف إمامه أبا الحسن الأشعري في تقرير هذه الصفة واثباتها ، حيث قال الإمام أبو الحسن : " من سألنا فقال : أتقولون إن الله سبحانه وجهاً ؟ قيل له : نقول ذلك خلافاً لما قاله المبتدعون ، وقد دل على ذلك قوله عز وجل : (ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام)[6] "[7] .

وإن من الانصاف أن يقال إن من الأشاعرة – ايضاً – من أثبت صفة الوجه ، اقتناعاً بالدليل ، وابتاعاً لإمام

---

(١) أخرجه الشيخان في صحيحيهما :
– البخاري في " صحيحه " كتاب التوحيد (٩٧) باب (٢٤) ، ح رقم (٧٤٤٤) الفتح (٤٢٣/١٣) .
– ومسلم في " صحيحه " كتاب الإيمان (١) باب (٨٠) ، ح رقم (٢٩٦/١٨٠) (١٦٣/١) .

(٢) انظر : ما أورده ابن خزيمة في كتاب التوحيد (٢٤/١–٤٤) ، والآجري في " الشريعة " (١٠٨٣/٣–١٠٨٥) رقم (٦٥٩،٦٦٠) ، الدارمي في " الرد على بشر المريس العنيد " ضمن عقائد السلف (٥١٧–٥١٩) ، البيهقي في " الأسماء والصفات " (٣٠١–٣٠٢) وانظر : ابن حجر في الفتح (٣٨٨/١٣) ، وابن القيم في " مختصر الصواعق المرسلة (٣٣٥–٣٤٤) .

(٣) سورة يونس الآية (٢٦) .

(٤) رواه مسلم في " صحيحه " كتاب الإيمان (١) باب (٨٠) ح رقم (١٨١) (١٦٣/١) . والإمام أحمد في " المسند " (٣٣٢/٤) ، (١٥/٦–١٦) ، وابن خزيمة في " التوحيد (ص١٨١) ، عبدالله بن أحمد في " السنة " (٢٤٥/١) ح رقم (٤٤٩) . والبيهقي في الاعتقاد (ص٤٨) ، كلهم من طريق يزيد بن هارون قال : أخبرنا حماد بن سلمة ... به .
– ورواه مسلم في " صحيحه " ح رقم (١٨١) (١٦٣/١) وأحمد في المسند (٣٣٣/٤) ، والترمذي ح رقم (٢٥٥٢) (٦٨٧/٤) كلهم من طريق عبدالرحمن ابن مهدي قال : حدثنا حماد ... به .

(٥) انظر : ما أورده الدارمي من رودود على المعطلة لهذه الصفة ، في " الرد على بشر المريسي العنيد " (٥١٥) وما بعدها ضمن عقائد السلف . وكذلك ابن القيم في " مختصر الصواعق المرسلة (٣٣٦–٣٤٤) فقد أجادا وأفادا – رحمهما الله رحمة واسعة – .

(٦) سورة الرحمن الآية (٢٧) .

(٧) الابانة عن أصول الديانة (ص ١٢٤) ت.د. فوقية حسين محمود – دار الأنصار – القاهرة .

المذهـــب الـــذي وافق عقيدة السلف منهم على سبيل المثال : الحافظ أبو بكر البيهقي [١] ، وأستاذه وشيخه : الحافظ أبو بكر بن فورك . أثبت البيهقي ذلك في كتابه الجليل " الأسماء والصفات "[٢] وأثبتها أيضاً ابن فورك في كتابه " مشكل الحديث "[٣] .

والـــثاني : فهـــو أبو الفرج ابن الجوزي ، وهو حنبلي المذهب ، لكنه ذهب إلى تأويل الوجه بالذات ، في كتابه " دفع شبه التشـــبيه "[٤] وذهب إلى تفويضها في " تلبيس ابليس "[٥] مما يدل على اضطرابه في قضية الصفات ، وجهله بمذهب إمامه أحمد بن حنبل ، فلا يكون حجة على مذهب الحنابلة ، كما أن السيوطي ليس بحجة على مذهب الأشعري .

١٠- صفة العينين :

أولهـــا السيوطي بالبصر[٦] ، وهو تأويل باطل ، فالبصر صفة ذاتية ، والعينان صفة أخرى خبرية وذاتية أيضاً . وهـــي ثابـــتة لله جل وعلا بالكتاب والسنة ، ويعتقد أهل السنة أن الله تعالى له عينان تليقان به جل وعلا . أما آيات الكتاب فقولـــه تعـــالى : (واصـــنع الفـــلك بأعينـــنا ...)[٧] وقولـــه تعـــالى : (... ولتصـــنع عـــلى عيني)[٨] وقوله تعالى : (واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا)[٩] ومن السنة :

١- قوله – صلى الله عليه وسلم – : " إن الله لا يخفى عليكم ، إن الله ليس بأعور (وأشار إلى عينيه) ، وإن المسيح الدجال أعور عين اليمنى ، كأن عينه عنبة طافية "[١٠] .

٢- وورد عن النبي – صلى الله عليه وسلم – أنه قرأ هذه الآية : (إن الله كان سميعاً بصيراً)[١١] فوضع إبهامه على أذنه ، والـــتي تـــليها على عينيه "[١٢] . قال ابن خزيمة : " واجب على كل مؤمن أن يثبت لخالقه وبارئه ما ثبت الخالق البارئ لنفسه من العين ، وغير مؤمن من ينفي عن الله تبارك وتعالى ما قد ثبته الله في محكم تنزيله ببيان النبي – صلى الله عـــليه وســـلم – الـــذي جعلـــه الله مبيـــناً عـــنه عـــز وجـــل فـــي قولـــه : (وأنزلـــنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم)[١٣] فبين النبي – صلى الله عليه وسلم – أن لله عينين ، فكان بيانه موافقاً

---

(١) يرى بعض الباحثين أن الإمام أبا بكر البيهقي ليس من الأشاعرة بدليل كتابه : " الأسماء والصفات " وهو رأي له وجاهته .

(٢) انظر (ص٣٠١-٣٠٢) ، د.أحمد بن عطية بن علي الزهراني : البيهقي وموقفه من الالهيات (ص٢٣٢-٢٣٤) .

(٣) انظر : (ص١٧١) ، د.أحمد الزهراني : البيهقي وموقفه من الالهيات (ص٢٣٢-٢٣٤) .

(٤) (ص٣) ت: محمد زاهد الكوثري .

(٥) انظر (ص٩٦) .

(٦) انظر : الكوكب الساطع (١٦٤/ب) ، ورسالة التوحيد (ورقة ٤ / مخطوط) .

(٧) سورة هود الآية (٣٧) .

(٨) سورة طه الآية (٤٨) .

(٩) سورة الطور الآية (٤٨) .

(١٠) رواه الـــبخاري في " صحيحه " كتاب التوحيد (٩٧) باب (١٧) ح رقم (٧٤٠٧) الفتح (٣٨٩/١٣) ن وفي كتاب الفتن (٩٢) ح رقم (٧١٢٣) الفـــتح (٩٠/١٣) .ورواه مسلم في " صحيحه " كتاب الفتن (٥٢) باب (٢٠) ح رقم (١٠٠-١٦٩) (٢٢٤٧/٤) ، وابن أبي شيبة في " المصنف " كتاب الفتن ، ح رقم (١٩٣٠٢) – (١٢٨/١٥) ، وأحمد في " المسند " (١٣١/٢،٣٧،٢٧) ، والترمذي في سننه – كتاب الفتن ح رقم (٢٢٤١) (٥١٤/٤) ، عبدالله بن أحمد في " السنة " ح رقم (٩٩٨) (٤٤٥/٢) وح رقم (١٠٠٠) (٤٤٦/٢) وح رقم (١٠١١) (٤٥٠/٢) ، والأجري في " الشريعة " ح رقم (٨٨٣) (١٣١٣/٣) .

(١١) سورة النساء الآية (٥٨) .

(١٢) سبق تخريجه في أثناء الحديث عن صفتي السمع والبصر .

(١٣) سورة النحل الآية (٤٤) .

لـبيان محكـم التنزيل الذي هو مسطور بين الدفتين مقروء في المحاريب والكتاتيب "[١] وقال الشيخ ابن عثيمين : " وأجمع أهل السنة على أن العينين اثنتان "[٢] .

١١- صفة اليدين :

هي صفة ذاتية خبرية ، ذهب السيوطي إلى تأويلها بالقدرة [٣] ، وهذا التأويل باطل ، لأن هذه الصفة ثابتة بالكتاب والسنة ، والاجماع .

قـال تعـالى مخاطـباً ابـليس - لنعه الله - : (ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي)[٤] وقال تعالى : (بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء)[٥] وقال تعالى (تعز من تشاء وتذلك من تشاء بيدك الخير...)[٦] وقال تعالى : (يد الله فوق أيديهم)[٧] ومن السنة :

١- أن موسى - عليه السلام - لما التقى هو وآدم - عليه السلام - قال له : " ...أنت الذي خلقك الله بيده... "[٨] الحديث .

٢- وقولـه - صلى الله عليه وسلم - : " إن أحدكم ليتصدق بالتمرة من طيب ، ولا يقبل الله إلا طيباً ، فيجعلها الله في يده اليمنى ، ثم يربيها كما يربي أحدكم فلوه[٩] أو فصيله ، حتى تصير مثل أحد "[١٠] .

٣- وقـال - صلى الله عليه وسلم - : " إن الله تعالى يبسط يده بالليل ليتوب مسئ النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسئ الليل ، حتى تطلع الشمس من مغربها "[١١] .

٤- وقوله - صلى الله عليه وسلم - : " إن يمين الله ملأى لا يفيضها نفقة ... وبيده الأخرى القبض يرفع ويخفض "[١٢] .

---

(١) (٩٧/١) وانظر أيضاً : (١١٤/١) .

(٢) " عقيـدة أهـل السنة والجماعة " (ص١٢) ، وانظر : أبو الحسن الأشعري في " الابانة " (ص١٢٠) ، السفاريني في " لوامع الأنوار البهية (١/ ٢٤٠-٢٤١) ، أبـو عـبدالرحمن الحسـن بن عبدالرحمن العلوي في " الإمام الخطابي ومنهجه في العقيدة " (ص١٥٠-١٥٢) ، البيهقي في " الاسماء والصفات " (ص٣١٢ وما بعدها) ، علوي بن عبدالقادر السقاف في " صفات الله عز وجل الواردة في الكتاب والسنة " (ص١٨٧-١٨٩) ، الـبيهقي فـي " الاعتقاد " (ص٢٩) ، د/ أحمد بن عطية الزهراني : البيهقي وموقفه من الالهيات (ص٢٤١) ، الكواشف الجلية عن معاني الواسطية - للشيخ عبدالعزيز المحمد السلمان (ص٢٤٩-٢٥٤) .

(٣) الكوكب الساطع (ورقة١٦٤/ب) .

(٤) سورة ص الآية (٧٥) .

(٥) سورة المائدة الآية (٦٤) .

(٦) سورة آل عمران الآية (٢٦) .

(٧) سورة الفتح الآية (١٠) .

(٨) سبق تخريجه أثناء الحديث عن صفة الكلام .

(٩) الفـلو : أي المهر الصغير ، سمي بذلك لأنه فلي عن أمه أي فصل وعزل ، وقيل هو العظيم من أولاد ذوات الحوافر ، والفصيل ما فصل عن اللـبن ، وأكثر ما يطلق على الابل ، وقد يقال في البقر ، وفي الفلو ، لغتان فصيحتان : أفصحهما وأشهرهما فتح الفاء وضم اللام وتشديد الواو (فَلُوّ) والثانية : بكسر الفاء وإسكان اللام وتخفيف الواو . (فِلْو) . انظر : لسان العرب (١٦٢/١٥) .

(١٠) أخرجه : البخاري في " صحيحه " - كتاب الزكاة (٢٤) باب باب (٨) ح رقم (١٤١٠) الفتح (٢٧٧/٣-٢٧٨) ، وأيضاً في كتاب التوحيد (٩) ، باب (٢٣) الفتح (٤١٥/١٣) .- ومسلم في " صحيحه " - كتاب الزكاة ، باب (١٩) (٧٠٢/٢) .وغيرهما .

(١١) أخرجه مسلم في " صحيحه " كتاب التوبة (٤٩) باب (٥) ، ح رقم (٣١-٢٧٥٩) (٢١١٣/٤) .
- وابن خزيمة في " التوحيد " ح رقم (٧-٩٩) باب (٦-٢٣) (١٧٦/١) .

(١٢) أخـرجه الـبخاري فـي " صحيحه " - كتاب التوحيد (٩٧) باب (٢٢) ، - رقم (٧٤١٩) ، الفتح (٤٠٣/١٣) ، ومسلم في " صحيحه " كتاب الزكاة ، باب (١١) ح رقم (٣٦-٩٩٣) ، (٦٩١/٢) .

قال ابن خزيمة : " باب ذكر اثبات اليد للخالق البارئ جل وعلا ، والبيان أن الله تعالى له يدان كما أعلمنا في محكم تنزيله ... " ثم قال : " باب ذكر البيان من سنة النبي – صلى الله عليه وسلم – على اثبات يد الله جل وعلا ، موافقاً لما تلونا من تـنزيل ربعـاً لا مخالفاً ، قد نزه الله نبيه وأعلى درجته ، ورفع قدره عن أن يقول إلا ما هو موافق لما أنزل الله عليه من وحيه "[١] وحكى أبو الحسن الأشعري اجماع أهل السنة على اثبات اليدين لله جل وعلا فقال : " وأجمعوا على أنه عز وجل يسـمع ويـرى ، وأن له تعالى يدين مبسوطتين "[٢] وقال أبو الحسن – أيضاً – : " وأن الأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه ، من غير أن يكون جوازاً[٣] ، وأن يديه تعالى غير نعمته ، وقد دل على ذلك تشريفه لآدم عليه السـلام حيث خلقه بيده ، وتثريعه إبليس على الاستكبار عن السجود مع ما شرفه به بقوله : (ما منعك أن تسجد لما خلقت بيـدي)[٤] "[٥] . فموقف الأشعري هنا يتطابقْ مع عقيدة السلف تماماً في قضية الصفات ، حيث نص بصريح العبارة على أن صـفتي اليد والقبضة صفتان ثابتتان لله تعالى ، وأن الله تعالى موصوف بهما حقيقة لا مجازاً ، وأن يديه غير نعمته ، كمـا أنهما غير قدرته ، وهذا إن دل على شئ ، فإنما يدل على مدى الخلاف الكبير بين رأي أبي الحسن الأشعري ورأي المـتأخرين المنتسبين إليه مذهباً ممن صاروا إلى التأويل في الصفات مثل الرازي والغزالي وابن العربي ، وكذا السيوطي وغيـرهم ، ومـا ذهـب إليـه الاشعري في صفتي اليد والقبضة هو نفس ما استدل به كبار الأئمة والباحثين على مخالفة الأشـاعرة لشيخهم في ذلك[٦] . قال شيخ الإسلام ابن تيمية بعد أن ساق الآيات القرآنية التي تثبت صفة اليدين لله جل وعلا قـال : " وقد تواتر في السنة مجئ " اليد " فيْ حديث النبي – صلى الله عليه وسلم – فالمفهوم من هذا الكلام أن الله تعالى يديـن مختصـتان به ذاتيتان له ، كما يليق بجلاله ، وأنه سبحانه خلق آدم بيده دون الملائكة وابليس ، وأنه سبحانه يقبض الأرض ، ويطـوي السموات بيده اليمنى ، وأن (يداه مبسوطتان) ومعنى بسطهما بذل الجود وسعة العطاء ، لأن الاعطاء والجـود – فـي الغـالب – يكون ببسط اليد ومدها "[٧] قال شيخ الإسلام هذا الكلام المتقدم في معرض مناظرته لأحد نفاة الصفات ، ثم قال : " قلت له : فالقائل : إن زعم أنه ليس له يد من جنس أيدي المخلوقين ، وأن يده ليست جارحة فهذا حق ، وإن زعـم أنـه ليـس له يد زائدة على الصفات السبع فهو مبطل "[٨] وبعد أن أوردت أدلة صفة اليدين من الكتاب والسنة ، ونقلت دليل الاجماع على اثباتها ، بقى أن أقول : إن تأويل النفاة لليدين بالقدرة أو بالنعمة باطل من وجوه :

<u>**الأول :**</u> أن لفظ " اليدين " بصيغة التثنية لم يستعمل في النعمة ولا في القدرة ، لأن اللغة العربية قد ورد فيها :

– استعمال الواحد في الجمع ، كما في قوله تعالى : (إن الإنسان لفي خسر)[٩] .

---

(١) كتاب التوحيد واثبات صفات الرب عو وجل (١/١١٨-١٨٦) .

(٢) رسالته إلى أهل الثغر (ص٧٢) ت.د. محمد السيد الجليند .

(٣) أي مجازاً ، بل هي حقيقة .

(٤) سورة ص الآية (٧٥) .

(٥) رسالة إلى أهل الثغر (ص٧٢-٧٣) ، وانظر ابن تيمية : مجموع الفتاوى (٦/٣٦٩) .

(٦) انظر : الاشعري : رسالة : إلى أهل الثغر (ص٦٩،٧٣) هامش التحقيق . وانظر : موقف ابن تيمية من الأشاعرة .

(٧) مجموع التفاوى (٦/٣٦٣،٣٦٢) .

(٨) نفسه (ص٣٦٣) .

(٩) سورة العصر الآية (٢) .

- واستعمال لفظ الجمع في الواحد ، كقوله تعالى : (الذين قال لهم الناس : إن الناس)[١] فلفظة (الناس) الأولى المقصود بها نعيم بن مسعود الأشجعي ، ولفظة (الناس) الثانية المقصود بها أبو سفيان[٢] .

- واستعمال لفظ الجمع في الاثنين كقوله تعالى : (صغت قلوبكما)[٣] . أما استعمال لفظ الواحد في الاثنين أو الاثنين في الواحد فلا أصل له ، ذلك لأن هذه الالفاظ عدد وهي نصوص في معناها لا يتجوز بها ، ولا يجوز أن يقال : عندي رجل ويعني رجلين ، ولا يجوز أيضاً أن يقال : عندي رجلان ويعني به الجنس . لأن اسم الواحد يدل على الجنس والجنس فيه شياع ، وكذلك اسم الجمع فيه معنى الجنس والجنس يحصل بحصول الواحد[٤] .

فقوله تعالى : (لما خلقت بيدي) لا يجوز أن يراد به القدرة ، لأن القدرة صفة واحدة ، ولا يجوز أن يعبر عن الواحد بالاثنين[٥] . ولا يجوز كذلك أن يراد به النعمة ، لأن نعم الله لا تحصى ، ولا يجوز كذلك أن يعبر عن النعم التي لا تحصى بصيغة التثنية . ولا يجوز أيضاً أن يكون المعنى (لما خلقت أنا) لأنه لو أريد ذلك لأضيف الفعل إلى اليد مباشرة كقوله تعالى : (بما قدمت يداك)[٦] وكقوله تعالى : (ذلك بما قدمت أيديكم)[٧] فأسند الفعل إلى اليد مباشرة . أما إذا أضاف الفعل إلى الفاعل ، وعُدي الفعل إلى اليد بحرف الباء كقوله هنا (لما خلقت بيدي) فإنه نص في أنه فعل الفعل بيديه ، ولهذا لا يصح لمن تكلم أو مشى أن يقال : فعلت هذا بيديك ، ولكن يجوز أن يقال : هذا فعلته يداك ، لأن مجرد قوله فعلت كافي في الاضافة إلى الفاعل ، فلو لم يرد أنه فعله باليد حقيقة كان ذلك زيادة محضة من غير فائدة[٨] ، قال شيخ الإسلام : " ولست تجد في كلام العرب ... أن فصيحاً يقول فعلت هذا بيدي ... إلا ويكون فعله بيديه حقيقة ، ولا يجوز أن يكون لا يد له "[٩] .

<u>الوجه الثاني :</u> أن يقال : ما الموجب لصرف " اليد " عن حقيقة معناها ؟ الجواب : أنه لا موجب ولا مسوغ لأن يصرف معنى اليد على أن يراد بها يد حقيقة . فإن قيل : يجب صرفها عن المعنى الحقيقي لأن " اليد " جارحة وذلك ممتنع على الله سبحانه ، فجوابه أن يقال : الممتنع وصفه تعالى بيد من جنس أيدي المخلوقين ، فهذا ينزه عنه سبحانه وتعالى - وبلا ريب - ولكن " لم لا يجوز أن يكون له يد تناسب ذاته ، تستحق من صفات الكمال ما تستحق الذات ؟؟ "[١٠] إن حقيقة اللفظ وظاهره " يد " يستحقها الخالق جل وعلا كالعلم والقدرة وغيرها من الصفات العلية ، لا تشبه صفات المخلوقين ، فكما أن الذات العلية لا تشبه ذوات المخلوقين ، فكذلك صفاتها .

---

(١) سورة آل عمران الآية (١٧٣) .
(٢) تفسير الجلالين (٨٥) ، وابن كثير (٢/١٤٣-١٤٧) .
(٣) سورة التحريم الآية (٤) .
(٤) أنظر : ابن تيمية : مجموع الفتاوى (٦/٣٦٥) .
(٥) نفس المرجع السابق .
(٦) سورة الحج الآية (١٠) .
(٧) سورة آل عمران الآية (١٨٢) .
(٨) انظر ابن تيمية : مجموع الفتاوى (٦/٣٦٦،٣٦٥) . وأبو الحسن : الابانة (١٣١) .
(٩) نفسه (٦/٣٦٦) . وانظر : الاشعري : الابانة (ص١٣٣) .
(١٠) نفسه (٦/٣٦٧) .

الوجــه الــثالث : لم يرد في كتاب الله تعالى ما يدل على أن المراد باليد خلاف ظاهرها ، أو ما يدل على أن الظاهر غير مراد من لفظة اليد ، وليس كذلك في سنة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ما يدل على نفي الظاهر بوجه من الوجوه . وكذلك ليس في العقل ما يدل دلالة ظاهرة على أن الباري تعالى لا " يد " له ألبتة .

" فــإذا لم يكن في السمع ولا في العقل ما ينفي حقيقة اليد ألبتة ، وإن فرض ما ينافيها فإنما هو من الوجوه الخفية عند من يدعيه – وإلا ففي الحقيقة إنما هو شبهة فاسدة – فهل يجوز أن يملأ الكتاب والسنة من ذكر اليد وأن الله تعالى خلق بيــده ، وأن يداه مبسوطتان وأن الملك بيده ، وفي الحديث الشيء الكثير ، ثم إن رسول الله – صلى الله عليه وسلم –وأولى الأمــر لا يبينون للناس أن هذا الكلام لا يراد به حقيقته ولا ظاهره ، حتى ينشأ جهم بن صفوان بعد انقراض عصر الصحابة فيــبين للـــناس ما نزل إليهم على نبيهم ، ويتبعه بشر بن غياث ومن سلك سبيلهم من كل مغموص عليه بالنفاق "[١] وكيف يجوز أن يقول الله تعالى : (ما فرطنا في الكتاب من شئ)[٢] وكيف يجوز أيضاً أن يعلمنا النبي – صلى الله عليه وسلم – كل شئ حتى " الخراءة " ثم يترك الكتاب المنزل عليه وسنته الغراء مملوءة مما يزعم الخصم أن ظاهره تشبيه وتجسيم وأن اعــتقاد ظاهره ضلال ، وهو لا يبين ذلك ولا يوضحه ؟؟ وكيف يجوز للسلف أن يقولوا أمروها كما جاءت ، مع أن معناها المجــازي هــو المراد ، وهو شئ لا يفهمه العرب ، حتى يكون أبناء الفرس والروم أعلم بلغة العرب من أبناء المهاجرين والأنصار ؟![٣] وبعد أن ثبت بطلان ما ذهب إليه المؤولة من تأويل صفة " اليدين " لم يبق أمام هؤلاء إلا أن يلتزموا مذهب أهل الحق ، الذي هو مذهب أهل السنة والجماعة وهو وجوب اثبات ما أثبته الله تعالى لنفسه ، وأثبته له رسوله – صلى الله عــليه وســلم – من الصفات ، **إثباتاً حقيقياً بلا تكييف ولا تمثيل ، وتنزيهاً بلا تحريف ولا تعطيل (ليس كمثله شئ وهو السميع البصير)**[٤] .

١٢- صفة الأصابع :

وهي من صفات الله تعالى الذاتية الخبرية الثابتة بالسنة الصحيحة وأدلة اثباتها كثيرة منها :

قولــه – صـــلى الله عليه وسلم – : " إن قلوب بني آدم كلها بين أصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصرفه حيــث يشــاء " ثــم قال – صلى الله عليه وسلم – : " اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك "[٥] . قال إمام الأئمة أبو بكر بن خزيمة : " باب اثبات الأصابع لله عز وجل " ثم ذكر بأسانيده أدلة ذلك[٦] . وقال الآجري : " باب الإيمان بأن قلوب الخلائق بين أصبعين من أصابع الرب عز وجل بلا كيف "[٧] . وقال البغوي : " والاصبع المذكورة في الحديث صفة من صفات الله عز وجل ، وكذلك كل ما جاء به الكتاب أو السنة من هذا القبيل من صفات الله تعالى كالنفس ، والوجه

---

(١) مجموع الفتاوى (٣٦٧/٦-٣٦٨) .
(٢) سورة الأنعام الآية (٣٨) .
(٣) انظر السابق نفسه (٣٦٨/٦-٣٦٩) .
(٤) سورة الشورى الآية (١١) .
(٥) مسلم (٢٦٥٤) .
(٦) توحيد (١٨٧/١) .
(٧) الشريعة (١١٥٦/٣) .

، والعيـــن ، واليد ، والرجل ، والآيتان ، والمجئ ، والنزول إلى السماء الدنيا ، والاستواء على العرش والضحك ، والفرح "[١] أما السيوطي فقد ذهب إلى تأويل الاصابع بالقدرة ، قال : " والمراد في الحديث أن قلوب العباد كلها بالنسبة إلى قدرته تعـــالى شئ يسير يصرفه كيف يشاء ، كما يقلب الواحد من عباده اليسير بين أصبعين من أصابعه "[٢] فقوله : " إن قلوب العـــباد كـــلها بالنسبة إلى قدرته... " تأويل لصفة الأصابع بالقدرة وهو تأويل الجهمية - كما سيأتي - . قال ابن قتيبة : " ونحـــن نقول : إن هذا الحديث صحيح[٣] ، وإن الذي ذهبوا إليه في تأويل الإصبع لا يشبه الحديث ، لأنه - عليه السلام - قال في دعائه : " يا مقلب القلوب ثبت قلبي علي دينك " فقالت له احدى أزواجه : أو تخاف يا رسول الله على نفسك ؟ فقال : " إن قلب المؤمن بين اصبعين من أصابع الله عز وجل " فإن كان القلب عندهم بين نعمتين من نعم الله تعالى فهو محفوظ بتيـــنك النعمتين فلأي شئ دعا بالتثبيت ؟ ولم احتج على المرأة التي قالت له : أتخاف على نفسك بما يؤكد قولها ؟ ، وكان ينبغي ألا يخاف إذا كان القلب محروساً بنعمتين . فإن قال لنا : ما الإصبع عندك ها هنا ؟ قلنا هو مثل قوله في الحديث الآخر " يحمـــل الأرض على إصبع "[٤] وكذا على إصبعين ، ولا يجوز أن تكون الإصبع هنا نعمة ، ... ولا نقول إصبع كأصابعنا ، ولا يـــد كأيديـــنا ، ولا قبضة كقبضاتنا لأن كل شئ منه لا يشبه شيئاً منا " [٥] وانطلاقاً من أدلة السنة الصحيحة ، يثبت أهل السنة صفة الأصابع لله تعالى على ما يليق بالله عز وجل بلا كيف ولا حد .

١- قال الإمام أحمد : " وقلوب العباد بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء ويوعيها ما أراد " [٦] .

٢- وقـــال الإمـــام الدارمي في معرض رده على بشر المريسي : " ورويت أيها المريسي عن رسول الله - صلى الله عليه وسـلم - أنه قال : " القلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء فأقررت أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قالـــه ، ثـــم رددته بأقبح محاول ، وأوحسن ضلال ولو دفعت الحديث أصلاً كان أعذر لك من أن تقربه ثم ترده بمحال من الحجـــج ، وبالتي هي أعوج ، فزعمت أن أصبعي الله قدرتاه ، وكذلك قوله : (والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة)[٧] أي فـــي مـــلكه ، فيقال لك أيها المعجب بجهالته : في أي لغات العرب وجدت أن إصبعيه قدرتيه ، فأنبئنا بها فإنا قد وجدناها خارجة من جميع اللغات ، إنما هي قدرة واحدة قد كفت الاشياء كلها وملأتها ، واستنطقتها ، فكيف صارت القلوب من بين الاشـــياء بين قدرتين ، وكم تعدها قدرة ، فإن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال : " بين أصبعين من أصابع الرحمن " وفي دعـــواك هي أكثر من قدرتين وثلاث وأربع ، حكمت فيها للقلوب بقدرتين ، وسائرها لما سواها ففي دعواك هذا أقبح محال وأبين ضلال "[٨] وبهذه الأدلة الدامغة يتبين بطلان ما ذهب إليه السيوطي من تأويل هذه الصفة الإلهية ، وكذلك يتبين خطأ

---

(١) شرح السنة (١٦٨/١) .

(٢) رسالة في علم التوحيد لوحة رقم (٤،٥) .

(٣) يقصد حديث عبدالله بن عمر المتقدم الذي رواه مسلم في صحيحه ، وقد ذكره هنا ابن قتيبة في كلامه الآتي .

(٤) رواه الـبخاري رقـم (٧٥١٣) الفتح (٤٧٤/١٣) ، صحيح مسلم (٢١٤٧/٤) رقم (٢٧٨٦) ، الدارمي في الرد على بشر المريسي (ص٤١٨) ، وابن أبـي عاصـم فـي السـنة (٢٣٨/١) رقـم (٥٤١) ، ابـن جريـر فـي تفسـيره (٢٦/٢٤) ، وابـن خـزيمة فـي الـتوحيد (١٧٩/١) رقم (١٠٢) ، واللالكائي في السنة (٤١٨/٣) رقم (٧٠٦) ، والبيهقي في الأسماء والصفات (٦٩/٢) ، والآجري فيالشريعة (١١٦٤/٣) .

(٥) تأويل مختلف الحديث (ص٢٠٩-٢١٠) .

(٦) طبقات الحنابلة (٢٩/١) .

(٧) سورة الزمر ، بعض الآية (٦٧) .

(٨) الرد على بشر المريسي (ص٥٩) .

كل من ذهب مذهبه من قبله أو من بعده ، ويبقى مذهب أهل السنة هو الحق الظاهر .

١٣- صفة الصورة :

وهذه الصفة ذاتية خبرية ، ثابتة لله تعالى بالأحاديث الشريفة الصحيحة وهي أدلة هذه الصفة كما يلي :

الدليل الأول : حديث أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - الطويل في رؤية المؤمنين لربهم يوم القيامة ، وفيه " ...فيأتيهم الجبار في صورة غير صورته التي رأوه فيها أول مرة ، فيقول أنا ربكم ، فيقولون : أنت ربنا... "[١] الحديث .

الدليل الثاني : حديث معاذ بن جبل - رضي الله عنه - ، وهو الحديث المشهور فيه ذكر اختصام الملأ الأعلى ، وفيه : " رأيت ربي في أحسن صورة... "[٢] .

الدليل الثالث : حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : " إذا ضرب أحدكم فليجتنب الوجه فإن الله عز وجل خلق آدم على صورته "[٣] .

الدليل الرابع : حديث ابن عمر - رضي الله عنهما - عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال : " لا تقبحوا الوجه ، فإن ابن آدم خُلق على صورة الرحمن جل وعز "[٤] وقد ثار خلاف كبير بين العلماء حول حديث أبي هريرة - رضي الله عنه

---

(١) رواه البخاري في " صحيحه " كتاب التوحيد (٩٧) باب (٢٤) ح رقم (٧٤٣٩) فتح الباري (٤٢٠/١٣) .

ومسلم في " صحيحه " كتاب الإيمان (١) ولفظه : " ...ثم يرفعون رؤوسهم وقد تحول في صورته التي رأوه فيها أول مرة ، فقال أنا ربكم فيقولون : أنت ربنا... "ح رقم (٣٠٢-١٨٣) باب (٨١) (١٦٧/١) .

(٢) رواه الترمذي في " سننه " تفسير سورة (ص) رقم (٣٢٣٣) ، وأحمد في " المسند " (٢٤٣/٥) من حديث معاذ بن جبل ، وهو حديث المنام الطويل ، ومن جعله يقظة فقد غلط ، وقال الترمذي : " هذا حديث حسن صحيح ، سألت محمد بن اسماعيل - يعني البخاري - فقال : حسن صحيح " ورواه ابن أبي عاصم في " السنة " (ص٤٦٥-٤٧١) ، انظر " إرواء الغليل " للألباني رقم (٦٨٤) و " مجمع الزوائد " للهيثمي (١/ ١٧٦/٢٣٧،٢٣٨،٧-١٧٩) .-= والحديث صححه البخاري والترمذي كما سبق ، ومن المتأخرين أحمد شاكر والألباني . وانظر شرح هذا الحديث لابن رجب بتحقيق جاسم الفهيد فقد أجاد في جمع طرقه .

(٣) أخرجه مسلم في " صحيحه " كتاب البر والصلة والآداب (٤٥) باب (٣٢) ح رقم (١١٥-٢٦١٢) انظر (٢٠١٧/٤) .

- والبخاري في " صحيحه " كتاب العتق (٤٩) باب (٢٠) ح رقم (٢٥٥٩) فتح الباري (١٨٢/٥) ونص الحديث : " إذا قاتل احدكم فليجتنب الوجه " بدون ذكر الصورة ، من طريق سعيد المقبري عن ابيه ، عن أبي هريرة - ورواه أحمد في " المسند " (٢٤٤/٢) وابنه في " السنة " ح رقم (٤٩٦) (٢٦٧/١) ، والبيهقي في " الاسماء والصفات " (١٧/٢) من طريق سفيان عن أبي الزناد ... به .

(٤) هذا الحديث رواه ابن خزيمة في " التوحيد " رقم (٧-٤١) (٨٥/١) من طريق " الاعمش عن حبيب بن ابي ثابت عن عطاء ابن ابي رباح عن ابن عمر... " وقد أعله بن خزيمة بمخالفة الاعمش للثوري في اسناده حيث أرسله الثوري ، ولم يقل عن ابن عمر ، وكذلك بتدليس الأعمش فقد عنعن .وكذلك حبيب بن أبي ثابت وقد عنعن ، انظر كتاب التوحيد (٨٧/١) بمعنى أن الأعمش مدلس ، وكذلك حبيب . وجواب ذلك كما قال محقق كتاب الشريعة للآجري ، إن عنعنة الاعمش لا تضر هنا لأن ابن حجر عده من المرتبة الثانية من المدلسين وهم : " من احتمل الأئمة تدليسه ، وأخرجوا له في الصحيح لإمامته وقلة تدليسه " انظر : " تعريف أهل التقديس " (ص٢٣) .

وكذلك حبيب لا تضر عنعنته لأنه من المرتبة الثالثة من المدلسين وقد قبل بعض العلماء عنعنتهم ، ومنهم الإمام مسلم بن الحجاج في " صحيحه " .

يقول د.عبدالله بن عمر الدميجي أيضاً : " لكن يشهد له حديث أبي هريرة يرفعه ، ورواه الدار قطني من حديث ابن لهيعة أيضاً عن الأعرج عن أبي هريرة يرفعه ، (الصفات ح :١٤٩ (ص٦٥) وابن لهيعة وإن كان سيء الحفظ... إلا أنه يصلح في الشواهد والمتابعات ، ولهذا فالحديث لا يقل عن درجة التحسين إن لم يصل إلى درجة الصحة " انظر " كتاب الشريعة " (١١٥٣/٣) الحاشية . وقال الشيخ حمود بن عبدالله التويجري في " عقيدة أهل الإيمان في خلق آدم على صورة الرحمن " : " وقد ادعى الألباني في تعليقه على " كتاب السنة " لابن أبي عاصم أن هذا المرسل (يعني حديث سفيان الثوري) أصح من الموصول ، وهذه دعوى لا دليل عليها فلا تقبل ، وكما أن الاعمش قد روى الموصول بالعنعنة عن حبيب بن ابي ثابت ، فكذلك الثوري قد روى المرسل بالعنعنة عن حبيب بن أبي ثابت ، وكل من الأعمش والثوري مدلس ، وكل منهما من المرتبة الثانية من المدلسين فلا مزية إذاً لاسناد المرسل على اسناد الموصول ، وقد قال الحافظ ابن حجر في تعريف المرتبة الثانية من المدلسين أنه من احتمل الائمة تدليسه وأخرجوا له في الصحيح لإمامته وقلة تدليسه في جنب ما روى كالثوري ، وذكر أيضاً الأعمش في هذه المرتبة ،

- الـذي فيـه : " فـإن الله عز وجل خلق آدمُ على صورته "[١] ، حكاه ابن حجر في الفتح في مواضع متعددة[٢] ، وابن قتيبة[٣] ، وابن تيمية[٤] وغيرهم . ويتلخص هذا الخلاف فيما يلي :

أولاً : رد هـذا الحديـث وانكار ثبوته ، والنهي عن التحدث به ، روى ذلك عن الإمام مالك[٥] - رحمه الله . ولكن الإمام الذهبي تعقبه ورد عليه وبين ثبوت الحديث وصحته ، وذكر طرقه ، وقد ذكر طرقه أيضاً الآجري في كتاب " الشريعة "[٦] ، وكذلك ابن خزيمة في " التوحيد "[٧] ولكن ابن خزيمة حمل الحديث على تأويل بعيد - سيأتي قريباً - إن شاء الله .

ثانياً : قسم من أهل العلم قبل الحديث ، ولكنهم ارجعوا عود الضمير في قوله : " على صورته " إلى آدم - عليه السلام - ، ولـو وضع الاسم الظاهر مكان الضمير على هذا الرأي لكان معنى الحديث : أن الله تعالى خلق آدم على صورة آدم !! وقـد نسب ابن قتيبة هذا الرأي إلى بعض علماء الكلام ، قال : " قال قوم من أصحاب الكلام : أراد خلق آدم على صورة آدم ، لـم يزد على ذلك "[٨] . وقال ابن حجر : " اختلف إلى ماذا يعود الضمير ؟ فقيل : إلى آدم ، أي خلقه على صورته التي استمر عليها إلى أن أهبط وإلى أن مات ، دفعاً لتوهم من يظهر أنه لما كان في الجنة كان على صفة أخرى ، أو ابتداء خـلقه كمـا وجـد ، ولم ينتقل في النشأة كما ينتقل ولده من حالة إلى حالة... "[٩] وقد استدل أصحاب هذا القول بما رواه الـبخاري عـن أبي هريرة عن النبي - صلى الله عليه وسلم - : " خلق الله آدم على صورته طوله ستون ذراعاً... "[١٠] وهـو مـا استدل به ابن خزيمة على تأويله للحديث فقال : " فصورة آدم ستون ذراعاً ، التي أخبر النبي - صلى الله عليه وسلم - أن آدم - عليه السلام - خلق عليها "[١١] لكن ابن قتيبة ينتقد هذا التأويل ويعتبر الكلام غير ذي فائدة إذا قيل : إن الله خـلق آدم عـلى صـورة آدم ، ثم يقول : " ومن يشك في أن الله تعالى خلق الإنسان على صورته ، والسباع على صـورها ، والأنعام على صورها ؟ "[١٢] . كما أن الشيخ حمود بن عبدالله التويجري يعتبر هذا التأويل من ابن خزيمة زلة

وعـلى هذا فينبغي أن يساوى بين الأعمش والثوري في الرواية عن حبيب بن أبي ثابت إذ لا فرق بينهما في مرتبة التدليس " (ص٢١ من عقيدة أهل الإيمان) وقال - أيضاً - : " فأما قوله - يعني الألباني - إن حديث ابن عمر قد ضعفه ابن خزيمة فإن الثوري أرسله فخالف فيه الأعمش ، وأن الأعمـش وحبيباً مدلسان ، فيقال : قد صححه اسحاق بن راهويه وأحمد بن حنبل وهما أجل من ابن خزيمة باتفاق الناس " (ص٧٣) من عقيـدة أهـل الإيمان ، وانظر : ميزان الاعتدال للذهبي (٤٢٠/٢) ، وفتح الباري (١٨٣/٥) . وصححه الحاكم في المستدرك (٣١٩/٢) ووافقه الذهبي ، وانظر : الشريعة (١١٥٣/٣-١١٥٤) الحاشية . وبهذا يتبين أن الحديث صالح للاستشهاد به .

(١) سبق تخريجه قبل قليل ، وهو في الصحيحين وغيرهما ، انظر (ص٤٩٠) من هذا المبحث .

(٢) انظر : الفتح (١٨٣/٥) ، (٣/١١) ، (٤٥٠/١١) ، (٤٢٦/١٣) ، (٣٦٦/٦) .

(٣) انظر : تأويل مختلف الحديث (ص٢١٩ وما بعدها) .

(٤) انظر : ما نقله عنه الشيخ حمود بن عبدالله التويجري عن القسم المخطوط الذي لم يطبع من كتابه الجليل " بيان تلبيس الجهمية في نقص تأسيس بدعهم الكلامية " وما نقله عنه أثبته في كتاب سماه " عقيدة أهل الإيمان في خلق آدم على صورة الرحمن " (ص٧٣ وما بعدها) .

(٥) روى ذلك العقيلي في " الضعفاء الكبير " (٢٥١/٢-٢٥٢) ، ونقله الذهبي في " الميزان " (٤١٩/٢) .

(٦) انظر (١١٤٧/٣-١١٥٥) ت.فضيلة الشيخ د.عبدالله بن عمر الدميجي .

(٧) اظر (٤٥/١-٩٤) ت.د.عبدالعزيز بن إبراهيم الشهوان .

(٨) تأويل مختلف الحديث (ص٢١٩) .

(٩) فتح الباري (٣/١١) .

(١٠) صحيح البخاري - كتاب الاستئذان (٧٩) باب (١) ح رقم (٦٢٢٧) انظر فتح الباري (٣/١١) .

(١١) التوحيد واثبات صفات الرب عز وجل (٩٤/١) .

(١٢) تأويل مختلف الحديث (ص٢١٦) .

مــن زلاتــه فقال بعد أن أورد كلام ابن خزيمة : " هذا نص ابن خزيمة على حديث أبي هريرة – رضي الله عنه – في الصورة وهو معدود من زلاته ، لأنه قد ذهب إلى قول الجهمية في تفسيره لمعنى قول النبي – صلى الله عليه وسلم – : " إن الله خــلق آدم على صورته "[١] وقال أيضاً : " ومن زلات ابن خزيمة أيضاً تقربه من اثبات خلق آدم على صورة الرحمن وتأويله لحديث الأعمش عن حبيب بن أبي ثابت... "[٢] ثم ساق سند حديث ابن عمر . ومن علم مذهب أهل السنة حق العلم وأنهــم لــم يتكلفوا تأويل آيات وأحاديث الصفات كما فعل ابن خزيمة يعلم أنها زلة منه لا يعتد به فيها . كما أن ابن تيمية والذهبي اعتبرا ما ذهب إليه ابن خزيمة خطأ لا يتابع عليه ، وأنه يؤخذ عليه ولا يؤخذ منه ، قال ابن تيمية ناقلاً عن الشيخ أبــي الحســن بــن عبدالملك الكرجي : " فأما تأويل من لم يتابعه عليه الأئمة فغير مقبول وإن صدر ذلك التأويل عن إمام معــروف غير مجهول نحو ما نسب إلى أبي بكر محمد بن اسحاق بن خزيمة تأويل الحديث " خلق آدم على صورته " فإنه يفسر ذلك بذلك التأويل ولم يتابعه عليه من قبله من أئمة الحديث لما روينا عن أحمد رحمه الله تعالى ، ولم يتابعه أيضاً من بعــده ، حــتى رأيت في كتاب " الفقهاء " للعبادي الفقيه ، أنه ذكر الفقهاء وذكر عن كل واحد منهم مسألة تفرد بها ، فذكر الإمــام ابــن خزيمة وأنه تفرد بتأويل هذا الحديث " خلق آدم على صورته "[٣] قال ابن تيمية : " وقد ذكر الحافظ أبو موسى المديــني فيمــا جمعه من مناقب الإمام الملقب بقوام السنة أبي القاسم اسماعيل بن محمد التيمي صاحب كتاب " الــترغيب والترهيب " قال : سمعته يقول : أخطأ محمد بن اسحاق بن خزيمة في حديث الصورة ، ولا يطعن عليه بذلك ، بــل لا يؤخذ عنه هذا فحسب ، قال أبو موسى : أشار بذلك إلى أنه قل من إمام إلا وله زلة فإذا ترك ذلك الإمام لأجل زلته تــرك كثير من الأئمة وهذا لا ينبغي أن يفعل "[٤] وأما قوله " لما روينا عن أحمد – رحمه الله – " فإن الإمام أحمد قد صرح بــأن مــن تأول الحديث على نحو ما قاله ابن خزيمة فإنه قال بقول الجهمية ، قال ابن حجر : " وقال الطبراني في كتاب " الســنة " : حدثنا عبدالله بن أحمد ابن حنبل قالْ : قال رجل لأبي : إن رجلاً قال : خلق الله آدم على صورته – أي صورة الــرجل – فقــال كذب ، هو قول الجهمية "[٥] . أما الذهبي فقد ترجم لابن خزيمة وقال في أثناء ترجمته : " ...وكتابه في الــتوحيد مجــلد كبير ، وقد تأول في ذلك حديث الصورة ، فليعذر من تأول بعض الصفات ، وأما السلف فما خاضوا في التأويل بل آمنوا وكفوا... "[٦] . وقال د.عبدالعزيز بن إبراهيم الشهوان[٧] : " وقد أخطأ – رحمه الله – في هذا التأويل "[٨] . وإذا كــان من عذر يعتذر به عن الإمام ابن خزيمة في تأويله لحديث الصورة – كما قال الذهبي – هو ما نقله ابن تيمية عن الكرجي قال : " على أني سمعت عدة من المشايخ رووا أن ذلك التأويل مزور مربوط على ابن خزيمة وإنه مفترى عليه

---

(١) عقيدة أهل الإيمان (ص١٣) .

(٢) نفسه (ص٣٧) .

(٣) عقيدة أهل الإيمان (ص١٣) .

(٤) عقيدة أهل الإيمان (ص١٣،١٤) .

(٥) فتح الباري (١٨٣/٥) ، وانظر الذهبي في " الميزان " (٦٠٣/١) .

(٦) عقيدة أهل الإيمان (ص١٤) نقلاً عن سير أعلام النبلاء .

(٧) محقق كتاب التوحيد لابن خزيمة .

(٨) كتاب التوحيد لابن خزيمة (٦٩/١) .

"[1] وبهذا الاعتذار تُبرأ ساحة ابن خزيمة من هذه الزلة التي نسبت إليه ، ويبقى الحق والصواب لمنهج أهل السنة الذين أثر عنهم في كثير من مصنفاتهم وأقوالهم عدم تأويل شئ من الصفات الإلهية إذا ثبتت بالدليل الصحيح .

ثالـثاً : قال بعضهم : إن الله تعالى خلق آدم على صورة لآدم عنده تعالى. وهذا التأويل أيضاً لا يجوز في حقه تعالى ، لأنه تعالى خالق الخلق وفاطر السموات والأرض على غير مثال سابق ، كما قال جل وعلا : (بديع السموات والأرض)[2] وبديـع فعيـل للمبالغة بمعنى فاعل[3] ، أي مبدع ، والمبدع هو خالق الخلق على غير مثال سابق فالله جل وعلا هو مبدع السموات والأرض بمعنى خالقهما ومنشئهما وموجدهما ومخترعهما وما فيهما وما بينهما على غير حد ولا مثال[4] ، وبدون أصـل ولا مثال احتذاها عليه[5] . وخلق آدم – عليه السلام – كذلك لم يكن على صورة ولا مثال سبق ، لأنه إذا كان خلق السـموات والأرض الذي هو أعظم من خلق الناس كان على غير حد ولا مثال ولا صورة ، فكذلك آدم من باب أولى لأنه أهون من خلق السموات والأرض . قال ابن قتيبة بعد ما أورد قول من قال إن الله خلق آدم على صورة عنده قال : (وهذا لا يجوز لأن الله – عز وجل – لا يخلق شيئاً من خلقه على مثال "[6] . وحاصل هذا القول أنه يرجع إلى القول الذي سبقه وهو قول القائل : إن الله خلق آدم على صورة آدم[7] ، فضلاً عن كونه لا يجوز في حق الله تعالى كما سبق . فقد رد الإمام أحمـد عـلى مـن قال إن الله خلق آدم على صورة آدم ، ونقلت عنه قبل قليل ما ذكره ابن حجر في الفتح من أن هذا كلام الجهمية يعني تأويل الحديث بهذا التأويل . وفي ترجمة عبدالوهاب الوراق[8] وقد سئل عن مسألة خلق الله آدم على صورته ، فقـال : " من لم يقل إن الله خلق آدم على صورة الرحمن فهو جهمي "[9] وهذا – كما قلت – هو قول الإمام احمد الذي نقله ابن حجر ، وفي ترجمة محمد بن علي الجرجاني[10] : قال : " قال لي أحمد ابن حنبل : من قال : إن الله خلق آدم على صـورة آدم فهو جهمي ، وأي صورة كانت لآدم قبل أن يخلقه ؟ "[11] وعند الذهبي في " الميزان " زيادة في هذه الرواية حيث ذكـر عن الإمام أحمد عندما سأله سائل عن أن معنى الحديث أن الله خلق آدم على صورة آدم ، فقال أحمد : " فأين الذي يـروي عن النبي – صلى الله عليه وسلم – أنْ الله خلق آدم على صورة الرحمن ، ثم قال أحمد : وأي صورة لآدم قبل أن يخلق "[12] وبهذا يتبين أن هذا القول أيضاً مردود كسابقه وهو يؤول إليه في المعنى ، وفي البطلان كذلك .

---

(١) عقيدة أهل الإيمان (ص١٣) .

(٢) الآية رقم (١١٧) من سورة البقرة ، (١٠١) من سورة الأنعام .

(٣) انظر : القرطبي : الجامع لأحكام القرآن (٦٠/٢) .

(٤) نفسه السابق .

(٥) انظر : ابن جرير : جامع البيان (٥٠٨/١) .

(٦) ابن قتيبة ، وانظر : التويجري : عقيدة أهل الايمان (ص١٦) .

(٧) انظر : التويجري : عقيدة أهل الإيمان (ص١٦) .

(٨) عـبدالوهاب بـن عـبدالحكم بن نافع أبو الحسن الوراق ، نسائي الأصل عده القاضي ابن أبي يعلي من أصحاب الامام أحمد بن حنبل كان من الصالحين العقلاء وفاته عام (٢٥١هـ) . انظر طبقات الحنابلة (٢٠٩/١) .

(٩) طبقات الحنابلة (٢١٢/١) .

(١٠) محمد بن علي بن عبدالله ، أبو جعفر الوراق ، الجرجاني ، يعرف بحمدان من أصحاب الامام أحمد ، مشهود له بالصلاح والفضل ، وفاته عام (٢٧٢هـ) انظر طبقات الحنابلة (٣٠٨/١) .

(١١) طبقات الحنابلة (٣٠٩/١) وانظر الميزان للذهبي (٦٠٣/١) .

(١٢) (٦٠٢/١-٦٠٣) .

القـــول الرابع : أن الضمير يعود على المضروب[١] والمضروب هذا - كما روى - هو عبد ضربه مولاه على وجه فنهاه النبي - صلى الله عليه وسلم[٢] - ثم قال له : " إن الله خلق آدم على صورته " أي على صورة هذا المضروب وذكر ابـــن حجر أن هذا هو قول الأكثر من العلماء وابن خزيمة ممن قال هذا القول ، فقد رجح أن " الهاء في هذا الموضع كناية عـــن اســـم المضروب والمشتوم "[٣] كما أن هذا هو قول السيوطي حيث قال : " ...على صورته أي صورة العبد المضروب والواقعـــة تبينه "[٤] وهو قول غير صحيح رده العلماء وخطأوا فيه ابن خزيمة وقد نقلته عنهم قبل ذلك في القول الثاني منهم ابـــن قتيـــبة وابن تيمية والذهبي ، وأبو الحسين الكرجي ، والعبادي الفقيه ، وقوام السنة وغيرهم كما أنني ذكرت الروايات الـــواردة عـــن الامـــام أحمد في أن من ذهب إلى تأويل الحديث فقد قال بقول الجهمية ، كما أثبت الاعتذار عن الامام ابن خزيمة - رحمه الله - بما يغني عن إعادته هنا كما أن الزيادة التي ذكرت وهي قصة العبد المضروب باطلة لا أصل لها ، قـــال الشـــيخ التويجري : " والزيادة التي ذكرها ابن قتيبة في حديث الصورة لا أصل لها ، ولم أرها في شئ من الروايات الصـــحيحة ، وقد ذكر شيخ الإسلام أبو العباس ابن تيمية أنه لا أصل لذلك ولا يعرف في شئ من كتب الحديث "[٥] يضاف إلى ذلك أن يقال : لا يشك أحد من العقلاء أن بني آدم قد خلقهم الله تعالى على صورة أبيهم آدم ، ولم يخلقهم على صورة غيره من المخلوقات ، ولو كان المراد من حديث ابن عمر الاخبار بأن ابن آدم خلق على الصورة التي خلقها الرحمن حين صور آدم ثم نفخ فيه الروح لما كان في الحديث فائدة ، ولا كان فيه فضيلة خاصة لآدم وذريته ، فإن الحديث قد قاله النبي - صلى الله عليه وسلم - ابتداءً من غير سبق قصة مضروب ولا مشتوم ، لبيان فضيلة اختص الله بها آدم - عليه السلام - مـــن ضمن ما اختصه به من فضائل وخصائص امتاز بها على سائر المخلوقات ، كما قد خصه بأنه تعالى خلقه بيديه ، وبأنه قد نفخ فيه من روحه ، وأنه علمه الأسماء كلها ، وأنه أمر الملائكة بالسجود له ، وكذلك بأنه خلقه على صورته ، فلو لم يحمل الحديث على اثبات هذه الفضيلة لما كان في الحديث فائدة يساق من أجلها . وبهذا يتبين - أيضاً - بطلان هذا القول .

القـــول الخامس : هو أن الضمير يعود على الله تعالى ، قال ابن حجر : " قال القرطبي : أعاد بعضهم الضمير على الله تعـــالى متمســـكاً بمـــا ورد في بعض طرقه " أن الله خلق آدم على صورة الرحمن "[٦] وإن هذا القول لهو قول أهل السنة والجماعـــة[٧] ، وهـــو إثبات صورة للباري جل وعلا على ما يليق بجلاله وكماله وقدسيته ، لا تشبه صورة المخلوقين ولا تشـــبهها صـــورة المخـــلوقين (ليـــس كمـــثله شئ وهو السميع البصير)[٨] وهذا الاثبات مبني على ما تقدم من الأحاديث

---

(١) انظر : ابن حجر : فتح الباري (١٨٣/٥) ، وابن قتيبة : تأويل مختلف الحديث(ص٢١٦).
(٢) انظر : ابن حجر : فتح الباري (٣/١١) ، وابن قتيبة : تأويل مختلف الحديث (ص٢١٦) .
(٣) ابن خزيمة : التوحيد (٨٤/١) .
(٤) تأويل الأحاديث الموهمة للتشبيه (ص١٢٤) .
(٥) عقيدة أهل الإيمان (ص١٤) ، وذكر الشيخ التويجري نص كلام ابن تيمية في (ص٦٤) .
(٦) فتح الباري (١٨٣/٥) والحديث صحيح كما سبق من رواية ابن عمر .
(٧) انظـــر : حمود بن عبدالله التويجري : عقيدة أهل الإيمان (ص١٩) ، وانظر كذلك : علوي بن عبدالقادر السقاف : صفات الله عز وجل الواردة فـــي الكـــتاب والســـنة (ص١٦٥) دار الهجرة - الرياض وابن رجب : اختيار الأولى في شرح حديث اختصام الملأ الأعلى - هامش (ص٤١) للمحقق جاسم الفهيد الدوسري ، وانظر كذلك السفاريني : لوامع الأنوار البهية (٢٣٨/١) .
(٨) سورة الشورى الآية (١١) .

الصحيحة الواردة في الصحيحين وغيرهما ، وقد أملى الإمام أحمد على بعض أصحابه فيما أملى من أمور الإعتقاد قال : " ...وأن آدم صلى الله عليه خُلق على صورة الرحمن ، كما جاء الخبر عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ... الإيمان بذلك ، فمن لم يؤمن بذلك ويعلم أن ذلك حق كما قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فهو مكذب برسول الله – صلى الله عليه وسلم – "(١) أما تأويل الصورة على نحو ما تأوله السيوطي ولم يثبت الصورة لله تعالى فهو منهج باطل كما تقدم في سائر الصفات التي تكلمت عنها والتي أولها السيوطي على طريقة أهل البدع الجهمية .

أما أهل السنة فقد تقرر مذهبهم الحق من إثبات الصفات بدون تأويل يفضي إلى التعطيل ، وبدون تشبيه يؤدي إلى تمثيل . على إنه إن كان قد وقع الخلاف حول عود الضمير في حديث أبي هريرة وهو الذي جعلته الدليل الثالث في بداية الكلام وفي نصه " خلق الله آدم على صورته فإن الدليل الرابع وهو حديث ابن عمر قد ورد صريحاً في أن آدم – عليه السلام – خلق على صورة الرحمن ، فهو نص يجب أن ينقطع الخلاف بوجوده ، فهو مفسر وموضح لحديث أبي هريرة ويرد ما قيل فيه من التأويلات البعيدة المستكرهة . أما أن يُرد حديث ابن عمر الصريح بتعليلات واهية ، ثم يحمل حديث أبي هريرة على تأويلات باطلة فهذه هي طريقة أهل البدع والانحراف . ولا محصل من ورائها سوى الابتداع والبعد عن الحق . أما أهل السنة فطريقتهم كما ذكر ابن تيمية عن كبار أئمتهم كالأوزاعي ، ومكحول ، والزهري ، ومالك بن أنس وسفيان بن سعيد ، وابن عيينة ، ومعمر بن راشد وغيرهم أنهم قالوا في أحاديث الصفات : أمروها كما جاءت بلا كيف ، فقولهم : " أمروها كما جاءت " رد على المعطلة ، وقولهم : " بلا كيف " رد على الممثلة . وقول الأئمة " أمروها كما جاءت بلا كيف " إنما هو نفي لعلم كيفية الصفة ، ولم ينفوا حقيقتها ، فلو كان هؤلاء الأئمة قد آمنوا باللفظ المجرد من غير فهم لمعناه على ما يليق بالله ، لما قالوا أمروها كما جاءت بلا كيف ، فإنه لا يحتاج إلى نفي علم الكيفية إذا لم يفهم عن اللفظ معنى ، وإنما يحتاج إلى نفي علم الكيفية إذا أثبتت الصفات . وكذلك فإن من ينفي الصفات الخبرية أو ينفي الصفات مطلقاً لا يحتاج أن يقول بلا كيف ، فلو كان مذهب السلف نفي الصفات لما قالوا بلا كيف ، وكذلك أمرهم بإمرارها كما جاءت يقتضي إبقاء دلالتها على ما هي عليه ، فإنها جاءت ألفاظ دالة على معانٍ . وقال الآجري بعد أن روى أحاديث الصورة : " هذه من السنن التي يجب على المسلمين الايمان بها ، ولا يقال فيها كيف ؟ ولم ؟ بل تستقبل بالتسليم والتصديق ، وترك النظر كما قال من تقدم من أئمة المسلمين "(٢) وذكر أيضاً عن أبي بكر المروذي قال : سألت أبا عبدالله أحمد بن حنبل عن الأحاديث التي تردها الجهمية في الصفات ... فصححها وقال : قد تلقتها العلماء بالقبول ، تسلم الأخبار كما جاءت "(٣) لقد انعقدت كلمة أهل السنة جميعاً على هذا الأصل العظيم ألا وهو تلقي الأخبار الصحيحة بالقبول والتسليم والإثبات مع تنزيه الباري – جل وعلا – عما لا يليق به سبحانه ، وإن من معتقدهم اثبات الصورة له – جل وعلا – كما أثبتوا له – سبحانه – اليدين والعينين والساق والأصابع ، ولذلك قال ابن قتيبة : " والذي عندي أن الصورة ليست بأعجب من اليدين والأصابع والعين ، وإنما وقع الإلف لتلك لمجيئها في القرآن ، ووقعت الوحشة من هذه لأنها لم تأت في القرآن ،

---

(١) ابن ابي يعلي : طبقات الحنابلة (٣١٣/١) ، وانظر ميزان الاعتدال (٤٢٠/٢) ، والفتح (١٨٣/٥) .
(٢) الشريعة (١١٥٣/٣) .
(٣) الشريعة (١١١٥٤/٣) .

ونحـــن نؤمـــن بـــالجميع ، ولا نقول في شئ منه بكيفية ولا حد "[١] وحكى شيخ الإسلام ابن تيمية أن هذا الحديث – يعني حديـــث الصـــورة – لـــم يكـــن بين السلف فيه نزاع من القرون الثلاثة المفضلة ، في أن الضمير عائد إلى الله تعالى فإنه مستفيض من طرق متعددة عن عدد من الصحابة ، وسياق الأحاديث كلها تدل على ذلك ، وهو أيضاً مذكور فيما عند أهل الكتابين من الكتب كالتوراة[٢] وغيرها[٣] والصحابة الذين رووا حديث الصورة اثنا عشر صحابياً هم :

١- معاذ بن جبل – رضي الله عنه – .

٢- عبدالرحمن بن عائش – رضي الله عنه – .

٣- عبدالله بن عباس – رضي الله عنهما – .

٤- ثوبان – رضي الله عنه – .

٥- عبدالله بن عمر – رضي الله عنهما – .

٦- أبو أمامة – رضي الله عنه – .

٧- جابر بن سمرة – رضي الله عنه – .

٨- أبو رافع – رضي الله عنه – .

٩- أبو هريرة وعبدالرحمن بن عوف – رضي الله عنهما – .

١٠- أنس بن مالك – رضي الله عنه – .

١١- عدي بن حاتم – رضي الله عنه – .

١٢- أبو عبيدة بن الجراح –رضي الله عنه – [٤] .

وتلقاه السلف من بعدهم متفقين على روايته كعطاء بن أبي رباح ، وحبيب بن أبي ثابت ، والأعمش والثوري وأصحابهم من غير نكير سمع من أحد لمثل ذلك في ذلك العصر ، وهذه الروايات المتنوعة في الاشتهار دليل على أن علماء الأمة لم تنكر اطـــلاق القول بأن الله تعالى خلق آدم على صورة الرحمن بل كانوا متفقين على اطلاق مثل هذا[٥] . وقد وصف الله تعالى هـــذه الأمة بأنها خير أمة أخرجت للناس وأنها تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر فمن الممتنع أن يكون في عصر التابعين يتكـــلم أئمـــة ذلك العصر بما هو كفر وضلال ولا ينكر عليهم أحد ، فلو كان " قوله خلق آدم على صورة الرحمن " باطلاً لكانوا منكرين لذلك الباطل[٦] . وهذا القدر يكفي في إبطال مذهب المؤولة ، وإثبات الصفة لله تعالى وهي (صفة الصورة) على ما يليق بجلاله وعظمته سبحانه ، على خلاف ما تأوله السيوطي من تفسير الحديث بأن المراد صورة العبد المضروب [٧] ، وقـــد بيـــنت أنه لم يثبت في سبب هذا الحديث قصة ضارب ولا مضروب ، فثبت بطلان التأويل وبقى الحق واضحاً

---

(١) تأويل مختلف الحديث (ص٢٢١) .

(٢) أورد ابـــن تيمية نقلاً من التوراة للاستشهاد به على صحة إثبات الصورة لله جل وعلا فقال: " وما كان من العلم الموروث عن نبينا محمد – صلى الله عليه وسلم – فلنا أن نستشهد عليه بما عند أهل الكتاب كما قال تعالى : (قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب) وقال تعالى : (فـــإن كنت في شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرأون الكتاب من قبلك لقد جاءك الحق من ربك فلا تكونن من الممترين...) وقال تعالى : (قل أرأيـــتم إن كان من عند الله وكفرتم به وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله...) ... ثم ذكر كلام ابن عباس وهو أن موسى – عليه السلام – ضـــرب الحجر لبني إسرائيل فتفجر. وقال : " اشربوا يا حمير " فأوحى الله تبارك وتعالى إليه : " عمدت إلى خلق من خلقي خلقتهم على صورتي فشـــبهتهم بالحمير " قال فهذا موافق لما تقدم في حديثي ابن عمر وأبي هريرة ، واستشهد ابن قتيبة أيضاً بحديث ابن عباس وزاد ابن قتيبة قوله " فما برح حتى عوقب " (هكذا) ، ويقول محقق كتاب ابن قتيبة لعل الصواب " عوتب " بدل عوقب . انظر : تأويل مختلف الحديث (ص٢٢١) ، وانظر كلام ابن تيمية عند الشيخ حمود التويجري في عقيدة أهل الإيمان (ص٣١) (ص٧٥) .

(٣) انظـــر : عقيـــدة أهل الإيمان للتويجري (ص٥٤) نقلاً عن نقض التأسيس لابن تيمية – الجزء المخطوط الذي لم يطبع ، وهو في مكتبة جامعة الملك سعود بالرياض .

(٤) انظـــر : ابـــن رجب الحنبلي : اختيار الأولى في شرح حديث اختصام الملأ الأعلى بتحقيق جاسم الفهيد الدوسري (ص٣٤) حاشية المحقق ، فقد أجاد جزاه الله خيراً في جمع طرق الحديث .

(٥) عقيدة أهل الإيمان (ص٧٤) نقلاً عن ابن تيمية في نقض التأسيس .

(٦) نفسه .

(٧) انظر : تأويل الأحاديث الموهمة للتشبيه (ص١٢٤) .

وهو مذهب أهل السنة والجماعة .

١٤- صفة القدمين :

صـــفة ذاتيـــة خبرية ثابتة لله تعالى بصحيح السنة الشريفة . وهذه الصفة الشريفة محل نزاع بين السلف والخلق كسابقتها من الصفات الخبرية[١] . أما السلف فمذهبهم الناصع معروف ، لأنهم يعلمون أن المقام في هذا المجال وهو صفات الباري جل وعلا ليس مقام اجتهام أو قياس أو استحسان وإنما هو مقام تسليم لله ولرسوله ، وأنه لا قول لأحد أياً ما كان مع قـــول الله - جل وعلا - وقول رسوله - صلى الله عليه وسلم - فتلقوا وآمنوا وصدقوا وسلموا مع فهم دقيق ويقين تام بأن الله تعـــالى مـــا سمى نفسه - وكذلك رسوله - إلا بالأسماء الحسنى ، ولا وصف - تعالى - نفسه - وكذلك رسوله - إلا بالصفات العليا ، وهم مع اثباتهم لهذه الصفات العُلى أيقنوا تماماً أنه تعالى : (ليس كثمله شئ وهو السميع البصير)[٢] وإذا تقـــرر هذا وعلم وهو معلوم دائماً ، فإن صفة القدمين قد أثبتها لله تعالى أهل السنة والجماعة من غير تشبيه ولا تأويل بناء على أدلة صحيحة منها :

الدليل الأول : حديث أنس عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال : " لا تزال جهنم تقول : هل من مزيد ، حتى يضع رب العزة فيها قدمه... "[٣] وفي حديث آخر لأنس عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال : " لا يزال يُلقى فيها وتقول : هل من مزيد حتى يضع فيها رب العالمين قدمه... "[٤] .

الدليـــل الثاني : حديث أبي هريرة عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال : " تحاجت النار والجنة... " وفيه : " فأما النار فلا تمتلئ فيضع قدمه عليها... "[٥] .

الدليـــل الـــثالث : حديث أبي سعيد الخدري عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال : " افتخرت الجنة والنار... " وفيه : " ...حتى يأتيها تبارك وتعالى فيضع قدمه عليها فتنزوي... " الحديث[٦] .

الدليل الرابع : أثر ابن عباس ، قال : " الكرسي : موضع القدمين ، والعرش لا يقدر قدره "[٧] .

الدليل الخامس : أثر أبي موسى الأشعري : قال : " الكرسي موضع القدمين ، وله أطيط كأطيط الرحل "[١] وموقف السلف

---

(١) انظر : د.محمد أمان بن علي الجامي : الصفات الالهية في الكتاب والسنة النبوية (ص٣٢٠) .

(٢) سورة الشورى الآية (١١) .

(٣) رواه البخاري في " صحيحه " كتاب الأيمان والنذور (٨٣) ، باب (١٢) ح رقم (٦٦٦١) الفتح (٥٤٥/١١) .
ورواه مسلم في " صحيحه " (٢١٨٧/٤) كتاب الجنةوصفة نعيمها وأهلها (٥١) باب (١٣) ح رقم (٣٧-٢٨٤٨) .

(٤) رواه البخاري في " صحيحه " كتاب التوحيد (٩٧) باب (٧) ح رقم (٧٣٨٤) الفتح (٣٦٩/١٣) .
ورواه مسلم في " صحيحه " (٢١٨٨/٤) كتاب الجنة (٥١) باب (١٣) ح رقم (٣٨-٢٨٤٨) .

(٥) رواه الـــبخاري فـــي " صـــحيحه " كتاب التفسير (٦٥) سورة ق باب (١) ح رقم (٤٨٤٩) الفتح (٥٩٥/٨) .ومسلم في " صحيحه " كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها (٥١) باب (١٣) (٢١٨٦/٤) ح رقم (٣٥-٢٨٤٦) وأحمد في " المسند " (٥٠٧/٢) ، (١٣/٣) .

(٦) رواه ابن خزيمة في " التوحيد " (٢٢٤/١) رقم (٢٧-١٣٤) ورواته ثقات إلا محمد بن معمر فهو صدوق .

(٧) رواه ابن خزيمة في " التوحيد (٢٤٨/١) رقم (١٢-١٥٤) ، رقم (١٣-١٥٥) ، رقم (١٤-١٥٦) .
- ورواه الحاكم (٢٨٢/٢) في " المستدرك " وقال : " حديث صحيح " على شرط الشيخين ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبي .
- والذهبي في " العلو " (١٠٢) وقال رواته ثقات ، وصححه الالباني في " مختصر العلو " والشيخ أحمد شاكر في " عمدة التفسير " (١٦٣/٢) .
- ورواه كذلك ابن أبي شيبة في " العرش " (٦١) ، والدارمي في " الرد على المريسي " (ص٦٧) .

- كمـا قدمـت وكما هو معلوم - من هذه الأحاديث والآثار هو التلقي والقبول والإيمان والتصديق واثبات الصفة لله تعالى عـلى مـا يليق بجلاله وعظمته ، ولكن الخلف المؤولة أبو إلا التلاعب بنصوص الشرع ، والاعتداء على حرمة الوحي ، فقـال بعضهم : لا بد من صرف لفظة (القدم) عن ظاهرها لقيام الدليل القطعي العقلي (زعموا) على استحالة الجارحة عـلى الله تعالى[٢] . وهو الذي ذهب إليه السيوطي عندما ذكر لفظة القدم قال : " وجه الإشكال ذكر الجوارح "[٣] ومن الـذي قال : إن قدم الله جارحة من الجوارح حتى يضطر الخلف إلى مثل هذه التأويلات المستكرهة ؟ بل الذي عليه سلف هـذه الأمـة - وهم أعلم وأدق وأحكم - أن قدم الله ، ووجه الله ، ويد الله ، وعينه وأصابعه ، وغيرها من الصفات الثابتة بنصـوص الوحي (الكتاب أو السنة) صفات لله تعالى على ما يليق به جل وعلا ، ولا نقول إنها جوارح ، بل هي صفات عـلية للعـلي الأعلى جل جلاله ، آمنا بها على مراد الله ومراد رسوله ، ومعنى الكلمة معلوم من حيث الوضع اللغوي ، والكيـف مجهول لأنه غيب ، والبحث عن الكيفية بدعة أحدثها علماء الكلام ، والإيمان بها على أنها صفات ذاتية لله تعالى واجب من واجبات الدين الإسلامي "[٤] .

وإنـه لمن العجب أن يعتقد مسلم أن الآيات القرآنية التي أنزلها الله العليم الحكيم ، والأحاديث النبوية التي أوحاها إلى رسـوله - عـليه الصلاة والسلام - تدل بظواهرها على ما لا يليق بالله - جل وعلا - كيف وهو تعالى الذي وصف نفسـه الكـريمة بهذه الصفات (أأنتم أعلم أم الله)؟[٥] ، وكذلك وصفه بها رسوله - صلى الله عليه وسلم - فكيف يصف النبي - صلى الله عليه وسلم - ربه بما لا يليق ؟ أأنتم أعلم أم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ؟؟ .

المطلب السادس : الصفات الفعلية

<u>تمهيـد :</u> صفات الله الفعلية أو صفات الأفعال من الصفات الخبرية التي لا تثبت إلا بالخبر الصادق الصحيح ، وقد وردت النصـوص الشـرعية باثـبات صفات الأفعال كالإستواء على العرش ، والنزول والمجيء والإتيان ونحوها إما بالكتاب أو بالسنة الصحيحة ، أو بهما معا كما سنرى قريبا .

لكن السيوطي عندما تكلم عن هذه الصفات لم يتبع في اثباتها منهج أهل السنة والجماعة ، بل اتبع مذهب الأشاعرة[٦] فـي تأويلها ، وهذا المذهب ظاهر البطلان كما قد قررته قبل ذلك في فصل " موقفه من التأويل " [٧] ولكنه هنا قد طبق مـنهج الـتأويل عـلى هذه الصفات العلية فقال : " وما ورد في الكتاب والسنة من المشكل من الصفات ، نؤمن بظاهره ،

---

(١) رواه ابـن أبـي شـيبة في " العرش " (ص٦٠) . وابن جرير في " تفسيره " (١٠/٣) عن السدي ، وعن مسلم البطين . والبيهقي في " الاسماء والصـفات " . وصحح إسناده موقوفاً الألباني في " مختصر العلو (ص١٢٤،١٢٣) . وانظر السيوطي : الدر المنثور (١٧/٣) قال السيوطي : " وأخـرج ابـن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ والبيهقي في الأسماء والصفات عن أبي موسى الأشعري قال : الكرسي موضع القدمين وله أطيط كـأطيط الـرجل ، قلت (يعني السيوطي) : هذا على سبيل الاستعارة - تعالى الله عن التشبيه ، ويوضحه ما أخرجه ابن جرير عن الضحاك في الآية قال : كرسيه الذي يوضع تحت العرش الذي تجعل الملوك عليه أقدامهم " الدر المنثور (١٧/٣) ، وكلام السيوطي تأويل غير صحيح .

(٢) انظر : شرح النووي على صحيح مسلم (٨٤/١٧) .

(٣) تأويل الأحاديث الموهمة للتشبيه (ص١٣٦-١٣٧) .

(٤) انظر : د.محمد أمان بن علي الجامي : الصفات الإلهية في الكتاب والسنة (ص٣٢٤) .

(٥) سورة البقرة الآية (١٤٠) .

(٦) والمعتزلة كذلك والجهمية على نفي الصفات مطلقا .

(٧) انظر : الفصل الثاني من الباب الثاني .

ونـــنزهه عن حقيقته كقوله تعالى : (الرحمن على العرش استوى)[١] (ويبقى وجه ربك)[٢] (ولتصنع على عيني)[٣] (يدالله فوق أيديهم)[٤] وقوله -صلى الله عليه وسلم- " إن قلوب بني آدم كلها بين أصبعين من أصابع الرحمن ، كقلب واحد يصـــرفه كيف يشاء[٥] ، ثم نفوض معناه المراد إليه تعالى ، كما هو مذهب السلف ، وهي أسلم ، أو نؤول كما هو مذهب الخـــلف ، فـــنؤول في الآيات الاستواء بالاستيلاء والوجه بالذات ، والعين بالبصر ، واليد بالقدرة ، والمراد في الحديث أن قلوب العباد كلها بالنسبة إلى قدرته تعالى شيء يسير يصرفه كيف يشاء ، كما يقلب الواحد من عباده اليسير بين أصبعين من أصابعه "[٦]

وقال أيضاً في " نظم جمع الجوامع " :

" وما أتى به الهدى والســـــنن   من الصفات المشكلات نؤمنْ

بها كما جـــاءت مـــنزهينـــا   مـــفوضين أو مؤوليـــــنا

والجهل بالتفصيل ليس يقـــدح   بالاتفاق والسكوت أصـــح "

ثم قال شارحاً لهذا النظم :

" مـــاورد فـــي الكتاب والسنة الصحيحة من الصفات المشكلة ظاهرها لإيهامه تشبيهاً ونحوه ، كقوله تعالى (الرحمن على العـــرش استوى)[٧] ، (ويبقى وجه ربك)[٨] ، (ولتصنع على عيني)[٩] ، (يد الله فوق أيديهم)[١٠] ، وحديث مسلم : " إن قلوب بنى آدم كلها بين أصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصرفه كيف يشاء "[١١] ، ونحو ذلك ، فيه مذهبان لأهل السنة :

<u>أحدهمـــا</u> : أن نؤمـــن بها كما جاءت ، ونفوض المراد منها إلى الله تعالى ، ولانفسرها مع تنزهينا له تعالى عن حقيقتها ، وهذا مذهب السلف وأهل الحديث وهو أسلم كما مر من زيادتي ، والسكوت أصلح .

سئل مالك عن قوله تعالى : (الرحمن على العرش استوى)[١٢] فقال : " الاستواء معلوم ، والكيف مجهول ، والايمان به

---

(١) سورة طه الآية (٥) .
(٢) سورة الرحمن الآية (٢٧) .
(٣) سورة طه الآية (٣٩) .
(٤) سورة الفتح الآية (١٠) .
(٥) صـــحيح مسلم (٢٠٤٥/٤) كتاب القدر (٤٦) باب (٣) ج رقم (١٧/٢٦٥٤) وفي نص الحديث في صحيح مسلم " ... كقلب واحد يصرفه حيث يشاء" ثم قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- " اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك" .
واخرجه ابن ماجه "في السنة" - كتاب الدعاء (٢) ، أحمد "في المسند" (١٦٨/٢ ، ١١٢/٣ ، ٢٥٧)
(٦) علم التوحيد - مخطوط لوحة رقم (٤،٥) ، وسبق أن نقلت جزءاً من هذا النص عند الكلام على الوجه والعينين
(٧) سورة طـــه (٥) .
(٨) سورة الرحمن الآية (٢٧) .
(٩) سورة طـــه الآية (٣٩) .
(١٠) سورة الفتح الآية (١٠) .
(١١) سبق تخريجه قبل قليل .
(١٢) سورة طـــه الآية (٥) .

واجب والسؤال عنه بدعة " أخرجه البيهقي [١] .

وأخرج عنه أيضا – أنه قال : " هو كما وصف نفسه ولايقال كيف ، وكيف عنه مرفوع "[٢] .

وأخـــرج اللالكائي في السنة عن أم سلمة – رضي الله عنها – أنها قالت : " الاستواء غير مجهول ، والكيف غير معقول ، والاقرار به إيمان ، والجحود به كفر" [٣] .

وأخرج بن ربيعه بن ابي عبدالرحمن أنه سئل عنه فقال : " الاستواء غير مجهول ، والكيف غير معقول ، وعلى الله الرسالة ، وعلى الرسول – صلى الله عليه وسلم – البلاغ ، وعلينا التسليم " [٤] . وأسند – أيضا – عن محمد بن الحسن قال : " اتفق الفقهاء من المشرق إلى المغرب على الايمان بالصفات من غير تشبيه ولاتفسير "[٥] .

وقـــال الترمذي في الكلام على حديث الرؤية : " المذهب في هذا عند أهل العلم من الأئمة مثل :سفيان الثوري ، ومـــالك ، وابـــن المـــبارك ، وابن عيينة ، ووكيع ، وغيرهم أنهم قالوا : نروى هذه الأحاديث كما جاءت ، ونؤمن بها ، ولايقال كيف ولاتفسر ولانتوهم "[٦] .

<u>ثانيهمـــا</u> : أنا نؤولها على مايليق بجنابه وجلاله تعالى ، بأن يؤول الاستواء بالاستيلاء ، والوجه بالذات ، والعين بالبصر ، واليد بالقدرة ، ونحوها ، وهذا مذهب الخلف .

وكـــان إمـــام الحرمين يذهب إليه ثم رجع عنه ، فقال في " الرسالة النظامية " : " الذى نرتضيه ديناً وندين الله به عقداً ، اتباع سلف الأمة ، فإنهم درجوا على ترك التعرض لمعانيها " [٧] .

وتوســـط ابن دقيق العيد فقال : " إذا كان التأويل قريباً من لسان العرب لم ينكر ، أو بعيداً توقفنا عنه وآمنا بمعناه على الوجه الذى أريد به مع التنزيه .

قـــال : ومـــا كان معناه من هذه الالفاظ ظاهراً مفهوماً من خطاب العرب قلنا به من غير توقيف كما في قوله (يا حسرتي على مافرطت في جنب الله) [٨] فنحمله على حق الله ، وما يجب له ، وكذا حديث (قلب المؤمن بين أصبعين) نحمله على

---

(١) هذا القول الدقيق قد اشتهر عن الامام مالك بن أنس رحمه الله – وإن كان محفوظاً عن غيره، حتى غدا قاعدة محكمة تنطبق على جميع نصوص الصفات ، وقد أخرجه عنه جمع من الأئمة منهم : الدارمى : الرد على الجهمية (ص ٢٨٠) ، واللالكائى في شرح اعتقاد أهل السنة والجماعة (٣٩٨/٣) ، أبو نعيم : الحلية (٣٢٥/٦-٣٢٦) والبيهقي في الاسماء والصفات (ص ٥١٥) وابن عبدالبر في التمهيد (١٣٨/٧) ، الذهبي : سير أعلام النبلاء (١٠٠/٨) ، والعلو (١٠٣) والأصبهاني : الحجة (٢٥٧/٢) ، وابن قدامة : اثبات صفة العلو (ص ١٧٢) ، وذكره ابن تيميـــة : الحمويـــة (ص ٢٤) ، التدمرية (ص ٤٣ ، ٩٨) ، شرح حديث النزول (٣٢) وابن القيم : اجتماع الجيوش (٧٥) وفي مختصر الصواعق المرسلة (٣٢٤/٢) ، وابن ابى العز : شرح العقيدة الطحاوية (٩٦/١ ، ٢/ ٣٧٢) وابن حجر : فتح الباري (٤٠٦/١٣) .

(٢) البيهقي : الاسماء والصفات (١٥٠/٢) .

(٣) اللالكـــائي : شرح اعتقاد أهل السنة والجماعة (٤٤٠/٣) ، قال ابن تيمية : " وقد روى هذا الجواب عن أم سلمة – رضي الله عنها – موقوفاً ومرفوعاً ولكن ليس (٤٤٢/٣) إسناده مما يعتمد عليه " مجموع الفتاوى (٣٦٥/٥) .

(٤) اللالكـــائي : شرح اعتقاد أهل السنة والجماعة (٤٤٢/٣) . وفي اجتماع الجيوش الاسلامية : " وعلينا التصديق " (ص ٧٠) قال ابن تيمية : إنه ثابت عن ربيعة شيخ مالك ، الفتاوى (٣٦٥/٥) .

(٥) اللالكائي : شرح اعتقاد أهل السنة والجماعة (٤٨٠/٣) رقم (٧٤٠) .

(٦) سنن الترمذي (٦٩٢/٤) كتاب (٣٩) باب (٢٠) وانظر (٤١/٣) سنن الترمذي أيضاً .

(٧) العقيدة النظامية (ص ٣٢) .

(٨) سورة الزمر ، بعض الآية (٥٦) .

أن إرادة القلب واعتقاد ذاته مصرفة بقدرة الله ، وما يوقعه في القلوب كما يقلب الواحد منا اليسير بين أصابعه "[1] أ.هـ.

أقول : هذا الذي قرره السيوطي وسطره ، - مع طوله وجهده - قد خالف فيه تماما ما قرره أئمة السلف - رحمهم الله- في اثباتهم هذه الصفات الجليلة لله -جل وعلا- اعتمادا على نص الكتاب والسنة ، فوافق السيوطي - بما ذهب إليه - المؤولة الذين عزفوا عن مذهب أهل السنة والجماعة - وهو المذهب الحق - وأعرضوا عنه ، وهذا الإعراض عن مذهب السلف - الذي هو مذهب أهل السنة والجماعة - هو أصل ضلال الفرق والطوائف المبتدعة .

وفي كلام السيوطي الذي نقلته آنفا عدة عبارات ينبغي الوقوف عندها لتجلية وجه الحق فيها وأهمها :

الأولى : قوله : " ما ورد في الكتاب والسنة من المشكل من الصفات " .

قد قدمت في الفصل الثاني من الباب الثاني " موقفه من التأويل " وهو أن السيوطي يجعل صفات الباري من المشكل أي المتشابه وذكرت أيضا أن الصحيح الراجح أن آيات الصفات وأحاديثها ليست من قبيل المتشابه بأدلة وبراهين تغني عن الإعادة .

الثانية : قوله : " نؤمن بظاهره ، وننزهه عن حقيقته " هذا كلام المؤولة الذين ينزهون الله عن حقيقة الصفات ، وهذا هو التعطيل بعينه ، أما أهل السنة فيثبتون الصفات لله عز وجل إثباتا حقيقيا على ما يليق بجلاله سبحانه وتعالى ، فيقولون في الإستواء : إن الله تعالى استوى على عرشه بذاته حقيقة استواء يليق بجلاله وكماله وعظمته ، لا على وجه المماثلة والمشابهة للمخلوقات .

---

(١) الكوكب الساطع شرح نظم جمع الجوامع - مخطوط - لوحة رقم (١٦٤/أ،ب) .

(٢) الفتوى الحموية الكبرى (ص١٣) تقديم محمدعبدالرزاق حمزة، ط المدلى : ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م .

(٣) سورة الأعراف الآية (٥٤) .

ويقولون نفس قولهم في بقية الصفات العلى كلها .

الثالثة : قوله : " ثم نفوض معناه المراد إليه تعالى كما هو مذهب السلف ، وهو اسلم ، أو نؤول كما هو مذهب الخلف " .

وهـذه مـن الطامات الكبرى في مذهب المؤولة ، فهم جاهلون بمذهب السلف ، ضالون بمذهب الخلف . قال ابن تيمية : " وقد كذبوا على طريقة السلف ، وضلوا في تصويب طريقة الخلف ، فجمعوا بين الجهل بطريقة السلف في الكذب عليهم ، وبين الجهل والضلال بتصويب طريقة الخلف "[1] وقد قدمت أيضا في الفصل الثاني من الباب الثاني ، بطلان نسبة التفويض إلى مذهب السلف ، فالسلف مثبتون لا مفوضون . وقد أوضحت ذلك وبينته هناك بما يغني عن الإعادة .

أدلة اثبات الصفات التي تأولها السيوطي

١- صفة الإستواء :

ورد إثـبات صفة الاستواء لله تعالى في القرآن الكريم في سبعة مواضع وهي : قوله تعالى : (إن ربكم الله الذي خـلق السـموات والأرض فـي ستة أيام ثم استوى على العرش)[2] وقوله (الله الذي رفع السموات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش)[3] وقوله : (الرحمن على العرش استوى)[4] وقوله: (ثم استوى على العرش الرحمن)[5] وقوله: (الله الـذي خـلق السـموات والارض ومابيـنهما في ستة أيام ثم استوى على العرش[6] وقوله: (هو الذي خلق السموات والارض فـي سـتة ايام ثم استوى على العرش)[7] فهذه الآيات تدل دلالة واضحة قاطعة لا تحتمل أى تأويل على أن الله تعـالى مسـتوٍ عـلى عرشـه بذاته تعالى حقيقة ، استواء يليق بجلاله ، وكمال عظمته جل وعلا، لاعلى وجه المماثلة او المشابهة بالمخلوق .

أما الدليل من السنن والآثار ، فمنها :

٢- قوله - صلى الله عليه وسلم - : " لما فرغ الله من خلقه ، استوى على عرشه " [8] .

٣- قول ابن عباس - رضي الله عنهما - : " ... إن الله تعالى استوى على عرشه قبل أن يخلق شيئاً ، فكان أول ما خلق القلم ... " [9] . ومعنى الإستواء : العلو ، والإرتفاع ، والإستقرار والصعود [1] .

---

(١) الفتوى الحموية الكبرى (ص١٣) تقديم محمدعبدالرزاق حمزة، ط المدلى : ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م .

(٢) سورة الأعراف الآية (٥٤) .
وسورة يونس الآية (٣) .

(٣) سورة الرعد الاية(٢).

(٤) سورة طه الاية (٥).

(٥) سورة الفرقان الاية (٥٩).

(٦) سورة السجدة الاية (٤).

(٧) سورة الحديد الاية (٤).

(٨) ذكره ابن القيم في " اجتماع الجيوش الاسلامية " (ص٥٤) وقال : " رواه الخلال في كتاب " السنة " باسناد صحيح على شرط البخاري " وقال الذهبي في " العلو " (ص٥٢) : " رواته ثقات "

(٩) رواه ابن بطة في " الابانة الكبرى " ح رقم (٩٨) (٢/١٠٦) ، واللالكائي في " شرح أصول أهل السنة والجماعة " ح رقم (١٢٢٣) (٤/٦٦٩) . والآجـرى فـي " الشريعة " ح رقم (٣٥١) (٢/٧٧٠) ، رقم (٤٤٤) (٢/٨٦٧) وح رقم (٦٦٦) (٣/١٠٩٠) . باسناد صحيح كما قرره محقق كتاب الشريعة .

قال ابن القيم ــ رحمه الله - :

" فلهم عبارات عليها أربع	قد حصلت للفارس الطعان
وهي استقر وقد علا وكذلك	ارتفع الذي ما فيه من نكران
وكذاك قد صعد الذي هو رابع	وابو عبيدة صاحب الشيباني
يختار هذا القول في تفسيره	أدرى من الجهمي بالقرآن"[٢]

وعبارات السلف ومصنفاتهم أكثر من أن تحصر في اثبات هذه الصفة العظيمة . قال ابن القيم : " القول في أن الله تعالى مستو على العرش هذه المسألة سبيلها التوقيف المحض ، ولا يصل إليها الدليل من غير هذا الوجه ، وقد نطق به الكتاب في غير آية ، ووردت به الاخبار الصحيحة، فقبوله من جهة التوقيف واجب ، والبحث عنه وطلب الكيفية غير جائز ، وقد قال مالك : الاستواء معلوم ، والكيف غير معقول ، والايمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة "[٣] فمن التوقيف الذي جاء به الكتاب قوله تعالى : (الرحمن على العرش استوى)[٤] ، وقال تعالى : (ثم استوى على العرش)[٥] وقال : (رفيع الدرجات ذو العرش)[٦] ، وقال : (أأمنتم من في السماء أن يخسف بكم الارض فإذا هي تمور ، أم أمنتم من في السماء أن يرسل عليكم حاصبا)[٧] وقال : (تعرج الملائكة والروح إليه)[٨] ... وقال حكاية عن فرعون أنه قال : (يا هامان ابن لي صرحا لعلي أبلغ الأسباب ، أسباب السموات فاطلع إلى إله موسى)[٩] فوقع قصد الكافر إلى الجهة التي أخبره موسى عنها ، ولذلك لم يطلبه في طول الأرض ولا عرضها ، ولم ينزل إلى طبقات الأرض السفلى [١٠] ،فدل ما تلوناه من هذه الآي على أن الله سبحانه في السماء مستو على العرش ، وقد جرت عادة المسلمين خاصتهم وعامتهم بأن يدعو عند الابتهال والرغبة إليه ، ويرفعوا أيديهم إلى السماء ، وذلك لاستفاضة العلم عندهم بأن ربهم المدعو في السماء سبحانه "[١١] وقد حكى أبو عمر الطلمنكي[١] إجماع المسلمين من أهل السنة على أن الله تعالى استوى على عرشه بذاته ،

---

(١) انظر : ابن جرير : جامع البيان (١/ ١٢٩) وذكر عنه ابن القيم في " اجتماع الجيوش الإسلامية " (١/ ١١٩) أنه قال في كتابه " صريح السنة " : "وحسب امرئ أن يعلم أن ربه هو الذي على العرش استوى ، فمن تجاوز إلى غير ذلك فقد خاب وخسر " . وانظر : الشيخ محمد بن صالح العثيمين : تعليقات على العقيدة الواسطية (ص ٣٢) .

(٢) أحمد بن إبراهيم بن عيسى: توضيح المقاصد وتصحيح القواعد في شرح قصيدة ابن القيم (النونية) (١/ ٤٤٠) ت زهير الشاويش - المكتب الاسلامي ط ١٤٠٦/٣ هـ .

(٣) سبق تخريجه عند نقلي لكلام السيوطي .

(٤) سورة طه الاية (٥) .

(٥) سورة الفرقان الاية (٥٩) .

(٦) سورة غافر الاية (١٥) .

(٧) سورة الملك الايتان (١٦، ١٧) .

(٨) سورة المعارج الاية (٤) .

(٩) سورة غافر الايتان (٣٦، ٣٧) .

(١٠) قال ابن عبد البر في "التمهيد " (٧/ ١٣٣) : " فدل على أن موسى _ عليه السلام _ كان يقول إلهي في السماء ، وفرعون يظنه كاذبا " وقال الصابوني في "عقيدة السلف " (ص ١٥) : وإنما قال ذلك لأنه سمع موسى _عليه السلام _يذكر أن ربه في السماء ،ألا ترى إلى قوله (وإني لأظنه كاذبا) يعني في قوله : إن في السماء إلها " وانظر اجتماع الجيوش (ص ٧٨) .

(١١) تهذيب مختصر سنن أبي داود لابن القيم (٧/١٠٨-١٠٩) نقلا عن أبي سليمان الخطابي في "شعار الدين" . وانظر : مختصر الصواعق المرسلة (٢/٣٨١) .

وقال أيضا : " أجمع أهل السنة على أنه تعالى استوى على عرشه على الحقيقة لا على المجاز "[٢] أما القائلون بالمجاز منهم المؤولة من الأشعرية ومن وافقهم كالسيوطي وغيره . وزعموا أن استوى بمعنى استولى ، وأن الاستواء هو الاستيلاء ، واستدلوا بما هو أو هي من بيت العنكبوت ، ألا وهو شاعرهم اليتيم الأخطل النصراني الذي استدلوا بما نسبوه إليه في صفة الكلام – سابقا – وتبينت الحقيقة بالدلائل أنه لم يقل ما استدلوا به على أنه من شعره ، وكذلك هنا استدلوا – أيضا – ببيت من الشعر نسبوه إليه زوراً، مما يدل على تهافت رأيهم، وفساد مذهبهم . قال أبوسليمان الخطابي : "وزعم بعضهم أن الاستواء هنا بمعنى الاستيلاء ، ونزع فيه إلى بيت مجهول[٣] لم يقله شاعر معروف يصح الاحتجاج بقوله "[٤] وهذا الإمام الخطابي من أئمة اللغة كما قال عنه ابن القيم[٥] .

إذ أن قائله مجهول لا يدرى من هو حتى يعلم هل يحتج بشعره أم لا ؟؟ ثم ينظر بعد ذلك هل صح سند النقل عنه أم لا ؟ ثم إذا صح السند هل تلقاه علماء العربية بالقبول أم بالرد ؟؟ . وهنا أيضا يصدق على المؤولة قول من قال فيهم :

تباً لمن نبذ القرآن وراءه   واذا استدل يقول قال الأخطل

قال شيخ الاسلام ابن تيمية : " ولم يثبت نقل صحيح أنه شعر عربي ، وكان غير واحد من أئمة اللغة أنكروه – هكذا قال – وقالوا : أنه بيت مصنوع لا يعرف في اللغة ، وقد علم أنه لو احتج بحديث رسول الله – صلىالله عليه وسلم – لاحتاج الى صحته ، فكيف ببيت من الشعر لايعرف اسناده ؟ وقد طعن فيه أئمة اللغة "[٦] وقال المحقق ابن القيم : " ...فهذا شعر مولد حدث بعد كتاب الله ، ولم يكن معروفا قبل نزول القران ولافي عصر من أنزل عليه القران ، ولم يكن من لغة من نزل القران عليه ... "[٧] وقال الحافظ ابن كثير : " والجهمية تستدل على الاستواء على العرش بأنه الاستيلاء ببيت الأخطل – وذكره – قال : وليس فيه دليل ، فإن هذا الاستدلال باطل من وجوه كثيرة ، وقد كان الأخطل نصرانيا "[٨] وقال أيضا : " وهذا البيت تستدل به الجهمية على أن الاستواء على العرش بمعنى الاستيلاء ، وهذا من تحريف الكلم عن مواضعه ، وليس في بيت هذا النصراني حجة ولا دليل على ذلك ، ولا أراد الله عز وجل باستوائه على عرشه استيلاءه عليه ، تعالى الله عن قول الجهمية علوا كبيرا ، فإنه إنما يقال استولى على الشيء إذا كان ذلك الشئ عاصيا عليه قبل استيلائه عليه ، كاستيلاء بشر على العراق ، واستيلاء عبد الملك على المدينة بعد عصيانها عليه ، وعرش الرب لم يكن

---

(١) هو : أحمد بن عبدالله ، أبو عمر ، الطلمنكي ، المعافري ، الأندلسي ، كان من المجودين في القراءات ، وله تصانيف في القراءة ، وروى الحديث . (ت٤٢٩هـ) انظر ترجمة : طبقات القراء لابن الجزري (١٢٠/١) طبعة الخانجي ، شذرات الذهب (٢٤٣/٣-٢٤٤) ، تذكرة الحفاظ (١٠٩٨/٣-١١٠٠) ، الديباج المذهب لابن فرحون المالكي _ ط ابن شقرون القاهرة سنة ١٣٥١هـ (ص/٣٩-٤٠) .

(٢) ذكره عنه الامام ابن القيم في "اجتماع الجيوش الاسلامية " (ص٧٦) ، وفي مختصر الصواعق المرسلة (٣٢٤/٢) . نقلا عن كتابه الذي سماه "الوصول إلى معرفة الأصول" .

(٣) هو : قد استوى بشر على العراق من غير سيف ودم مهراق أورده الجوهري في الصحاح مادة (سوا) (٢٣٨٥/٦) ، ونقله عنه ابن منظور في " لسان العرب " مادة (سوا) (٤١٤/١٤) ولم ينسباه لأحد ، ونسبه الزبيدي في " التاج " (١٨٩/١٠) للأخطل وليس في ديوانه .

(٤) مختصر الصواعق المرسلة (٣٢١/٢) نقلا عن " شعار الدين " لأبي سليمان الخطابي .

(٥) انظر : مختصر الصواعق المرسلة (٣٢١/٢) .

(٦) مجموع الفتاوى (١٤٦/٥) .

(٧) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة (٦٧٥/٢) . والمختصر (٣٢٦/٢) ، وفيه إبطاله من وجوه أخرى رائعة .

(٨) البداية والنهاية (٨/٧) .

ممتنعاً عليه نفسا واحداً حتى يقال : استولى عليه ، أو معنى الاستواء الاستيلاء ، ولا تجد أضعف من حجج الجهمية ، حتى أداهم الافلاس من الحجج إلى بيت هذا النصراني المقبوح ، وليس فيه حجة ، والله أعلم "[١] وكذلك يقال أيضا : لو كان الاستواء هو بمعنى الاستيلاء لكان الكلام عديم الفائدة والجدوى - كما سبق في كلام ابن القيم الذي نقله عن الخطابي - ذلك لأن الله عز وجل قد أحاط علمه وقدرته بكل شيء ، وكل قطر وبقعة من السموات والأرضين تحت العرش ، وهو مستول عليها بهذا المعنى فهو مالكها وقاهرها ، فما معنى إذا تخصيص العرش بالذكر في الاستيلاء ؟؟ إذ كل الكون في قبضته تعالى وتحت ملكه وقهره . ثم إن الاستيلاء - كما ذكر الحافظ ابن كثير - يتحقق معناه عند المنع من الشيء فإذا وقع الظفر به ، قيل : استولى عليه ، فأى منع كان حتى يوصف بالاستيلاء بعده ؟ [٢] ! [٣] . إن المؤولة وهم يدعون الانتساب إلى أبي الحسن الأشعرى ، قد خالفوا رأيه ومذهبه فقد استدل أبو الحسن بأدلة قاطعة موافقا أهل السنة في بطلان تفسير الاستواء بالاستيلاء ، قال ابن القيم : " ونحن نذكر لفظه بعينه الذى حكاه عنه أبو القاسم ابن عساكر ، في كتاب " تبين كذب المفترى " وحكاه قبله أبو بكر بن فورك ، وهو موجود في كتبه ، قال في " كتاب الابانة " ، وهو آخر كتبه ، قال : (باب ذكر الاستواء) إن قال قائل : ما تقولون في الاستواء ؟ قيل له : نقول إن الله عز وجل يستوى على عرشه استواء يليق به...كما قال : (الرحمن على العرش استوى) وساق الأدلة على ذلك ثم قال : وقال قائلون من المعتزلة والجهمية والحرورية إن معنى قوله : (الرحمن على العرش استوى) أنه استولى وملك وقهر ، وجحدوا أن يكون الله على عرشه كما قال أهل الحق ، وذهبوا في الاستواء إلى القدرة ، ولو كان هذا كما قالوا ، كان لافرق بين العرش والأرض السابعة السفلى لأن الله تعالى قادر على كل شيء والأرض والسموات وكل شيء في العالم فلو كان الله مستويا على العرش بمعنى الاستيلاء والقدرة ، لكان مستوياً على الارض والحشوش ، والانتان والاقذار لانه قادر على الاشياء كلها ، ولم نجد أحدا من المسلمين يقول إن الله مستو على الحشوش والاخليه ، فلايجوز أن يكون معنى الاستواء على العرش ، على معنى هو عام في الاشياء كلها ، ووجب أن يكون معنى الاستواء يختص بالعرش دون سائر الاشياء [٤] ، وهكذا قال في كتابه " الموجز " وغيره من كتبه "[٥] . قال ابن القيم :

---

(١) السابق نفسه (٧/ ٢٧٣) .

(٢) انظر : ابن القيم : مختصر الصواعق المرسلة (٢/ ٣٢١) ، نقلا عن " شعار الدين " للخطابي ، بتصريف في العبارة .

(٣) اخرج ابن عرفة في كتابه " الرد على الجهمية " - كما في اجتماع الجيوش الاسلامية " (ص١٦٧)_ وعنه اللالكائى بسنده في "شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة " (٣/٣٩٩) قال : أخبرنا محمد بن جعفر النحوى ، إجازة ، ثنا أبو عبدالله نفطويه قال : حدثني أبو سليمان داود بن علي قال : كنا عند ابن الأعرابي فأتاه رجل فقال له : ما معنى قول الله عز وجل (الرحمن على العرش استوى)؟ فقال : هو على عرشه كما أخبر عز وجل ، فقال : ياأبا عبدالله ، ليس هذا معناه ، إنما معناه استولى ، فقال اسكت ما أنت وهذا لايقال : استولى على الشيء إلا أن يكون له مضاد ، فإذا غلب أحدهما قيل : استولى ،أما سمعت قول النابغة :

إلا لمثلك أو من أنت سابقه ... سبق الجواد إذا استولى على الأمد

(ديوان النابغة الذبياني ص١٤) . وأخرج هذا _أيضا _ أبو اسماعيل الهروى في كتاب "الفاروق " حكاه عن الحافظ ابن حجر في فتح البارى (١٣/٤٠١) ، ورواه البيهقي في الأسماء والصفات (ص٥٢٣) ، والخطيب البغدادي في " تاريخ بغداد " (٥/٢٨٤) وابن قدامة في اثبات صفة العلو (ص١٧٤) .

(٤) الإبانه بلفظه مع اختلاف يسير ، انظر (ص١٠٥) بتحقيق د/فوقيه حسين محمود - دار الانصار -القاهرة .

(٥) ابن القيم : مختصر الصواعق المرسلة (٢/٣٢٦) .

" والأشعري يقول تفسير استوى بحقيقة استولى من البهـتــــان[١]

هو قول أهل الإعتزال وقول اتبا ع لجـهم وهو ذو بطـــــلان

في كتبه قـد قـاله من "موجـز"[٢] "وابـانه"[٣] و "مقـالة"[٤] ببـيان "

كما أن البيت الذى استدلو به على سوء مذهبهم هو حجة عليهم لالهم ، وهو دليل على حقيقة الاستواء ، فإن بشرا المذكـور فيـه كـان أخـا عـبد المـلك بـن مـروان ، وكـان أميـرا عـلى العـراق مـن قـبل أخيـه الخـليفة عبد الملك ، فاستوى على سرير ملكها كما هى عادة الملوك ونوابها أن يجسلوا فوق سرير الملك مستوين عليه ، وهذا هو المطابق لمعنى هذه اللفظة في اللغة ، كما قال تعالى : (لتستووا على ظهوره...)[٥] وقوله : (واستوت على الجودى)[٦] ، وقوله : (فاستوى على سوقه) وفي الصحيح أن النبى – صلى الله عليه وسلم – كان إذا استوى على بعيره خارجا إلى سـفر كـبر ملبيا[٧] ، وقال علي – رضي الله عنه – أتى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بدابة ليركبها ، فلما وضع رجلــه في الغرز قال : " بسم الله " فلما استوى على ظهرها قال : "الحمدلله " [٨] فليس في هذه المواضع كلها موضع واحد يدل على أن الاستواء بمعنى الاستيلاء والقهر[٩]. وكذلك فاستواء الشيء على غيره يتضمن استقراره وثباته وتمكنه عليه ، كمـا قـال تعـالى في السفينة (واستوت على الجودى)[١٠] أى رست عليه واستقرت على ظهره ، ولا يصح أن يقال اسـتولت السفينة على الجودى ، وقال تعالى : (لتستووا على ظهوره)[١١] ، وقال في الزرع : (فاستوى على سوقه)[١٢] فإنه قبل ذلك يكون فيه ميل واعوجاج لأجل ضعف سوقه ، واذا استغلظ الساق واشتدت السنبله استقرت ، ومنه قولهم : قد استوى بشر على العراق ، فإنه يتضمن استقراره وثباته عليها ، ودخوله دخول مستقر غير مزلزل ، وهو يتضمن الاستيلاء ، لا أن معناه الاستيلاء وهو بحسب موضعه ، لأنه لا يصح أن يقال استولت السنبلة على ساقها ، ولا استولت السفينة على الجبل ، ولا استولى الرجل على السطح إذا ارتفع فوقه[١٣] .

وبهــذا يتــبين بطلان رأى من قال : إن الاستواء هو الاستيلاء ، وبه يتبين – أيضا – خطأ السيوطى في موافقته لــلمؤولة بهــذا التأويل الباطل ، ولقد تصدى العلماء والأئمة منذ ظهرت هذه البدع لدحضها وإبطالها ، واحقاق مذهب أهل

---

(١) أى أن أبا الحسن الاشعري ذكر ابطال تأويل الاستواء بالاستيلاء ، وعد ذلك من الكذب والبهتان في كثير من كتبه ، انظر ابن عيسى : توضيح المقاصد (شرح النونين) (٤٤١/١) .

(٢) كتاب من تصنيف أبى الحسن الاشعري سماه "الموجز" وذكره ابن القيم في مختصر الصواعق (٣٢٦/٢) ، كما سبق .

(٣) " الابانه عن أصول الديانه" تصنيف أبى الحسن الاشعري ، مطبوع طبعات عديدة .

(٤) " مقالات الاسلاميه واختلاف المصلين " من تصنيفه أيضا ، مطبوع .

(٥) سورة الزخرف الآية (١٣) .

(٦) سورة سيدنا هود – عليه السلام – ، بعض الآية (٤٤) .

(٧) صحيح مسلم (٩٧٨/٢) ح رقم (٣٤٢) .

(٨) سنن الترمذي كتاب الدعوات ، باب (٤٦) ، وأبو داود – كتاب الجهاد ، باب (٧٤) .

(٩) انظر : ابن القيم : مختصر الصواعق المرسلة (٣٢٦/٢) .

(١٠) سورة هود الآية (٤٤) .

(١١) سورة الزخرف الآية (١٣) .

(١٢) سورة الفتح الايه (٢٩) .

(١٣) انظر : ابن القيم : مختصر الصواعق المرسلة (٣٢٧/٢) .

السنة والجماعة بالدليل الناصع ، والبرهان الساطع ومن ذلك هذا التأويل الفاسد للاستواء بالاستيلاء ، وخلاصة ما تقدم من رد لهذا التأويل أنه لايصح لوجوه أربعة هى ايجاز ما قدمته مفصلا وهى :

١- أنه خلاف ظاهر النص . ٢- أنه خلاف ما فسره السلف .

٣- أنه يلزم عليه لوازم باطلة . ٤- أنه غير صحيح في اللغة ، قال ابن تيمية :

"سئل الخليل : هل وجدت في اللغة استوى بمعنى استولى ؟ فقال : هذا ما لاتعرفه العرب ، ولا هو جائز في لغتها ، وهو امام في اللغة - على ما عرف من حاله - فحينئذ حمله على ما لايعرف حمل باطل [١] " .

ولعظم هذه الصفة - وصفاته تعالى كلها عظيمة - اهتم العلماء بجمع أدلتها من الكتاب والسنة الصحيحة ، وتقييد ما جاء فيها من أخبار وأقوال واستدلالات من طريق اللغة وغيرها ، من خلال مؤلفات حميدة مع ردهم المحكم على أهل الشبه والضلال والبدع ، معطلة الصفات ونفاتها ، ودحض أقوالهم ، وتفنيد آرائهم وإبطال مزاعمهم بما تقربه عيون المؤمنين ، وتسعد به قلوب الموحدين[٢] .

٣- صفة النزول :

وهي صفة فعلية ثابتة لله عز وجل ، بالسنة الصحيحة المتواترة ، ومعنى النزول عند أهل السنة والجماعة : أن الله جل وعلا ينزل إلى السماء الدنيا كل ليلة حين يبقى ثلث الليل الآخر نزولا حقيقيا يليق بجلاله ، ولا يعلم كيفيته إلا هو جل وعلا[٣] ، ونزوله سبحانه إلى السماء الدنيا لا ينافي علوه ، لأنه تعالى ليس كمثله شيء ولا يقاس نزوله بنزول مخلوقاته[٤] .

---

(١) مجموع الفتاوى (١٤٦/٥) ، وذكر شيخ الإسلام ابن تيمية في هذا الموضع إبطال تفسير الاستواء بمعنى الاستيلاء من اثني عشر وجهاً ، فانظر هناك .

(٢) ينبغي لكل مسلم الاطلاع على أقوال الأئمة والعلماء والباحثين من أهل السنة وما قيدوا من أدلة وبراهين في صفة الاستواء ومعها صفة العلو مع ردهم على المبتدعين ، ولينظر : ابن تيمية : مجموع الفتاوى (١٣٦/٥-١٢٥) .ابن قتيبة : تأويل مختلف الحديث (ص٣٢٧-٣٣٠) .
الدارمي : الرد على الجهمية _ضمن عقائد السلف (ص٢٦٣-٢٨٢) ، وكذا رده على بشر المريسي العنيد (ص٢٣-٢٥) .
ابن أبى شيبة : كتاب العرش وما روى فيه . ابن خزيمة : كتاب التوحيد واثبات صفلت الرب جل وعلا (٢٣١/١-٣٢٧) .
أبو الحسن الاشعرى : الإبانة عن أصول الديانة (ص١٠٥-١١٩) .اللالكائى : شرح اعتقاد أهل السنة والجماعة -(٣٨٧/٣-٤٠٢) .
أبو محمد الجوينى : اثبات الاستواء والفوقية _ ضمن مجموعة الرسائل المنيرية (١٧٤/١-١٨٧) .
الصابونى : عقيدة السلف (ص١٥-٢٦) .ابن عبد البر : التمهيد (١٢٨/٧-وما بعدها) .
ابن قدامة : اثبات صفة العلو . أحمد بن ابراهيم الواسطى : النصيحة في اثبات صفلت الرب جل وعلا .
ابن تيمية : العقيدة الواسطة بشرح ، محمد خليل هراس .
والذهبى : العلو للعلى الغفار ، والاربعين في صفات رب العالمين _ له ، (ص٧٨-٩٨) . ضمن ست رسائل للذهبى .
ابن القيم : اجتماع الجيوش الاسلامية (ص٤٥ إلى آخر الكتاب) . ومختصر الصواعق المرسلة _له_ (٣٢١/٢-وما بعدها) .
والقصيدة النونية _له_ مع شرحها للهراس (١٩٤/١ وما بعدها) ابن أبى العز : شرح العقيدة الطحاوية (٣٨١/٢-٣٩٤) .السفاريني : لوامع الأنوار البهية (١٩٠/١) أسامة بن توفيق القصاص : اثبات علو الله على خلقه والرد على المخالفين .الشيخ عبدالله بن محمد الغنيمان : شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري .الشيخ حمود بن عبدالله التويجري : اثبات علو الله ومباينته لخلقه .د . موسى بن سليمان الدويش : علو الله على خلقه . د . عوض منصور : (الرحمن على العرش استوى) بين التنزيه والتشويه .

(٣) انظر : ابن خزيمة : التوحيد (٢٨٩/١) ، وابن تيمية : شرح حديث النزول (ص٤ ، ٥ ، ٤٥ ، ٤٨ ، ١٩٢) ، السفاريني : لوامع الأنوار البهية (٢٤٢/١ ، ٢٤٣) ، ابن أبي العز : شرح العقيدة الطحاوية (ص٢٤٤) ، وابن عثيمين : تعليقات على العقيدة الواسطية (ص٣٧ ، ٣٨) .

(٤) انظر : ابن تيمية : دقائق التفسير ، تفسير سورة الإخلاص (٤٢٤/٦) ، ابن ابي العز : شرح العقيدة الطحاوية (ص٢٤٤ ، ٢٤٥) ، ابن عثيمين : تعليقات على العقيدة الواسطية (ص٣٨) ، السفاريني : لوامع الأنوار البهية (٢٤٥/١) .

ودليـل نزول الرب جل وعلا قوله – صلى الله عليه وسلم – : " ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا ، حين يبقى ثلث الليل الآخر ، يقول : من يدعوني فأستجيب له ، من يسألني فاعطيه ، من يستغفرني فأغفر له "(١) قـال ابـن خزيمة : " باب ذكر أخبار ثابتة السند صحيحة القوام رواها علماء الحجاز والعراق عن النبي –صلى الله عليه وسـلم– في نزول الرب –جل وعلا– إلى السماء الدنيا كل ليلة ، نشهد شهادة مقر بلسانه ، مصدق بقلبه ، مستيقن بما في هـذه الأخـبار من ذكر نزول الرب ، من غير أن نصف الكيفية ، لأن نبينا المصطفى لم يصف لنا كيفية نزول خالقنا إلى سماء الدنيا ، وأعلمنا أنه ينزل ، والله – جل وعلا – لم يترك ، ولا نبيه –عليه السلام– بيان ما بالمسلمين الحاجة إليه من أمر دينهم ، فنحن قائلون مصدقون بما في هذه الأخبار من ذكر النزول ، غير متكلفين القول بصفته ، أو بصفة الكيفية ، إذ النـبي – صلى الله عليه وسلم – لم يصف لنا كيفية النزول "(٢) وقال الآجرى : " باب الايمان والتصديق بأن الله عز وجل يـنزل إلى السماء الدنيا كل ليلة "(٣) ثم قال : " الايمان بهذا واجب ، ولا يسع المسلم العاقل أن يقـول : كيف ينزل ؟ ولا يـرد هـذا إلا المـعتزلة(٤) وأما أهل الحق فيقولون الايمان به واجب بلا كيف ، لأن الأخبار قد صحت عن رسول الله – صـلى الله عـليه وسـلم – أن الله عز وجل ينزل إلى السماء الدنيا كل ليلة ، ... فمن ردها فهو ضال خبيث ، يحذرون ويحذرون منه "(٥) . وقال الخطابي : " هذا الحديث وما أشبهه من الأحاديث في الصفات كان مذهب السلف فيها الايمان بها واجراؤها على ظاهرها ، ونفى الكيفية عنها "(٦) .

وأورد شيخ الإسلام ابن تيمية أقوالا كثيرة لأهل الحديث في اثبات نزول الرب جل وعلا فقال : " ويثبت أصحاب الحديـث نـزول الرب كل ليلة إلى السماء الدنيا من غير تشبيه له بنزول المخلوقين ، ولا تمثيل ولا تكييف ، بل يثبتون ما أثبته رسول الله –صلى الله عليه وسلم– وينتهون فيه إليه ، ويمرون الخبر الصحيح الوارد بذكره على ظاهره "(٧) .

فهذا جملة اعتقاد أهل السنة والجماعة ودليلهم في نزول الله تعالى إلى سماء الدنيا كل ليلة .

أما النزول عند أهل التأويل فيؤولونه بنزول أمره(٨) وتأوله السيوطي بقوله : " منزل المؤاخذة بالعدل ، والمسامحة والفضل "(٩) فهو عائد إلى معنى نزول أمره – كما سبق القول قبله – أو نزول ملائكته أو اقباله على أهل الأرض بالرحمة

---

(١) أخرجه البخاري في " صحيحه " كتاب التهجد ، باب (١٤) ح رقم (١١٤٥) ، انظر : الفتح (٢٩/٣) ، وفي كتاب الدعوات ، باب (١٤) ح رقم (٦٣٢١) الفتح (١٢٨/١١ – ١٢٩) ، وفي كتاب التوحيد ، باب (٣٥) ح رقم (٧٤٩٤) الفتح (٤٦٤/١٣).
وأخرجه مسلم في " صحيحه " كتاب صلاة المسافرين ، باب (٢٤) ح رقم (١٦٨) وما بعده (٥٢١/١ – ٥٢٢) .
(٢) التوحيد (٢٨٩/١-٢٩٠) .
(٣) الشريعة (١١٢٤/٣)
(٤) وكذلك الأشاعرة والماتريدية ، وسائر الجهمية من قبلهم وقد جمع شيخ الاسلام ابن تيمية شبه المنكرين لهذا الحديث فقندها ورد عليها في كتاب " شرح حديث النزول " .
(٥) الشريعة (١١٢٤/٣-١١٢٦) .
(٦) أعـلام الحديث في شرح صحيح البخارى ، ت. ودراسة د. محمد بن سعد بن عبد الرحمن آل سعود – مركز احياء التراث الاسلامى جامعة أم القرى مكة .
(٧) شرح حديث النزول (ص ٥٠ ، ٥١) . المكتب الإسلامي .
(٨) انظر : ابن تيمية : شرح حديث النزول (ص ٥٧) وقد رد ابن تيمية هذا التأويل وأنكره ، ونقل عن الإمام احمد انكاره الشديد لهذا التأويل .
(٩) تأويل الأحاديث الموهمة للتشبيه (ص ١١٥) .

والإحسان ، كما يذهب إليه المؤولة[١] .

أما قول السيوطي بأن الله تعالى ينزل " منزل المؤاخذة بالعدل ، والمسامحة والفضل " إن هذا الوصف ثابت لله تعـالى في كل وقت من الليل أو النهار، بل هو سبحانه حكم عدل في الدنيا والاخره جميعا ، وحمل الحديث النبوي على هـذا المعنى يبطل تخصيص النزول الالهي في الثلث الاخير من الليل ، فيكون قوله –صلى الله عليه وسلم-: ... " حين يبقى ثلث الليل الاخر" لا معنى له ولا فائدة منه وعليه وجب القول بمقتضى الحديث ، وإثبات صفه النزول لله تعالى نزولا حقيقيا يليق به جل وعلا من غير تشبيه ولا تعطيل .

فمـن "فهم من هذا الحديث وأمثاله ما يجب تنزيه الله عنه ، كتمثيله بصفات المخلوقين ، ووصفه بالنقص المنافي لكمالـه الذي يستحقه فقد أخطأ في ذلك ، وإن أظهر ذلك منع منه ، وإن زعم أن الحديث يدل على ذلك ويقتضيه فقد أخطأ أيضـا فـي ذلـك ، فإن وصفه سبحانه وتعالى في هذا الحديث بالنزول هو كوصفه بسائر الصفات كوصفه بالاستواء إلى السماء وهي دخان ، ووصفه بأنه خلق السموات والأرض في سته أيام ثم استوى على العرش ، ووصفه بالاتيان والمجيء ... وأمـثال ذلـك من الافعال التى وصف الله تعالى بها نفسه ، وكذلك وصف نفسه بالعلم والقوه والرحمه ونحو ذلك ... ومذهب سلف الأمه وأئمتها أنهم يصفونه بما وصف به نفسه ، ووصفه به رسوله–صلى الله عليه وسلم– في النفى والاثبات ، والله تعـالى قد نفى عن نفسه مماثله المخلوقين فقال تعالى بعد أعوذ بالله من الشيطان الرجيم : بسم الله الرحمن الرحيم (قل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد)[٢] فبين أنه لم يكن أحد كفوًا له وقال تعالى (هل تعلم له سميا)[٣] ... ففيما أخبر به عن نفسه من تنزيهه عن الكفء والسمى ، والمثل ، والند ، وضرب الأمثال له ، بيان أن لا مـثل له فـي صفاته ولا أفعاله ، فإن التماثل في الصفات والأفعال يتضمن التماثل في الذات ، فإن الذاتين المختلفين يمتنع تمـاثل صفاتهما وأفعالهما ، إذ تماثل الصفات والأفعال يستلزم تماثل الذوات فإن الصفة تابعة للموصوف بها والفعل أيضا تابع للفاعل "[٤] .

وعـلى ذلك لايجوز أن يفهم من الحديث أن نزوله تعالى مثل نزول غيره من المخلوقين ، كما أن الإتفاق على أن علمه ليس كعلم غيره ، ولا حياته كحياة غيره ، ولا استواؤه مثل استواء غيره فالله تعالى موصوف بصفات الكمال الذي لا نقـص فيـه منزه عن صفات النقص مطلقا ومنزه أيضا عن أن يماثله مخلوق في صفات الكمال ، لأن القول في الصفات كـالقول في الذات ، والله تعالى ليس كمثله شيء لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله ، فإن سأل سائل : كيف ينزل أو كيـف اسـتوى أو كيف يتكلم ؟ فيقال له : كيف هو في نفسه ؟ فإذا قال : أنا لا أعلم كيفية ذاته ، فيقال له : ونحن لا نعلم

---

(١) انظـر في ذلك : ابن فورك في " مشكل الحديث " (ص ٧٦ – ٧٨) ، والجويني في " الإرشاد " (ص ١٦١) والغزالي في " الإقتصاد في الإعتقاد " (ص ٥٣) ، والرازي في " أساس التقديس " (ص ١٤٣ – ١٤٦) ، والأربحي في " المواقف " (ص ٢٧٢ – ٢٧٣) ، وابن المرتضى المعتزلي في " القلائد في تصحيح العقائد " (ص٨٤) ، وابن حجر في " الفتح (٣/٣٠ – ٣١) .

(٢) سورة الإخلاص كلها .

(٣) سورة مريم – عليها السلام – ، بعض الآية (٦٥) .

(٤) ابن تيمية : شرح حديث النزول (ص ٥ – ٧) .

كيفية صفاته فإن العلم بكيفية الصفة يتبع العلم بكيفية االموصوف[١] .

قال الإمام أحمد : " وينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا كيف شاء (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير)[٢] "[٣] .

وقـــال الإمـــام الترمذي : " وقد قال غير واحد من أهل العلم في هذا الحديث[٤] وما يشبهه هذا من الروايات من الصـــفات ونزول الرب تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا ، قالوا قد ثبتت الروايات في هذا ويؤمن بها ولا يتوهم ولا يقال كيف ، هكذا روي عن مالك ، وسفيان بن عيينة ، وعبد الله بن مبارك أنهم قالوا في هذه الأحاديث أمروها بلا كيف ، وهكذا قول أهل العلم من أهل السنة والجماعة ، وأما الجهمية فأنكرت هذه الروايات وقالوا : هذا تشبيه "[٥] .

وقـــال أبـــو محمد المزني[٦] : " حديث النزول قد صح والإيمان به واجب ولكن ينبغي أن يعرف أنه كما لا كيف لذاته لا كيف لصفاته "[٧] .

وقـــال أبو عمر الطلمنكي : " أجمعوا على أن الله يأتي يوم القيامة والملائكة صفا صفا لحساب الأمم ، وعرضها كمـــا يشاء وكيف شاء ، وأجمعوا على أن الله ينزل كل ليلة إلى سماء الدنيا على ما أتت به الآثار كيف يشاء لا يحدون في ذلك شيئا "[٨] ومثله قال ابن عبدالبر في التمهيد حيث قال : " والذي عليه جمهور أئمة أهل السنة أنهم يقولون : ينزل ربنا كمـــا قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ويصدقون بهذا الحديث ولا يكيفون والقول في كيفية النزول كالقول في كيفية الاســـتواء والمجيء والحجة في ذلك واحدة "[٩] وقال أيضا : " وقول رسول الله -صلى الله عليه وسلم- : " ينزل ربنا إلى السماء الدنيا " عندهم مثل قول الله عز وجل (فلما تجلى ربه للجبل)[١٠] ومثله قوله : (وجاء ربك والملك صفا صفا)[١١] كلهم يقول : ينزل ويتجلى ويجيء بلا كيف ، لا يقولون : كيف يجيء ؟ وكيف يتجلى ؟ وكيف ينزل ، لأنه ليس كشيء من خـــلقه ، وتعالى عن الأشياء ، ولا شريك له وفي قول الله عز وجل (فلما تجلى ربه للجبل)[١٢] دلالة واضحة أنه لم يكن قبل ذلك متجليا للجبل ، وفي ذلك ما يفسر معنى حديث التنزيل "[١٣].

---

(١) انظر السابق نفسه (ص ١١) ، التدمرية (ص٤٤،٤٣) .
(٢) سورة الشورى الآية (١١) .
(٣) كتاب السنة للإمام احمد " ضمن مجموعة رسائل جمعها محمد حامد الفقي بعنوان : شذرات البلاتين " (٤٩/١) .
(٤) يعني حديث أبي هريرة مرفوعا : " ما تصدق أحد بصدقة من طيب ، ولا يقبل الله إلا الطيب إلا أخذها الرحمن بيمينه ... " الحديث ، وهو عند البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن ماجة واحمد .
(٥) سنن الترمذي (٤١/٣ -٤٢) .
(٦) هـــو احمد بن عبدالله بن محمد المزني المغفلي الهروي إمام عالم حافظ يقال له الشيخ الجليل (ت ٣٥٦) . انظر سير أعلام النبلاء (١٨١/١٦ – ١٨٤) وطبقات الشافعية للسبكي (١٧/٣) ، شذرات الذهب (١٨/٣) .
(٧) ذكره عنه السمعاني في الأنساب (٢٢٨/١٢) .
(٨) ذكرها عنه شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوي (٥٧٧/٥ – ٥٧٨) وذكرتها هنا مع شيء من الإختصار .
(٩) التمهيد (١٤٣/٧) .
(١٠) سورة الأعراف بعض الآية (١٤٣) .
(١١) سورة الفجر الآية (٢٢) .
(١٢) سورة الأعراف الآية (١٤٣) .
(١٣) التمهيد (١٥٣/٧) .

٣- صفتا الاتيان والمجئ:

مـــن عقيـــدة أهل السنة والجماعة أن الله سبحانه يجيء ويأتي وينزل ويدنو وهو تعالى فوق عرشه بائن من خلقه وأن مجيئه وإتيانه ودنوه -جل وعلا- صفات فعلية له ثابتة بالأدلة الصحيحة على ما يليق بجلاله وعظمته وكبريائه ، لا تشبه صفات المخلوقين ، ولا تشبهها صفات المخلوقين[١] (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير)[٢] .

أما الأدلة التى استدل بها أهل السنة والجماعة على هاتين الصفتين العظيمتين فالكتاب والسنة والإجماع .

وآيـــات الكتاب العزيز التى تدل دلالة واضحة على الإتيان والمجيء قوله تعالى : (هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل مـــن الغمام والملائكة وقضي الأمر وإلى الله ترجع الأمور)[٣] وقوله تعالى : (هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتى ربك ، أو يأتى بعض آيات ربك ...) الآية[٤] ، وقوله تعالى : (وجاء ربك والملك صفاصفا)[٥]، - والدليل من السنة :

١- حديث أبى هريرة مرفوعا : " ... وإن تقرب إلي ذراعا ، تقربت إليه باعا ، وإن أتانى يمشى ، أتيته هرولة " [٦] .

٢- حديث أبى سعيد الخدرى ، وفيه : " ... قال : فيأتيهم الجبار في صورة غير صورته التى رأوه فيها أول مرة ، فيقول : أنا ربكم ... "[٧]

وأمـــا الإجماع فقد حكاه أبو الحسن الأشعرى في " رسالته إلى أهل الثغر " ، قال : " وأجمعوا على أنه (تعالى) يجيء يوم القيامة ، والملك صفاصفا ، لعرض الأمم وحسابها وعقابها وثوابها ، فيغفر لمن يشاء من المذنبين ، ويعذب من يشـــاء "[٨] ورغـــم وضوح وصراحة الأدلة التى استدل بها أهل السنة فإن السيوطى قد جرى على مذهب المؤولة ، وأوّل صـــفة الاتيان بأن الله تعالى يخلق فعلا يسمى إتيانا ، فقد ذكر قول الله تعالى: (هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمـــام ...) الآية[٩] ثم قال : " ويأتى : يفعل فعلا يسميه إتيانا "[١٠] وفسره في " الجلالين " بإتيان أمره فقال : " ما ينتظر التاركون الدخول فيه (يعنى السلم) إلا أن يأتيهم الله) أي أمره "[١١] وكذلك في آية الأنعام قال : " (أو يأتى ربك)[١]

---

(١) انظر : العقيدة الواسطية مع شرحها للعلامة محمد خليل هراس بمراجعة عبدالرزاق عفيفي ، وتصحيح الشيخ اسماعيل الأنصاري (ص ٦٢ - ٦٥) ، والشـــيخ محمـــد بن صالح بن عثيمين في " عقيدة أهل السنة والجماعة (ص ٢٣) ، الامام ابو عثمان اسماعيل الصابوني في " عقيدة السلف وأصحاب الحديث " (ص ١١٢ ، ١١٨) ضمن مجموعة الرسائل المنيرية - المجلد الأول ، وابن تيمية في مجموع الفتاوي (٤٩٣/١٦ - ٤٩٥ ، ٤٠٧ ، ٤٠٩ ، ٤١٩ ، ٤٢٠ ، ٤٢٠ - ٤٢١) والعلامة السفاريني في " لوامع الأنوار البهية (٢٤٥/١) ، والبيهقي في الأسماء والصفات (ص ٤٤٨) ، وابن القيم في " مختصر الصواعق المرسلة " (٣٨٣/٢ وما بعدها) ، " ومحمد امان الجامي في الأسماء والصفات " (٢٥٨) ، وعبدالعزيز المحمد السلمان في الكواشف الجلية (ص ٢٢٧ - ٢٣٧) .

(٢) سورة الشورى الآية (١١) .

(٣) سورة البقرة الآية (٢١٠) .

(٤) سورة الانعام الآية (١٥٨) .

(٥) سورة الفجر الآية (٢٢) .

(٦) صحيح البخاري رقم (٧٤٠٥) ، وصحيح مسلم رقم (٢٦٧٥) .

(٧) أخرجه البخارى في " صحيحه " كتاب التوحيد (٩٧) باب (٢٤) ح رقم (٧٤٣٩) فتح البارى (٤٢٠/١٣، ٤٢١) . ومسلم في " صحيحه " كتاب الايمان (١) باب (٨١) ح رقم (٢٩٩-١٨٢) (١٦٣/١) .

(٨) (ص ٧٣) ت . د . محمد السيد الجليند .

(٩) سورة البقرة الآية (٢١٠) .

(١٠) تأويل الأحاديث الموهمة للتشبيه (ص ١١٧) .

(١١) تفسير الجلالين (ص ٣٨) .

)[١] أي أمــره بمعنى عذابه "[٢] وكذلك قال شيخه جلال الدين المحلى[٣] في تفسير سورة الفجر حيث أول مجيء الله تعالى بمجيء أمره[٤] ، والسيوطي سائر على منوال شيخه المحلى كما قال في بداية تفسير " الجلالين " ولو لم يكن موافقا لشيخه فــي هــذا التأويل لاعترض عليه أو على الأقل فسر آيات الإتيان بما يوافق أهل السنة ، وإنما حقيقة الأمر أن السيوطي أشــعري ، وأن التمشعر مذهبه الذي اختاره وارتضاه لنفسه ديناً ، وهو أيضاً مضطرب - كما يرى الناظر في كتبه - في تفسير الاتيان مرة بأن الله يفعل فعلاً يسميه اتياناً ، ومرة بأن الله يأتي أمره ، أو يأتي عذابه ، وكل هذا فراراً من إثبات الصفة لله جل وعلا ، المهم أن يؤول الكلام بأي تأويل كان يبعده عن إثبات الصفة لله جل جلاله .

أمــا أهل السنة فلا جدال في أنهم يثبتون صفة الإتيان لله عز وجل على ما يليق به سبحانه ، من غير تشبيه ولا تعطيل ، وهذه الآيات التي يصرفها المؤولة عن معناها الحقيقي لهي الأدلة الواضحة على إثبات صفتي الاتيان والمجيء لله جــل وعلا ، وإنه لم يؤثَر عن واحد منهم أنه فسر الآية كما فسرها السيوطي ، إلا ما ورد عن سلفه الأشاعرة الذين وافقوا في هذا مذهب الجهمية ، فقد فسر الزمخشري (المعتزلي) الآية الكريمة بأن الله تعالى يأتي بعذاب في الغمام الذي ينتظر منه الرحمة ، فيكون مجيء العذاب من حيث تنتظر الرحمة أفظع وأهول .

وكمــا قلت : إن أئمة أهل السنة ، والمفسرين الذين ينهجون منهج السلف ، ويفسرون القرآن تفسيراً لغوياً وأثرياً فإنهم يطبقون على تفسير الآيات بإثبات صفتي الاتيان والمجيء .

قــال ابن جرير : " اختلف في صفة إتيان الرب تبارك وتعالى الذي ذكره في قوله : (هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله ...) فقــال بعضــهم : لا صفة لذلك غير الذي وصف به نفسه عز وجل من المجيء والاتيان والنزول ، وغير جائز تكلف القول في ذلك لأحد إلا بخبر من الله جل جلاله ، أو من رسول مرسل ، فأما القول في صفات الله وأسمائه ، فغيــر جائز لأحد من جهة الإستخراج إلا بما ذكرنا "[٥] وذكر أقوالاً أخرى ثم رجح القول الأول . ثم قال : " فمعنى الكلام إذاً : هــل ينظرون التاركون الدخول في السلم كافة ، والمتبعون خطوات الشيطان إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام فيقضى من أمرهم ما هو قاض[٦] "[٧] .

---

(١) سورة الأنعام الآية (١٥٨) .

(٢) تفسير الجلالين (١٧٦) .

(٣) سبقت ترجمته في فصل شيوخ السيوطي .

(٤) انظر : تفسير الجلالين من سورة غافر إلى سورة الناس بتعليق فضيلة الشيخ عبدالرزاق عفيفي (ص ٢٨٠ ، ٢٨١) وقد بين الشيخ عبدالرزاق عفيفــي كــثيراً مــن الــتأويلات المــأخوذة عــن الجهميــة الــتي دونها صاحب الجلالين انظر مثلاً : سورة الشورى الآية (٤٨) وقد فسر الرحمة : بالنعمة ، وسورة الزخرف الآية (٢) قال : (أنزلناه) أي أوجدناه ، وهو مبني على القول بخلق القرآن ، وسورة الجاثية الآية (٣٠ فســر الــرحمة بالجنة فراراً من اثبات الصفة ، وسورة الفتح الآية (١٠) فسر اليد بالاطلاع والمجازاة فراراً من اثبات صفة اليد وهو تجهم واضح ، سورة الحجرات الآية (٩) فر من اثبات صفة المحبة ، وسورة المجادلة الآية (١) فسر السمع والبصر بالعلم ، وسورة الصف الآية (٤) فسر صفة المحبة بالنصر والكرم وهو تجهم واضح أيضاً ، وسورة الملك الآية (١) فسر اليد بالتصرف وهي كالتي قبلها وكذلك الآية (١٦) فيها نفي لعلو الله تعالى - وغيرها .

(٥) جامع البيان (٣٢٩/٢) .

(٦) هكذا النص عند ابن جرير - رحمه الله - .

(٧) نفسه (٣٣٠/٢) .

وفي تفسير قوله تعالى : (هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي ربك أو يأتي بعض آيات ربك ...)[١] الآية يقـول الإمام الطبري : " يقول جل ثناؤه : هل ينتظر هؤلاء العادلون بربهم الأوثان والأصنام ، إلا أن تأتيهم الملائكة بـالموت ، فتقبض أرواحهم أو أن يأتيهم ربك يا محمد بين خلقه في موقف القيامة ، أو يأتي بعض آيات ربك... قال أهل التأويل : طلوع الشمس من مغربها "[٢] .

وذكـر صاحب كتاب " الصفات الالهية " أن المفسرين يطبقون على تفسير الاية[٣] بما فسرها به الامام ابن جرير الطبرى ، كما ذكر أنه تتبع أقوال المفسرين عند غير الطبرى فوجد أنها لاتكاد تختلف عنه في شيء[٤] .

ثـم قال : " وقد نقل الإمام الشوكاني في تفسيره[٥] ... تفاسير كبار المفسرين في معنى مجيء الملائكة ، ومجيء الله تعالى ، ومجيء بعض آياته دون أدنى اختلاف إلا ما كان في العبارة والأسلوب لأنهم جميعاً يستقون من معين واحد ، وهـو (الوحـي) الـذي يستوحون منه مراد الله من كلامه سبحانه ، ثم يستوضحون ما أشكل عليهم من سنة نبيهم ، فلا يقولون على الله بغير علم "[٦] .

قال الشيخ محمد خليل هراس بعد أن ذكر الآيات السابقة :

قـال : " فـي هذه الآيات إثبات صفتين من صفات الفعل ، وهما صفتا الاتيان والمجيء والذى عليه أهل السنة والجماعة الايمان بذلك على حقيقته ، والابتعاد عن التأويل الذى هو في الحقيقة إلحاد وتعطيل "[٧]

وبهذا يتضح صحة مذهب أهل السنة والجماعة المتبعين منهج السلف الصالح في اثبات جميع ما وصف الله تعالى بـه نفسه ، ووصفه به رسوله – صلى الله عليه وسلم – في سنته الصحيحة ، ويتضح أيضاً بطلان مذهب الخلفية المؤولة ويظهر خطأ السيوطي في ما ذهب إليه من تأويل الإتيان كما سبق .

٤- صفة الرضى :

هي صفة فعلية لله جل وعلا يثبتها أهل السنة والجماعة لثبوتها بالكتاب والسنة الصحيحة .

١ – قال الله تعالى : (رضي الله عنهم ورضوا عنه)[٨] .

٢ – وقال تعالى : (لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة ...)[٩] .

٣ – وفي دعاء النبي –صلى الله عليه وسلم– من حديث عائشة " ... اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك ... "[١٠]

---

(١) سورة الأنعام الآية (١٥٨) .
(٢) جامع البيان (٩٦/٨) .
(٣) آية سورة الانعام رقم (١٥٨).
(٤) الصفات الإلهية في الكتاب والسنة (ص٢٥٩) .
(٥) انظر : فتح القدير (١٨١/٢ ، ١٨٢) .
(٦) الصفات الإلهية (ص ٢٥٩ – ٢٦٠) .
(٧) شرح العقيدة الواسطية (ص١١٢) .
(٨) سورة المائدة الآية (١١٩) ، وسورة البينة الآية (٨) .
(٩) سورة الفتح الآية (١٨) .
(١٠) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الصلاة (٤) باب (٤٢) ح رقم (٢٢٢ – ٤٨٦) (٣٥٢/١) ، وأبو داود – كتاب الصلاة (١٤٨) والوتر (٥) .

٤ - وقوله -صلى الله عليه وسلم- : " إن الله يرضى لكم ثلاثاً ويكره ثلاثاً... "الحديث[١] .

وحكى الإجماع على إثبات هذه الصفة صاحب كتاب " الصفات الالهية " فقال : " وهي ثابتة بالكتاب والسنة وإجماع العلماء الذين يعتد بإجماعهم من الأئمة الأربعة وغيرهم ممن هم في طبقتهم أو بعدهم من الذين ينهجون منهج السلف الصالح ، بل هذه الصفة هي مطلب كل عابد وغاية كل سالك "[٢] .

لكن السيوطي فسر الرضى بإرادة الرحمة وهو تأويل على طريقة الأشعرية بناءً على نفي قيام الأفعال الإختيارية بالله تعالى قال السيوطي : " يرضى : يريد الرحمة "[٣] .

وهذا التأويل خطأ مخالف للنصوص الشرعية من القرآن والسنة واجماع العلماء الذي نقلته قبل قليل ، وليس عليه دليل " لا من الأدلة العقلية ، ولا من الأدلة النقلية ، بل لا تؤيدهم حتى الفطرة السليمة "[٤] .

وهؤلاء المؤولة الذين وافقهم السيوطي لجأوا إلى تأويل صفة الرضى بدعوى أن الرضى انفعال نفسي وتغير من حال إلى حال وهذا لا يليق بالله تعالى - زعموا -[٥] .

وخلاصة الجواب على هذه الشبهة التي يتشدق بها وبأمثالها علماء الكلام في مثل هذه الصفات أن يقال : لا يلزم عقلاً اثبات لوازم صفة المخلوق ، لصفة الخالق جل وعلا ، إذ هذه صفة مخلوق ، وتلك صفة الخالق تعالى ولا مناسبة بينهما البتة .

فرضى المخلوق يليق به ، كما أن رضى الخالق يليق بكماله وجلاله عز وجل ، فكما أن ذاته لا تشبه ذوات المخلوقين ، فكذلك رضاه لا يشبه رضى المخلوقين[٦] (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير)[٧]

قال أبو اسماعيل الصابوني : " وكذلك يقولون (يعني إثبات الصفات وعدم تأويلها) في جميع الصفات التي نزل بذكرها القرآن ووردت بها الأخبار الصحاح من السمع ، والبصر ، والعين .. والرضى ، والسخط والحياة ... "[٨] وقد أثبت هذة الصفة أيضا ابن تيمية في الواسطية [٩] بإيراد الآيات التى ورد فيها صفة الرضى ، وقال الشارح : " تضمنت هذة الآيات اثبات بعض صفات الفعل من الرضى لله والغضب ... وهي عند أهل الحق صفات حقيقية لله عزوجل على ما يليق به ، ولا تشبة ما يتصف به المخلوق من ذلك ، ولا يلزم منها ما يلزم في المخلوق ، فلا حجة للأشاعرة والمعتزلة على نفيها ، ولكنهم ظنوا أن اتصاف الله عزوجل بها يلزمه أن تكون هذه

---

(١) أخرجه مسلم في " صحيحه " كتاب الأقضية (٣٠) باب (٥) ح رقم (١٠ - ١٧١٥) (١٣٤٠/٣) ، ومالك في " الموطأ " - الكلام (٢٠) .
(٢) د . محمد أمان بن علي الجامي : الصفات الالهية في الكتاب والسنة (ص٢٨٩-٢٩٠) .
(٣) " تأويل الأحاديث الموهمة للتشبيه " (ص ١٢١) .
(٤) الصفات الالهية في الكتاب والسنة (ص ٢٨١) .
(٥) انظر المصدر السابق (ص ٢٩١) .
(٦) انظر : ابن أبي العز : شرح العقيدة الطحاوية (ص ٥٢٥) ، د . محمد أمان بن علي الجامي : الصفات الالهية في الكتاب والسنة ص (٢٩١) وفي معناه ابن القيم : مختصر الصواعق المرسلة (٣٨٥/٢) .
(٧) سورة الشورى الآية (١١) .
(٨) عقيدة السلف أصحاب الحديث (ص ١٠٧) ضمن مجموع الرسائل المنيرية المجلد الاول .
(٩) انظر : الكواشف الجلية (ص٢١٠) ، والتدمرية (ص٣٢،٣١) ، والتحفة المهدية (ص٧٩-٨١) .

الصـفات فيـه على نحوما هي في المخلوق ، وهذا الظن الذي ظنوه في ربهم أرداهم فأوقعهم في حمأة النفى والتعطيل ، والأشـاعرة يرجعون هذه الصفات كلها إلى الإرادة ... فالرضى عندهم إرادة الثواب والغضب والسخط الخ إرادة العقاب ، وأما المعتزلة فيرجعونها إلى نفس الثواب والعقاب"(١) قال الطحاوي : " والله يغضب ويرضى لا كأحد من الورى "(٢) .

وقـال الشـارح : " ومذهب السلف وسائر الأئمة إثبات صفة الغضب والرضى ، والعداوة ... ومنع التأويل الذي يصرفها عن حقائقها اللائقة بالله تعالى كما يقولون مثل ذلك في السمع والبصر والكلام ، وسائر الصفات "(٣) .

وقال أيضاً : " ويقال لمن تأول الغضب والرضى بإرادة الإحسان : لم تأولت ذلك ؟ فلا بد أن يقول : إن الغضب غليان دم القلب ، والرضى الميـل والشهوة ، وذلك لا يليق بالله تعالى ! فيقال له : غليان دم القلب في الآدمي أمر ينشأ عن صفة الغضب ، لا أنه هو الغضـب ، ويقال له أيضاً : وكذلك الإرادة والمشيئة فينا ، هي ميل الحي إلى الشيء ... وهو محتاج إلى ما يريده ومفتقر إليـه ، ويزداد بوجوده ، وينتقص بعدمه ، فالمعنى الذي صرفت إليه اللفظ كالمعنى الذي صرفته عنه سواء ، فإن جـاز هذا جاز ذاك ، وإن امتنع هذا امتنع ذاك ، فإن قال : الإرادة التي يوصف الله بها مخالفة للإرادة التي يوصف بهـا العبد ، وإن كان كل منهما حقيقة ! قيل له : فقل : إن الغضب والرضى الذي يوصف الله به مخالف لما يوصف به العبد ، وإن كان كل منهما حقيقة ، فإذا كان ما يقوله في الإرادة يمكن أن يقال في هذه الصفات لم يتعين التأويل ، بل يجب تـركه ، لأنك تسلم من التناقض ، وتسلم أيضاً من تعطيل معنى أسماء الله تعالى وصفاته بلا موجب ، فإن صرف القرآن عـن ظاهره وحقيقته بغير موجب حرام ، ولا يكون الموجب للصرف ما دله عليه عقله ، إذ العقول مختلفة ، فكل يقول إن عقلـه دله على خلاف ما يقوله الآخر "(٤) وقال ابن عثيمين : " ونؤمن بالله تعالى يرضى ما شرعه من الأعمال والأقوال ... ونؤمن بأن الله تعالى يرضى عن الذين أمنوا وعملوا الصالحات "(٥) .

وهكذا يتبين صحة مذهب أهل السنة ، وبطلان مذهب التأويل الذي ذهب إليه السيوطي .

٥- صفة الفرح :

ذهـب السيوطي - كما هو مذهبه - إلى تأويل صفة الفرح فقال : " يفرح : يقبل يتبشبش " (٦) وهو تأويل باطل كما سيأتي ، لأن صفة الفرح لله - تعالى - صفةٌ فعلية ثابتة له - عز وجل - بالسنة الصحيحة .

قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- : " لله أفرح بتوبة عبده من أحدكم ... "(٧) الحديث .

---

(١) شرح العقيدة الواسطية : محمد خليل هراس (ص٦٠) .
(٢) شرح العقيدة الطحاوية (ص ٥٢٤) .
(٣) نفس السابق .
(٤) نفس السابق (ص ٥٢٥) .
(٥) عقيدة أهل السنة والجماعة (ص ٢٧) .
وانظر : رضا بن نعسان معطي : علاقة الإثبات والتفويض بصفات رب العالمين (ص ٥١) .
(٦) تأويل الأحاديث الموهمة للتشبيه (ص ١٢٢) .
(٧) رواه البخاري في " صحيحه " كتاب الدعوات (٨٠) باب (٤) ح رقم (٦٣٠٨) انظر الفتح (١١/١٠٢) .
ومسلم في " صحيحه " كتاب التوبة (٤٩) باب (١) ح رقم (٧ - ٢٧٤٧) (٤/٢١٠٤).

وعقيـــدة أهل السنة إثبات هذه الصفة الفعلية لله جل وعلا التي اثبتها لنفسه في القرآن أو التي أثبتها له رسوله – صلى الله عليه وسلم– في السنة ، وقد أكدت هذا المعنى مراراً فيما ذكرته من الصفات التي تعرضت لها سابقاً .

قـــال أبـــو عثمان اسماعيل الصابوني : " وكذلك يقولون في جميع الصفات (أي إثباتها لله على ما يليق بجلاله) التي نزل بذكرها القرآن ، ووردت بها الأخبار الصحاح من السمع والبصر والعين ... والفرح والضحك وغيرها "[١] .

وقد استدل ابن تيمية بهذا الحديث المتقدم على اثبات صفة الفرح لله تعالى في " الواسطية " وقال الشارح : " وفي هـــذا الحديث إثبات صفة الفرح لله عز وجل ، والكلام فيه كالكلام في غيره من الصفات أنه صفة حقيقية لله عز وجل على مـــا يليق به ، وهو من صفات الفعل التابعة لمشيئته تعالى وقدرته فيحدث له هذا المعنى المعبر عنه بالفرح ، عندما يحدث عبده التوبة والإنابة إليه ، وهو مستلزم لرضاه عن عبده التائب وقبول توبته .

وإن كان الفرح في المخلوق على أنواع ، فقد يكون فرح خفة وسرور وطرب ، وقد يكون فرح أشر وبطر ، فالله عـــز وجـــل منزه عن ذلك كله ، ففرحه لا يشبه فرح أحد من خلقه لا في ذاته ولا في أسبابه ولا في غاياته ، فسببه كمال رحمته وإحسانه التي يحب من عباده أن يتعرضوا لها ، وغايته إتمام نعمته على التائبين المنيبين .

أمـــا تفســـير الفرح يلازمه وهو الرضى ، وتفسير الرضى بإرادة الثواب ، فكل ذلك نفي وتعطيل لفرحه ورضاه ســـبحانه ، أوجبه سوء ظن هؤلاء المعطلة بربهم ، حيث توهموا أن هذه المعاني تكون فيه كما هي في المخلوق تعالى الله عن تشبيههم وتعطيلهم "[٢] .

والسيوطي قد فر من إثبات صفة الفرح وفسرها بالبشبشة ، و " البشبشة " أو البشاشة صفة فعلية أيضاً ثبتت بالســـنة الصـــحيحة ، ولكـــنه هو لايريد من ذلك إثبات صفة فعلية أخرى ، وإلا لما أول صفة الإتيان والمجيء ولا صفة الرضى قبل ذلك ، وتفسير صفة بصفة أخرى هو أيضاً من التأويل الباطل الذي لم ينتهجه السلف الصالح ، ولا أئمة أهل السنة فمن فسر صفة الفرح بالرضى ، ثم فسر الرضى بإرادة الثواب أخطأ منهج الصواب ، ولم يصب عين الحق ، وأيضاً من فسر صفة الفرح بالبشبشة فقد أبعد النجعة وإن كانت البشبشة ثابتة أيضاً بالخبر الصحيح ، فهي صفة غير صفة الفرح ، ودليـــلها حديث أبي هريرة أن النبي – صلى الله عليه وسلم – قال : " ما توطن رجل مسلم المساجد للصلاة والذكر ، إلا تبشبش الله له كما يتبشبش أهل الغائب بغائبهم إذا قدم عليهم "[٣] .

قال ابن قتيبة : " قوله : يتبشبش ، هو من البشاشة وهو يتفعل "[٤].

---

(١) عقيـــدة السلف وأصحاب الحديث (ص ١٠٧) ضمن مجموعة الرسائل المنيرية المجلد الأول ، وانظر : ابن تيمية : التدمرية (ص ١٤٤) ت محمد بن عودة السعوي .

(٢) محمد خليل هراس : شرح العقيدة الواسطية (ص ١١١ - ١١٢) .

(٣) رواه ابـــن ماجة في " سننه " واللفظ له ، صحيح ابن ماجه (٦٥٢) وأحمد في " المسند " (٨٣٣/٢) ، والطيالسي (٢٣٣٤) ، والحاكم في " المســـتدرك " (٢١٣/١) ، وقال : " على شرط الشيخين " ووافقه الذهبي والألباني في " صحيح الترغيب والترهيب " (٣٢٥) ، والشيخ مقبل بن هادي الوادعي في " الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين " (٣٢٢/٢) (رقم ١٢٦٨) ، ورواه ابن خزيمة في " صحيحه " (١٥٠٣) ، وابن قتيبة في " غريب الحديث " (١٦٠/١) وفي مسند احمد برقم (٨٥٠١) بلفظ : " لا يتوضأ أحدكم فيحسن الوضوء إلا ... " وصحح إسناده أحمد شاكر .

(٤) غريب الحديث (١٦٠/١) .

وقال أبو يعلى الفراء تعقيباً على كلام ابن قتيبة : " فحمل الخبر على ظاهره ولم يتأوله "[١] .

وقال الدارمي : " وبلغنا أن بعض أصحاب المريسي قال له : كيف تصنع بهذه الأسانيد الجياد ، التي يحتجون بها علينا في رد مذاهبنا مما لا يمكن التكذيب بها ، ... وما أشبهها ؟ قال : المريسي : لاتردوه تفتضحوا ، ولكن غالطوهم بالتأويل فتكونوا قد رددتموها بلطف ، إذ لم يمكنكم ردها بعنف كما فعل هذا المعارض سواء ، وسننقل ما روى في هذه الأبواب من الحب والبغض والسخط والكراهية وما أشبهه ... (ثم ذكر أحاديث في صفة الحب والبغض والسخط والكره والعجب والفرح ثم ذكر حديث أبي هريرة السابق في البشاشة ثم قال :) وفي هذه الأبواب روايات كثيرة أكثر مما ذكر لم نأت بها مخافة التطويل "[٢] وقد نقلت عن البغوي فيما سبق قوله : "... وكذلك كل ما جاء به الكتاب أو السنة من هذا القبيل ، من صفات الله تعالى ، كالنفس ، والوجه ... والضحك والفرح "[٣] يعني نثبتها ولا نعتدي عليها بالتأويل .

وكذا كلام ابن كثير يطابق ما قاله البغوي وقد نقلته في صفة الرضى[٤] .

وبهذا القدر يتبين الحق الذي عليه أهل السنة والجماعة ، وبطلان ما عداه من المذاهب .

٦- الغضب :

هي صفة فعلية خبرية ثابتة لله عز وجل بالكتاب والسنة الصحيحة.

١ - قال تعالى : (والخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين)[٥] .

٢ - وقال تعالى : (... ولا تطغوا فيه فيحل عليكم غضبي ومن يحلل عليه غضبي فقد هوى)[٦] .

٣ - وقال تعالى : (يا أيها الذين أمنوا لا تتولوا قوماً غضب الله عليهم ...)[٧] .

٤ - وقال -صلى الله عليه وسلم- فيما يرويه عن ربه : " إن رحمتي غلبت غضبي "[٨] .

٥ - وحديث الشفاعة الطويل وفيه : " إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ، ولن يغضب بعده مثله ... "[٩]

وبناءً على هذه الدلائل الصحيحة القاطعة يثبت أهل السنة والجماعة صفة الغضب لله تعالى ، على ما يليق بجلاله وعظمته ،لا يكيفون ولا يشبهون ولا يؤولون[١٠] .

---

(١) إبطال التأويلات (٢٤٣/١) .

(٢) رد الإمام الدارمي على بشر المريس العنيد (ص ٢٠٠) محمد حامد الفقى .

(٣) شرح السنة (١/ ١٦٨) .

(٤) انظر : ما نقلته في صفة الرضى ، وانظر كذلك : رضا بن نعسان معطى : علاقة الإثبات والتفويض بصفات رب العالمين (ص ١٥) ، وانظر ابن عثيمين : عقيدة أهل السنة والجماعة (ص ٢٨) .

(٥) سورة النور الآية (٩) .

(٦) سورة طه الآية (٨١) .

(٧) سورة الممتحنة الآية (١٣) .

(٨) متفق عليه ، وسبق تخريجه في صفة الكلام .

(٩) رواه البخاري في " صحيحة " كتاب الأنبياء (٦٠) باب (٣) ، ح رقم (٣٣٤٠) انظر الفتح (٦ / ٣٧١) .

ومسلم في " صحيحه " كتاب الايمان (١) باب (٨٤) ح رقم (٣٢٧-١٩٤) (١٨٤/١) .

(١٠) انظر: ابن تيمية التدمرية (ص ١٤٤) .

أمـا السـيوطي فقد أول صفة الغضب فقال : " يغضب : يريد العقوبة "[١] وهو تأويل باطل كما قدمت في صفة الفرح ، وكذلك في صفة الرضى ، وأشير إلى ما نقلته عن أبي عثمان اسماعيل الصابوني في صفة الفرح[٢] ، فصفة الفرح كصـفة الغضـب فـي الإثبات فكلاهما قد ثبت بالنصوص الشرعية الصحيحة فالكلام في إثباتها - أعني صفة الغضب - كالكلام في اثبات صفة الفرح ، وصفة الرضى ، قال الطحاوي في عقيدته : " والله يغضب ويرضى ، لا كأحد من الورى "[٣] وقال الشارح : " ومذهب السلف وسائر الأئمة إثبات صفة الغضب والرضى ، والعداوة ، والحب والبغض ... "[٣] وقال قـوام السـنة الأصبهاني : " قال علماؤنا : يوصف الله بالغضب ، ولا يوصف بالغيظ "[٤] فهذا معتقد السلف وأهل السنة والجماعـة عامة أما الخلف - ومنهم السيوطي - لم يحالفهم التوفيق في عدم إثبات هذه الصفة كالصفات التي تكلمت عنها قبلها . فزعموا أن المراد بالغضب : إرادة العقوبةُ ، أو إرادة الإنتقام[٥] أو العذاب[٦] .

قالوا لأن أصل الغضب غليان دم القلب عند إرادة الإنتقام ، وهو تغير وانفعال ، والتغير من حال إلى حال أمر لا يليق بالله جل جلاله[٧].

ورد هـذه الشـبهة كرد أخواتها مما ذكروه في سبب تأويلهم الصفات السابقة (الاتيان ، والمجيء ، والرضى ، والفـرح) نؤكـد مـا سبق أن ذكرناه في مواضع كثيرة أن معتقد أهل السنة والجماعة : أن لوازم صفات المخلوقين التي ذكـروها لا تلزم صفات الخالق جل وعلا ، إذ لا مناسبة ولا مشاكلة بين صفات الخالق تعالى وبين صفات المخلوق حتى تقـاس صفاته سبحانه على صفاتهم ، وهذا سوء ظن بربهم كما ذكر الشيخ الهراس ونقلته عنه قبل ذلك ، من وقوعهم في محذوريـن : محـذور تشـبيه صـفات الخـالق بصفات المخلوق ثم محذور تعطيل صفات الباري جل وعلا ، وفي كلا المحذورين قد جاءوا شيئاً إدا[٨] ، فكما أنهم أثبتوا ذات الباري دون تفكير في لوازم ذوات المخلوقين ، يلزمهم إثبات صفات ذاتية أو فعلية دون تفكير في لوازم صفات المخلوقين ، وهذا الإلزام يلحق جميع النفاة ، المعتزلة والأشاعرة[٩] وغيرهم .

٧- صفة الضحك :

وهي صفة من صفات الله عز وجل الفعلية الخبرية الثابتة بالسنة الصحيحة.

١ - في قوله - صلى الله عليه وسلم - : " يضحك الله إلى رجلين يقتل أحدهما الآخر كلاهما يدخل الجنة "[١٠] .

٢ - وفـي حديـث ابن مسعود في آخر أهل النار خروجاً منها ، وآخر أهل الجنة دخولاً فيها ، وفيه أنه قال يخاطب الله

---

(١) تأويل الأحاديث الموهمة للتشبيه (١٢٠) ، والجلالين (ص ٢٠٠) .
(٢) انظر : عقيدة السلف وأصحاب الحديث (ص ١٠٧) .
(٣) شرح العقيدة الطحاوية (ص ٥٢٤) .
(٤) الحجة في بيان المحجة (٤٥٧/٢) .
(٥) انظر : الرازي : التفسير الكبير (١١٠/٣ ، ١٩٨) .
(٦) انظر : السيوطي : تفسير الجلالين (ص ٢٠٠) .
(٧) انظر : الرازي : التفسير الكبير (١٩٨/٣) .
(٨) منكراً عظيماً .
(٩) انظر : د . محمد أمان بن علي الجامي : الصفات الإلهية في الكتاب والسنة في ضوء الإثبات والتنزيه (ص ٣٠١) .
(١٠) رواه البخاري في " صحيحه " كتاب الجهاد (٥٦) باب (٢٨) ح رقم (٢٨٢٦) ، انظر الفتح (٣٩/٦) ، والآجري في " الشريعة " رقم (٦٢٩) (١٠٥٢/٢) ، ومسلم في " صحيحه " كتاب الإمارة (٣٣) باب (٣٥) ح رقم : (١٢٨-١٨٩٠) (١٥٠٤/٣) .

تعالى : " أتسخر مني ؟ أو تضحك مني ... " الحديث[١] .

٣ - وفـــي حديث آخر لإبن مسعود - رضى الله عنه - بعدما روى الحديث ضحك ، ثم قال : ألا اتسألوني مم أضحك ؟ فقالوا : مم تضحك ؟ قال : هكذا ضحك رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقالوا : مـــم تضحـــك يـــا رســـول الله ؟ ؟ قال : " مـــن ضحـــك رب العالمـــين حـــين

قال : أتستهزيء منى وأنت رب العالمين ؟ فيقول : إني لا أستهزىء منك ، ولكنى على ما أشاء قادر "[٢] .

٤ - وفـــي حديث أبي سعيد الخدري ، وهو حديث طويل وفيه ذكر هذا الرجل الذي هو آخر أهل الجنة دخولاً فيها قال : " ... فلا يزال يدعو حتى يضحك الله منه ، فإذا ضحك منه قال له : أدخل الجنة ... "الحديث[٣] .

وبـــناءً على هذه الأدلة الصحيحة يثبت أهل السنة والجماعة صفة الضحك لله جل وعلا من غير تشبيه له بخلقه ، ومن غير تعطيل لهذه الصفة العظيمة ، بل على الوجه الأكمل اللائق بعظمته وجلاله وقدسيته .

ولكـــن السيوطي على مذهبه في تأويل هذه الصفات الخبرية قال : " يضحك : يرضى "[٤] وقد أول الرضى قبل ذلك - كما نقلته عنه - بإرادة الثواب ، وقد بينت بطلان ذلك . كما قام السيوطي بتأويل الضحك في شرحه موطأ الإمام مالك ، فقد نقل عن أبي الوليد الباجي[٥] أن الضحك هو كناية عن التلقي بالثواب والانعام وهذا نص ما نقله وما سطرت يده : " يضـــحك الله لرجـــلين ، قال الباجي : هو كناية عن التلقي بالثواب والانعام والاكرام أو المراد تضحك ملائكته وخزنة جنـــته أو حمـــلة عرشه ، وذلك أن مثل هذا غير معهود "[٦] وأياً ما كان تأويل السيوطي أو ما نقله من تأويل الباجي فإنه تـــأويل ظاهـــر الـــبطلان ، لأنه خلاف الأحاديث الشريفة الصحيحة التي نقلتها في بداية كلامي عن صفة الضحك ، وهي الدلائـــل الـــتي استدل بها أئمة أهل السنة على إثبات صفة الضحك لله عز وجل قال ابن خزيمة : " باب ذكر إثبات ضحك ربنا - عز وجل - بلا صفة تصف ضحكه جل ثناؤه ولا يشبه ضحكه بضحك المخلوقين ، وضحكهم كذلك ، بل نؤمن بأنه تعـــالى يضـــحك كما أعلم النبي - صلى الله عليه وسلم - ونسكت عن كيفية ضحكه - جل وعلا - إذ الله - عز وجل - اســـتأثر بصـــفة ضحكه لم يطلعنا على ذلك ، فنحن قائلون بما قال النبي - صلى الله عليه وسلم - مصدقون بذلك بقلوبنا

---

(١) رواه البخاري في " صحيحه " كتاب الرقاق (٨١) باب (٥١) ح رقم (٦٥٧١) انظر الفتح (١١/٤١٨ ، ٤١٩) .
ومسلم في " صحيحه " كتاب الإيمان (١) باب (٨٣) ح رقم (٣٠٨ - ١٨٦) (١/١٧٣)

(٢) رواه مسلم في "صحيحه" كتاب الايمان (١) باب (٨٣) ح رقم (٣١٠-٧٨٧) (١/١٧٤، ١٧٥) .
- وأخـــرجه الـــبخاري في " صحيحه " بلفظ آخر وفيه اثبات صفة الضحك لله جل وعلا ، في كتاب التفسير (٦٥) سورة الحشر باب (٦) ح رقم (٤٨٨٩) انظر الفتح (٨/٦٣١) .

(٣) رواه البخاري في " صحيحه " كتاب الرقاق (٨١) باب (٥٢) ح رقم (٦٥٧٣) انظر الفتح (١١/٤٤٤ ، ٤٤٥) .
وكذلك في كتاب التوحيد (٩٧) باب (٢٤) ح رقم (٧٤٣٧) انظر الفتح (١٣/٤١٩ ، ٤٢٠) .
ومسلم في " صحيحه " كتاب الإيمان (١) باب (٨١) ح رقم (٢٩٩ - ١٨٢) (١/١٦٣ ، ١٦٤) ، (١٨٣) (١/١٦٧) .

(٤) تأويل الأحاديث الموهمة للتشبيه (١١٨) .

(٥) هو : سليمان بن خلف بن سعد التجيبي القرطبي ، أبو الوليد الباجي ، فقيه مالكي كبير ، ومولده في باجه بالأندلس عام (٤٠٣ = ١٠١٢م) ، توفـــي بالمرية عام (٤٧٤هـــ = ١٠٨١م) . أنظر : الديباج المذهب / ١٢٠ ، والوفيات (١/٢١٥) والفوات (١/١٧٥) ، ونفح الطيب (١/٣٦١) ، وابن الوردي (١/٣٦٠) ، والأعلام (٣/١٢٥) .

(٦) جلال الدين السيوطي : تنوير الحوالك شرح على موطأ مالك (٢/١٧) . دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان .

منصتون عما لم يبين لنا مما استأثر الله بعلمه "[١] .

وقال الإمام أحمد : " يضحك الله ، ولا نعلم كيف ذلك إلا بتصديق الرسول "[٢] وقال الآجري : " باب الإيمان بأن الله - عز وجل - يضحك " ثم قال : " اعلموا - وفقنا الله وإياكم للرشاد من القول والعمل - أن أهل الحق يصفون الله - عـز وجل - بما وصف به نفسه - عز وجل - وبما وصفه به رسوله - صلى الله عليه وسلم - وبما وصفه به الصحابة - رضي الله عنهم - وهذا مذهب العلماء ممن اتبع ولم يبتدع ولا يقال فيه : كيف ؟ بل التسليم له والإيمان به أن الله - عز وجـل - يضحك ، كذا روي عن النبي - صلى الله عليه وسلم - وعن صحابته - رضي الله عنهم - فلا ينكر هذا إلا من لا يحمد حاله عند أهل الحق "[٣] .

وقـال قوام السنة الأصبهاني : " وأنكر قوم في الصفات الضحك ، وإذا صح الحديث لم يحل لمسلم رده ، وخيف على من يرده الكفر ، قال بعض العلماء : من أنكر الضحك فقد جهل جهلاً شديداً ، والحق أن الحديث إذا صح عن النبي - صلى الله عليه وسلم - وجب الإيمان به ، ولا توصف صفته بكيفية ولكن نسلم اثباتاً له وتصديقاً به "[٤] .

وقال أبو عثمان الصابوني : " وكذلك يقولون (يعني السلف وأهل الحديث) في جميع الصفات (يعني بالإثبات) الـتي نـزل بذكـرها القرآن ووردت بها الأخبار الصحاح من السمع والبصر والعين ... والضحك وغيرها من غير تشبيه لشيء من ذلك بصفات المربوبين المخلوقين "[٥] .

٨- صفة الهرولة :

وهي أيضاً كسابقتها صفة فعلية خبرية - ثابتة - لله عز وجل بالحديث الصحيح .

قال - صلى الله عليه وسلم - فيما يرويه عن ربه : " أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه إذا ذكرني ، فإن ذكرني في نفسـه ذكرته في نفسي ، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم ، وإن تقرب إلي شبراً تقربت منه ذراعاً ، وإن تقرب إلي ذراعاً تقربت إليه باعاً ، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة "[٦] .

ولثبوت الدليل وصحته يثبت أهل السنة والجماعة صفة الهرولة لله جل وعلا على ما يليق بكماله وجلاله وعظمته من غير تشبيه كما هو حالهم ومعتقدهم في جميع الصفات الإلهية الفعلية .

ولكن السيوطى خالف أهل السنة أيضاً في هذه الصفة وأولها فقد قال : "يمشى هرولة : يرحم أولياءه رحمة ناجزة سريعة "[٧] والحديث ليس فيه (يمشي هرولة) إنما فيه (أتيته هرولة) .

---

(١) التوحيد وإثبات صفات الرب عز وجل (٥٦٣/٢) .
(٢) أبو يعلى الفراء : ابطال التأويلات (٢١٧/١) ، ومختصرها (ص / ١٣) .
(٣) الشريعة (١٠٥١/٢) .
(٤) الحجة في بيان المحجة - مع شيء من الإختصار - (٤٥٧/٢ - ٤٥٨) .
(٥) عقيدة السلف وأصحاب الحديث (ص ١٠٧) ضمن مجموعة الرسائل المنيرية - المجلد الأول .
(٦) رواه البخارى في "صحيحه " كتاب التوحيد (٩٧) باب (١٥) ، ح رقم (٧٤٠٥) انظر الفتح (٣٨٤/١٣) ، وفي نفس الكتاب باب (٥٠) انظر الفتح (٥١١/١٣ ، ٥١٢) .
ورواه مسلم في "صحيحه" كتاب الذكر والدعاء (٤٨) باب (١) ح رقم (٢-٢٦٧٥) (٢٠٦١/٤) .
(٧) تأويل الأحاديث الموهمة للتشبيه (ص ١١٦) .

ومعـــلوم أن الله تعـــالى يـــرحم أولياءه ويثيبهم على مبادرتهم إلى طاعة ربهم ، ولكن ليس هذا هو معنى الهرولة الـــواردة في الحديث وإنما هذا لازمها ومقتضاها ، كما سبق أن ذكرت في الصفات السابقة من أن الرضى لازم الضحك ، وأن الثواب هو لازم الرضى وليس الضحك هو الرضى ، ولا الرضى هو إرادة الثواب ، فكذلك هنا .

قـــال علماء الحديث : الهرولة هي : المشي السريع[1] ، أو هي ضرب من المشي السريع دون العدو[2] ، أي بين المشي والعدو[3] .

فـــأهل السنة يثبتون هذه الصفة لله تعالى بهذا المعنى على ما يليق بالله جلا وعلا بدون تشبيه له بأحد من الخلق ، وبدون إعتقاد ان هذه الهرولة تشبه هرولة المخلوقين .

وقد ورد في الفتوى رقم (٦٩٣٢) من فتاوي اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء بالمملكة العربية السعودية . ما يلي :

" س : هل لله صفة الهرولة ؟

الحمدلله وحده والصلاة والسلام على رسوله وآله وصحبه ... وبعد :

ج : نعم ، صفة الهرولة على نحو ما جاء في الحديث القدسي الشريف على ما يليق به ، قال تعالى : " إذا تقرب إلي العبد شبراً ، تقربت إليه ذراعاً ، وإذا تقرب إلي ذراعاً تقربت منه باعاً ، وإذا أتاني يمشي ، أتيته هرولة " رواه البخاري ومسلم ، وبالله التوفيق ، وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم "[4] .

وقـــال الشـــيخ محمـــد بن عثيمين[5] : " صفة الهرولة ثابتة لله تعالى ، كما في الحديث الصحيح الذي رواه الـــبخاري ومســـلم عـــن أبي هريرة عن النبي – صلى الله عليه وسلم – (وذكر الحديث ثم قال) وهذه الهرولة صفة من صـــفات أفعاله التي يجب علينا الإيمان بها من غير تكييف ولا تمثيل ، لأنه أخبر بها عن نفسه ، وهو أعلم بنفسه ، فوجب علينا قبولها بدون تكييف ، لأن التكييف قول على الله بغير علم ، وهو حرام ، وبدون تمثيل ، لأن الله يقول : (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير)[6] "[7] .

---

(١) انظر : ابراهيم بن اسحاق الحربى : عزيب الحديث (ص٦٨٤/٢) ت . د . سليمان العايد ط١/٥... دار المدني – جدة .

(٢) انظر : الحافظ ابن حجر : فتح الباري (٥١٣/١٣) .

(٣) إنظر : أبو موسى المديني :المجموع المغيث في غريبي القرآن والحديث (٩٦/٣) ت عبدالكريم العزباوي ط١٤٠٨/١هـ .

قـــال الإمام النووى : " هذا الحديث من أحاديث الصفات ويستحيل إرادة ظاهره ، وقد سبق الكلام في أحاديث الصفات مرات ومعناه من تقريب إلي بطاعـــتي تقـــرب إليـــه برحمتي والتوفيق والإعانة ، وإن زاد زدت ، فإن أتاني يمشي وأسرع في طاعتي أتيته هرولة أي صببت عليه الرحمة وسبقته بها ،ولم أحوجه إلى المشي الكثير في الوصول إلى المقصود ، والمراد أن جزاءه يكون تضعيفه على حسب تقربه " صحيح مسلم بشرح النووى (٣/١٧) . وكلام ابن حجر مثله في الفتح (٥١٣/١٣) ، وهو تأويل أشعري ظاهر .

(٤) فتاوي اللجنة الدائمة (١٤٢/٣) .

(٥) عضو هيئة كبار العلماء بالمملكة العربية السعودية .

(٦) سورة الشورى الآية (١١) .

(٧) الجواب المختار لهداية المحتار (ص ٢٤) .